حقائق ورقائق
(٥)

سلام للعالمين

رواية حول حول قضايا الصراع والسلام وعلاقتها بالإسلام

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

تتنــاول هــذه الروايــة أعقــد مشــكلة في الواقــع بكــل جوانبــه النفســية والاجتماعيــة والسياسية والاقتصادية وغيرها.. وهي مشكلة الصراع الذي تنفخ فيـه جميـع شـياطين الإنس والجن، ليعيش الإنسان محجوبا عن ربــه، وعن عوالم الجمال التي خلقها له ربه.

وهي - كما تصف الواقع بمرارتــه وآلامــه - تحاول أن تضع بين يدي القـارئ أنـوار السـلام الجميل التي أنقـذ اللـه بهـا عبـاده عـبر رسـله الكرام، وأولياءه العظام.

فهي تصــف – بحيادية تامة- واقع الصــراع بآلامه وهمومه وأحزانه.. كما تصف واقع السلام بكل آماله وأفراحه وسعادته.

والســلام الــذي تصــفه هــذه الروايــة هــو المنطلق من الدين الإلهي الحقيقي.. لا الدين البشـري المزيـف الـذي تفننت الشـياطين في صناعته، وحاولت أن تخلطه بدين الله.

حقائق ورقائق

(5)

سلام للعالمين

رواية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثالثة

1437-2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

فهرس المحتويات

المقدمة 5
البداية 8
أولا ـ الأنا 24
الصراع 25
الرهبانية: 25
الحيوانية: 30
الغرائزية: 37
الشيطانية: 52
الأسطورية: 56
السلوكية: 59
الربوبية: 65
السلام 72
الجسد: 79
الروح: 86
النفس: 93
العقل: 101
القلب: 105
الخلافة: 107
العبودية: 111
الثاني ـ القلب 114
الصراع 115
السلام 144
الصحة: 149
العقل: 153
الفرح: 157
الحضور : 169
الحقيقة: 170
الاستقامة: 174
الحياة: 176
ثالثا ـ العقل 181
الصراع 182

السفسطة: 182
الحوارية: 184
الاستذكارية: 186
الصورية: 190
الإشراقية: 195
الثالوثية: 198
المدرسية: 200
التجريبية: 203
الرياضية: 205
العقلانية المادية: 211
الحسية التجريبية: 214
المثالية الفلسفية: 219
الشكوكية التجريبية: 222
النسبية الذاتية: 225
الجدلية المثالية: 229
الجدلية المادية: 234
السلام 235
المدارك الحسية: 242
قوة الحس: 242
ضعف الحس: 246
القوانين المنطقية: 250
التجارب الميدانية: 271
الخواطر النفسانية: 275
الخبرات البشرية: 279
الفيوضات الربانية: 280
الإشراقات الروحية: 283
رابعا ـ النفس 292
الصراع 294
السلام 315
الهدي الإلهي: 320
الهدي النبوي: 324
الصراط المستقيم: 328
العقل: 333
الطب: 342

السياسة: 348
التربية: 350
خامسا ـ الأسرة 358
الصراع 359
السلام 378
سادسا ـ المجتمع 401
الصراع 402
العنصرية: 402
الجريمة: 407
الانحلال: 410
العنف: 412
السلام 413
التآلف: 416
التكافل: 422
التناصر: 426
التناصح: 428
سابعا ـ الدولة 432
الصراع 432
الثيوقراطية: 432
الميكافيللية: 438
العلمانية: 442
الديمقراطية: 447
الفاشية: 453
السلام 455
الدستور: 457
الخليفة: 461
الرعية: 464
التنظيمات: 465
ثامنا ـ العالم 467
الصراع 468
الحروب: 471
الاستعلاء: 472
الاستعباد: 479
الاستعمار: 491

الإبادة: 497
الإرهاب: 522
العولمة: 537
السلام 548
التعارف: 557
التدافع: 558
التعايش: 565
الشهادة: 565
تاسعا ـ الكون 574
الصراع 575
السلام 605
عاشرا ـ الله 627
الصراع 627
الخرافة: 627
التحريف: 635
الضلال: 643
الإلحاد: 648
السلام 651
الواحد: 653
العلي: 653
الأول، والآخر، والظاهر، والباطن: 654
الخالق، البارئ، المصور: 656
البر، الوهاب، الكريم: 658
الرحمن الرحيم: 658
الودود: 661
العفو، التواب، الغفور: 666
الحَفيظُ: 666
الجليل، الجميل: 667
العليم، الخبير، اللطيف: 667
السميع البصير: 668
الحكيم: 669
الحكم، العدل: 670
الرزاق: 671
الهداية 673

المقدمة

تتناول هذه الرواية أعقد مشكلة في الواقع بكل جوانبه النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.. وهي مشكلة الصراع الذي تنفخ فيه جميع شياطين الإنس والجن، ليعيش الإنسان محجوبا عن ربه، وعن عوالم الجمال التي خلقها له ربه.

وهي - كما تصف الواقع بمرارته وآلامه - تحاول أن تضع بين يدي القارئ أنوار السلام الجميل التي أنقذ الله بها عباده عبر رسله الكرام، وأولياءه العظام.

فهي تصف – بحيادية تامة- واقع الصراع بآلامه وهمومه وأحزانه.. كما تصف واقع السلام بكل آماله وأفراحه وسعادته.

والسلام الذي تصفه هذه الرواية هو المنطلق من الدين الإلهي الحقيقي.. لا الدين البشري المزيف الذي تفننت الشياطين في صناعته، وحاولت أن تخلطه بدين الله..

والعلامة الفارقة بين الدين الإلهي والدين البشري – كما تصفه الرواية – هو الصراع.. فحيثما يكون الصراع تكون الشياطين.. وحيثما يكون السلام والطمأنينة يكون الدين الإلهي، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: 28]

والرواية من عشرة فصول، ولكل فصل منها قصة مستقلة، يحكيها رجل من الرجال العشرة الذين ألقت عليهم القبض بعض الجماعات الإرهابية التي تمثل التزييف الذي أوقعه الشيطان في الدين الإلهي، ليصبغ مشروعه المدمر بصبغة الله.

وقد كان هؤلاء العشرة ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام الصادر بحقهم.. لكنهم في نهاية الرواية ينجون بأعجوبة.. ويكتشفون العلاقة بين الإرهابيين والشياطين التي تدير الصراع في العالم.

ويمكن تقسيم الصراع والسلام في الرواية إلى قسمين:

الأول: الصراع والسلام الداخليان، وهما اللذان ينطلقان من الأنا وجميع القوى التي تشكلها من العقل والقلب والنفس.. وهي ما يتضمنه الجزء الأول من الرواية.

الثاني: الصراع والسلام الخارجيان، وهما اللذان يشملان جميع علاقات الإنسان الخارجية ابتداء من الأسرة، وانتهاء بالله.. وهي ما يتضمنه الجزء الثاني من الرواية.

ونحب أن ننبه هنا إلى ما يلي:

1 ـ أن الشخصيات التي نعتمدها في الرواية، والـتي تمثـل طوائف مختلفة، لا تعني أننا نقبلها في كل شيء أو نرفضها في كل شيء.. وإنمـا اخترناهـا لمناسـبة بينهـا وبين مـا نطرحـه من رؤى وأفكار.. فنقبلها أو نرفضها من تلـك الناحيـة، لا من غيرهـا من النواحي.

2 ــ أن مقصـودنا بالـدين الإلهي أو المشـروع الإلهي هـو الإسـلام المحمـدي الأصـيل الـذي يمثلـه القـرآن الكـريم النـور الممتـد من السـماء إلى الأرض.. ويمثلـه رسـول اللـه ﷺ عـبر سنته الصحيحة الـتي تتوافـق مـع القيم القرآنيـة والفطريـة.. لا السنة التي عبث بهـا الوضـاعون والمتلاعبـون الـذين مـزج بهم الشيطان مشروعه بدين الله.

3 ـ أننـا في ذكرنـا للصـراع لا نـبرئ هـذه الأمـة من كونهـا عاشت الصـراع، ولا تـزال تعيشـه بسـبب الـدخن الـذي ألبسـه الشيطان بدينها الأصيل.. وبسبب بعدها عن التمسـك بالصـراط المسـتقيم الـذي أوصـى بـه رسـول اللـه ﷺ أمتـه.. ولهـذا فـإن السلام الإسلامي الذي نشيد به في الروايـة هـو سـلام الإسـلام الإلهي، لا الإسلام التاريخي أو الـتراثي الـذي امـتزج فيـه الإلهي بالشـيطاني، كمـا أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن ذلـك في نبوءاتـه الكثيرة.

4 ــ أن المقصـود في الروايـة هـو الأفكـار الـتي تحملهـا، وليس الأحداث، فالأحداث ليست سوى رمـوز تحـاول أن تصـل إلى الحقيقة بطريقة سهلة لينة رقيقة، كما هو عنوان السلسـلة [حقائق ورقائق]

البداية

في صباح ذلك اليـوم، نهضـت على أصـوات ملأتـني بـالرعب.. فقد سمعت ضجة كبيرة في الحـارة الـتي كنت أسـكن فيهـا.. ولم ألبث بعـدها حـتى سـمعت أصـوات الرصـاص ترتفـع.. ثم لم ألبث حتى سمعت أصوات سيارات الشرطة، وهي تملأ الفضـاء بصـوتها المميز.

كانت الحادثة ـ بالنسـبة لي وبالنسـبة لمن يسـكنون معي تلـك الحارة ـ بسيطة عابرة.. فلم تصـر تأخـذ منـا تلـك المسـاحة الـتي كانت تأخذها في بداية عهدنا بمثلها.

لقد كانت ـ في بداية عهدنا بمثلهـا ــ تأخـذ منـا اهتمامـا كبـيرا.. تعقد له المجالس الطويلة.. أو تغلق لأجله الأبواب، وتكمم الأفـواه، ويفر كل امرئ بنفسه عن كل شيء.

هكذا بدأ تعاملنا مع مثل تلـك الحـوادث.. ولكنـا بعـد أن تعودنـا عليهـا.. وبعـد أن تعـودت أسـماعنا على تلـك الأصـوات المزعجـة، واندمجت لها، صارت لنا كأي صوت نسمعه، ولا نبالي به.

لم ألبث بعـد ذلـك حـتى سـمعت جـارا لنـا، كـان شـابا نشـيطا يـدرس في الجامعـة، وكـانت تلـك الأيـام أيـام امتحانـات، فأخـذت أسترق السمع لما يحفظ رغما عني، كما تعـودت أن أسـترق، فلم أسمع منه إلا ما تعودت أن أسمعه.. فقد كان يردد كل حين أسماء حفظها صبياننا كما حفظها شبابنا.. بل حـتى عجائزنـا سـرت إليهن العدوى، فنسين أبـا زيـد الهلالي وعنـترة بن شـداد، ورحن يرددنهـا لنا..

لقد كـان بين الحين والحين يـذكر أوجسـت كـونت، ودوركـايم، وليني بريل، وديفيد هيوم، وآدم سميث، وهويز، وهربـرت سبنسـر، وفرويـد، ومـاركس، وأنجلـز، وبـافلوف، وديـوي، وبرترانـد راسـل، وهارولد لاسكي.. وغيرهم كثير.. وكان كل اسـم من تلـك الأسـماء ينفجر في أذني كما تنفجر أعتى المتفجرات.

حمدت الله، فقـد انخفض صـوته، ثم تلاشـى بعـدها.. لكـني لم ألبث حتى سمعت من بيت جار آخر صوت فيلم بوليسي لم أسمع من كلماته غير كلمات الرصـاص والتفجـيرات وأصـوات السـيارات المزعجة.

بعدها ذهبت إلى النافذة لأطـل على الشـارع، فشـاهدت صـبية صـغارا، وهم يلعبـون لعبـة الشـرطي واللصـوص، ويسـتعملون مـا

أبدعت هذه الحضارة الشقية في صناعته من أنواع المتفجرات التي لا تكاد تفرق بينها وبين المتفرجات الحقيقية.

أغلقت النافذة.. فما لبثت حتى سمعت صوت ولدي، وهو يبكي طالبا من أمه أن تشتري له نوعا جديدا من المتفجرات امتلأت به أسواقنا.. وكان يقول لها، وهو يبكي:(لقد اشترى كل الأولاد هذه المتفجرات، ولم نبق إلا نحن)، ثم أخذ يصيح :(صدق الناس عندما يعتبروننا بدوا متخلفين.. فنحن لسنا سوى ما ذكروا)

لم أدر كيف غضبت في ذلك الحين غضبا شديدا، ورحت أصيح في الولد وأمه بهستيرية، وأنا أقسم بأغلظ الأيمان بأن لا أشتري له أي لعبة..

بكى ولدي بكاء شديدا لم يحرك في ساكنا.. لكن أمه نهضت وأشغلت التلفاز.. فما إن رأى الولد فيلما من أفلام الرسوم المتحركة المليئ هو الآخر بالقنابل والمدافع والدبابات حتى راح ينشغل بالتفرج عليها عن المتفجرات التي كان يطلبها.

هكذا بدأ ذلك اليوم الذي سمعت فيه قصة ذلك الشيخ الممتلئ بالسلام، وهو يحكي رحلته إلى رسول الله ﷺ.. والتي سأرويها لكم..

ومع أن المشهد لم يكن يختلف كثيرا عن سائر الأيام.. لكني في ذلك اليوم خصوصا امتلأت بالألم.

لقد رأيت الصراع في صورة شيطان قد استوى على عرش البشرية، فراح يملي عليها من ألوان الصراع ما لم يعرفه البشر في تاريخهم جميعا.

لكني فجأة.. شعرت بروحانية عميقة، وأنا أسمع صوت الشيخ الصالح في زحمة تلك الأصوات جميعا، وهو يردد بخشوع قوله تعالى: سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (يّس:58).. ثم يكررها مرات كثيرة.. ثم تختلط دموعه بصوته، فلا أكاد أميز صوته عن دموعه.

لست أدري كيف دب الأمل إلى نفسي، وذهب عني ذلك الإحباط الذي سببه لي ما رأيته وسمعته.

أسرعت إليه.. وقلبي يردد ما يردده من الآية الكريمة.. استأذنت عليه، فأذن لي، ودموعه لا تزال تفيض من آثار ما قرأه من القرآن الكريم.

قلت له: سيدي.. ألم تزعجك أصوات المتفجرات التي استيقظنا عليها هذا الصباح؟

قال: نعم.. انزعجت لها كثيرا.. بل كدت أشتعل من فرط

انزعاجي.. فلذلك رحت أقرأ آيات السلام لأغسل بها أدران الصراع التي أنشأتها في نفسي أصوات المتفجرات.

قلت: اعذرني ــ سيدي ــ فأنت تعلم الحال التي صار إليها قومي.. لقد استبدلوا بأصوات القرآن العذبة هذه الأصوات.. وليتهم استبدلوها بنهيق الحمير، ولم يستبدلوها بهذه الأصوات.

قال: أنا لم أنزعج لأجل الأصوات.. وإنما انزعجت من قومي..

قلت: قومك!؟.. وما علاقة قومك بهذا؟

قال: ألا ترى أن قومك لم يتخلوا عن أصوات القرآن إلى هذه الأصوات إلا بعد أن تخلوا عن التلمذة على القرآن الكريم وعلى نبيهم ﷺ، وراحوا يتتلمذون على قومي؟

قلت: أراك تلصق بقومك كل مثلبة.. فهل أنت من الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة(1)؟.. إن من يؤمن بها متخلف عندنا.

قال: ولم تعتبرونه متخلفا؟

قلت: لأنه لا دليل يدل عليها.. هي مجرد خرافات نسجها بعض الناس ليتهربوا من مسؤوليتهم..

قال: ألم تسمع ذلك الشاب.. وهو يحفظ كل ما لقنه قومنا من دروس؟

قلت: هو شاب جامعي.. وهو شاب نشيط.. وقد تعودنا على سماع هذا منه.

قال: فخيرة شبابكم يتتلمذ على أساتذة الصراع الذين خرجناهم.. ألا تعتبر ذلك الشاب خاضعا لمؤامرة؟

قلت: كيف يكون خاضعا لمؤامرة.. هو لم يفعل إلا أن راجع دروسه؟

قال: أرأيت لو أن ذلك الشاب.. وبدل أن يحفظ أسماء أساتذة الصراع حفظ أسماء أساتذة السلام.. هل سينجح في دراسته؟

قلت: هو لن ينجح حتى يعيد لأساتذته بضاعتهم التي باعوه إياها.

قال: فهو مكره إذن على أن يتعلم كل ذلك.

قلت: ليس في العلم حرج.

قال: ولكن الحرج في أن يعلم شيئا واحدا.. ثم لا يكون ذلك الشيء الواحد إلا الصراع.

قلت: على العموم.. ليس ذلك الشاب سوى فرد من أفراد

1() ننبه إلى أننا بنينا أحداث هذه الرسالة على ما يسمى بنظرية المؤامرة بأبعادها المختلفة.. ونحن ـ كما تعودنا في هذه السلسلة ـ لا نقصد الأحداث، وإنما نقصد المعاني الرمزية التي تحملها.

المجتمع.. ولا يمكن أن يتغير المجتمع بتغير فرد واحد فيه.
قال: وأولئك الصبية الذين شغلناهم بـاللهث وراء المتفجـرات.. أليسوا ضحايا مؤامراتنا؟
قلت: وما علاقتكم بذلك؟
قـال: ألسـنا الـذين صـدرنا لكم تلـك المتفجـرات.. وكـان في إمكاننا أن نصدر لكم بدلها أناشيد السلام؟
قلت: ولكن قـــومي هم الـــذين اختـــاروا أن يشـــتروا تلـــك المتفجرات.. ولو اختـاروا أن يشـتروا بـدلها ورودا لفعلـوا.. ولكنهم أبوا إلا أن يشتروا متفجرات..
قال: ومن أملى على قومك أن يشتروا ما اشتروا؟
قلت: نفوسهم.. نفوسـهم هي الـتي أملت عليهم ذلـك.. وربمـا كان لشياطينهم سبب في ذلك.. ولكن السبب الأكبر هو نفوسهم.
قال: النفـوس كالشـياه لا يتشـكل لحمهـا إلا من العلـف الـذي تعلفه.
قلت: وما علاقة العلف الذي تعلفه نفوسنا بالمؤامرة؟
قال: ألا ترى قومي كيف وضعوا قومك.. بـل البشـرية جميعـا.. في زريبة واحدة، ثم راحـوا يعلفـونهم بجميـع أنـواع السـموم كمـا علفوا البقر الذي جن؟
قلت: لم أر البشرية في زريبة.. ولم أر أي علف يقدم لها.
قال: ألم تر أولئك الراكعين السـاجدين أمـام مـا يصـدر قـومي من كل ما يسمونه تسلية؟
قلت: بلى.. ولكنها تسلية..
قـال: بـل هي العلـف الـذي علفت بـه نفـوس العـالم.. إنكم لا تجلسون لتتسلوا، وإنمـا تجلسـون لتعلفـوا كـل قيم الصـراع الـتي يصدرها قومي.. لتصبحوا حيوانات كحيوانات الغابة يفـترس القـوي منها الضعيف، ويأكل ذو الناب منها من لا ناب له.
قلت: أهذه أدلتك على نظرية المؤامرة؟
قال: أخطر المؤامرات هي التي لا يقصدها أصـحابها.. لأنهم لـو قصـدوها قـد يخطئـون في تخطيطـاتهم، فينحرفـوا عن مقصـدهم الذي قصدوه.
قلت: أتقصد أنها مؤامرة قصدوها أو لم يقصدوها؟
قال: أجل.. فلا يمكن لأحد يملأ بستانه ببذور الشـوك أن يجـني عنبا.
قلت: أقومك هم الزارعون؟

قال: عندما ركن قومك إلى الكسل استولى قومي على جميع حقول العالم، وراحوا يزرعون جميع أنواع الأشواك..

قال ذلك، ثم تنفس الصعداء، وراحت دموع غزيرة تنحدر بقوة، فقلت: هون عليك.

قال: كيف أهون علي.. وأنا أحس بمسؤوليتي عن كل هذه المتفجرات التي تملأ حياتكم ضجيجا؟

قلت: لا تقل ذلك يا ولي الله.. فأنت أرفع من أن تكون سببا.

قال: بلى.. لقد كنت في يوم من الأيام.. كما كان قومي.. سببا من الأسباب.

قلت: ما تقول؟

قال: للأسف.. لقد مدت الكنيسة يدها إلى المصارعين من أول ما ظهر المصارعون.. وراحت تشجعهم على كل ألوان الصراع.. وما تراه من قومك هو ثمار بذور كثيرة غرسها من تربوا في كنائسنا، وتعمدوا على أيدينا.

قلت: ولكن المسيح رسول السلام.. ألستم تروون كل حين قوله :(طوبى لصانعي السلام، لأنهم يدعون أبناء الله(1))(متى 5/9)؟

قال: بلى.. لقد صلبنا ذلك المسيح الذي قال تلك الكلمات.. صلبناه بكل حقد، ثم رميناه في جهنم بعد أن صببنا عليه كل ألوان اللعنات(2).

قلت: وأي مسيح بقي لكم؟

قال: مسيح لا علاقة له بكم.. إنه مسيح روماني.. يحمل كل بذور الصراع التي كانت تصدرها روما للعالم الذي تتهمه بالبربرية.

قلت: ما تقول؟.. إن ما تقوله خطير.

قال: ولكنه حقيقة.. حقيقة عشتها ورأيتها.. بل عاشتها جميع الأجيال التي تقلبت في أصلابها.

قلت: لم أفهم ما الذي تقصد.

قال: لقد رحت أبحث فينا.. في جذورنا.. فلم أجد إلا الصراع.. في البدء.. كان هناك شعبان.. الرومان واليونان.. وكان هذان الشعبان هما الهواء الذي تنفسناه، والماء الذي شربناه..

وقد شربنا مع مياه الرومان واليونان جميع أنواع الصراع.. ولبسنا جميع أثواب الصراع.

1() ذكرنا بتفصيل المعنى الصحيح لهذه العبارة على حسب الكتاب المقدس، وهو مرادفتها لمعنى (ولي الله) في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

2() انظر (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

لقد كان هذان الشعبان يوحيان إلينا كل حين أن هناك عدوا يهدد وجودنا.. فنصيح من حيث لا نشعر بإعلان الحرب بكافة صورها.. ثم نغرق البشرية بعدها في حمامات من الدماء.

ألا تعلم أن أهم أسباب الحروب الصليبية ـ كما يذكر مؤرخونا ـ هو إعادة توجيه طاقة البارونات الأوروبيين من النزاعات الدموية المحلية إلى غاية نبيلة تتمثل في استعادة الأرض المقدسة وقبر المسيح من أيدي المسلمين؟

وإمعانا من الكنيسة في تحميس الصليبين الذين وهنت دواعي النصر فيهم لكثرة ما سفكوا من دماء بعضهم البعض أصدر البابا (أوربان) صكّه للغفران، والذي عرض فيه إسقاط ذنوب وخطايا الذين يقاتلون المسلمين.. فدبَّت اليقظة في أوصال الجندي المرتبك أخلاقيا، واشتعل حماسا كأنما هو يستيقظ من سبات عميق.

وهكذا كنا دائما..

حتى نظام الفروسة الذي يفخر به قومنا لم يكن إلا مثلا من أمثلة هذا التكريس الديني للنزعات الحربية التي حاولت الكنيسة حتى ذلك الحين قمعها لأغراض مثالية ورغبات نبيلة.. فالحروب الصليبية من هذه الناحية كانت تعتبر المظهر الهجومي للفروسية، والفروسة تعتبر بذرة الحروب الصليبية كما تعتبر ربيبته.. والفارس الذي يشترك في الحروب الصليبية، إنما يشبع بذلك النزعة الحربية الكامنة فيه تحت إشراف الكنيسة وبأمرها، وينال بذلك الخلاص التام والتطهر من الذنوب وهو ما يسعى إليه بشدة.. وربما أمعن الفارس طوال يومه في القتل والتذبيح، فإذا جاء الليل ركع أمام مذبح كنيسة القيامة، يهلل من فرط فرحه آملا أن يكون ما تخضب به من الدماء إنما جرى من أجل السيد المسيح.

قلت: ولكن أوربا طلقت الكنيسة من زمان..

قال: طلقتها.. ولكنها لم تطلق الصراع.. لقد ظلت نزعة الصراع تضرب على أوتار قلوبنا كما كانت تضرب في جميع فترات تاريخنا.

لقد ظهر الفكر الشيوعي.. ظهر كارل ماركس ثم لينن وظهر معهما الصراع الطبقي وكفاح العمال والفلاحين ضد الإقطاعية.. وظهر بعدهم جميع حملة فكر الصراع.. مكسيم جوركي ومايا كوفسكي وبوشكين وغيرهم في أدبهم الذي صار ترجمانا لإملاءات الشيوعية وشعاراتها المتطرفة.

ثم جاءت الوجودية التي قامت أساسا على إثبات حـق الوجـود ورأت أن قضيتها الأولى هي الصراع الـذي بتحـدي القـوي الغيبيـة، وما لازمه من الشعور بالعبثية وفقدان الحكمة في الخلق.

وكانت مع هاتين الفلسفتين والنظـامين (الرأسـمالية) بمبادئهـا المتطرفـة، تنهش عقولنـا وحياتنـا وتملأنـا بالصـراع.. لقـد عمقت الرأسمالية فينا الأنانية.. لقد أعطت المال لطبقة رأسمالية تمسـك بزمام المال والأعمال وتسوس الفكر مـع وجـود طبقـة تعـاني من الحرمان مما زاد من معدلات الجرائم واتسـاع الهـوّة في المجتمـع الواحد..

رأيت الألم باديــا على وجهالشــيخ الصــالح، فــأردت أن أغــير الموضوع، فقلت: هون عليك.. فالله الرحمن الرحيم العدل الخبـير لا يحاسب الأمم وهي أمم، بل يحاسبها أفرادا.. فلكل فرد مـا جنت يداه، ولا يهم من أي أمة كان.

قال: صدقت.. وجزاك الله خيرا على هذه السلوى.. لقد قرأتها في قوله تعالى :﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مَنْ يَعْمَـلْ سُوءًا يُجْـزَ بِـهِ وَلَا يَجِـدْ لَـهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِـيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّـالِحَاتِ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)﴾ (النساء)

قلت: فأبشر إذن.. فأحسب أنك على خير كثير.

قال: بشرك الله بكل خير..

ثم عقب يقول: أنا لا أريد البشارة لنفسي وحـدها.. بـل أريـدها لجميع أمم الأرض، وأفرادها، فلا يمكن أن تستظل بظل السـلام إلا في ظل الإسلام.

قلت: ذكرتني بالسـلام.. لقـد وعـدتني أن تحـدثني عن رحلتـك لسلام الإسلام.

قال: أجل.. فلا يمسح أحزان الصراع إلا تلك الأحاديث الجميلــة التي امتلأت بها في رحلتي إلى سلام الإسلام.

***

اعتدل الشيخ الصالح في جلسته، وحمد الله وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلـك، ثم قـال: اسـتدعاني أخي وتـوأمي رجل الدين إلى مكتبه الضخم في الفاتيكان، وقال لي: لقد وردتني أنباء لم تصل بعد إلى وكالات الأنبـاء بـأن طـائفتين من المسـلمين عظيمتين يهم بعضـهما ببعض.. ولعـل بعضـهما يقضـى على بعض، فنستريح منهما جميعا.

قلت: لم أسمع هذا في الأخبار.
قال: هناك أخبار يسمعها الناس جميعا.. وهناك أخبار لا يسمعها إلا نحن.
قلت: وكيف نسمعها من دون الناس؟
قال: لاشك أن الكاتب هو أول من يقرأ كتابـه.. ولا يمكن لأحـد في الدنيا أن يسبقه إلى قراءته.
قلت: الكاتب يحصل له ذلك لأنه هو الذي كتب الكتاب.
قال: ونحن حصل لنا ذلك.. لأنا بسلطان المسيح الذي وهبه لنـا صـرنا نحن الكتبـة.. فنحن نملي على غيرنـا.. وغيرنـا لا يجـد إلا أن يكتب ما نمليه عليهم.
قلت: فلم لا نملي عليهم الهدايــة الــتي حثنــا المســيح على تعليمها؟
قال: إن هؤلاء الحمقى يقبلون منا كـل شـيء إلا الهدايـة الـتي جاء بها المسـيح.. إنهم يزعمـون أن الهدايـة الـتي جـاء بهـا محمـد أكمل وأشمل وأعلم وأوثق من التي جاءنا بها المسيح.
قال لي أخي ذلك، ثم طلب مني أن أسير معـه إلى غرفـة في بيتنا الجديد بالفاتيكان، وكانت غرفة أشبه ما تكون بغرف الأسرار.. وهناك دلني على تفاصيل السيناريو الذي سيمثله المسلمون بإملاء منا ومن كـل المؤسسـات العالميـة الـتي اجتمعت على استئصـال المسلمين من الوجود.

***

بعـد أن امتلأت همـا بمـا ذكـره أخي.. وبعـد أن أيقنت بـالخطر الذي يحدق بالمسلمين.. لم يخطر على بالي شيء كما خطر على بالي أن أسرع إلى بلاد الإسلام لأتدارك الأمر قبل حصوله.
لكني.. وبعد أن فكرت طويلا.. وجدت أنـه لا جـدوى من ذلـك.. فأولئك الذين يتربعون على عروش المسـلمين الدينيـة أو الدنيويـة لن يقبلوا مني ما أقول.. لأنهم تعودوا أن لا يقبلـوا إلا لمن يملـؤهم بالصراع والحقد والضغينة.
في ذلـك المسـاء.. سـرت إلى غابـة قريبـة من محـل سـكني لأنفس عن نفسي بعض ما تعانيه من صراع.. ومـا إن سـرت على ثراهــا قليلا حــتى رأيت رجلا كصــفحة المــاء الــتي لم تعبث بهــا التيارات، بل لو أن أعاصير الدنيا اجتمعت ما حركت منه ساكنا.
رأيته قد خط دائرة صـغيرة كتب في وسـطها (الأنـا).. ثم خـط بعدها دائرة أخرى مركزها هو نفس مركز الدائرة السـابقة سـماها

(العقل).. ثم تلاها بدائرة أخرى سماها (القلب).. ثم بـدائرة أخـرى سماها (النفس).. ثم بأخرى سماها (الأسـرة).. ثم بـأخرى سـماها (المجتمـع).. ثم بــأخرى ســماها (الدولــة).. ثم بــأخرى ســماها (العالم).. ثم بأخرى سماها (الكون).. ثم بأخرى سماها (الله)

كان يرسم الدوائر، ويكتب الأسماء المرتبطة بها بتركـيز عجيب لا يشـبه إلا تركـيز القـادة الـذين يخططـون لأعـتى المعـارك، وقـد دعاني ذلك لأن أقول له ساخرا: مرحبا بحضرة القائـد العظيم.. أي معركة هذه التي تريد أن تخوضها اليوم؟

قال: معركة السلام.

قلت: أللسلام معركة؟

قال: لا يمكن للسلام أن يتحقق بغير المعارك.

قلت: أرى أن مظهرك لا يوحي إلا بالسلام.. بكيف تتحـدث عن الحرب؟

قال: عن حرب أهل السلام، لا حرب أهل الصراع.

قلت: ألأهل السلام حرب؟

قال: أجل.. وهي تنطلق من هذه الدائرة..

أشار إلى الدائرة الأولى التي سماها (الأنـا)، ثم قـال: من هـذه الدائرة يبدأ السلام.. ومن هذه الدائرة يبدأ الصراع.

قلت: كيف.. ألهذه الدائرة من السلطان ما يتيح لها أن تتصرف في كل شيء؟

قـال: أجـل.. هـذه الـدائرة هي المركـز.. ولا دائـرة إن خـرب المركز.

قلت: فأي معركة هذه التي تريد أن تخوضها مع (الأنا)؟

قال: معركة التصحيح والتثبيت..

قلت: لم أفهم.

قـال: تصـحيح الأنـا وتثبتهـا.. فلا يمكن للجنـدي الـذي لم تصـح نسبته للحندية، ولم يتثبت فيها أن ينتصر في أي معركة.

قلت: فبم تصحح الأنا، وبم تثبتها؟

قال: أنا الآن أبحث عن أقوم السبل لذلك..

قلت: فهل اهتديت لشيء؟

قال: أجل.. لقـد عـرفت أنـه لا يمكن لعقلي أن يعـرف منـاهج التصحيح والتثبيت.. لابد من جهة عليـا.. عليـا بالقـدر الـذي لا يمكن تصوره.. فهي الوحيدة العالمة بي.. وهي الوحيدة التي تستطيع أن تصححني وتثبتني.

قلت: ولم لا تثبت نفسك بنفسك؟
قال: وهل يستطيع الوتد أن يتثبت نفسه بنفسه؟
قلت: لابد للوتد من مطرقة ومن طارق.
قال: ولابد للأنا من النور الذي يملؤها بالهداية، فترسخ قدمها في السلام الجميل الذي لا تهزه الأعاصير.
قلت: أحسبني وعيبت بعض هذا.. فما الدوائر التالية لدائرة الأنا؟
قال: علاقات الأنا.. وقد وجدت أن الأنا إن كانت ثابتة راسخة صحيحة سيكون ما حولها من الدوائر ثابتا راسخا صحيحا.
قلت: وإن لم تكن كذلك؟
قال: ستهزها الأعاصير.. وستمتلئ بجميع أنواع الحروب التي تستخدم فيها جميع أنواع الأسلحة.
قلت: لكأني بك تتحدث عن سفينة شراعية.
قال: الإنسان سفينة شراعية.
قلت: السفن الشراعية قد تغرق عند الأعاصير.
قال: ذلك عندما تكون أشرعتها ضعيفة.
قلت: فكيف تكون قوية؟
قال: هذا ما أبحث عنه.. وهذا ما ينبغي لكل عاقل أن يبحث عنه.. فكل من لم يبحث عنه سيغرق لا محالة.
قلت ـ مشيرا إلى دائرة العقل ـ : لقد جعلت العقل بعد أول دائرة من دوائر الأنا؟
قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تصحب عقلا مشوشا متناقضا مضطربا غافلا ممتلئا بالجهل والخرافة.
قلت ـ مشيرا إلى دائرة القلب ـ : لقد جعلت القلب هو الدائرة الثالثة؟
قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تصحب قلبا مريضا سكرانا ضعيفا تهوي به الأهواء في كل المهالك.
قلت ـ مشيرا إلى دائرة النفس ـ : لقد جعلت النفس هي الدائرة الرابعة؟
قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تصحب نفسا طماعة حريصة جشعة متكبرة ممتلئة بالشهوات، مستغرقة في الملذات، مدمنة على الغفلات.
قلت ـ مشيرا إلى دائرة الأسرة ـ : لقد جعلت الأسرة هو الدائرة الخامسة؟

قـال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تعيش في أسـرة مفككة يحارب بعضها بعضا، ويعتدي بعضها على بعض.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة المجتمـع ــ : لقـد جعلت المجتمـع هـو الدائرة السادسة؟

قال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تعيش في مجتمـع تملؤه النزعات الخسيسة، والأهواء الخبيثة.

قلت ــ مشـيرا إلى دائـرة الدولـة ــ : لقـد جعلت الدولـة هي الدائرة السابعة؟

قـال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تعيش في دولـة يحكمها الاستبداد والجور والظلم والطغيان والحريات الكاذبة.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة العالم ـ : لقد جعلت العالم هو الـدائرة الثامنة؟

قـال: لا يمكن للأنـا أن تمتلئ بالسـلام، وهي تعيش في عـالم قلق مضطرب متنازع.. القوي فيه يأكـل الضـعيف.. والمتكـبر فيـه يتسلط على المستضعف.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة الكون ـ : لقد جعلت الكون هو الدائرة التاسعة؟

قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تعيش في كـون قـد أغارت عليه جنود الإفساد، فحولته عن فطرته السليمة.

قلت ـ مشيرا إلى دائرة الله ـ : لقـد جعلت (اللـه) هـو الـدائرة العاشرة؟

قال: لا يمكن للأنا أن تمتلئ بالسلام، وهي تجحد الله، أو تحمل صورة مشوهة عنه، أو تحتقره، أو تعزله عن التصـرف في وجـوده الذي خلقه وأبدعه وصممه.

قـال ذلـك، ثم راح إلى دوائـره مسـتغرقا فيهـا، وكأنـه لم يكن يحدثني، ولم أكن أحدثه.

***

في تلـك الأيـام.. وبعـد ذلـك الحـديث الـذي حـدثني بـه معلم السـلام.. قـررت أن أسـير إلى تلـك البلاد الـتي تعـتزم الفتنـة أن تستأصلها، ثم تستأصل بعدها سائر بلاد الإسـلام، فاسـتأذنت أخي.. ففرح كثيرا.. وقال: إن ما تفعله سيرسـخ قـدمنا في الكنيسـة إلى آخر الدهر.

قلت: كيف؟

قال: إن الكل يفر من تلك البلاد.. رجال الـدين ورجـال الـدنيا..

وذهابك أنت تضحية لا تعدلها إلا تضحيات القديسين.. إنك ستعود إلينا إن عدت قديسا يتمسح الكل بك.

قلت: لم؟

قال: أنت هناك معرض للخطف في كل لحظة.. فليس هناك إلا من ملأناهم بالصراع.

قلت: ألا تخاف علي؟

قال: ما دمت قد أمنت عليك من أشعة محمد، فلن تضرك بعدها أي أشعة.

قلت: ولكن الذين سأذهب إليهم لهم حظ من أشعة محمد.

قال: إن الأشعة التي نالوها من محمد لن تزيدك إلا فرارا منه.. وهذا ما دعاني إلى السرور بقرارك، فإن الرحلة التي سترحلها هذه المرة ستغسل عنك كل تلك الشبهات التي علقت بقلبك من رحلاتك السابقة.

قلت: لم؟

قال: سترى من أولئك المصارعين الصورة الحقيقية لمحمد.. تلك الصورة التي ظلت تتزين لك لتملأك بالغواية.

***

كان أخي يدرك المخاطر التي يمكن أن أتعرض لها في كل لحظة في تلك البلاد التي قررت الذهاب إليها.. لذلك ودعني ـ كغير عهده ـ وداعا حارا، وكأنه قد تيقن أني لن أعود إليه من جديد.

امتطيت الطائرة.. وسرت إلى البلاد التي تموج بكل أنواع الصراع.

عندما دخلتها لم أشم إلا روائح الموت.. كان الموت في الطرقات والأزقة والبيوت كالهواء الذي نتنفسه، والماء الذي نشربه.

في المطار رأيت عشرة من الرجال.. فيهم الكهل، وفيهم الشاب، وفيهم الشيخ.. كلهم وقفوا في انتظار الحافلة التي سننتقل بها إلى المدينة التي لا يولد فيها إلا الموتى.

كان أهل المطار ينظرون إلينا بشفقة وحزن، وكأنهم يعلمون ما ينتظرنا من دواه.

لم نلبث إلا قليلا حتى جاءت حافلة خربة عضتها السنون بنابها.. وقد كان إطارها مخترقا برصاصات كثيرة تدل على المخاطر الكثيرة التي نريد أن نسير إليها.

ركبنا الحافلة.. ولم نسر إلا أميالا حتى استقبلنا من يسميهم

الناس (صناع الموت).. أخذونا وكأننـا معهم على ميعـاد، ووضـعونا في مغارة لا تختلف كثيرا عن القبور.

بعدها عرضونا على محكمة صورية كان الكل فيهـا ملثمـا، فلم نميز أحدا منهم، وفيها حكم علينا بالإعدام.. وقد منوا علينا فوهبونـا عشرة أيام من الحياة، لنودع فيها الحياة، ونودع فيها ما استودعناه ذاكرتنا من ذكريات.

في المغارة.. جلسنا جميعـا، لا نـدري مـا نفعـل.. تفرسـت في وجوه الجالسين معي، فلم أجد فيها من الحزن مـا كنت أتصـور أن يوجد، فقلت من دون أن أشعر: أراكم مطمئـنين إلى الحكم الـذي حكم علينا.. فهل ترونه حكما عادلا؟

قال أحدهم: لقد كنت نفذت في يوم من الأيام هذا الحكم على نفسي.. ولكني لم أنجح.. لقـد وقـف بعض المسـلمين حـائلا بيـني وبين تحقيقه.. ومن عجائب الأقـدار أن المسـلمين الـذين بسـببهم مدت حياتي مدة طويلة هم أنفسهم الذين يريدون أن يضـعوا حـدا لحياتي.

قال آخر: إن ما حصل لك هو ما حصل لي.. لقد قدمت نفسـي ذات يوم لمقصلة الموت.. فوقف مسلم دون ذلك.. وها هـو أخـوه ينفذ ما عجزت عنه.

قال آخر: لكأنكما تتحدثان عن نفسي.. أنا نفسي حصل لي مـا حصل لكما.

قال آخر: وأنا كذلك.

نطقوا جميعا: إن هذا من العجائب.. كلنا حصل لنا ما تذكرون.

امتلأت عجبا بما سمعت.. فقلت لهم: إن مـا تذكرونـه عجيب.. فحدثونا بأحـاديثكم، فلا أرى هـؤلاء أخرونـا هـذه الأيـام العشـرة إلا ليسمع بعضنا حديث بعض.

***

التفت إلي الشيخ الصالح، وقال: في هذه الرحلة لن أحـدثك إلا بأحاديث هؤلاء العشرة الذين تعلمت منهم من سلام الإسلام ما لم أتعلمه في حياتي جميعا.

لقد وصلت إلى قناعة كبيرة في هـذه الرحلـة بأنـه لا سـلام إلا في الإسلام.. وأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي جعله اللـه سـلاما لكل العوالم.. العوالم التي هيئ لحواسنا أن تراهـا، والعـوالم الـتي لم يهيأ لها أن تراها.

أولا ـ الأنا

في اليـوم الأول من تلـك الأيـام العشـرة، نهض أحـدنا، وكـان أكبرنا سنا، وقال: سأبدا أنا بالحديث.. فأنا ـ على حسب مـا يبـدو ـ أكبركم سنا، ولعلي كنت أقربكم للموت، لولا أن القدر طرحنـا في هذا المحل لنستوي جميعا في التهامنا للموت، أو التهام الموت لنا.

ليس هذا فقط ما يجعل لي الحق في التفرد بالبداية.. بل هناك أسباب أخـرى سـتعرفونها من خلال إيـرادي لحكـايتي.. فأنـا الـذي كتب له أن يتعلم على جمع من الأساتذة كانوا هم السبب في كــل صراع عانيناه، وعانته الأجيال الطويلة من هذه البشرية..

قلنا: من أنت أولا؟

قال: لقد سماني أهلي أسـماء كثـيرة.. ولكـني بعـد أن التقيت النور طلقتهـا جميعـا، ورحت أبحث عن اسـم لي.. ولم أظفـر بعـد بذلك الاسم.. وإن شئتم الحقيقة، فقـد جئت إلى هـذه البلاد لأبحث عن اسـم لي.. لكن القـدر شـاء أن أمـوت من غـير اسـم.. ولكن حسبي أني طلقت جميع الأسماء التي فرضت علي.

قلنا: من أي البلاد أنت؟

قال: أنا من كل تلك البلاد التي كان يسـكنها الرومـان واليونـان وغـيرهم من الشـعوب.. أنـا ابن لهـا جميعـا، وعشـت على ثراهـا جميعــا، وتقلبت في أحضــانها جميعــا.. ولــذلك أتيح لي أن أتتلمــذ تلمذة مباشرة على أولئك الذين يسميهم الناس عباقرة.. فينصبون لهم التماثيل، ويجثون على ركبهم بين أيديهم يتتلمذون عليهم.

قلنا: نراك تحتقر أساتذتك.

قال: لقـد أتيح لي بعـد تلـك الفـترة الطويلـة من التلمـذة على أولئك الذين يتوهم قومنا أنهم عبـاقرة، أن ألتقي برجـل واحـد نـال من أشعة شمس محمد ﷺ ما جعلني أحتقر جميع أسـاتذتي.. لقـد كان رجلا عاميا بسيطا في مظهره.. لكن الأشعة الـتي تعـرض لهـا من تلك الشمس جعلتـه أسـتاذا يحمـل من الحقـائق مـا لا يحملـه أعظم أساتذتنا وأكبرهم شأنا.

قلنا: فحدثنا عن هذا الرجل.

قال: لن تعرفوا قيمة حديثه حـتى تعرفـوا أسـاتذتي.. فلا يمكن للشمس أن يعرف قيمتها من لم يلهب عينيه سياط الظلام.

قلنا: فحدثنا عن أساتذتك(1).

1() استفدنا الكثير من المادة العلمية المرتبطة بالمذاهب النفسـية الغربيـة من مقـال طويـل بعنـوان (العقـل المسـتعار: بحث في إشـكالية المنهج في النقـد الأدبي العـربي الحديث ـ المنهج النفسي أنموذجاً) د. صـالح بن سـعيد الزهـراني، الأسـتاذ المشـارك في

الصراع

غرق صاحبنا الأول في صمت عميـق.. وكأنـه يسـترجع ماضـيه البعيد، السحيق في بعده..

الرهبانية:

وبعد فترة انتظـار طويلـة لم نشـأ أن نحرجـه فيهـا، قـال: أول حكايتي تبدأ من الكنيسة.. لقد كنت سليل أسرة لها ارتباط مقدس بالكنيسة، كانت تخدمها بجوارحها ومشاعرها.. وكانت تعتـبر رجـال الدين هم المقدسون الذين لا ينطقـون إلا بـالحق، ولا يسـلكون إلا سبل الحق.

وقـد سـرى إلي من إرث عـائلتي مـا جعلـني تابعـا ذليلا لكـل المواعظ الـتي ينطـق بهـا رجـال الـدين، لا أناقشـها، ولا أفكـر في مناقشتها.

وقد قـدر لي أن يكـون أول أسـاتذتي رجـل لم يكن يـدعو في ظاهره إلا للزهد.. كان اسـمه (**سـان بونـافنتور**)(1).. لقـد كـان يردد على مسامعي كل حين ما ورد في الإنجيل من أنـه (لا يـدخل غني ملكوت السموات، حتي يدخل الجمـل في سـم الخيـاط..).. ويردد قول المسيح لشـاب آمن بـه ودخـل في دينـه:(ذا أردت أن تكـون كـاملا، فـاذهب وبـع مـا تملـك واعطـه للفقـراء، ثم تعـال واتبعـني)، وقولـه لتلاميـذه:(وأنتم فلا تبحثـوا عمـا تـأكلون ومـا تشربون ولا تهتموا لـذلك، لأن هـذه الأشـياء إنمـا يبحث عنهـا غـير المؤمنين)

وكان يردد لي أقوال القديس أمبروز ـ أسقف ميلانو فى القرن الرابع ـ الذي كان يعظ تلاميذه وغيرهم فى أمر الـروح معتـبرا أنهـا نقيض للجسد الذى هو شر.. وقد كانت تلـك الفكـرة مصـدر إلهـام لتلميذه الكبير القـديس أوغسـطين الـذى أصـبح فيمـا بعـد أسـقفاً لمدينة هبو فى شمال إفريقيا..

لا أزال أذكر من أقوال أمبروز قولـه: (فكـر فى الـروح بعـد أن تكون قد تحررت من الجسد، ونبذت الانغماس فى الشهوات ومتع اللذات الجسدية، وتخلصت من اهتمامها بهذه الحياة الدنيوية)

وكان يذكر لي صلاة القديس أوغسطين التي يقـول فيهـا: (آه! خذ منى هذا الجسد، وعندئذ أبارك الرب)

كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى، من مجلة جامعة أم القرى.

1() أحد رجال الكنيسة، وقـد اخترنـاه لقولـه الـذي سـنورده هنـا:(إذا رأيتم امـرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشرياً، بل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنمـا الـذى تـرون هـو الشـيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان)

وكان يذكر لي ما اعتاد فرانسيس الأسيزى أن ينادى به جسده من قوله: (أخى الحمار)! كما لـو كـان الجسـد مجـرد بهيمـة غبيـة شهوانية، تستخدم لحمل الأثقال.

وكان يذكر لي ما كـان القديسـون يتعهـدون بـه أجسـادهم من اعتداء يومى من أجل إماتتها بالتعـذيب الـذاتى بطـرق تقشـعر من هولها الأبدان.

وقد سرى لي من تأثير هذه التعاليم ما جعلـني أحتقـر جسـدي احتقارا شديدا.. لقد كنت أنظر إليـه كمـا ينظـر العـدو إلى عـدوه.. لذلك كان الصراع بين روحي وجسدي لا يكاد ينتهي حتى يبدأ.

لقد علمني أستاذي ـ الذي بدأت بالتعلم على يديه حيـاتي ــ أن نظام الرهبنة الذي ينتظرني يتطلب مني أربعـة شـروط لا يمكنـني أن أكون راهبا مقدسا من دونها.

قلنا: فما أولها؟

قـال: العزوبـة.. فلا يمكن للـراهب ولا لرجـل الـدين.. بـل ولا للمسيحي المخلص.. أن يكون متزوجا.. ولهذا، فإن هذا الأستاذ ملأ مشاعري نفورا من المرأة حتى لو كانت زوجة، فقد كان يقول لي كل حين:(إذا رأيت امرأة فلا تحسب أنك ترى كائنا بشـرياً، بـل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنما الذى ترى هو الشيطان بذاتـه والـذى تسـمع هو صفير الثعبان)(1)

وكان يـردد علي كـل حين قولـه :(من المشـاكل المستعصـية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبـان أو تسـريهم.. لقد كانت الكنيسة منـذ زمن بعيـد تعـارض زواج رجـال الـدين، لأن القس المـتزوج يضـع ولاءه لزوجـه وأبنائـه في منزلـة أعلى من إخلاصه للكنيسة)..

وكان يقول لي: (إن القس المتزوج سيحاول أن ينقـل كرسـيه أو مرتبته لأحد أبنائـه.. يضـاف إلى هـذا أن القس يجب أن يكـرس حياته لله وبنى الإنسان، وأن مسـتواه الأخلاقي يجب أن يعلـو على مستوى أخلاق الشعب وأن يضفي على مستواه هذه المكانة الـتي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه)(2)

قلنا: هذا الشرط الأول للرهبانية، فما **الشرط الثاني**؟

قال: التجرد الكامـل عن الـدنيا.. فقـد أقنعـني هـذا الأسـتاذ أن على الـراهب ــ حـتى يصـير راهبـا ــ أن يعـتزل عزلـة نهائيـة عن

1() أشعة خاصة بنور الإسلام: 29.

2() قصة الحضارة 14: 382.

المجتمع، ويقطع النظر عن كل أمل في الحياة.

قلنا: فما الشرط الثالث؟

قال: عدم الاهتمام بالجسد.. بل تعذيب الجسد.. ألم أقل لكم: إنه كان يصور لي جسدي رماحا تحارب روحي وسيوفا تنهش حقيقتي؟

لقد حدثني عن الراهب ماكاريوس، وكيف أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد.

وحدثني عن الراهب يوسيبيس، وكيف كان يحمل نحو قنطارين من حديد.. وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نزح...

وحدثني عن الراهب يوحنا الذي تعبد ثلاث سنوات قائما على رجل واحدة، ولم ينم ولم يقعد طوال هذه المدة، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة.

وحدثني عن القديس كولمبان الذي كانت السناجب تجثم على كتفيه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها، وهو ساكن.

وحدثني عن راهب اخترع درجة جديدة من الورع، بحيث يربط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق(1).

وحدثني عن بعض الرهبان.. نسيت أسماءهم.. كانوا لا يكتسون دائما، وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام.. وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش.

وكان يحدثني ـ بشوق عظيم ـ عن الرهبان الذين كانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح، ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس.

لقد حدثني عما قاله الراهب اتهينس من أن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمره.. وعن الراهب أبراهام أنه لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين عاماً.. وعن الراهب الإسكندري الذي قال بعد زمان متلهفاً: و أسفاه، لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات(2).

قلنا: فما **الشرط الرابع**؟

قال: تحمل العقوبات الشديدة في حال التفريط في الطقوس

1() معالم تاريخ الإنسانية: 732.

2() ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: 168.

الكثيرة التي يتطلبها نظام الرهبانية.. لقد كان أستاذي يعلمي كل حين تعاليم القديس (كولمبان) الذي أسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا:

ومن العقوبات التي لا أزال أذكرها: ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس، أو تبسم أثناء الصلاة، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الربانى.. وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو الله قبل الطعام وخمسون عقاب المتأخر عن الصلاة، ومائة لمن يشترك في نزاع ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة.

وأقام (كولمبان) نظام الحمد الذى لا ينقطع، فكانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين(1).

قلنا: فهل مارست كل هذه الشروط التي علمك إياها أستاذك؟

قال: أجل.. لقد مارستها بإخلاص وصدق إلى أن جاء اليوم الذي طلقتها فيه طلاقا بائنا، وطلقت معها أستاذي، وتخلصت من الاسم الذي سماني به.. ولم أندم على ذلك التطليق في أي يوم من أيام حياتي.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: لقد رأيت بعيني في الدير الذي كنت راهبا فيه ما ذكره رئيس دير كلونى من قوله:(إن بعض رجال الدين في الأديرة وفي خارجها يستهترون بابن العذراء استهتاراً يستبيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التى أنشأها المؤمنين الخاشعون لكى تكون ملاذاً للعفة والطهارة في حرمها المسور، لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى)(2)

قلنا: فقد انحرفوا عن المنهج الذي كانوا يدعون إليه؟

قال: ليتهم انحرفوا إلى الفطرة.. لقد انحرفوا إلى الشذوذ.. واستبدلوا الصراع بالصراع.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: لقد أدى كل ذلك التزمت والغلو ومغالبة الطبع السوي والفطرة السليمة إلى نتيجة عكسية تماماً.. لقد أصبحت الأديرة مباءات للفجور والفسق، تضرب بها الأمثلة في ذلك.

1() قصة الحضارة 14: 365.

2() قصة الحضارة: 145: 372.

لن أحدثكم عن ذلك.. ولكني رأيت بعيني من الفضائح ما ملأني بالنفور التام من الدير ومن الرهبانية.. بل ومن الكنيسة نفسها(1).

الحيوانية:

قلنا: فإلي أين التجأت؟

قال: بعد أن صارعت روحي جسدي زمنا طويلا.. وبعد أن اكتشفت السراب الذي أوقعتني فيه روحي.. عدت إلى جسدي أقبله وألتزمه ولا أرى في الوجود غيره.

قلنا: فهل وجدت من الأساتذة من أعانك على ذلك؟

قال: كثيرون هم.. كانوا يتبوأون أشرف المراتب.. ويسكنون أحسن القصور.. وينالون أعلى المرتبات..

قلنا: فحدثنا عنهم.

قال: أولهم رجل كان يدعوه الناس **داروين** (2).. لقد لقيته بعد أن عانيت الأمرين في دير الرهبان.. وقد كنت حينها مستعدا لاعتناق أي فكرة بشرط ألا يكون فيها رائحة للرهبانية.

في ذلك الوقت الذي كنت فيه مستعدا لأي شيء لقيته وهو يحمل جمجمة لست أدري لمن كانت.. هبته في البداية.. لكني سرعان ما انبهرت به.. ثم سرت تابعا له تبعية الظل لصاحبه.

ولم أكن لأتبعه لولا أنه.. وفي بداية لقائي به.. طلب مني أن أرمي الكتاب المقدس الذي كنت أحمله، وأعطاني بدله كتابا كان اسمه (أصل الأنواع)(3)

1() انظر (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

2() أشير به إلى تشارلز روبرت داروين (1809 -ـ 1882م)، وهو باحث وعالم بريطاني عكف على دراسة علوم الطبيعة، واقترن اسمه بنظرية النشوء والارتقاء وبها اشتهر، وكان يقول:(إن كل الأنواع الحية من نباتات وحيوانات قد تطورت تدريجيًا من أصول مشتركة خلال الملايين من السنين التي مرت عليها)

ألف داروين عدة كتب كانت تزيد من حدّة مناقشة نظرياته عن التطور.. ومن بين هذه الكتب أصل الإنسان والانتخاب فيما يتعلق بالجنس (1871م)؛ تعبير عن الانفعالات عند الرجل والحيوان (1872م)، وأهم كتبه على الإطلاق (أصل الأنواع) (1859م)، وهو الكتاب الذي ذكر فيه نظريته عن الانتخاب الطبيعي. (انظر: الموسوعة العربية العالمية، بتصرف)

وقد ذكرنا هذه النظرية والرد العلمي عليها في رسالة (معجزات علمية)، وذكرنا آثارها الخطيرة على المجتمعات البشرية في رسالة (ثمار من شجرة)، وسنذكر هنا باختصار بعض آثارها في تحديد حقيقة الإنسان.

3() هو كتاب من تأليف داروين صدر عام 1859 يعتبر أحد الأعمال المؤثرة في العلم الحديث وإحدى ركائز علم الأحياء التطوري. عنوان الكتاب الكامل: (أصل الأنواع/ نشأة الانواع الحيّة عن طريق الانتقاء الطبيعي - أو الاحتفاظ بالاعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة).. قدم فيه داروين نظريته القائلة أن الكائنات تتطور على مر الأجيال.. وقد أثار الكتاب جدلا بسبب مناقضته الاعتقادات الدينية التي شكلت أساسا للنظريات البيولوجية حينئذ. شكل كتاب داروين هذا عرضا لنظريته التي اعتمد فيها على ما جمعه في رحلته البحرية في ثلاثينات القرن التاسع عشر وبحوثه وتجاربه منذ عودته

وقد أعجبت كثيرا بهذا الكتاب.. فهو كتـاب لم يكن يتحـدث عن ذلك الشعب المدلل المسـمى (شـعب إسـرائيل).. وهـو كتـاب لم يكن يميز بين جنس وجنس.. فهو كتاب تستوي فيه البشرية جميعا العرق الإسرائيلي وغيره من الأعراق.. بـل إنـه فـوق ذلـك كلـه لم يكن يميز بين الإنسان والحيوان.. مهما كان ذلك الحيوان.

في أول لقاء لي به، قـال لي: خـذ هـذا الكتـاب.. فسـتجد فيـه الحقيقة التي لا حقيقة فوقها..

قلت: أي حقيقة؟

قال: حقيقتك.. أنت.. الإنسان.

قلت: لقد دلني الكتاب المقدس على حقيقتي..

قال: ليس في الدنيا كتـاب مقـدس.. الكـل يمكن أن يقـدس.. والكـل يمكن أن يـدنس.. انظـر إلى كتـابي هـذا.. إني أراه أقـدس كتاب في الدنيا.

قلت: فما الذي جعله مقدسا.. هل تراه أوحي إليـك كمـا أوحي للأنبياء تلك الأسفار المقدسة.

قهقه قهقهة عالية، وقال: أي أنبياء؟ وأي أسفار؟.. هل ترى أن الله ـ إن كان هناك شيء اسمه الله ـ ينزل من كبريائه ليقـول لنـا: (سلم على برسكا وأكيلا، وعائلـة أونيسـيفورس. أراسـتس مـازال في مدينـة كورنثـوس. أمـا تروفيمـوس، فقـد تركتـه في ميليتس مريضـا. اجتهـد أن تجيء إلي قبـل حلـول الشـتاء.يسـلم عليـك إيوبـولس، وبـوديس، ولينـوس، وكلوديـا، والإخـوة جميعـا ﴾ (تيموثاوس: 4: 19)

أو ترى الله ينزل من علياء عظمته ليقول لنا: (وكـان في سـنة الاربع مئة والثمانين لخروج بني اسرائيل من ارض مصر في السنة الرابعة لملـك سـليمان على اسـرائيل في شـهر زيـو وهـو الشـهر الثاني انه بنى البيت للرب. والبيت الذي بناه الملك سليمان للـرب طوله ستون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وسـمكه ثلاثـون ذراعـا. والرواق قدام هيكـل الـبيت طولـه عشـرون ذراعـا حسـب عـرض البيت وعرضه عشر اذرع قدام البيت. وعمل للبيت كوى مسـقوفة مشبّكة. وبنى مع حائط البيت طباقا حواليه مع حيطان البيت حـول الهيكل والمحراب وعمل غرفات في مستديرها. فالطبقة السـفلى عرضها خمس اذرع والوسطى عرضها ست اذرع والثالثـة عرضـها سبع اذرع لانـه جعـل للـبيت حواليـه من خـارج اخصـاما لئلا تتمكن

من الرحلة..

الجوائز في حيطان البيت. والبيت في بنائـه بـني بحجـارة صـحيحة مقتلعة ولم يسمع في البيت عند بنائه منحت ولا معول ولا اداة من حديد. وكان باب الغرفة الوسطى في جـانب الـبيت الايمن وكـانوا يصعدون بدرج معطّـف الى الوسـطى ومن الوسـطى الى الثالثـة. فبنى البيت واكمله وسـقف الـبيت بـألواح وجـوائز من الارز. وبـنى الغرفات على الـبيت كلـه سـمكها خمس اذرع وتمكنت في الـبيت بخشب أرز)(ملـوك 6:ـ 1-10).. إلى آخـر هـذا الوصـف الطويـل الذي لا ينتهي حتى يبدأ غيره.

قلت: فما الذي جعل كتابك مقدسا؟

قال: العلم.. كتـابي يعتمـد على العلم والحقـائق.. أمـا الكتـاب الذي يسمونه مقدسا، فيعتمـد على حكايـات العجـائز.. وأنـا أتمتـع بحكايات العجائز.. ولكني لا أتعلم على أيديهم.

قلت: فما دلك العلم والحقائق على حقيقة الإنسان؟

قـال: لقـد صـورت فيلمـا رائعـا عن ذلـك.. فيلمـا يعتمـد على الحقيقة وحدها..

قلت: فيلم واقعي، أم فيلم خيالي؟

قال: بل فيلم علمي واقعي.. فأنا أتمتع بالخيال، ولكـني لا أثـق فيه، ولا أعتمد عليه.

قلت: إن هذا لعجيب.. هل وجدت مركبة الزمن التي رحلت بك إلى بداية البشرية؟

أشار إلى الجمجمة التي كـان يحملهـا، وقـال: أجـل.. هـذه هي مركبتي.. في هذه الجمجة يخزن تاريخ الإنسان..

قلت: فحدثني عن هذه الجمجمة العجيبة.

قال: سأحدثك عما حصل قبلها.. فلن تفهم تاريخ هذه الجمجمة حتى تفهم ما حصل قبلها..

في البـدء.. وبعـدما بـردت الارض وتكـونت بحارهـا وجبالهـا وسهولها وغلافها الجوى واستعدت لاسـتقبال الحيـاة عليهـا، وذلـك بعد تعرضها خلال ملايين السنين للتطور من حال إلى حال(1).

وكـان أول ظهـور للحيـاة على الأرض فـوق سـطح المـاء والمحيطـات والمسـتنقعات وعلى شـواطئ المسـطحات المائيـة التى تكونت عندها مادة الطين، حيث اختلط الماء بالتراب.

ومن عفن الطين المنتن نشأت أبسط وأصغر أنواع الحياة التى

1() انظر التفاصـيل المرتبطـة بهـذا وبهـذه النظريـة في (معجـزات علميـة) من هـذه السلسلة، وقد نقلنا بعض الحوار الوارد فيها إلى هذه الرسالة لاقتضاء المقام لذلكـ

نراها ممثلة في بعض أنواع البكتيريا وبعض الكائنات وحيدة الخليـة التى لم تتميز بعد على أنها نبات أو حيوان.

ومن هـذا الأصـل المشـترك لجميـع الكائنـات نبت فرعـان من الخلايا المجهرية ـ أى التى لا ترى إلا بواسـطة المجـاهر المكـبرة ـ تولد من أحدهما النبات، ومن الآخر الحيوان.

أما فرع الحلايا المكونة للنباتات، فسرعان ما استحدثت طريقة عجيبة لتركيب مادة الكلوروفيل الخضراء في هيكلهـا لتكسـب بهـا الطاقة من ضوء الشمس، وتستعين بهـا على اسـتخلاص الكربـون من غاز ثانى أكسـيد الكربـون الموجـود في الجـو، ثم تحويلـه إلى مـواد سـكرية ونشـوية، وكـان هـذا بـدء ممارسـة عمليـة التمثيـل الضوئى لنمو النبات.

ثم إن الخلايا أخذت تحيط أجسامها الدقيقـة بجـدران من هـذه المواد الكربونية في هيئة السليولوز، وكانت تستعمل الطاقة الــتى تنبعث في أجسامها نتيجه التمثيل الضوئى داخل هذه الجـدران في التحرك.

ثم إن هذه الخلايا كـانت كائنـات متناهيـة في الدقـة تعيش في غير جلبة أو ضوضـاء، ويأتيهـا رزقهـا رغـدا من الهـواء ومـاء البحـر وأملاحه.

وبعد زمن طويل مضـى على هـذه الخلايـا، وهى تنمـو وتتطـور نشأت في البحار كائنات كثيرة لا عدد لها.

وكـانت هـذه العضـويات الأولى هي الأصـل في جميـع أعضـاء مملكـة النبـات الـتى تكـاثرت وغطت الارض بأعشـابها وأشـجارها وغاباتها الضخمة الكثيفة.

ومثـل ذلـك حصـل لعـالم الحيـوان، فقـد انقسـمت الخلايـا الحيوانيـة، وكـونت الحيوانـات الـتى عاشـت على النبـات وغـيره، وصارت أنواعا مختلفة من الأحياء على الأرض.

قلت: هـذا تفسـيرك للحيـاة.. فمـا تفسـيرك لهـذه السـلوكات العجيبة التي تبديها الحيوانات.. بل حتى النباتات؟

قــال: إنهــا الغريــزة.. فــالغريزة هي التفســير العلمي لتلــك السلوكيات.. إنها التفسير الصحيح لقابلية الحيـوان للقيـام بسـلوك معين منذ الولادة.

قلت: فكيف اكتسبت الحيوانـات هـذه الغريـزة؟.. وكيـف كـان ظهور أول سلوك غريزي لديها؟.. وكيـف تم انتقـال هـذه الغريـزة كابراً عن كابر؟

سكت قليلا، وكأنه يتأمل سؤالي، ثم قال: إن شئت الحقيقة.. هناك أجوبة كثيرة عن هذا.. ولكنها تكاد تكون أسئلة هي الأخرى، لا أجوبة.. فكل سؤال منها سيستدعي منك أسئلة أخرى.. ولو بقينا هنا إلى آخر الدهر مع مثل هذه الأسئلة، فلن نخرج أبدا.

ثم أضاف: ربما تكون الغرائز مجرد جينات موجودة لدى الحيوانات، تظهر على شكل أنماط سلوكية.

قلت: وهل تؤمن بهذا؟

قال: لقد ذكرت لك أن هذا نفسه سيحتاج إلى أسئلة جديدة، بل أسئلة كثيرة.

أولها ستقول لي: لو كانت الكائنات الحية مبرمجة على أن تسلك هذا السلوك المعين فمن الذي برمج هذا السلوك؟

أنا أعلم أنه لا يوجد أي برنامج مبرمج من تلقاء نفسه.. وأنه لا بد لكل برنامج من مبرمج.

قلت: نعم.. كنت سأسألك هذه الأسئلة.. فما الإجابة التي أعددتها لها؟

قال: لقد وفر أصحابنا العناء على أنفسهم.. فذكروا إجابة ربما ستستدعي منك أسئلة أخرى.

قلت: فما قالوا؟

قال: هم يقولون.. أو بالأحرى نحن نقول بأن الطبيعة الأم ـ التي تتشكل من البحيرات والجبال والأشجار والظواهر المختلفة ـ لها القدرة على الخلق، إنها بديل علمي منطقي عن الخالق..

قلت: إن الطبيعة كيان متعدد الأنواع.. فأي نوع منها لديه القدرة على إكساب الحيوانات المختلفة أنماطها السلوكية المختلفة؟

قال: كنت أعلم أنك ستسأل هذا السؤال.

قلت: لست أنا وحدي الذي يسأله.. بل عقلك أيضا يسأله، أنا أشعر أن عقلك يحتاج إلى إجابة منطقية على هذا السؤال.

إن الطبيعة تتألف من الحجر والتراب والأشجار والنباتات..

من من هذه العناصر تكون له القدرة على إكساب الكائنات الحية هذا السلوك المبرمج؟

أي جزء من الطبيعة لديه القدرة والعقل على فعل ذلك؟

هل ترى أنه يمكن للإنسان العاقل أن يقول، وهو يرى لوحة زيتية جميلة:(ما أحلى الأصباغ التي رسمت هذه اللوحة)؟.. بلا شك فإن كلامه لن يكون منطقيا.

إذن فإن ادعاء كون المخلوق خالقاً للأشياء هـو بلا شـك ادعـاء غير منطقي..

قال: أنت تريد إذن أن تعود إلى الـدير.. لاشـك في ذلـك.. أنت بين أمرين: إما الدير، وإما الحقائق التي ذكرتها لك.. والـتي سـتجد تفاصيلها في هذا الكتاب.

امتلأت رعبا بعد أن ذكر لي الـدير.. فلـذلك ألـزمت عقلي بـأن يقتنع بما قـال.. بـل رحت أقـرأ كتابـه الـذي أهـداه لي.. بـل رحت أحفظه عن ظهر قلب، وأردده في كل المجالس.

وقـد وجـدتني بعـد حين أقتنـع بمـا يقـول.. بـل وجـدتني أنقلب إنسانا آخر.. بل وجدت نفسي قد انسـلخت من إنسـانيتي، لأرتـدي كل مرة حلة من حلل البهائم والسباع.. فمـرة أصـير خـنزيرا أرتـع من لذات الدنيا ما كانت الرهبانيـة قـد حرمتـني منـه.. ومـرة كنت أسير في الشوارع كما تسـير الأسـود مكشـرة عن أنيابهـا.. ومـرة كنت ــ وتحت الضـغوط الشـديدة ــ أتحـول إلى فـرد من عائلـة الخنافس والجعلان..

وهكذا انتقلت من حيوان إلى حيـوان.. وقـد وجـدت الكثـير من الأساتذة يستغلون حالي في ذلك أبشع استغلال..

لقد عبر عن ذلك أحد أسـاتذتي الـذين نبهـوني إلى خطـر هـذه النظرية.. كان اسمه (ألكسس كاريل).. لقـد قـال لي ناصـحا:(إن نظريات النشوء والارتقاء هي مصدر كـل الهمـوم الإنسـانية، وإنهـا ليست إلا حكايات خرافية وجدت من يحميها ومن يقدمها للجماهير بحلة خادعة لا يعرفها كثير من الناس)(1)

ورأيت بعد ذلـك أن كـل المخـربين جعلـوا من هـذه النظريـات فأسا يهدمون به كل القيم البشرية:

لقد قارن كارل ماركس الكفـاح من أجـل البقـاء بين الكائنـات العضوية مـع الكفـاح من أجـل السـيطرة السياسـية بين الطبقـات الاجتماعية.

واعتمد كُتّاب وبـاحثون آخـرون على فكـرة الانتخـاب الطـبيعي لكي يــبرروا مفهــوم تطــور العنصــر الإنســاني الــراقي للجنس البشري.

واسـتخدم بعض الدارسـين الـذين عرفـوا باسـم الـداروينيين الاجتماعيين أفكارداروين لتأييد الفكرة التي تقول بـأن على النـاس في أي مجتمـع، وعلى الجماعـات أن تتنـافس على البقـاء حيثمـا

1() الإنسان ذلك المجهول.

كانت.

بل إن الاستعمار ـ وبدلاً من أن يشعر بتأنيب الضمير ــ صار يشعر، بل يعتقد من خلال هذه النظرية أنه يقوم برسالة حضارية عندما يزيل مواريث الأمم والبنى التحتية لها ومجتمعها المدني القائم بها والحرف والصناعات الخاصة بها، ويعتبر نفسه أنه يمدنها.. حتى أن ماركس اعتبر غزو فرنسا للجزائر من التمدن وإزالة الرجعية والتخلف وتحدث بنفس هذا المنطق عن الهند..

وفي الأخير.. وبعد معاناة طويلة، وصراع مرير.. لم أجد في هذا الأستاذ ما كنت أحلم به عن الإنسان.. فرحت أبحث عن أستاذ آخر.

الغرائزية:

قلنا: فأي أستاذ هذا الذي أنقذك من داروين؟

قال: هو لم ينقذني من داروين، وإنما أضاف إلى الركام الذي أنشأه داروين ركاما عجيبا جعلني أرى الحياة مرقصا للاشعور يتلاعب به كما يشاء.

قلنا: نراك تومئ إلى **فرويد**(1)؟

قال: أجل.. لقد كان فرويد هو أستاذي الثالث الذي انحرف بي عن إنسانيتي انحرافا خطيرا، ظللت تحت أسره دهرا طويلا من الزمان.

قلنا: فكيف تعرفت عليه؟

قال: لقد كان أول ما دلني عليه اللاشعور نفسه.

قلنا: فقد آمنت بتأثير اللاشعور قبل أن تراه؟

قال: أجل.. ولا أرى أن أحدا من الناس يخالف في ذلك.. فكلنا يعرف تأثير باطن الإنسان وما يحمله من مشاعر وأفكار في حياته.. حتى الإسلام لا ينكر ذلك.. لقد ورد في القرآن الإشارة إلى هذا اللاشعور الذي لا يكاد صاحبه يعلمه.. ففي القرآن :﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طــه:7).. فالخفي ليس إلا تلك المعاني الخفية التي يمتلئ بها باطن الإنسان.

قلنا: فقد تأثر فرويد بما جاء به من علم بالقرآن؟

قال: ليته فعل ذلك.. إذن لوقى نفسه، ووقى البشرية من

1() هو سيجموند فرويد (1856 - 1939م)، طبيب نمساوي، ولد في فريبرج، مورافيا ـ بتشيكوسلوفكيا (السابقة) تخرج في كلية الطب، بجامعة فيينا عام 1881م. وفيما بعد قرر التخصص في علم الأعصاب لدراسة وعلاج اضطرابات الجهاز العصبي.

كتب عدة أعمال أهمها تفسير الأحلام (1900م)؛ مقدمة في التحليل النفسي (1920م). وتعتبر نظرياته في السلوك والعقل ومنهجه في العلاج أساس علم النفس الحديث.

مهالك تلـك النظريـات الـتي جـاء بهـا، والـتي لبسـت لبـاس العلم لترمي البشرية في أتون الرذيلة.

قلنا: فحدثنا عما لقنك هذا الأستاذ من علوم.

قال: لقد بدأ هذا الأستاذ، فعمق في نفسي الهوة الـتي كـانت قد بدأت تتوسع بيني وبين الدين.. فقد كـان أول لقـاء لي بـه سـنة 1927م، وكنت حينها صحفيا.. وقـد كلفتـني الجريـدة الـتي أعمـل فيها بإجراء حوار معه.. وقد كان في ذلـك اللقـاء يسـتخف بالـدين، ويحتقره احتقارا شديدا(1)..

أذكر أنـه بعـد نشـر المقابلـة كتب لـه أحـد الأطبـاء الأمريكـيين الشبان خطابا لامه فيه على عدم إيمانه هذا، وسرد له في خطابــه قصة مؤثرة عن كيفية رجوعه للإيمان بعد شك في وجود الله جــاء نتيجة لتأثره بوفاة مريضة عجوز بريئة ملامح الوجه؛ كمـا ذكـر هـذا الطبيب الشاب في خطابه لفرويد أنه بعد شكه في الله دخــل في أزمة نفسية انتهت بسماع صوت من داخل نفسه مازال يحثه على الرجوع لإيمانه حتى رجع له يقينه بوجود الله.

لقد ضحك فرويد حينها كما لم يضحك في حياتـه جميعـا، ثم رد عليه يقول :(إن الله لم يسمعني صوتا داخليا كالذي أسمعك إياه.. وإذا تباطأ الله في هذا الأمر رغم علمه بكبر سـني، فإنـه سـوف لا يكـون الخطـأ خطـئي لـو بقيت إلى نهايـة حيـاتي على اعتقـادي الحالي.. يهوديا كافرا..)

ولم يكتف بذلك، بل راح يحلل خطـاب الطـبيب نفسـيا وينشـر ذلك كله في مقـال بعنـوان : A religious Experience.. في ذلـك المقـال يهوي فرويد بأحاسيس الرجل الإنسانية التي تجلت في ألمه لرؤيـة وجه السيدة الوقورة الميتة إلى حضيض التفسير الجنسي والعقدة الأوديبية بأسلوب متهافت ومنطق غريب.

ومما جاء في ذلك المقال :(إن رؤية جسد المرأة الميتة الـذي ربما كان عاريا أو كان في طريقه لأن يتعـرى من الملابس قـد ذكّر هذا الشاب الطبيب بأمه (لا شعوريا) وقد أثارت فيه هـذه الـذكرى

1() وهذا لا ينفي كونه يهوديا متعصبا.. فاليهودية ـ كما هي في الواقع والتـاريخ ــ دين قومي لا يهمه التوجه الديني بقدر ما يهمه الارتباط العنصري.. وقد ذكر المسـيري الكثـير من الأمثلة على علاقة فرويد باليهودية، ومن ذلك أن فرويد كان كثيراً ما يتباهى باليهودية وبانتمائه اليهودي، فكان يرى أن الشعب اليهودي قَدَّم التوراة للعالم، وأن اليهودية مصدر طاقة لكثير مما كتب.

وقد أكد أكثر من مرة أنه كان دائماً مخلصاً لشـعبه « ولم أتظـاهر بـأنني شـيء آخـر: يهودي من مورافيا جاء أبواه من جاليشيا)، (انظر: الموسوعة اليهوديـة للمسـيري)، وقـد أشرنا إلى هذا بتفصيل في (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.

شوقا لوالدته نبع من عقدته الأوديبية، وهذا الشعور سرعان ما أثار فيه البغض والغضب على والده، وبمـا أن أفكـاره عن والـده وعن الله لم تنفصل بعد بما فيـه الكفايـة فـإن رغبتـه في تحطيم والـده على المستوى اللاشعوري قد ظهـر شـعوريا في شـكل شـكه في وجود الله، وإنه لمن المعلوم لدينا أن الطفل يعتبر ما يفعـل والـده لأمــه في صلته الجنسية بها نوعا من سوء المعاملة والقسوة)

سألته حينها متعجبا من هـذا الموقـف، وقلت: أهـذا هـو مصـدر العقيدة في الله؟

رد علي بثقــة عظيمــة: أجــل لقــد وقفنــا من خلال التحليــل النفسي على هذا الرباط الوثيق بين عقدة الوالدية Complexe Parental - عقدة أوديب(1) - وبين نشوة الإيمان بالله لدى الأفـراد بمـا لا يـدع مجـالا للشـك في أن الإلـه مـا هـو إلا صـورة بديلـة عن الأب Pere transfigure...

ثم أضاف معقبا بطريقته التمثيلية التي كانت تجذبني بشدة في ذلك الوقت: إنه الصورة المكبرة عن تلك التي يكونهـا الطفـل عن أبيه في طفولته كمصدر للحب والحمايـة والرعايـة، فالتـدين وثيـق الصلة بالحاجة الدائمة للإنسان الطفل للحماية والمساعدة.

وكان يقـول لي بعـدها كـل حين :(إن التحليـل النفسـي يمثـل المرحلة الأخيرة من الثورة العلميـة الـتي مـازالت تعـري للبشـرية هذاءاتها المتمثلة في الدين)

وكان يقول لي ـ وهو يفسر نزعة التدين ـ:(إن هذه الاعتقادات الـتي تعـرض في الـدروس الدينيـة لا تنبـع من الخـبرات البشـرية المتراكمة، وليست هي نتاج للتفكـير المسـتقيم إنمـا هي نـوع من الهـذاءات ؛ بـل هي إشـباع لأقـدم وأقـوى وأشـد رغبـات الجنس البشري إلحاحـا..إن الإحسـاس بالتهديـد والخـوف والشـعور بعـدم الأمان لدى طفل لا يقدر على مواجهة ظروف الحياة أيقظ لديـــه الحاجـة إلى الحمايـة والحب في الـوقت نفسـه، وهـو الأمـر الـذي يتولاه الأب عادة ... ثم إن عجز الإنسان البدائي على مواجهـة قـوى الطبيعة وقلة حيلتـة جعلتـه في حاجـة إلى حمايـة دائمـة من هـذه الأخطار التي تتهدد حياته فتعلق بـ (أب) أكبر في هـذه المـرة، إنـه الله.. لقد وجدت مشاعر القلق الـتي تنتـاب الإنسـان أمـام عجـزه

1() عُقْـدَةُ أوديب: من أهم المصـطلحات في التحليـل النفسـي، ويريـدون بـه رغبـة الطفل غير الواعيـة في الاسـتئثار بحب الطـرف المضـاد لجنسـه من والديـه (الولـد للأم والبنت للأب). وتشتمل هذه الرغبة على الغـيرة من الولـد تجـاه الأب أو البنت تجـاه الأم والرغبة غير الواعية في موت الأم أو الأب.

على مواجهة أخطار الحياة هذه حلها في الدين في ظل الحماية الإلهية والتعاليم السماوية التي سنت القوانين الأخلاقية التي تنتظم العالم وتلبي حاجة الإنسان إلى العدل الأخروي الذي قلما تحقق في عالم الناس، وما يتبع ذلك من الإيمان بالحساب والإيمان بحياة أخرى هي في الحقيقة امتداد لحياة قلما استطاع الإنسان أن يشبع فيها كل رغباته)

قلنا: لقد كان الإلحاد واللاتدين منتشرا قبل فرويد، بل إنه في العصر الذي جاء فيه فرويد كان التدين غريبا بين رجال العلم.. فما الجديد الذي لقنك إياه؟

قال: لقد ذكرت لكم أني لم يكن يعنيني في الوجود إلا البحث عن أسرار الأنا.. فأنا لم يكن يهمني في هذا العالم إلا البحث عن أنا.

قلنا: فما الذي علمك فرويد عن الأنا؟

قال: لقد قال لي في أول لقاءاتي به :(الشخصية الإنسانية مثل كتلة الجليد العائمة في البحار القريبة من القطب لا يعلو منها فوق سطح البحر إلا جزء ضئيل، ويبقى معظمها مغموراً بالماء، وكذلك الشعور يؤلف جزءاً ضئيلاً من العقل، أما الباقي وهو ما يُعرف باللاشعور أو العقل الباطن فهو الجزء الأعظم، وليس ذلك فحسب بل إنه الجزء المهم من العقل)

قلنا: ما ذكره يحمل الكثير من المعاني الصحيحة، فما المستغرب فيه؟

قال: المستغرب فيه أنه ادعى أن له المقدرة على الغوص في أعماق تلك البحار لاكتشاف تلك المناطق المغمورة في البحار الجليدية.. لم يدع ذلك فقط على سبيل الإجمال، بل ادعاه على سبيل التفصيل، فعمم ما توهمه على جميع جبال الجليد في العالم، بل في الكون جميعا.

قلنا: دعك من التهكم، وحدثنا بما لقنك.

قال: لقد علمني (سيدي المبجل فرويد !!) أن اللاشعور الشخصي هو محور السلوك الإنساني.. ثم علمني أن هذا اللاشعور هو مجموعة العوامل النفسية والفسيولوجية غير المحسوسة التي توثر في السلوك الإنساني..

وعندما سألته عن التفسير، قال: في النفس الإنسانية ثلاث قوى.. لن تستطيع أن تفهم النفس إلا من خلالها: الهو، والأنا، والأنا الأعلى.

سألته عن (الهو)، فقال: هو كل موروث.. أو كل ما يظهـر عنـد الميلاد.. أو كل ما هو مثبت في الجبلّة.

سألته عن (الأنا)، فذكر لي أنه المسيطر على الحركة الإراديـة، والمكلف بحفظ الذات.

سألته عن (الأنا الأعلى)، فذكر لي أنه راسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التي يعيش فيهـا الإنسـان الناشـيء معتمـداً على والديه.. ففي تلك الفترة تتكون في الأنا منظمة خاصـة يمتـد فيهـا تأثير الوالدين.

سألته عن الطاقة التي يتصرف من خلالها (الهو)، والـتي كـانت مخزنـة في الأصـل في جبلتـه، والـتي على أساسـها يمكن تفسـير جميع حركاته.. لم يمهلني حتى أنتهي من سؤالي، بـل أجـاب على الفور: الجنس.. الطاقة الجنسـية هي الطاقـة الكـبرى الـتي يمكن من خلالها تفسير جميع سلوكيات الإنسان..

قلت: ولكن هذه الطاقة تبـدأ في مرحلـة متقدمـة من السـن.. فكيف يفسر بها السلوك الإنساني، والإنسان لا يبدأ شـابا، بـل يبـدأ طفلا صغيرا ممتلئا بالبراءة؟

أجانبي، وهو يبتسم بسخرية: ألا ترى الطفـل، وهـو يمص ثـدي أمه بتلك اللهفة، وذلك الشوق؟

قلت: هو يتغذى بذلك..

قال: لا.. الأمر أخطر من أن يكون مرتبطا بالغـذاء وحـده.. إن الطفل في ذلك الحين يمر بمرحلة جنسية هي المرحلة الفمية..

ثم أضاف يقـول: إن إلحـاح الطفـل في المص وتشـبثه بـه في مرحلة مبكرة ينم بوضوح عن حاجة إلى الإشـباع، على الـرغم من أنهـا حاجـة تنبعث عن تنـاول الغـذاء وتتـأثر بـه إلا أنهـا تسـعى إلى الحصول على لذة مسـتقلة عن التغذيـة، وبالتـالي يمكن ويجب أن توصف بأنها جنسية.

ثم أضاف يقول، وكأنه مجنون يخاطب نفسه: ثم تتطور طاقــة (اللّبيدو)(1) مع الطفل إلى المرحلـة السـادية الشـرجية والمرحلـة القضيبية التي يتجلى فيها الشكل النهائي للحياة الجنسية.

ثم بعد ذلك يأتي دور الأنا.. تلـك الـذات الواعيـة.. الـتي تحـاول الموازنة بين الرغبات الخاصة، والواقع الخـارجي بكـل مـا فيـه من سلطة وقيم اجتماعية.

1() اللّـيبيدو مصطلح في التحليل النفسـي، يتعلَّق بطاقـة الغرائـز الطبيعيـة، أو بإثـارة ذلك السلوك الممتع. وكان فرويد أول من استعمل المصطلح.

قلت: فكيف يتشكل الأنا الأعلى؟

قال: يتشكل من تلبس الطفل بشخصية والده.. وحينئـذ تنشـأ (عقدة أوديب) كنتيجـة طبيعيـة لحب الولـد لأمـه جنسـياً.. وبمـا أن الأب يحول دون تحقيق مقتضيات هذا الحب فإنه يتكـون في نفس الطفل نحـو أبيـه شـعور مـزدوج، طرفـاه الحب والكراهيـة في آن واحد، ثم يتخلص الطفل من هذا الصراع.

قلت: هذا الولد.. والبنت!؟

قـال: تتخلص من العقـدة (عقـدة أليكـترا)(1) بزيـادة تلبسـها بشخصية أمها.. وعنـد ذلـك ينشـأ الضـمير.. وتكـون مهمتـه الكبت والقمع للشهوات الجنسية غير المرغوب فيها، وذلك لحماية الـذات من عسف ذوي السلطان في الخارج الأب أو المجتمع أو الـدين أو التقاليد.

قلت: فغريزة الجنس هي عاصمة الغرائز إذن؟

قال: أجل.. فالإنسان ينشأ حاملاً في أعماقه هذه البـذرة الـتي تصبح المحرك الرئيس لطاقاته في الحياة، ويغدو همـه الوحيـد في حياتـه هـو إفـراغ هـذه الطاقـة، إلا أن ذلـك لا يتحقـق على الوجـه الأكمل حفاظاً على قيم المجتمع، وخوفاً من تعاليم السـلطة، وهنـا يـأتي الحلم الـذي تتحقـق فيـه الرغبـة حين يخلـد الأنـا الأعلى في سباته العميق.

قلت: الحلم!؟

قال: أجل.. وقد يكون الحلم صـريحاً وواضـحاً وربمـا لا يكـون.. وإذ ذاك تصبح لصور الحلم دلالة رمزيـة، فالصـور الـتي تظهـر في الحلم رموز الحقائق في اللاشعور: فالطائر ليس طائراً حقيقة بـل رمزاً لشيء آخـر قـد يكـون أمـا أو أبـاً، والطـيران شـبق جنسـي، والسير إلى الشمال رغبة في الزنا بالمحارم.. وهكذا.. فإن كل مـا تتصور البشرية أنه أبدعته أو وصلت إليه هـو في الحقيقـة نـوع من الشبق الجنسي.

1() مصطلح في التحليل النفسي لوصف الشعور غـير الـواعي للبنت نحـو أمهـا، وهـو مستمد ـ كذلك ـ من أسطورة إغريقية.. فإلكترا شخصية أسطورية عُرفت في الأسـاطير الإغريقية بولائها التام لوالدها الزعيم الإغـريقي أجـاممنون، قـامت كليتمنسـترا أم إلكـترا وعشيقها إجستوس بقتل أجاممنون. فأرسلت إلكترا شقيقها الأصغر أوريستيس بعيدًا عن القصر الملكي لتحميه من أمها. كرهت إلكترا أمها وعشيقها ولكنها عاشت معها، حتى بلغ أوريسـتيس الحلم. وحينئـذ عـاد أوريسـتيس من منفـاه، لينتقم لمقتـل والـده بقتـل أمـه وعشيقها بمساعدة إلكترا. تزوجت إلكترا فيما بعد صديق شقيقها بيلاديس.

وقد ابتدع العالم النفسي السويسري كارل يـونج مصـطلح (عقـدة إلكـترا) ليصـف بـه تعلق البنت الشديد بأبيها، وعداءها في نفس الوقت لأمها.

قلت: والدين والأخلاق والفن !؟

ابتسم، وقال: كل هذه الأشياء ليست إلا تعويضاً عن الدوافع الغريزيّة لدى الإنسان.. فالدين يستقي أصوله من رغبتنا إلى الرعاية السماوية التي نتصورها في صورة الأب الحنون الذي يحل محل الأب الحقيقي، لأن هذا لا يلبث أن يخيب آمالنا كلما شببنا عن الطوق، وبلغنا مبلغ الرجولة.

والأخلاق ما هي إلا قواعد أوجدها الإنسان لتكون كالحاجز تصد غرائزه التي لو انطلقت من زمامها لجعلت النظام الاجتماعي أمراً مستحيلاً.

أما الفن فقيمته إنما تنبثق من حاجة الإنسان إلى أن يبتدع أنواعاً من الوهم تقيه من النظر إلى الأشياء كما هي في حقيقتها مما لا يسهل على الإنسان أن يحتمله.

سكت قليلا، ثم قال، وهو يرفع يديه إلى السماء، وكأنه يخاطب نفسه: هذا هو التسامي.. فالأنا ـ التي هي المسيطر على الحركات الإرادية ـ تتقبل الدافع الغريزي وتتسامى به، وذلك بأن تحيله من صورته التي هو عليها أو من وضعه إلى وضع آخر ذي قيمة.

ثم أضاف يقول بقوة: إن المنبهات القوية الصادرة عن المصادر الجنسية المختلفة تنصرف وتستخدم في ميادين أخرى بحيث تؤدي الميول التي كانت خطرة في البداية إلى زيادة القدرات والنشاط النفسي زيادة ملحوظة.. تلك إحدى مصادر الإنتاج الفني، وإن تحليل شخصية الأفراد ذوي المواهب الفنية ليدلنا على العلاقات المتغيرة القائمة بين الخلق الفني والانحراف والعصاب، بقدر ما كان التسامي كاملاً أم ناقصاً.. وإن الجانب الأكبر لما نسميه الطبع مركب من مادة المنبهات الجنسية ومؤلف من ميول ثبتت منذ الطفولة أو اكتسبت عن طريق التسامي أبنية الغاية منها كبت الاتجاهات المنحرفة التي استحال استخدامها.

كان في القاعة التي نجلس فيها لوحة كبيرة من رسم (ليوناردو دافنشي)(1)، أشار إليها، وقال: هذه اللوحة دليل لما أقول.. لقد درست هذه اللوحة دراسة متمعنة.. بل درست جميع الجبل الذي كان سطحه (ليوناردو دافنشي)، وسميت تلك الدراسة

1()يوناردو دافينشي (1452 ـ 1519 م)، يعد من أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق وهو مشهور كرسام، نحات، معماري، وعالم.. كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم للمعرفة والبحث العملي، له آثار عديدة على مدراس الفن بإيطاليا امتد لأكثر من قرن بعد وفاته وإن أبحاثه العلمية خاصة في مجال علم التشريح البصريات وعلم الحركة والماء حاضرة ضمن العديد من اختراعات عصرنا الحالي..

(ليوناردو دافنشي دراسة نفسية جنسية لذكريات طفولية)

لقد قمت في ذلك البحث العميق بتحليل شخصية دافنشي تحليلاً نفسياً متكئاً على ملاحظة وجدتها في إحدى أوراق الرسام العظيم.. وهي رؤيا طفولية، فقد روى أنه يذكر عندما كان في المهد أنه رأى نسراً ينزل عليه ويفتح له فمه ويضربه بذيله على شفتيه عدة مرات.

وفي ضوء هذه الرؤيا اكتشفت سر ذلك البطء الذي اشتهر به دافنشي، وهو ينجز أعماله العظيمة، واكتشفت سر تنقلاته الكثيرة، وسر غموض ابتسامة (الجوكندا)(1).. لقد اكتشفت أنه كان ضحية انحراف جنسي على مستوى اللاوعي، تأثرت به حياته، وتأثر به فنه.

أخرج من محفظته (رواية الإخوة كرامازوف)(2) للروائي الروسي (دستوفيسكي)(3).. ثم قال: لقد درست هذه الرواية دراسة تحليلية.. ووجدت في شخصية هذا الكاتب الروائي فناناً وأخلاقياً وعصابياً وآثماً، وبقدر ما يستحقه من مجد وخلود، فإنه سجان من سجاني الإنسانية، وهو سادي يعذب نفسه، ويعذب الآخرين، ومجرم يتعاطف مع الآثمين.

أخرج كتبا كثيرة.. وراح يحللها جميعا بمقاييسه التي وضعها، ثم قال: هكذا وجدت جميع المبدعين.. هم جميعا عصابيون، كثيرو الانطواء، على صدام دائم مع الواقع الذي لا يسمح لهم بإظهار

1() الجيوكاندا: هي لوحة رسمها الإيطالي ليوناردو دا فنشي، وقد بدأ برسم اللوحة في عام 1503 م، وانتهى منها بعد ذلك بثلاث أو أربع أعوام. ويقال أنها لسيدة إيطالية تدعى ليزا كانت زوجة للتاجر الفلورنسي فرانسيسكو جيوكوندو صديق دافنشى والذي طلب منه رسم اللوحة لزوجته.

2() هي رواية للكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي وعموما، وتعتبر تتويجا لعمل حياته.. وقد نشرت في فصول في مجلة (الرسول الروسي) عام 1880.. وقد عالجت كثيراً من القضايا التي تتعلق بالبشر، كالروابط العائلية وتربية الأطفال والعلاقة بين الدولة والكنيسة وفوق كل ذلك مسؤولية كل شخص تجاه الآخرين.. ومنذ إصدارها، هلل جميع أنحاء العالم من قبل المفكرين متنوعة مثل سيغموند فرويد، وأينشتاين، وبينيدكت السادس عشر باعتبار الأخوة كارامازوف واحده من الانجازات العليا في الأدب العالمي.. وهي تدور حول جريمة قتل يقترفها ولد (غير شرعي) في حق أبيه، ويستغرق الأمر فصولاً طويلة قبل أن يصل التحقيق إلى القاتل الحقيقي، بعدما كان هذا التحقيق قد وجه شكوكه في نواح أخرى عدة، ولا سيما في اتجاه الأبناء الآخرين (الشرعيين) للرجل القتيل.. و كان موقف دوستويفسكي من الجاني يبدو واضحا باتجاه المطالبة بالقصاص.

3() هو (يودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي) (1821 -ـ 1881) ولد في موسكو وتوفي في سان بطرسبرج، روسيا.. وهو واحد من أكبر الكتاب الروس، وأعماله كان لها أثر عميق ودائم على أدب القرن العشرين.. شخصياته دائماً في أقصى حالات اليأس وعلى حافة الهاوية، وروايات تحوي فهماً عميقاً للنفس البشرية كما تقدم تحليلاً ثاقباً للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في ذلك الوقت..

دوافعهم الغريزية.. ولذلك يلجؤون لإشباعها إلى عالم الـوهم حيث يجدون بديلاً عن الإرضاء المباشـر لرغبـاتهم، ويسـتعينون للوصـول إلى تحويـل مطـالبهم اللاواقعيـة إلى غايـات قابلـة للتحقيـق من الوجهــة الروحيــة على الأقــل بمــا يمكن تســميته بالقــدرة على التسامي.. وهذه إحدى آليات الدفاع الـتي تعفيهم من القصـاص أو المرض، لكنها ـ مع ذلـك ــ تجعلهم رهـائن عـالم وهمي لن يطـول الأمد به حتى يصبح مرضاً عصابيا.

قلنا: أهكذا اختصر لك سيدك فرويد الإنسان؟

قـال: أجـل.. للأسـف بهـذه الصـورة الباهتـة الحقـيرة اختصـر الإنسـان.. فكـل سـلوك يسـلكه الإنسـان نـاتج عن تلـك الـدوافع الغريزية التي يمتلئ بها اللاشعور..

ومهمــة المحلــل النفســي ــ الــتي تــدربت على يديــه عليهــا ـ منحصره في أن يكشف دلالات هذه الرموز الجنسية التي يستحيل فيها الإبداع إلى استراتيجية من الدعارة المقنعة، والهوس الجنسي المراوغ ؛ لأن كل قائم في صـورة إنمـا يرمـز إلى عضـو الـذكورة، وأن كـل تجويـف يعـني أعضـاء المـرأة التناسـلية، وأن العمـود أو التمثال المنحوت لجسـم إنسـان منتصـب لم يكن في الأصـل غـير رمز لعضو التناسل، وأن الجزء الداخلي من المبني يرمـز إلى رحم المرأة.. وهكذا.

قلنا: فكيف ظهر لك أن تتركـه، هـل هنـاك أسـتاذ آخـر حـذرك منه، أو نقد لك توجهه؟

قال: إن كان هناك أستاذ يمكن أن يكون سببا في تحـذيري من فرويد.. فهو فرويد نفسه.

قلنا: هل بلغ به الورع أن حذرك من نفسه؟

قال: مثله لا يعرف الورع.. لقد كان سـلوكه هـو الـذي جعلـني أنفر منه.. لقد كان أنموذجا مشوها عن الإنسان، فلذلك لم أتصــور أن في مقدرة رجل مثله أن يدعي كل تلك الدعاوى العريضة.

لقد رأيت فيه ـ بعد أن ذهبت تلك الهالـة الـتي رسـمت حولـه ـ شخصية مضطربة مريضـة جـديرة بـأن تبحث عمن يعالجهـا، لا أن تكون مصدرًا لرسم أسس لدراسة النفس البشرية.

لقد كان (فرويد) مجموعة من العقد النفسية والعادات الغريبة، ولم يستطع أن يشفي عقله البـاطن من هـذه العقـد النفسـية إلى آخر حياته.. كان يتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها.. وكان يؤمن بأنه سيموت في نهاية الحـرب العالميـة الأولى، فمـات

في بداية الحرب العالمية الثانية.. وكان يدخن عشرين سيجارًا في النهار ليهدئ من ثوراته العصبية(1).. وكان عرضة للإغماء على أثر المفاجآت.. وكانت مرارة الطبع خلة ملازمة له في علاقاته بغيره.. وكانت لأحلامه وجوه خفية ترمز إلى دلائلها في سريرته الباطنة.. وكانت له ضروب من القلق، تنم على باعث من بواعث الحيرة المكتومة.. وكان في أظهر أحواله يحارب التشبث بالعقائد الدينية والعادات الخلقية، ويتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات تشبثًا يربو في إصراره وشدته على تعصب المتعصب اللدود لمذهبه ودينه.

وكان في طفولته ـ كما ذكر لي ـ ينسى نفسه ليلا في فراشه، وكان يخشى من السفر بالقطار، ويحضر إلى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة، وكان دائم العزلة، لا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلا.

وفوق ذلك، فقد ذكر لي صديقي (أرنست جونس).. وقد ذكر ذلك في كتابه (حياة وأعمال فرويد) خطابه إلى صديق له يقول: (لست في الحقيقة رجلا من رجال العلم، ولا من رجال الملاحظة ولا التجربة، لست مفكرًا، أنا لست إلا مغامرًا بطبيعة مزاجي وتكويني، ولديَّ كل ما عند المغامر من فضول ومثابرة وجسارة)

قلنا: لا يمكن أن نحكم على أفكار الشخص من خلال سلوكه.. فالسلوك ـ مهما كان منحرفا ــ لا يدل بالضرورة على انحراف صاحبه.

قال: صدقتم.. فلذلك طالت صحبتي له مع ما أراه من سلوكه.. لقد كنت أقول لنفسي :(خذي الحكمة.. ولا يهمك من أي وعاء خرجت)

قلنا: فما الذي صرفك عنه بعد هذا؟

قال: الفطرة.. الفطرة وحدها دلتني على الأوهام التي وقع فيها فرويد عن قصد(2) أو عن غير قصد..

1() عُرِفَ فرويد بإدمانه للسيجار، ومن العجيب أنه لم يتخلَّص من إدمانه هذا إلى أن أُصيب بسرطان الحَلْق عام 1923، وأجرى عدة عمليات لاستئصاله، إلا أن الألم وعدم الراحة لازماه إلى أن طلب من الطبيب إعطاءه جرعة مميتة من المورفين عام 1939 للتخلص من أوجاعه ومن حياته منتحراً.

2() قلنا هذا، ونحن نشك في مدى صدقه بناء على ما ورد فيما يسمى (بروتوكولات حكماء صهيون) من قوله :(يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا.. إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه)

أولا.. لقد رأيت الخطر العظيم الـذي تحملـه أفكـار فرويـد عن الإنسان في السلوك الإنساني.. لقد ساهم ما طرحه من فكــر في تحويل البشرية إلى غابة من الحيوانات لا هم لها إلا إرواء غرائزها..

ثم تأملت في الواقع، فرأيت أنه لا تكاد توجد نظرية واحدة قــد أحـدثت مـا أحدثتـه من الانقلاب في سـير المجتمعـات إلا نظريـة دارون من قبل، ونظريـة كـارل مـاركس الـتي سـبقت فرويـد في الـزمن ولكنهـا لحقتـه في التنفيـذ.. لقـد اعتنقت آراءه الجمـاهير، يظاهرها في ذلك كثير من العلماء، ولم يكتفـوا بنصـوص نظرياتـه، بـل توسـعوا في تفسـيرها على هـواهم، وآمنـوا جميعـاً بـأن الأمـر الطبيعي هو أن تنطلق الغرائز من معقلها، ولا تقف عند حد إلا حــد الاكتفاء.

وقد بحثت في أسباب هـذا الإقبـال الجمـاهيري.. فوجـدت أنـه ليس نابعا من دواعي البحث والمعرفة والعقل.. وإنما هـو نـابع من دوافع نفسية لا علاقة لها بالعقل أو بالعلم:

لقد رأيت أن من أهم الأسباب هو تلك الثورة التي ظهـرت بين قومنا على تعاليم الكنيسـة الـتي رأينـا فيهـا حجـراً على الحريـات، وسبباً للعقد والانحرافات الخلقية.

ثم ذلك الانبهار غير الواعي بالعلم وبمنجزات العلم..

ثم جاءت الحـرب العالميـة الأولى، ومـا نتج عن ذلـك الشـباب المسجون في متاريس الحرب، والذي قضى شـبابه في السـجون والخنـادق والمعتقلات، وتعـرض لحـروب الميكروبـات، والغـازات السامة، فخرج لا يفتش إلا على إشـباع غرائـزه الحيوانيـة، فكـان فرويد هو الهادي، والداعي إلى هذه السنة، فلذلك كان في نظرهم أحد صناع الحضارة الحديثة في القرن العشرين.

قلنا: أنت لم تنـاقش أفكـاره من الـداخل.. بـل اكتفيت بـالنظر إلى آثارها؟

قال: لا.. لم أكتف بآثارها.. لقـد تعمقت في المنهج الـذي كـان فرويد يفكر به.. فوجدت أنه منهج بعيد عن العلم والعقلانيـة.. فقـد اعتمد فرويد في آرائه على الحـالات المرضـية الشـاذة الـتي كـان يعالجها، والتي من خلالها أخذ يفسر السلوك المـتزن العـادي لـدى الأسوياء في ضوء ما عاينه من السلوك الشاذ عند المصابين.

لقـد رأيتـه يسـتخلص نظريتـه من معالجـة أفـراد من الطبقـة

وشـكنا في هـذا لا ينفي اعتقادنـا الجـازم بـأن أصـل مـا جـاء بـه فرويـد مسـتنبط من المعتقدات اليهودية، وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

المتوسطة في مدينة فيينا، كانت هذه الطبقة تتعرض لعوامل الكبت الجنسي وأنواع المحرمات الاجتماعية بالنسبة للعلاقة بين الجنسين، فهم ليسوا بأسوياء، وفيهم ما فيهم من عُقد نفسية جعلت همهم الأكبر والدافع الأول لسلوكياتهم هو الدافع الجنسي.

ثم رأيت أنه يشكك في العقل.. بل يعتبره مجرد خادم للغريزة، وليس هادياً إلى الحقيقة، ووظيفته ليس الحدس بالحقيقة، بل الإقناع بما نعتقده غريزياً، ولهذا فنتائجه لا يمكن الوثوق بها لأنها تبرير لمتعقداتنا فهو أداة ضعيفة في مجال المعرفة.

ثم رأيت أن الإرادة في التحليل النفسي ليست ملكة تُمارس بحرية، إذ ليس بمقدور الإنسان أن يضبط نفسه، فأساليب الإنسان في الحياة نتاج رغبات لاشعورية في أعماق نفسه، وعلى هذا ليس هناك ما يسمى بحرية الإرادة، ولم ينتج عن هذا التصور سوى الانزلاق في الشهوات، والاستغراق في الملذات.. بل إن فرويد كان يصيح بملء فيه:(إن كبح الدافع الغريزي مضر بالشخصية، ويورث الاضطرابات العصبية، والسخط من الحياة)

وفوق ذلك كله، فقد أثبتت الأبحاث التجريبية خطأ ما ذهب إليه فرويد حول الطفولة، وما يدور حولها، فقد أعلن فرويد بأن معارضة رغبات الطفل في صغره ومحاولة الأهل في أن يروضوه على النظام وأصول السلوك تؤثر في تصرفاته إذا كبر، ولذلك كان يرى أنه يجب أن يترك الطفل حرًا بدون توجيه حتى لا يكون ذلك مصدر عقد في حياته.

وقد روج علماء النفس والتربية لهذه النظرية على نحو اتخذ منها وسيلة لهدم أصول التربية وبناء الشباب تحت تهديد وهمي، غير أن العلماء الذين قاموا بإحصائيات وتجارب في البيئة نفسها، تبين لهم فساد هذه النظرية وعدم جدواها، وأن بعض العلماء الأمريكيين أعلن بعد دراسات طويلة بضرورة استخدام الضرب كوسيلة لتقويم الطفل، وقيد الضرب(1)، وقال: (إن مسلك الطفل لا يتأثر بعامل واحد كما ذكر فرويد، ولكنه يتأثر بعدد كبير من العوامل، منها: البيئة والوسط والحالة الاجتماعية، فلا سبيل لإخضاع الطفل إلى نسق واحد)

وقد أجرى الدكتور اسكندر توماس عددًا من البحوث بمعرفة فريق من الأطباء النفسيين، انتهى منها إلى أن نظرية فرويد لم

1() ليس المراد هنا تأييد هذا الرأي، وإنما القصد هو الرد على ما ذهب إليه فرويد.. أما الضرب في حد ذاته، فهو وسيلة من الوسائل التي يلجأ إليها بعد نفاذ كل الوسائل.. انظر (الأساليب الشرعية في تربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

تكن مطلقـة، وأنهم درسـوا في تجـربتهم أحـوال 158 طفلا غـير منحــرفين، منهم الفقــراء والأغنيــاء، وقــد نشــأ الأولاد أصــحاء مستقيمين بالرغم من القيود القاسية في تـربيتهم، ودل ذلـك على أن مسلك الطفل لا يتأثر بالتوجيه الأبوي، ولا بالزجر أو بالضرب.

كذلك أثبتت الدراسات العلميـة بمـا لا يقبـل الجـدل أن الـدافع الجنسي يأتي في مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى كالدافع إلى الهـواء أو الشـراب أو المـال(1)، ثم إن هـذا الـدافع الجنسـي يخضع للتربية والتوجيـه، بمعـنى أننـا نسـتطيع تربيـة الإنسـان على العفة بحيث يضبط دافعه الجنسي، ويتحكم فيه.

وبذلك تكون العفة أمرًا ليس ممكنًا فحسب، بل ضروريًا، كذلك أثبتت الأبحاث أن هناك تنظيمًا طبيعيًـا للشـهوة في الإنسـان بحيث يستطيع كثير من الوسائل كالرياضة الجسدية أو الروحية أو الشعر أو الموسيقى أن تستوعبه.

كذلك قال الباحثون: إن دعوى فرويد الأساسية هي أن المرض العصبي (العصاب) ينشأ عن أمـور جنسـية طفوليـة مكبوتـة، ولكن البحث أثبت أن الأمـور الجنسـية الطفوليـة المكبوتـة ليسـت وقفًـا على الذين أصيبوا بعصاب في وقت ما في حياتهم، ولكنها موجودة عند كل إنسان، وتشكل عاملا هامًا في حياته.

وهكذا وجدت أن ما دعا إليه فرويد من أن الطفـل يعـاني ممـا أسـماه كبت الميــول الجنســية، ليس إلا أكذوبــة، أراد بهــا تــبرير الإباحــة، وأثـار بهـا الخـوف في النفـوس حـتى يحـول بين إعـداد الشباب وتربيتهم وإعدادهم إعـدادًا خلقيًـا، وأن مـا يـرمي إليـه من ترك الميول حرة تسلك سبيلها إلى مـا تشـاء، وأن ييسـر لهـا هـذا السبيل ليس إلا دعوة صريحة إلى الإباحية(2).

الشيطانية:

قلنا: فعلى من تتملذت بعد فرويد؟

قال: على تلميذ من تلاميذ فرويد..

قلنا: عجبا.. أتترك الإسناد العالي وتنزل للنازل(3)؟

1()أثبتت التجـارب أن الـدافع الجنسـي يـأتي في المرتبـة الرابعـة بالنسـبة للحيـوان، يتقدمها دافع الأمومة بنسبة 22.8%، ثم العطش بنسبة 20.4، ثم الجوع بنسبة 18.2%، وأخيراً الدافع الجنسي بنسبة 13.8% !.

2() انظر: سلسلة دراسـات إسـلامية معاصـرة، الفرويدّيـة، أنـور الجنـدي، منشـورات المكتبة العصرية.

3() يراد بالإسناد العالي ـ عند المحدثين ـ ما قَلَّ عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يَـردُ به ذلك الحديث بعدد أكثر.. وعكسه (الإسناد النازل)، هو الذي كـثر عـدد رجالـه بالنسـبة إلى سند آخر يَرِدُ به ذلك الحديث بعدد أقل.

قال: لقد كنت مقتنعا ذلك الحين اقتناعا تاما بتأثير اللاشعور في حياة الإنسان.. ولكني لم أقتنع بما طرحه فرويد من طروحات حول نوع اللاشعور المسيطر على الإنسان..

قلنا: فهل وجدت في هذا التلميذ ما دلك عليه؟

قال: أجل..

قلنا: من هو؟

قال: هم كثيرون.. كان أولهم رجل يقال له (**إدلر**)(1).. لقد جاءني في اللحظات التي بدأ الشك فيها يتسرب إلي من رؤى فرويد، وقال لي، وهو يهمس في أذني: أتدري.. لقد كان سيدنا فرويد مخطئا خطأ شديدا في إرجاعه السلوك الإنساني إلى الجنس(2).. لا.. ليس الأمر كما يقول.. لقد بحثت وحللت.. فوجدت أن الموجه للسلوك الإنساني أمر أخطر بكثير من تلك النزوات

1() هو ألفرد أَدلَر (1870 -ـ 1937م)، وُلد أدلر في مدينة فيينا بالنمسا، وقد كان اختصاصيًا في العيون وطبيبًا للأعصاب قبل أن يُصبح طبيبًا نفسانيًّا.. عمل أدلر مع سيجموند فرويد في الفترة من عامي 1902 و1911م. وفي الفترة ما بين عامي 1919 و1934م، ثم أسّس مستوصفات توجيه الطفولة في فيينّا كما قام بتدريب المعلّمين، وعمل مع الآباء وأشرف على نشاطات المعلّمين الخاصّة بتعلم كيفيّة تمريض الأطفال الّذين يعانون الاضطرابات، وفي عام 1934م انتقل أدلر إلى نيويورك.

وهو يرى أن القوة الرئيسية للنشاط البشري بوجه عام ما هي إلا نضال لتحقيق الرّفعة والكمال، وقد أشار أدلر في البداية إلى هذه القوة بوصفها دافعًا نحو الوصول إلى السلطة، ولكنه سمّاها مؤخرًا النّضال نحو الرفعة. وسمى مدرسته الفكريّة (علم النفس الفردي)، ويشار إلى هذه المدرسة في وقتنا الحاضر، أحيانًا، بـ (علم النفس الأدلري)

2() لقد قدر الله أن يرى فرويد في حياته بداية انهيار نظرياته.. والذي استمر إلى اليوم.. فمع الجهود الكبيرة التي حاول بها أتباع فرويد السيطرة على مناهج التعليم والتربية والدوائر العلمية، غير أنها في سنوات تالية قليلة، انكشف عوارها، حتى إن الأطباء النفسانيين الذين اجتمعوا لإحياء ذكرى فرويد في مدينة شيكاغو عام 1956، وعدتهم نحو أربعة آلاف، فوجئوا بحملة عنيفة على فرويد ومذهبه، يتولاها رجل مسؤول عن مركزه العلمي هو الدكتور برسيفال بيلي مدير معهد النفسيات بولاية ألنيواز.

وخلاصة حملته: أن البقية الباقية من طب فرويد قليلة لا يؤبه بها، وأن آراءه لا تضيف شيئًا إلى القيم الإنسانية لأنه يرتد بالإنسان إلى أغوار الباطن، ويهمل جانبه المنطقي الشاعر، وأنه لم يكن يفهم المرأة، ولم يكن يتذوق الموسيقى، ولا يحس جلال العقيدة.

وقال باحث آخر: إن نظرية فرويد عن العقل الإنساني لا تقوم على أكثر من افتراضات خيالية، انتزعت مادتها من الأساطير والتخمينات التي سبق رفضها في مجال الدراسات المتعلقة بتاريخ الإنسان.

وقد كشفت الأبحاث التي نشرها الكتاب اليهود في السنوات الأخيرة عن علاقة جذرية وعميقة بين نظريات فرويد وبين نصوص التلمود، وقد ظلت هذه النظرية تخدع مئات العلماء ببريقها الزائف سنوات طويلة حتى أعلنت هذه الحقائق، ومن بين الذين كشفوا هذا السر الدكتور صبري جرجس في كتابه (التراث اليهودي الصهيوني في علم النفس ونظرية فرويد) حيث أشار إلى التركيز الخطير الذي قامت به القوى المسيطرة على الإعلام والآداب والفنون والجامعات في الغرب على نظرية فرويد واحتضانها على هذا النحو المريب، بالرغم من أنها لم تكن صحيحة علميًا، بينما أخفتت أصوات النظريات الأخرى الأكثر قربًا من الحقائق العلمية.

الحقيرة الموقوتة..

نظـرت إليـه، والفرحـة تملأ أسـارير وجهي، وقلت: فمـا الـذي اكتشفت؟

قال: الشعور بالنقص..

قلت: الشعور بالنقص !؟.. ما تقصد؟

قـال: لقـد رأيت أن كـل نشـاط يمكن تفسـيره بهـذه القـوة الدافعة.. قوة الشعور بـالنقص.. لقـد رأيت أنـه قـوة الـدفع الأولى للسلوك.. لقد كتبت في ذلك كتابا أثبت فيه هذا.

ناولني كتابا كان بيده، وقـال: هـذا هـو الكتـاب.. لقـد سـميته.. (فهم الطبيعة البشرية).. اسمع ما أقول فيـه:(إن كـل طفـل وهـو يقف بمفرده أعزل عن معونة الآخرين لا يلبث أن يشعر إن عـاجلاً، أو آجلاً بعجزه عن معالجة شـؤون العـالم الـواقعي، وهـذا الشـعور بالعجز هو القوة الدافعة ونقطة الارتكاز الأولى التي يبدأ منها جهـاد الإنسان، وهو يقرر الهدف الأقصى لوجوده)

أغلـق الكتـاب، ثم نظـر إلي، وقـال: الطفـل حين يولـد، يكـون بحاجـة إلى نـوع من الرعايـة والاهتمـام، وهي رعايـة سـرعان مـا تستحيل في نظر الطفل إلى نوع من التسلط على نفسيته ؛ لأنهـا تشعره بعجزه، الأمر الذي يولّد لديه شعوراً بالنقص، مما يفضي به إلى أن يبـني لنفسـه عالمـاً من الخيـال يكـون فيـه سـيداً مطاعـاً، ويسعى إلى تقديم نفسـه للآخـرين على أنـه مركـز القـوة، وسـيد القرار.

قلت: أنت تقلد سيدنا فرويـد في تركـيزه في تحليلـه للسـلوك الإنساني على سنوات الطفولة الأولى؟

قال: نعم.. لقد اكتشفت أنها الموجّه للسـلوك في المسـتقبل، لأن الأساليب التي يتخـذها الطفـل للتعـويض عن شـعوره بـالنقص

يقول الدكتور صبري جرجس: (لفت انتبـاهي حقيقـة كـبرى، تلـك العلاقـة الوثيقـة بين فرويد رجل العلم والتحليـل النفسـي والفكـر العـالمي من ناحيـة، وبين الـتراث اليهـودي الصهيوني والصهيونية، والعمل السياسي الديني العنصري من ناحيـة أخـرى، وكمـا تبـدي لي ليسـت علاقـة مصـادفة، ولكنهـا علاقـة أصـل ومسـار وهـدف، وأشـار إلى أن فرويـد وأصحابه الذين حملوا لواء فكرته من بعده كـانوا جميعًـا من الصـهيونية (سـاخس، رايـك، سالزمان، زيلبورج، شويزي، وتيلز، فرانكل، كاتز، فينكل)

وأشار إلى عدة عبارات وردت في كتابـات يهوديـة لفتت نظـره إلى مـا يـراه الآن من علاقة بين الصهيونية وبين نظرية فرويـد، وليس ذلـك إلى مـا أشـار إليـه باكـان في بعض خفايا التراث اليهودي الصـهيوني الـتي لهـا علاقـة بالتحليـل النفسـي، بـل إلى مـا ذكرتـه صراحة الكتابة (ترود، وايز، مارين) عن: كيف تحتقر اليهوديـة العقـل الغـربي مزيفـة في سبيل ذلك وقائع الماضي وأحداث الحاضر، آمنة بعـد ذلـك من الافتضـاح، ومطمئنـة آخـر الأمر إلى التصديق. (انظر: سلسلة دراسات إسلامية معاصرة، الفرويدّية، أنور الجندي)

تقرر طبيعة الهدف الذي يوجه نشاطه خلال حياته كلها.

قلت: ولكن.. هل أمكنك تفسير كل النشاط الإنساني بهذا الدافع؟

قال: أجل.. لقد وجدت أن كل النشاط الإنساني تعبير عن هذا الشعور.. فقط الناس يختلفون في طبيعة النقص، وطريقة التعبير عنه وتعويضه..

وقد وجدت أن هذا التعويض لا يتم إلا على أنقاض الآخرين من خلال قوة الإرادة، وفرضها على الجماعة، والتسلط على المجتمع، فلا يمكن أن تتحقق الأهداف من دون الكفاح، والاقتحام..

قلت: ألا يمكن تحقيق الأهداف عن طريق الألفة والتعاون مع المجتمع..

ضحك ضحكة عالية، وقال: لا.. لا يمكن للفرد النجاح في مساعيه، وهو يحمل هذه القيم.. إن النجاح لا يعني عندي إلا شيئا واحدا.. هو الحيلولة بين الآخرين وبين تحقيق أهدافهم.

قلت: إن هذا يجر إلى الصراع؟

قال: لا يمكن للحياة أن تستقيم بلا صراع.. أليست المادية الجدلية عند لينين، والمادية التاريخية عند ماركس صراع على مطالب الإنسان في هذه الحياة؟

قلت: بلى..

قال: لا يمكن لنظرية من النظريات أن تنجح، وهي تستظل بظل السلام.

قلنا: فهل صحبت هذا المصارع؟

قال: أجل.. وتعلمت على يديه.. ولا أنكر أني استفدت الكثير من أفكاره.. لكني في الأخير تركته.

قلنا: لم؟

قال: لقد علمت بصحبتي له علم اليقين صدق ما قاله لي صديقي الفيلسوف الإنجليزي جود.. لقد قال لي:(بينما يذهب فرويد إلى الكشف عن جانب الوحش في الإنسان، فإن إدلر يذهب إلى الكشف عن جانب الشيطان المتمرد فيه)

الأسطورية:

قلنا: فمن صحبت بعده؟

قال: لقد جاءني رجل يسمى (**يونج**)(1) بعد أن علم عزمي

1() هو كارل جوستاف يونج (1875-1961م)، وهو عالم سويسري مختص في علم النفس والطبّ النفسي، قام بتطوير مجال علم النفس التحليلي، ولد في مدينة بازل لأب كان يعمل قسيسًا، ومنذ صغره كان لديه اهتمام دائم بالخرافات والأساطير

على ترك صداقة (إدلر)، وقال لي: هلم إلي؟

قلت: من أنت؟

قال: أنا الذي تجد عنده الحقيقة التي تهت في البحث عنها.

قلت: ما اسمك؟

قال: لا يهمك اسمي.. فاسمي هو اسم الجماعة.. فليس هناك اسم خاص لي.. كما أنه ليس هناك اسم خاص لكل من تراهم من الناس.

قلت: فما ترى في الإنسان.. أو ما ترى في الأعماق التي ينبني عليها سطح الإنسان؟

قال: أنا بسيط جدا.. وواقعي جدا.. فلذلك لن أسلك بك تلك المتاهات التي سلكها بك صديقي فرويد..

قلت: فأنت تنكر اللاشعور إذن؟

قال: لا.. أنا لا أنكره.. ولكني اكتشفت بديلا للاشعور الذي وضعه فرويد.. فإن كان اللاشعور الشخصي هو محور نظرية فرويد في بناء الشخصية ونموها، فإن **اللاشعور الجمعي** هو جوهرها عندي.. أنا يونج.. وهو عندي صور ابتدائية لا شعورية، أو رواسب نفسية لتجارب ابتدائية لا شعورية، لا تحصى، شارك فيها الأسلاف في عصور بدائية، وقد ورثت في أنسجة الدماغ، بطريقة ما، فهي - إذن - نماذج أساسية قديمة لتجربة إنسانية مركزية.

قلت: الوعي الإنساني عندك إذن ليس مقصوراً على علاقة الطفل بوالديه كما ذكر فرويد؟

قال: أجل.. الوعي الإنساني عندي.. أنا يونج.. إنما يتشكل في ظلال مخزون ثقافي موروث يمتد حتى تجربة الإنسان البدائي مع الكائنات والأشياء، وقوام هذا المخزون هو ما أسميه بـ (اللاشعور الجمعي) أو (الأنماط العُليا)

قلت: الأنماط العليا!؟

قال: أجل.. وهي تتشكل من تلك الأساطير التي يحركها نداء اللاوعي، فتبدو في أحلام الأفراد ورؤى الفنانين العرافين، كي تعيد التوازن النفسي للعصر.

قلت: فمحور نظريتك ينطلق من الأنماط العليا إذن؟

والسحر.. استخدم يونج في وقت مبكر من حياته العملية نظريات التحليل النفسي التي استحدثها فرويد. وتقابل الاثنان في عام 1907م، وتوثقت صلتهما، وشارك يونج في حركة التحليل النفسي. وفي وقت لاحق بدأ يونج يعتقد أن فرويد اهتم أكثر من اللازم بالغرائز الجنسية في سلوك الإنسان. وقد أدى عدم تركيز يونج على الجنس إلى تخليه عن فرويد وانتهاء صداقتهما في عام 1913م. وأصبح أستاذًا في علم النفس الطبي في جامعة بازل عام 1943م.

قال: أجل.. ولها عندي.. أنا يونج.. مرتبتان:
أما المرتبة الأولى، فقد أسميتها (الأنماط العليا الشخصية) كنمط الظل، والقِران المقدس والأنيما، وهذه تبرز في شكل شخصي فترى مباشرة.. فالإنسان يلتقي أولاً مع ظله أو مع وجهه الذي يخفيه بواسطة الشخصية، ويلتقي بوالديه اللذين يشكلان له نمط القِران المقدس، ويواجه أحوال اللاشعور، وهي الأنيما أو النفس.
أما المرتبة الثانية، فقد أسميتها (أنماط التحول)، كنمط الأم، ونمط الطفل، ونمط البنت.. فنمط الأم يحمل صورة الأم الطبيعية، والأم الأرض، والأم الروح، ونمط الطفل يحمل صورة الطفل الإله أو الطفل البطل، ونمط البنت يحمل صورة العذراء، والأنثى المجهولة، والأنثى الخرافية، والأنثى الأضحية.
وعلى هذا تكون هذه الأنماط الشخصية، وأنماط التحول ميراثاً إنسانياً انبثق من تصور الإنسان البدائي للكون، وهو ما يسمى بالأساطير.
قلت: أراك تعطي مصداقية كبرى للأساطير مع أنه لا دليل عليها.
لست أدري كيف غضب غضبا شديدا، وقال: لا.. ليست الأساطير كما تزعم.. إن الأساطير هي تاريخ البشرية الأولى.. نعم تنوسيت ملامحه الدقيقة، وأضفى الخيال الإنساني عليه جواً فضفاضاً.. لكنه يظل مع ذلك هو تاريخ الإنسانية الأول.
قلت: وما تقول في الأساطير التي تؤرخ للآلهة؟
قال: لقد ذكرت لك أن العقل الإنساني أضفى خيالا على الحقائق التاريخية التي تحملها الأساطير، فلذلك، فإن الأساطير المرتبطة بالآلهة ليست في الحقيقة إلا تأريخا لعصر الأبطال، حين كان الإنسان يعجب بالقوة والجبروت، والبطولة في شتى ألوانها المادية والمعنوية، ويتطور هذا الإعجاب عند الأجيال إلى نزعة من التقديس تتلاشى معها حيناً بعد حين الحدود الفاصلة بين المحدود المطلق، وبين حقائق الواقع الإنساني، وخفايا الوجود الغيبي، فتصل إلى حد عبادة الآباء، ثم تصل إلى تناسي هذه الأبوة، ودخولها في مرحلة تالية.
قلت: سلمت لك بهذا.. فما تقول في عبقرية الإبداع الفني.. هل تراها كامنة في هذه الصور الأسطورية؟
قال: أجل.. فالصور الأسطورية هي التي تشكل قاسماً

مشتركاً بين الناس.. إنها هي التي تطلق قوى المخيلة للمبدع.. ومن هنا كانت الروائع في الأعمال الفنية خالدة ولا وطن لها.. ذلك لأنها إنما تنبع من اللاشعور الجمعي، حيث ينبسط التاريخ وتلتقي الأجيال، فإذا غاص الفنان إلى هذه الأعماق فقد بلغ قلب الإنسانية، وإذا عرض على الناس قبساً من هذا المنبع العظيم عرفوا أنه منهم ولهم.

قلت: لقد ذكر لي فرويد أن الإبداع يعتمد على التسامي..

قاطعني، وقال: أخطأ فرويد.. الإبداع لا يعتمد على التسامي.. بل يعتمد على الإسقاط.

قلت: ما الإسقاط؟

قال: هو العملية النفسية التي يحول بها الفنان تلك المشاهد الغريبة التي تطلع عليه من أعماقه اللاشعورية إلى موضوعات خارجية يمكن أن يتأملها الأغيار.

قلت: كيف يتم هذا الإسقاط؟

قال: هذا الإسقاط لا يتم إلا من خلال الرمز الناتج عن إطلاع المبدع حدسياً على اللاشعور الجمعي، ولهذا كان إبداع الرمز أعظم وظائف اللاشعور؛ لأنه أفضل صيغة ممكنة للتعبير عن حقيقة مجهولة نسبياً.

السلوكية:

بعد أن حدثني أستاذي (يونج) بتلك الأحاديث، بل أقنعني بها، لم يعد لي من هم في حياتي إلا البحث في الأساطير والخرافات القديمة لأحاول أن أجد من خلالها حقيقتي..

كان البحث مضنيا.. وكان فك الرموز أكثر صعوبة.. وفوق ذلك لم يكن لي من الدلائل ما يقنعني بصحة أي من التحليلات الكثيرة المتناقضة.

في غمرة تلك الجهود الشاقة جاءني أستاذي السادس، ليخرجني من تلك المتاهة، ويدخلني متاهة أخرى.

قلنا: من أستاذك السادس؟

قال: رجل يقال له (**واطسون**)(1).. شيخ (**المدرسة**

1() هو جون برودس واطسون، (1878 -ـ 1958م). عالم نفسي أمريكي هو زعيم المدرسة السلوكية في علم النفس، وكان عمله الأول في مجال بيولوجيا وطب وسلوك الكائنات الحية الدنيا، قد دفعه هذا إلى الشك في وجود العمليات العقلية التي يدعي علماء النفس دراستها، وأخذ على عاتقه مهمة تقديم تفسير لسلوك كل من البشر والحيوانات في إطار بدني وفسيولوجي خالص وذلك في كتابه (علم النفس من وجهة نظر عالم سلوكيات)

السلوكية)(1).. كان يحمل بعض الآلات التي تعود علماء الطبيعة أن يحملوها.. وقد بدأني بقوله: دع عنك أحاديث العجائز، وتعال إلي، فلن تعرف (أنا) من دوني.

قلت: ولكني أرى عليك ملامح نيوتن(2) لا ملامح فرويد.

ضحك، وقال: ومتى استطاع ذلك الأبله المتعلق بأحاديث العجائز أن يفهم الإنسان؟

قلت: وهل استطاع نيوتن أن يفهم الإنسان؟

قال: أجل.. نيوتن الذي استطاع أن يفسر الكون هو الوحيد المخول بأن يفسر الإنسان، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يفهم الإنسان.

قلت: نيوتن يفهم الآلة.. لا الإنسان؟

قال: ليس الإنسان سوى آلة.. لا تختلف عن أي آلة..

قلت: والعقل!؟

ضحك ضحكة هستيرية، وقال: العقل.. ما العقل!؟.. هل رأيته؟

قلت: الكل يذكر العقل.. ويذكر الشعور.. بل ويذكر اللاشعور..

قال: ما الإنسان إلا ما تراه من جسمه.. أما ما تسميه الشعور فلا يعدو أن يكون حصيلة ثانوية لعمليات جسمية، يصاحبها أحياناً، وإن كان ذلك يحدث بصورة عرضية.

سكت قليلا، ثم استأنف يقول: لست وحدي الذي يقول هذا.. حتى ماركس.. ذلك الأحمق الشيوعي كان يقول:(في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محددة لا غنى عنها، وهي مستقلة عن إرادتهم، وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محدودة من تطور قواهم المادية في الإنتاج، والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتي تطابقها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي. فأسلوب الإنتاج في الحياة

1() المدرسة السلوكية عبارة عن مجموعة من النظريات الفرعية التي ترتكز على أساس مسلمات و مبادئ واحدة ومن النظريات السلوكية الرئيسية نظرية الاشراط الكلاسيكي بريادة بافلوف ونظرية الاشراط الإجرائي بزعامة سكنر ونظرية التعلم الاجتماعي بريادة باندورا ونظرية العلاج العقلاني الانفعالي لاليس ونظرية العلاج متعدد الوسائل لازورس.

2()النظرية السلوكية متأثرة أساسا بنظرية نيوتن، مما أدى الى تسميتها بـ (النظرية الذرية) وهي قريبة، في تحليلها السلوك بالفعل ورد الفعل، من الشكل الميكانيكي، فلكل فعل رد فعل مساو له في المقدار، ومختلف عنه في الاتجاه.

ولهذا انتقدت النظرية السلوكية من منطلق المقارنة بالنظرية الميكانيكية نفسه (نيوتن)، فهي تنطلق، في تحليل السلوك، من المثيرات والاستجابات من دون الاهتمام بجانب الادراك في تفسير السلوك.

المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم)

قلت: ولكنك بنزع العقل من الإنسان لن تبقي له أي شيء؟

قال: بل أعيده إلى ذاته.. فمن الخطر ومن الخطأ أن يظل الإنسان يبحث في الأساطير عن ذاته.. بينما ذاته أمامه يستطيع أن يشرحها كما يشاء.

قال ذلك، ثم نظر إلي ليتأمل تأثير كلامه علي، ثم قال: لقد ظلت المادية تعاني ضعفاً منذ أن كانت تفتقد هذه الحلقة أي منذ كان الميكانزم العصبي مجهولاً، واستغل المثاليون هذا الضعف، واستفاد منه الرجعيون لنشر الجهل وتشويش الفكر وخلق أساطير عن الطبيعة البشرية..

قال ذلك، ثم نظر إلي، فوجدني لا أزال لا أنبس ببنت شفة، فقال: تعال معي.. لا يمكن أن تقتنع قبل أن ترى بعينك.. فليس الخبر كالعيان.

قلت: إلى أين تريد أن تأخذني؟

قال: ألست تبحث عن الإنسان؟.. تعال أريك الإنسان.

سرت معه في كثير من المتاهات إلى أن وصلنا حجرة سمعنا فيها صياح كلب.. فالتصقت به، وقلت: أنا أخاف من الكلاب.. هيا بنا نبتعد عنها.

قال: لن تفهم الإنسان حتى تفهم الكلاب.. تعال معي.

دخلنا حجرة استقبلنا فيها رجل اسمه (**بافلوف**)(1).. لم يطل به ترحيبه لنا.. بل قادنا إلى حيث يوجد الكلب الذي أفزعني نباحه.. ثم قرع جرسا، فإذا بالكلب يسيل لعابه بقوة.. قال لنا بافلوف: انظروا.. لقد عودت هذا الكلب على أن لا أقدم له الطعام إلا بعد أن أقرع الجرس.. انظروا تأثير ذلك عليه.. صار الجرس عنده مثيرا.. لقد استطعت أن أستبدل رائحة الطعام بصوت الجرس.

1() هو بافلوف، إيفان بتروفيتش (1849ـ 1936م) عالم روسي من علماء علم وظائف الأعضاء، نال جائزة نوبل في علم وظائف الأعضاء عام 1904م، عن بحثه في الهضم. فقد أوضح كيف أن العصب المعدي يتحكم في انسياب العصارات الهضمية للبطن وللبنكرياس.

ظل بافلوف ـ خلال الثلاثين سنة التي تلت تلك الفترة ــ يدرس عمل الدماغ، وقد اكتشف أنه يمكن لتكرار ترابط مثير صناعي، مثل الجرس، أن يقوم مقام المثير الطبيعي مثل الطعام في إحداث رد فعل فسيولوجي متمثل في سيلان اللّعاب. وأطلق على هذا اسم المنعكس الشرطي. وكان بافلوف يؤمن بأن كل العادات المكتسبة، بل حتى الأنشطة العقلية العليا للإنسان تعتمد على سلسلة من الانعكاسات المشروطة.

التفت إلى صاحبي، وقلت: لقد أخبرتني أنك ستدلني على الإنسان.. فأين هو الإنسان؟

أشار إلى الكلب، وقال: هذا هو الإنسان.

قلت: هذا كلب.. وليس إنسانا.

ضحك مع صاحبه بافلوف ضحكة عالية، ثم قال: نعم.. هناك فروق بينهما.. لكن مع ذلك نستطيع أن ندرس الإنسان من خلال دراستنا للكلب.. بل للحشرات..

قلت: ما الجامع بينهما؟

قال: ألم يفسر نيوتن جميع حركات الكون من خلال تفاحة؟.. فكذلك نحن يمكننا أن نفسر كل الظواهر السلوكية للإنسان من خلال الظواهر السلوكية للكلاب.

قالا لي هذا.. ثم سارا بي في متاهات كثيرة.. ومدة طويلة من الزمان صرت أرى فيها نفسي كما أرى أي آلة.. وقد عذبتني هذه الرؤية كثيرا..

قلنا: فكيف استطعت أن تتخلص منها؟.. وكيف استطعت أن تتخلص من تأثير هذا الأستاذ، وهو يحمل معه ذلك السلاح الخطير.. سلاح العلم؟

قال: بالعلم استطعت أن أتخلص من ذلك الهذيان الذي كان يملأ رأسي به.

قلنا: العلم!؟

قال: أجل.. وقد بدأت بالفيزياء، ذلك العلم الذي استند إليه أستاذي في اختصار الإنسان في آلات الإنسان..

لقد وجدت أن التطور العلمي في الفيزياء أطاح بتلك النظريات الآلية التي كانت تفسر الكون، فلم تعد المادة واضحة متماسكة تشكّل حيّزاً من الفراغ، كما كان يُعتقد، لقد أصبحت عالماً من الطلاسم والألغاز، وصارت شبكة من الشحنات الكهربائية، وسلسلة من الأحداث المحتملة ترتفع وتنخفض حتى تتلاشى في العدم.. بل إنه لا يمكن مشاهدتها.

لقد أصبحت تلك الذرة الصغيرة في فيزياء القرن العشرين كأنها نموذج مصغر لمنظومة شمسية.. في مركزها عدد من الشحنات الكهربائية الموجبة تعرف بالبروتونات، وهذه تؤلف النواة، ويدور حول النواة على مسافات مختلفة، وفي مدارات غير منتظمة عدد من الشحنات السالبة تسمى الالكترونات. والشحنة الموجبة في كل بروتون تساوي تماماً الشحنة السالبة من كل

اليكترون غير أن عدد البروتونات التي تتألف منها النواة أكبر كثـيراً في العــادة من عــدد الالكترونــات، وإنمــا تحصــل الموازنــة بين الشـحنات الموجبـة للبروتونـات، والشـحنات السـالبة للالكترونـات التي تدور حول النـواة، بوجـود شـحنات سـالبة، الكترونـات أخـرى موجودة في النواة.

والذرة التي كانت صلبة في وضع مـادي ثـابت أصـبحت بخلاف ذلـك، فقـد أخـذ الفيزيـائيون المحـدثون يطاردونهـا - كمـا يقـول أدنجتــون - من الســائل المتصــل إلى الــذرة، ومن الــذرة إلى الالكترون، حتى أضاعوها في النهاية.

والذرة التي كان يُظن أن معرفتها لا يمكن الشك فيها أصـبحت تلك المعرفة خادعة، لأنه ثبت حـديثاً أنـه إنمـا يسـتنتج وجودهـا من أحداث تقع خارجها، يظن أنها تُسبّبها وتأتي عنها.

ونتيجة لهذا، فإن الإدراك الحسي في الفيزياء الحديثـة، لم يعـد في الوجود العيـني للمـادة، وإنمـا في الحـادث النفسـي الـداخلي، فحقيقة الأشياء عقلية وليسـت ماديـة، فالظـاهرة الماديـة ليس إلاّ أثراً للكيفية التي تتجلى فيها الحقيقة الروحية.

وهكذا.. لقد كانت الفيزياء القديمة تقـول بالتمّـاس بين مـاديين عنـدما أضـغط بأصـبعي على طـرف المنضـدة مثلاً، أمـا الفيزيـاء الحديثــة فتقــول : إن الــدفع ناشــيء عن ذرات الأصــبع وذرات المنضدة، وذلك الدفع يولد تياراً عصبياً يصـل إلى الـدماغ ينتج عنـه شعور باللمس، فليس هناك علم بشيء يقع خارج الجسم، لأنه قـد يحصل تنبيه للجهاز العصبي دون وجود منضدة.

فيزياء القرن العشرين بكشوفاتها الجديدة لم تكمل ما قام بــه (نيوتن) بل حطمت بنيانـه، حيث هـدم إنشـتاين بنظريـة النسـبية فكــرتي الزمــان والمكــان المطلقين، وأثبت أن علاقــات المكــان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفهـا إلا بـالمواقف الشخصـية للمراقب، وليس بالحياد كما ذهب إلى ذلك (نيوتن)

وجاءت ثورة فيزيـاء الجسـيمات على يـد (إيرنسـت رذرفـورد) حيث أثبت أن الذرة عبارة عن نواة متناهيـة الصـغر يحيـط بهـا كم هائـل من الإلكترونـات أصـبحت تفسـيرات نيـوتن لهـا تبعث على الإحباط، فانهارت إمبراطورية نيوتن وتطـورت ميكانيكـا الكم على يدي (نيلزبور) و(فيرنرها يزنبي)

وقد أدت كل هذه التطورات في الفيزياء إلى تطـورات مماثلـة في تصور علم الأحياء للحيـاة، فقـد كـانت النظريـة الآليـة تـرى أن

الحياة نتيجة عرضية لعمليات مادية، وأن العقـل نشـاط متولـد من الدماغ.. لكن العلم الحديث أثبت ــ بمـا لا يـدع مجـالا للشـك ــ أن أسـلوب الكـائن الحي ليس آليـاً ولا يمكن تفسـيره آليـاً، فالحيـاة ظاهرة من صفتها التجـدد والإبـداع، واسـتحداث صـور جديـدة في الكائنات، ومنها ظهرت نظريات التطور المبدع، والتطور الناشيء، ونظرية الكائن الحي، والنظرية العضوية.

فالماء يتكون من الأوكسجين والهيدروجين بنسـبة معينـة، لكن في المـاء خصـائص ليسـت هي خصـائص كـل من الأوكسـجين والهيـدروجين.. وكـذلك جسـم الإنسـان فهـو دمـاغ ولحم وعظـام وأعصاب، ولكل منها خاصية معينة، لكن له من اجتماع هذه الأجزاء خصائص ليست موجودة في تلك الأجزاء.

وبنـاءً على هـذا فلم يعـد كـل مـادي حقيقيـاً، وأصـبح المعنـوي كالدين، وقيم الحق والخير والجمال مما صـح ثبوتـه، وعـدّ بابـاً من أبـواب الحقيقـة، وبهـذا تقـوّض الأسـاس العلمي لهـذه المدرسـة، فالإنسان لم يعد شـبيهاً بالآلـة لا دخـل للعقـل في سـلوكياته، فلـه عقل، وله غاية يسعى إلى تحقيقها، ومطالب يهدف إلى بلوغها هي أسمى من مطالب الجنس والغذاء والكساء.

فلم يعد التفسـير الآلي أو الحيـواني للسـلوك الإنسـاني واعيـاً بأبعاد الإنسان، إن الإنسان يسـتجيب للمنبـه، كمـا تسـتجيب الآلـة، لكنه لا يعمل كما تعمل، فاستجابتها آلية أما استجابته فهي استجابة فعالة ونشيطة، فهو يدرك الموقف الخارجي، ولـذلك فاسـتجابته لا تعتمد على قوة ذلك المنبه بقـدر مـا تعتمـد على الـدافع الـنزوعي الذي لديه، وهو مؤثر بالغ في الاستجابة، وهـذه الاسـتجابة موجهـة إلى غاية يمكن استمرارها بعد زوال المثير بخلاف الآلة(1).

الربوبية:

قلنا: إلى من لجأت بعد أن يئست من هذا الأستاذ؟

قـال: أنـا لم ألجـأ.. لكن في ذلـك اليـوم هبت عاصـفة هوجـاء كــادت تقتلعــني من الأرض.. فلم أجــد إلا أن ألجــأ إلى بيت من البيوت أفر إليه من العاصـفة.. فلقيت رجلا صـلبا شـديدا، قـال لي بكل قوة: أنت الذي تبحث عن الإنسان؟

قلت: أجل..

1() انظر التفاصيل العلمية الكثيرة المرتبطـة بهـذا في (البـاحثون عن اللـه) من هـذه السلسلة.

قال: فادخل.. أنا (فريدرك نيتشة)(2)
قلت: ومن فريدرك نيتشة؟
قال: أنا العاصفة الهوجاء التي أطاحت بكل ما قيل حول الإنسان.. أنا الذي أحدث أكبر قطيعة مع كل الاتجاهات الفكرية والفلسفية سواء في الشكل أو المضمون أو اللغة.. أنا الذي اتهمت سقراط بأنه وراء الكارثة التي حلّت بالحضارة الإنسانية، لاحتكامه إلى العقل وحده.. وأنا الذي اعتبرت التراجيديا الموسيقية وراء فقدان الإنسان سيادته على ذاته برضوخه واستسلامه لقيم وأخلاق وعقائد كبلته وأفقدته حريته.. وأنا العدو اللدود للمسيحية على الرغم من أنني ابن قس بروتستانتي.. أنا الذي قلت بأن المسيحية عبارة عن مجموعة أساطير الشعب اليهودي.. بل قلت بأن المسيحية أذلت الإنسان بعد ما أقامت عقائدها على بقايا تصورات بالية ومتناقضة حول العالم.. وأنا الذي قلت في (هكذا تكلم زرادشت) :(لقد مات الإله و نحن الذين قتلناه).. وأنا الذي قلت :(كل الأشياء خاضعة للتأويل، وأيا كان التأويل فهو عمل القوة لا الحقيقة).. وأنا الذي قلت :(كل المصداقية وكل الضمير وكل أدلة الحقيقة تأتي من الحواس فقط).. وأنا الذي قلت مخاطبا أختي: (إذا ما مت يا أختاه لا تجعلي أحد القساوسة يتلو علي بعض الترهات في لحظة لا أستطيع في الدفاع عن نفسي)(2).. وأنا الذي قلت :(أشعر أن علي أن أغسل يدي كلما سلمت على إنسان متدين)..

قلت له، وقد ملأني بالرعب: إلى أي عقل تحتكم في كل هذه الدعاوى.

ضحك ضحكة مدوية، ثم قال:عن أي عقل تتحدث.. العقل أعجز من أن يدرك حقيقة الوجود.

قلت: لا أقصد ما فهمت.. بل أقصد المنطق العقلي.. ومبادئ الفكر التي تتيح لنا أن نرسل بأحكامنا.

قال: لا وجود لشيء اسمه (مبادئ الفكر).. إنها ليست سوى سراب من الأوهام.. نعم هي قد تكون ضرورية لحياة الناس،

2() هو فريدريك نيتشه (1844 ـ 1900م)، وهو فيلسوف ألماني، عالم نفس، وعالم لغويات، تميز بشخصية عدوانية جداً، و كونه ناقدا حادّا للمبادئ الأخلاقية،و النفعية، والفلسفة المعاصرة، المادية، المثالية الألمانية، الرومانسية الألمانية، والحداثة عُموماً..

وفي مجال الفلسفة والأدب، يعتبر نيتشه في أغلب الأحيان إلهام للمدارس الوجودية وما بعد الحداثة. روج لأفكار اللاعقلانية والعدمية، واستخدمت بعض آرائه فيما بعد من قبل إيديولوجيي الفاشية.

2() لكن أمنيته لم تتحقق، اذ تلى عليه القساوسة في ساعة دفنه.

ولكنّها لا تستطيع بحـال من الأحـوال أن تعبّـر عن الحقيقـة، ولا أن تعبر إليها.

قلت: إذا لم نسلم لمبادئ الفكر.. فهذا يغني إلغاء العقل.

قال: العقل في حيـاة الإنسـان لا حاجـة إليـه.. بـل هـو خطـر.. والذي يمكن تصوّره عقلياً لا بد أن يكون وهماً لا حقيقة له.

قلت: هل ترى أن الحياة تسير من دون عقل؟

قال: لاشك في ذلك..

قلت: فلا وجود لعالم الحقائق إذن في هذا الوجود؟

قال: كما لا وجود لعالم الظواهر.. كلاهما عوالم وهمية.

قلت: فما هو الوجود إذن؟

قــال: الوجــود الحقيقي كلّــه ينحصــر في (الصــيرورة).. كلــه بتفاصيله ينحصر في (التغيّر الدائم).. التغير الدائم هو الحياة.. وهـو الطبيعة.. الثلاثة واحد.. والواحد ثلاثة.

قلت: فما هذا التغير الدائم.. وما هذه الصيرورة؟

قــال: (الصــيرورة) هي الوجــود.. وهي الواقــع الآني الــراهن.. وليس لها غايـة تنتهي إليهـا.. بـل هي في نفسـها غايـة.. وهي كـلّ شيء..ولا شيء وراءها.

قلت: فالمعرفة والوجود الحقيقي إذن يتنافيان ويتناقضان.

قال: لقد بدأت تفهمني.. فلا يمكن أن تكون المعرفة الإنسـانية مطابقــة للحقيقــة بحــال من الأحــوال، إذ همــا دائمــاً متنافيــان متناقضان.

قلت: فما الفضيلة العظمى التي تحكم الوجود إذن؟

قــال: هي القــوة.. القــوة هي الفضــيلة العظمى الــتي تجكم الوجود.. بل هي الفضـيلة الوحيـدة.. ولـذلك تـراني لا أدعـو إلا إلى القوة.. القـوة وحـدها دون الرحمـة والشـفقة هي محـور الأخلاق.. ولذلك فأنا (فيلسوف القوة)

أقول دائما : (الخير هو كل ما يزيـد الشـعور بـالقوة، هـو إرادة القوة، هو القوة نفسها.. والشر هو كل مـا ينشـأ عن الضـعف، هـو الضعف)

قلت: فأنت تنطلق من مذهب التطوّر إذن؟

قال: أجل.. ولكني لا أنظر إليـه كمـا ينظـر داروين المسـكين.. فإن كان مذهب النشوء والارتقاء يذكر أن كل صـنف يخلـق صـنفاً أرقى منه.. فأنا أدعو الإنسان لأن لا يتوقف عند الإنسان.. أنا أدعوه ليضحي بالإنسان..

قلت: ليصل إلى ماذا؟

قال: ليصل إلى (السوبرمان).. ذلك الإنسان الأعلى والأرقى.. والـذي يضـحي بالإنسـان البسـيط كمـا نضـحي بـالغنم والمـاعز والخنازير.

قال ذلك، ثم التفت إلى العاصفة وراح يصيح فيها بقـوة، وكأنـه يخاطب جمعا لا أراه: إنني أدعوكم ـ يامن تسميتم باسم الإنسـان ـ إلى أن تخلعوا الإنسان.. وتلبسـوا الإنسـان الأعلى.. فـإن الإنسـان شيء يجب أن يُعلى عليه.. فماذا عملتم من أجل العلاء عليه؟

إن كـل الكائنـات حـتى الآن قـد خلقت شـيئاً أعلى منهـا، فهـل تريدون أنتم أن تكونوا جزراً لهـذا المـد العظيم، وتفضـلوا الرجـوع إلى الحيوانية على العلاء على الإنسانية؟!

إن الغاية من الإنسانية عندي هي خلق هذا الإنسان الأعلى..

قلت: إن ما تدعو إليه ممتـاز ورائـع.. فمـا أجمـل القـوة.. فمـا الذي أعددته من نظم لتحصيلها؟

قال: ذلك لا يتم إلا بطرائق التربية التي ترفع الفرد وتسمو به.. وبتحسين النسل البشري.. وباختيار الممتازين من الرجال والنسـاء للـتزواج.. وأن يكـون الـزواج أساسـه اختيـار الأرقى من النسـاء بشرياً، للأرقى من الرجال بشرياً، حـتى يخلـق الزوجـان بإرادتيهمـا إنساناً أرقى منهما، وهكذا.

قلت: لكن الحب هو الذي يتصرف في الزواج؟

قال: فلنضح به.. فخير الرجال لخير النساء.. أمـا الحب فنتركـه لحثالة البشر، إذ ليس الغرض من الزواج مجـرّد النسـل، بـل يجب أن يكون وسيلة للتسامي والرقي.

إن غـرض الـتزاوج هـو إرادة اثـنين ليخلقـا إنسـاناً يسـمو على خالقيه.

قلت: لقد ذكرت طرائق التربية التي ترفـع الإنسـان.. فمـا هي القيم التي تحكمها؟

قـال: إنهـا تتلخص في أن يكـون الإنسـان حـراً.. يحطم كـل القيـود.. ويبـدد الأوهـام الثقيلـة الخطـيرة الـتي أتت بهـا المـذاهب الأخلاقية، والدينيـة، والفلسـفية... فالإنسـان الأعلى فـوق النـاس.. وفوق الأخلاق.. وفوق القوانين.. وفوق التقويم التقليدي للأشياء.

قلت: إن هذا يقطع الإنسان عن كل شيء؟

قال: ذلك صحيح.. فالسوبرمان لا علاقـة لـه بـأي شـخص.. ولا بأي وطن.. ولا بأي نوع من أنواع الشفقة والعطف.. هو فـوق كـل

قيمة.. وفوق كل قانون.. وفوق كل مـا يعتقـده عامـة النـاس.. ولا يعنيه قال الناس عن هذا الشيء: إنه خير، أو قالوا عن الآخر : إنــه شر.. لأن مهمته أن يكون هو خالقـاً للقيم، يضـع للأشـياء من القيم ما يريد، مما يؤدي إلى تحقيق الغاية من الإنسانية.. فهو حرٌّ في أن يضع شرعة القيم التي يرتئيها في الأخلاق، والسياسـة، والفلسـفة، وغير ذلك.

ليس ذلك فقط.. بـل إن هـذا الإنسـان الأعلى هـو الـذي يحـدد معتقدات العصر بأكمله.. وهو الذي يعطي للحضارة صورتها.. وهــو الذي يخلق القيم في حرية تامة، غير آبه لما يسمى بالخير والشـر، أو الحق والباطـل.. فهـو كـل شـيء، يخلُـق الأخلاق، ويحـدِّد الحـق بإرادته، ويفـرض على النـاس مـا يضـع لهم من قيم فرضـاً، وليس عليهم هم إلا أن يطيعوه، فالطاعة أولى فضـائل الـذين ليسـوا هم من طبقة الإنسان الأعلى.

قلت: ألهذا أعلنت موت الإله؟

قال: أجل.. لقد وجدت أن الإلـه هـو الوحيـد الـذي يحـول بيننـا وبين هذا الترقي.. ولذلك أردت أن أجعل من السوبرمان هو الإله.. لقـد قلت على لسـان (زرادشـت): (إذا كـان هنالـك آلهـة، فكيـف أطيق أن لا أكون إلهاً؟ وإذن فلا آلهة هناك).. وقلت : (لقـد مـاتت الآلهــة جميعــاً، ونريــد الآن أن يعيش الســوبرمان).. وقلت : (إني أهيب بكم يا إخواني أن تخلصوا عهدكم للأرض، وأن لا تصدّقوا من يحدثونكم عن أملٍ سماوي، إنهم ينفثون فيكم السم بـذلك، سـواءٌ أعلموا بذلك أم لم يعلموا)

قلت: عرفت تصـورك للوجـود.. وللإنسـان.. فمـا تصـورك عن مصير الوجود والإنسان؟

قال: أما الوجود.. فإنه يسير في دورات متطابقـة.. فهـو يكـرّر نفسه باسـتمرار.. والإنسـان الأعلى (السـوبرمان) هـو نهايـة دورة الوجـود، ليعـود بعـد ذلـك إلى نقطـة البدايـة.. (إن التكـرار الأبـدي موعده بعد وجود الإنسـان الأعلى، فسـيعود كـل شـيء بالتفصـيل الدقيق مرة ومرة، إلى ما لا نهاية له، حتى (نيتشه) سـيعود، وهـذه الأمة الألمانية التي يعيش بين ظهرانيها، والتي تمجّد الـدم والحديـد ستعود)

قلت: فأنت تقول بالوجود بعد الموت؟

ضحك بهسـتيرية، وقـال: (ليس بعـد المـوت شـيء.. ومـا بعـد الموت لا يعنينا بعد)

إن القوة هي كل شيء.. ولذلك فإنا أدعو إلى الموت الإرادي.. وأنا من الداعين إلى الانتحار حينما يكون الوقت مناسباً لاختيار الموت.. فمتى وجد الإنسان أن الحياة لم يَعُد لها هدف لديه، فأحسن خيار له هو أن يسلم نفسه لرحى الموت..

لقد قلت على على لسان (زرادشت) : (كثير من الناس يموتون في وقت متأخر جداً، وبعضهم يموتون في وقت مبكر جداً، ولا زال هذا القول : (مت في الوقت المناسب) يبدو غريباً)

***

لست أدري كيف ظللت في صحبة هذا الأستاذ الأرعن مدة طويلة من الزمن.. ربما كنت أنفس بها عن ذلك النقص الذي زرعه في نفسي الدير.. لقد كنت بقوة نيتشة أغطي النقص الذي زرعه في نفسي أول أستاذ لي (سان بونافنتور)

قلنا: فكيف بدا لك أن تتركه؟

قال: أنا لم أتركه.. ولكن عقله الذي كان يتيه به هو الذي تركه.

قلنا: ما تقصد؟

قال: لقد ظهر جنونه بعد أن كان خفيا.. فلذلك لم أجد في صحبته إلا ما يحولني كما يحول البشرية جميعا إلى قطيع من المجانين.. ويحول الأرض إلى مارستان كبير لا يحوي إلا المجانين.

قلنا: فكيف تخلصت من تأثير أفكاره؟

قال: لقد بدأ ذلك أولا بتخلصي من الإدمان على تلك الخمرة التي سقاني منها.

قلت: أي خمرة؟

قال: خمرة الغرور الذي يسميه قوة..

قلت: اكتشفت إذن بأن القوة التي يتحدث عنها ليست سوى غرور؟

قال: أجل.. ففرق كبير بين أن يسعى الإنسان لتحصيل القوة.. وبين أن يتيه بها.. ويمحو بها غيره.. إن القوة تستدعي الاستفادة من كل الطاقات والأفكار واحترامها..

وقد رأيت أن أول ما بدأ به أستاذي المجنون هو أنه رفع عني الثقة في كل الأفكار التي تطرح على الأرض..

قلت: فهل ناقشت أفكاره مناقشة عقلية؟

ابتسم، وقال: أجل.. لقد طبقت على الأفكار التي لقنني إياه المنهج الذي علمني إياه.. فمحوتها من ذاكرتي ومن التأثير في.

قلنا: كيف؟

قال: هو لا يثق في العقل.. ولا في الحقائق.. ولا في الظواهر.. هو يعتبرها كلها من الأوهام.. وبما أنه طرح آراءه كحقـائق عقليـة.. فقد اعتبرتها على حسب منهجه مجرد سراب من الأوهام.

السلام

قال ذلك، ثم غرق في صـمت عميـق.. انتظرنـاه برهـة.. فلمـا طال، سألناه: أهؤلاء فقط هم أساتذتك؟

قال: لا.. هناك أساتذة كثيرون.. أستحيي من ذكرهم.. أو ينعقد لساني دون ذكرهم.. لأني بعد أن لقيت النـور والصـفاء والسـلام.. بعد أن لقيت الإنسان.. صرت أنظر إليهم باحتقار، وأخجل من تلـك الأيام التي كنت أجثو بين أيديهم فيها كما يجثو الصبي أمام معلمه.

قلنا: فحدثنا عن النور والصفاء والسـلام.. حـدثنا عن الإنسـان.. حدثنا عن الأستاذ الذي نسخ جميع ما لقنه لك أساتذتك.

قال: لم يكن أسـتاذي هـذا خـريج أي جامعـة.. ولا أسـتاذا بـأي كلية.. ولم ينل أي جائزة من تلك الجوائز الضخمة التي تعود قومنـا أن يسلموها للمتفوقين..

قلنا: أي أستاذ هذا!؟

قال: لقد كان بسيطا غاية البساطة.. وكان لذلك يمثل الفطرة في قمة قممها.

قلنا: من هو؟

قال: لا يمكن أن يعرف أحد من الناس من هـو.. فقـد كـان لـه من القداسة والجمال والصـفاء والنـور مـا تسـتحيي منـه الأسـماء والمسميات.. لكني سمعت بعضهم يناديـه محمـدا.. وحـق لـه هـذا الاسم فقد اجتمعت فيه أصناف المحامد، فلا يراه أحـد من النـاس إلا حمده.. وسمعت بعضهم يناديه الراعي.

قلنا: الراعي!؟

قـال: أجـل.. لقـد كـان هـذا الأسـتاذ راعيـا.. ولم ألقـه إلا في مرعاه.. أمام جبل من الجبال..

قلنا: وما الذي حملك إلى الجبال.. ألم تكن ابن المدينة؟

قال: بعد أن لقنني أساتذتي كل تلك المعارف.. وبعد أن رأيت آثارهـا على نفسـي وعلى النـاس من حـولي احتقـرت الحيـاة.. واحتقرت الإنسان.. فلذلك لجأت إلى تلك الجبال ألتمس الخلاص.

قلنا: عند الراعي؟

قال: لا.. لقد ذهبت إلى تلـك الجبـال لأطعم جثـتي للجـوارح..

فلم أرض لجسدي أن يلطخ بنفايات تلك المدينة الملعونة..
لقد ذهبت إلى الجبال لأسلم جسدي للموت..
قلنا: تنتحر!؟
قال: لقد صارت الحياة ـ على ضوء تلك التعاليم القاسية الـتي تعلمتها ـ لا تساوي أن أعيش من أجلها.. فلـذلك رأيت الانتحـار هـو الوسيلة الوحيدة التي أتخلص بها من الحياة التي لا معنى لها.
قلنا: فكيف لم تمت.. ها أنت بيننا؟
قال: لقد أنقذني ذلك الراعي.. ثم لقنني من التعاليم مـا حبب إلي الحياة.. بل مـا جعلـني بعـد ذلـك أرحـل إلى هـذه البلاد لأبحث عنه.
قلنا: هل رحل هو الآخر إلى هذه البلاد؟
قال: أجل.. بعد أن بلغته أخبار تلك الفتنة العظيمـة الـتي تريـد أن تجتث أمة محمد ترك غنيماتـه، ثم سـار إلى هـذه البلاد ليطفئ نيران الفتنة.. ومنذ رحل، وقلـبي مشـتعل شـوقا إليـه.. وسـأموت بحسرتي، لأني أموت، ولم أره، ولم أزدد من معرفته.
قلنا: فحدثنا عن التعاليم التي غيرتك كل هذا التغير.
قال: بعد أن لقنت كل تلك التناقضـات عن الإنسـان.. وبعـد أن كاد يصيبني الجنون الذي أصاب أستاذي السابع قررت قرارا جازما بأنه لا خلاص لي إلا بالموت..
ومع أني أذعت نبأ هذا العزم في تلك المدينة الممتلئة بالصراع إلا أنه لم يـأتني أحـد ليثنيـني عن عـزمي.. بـل رأيت الكـل.. حـتى أساتذتي.. يأتون إلي، ويباركون هذا القـرار، بـل ويعتبرونـه أصـوب قرار أتخذه في حياتي.. بـل إن بعضـهم أحضـر وسـائل التصـوير.. وطلب مني ـ مقابل مبلغ من المال أغراني به ـ أن يأخذ لي صورة وأنا أنتحر على شرط أن أرمي نفسي من شاهق ناطحة سـحاب.. لكـني رفضـت.. فلم أرد لجسـدي أن يتلطخ بـتراب تلـك المدينـة المتعفن.
قلنا: فكيف ظهر لك أن تختار الجبال والمراعي؟
قال: في ذلك الحين الذي كنت أبحث فيه عن الموتـة الراضـية بعد أن يئست من الحياة الراضية رأيت صورة جميلـة لطبيعـة بكـر لم تغر عليها جحافل الإنسـان.. فقلت في نفسـي: لن يصـلح قـبرا لك إلا هذه الأرض.. وتلك المراعي.. وتلك السـماء الـتي لم تتلطخ بعد بمزابل المصانع.
فسرت.. وبقلبي من السرور بـالموت مـا لم أجـده في لحظـة

من لحظات حياتي..
لا أنكر أن بعض التردد أصابني في تلـك اللحظـة الصـعبة الـتي وقفت فيهـا بين الحيـاة والمـوت.. لكـني قهـرت ذلـك الـتردد.. وصممت.. ولم يبق بيني وبين الموت إلا نصف خطوة.. لكن يدا لم أكن أنتبه لها أمسكتني بقوة.. التفت فرأيت ما كنت أبحث عنه..
قلنا: ما رأيت؟
قال: لقد رأيت الإنسان.. لقد كان ذلك الراعي يمثـل الإنسـان خير تمثيل.. فلذلك شعرت بانشراح عظيم في صـدري.. وشـعرت من حيث لا أدري بـأن في الحيـاة من الجمـال والسـلام والنـور والصفاء ما تستحق من أجله أن نعيشها.. بـل أن نضـحي من أجـل أن نعيشها.
قلنا: فكيف ظهر لك أن تجلس بين يديه مجلس التلمذة، وأنت الأستاذ الذي تلقى من كبار أساتذة البشرية؟
قال: لقد رأيت من سمته وتواضـعه وأدبـه وسـلامه وعلمـه مـا جعلني ـ رغما عـني ــ أجلس معـه ذلـك المجلس الـذي لم أجلس مثله في حياتي.
قلنا: لقد شوقتنا إليه، فحدثنا عنه.
قال: لقـد كـانت أول كلمـة قالهـا لي، وهـو يـربت على كتفي بحنان وقوة :(لا تهدم بنيان الله)(1)
التفت إليه، وقلت: أي بنيان لله؟
قال: أنت.
قلت: من أنا؟
قال: الذي تبحث عنه.. أنت.. أنت هو الإنسان..
قلت: لكني لم أجد الإنسان.
قال: لأنك كنت تسأل الشياطين عن الإنسان، والشـياطين لن يدلوك إلا على الشياطين.
قلت: فهل عندك من علم الإنسان ما يدلني عليه؟
قال بقوة وثقة: أجل.. فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه؟
قلت: لكني أراك بسيطا.. وفوق ذلـك لا أرى معـك أي آلـة من آلات العلم التي كان يحملها أساتذتي.
قال: أنا أحمل النور.. والنور هو الآلة الوحيدة التي تحميـك من ظلمات الجهل.

1() ورد في الحديث : (إن هذا الإنسان بنيان الله فملعون من هـدم بنيانـه)، قـال فيـه الزيلعي : (غريب جدا)، (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: 1/346)

قلت: أي نور؟
قال: رسالة ربي..
قلت: رسالة ربك!؟
قال: أجل.. لقد بحثت عن الإنسان مثلما بحثت أنت.. ووجدت من الشياطين من وجدت.. ولكني لم أستسلم كما استسلمت.. بل سارعت إلى ربي.. وصحت على هذا الجبل.. وفي المحل الذي أردت أن تسلم نفسك فيه للموت، وقلت بمنتهى العجز والضراعة والفقر: يا رب.. أنا عاجز أن أعلم حقيقتي وأعلم وظيفتي.. فدلني.
قلت: فهل نزل عليك الملاك الذي نزل على الأنبياء يدلك؟
قال: لا.. لقد وجدت راعيا في هذه المراعي.. كان اسمه محمدا.. وكان أشبه الناس بتلك الشمس العظيمة التي أضاءت الوجود، ولا تزال تضيئة، لولا تلك الغيوم التي يرسلها قومي وقومك.. ومن ذلك اليوم طلقت جميع أسمائي، وتسميت باسم محمد.
قلت: فهل دلك محمد على الإنسان.. وحقيقة الإنسان؟
قال: أجل.. وقد شعرت في كلامه من الصدق والحقيقة ما ملأني بالأمل والبشارة والسلام.. لقد شعرت بالكرامة العظيمة التي يحملها هذا الإنسان.. وتذوقت قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء : 70)
لقد شعرت أني مخلوق مفضل.. له كرامة.. وله قرب وعناية عند بارئه.. وفوق ذلك شعرت أني أنتمي إلى الله، فأنا عبده، وهو ربي الذي يكلؤني ويحفظني ويعتني بي ويربيني..
ثم قرأ علي محمد قوله تعالى وهو يصف القرار الإلهي بخلق الإنسان وبداية خلقه وما حصل في تلك البداية من أنواع التكريم:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) (البقرة)

لقد شعرت.. وهو يقرأ هذه الآيات بخشوع ورقة.. ببداية تاريخي.. فأنا لم أكن في يوم من الأيام حيوانا ولا خلية عصفت بها الرياح لتتحول بعد ذلك إلى هذا الخلق المستقيم.. بل شعرت بأني إنسان خلق قصدا.. ولغاية.. وأني لن يهنأ بي عيش حتى أتحقق بغايتي ووظيفتي التي أناطها الله بفطرتي.

قلت: إن ما تقوله يريد أن يعصف بكل تلك الأكوام من المعارف العلمية التي حصلتها..

قال: لم تكن تلك الأكوام معارف.. بل كانت ركاما اختلطت فيه الحقائق بالأوهام.. وتشكل من ذلك الاختلاط ما عشته من صراع..

قلت: أكان في تلك الأكوام أوهاما؟

قال: لو كانت أوهاما وحدها لسهل التمييز ولاستطاع أي عاقل أن يردها بسهولة.. ولكن مصدر خطورتها أنها كانت ركاما من الأوهام زين ببعض مساحيق الحقائق.. فصار الناس يرون الصورة ولا يرون ما بداخلها، فيصيبهم من الغرر في ذلك ما يملؤهم بالصراع.

قلت: فهل في إمكانك أن تميز بين الأوهام والحقائق؟

قال: أجل.. لقد ذكرت لك أن معي النور.. والنور هو الوسيلة الوحيدة التي نميز بها الحقيقة من الوهم.

قلت: كيف؟

قال: أرأيت لو أنا كنا في ظلمة، ووضع أحدنا يده على شيء، فوصفه بوصف، أو سماه باسم، ووصفه الآخر بوصف مختلف، وأعطاه اسما مختلفا.. وهكذا.. ما هو المنهج السليم الذي تراه للخروج من مأزق الخلاف مع أن الكل وصف ما رأى؟

قلت: ذلك بسيط.. نأتي بمصباح نسلطه على ذلك الذي اختلفنا فيه، فنتعرف عليه من غير عناء.

قال: فإن معي مثل هذا المصباح.

قلت: من وهبه لك؟

قال: الله.. ربي.. هل تتصور أن الذي خلق كل هذا الكون..

بهذه الدقة العجيبة.. وبهذه الحكمة الراقية.. وبهذه الرحمة الـتي لا نظير لها.. يغفل عن مثل هذا؟

سكت، فقال: لقد أرسل الله لنا محمدا ﷺ، فعرفنـا بحقيقتنـا.. وبالفطرة السليمة التي خلقنا عليه.. حتى إذا ما تـاهت بنـا السـبل عدنا إليها لنصحح ما وقعنا فيه من أخطاء.

قلت: لقد صحبت قوما يعزلون الله عن التدخل في مثل هذا؟

ابتســم، وقــال: هــل يمكن لمثقفيكم وبــاحثيكم أن يقولــوا لأديســون(1) لا تتحــدث عن المصــباح الكهربــائي، أو عن مُشَــغِّل الأسطوانات.. أو عن كل تلك الاختراعات التي خدم بها البشرية؟

قلت: لا.. ولو قالوا ذلك لكانوا مجانين.. فأولى الناس بالحـديث عن هذه المخترعات من اخترعها.

قال: ولهذا لا يصح لأحد أن يتحدث عنا سوى خالقنا ومخترعنا.. فالله الخـالق هـو الـذي يعـرف الإنسـان وطبيعـة الإنسـان وأصـل الإنسان ومركبات الإنسان.. والبداية التي بـدأ بهـا تـاريخ الإنسـان.. لقد ذكـر القـرآن الكـريم هـذا، فقـال تعـالى :﴿ وَأَسِـرُّوا قَـوْلَكُمْ أَوِ اجْهَـرُوا بِـهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَـقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)﴾ (الملك)، وقـال تعـالى :﴿ يَعْلَمُ خَائِنَـةَ الْأَعْيُنِ وَمَـا تُخْفِي الصُّـدُورُ﴾ (غـافر:19)، وقـال تعـالى :﴿ يَعْلَمُ مَـا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَـا تُسِـرُّونَ وَمَـا تُعْلِنُـونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (التغابن:4)

قلت، وقد شعرت بالبشارة تغمر قلبي: هل يمكنـك أن تسـلط هذا المصباح الذي ذكرته على ما لقنـه لي أسـاتذتي لتخلصـني من الصراع؟

قال: أجل.. لقد ذكر القرآن الكريم هـذا.. فـالقرآن شـفاء لمـا في الصدور.. يخلصها من الصراع، ويملؤها بالسلام.. لقد قال اللــه تعالى يذكر هذا :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:57)

قلت: أأحــدثك عمــا ذكــر أســاتذتي لتمــيز لي بين حقــائقهم وأوهامهم؟

قال: لا داعي لـذلك.. فمـا سـأذكره لـك يكفيـك لأن تمـيز بين

1() هو تُومَاس أَلْفَا أَدِيسُون (1847 ـ 1931م) أشهر مخترع أمريكي، من اختراعاته: المصباح الكهربائي ومُشَغِّل الأسطوانات. وسـجل مـا مجموعـه 1093 اختراعًـا، وأجـرى تجارب في حقل الطب، وكاد يخترع المذياع، وتنبأ باستعمال الطاقة الذريـة.. إضـافة إلى ذلك حَسَّنَ اختراعات الآخرين، ومنها الهاتف، والآلة الكاتبة، والمولِّد الكهربـائي، والقطـار الكهربائي.

الحقيقة والوهم.. سأذكر لك الصورة التي ذكرها المصباح الهادي والنور المبين الذي أرسله الله لنا، وأنزله علينا لتقتبس الحقيقة من مصدرها.. ولا عليك بعدها أن تعرض منها ما تشاء على ما تشاء.

قلت: ما أول الإنسان؟

الجسد:

قال: هذه الطين التي يتكون منها قالبه الأرضي.. لقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (الروم:20)، وقال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:59)

قلت: أرى أن كتابكم يولي اهتماما كبيرا بالتراب(1) الذي خلق منه الإنسان؟

قال: أنت تعلم أن الصانع الحكيم إذا صنع آلة لا يضع فيها شيئا إلا لحكمة تقتضيها الصنعة.. ولذلك، فقد ذكر الله أصل هذه الخلقة الترابية للإنسان لنحترمها ونراعيها ونراعي مقتضياتها حتى لا نصطدم معها، فيحصل باصطدامنا بها الصراع.

ألا ترى كيف يوضع في صناديق السلع التحذيرات المختلفة؟

قلت: أجل.. وقد أبدع قومنا في النصح في ذلك إبداعا.

قال: أترى قومك أكثر نصحا من الله؟

سكت، فقال: إذا كان الصانع البسيط الضعيف الحقير يذكر لنا

1() كون الإنسان من تراب لا شك فيه من الناحية العلمية، فلو أرجعنا الإنسان إلى عناصره الأولية، لوجدناه أشبه بمنجم صغير، يشترك في تركيبه حوالي (21) عنصراً، تتوزع بشكل رئيسي على:

1ـ أكسجين ـ هيدروجين على شكل ماء بنسبة 65 بالمائة ـ 70بالمائة من وزن الجسم

2 ـ كربون، وهيدروجين (H) وأكسجين (O) وتشكل أساس المركبات العضوية من سكريات ودسم،و بروتينات وفيتامينات، وهرمونات أو خمائر.

3 ـ مواد جافة يمكن تقسيمها إلى:

آ ـ ست مواد هي: الكلور (CL)، الكبريت (S)، الفسفور (P)، والمنغنزيوم (MG) والبوتسيوم (K)، والصوديوم (Na)، وهي تشكل 60 ـ 80 بالمائة من المواد الجافة.

ب. ست مواد بنسبة أقل هي: الحديد (Fe)، والنحاس (Cu) واليود (I) والمنغنزيوم (MN) والكوبالت (Co)، والتوتياء (Zn) والمولبيديوم (Mo).

جـ ـ ستة عناصر بشكل زهيد هي: الفلور (F)، والألمنيوم (AL)، والبور (B)، والسيلينيوم (Se)، الكادميوم (Cd) والكروم (Cr).

وكل هذه العناصر موجودة في تراب الأرض، ولا يشترط أن تكون كل مكونات التراب داخلة في تركيب جسم الإنسان، فهناك أكثر من مئة عنصر في الأرض بينما لم يكتشف سوى (22) عنصراً في تركيب جسم الإنسان، و ذلك كله يوافق ما جاء به القرآن تمام الموافقة. (مع الطب في القرآن الكريم تأليف الدكتور عبد الحميد دياب الدكتور أحمد قرقوز مؤسسة علوم القرآن)

مركبات صنعته لنعرف كيف نستفيد منها، ونعرف في نفس الوقت كيف نجنبها المضار ونقيها المهلكات، فإن الله الحكيم اللطيف الخبير أولى بذلك، وأجدر.

قلت: ما تقوله صحيح.. ولكن ألا ترى أن الاهتمام بالتراب الإنساني سيوقعكم في المتاهات التي أوقعني فيها أستاذي (واطسون).. شيخ (المدرسة السلوكية)؟

قال: لا.. لقد أبصر واطسون بعض الحق.. فراح يبشر به بعد أن مزج به باطلا كثيرا..

قلت: أي حق أبصره ؟.. وأي باطل مزجه بالحق؟

قال: لقد أبصر أستاذك عظم الآلة البشرية التي خلقها الله للإنسان ليمتطيها، ويستغلها، ويسخرها لأداء وظيفته، فتصور أن الإنسان ليس إلا الآلة.. ولو أنه دقق بصره جيدا لرأى في أعماق أعماق تلك الآلة اللطائف التي حجبته عنها مجاهره ومباضعه.

خطأ صاحبك ليس في رؤيته للآلة أو اكتشافه لما فيها من عجائب الصنعة.. وإنما في اختصاره الإنسان فيما رآه..

ومثل ذلك الخطأ وقع فيه قبله من رأوا الظواهر الكونية، ودقتها، فتصوروا الكون حركة من غير محرك، وصاحوا مع جاليلو ونيوتن قائلين، وقد استفزهم الغرور لما اكتشفوه :(الكون آلة ضخمة).. أو (من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلى تدخل قوى خارجية عنها)

أو صاحوا بما صاح به من بعدهم ومن تتلمذ عليهم حين عرفوا المادة التي هي هيولى الكون بأنها (ما شغلت حيزاً من الفراغ، وهي صلبة وبسيطة وواضحة للعيان.. وأن حركتها محكومة بنظام آلي لا يختل، فتركيب المادة، وترتيب أجزائها المكونة لها هما مصدر فهم الحركة وتفسيرها.. فما نحس به، وما يفوح عن الزهر من العطر، أو ينبثق عن الشمس الغاربة من اللون، أو ما نشعر به من المخاوف والآمال.. جميع هذه الظواهر مردها إلى حركات أجزاء صغيرة من المادة، تنطلق في الفضاء طبقاً لقوانين حتمية حاسمة، هذه الأجزاء الصغيرة هي التي يتولد عنها علمنا بها، فليس العقل بعبارة أخرى إلا شعور هذه الأجزاء الصغيرة بذاتها)

بهذا صاح الكل.. كل من بهرهم عظم الآلات الربانية.. لقد اكتفوا بالانبهار بها عن النظر إلى الحقائق التي تحيط بها.. والتي لا يمكن أن تتحرك الآلة من دونها..

وقد أدى هذا الانبهار إلى تلك الأوهام الكثيرة حول الكون

وحول الحياة وحول الإنسان..

وأخطر ما نتج عن ذلك ما كانوا يرددونه كل حين من قولهم: (ما من شيء يمكن أن يكون حقيقياً إلا وهو قابل من الناحية النظرية ؛ لأن يدرك بالحواس، ومن هنا فإن البحث في طبيعة الأشياء المحسوسة وتحليلها إلى عناصرها وذراتها ؛ إنما هو معالجة للحقيقة بصورة مباشرة، أما تصور القيم الأخلاقية، وتأمل الخبرات الدينية والاستمتاع بها مثلاً، فليس إلا خبط عشواء وجرياً وراء السراب)

وأخطر ما نتج عن ذلك كله هو سلب الإرادة من الإنسان بعد أن سلب عقله.. فلا يمكن للعقل أن يمارس وظيفته إن لم تكن له إرادة..

قلت: ذكرت الحق الذي ذهب إليه واطسون.. والوهم الذي تسرب إليه.. فهل ترى أن لداروين بعض الحق فيما ذكره من خلق الإنسان؟

قال: داروين مختلف تماما.. داروين لم يدرس الإنسان كشيء موجود أمامه.. وإنما راح يبحث في الجماجم عن تاريخ الإنسان.. فلم تهده الجماجم إلى شيء(1).. فراح يتكهن ويرجم بالغيب.. إنه مثل مؤرخ أراد أن يخرج للعالم بتاريخ حضارة من الحضارات، فبحث في آثارها، فلم يجد.. وبحث في المخطوطات، فلم يجد.. فراح يتكهن.. ويطلق لخياله العنان.

قلت: ألا يمكن أن يكون آدم الذي ذكر القرآن أنه أول البشر كان في أصله سلالة من السلالات التي ذكرها داروين؟

قال: لا.. لقد أكد القرآن الكريم أن الله خلق آدم ابتداء(2).. وفوق ذلك أخبرنا أن الإنسان صور بهذه الصورة ابتداءا.. بل هو

1() ذكرنا الرد العلمي على نظرية التطور في (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

2() للأسف.. فإن بعض المسلمين ممن توهموا أن لنظرية التطور مصداقية علمية راح يحاول التوفيق بينها وبين ما جاء في القرآن.. ومن ذلك الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (أبي آدم: قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة)، فقد حاول في دراسته التوفيقية هذه أن يميز بين كلمتي (البشر)، و(الإنسان).. حيث افترض أن كلمة (بشر) تطلق على الأطوار القديمة التي كان عليها الإنسان قبل استصفاء الله لآدم من بين بقية المخلوقات التي يطلق عليها (بشر)، والبشر بذلك هو اسم ذلك المخلوق الذي أبدعه الله من الطين.

فبين (البشر والإنسان) عموما وخصوصا مطلقا، فـ (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين، منتصب القامة، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفا بمعرفة الله وعبادته، فكل إنسان بشر، وليس كل بشر إنسانا.

ومن الردود التي رد بها الباحثون على هذا أن كلمة (بشر) في القرآن الكريم ــ الذي انطلق منه ـ مرادفة لكلمة (إنسان) بشكل لا لبس فيه، ويدل لذلك أن كلمة (بشر) في القرآن الكريم أطلقت على المعاني التالية:

يمن علينا بذلك، ويعتبره من فضل الله علنيا.. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين:4) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:8)، وقال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر:64)، وقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التغابن:3)

قلت: لقد بدأت في تلمذتي على أساتذة يحتقرون التراب.. فما الحق الذي أبصروه في ذلك؟.. وما الوهم الذي تسرب إليهم؟

قال: أما الحق الذي أبصروه فهو أن أنوار الروح التي نفخها

على الرجال: ومن الشواهد على هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قالت رب أنَّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ (آل عمران: 47)، وهو المعنى الذي نجده في قوله تعالى: ﴿ وقلن حاشا لله ما هذا بشرا ﴾ (يوسف:31) وقوله تعالى: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ (النحل103)، وقوله تعالى: ﴿ فتمثل لها بشرا سويا ﴾ (مريم17) وغيرها.

على الإنسان: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ (مريم:26) فقد وردت هذه الكلمة هنا مرادفة للإنسان.

على الأنبياء.. كما قال تعالى: ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ (آل عمران: 79)، وهذا هو المعنى الذي نجده كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الأنعام:91)، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (ابراهيم:10)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف:110)

أما تفسيره لكلمة (سلالة) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنون:12)، والتي تصور أن المراد منها (سلسلة آباء خلقوا من طين.. وكأن الآية تدفع عن العقل احتمال إدماج العمليتين (خلق البشر وخلق الإنسان) في عملية واحدة، فالإنسان خلق من (سلالة) نسلت من(طين)، أي: إنه لم يخلق مباشرة من الطين، فأما ابن الطين مباشرة فهو (أول البشر)، وكان ذلك منذ ملايين السنين) (ص90 من كتابه) ويقول: (فخلق الإنسان (بدأ من طين)، أي: في شكل مشروع بشري، ثم استخرج الله منه نسلا (من سلالة من ماء مهين)، ثم كانت التسوية ونفخ الروح، فكان (الإنسان) هو الثمرة في نهاية المطاف عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة) (ص91 منه)

فقد رد عليه الباحثون بأن السلالة في اللغة(انظر المعجم الوسيط، ومعجم ألفاظ القران) تعني (ما استُل من الشيء وانتُزع.. كما تعني خلاصة الشيء.. ومعنى الآية بهذا هو : (ولقد خلقنا الإنسان من خلاصة من الطين) (انظر: غزو معاقل الدارونية، ونسف نظرية التطور، تأليف:أبو صلاح)

اللـه في جسـد الإنسـان شـغلتهم عن الجسـد والطين.. فتصـوروا الصراع بين الروح والجسد.. وهو موضع الوهم.. فالنور الـذي نـرى به الأشياء لا يزاحم الأشياء وجودها.. بل إنه يزيدها جمـالا.. ألا تـرى الشمس كيف تشرق، فتشرق الألوان بإشراقها؟

فهكـذا الـروح عنـدما أشـرقت على جسـد الإنسـان زينتـه ولم تزاحمه.. فلذلك أولى القرآن الكريم للجسد قيمة لا تقل عن قيمة الروح.. فهو يعتبره من نعم الله على عباده.. قال تعالى: قـالَ لَـهُ صاحِبهُ وَهوَ يُحاورهُ أكفرتَ بالّذي خَلَقَكَ مِنْ تُـراب ثُمَّ مِنْ نُطفَـة ثُمَّ سَـوّاكَ رَجُلاً (الكهـف: 37)، وقـال: هُـوَ الّذي جَعَـلَ لَكُمُ الأَرضَ ذلولاً فامشُوا فِي مناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيـهِ النُّشُـورُ (الملـك: 15)، وقال: كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ مـا رَزَقنـاكُمْ وَلا تَطْغَـوا فِيـهِ فَيُحِـلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي (طه:81)

فهذه الآيات القرآنية تحمل بين طيّاتها معـاني تشـريعية كثـيرة تـبين قيمــة الجســد وأهميــة المحافظــة عليه(1).. فهي تـبين أن الإنسـان بتكوينـه الجسـماني، وبطبيعتـه البدنيـة، جـزء من عـالم الطبيعة، وأنّ الأرض هي مصدر نشوئه وتكوينـه.. فهـو ابن الأرض، ونتاجها الحي المـترقي في تكوينـه وأجهزتـه الجسـمية المختلفـة: أكفرتَ بالّذي خلقكَ مِن تُراب

وهي تـبين أن هـذا الجسـد الـذي نشـأ من الأرض لا يسـتغني بطبيعته عن إمداد الأرض لوجوده، من الطعام والشـراب واللبـاس والسكن.. وَما جَعَلناهُمْ جَسداً لا يأكُلون الطَّعامَ (الأنبياء: 8).

وهي تــبين أن التوافــق في التكــوين الطــبيعي بين الإنســان والطبيعة تام ومتناسق، فكلّ ما يحتاجه الإنسـان لاسـتمرار الحيـاة متوفر في عالم الطبيعـة ومتنـام فيهـا.. وَبـارِكَ فيهـا وقـدّرَ فيهـا أقواتَها في أربعةِ أيّام سـواءً للسّـائلينَ (فصّـلت: 10)..ـ جَعَـلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً (الملك: 15)

وهي تـبين أن كـلّ مـا في الأرض، من خـيرات وطيّبـات، حلال طيّب ومباح لكافة بني الإنسان، دون تفريق أو تمييز، فحكمة اللـه، وعدله تقضيان بأن تتوفر لكلّ إنسان حاجته وحقّـه المقـرر لـه في الحياة: يا أَيُّها النّـاس كُلُـوا مِمّـا فِي الأَرضِ حَلالاً طَيِّبـاً (البقـرة: 168)

وقد استنكر القرآن الكريم على هؤلاء المنحرفين موقفهم هـذا

1() انظر مقالا بعنوان: كيف تعامل الإسلام مع الجسد؟ من موقع (البلاغ) الموسـوعة الإسلامية.

من المتع الجسديّة، والطيّبات التي أنعم الله بها على عباده، فقال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتي أخرَجَ لِعِبـادِهِ وَالطَّيِّبـاتِ مِنَ الـرِّزق ﴾ (الأعراف: 32)

واعتبر الرهبانية بدعة خطيرة في الـدين، ففي القـرآن الكـريم عند ذكر التحريف الـذي حصـل للمسـيحية:﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ وَآتَيْنَـاهُ الْإِنْجِيـلَ وَجَعَلْنَـا فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَـاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَـا فَآتَيْنَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْهُمْ أَجْـرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد:27)

الروح:

قلت: لا أرى أن الطين وحـدها كافيـة لأن تحـول من الإنسـان إنسانا؟

قال: صدقت.. فالفطرة تـدل على أن الإنسـان أعمـق من أن ينحصر في هذا القالب الطيني مع احترامنا العظيم له.. وقد أخبرنا القـرآن الكـريم بهـذه الحقيقـة الفطريـة، وأكـدها لنـا، بـل بين لنـا منشأها وأصلها، فقال تعالى ـ مبينا أن لها من السمو والرفعة ما لا يمكن تصوره.. ولذلك نسبها إليه ـ :﴿ فَـإِذَا سَـوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29)

قلت: فهل ذكر القرآن حقيقة هذه الروح وماهيتها؟

قـال: لقـد ظلت البشـرية في دهورهـا جميعـا تأكـل الفواكـه والخضر واللحـوم، وهي لا تعـرف عناصـرها ومركباتهـا، ومـع ذلـك ظلت تستفيد منها، بل لا تستطيع أن تعيش من دونها.

وظلت البشرية منذ سالف الدهور متثاقلـة إلى الأرض منجذبـة إليها مع أنها لا تعلم قوانين الجاذبية.

وظلت البشرية منذ سالف الدهور والأحقاب تستفيد من الآلات التي جهزت بها من القلب والمعدة والرئتين وغيرهـا.. من غـير أن تعلم من تفاصيل ذلك شيئا.

قلت: ما تقصد بكل هذا؟

قال: أقصد أن الإنسان عندما لا تكون له الوسائل الكافية التي يبحث بهـــا عن الحقـــائق والماهيـــات يكتفي بالاســـتفادة منهـــا وبالاعتراف بها دون أن يحاول بعقله المحدود أو بوسائله المحدودة تخيلها.

قلت: وما المانع من ذلك؟

قـال: حـتى لا يقـع في الـوهم.. فـالوهم يحـول من الحقـائق

أساطير.. ومن العلوم خرافات.

قلت: ولكن ما المانع من معرفتها؟

قال: نحن لا نـرى إلا الألـوان والأحجـام والأشـكال.. فلـذلك لا نسـتطيع أن نـرى مـا لم تكن لـه من هـذه الجسـوم مـا تسـتطيع مـداركنا البسـيطة أن تدركـه.. ولـذلك من العبث أن نبحث فيـه.. ولهذا قطع الله عنا الجدل الذي يمكن أن نقع فيـه إذا مـا أردنـا أن نبحث عن حقيقة الروح(1)، فقال: ﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الاسراء:85)

ولـذلك أمرنـا بـدل البحث عن الماهيـة أن نسـتثمر الطاقـات الكبرى التي تتمتع بها أرواحنا في أداء الأمانة التي كلفنـا بهـا، قـال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَـا الْإِنْسَـانُ إِنَّهُ كَـانَ ظَلُومـاً جَهُـولاً ﴾ (الأحزاب:72)

لم أدر بمـا أجيبـه، فقـال: لعلـك في رحلتـك في البحث عن الإنسـان مـررت بـذلك الركـام من التيـه في التعـرف على روح الإنسان..

قلت: لقد مررت على الماديين.. فرأيت أنهم فقـد قطعـوا عن أنفسهم هذا الجـدل حين اعتقـدوا أن الإنسـان مجـرد كيـان مـادي مكوَّن من مجموعة من الأجهزة والفعاليات المادية، وعنـدما يفقـد الحياة سينحل ويستهلك في تراب الأرض وتنتهي دورة وجـوده في عالم الطبيعة إلى الأبد.

وقد ذكر هؤلاء أن الروح ـ إن صح أن يكون هناك روح ـ مـا هي إلا خواص الجسد، فهي لذلك تخضع لجميع القوانين التي تحكمه.

1() هذا هو السر الـذي عـزا إليـه المحققـون من العـارفين سـر عـدم إمكـان معرفـة الجمـاهير للـروح، وقـد تحـدث الغـزالي عن ذلـك عنـد ذكـره للأسـرار الـتي يختص بهـا المقربون ولا يشاركهم الأكثرون في علمهـا ويمتنعـون عن إفشـائها إليهم، فقـال القسـم الأول: أن يكـون الشـيء في نفسـه دقيقـاً تكـل أكـثر الأفهـام عن دركـه فيختص بدركـه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصـر أفهـامهم عن الدرك. وإخفاء سر الروح وكف رسول الله ﷺ عن بيانه من هذا القسم فـإن حقيقتـه بما تكـل الأفهـام عن دركـه وتقصـر الأوهـام عن تصـور كنهـه. ولا تظنن أن ذلـك لم يكن مكشوفاً لرسول الله ﷺ فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعـرف نفسـه ومن لم يعـرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأوليـاء والعلمـاء وإن لم يكونوا أنبياء ولكنهم يتـأدبون بـآداب الشـرع فيسـكتون عمـا سـكت عنـه بـل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقصر أفهام الجماهير عن دركه ولم يذكر رسول اللـه ﷺ منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى فهمهـا الخلـق بنـوع مناسـبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علماً وقدرة فيتوهمـون ذلك بنوع مقايسة. ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق مما يناسـبه بعض المناسـبة شـيء لم يفهموه)(انظر: الإحياء: 1/100)

وذكروا أن مجموع ظواهر الشعور والعقل والارادة والفكر، ما هي إلاّ وظائف عضوية مثلها كمثل جميع الوظائف البدنية الأُخرى، وكذا الآثار الفكرية والمعرفية عندهم ماهي إلاّ نتائج وآثار فيزيائية وكيميائية للخلايا العصبية والعقلية، وجميع تلك الآثار والنشاطات الروحة تظهر بعد ظهور العقل والجهاز العصبي، وتموت بموت الجسد، فإذا مات الانسان بطلت شخصيته، واندثر بدنه، وزال معه كلّ ما بلغه من محصول عقلي وارتقاء نفسي وكمال روحي.

قال: لقد ذكر الله تعالى هذا الصنف، فقال: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام:29)، وقال: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (المؤمنون:37)

قلت: فكيف يرد على هؤلاء؟

قال: إن أول ما يرد به على هؤلاء هو الفطرة.. فالفطرة البشرية تقول بوجود الروح.. والدليل على ذلك اتفاق جميع أمم الأرض على ذلك، ولا يمكن لجميع أهل الأرض أن يتفقوا على شيء واحد في مثل هذه الخطورة(1).

قلت: إن قومنا لا يؤمنون إلا بالمخابر.

قال: فليبحثوا في المخابر.. فسيجدون كل الأدلة التي تبرهن لهم على أنه لا يمكن للإنسان أن يكون إنسانا حتى ينفخ فيه من

1() فقد كان سقراط وأفلاطون يعتقدان أنّ الروح جوهر خالد موجود منذ الأزل، وعندما يكتمل الجنين في بطن أُمّه تتعلق به الروح، ثمّ تعود بعد الموت إلى محلّها الأول، ويرى إفلاطون أن هناك روحين: إحداهما الروح العاقلة وهي الخالدة ومحلها الدماغ، والأخرى غير خالدة ولا عاقلة، وهي قسمان: غضبية ومستقرها الصدر، وشهوية ومكانها البطن.

وذهب أرسطو إلى الاعتقاد بحدوث الروح مع حدوث البدن، فعندما يتكامل البدن توجد الروح دون أن تكون لها سابقة حياة قبل حدوثها، وعدّ ثلاثة صنوف من الأرواح منبثّة في مجموع البدن، وهي: الروح العاقلة ــ أو النفس الناطقة ــ وهو يقول بتجردها، والروح الحاسة أو الحيوانية، والروح الغاذية، ولا يقول بتجرد الأخيرتين.

واهتم ديكارت (ت1560) بتمييز الروح عن الجسم، وتحديد خصائص كلّ منهما، فاعتبر الروح جوهراً أخصّ صفاته الفكر، ولا يتصوّر فيه إمكان التجزّي والانقسام وعدم التجانس في أجزائه، واعتبر الجسم جوهراً أخص صفاته الامتداد، ومن أحواله الصورة والحركة، ويقبل الانقسام والتجزّي والتغير بطبيعته.

وغيرهم من الهنود والصينيون.. اتفقوا على أن حقيقة الإنسان هو كيان روحي مجرَّد عن صفات المادة وخصائصها، وهو غير البدن العضوي والجهاز المادي الذي يؤدي الفعاليات والنشاطات المادية. وهو الذي ينطق عنها الإنسان فيقول (أنا)، فليس (الأنا) الذات الإنسانية هي ذلك الكيان الجسدي، بل هي ذلك الكيان الروحي المستقل.

والكيان الإنساني (الروح) هو القوة المدركة، وهو القوة التي تشعر بالألم واللذّة والخوف والسرور والحزن، وهو القوة الناطقة، وما الجسم إلاّ آلة لتنفيذ مآرب النفس، وليست الأجهزة الحسّية والدماغ إلاّ أدوات يستخدمها الإنسان (الكيان الروحي) لفهم العالم المادي والتعامل معه.

الروح السامية ما يتحول به إلى إنسان(1).

قلت: دعنا من قومنا.. فقد يئست منهم.. ولا يهمـني أن يقبلـوا أو يرفضوا.. فقد تعودوا أن يقبلوا ما يشاءون قبولـه، ويرفضـوا مـا يشاءون رفضه سواء قبلته المخابر أو رفضته.

قال: فما تريد مني أن أحدثك؟

قلت: عن سر الروح..

قـال: الـروح هي السـر الربـاني الـذي تحـول بـه الطين إلى إنسان.. وبها تحمل الأمانـة العظيمـة الـتي أبت السـموات والأرض أن تحملها.. وبها تحمل الخلافة.. وبها استطاع أن يعبد الله عبوديــة التكليف.. وبها يحب.. وبها يبغض.. وبها يسعد.. وبهـا يشـقى.. وبهـا يــرى مــا وراء الحجب.. وبهــا تتجلى لــه حقــائق الأشــياء.. وهي (فهرس الغرائب التي تخص الاسماء الإلهيـة الحسـنى.. ومقيـاس مصغر لمعرفة الشؤون الالهية وصفاتها الجليلـة.. ومـيزان للعـوالم التي في الكون.. ولائحة لمنـدرجات هـذا العـالم الكبـير.. وخريطـة لهـذا الكـون الواسـع.. وفذلكـة لكتـاب الكـون الكبـير.. ومجموعـة مفاتيح تفتح كنوز القدرة الإلهية الخفية.. وأحسن تقــويم للكمــالات المبثوثة في الموجودات، والمنشورة على الأوقات والأزمان)(2)

قلت: لو كان الأمر كذلك.. لكـان النـاس كلهم نسـخة واحـدة.. لكانوا كلهم علماء قديسين.

قال: هناك سر في الروح يجعل الناس مختلفين.

قلت: ما هو؟

قـال: الإرادة.. والكسـب.. والاختيـار.. سـأقرأ عليـك شـيئا من القـرآن الكـريم ربمـا يجيبـك عن سـؤالك.. فلا طاقـة لعبـاراتي أن تضاهي عبارات القرآن.. لقد قال الله تعالى يحلل الإنســان ويــذكر أسراره : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْـهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَـرَهُ أَحَـدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَـفَتَيْنِ (9) وَهَـدَيْنَاهُ النَّجْـدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَـةَ (11) وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا الْعَقَبَـةُ (12) فَـكُّ رَقَبَـةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَـةٍ (15) أَوْ مِسْـكِينًا ذَا مَتْرَبَـةٍ (16) ثُمَّ كَـانَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُـوا وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ وَتَوَاصَـوْا

1() ذكرنا الكثير من الأدلة العلمية المرتبطة بإثبات وجود الروح في رسالة (معجــزات علمية) من هذه السلسلة، وسنرى تفاصيل أخرى لهـا علاقـة بهـذا في رسـالة (البـاحثون عن الله)

2() ما بين قوسين من كلام الإمام النورسي، وسنرى شرح هذه المعـاني الجليلـة في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20) (البلد)

قرأ محمد هذه الآيات بخشوع عظيم، ثم نظر إلي، وقال: إن هذه الآيات تخبرك عن سر الإنسان.. ومن خلاله تعرف سر الروح.

لقد خلق الله الإنسان في وضع يكابد فيه البحث عن الحياة التي يختارها.. الحياة المادية والحياة المعنوية..

وهو في هذه الحياة وضعت أمامه جميع الأشكال والقوالب ليختار منها ما يتناسب مع هواه وإرادته..

ثم كان من رحمة الله أن بين له النجدين.. نجدي الخير والشر.. ونجدي الحق والباطل.. ليختار من كل ذلك ما يتناسب مع رضاه وإرادته وكسبه.. من غير أن يجبر في ذلك على شيء.

ثم كان من رحمة الله أن هداه إلى السلوك الصحيح الذي ينجيه ويسعده في هذه المحال الصعبة من الاختيار.

قلت: لم كان الأمر كذلك؟

قال: لقد ذكر الله ذلك، فبين أن البشر سيتميزون.. وسيكون هناك أهل يمين، وسيكون في مقابلهم أهل شمال..

قلت: لم كان الأمر كذلك(1)؟

قال: لقد ذكر الله ذلك، فقال : لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37) (الأنفال)

قلت: لكن الناس لو تركوا لأنفسهم فسينحازون لا محالة لأهل الشمال؟

قال: لا.. لقد كان من رحمة الله.. أن عرف الإنسان به قبل أن يعرفه بالأشياء.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (174) (الأعراف)

ولذلك أخبرنا نبينا ﷺ أن دور الدين الذي يتدارك الله به عباده عن طريق رسله وكلماته هو إعادة البشر إلى الفطرة الأصلية التي فطروا عليها.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك : فَأَقِمْ وَجْهَكَ

1() ذكرنا التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق)

لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (الروم:30)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن الفطرة الأصلية مستعدة للخير استعدادا جبليا، وأن التغيير الطارئ عليها ليس ناشئا من طبيعتها الخلقية، وإنما نشأ من مؤثرات خارجية اقتضاها التكليف.

وفطرة الإنسان في ذلك تشبه فطر الأشياء المختلفة، فالله تعالى خلق الماء طاهراً مطهراً، فلو ترك على حالته التي خلقه الله عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يزل طاهراً، ولكنه بمخالطة المؤثرات الخارجية من الأنجاس والأقذار تتغير أوصافه ويخرج عن الخلقة التى خلق عليها.

وقد بينت لنا كلمات الله التي أنزلها على خاتم رسله هذه المؤثرات الخارجية لتفاديها، أو لإصلاح ما أفسدته هذه المؤثرات من الفطرة الأصلة.

وأول هذه المؤثرات كما يخبر رسول الله ﷺ هي المهد الذي ربي فيه الإنسان، كما قال ﷺ:(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء؟)(1)

ومن هذه المؤثرات الشياطين، وهي أخطر المؤثرات، ولذلك اشتد التحذير منه في القرآن الكريم، وإلى هذا المؤثر يشير قوله تعالى حكاية لقول الشيطان: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (النساء: من الآية118 ـ 119)

فالشيطان في هاتين الآيتين يتوعد بتغيير الفطرة الأصلية التي فطر عليها البشر، والتي تشمل كل شيء حتى ما يتعلق منها بالجانب الخلقي.

وإلى هذا المؤثر ـ أيضا ـ يشير قوله ﷺ في الحديث القدسي:(قال الله عزّ وجلّ: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم)(2)

وليس من المؤثرات الخارجية ـ كما قد يتوهم ـ أن الله تعالى يملي عليه الشر، ويزينه له، فذلك محال على الله تعالى.. فالرحمن الرحيم أرحم بعباده من أن يملي عليهم الشر، أو يدعوهم إليه.

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الطبراني في الكبير.

النفس:

قلت: لقد ذكر أساتذتي الدوافع الغريزية التي تسيطر على الإنسان شعر أو لم يشعر؟

قال: نحن نسمي ذلك نفسا.

قلت: فما النفس؟

قال: لقد ذكرت لك أن في الإنسان ركنين أساسين: أما أولهما.. فذلك الطين البسيط المتواضع الذي لا يقدر على شيء.. وأما الثاني، فتلك الروح العلوية الطاهرة.. وقد شاء الله أن تنزل تلك الروح العلوية إلى هذه الأرض.. وأن تمتطي هذا الجسد الترابي.. والتراب ـ بحسب سنن الله ــ يحتاج إلى المدد الغذائي الذي يحفظ توازنه.. ولأجل هذه الحاجة ولدت النفس..

قلت: فالنفس هي الجهاز الذي يخدم وجود الإنسان على الأرض إذن؟

قال: أجل..

قلت: قرب لي ذلك لأفهمه.

قال: هل يمكن للسيارة أن تسير بلا وقود؟

قلت: لا.. لا يمكن ذلك.

قال: فالنفس هي التي تخبرك عن حاجتك للوقود، وتدلك عليها.. وهي التي تملأ فمك منها.

قلت: لم أفهم هذا.

قال: لقد خلق الله لجسدك حاجات كثيرة، ولا يتولى هذه الحاجات إلا النفس.

قلت: فكيف تتولاها؟

قال: بأخلاق جبلت عليها تسمونها الغرائز.

قلت: فأنت تتفق إذن مع من يقول بتأثير الدوافع الغريزية..

قال: لقد ذكرت لك أنهم جميعا أبصروا حقائق.. ولكنهم لم يكتفوا بها، بل راحوا يخلطونها بالأوهام والخرافات حتى ملأوها تحريفا.. لعلك تعرف ما يقوله فرويد عن غريزة الجنس؟

قلت: لقد تتلمذت عليه زمنا.. وهو يعتبر غريزة الجنس عاصمة الغرائز..

قال: لا حرج عليه في أن يعتبرها عاصمة الغرائز أو مدينة من مدنها.. ولكن الحرج في أن يفسر كل الدوافع الإنسانية على أساسها.. ألم يبلغ به الشطط أن فسر الدوافع الداعية إلى البحث عن الدين بهذا التفسير؟

قلت: بلى..
قال: فهذه هي المتاهة التي وقع فيها.. لقد خلط بين الروح والنفس..
قلت: لقد ذكرت لي أن الروح عندما تمتطي الجسد تتحول إلى نفس؟
قال: لا.. لم أقل إنها تتحول.. وإنما قلت لك: إنها تحتاج إلى جهاز اسمه النفس لتمارس به حياتها على هذه الأرض.. إن حاجتها إلى النفس تعدل حاجتنا إلى استعمال أجهزة خاصة إذا أردنا أن نصعد في الفضاء أو نغوص في أعماق الماء.
قلت: والروح؟
قال: الروح هي الإنسان.. وليس لها في الأصل إلا وجهة واحده هي الوجهة التي صدرت منها.. فهي لا تزال تحن إليها.
قلت: فكيف تستعمل النفس الغرائز لتحفظ به وجودها؟
قال: يمكن للعقل المجرد المتخلي عن الهوى أن يكتشف هذا.. فالنفس ليست بعيدة عنا.. ولذلك يمكن تحليلها لمعرفة الغرائز المرتبطة بها.
سأذكر لك ما قاله علماء المسلمين في هذا.. ولعلهم استفادوا الكثير منه من حكماء الأمم المختلفة:
لقد ذكروا أن الوجود الدنيوي للإنسان يتطلب وسائل خاصة يتمكن بها الإنسان من السكن على هذه الأرض، كما يتطلب رائد الفضاء لباس خاصا يتناسب مع جو القمر، أو أي جو يريد أن يتعامل معه.
واللباس الذي يتناسب مع هذه الأرض، هو هذا الجسد الترابي، وخصائصه هي نفس خصائص المكونات الحية الموجودة على هذه الأرض، فلذلك صار يفتقر إلى ما يحفظه، وما يدفع عنه الهلاك.
وهذا الحفظ والتعهد يتطلب أعضاء تجلب الغذاء وغيره، وأعضاء تدفع عن النفس الهلاك.
وكل هذه الأعضاء التي سلح بها بدن الإنسان هي الوسائل الأساسية لتحقيق متطلبات الوجود من الغذاء والدفاع، بل ليس هناك جزء من جسد الإنسان لا يقوم بهذا الأمر.
ومع أن أكثر هذه الأعضاء يقوم بهذه الوظائف تلقائيا إلا أن أصل الغذاء والدفاع ركب في الجهاز الإرادي للإنسان فتنة وابتلاء.
فركب في الإنسان جهاز الشهوة الدافع إلى الغذاء والحفاظ على النسل.

كما ركب فيه جهاز الغضب الـدافع إلى الحميـة والحفـاظ على الوجود.

وهذان الجهازان ينتظم تحتهما كل ما تتطلبه النفس من غرائـز الوجود، وهما المستعملان لأعضاء البدن في تحقيق متطلبات هـذه الغرائز.

قال الغزالي يشرح ضرورة هذه الغرائز :(فافتقر لأجـل جلب الغذاء إلى جندين: باطن، وهو الشهوة. وظاهر، وهو اليد والأعضـاء الجالبـة للغـذاء، فخلـق في القلب من الشـهوات مـا احتـاج إليـه، وخلقت الأعضـاء الـتي هي آلات الشـهوات فـافتقر لأجـل دفـع المهلكات إلى جندين: باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكـات وينتقم من الأعداء. وظاهر، وهـو اليـد والرجـل اللـتين بهمـا يعمـل بمقتضى الغضب، وكـل ذلـك بـأمور خارجـة؛ فـالجوارح من البـدن كالأسلحة وغيرها)(1)

والأمر إلى هذا المحـل تتفـق فيـه النفس البشـرية مـع النفس الحيوانية، وليس هنـاك أي خصوصـية للإنسـان في هـذه الجـوانب، وليس هناك أي مجال للمـدح أو الـذم لمـا يتعلـق بمتطلبـات هـذه الغرائز.

وإنما يبدأ التكليف، وينشأ المـدح والـذم من غريـزة أخـرى لهـا علاقة بهذه الغرائز من جهة، ولهـا علاقـة بسـر وجـود الإنسـان من جهة أخرى، فهي بين بين، وعلى أساس هذه الغريزة تتحدد علاقــة الإنسان بنفسه.

وهذه الغريزة هي غريزة الإدراك المزودة بأدوات التعرف على العالم الذي نزلت روح الإنسان إليه.

قال الغزالي مبينا وجه الحاجة إلى هـذه الغريـزة وعلاقتهـا بمـا سبقها من غرائز :(ثم المحتاج إلى الغذاء مـا لم يعـرف الغـذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه، فافتقر للمعرفة إلى جندين: باطن، وهـو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق، وظـاهر، وهـو العين والأذن والأنف وغيرها)

وزود بالإضــافة إلى هــذه الحــواس بوســائل التعامــل مــع المعلومات والمدركات، ويمكن إدراكها بسهوله (فإنّ الإنسان بعـد رؤية الشيء يغمض عينه فيدرك صورته في نفسه وهو الخيال، ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شيء يحفظه وهو الجند الحافظ، ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض، ثم يتـذكر مـا قـد

1() الإحياء:3/5.

نسيه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المحسوسات في خياله بالحس المشترك بين المحسوسات؛ ففي الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ)

فهذه هي الغرائز التي يحفظ بها الإنسان وجوده على هذه الأرض ـ والتي ذكرها علماء المسلمين بناء على دراستهم التحليلية للإنسان ـ وربما استفادوا في ذلك من غيرهم.. ولا حرج عليهم في ذلك.

قلت: ما دام الأمر مفتوحا.. فلم ينكر على العلماء الذين حاولوا البحث في هذه الغرائز(1) ؟

قال: لأن هذه الغرائز قد تشتط وتنحرف، ويتولد عن انحرافها غرائز شاذة تنحرف بحقيقة الإنسان.. فيأتي هؤلاء، فيتصورون أن الشذوذ أصل، وأن الانحراف استقامة..

قلت: فالإنسان مطالب بكبت غرائزه إذن؟

قال: لا.. الإنسان مطالب بالحفاظ على استقامة غرائزه حتى لا تخرج به عن الفطرة التي فطر عليها..

لقد ذكر الغزالي أمثلة ربما تقرب لك هذا..

لقد ضرب مثالا عن حقيقة الإنسان ــ التي هي روحه وسر وجوده ـ في بدنه كمثل ملك في مدينته ومملكته، فالبدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها، والجوارح وقواها بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة كالمشير الناصح والوزير العاقل، والشهوة كالعبد يجلب الطعام إلى المدينة، والغضب والحمية كالحرس والشرطة.

أما العبد الجالب للطعام، والذي يمثل الشهوة، فهو كذاب ماكر مخادع، يتمثل بصورة الناصح، وهو في علاقة عداء تام مع الوزير الناصح حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة.

1() وضع مكدوغل 14 غريزة، أضاف إليها غرائز أخرى، ومن أهمها غريزة المقاتلة، البحث عن الطعام، التملك، الجنس، الابوة، الراحة، النوم، وقد كان مكدوغل يعبر عن هذه الغرائز بالغرائز الفطرية. إلا أن آراءه هذه لقيت بعض النقد، ومن أهم ما وجه اليها من نقد:

1. تنافي اتجاه الغرائز الفطرية مع الاتجاه العلمي للبحث، وكونها خارجة عن إطار السيطرة والتحكم، اذ أن الغريزة من الأمور الانفعالية.

2. التشكيك في عدد الغرائز المطروحة (بين 14 و36) ويصل العدد، في رأي وليم جيمس، الى مئة غريزة.

3. يرى علماء الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن الاختلاف، في سلوك الإنسان، يعود إلى الاختلاف في الثقافة بين مجتمع وآخر، فتنتفي بعض الغرائز عند بعض المجتمعات، كغريزة المقاتلة، مثلا، إذ أن بعض المجتمعات، كالهنود الحمر، في كندا، يتنازلون عن الممتلكات تعبيرا عن الفوز بالمعركة، كان تحدي الانسان لدافع التملك دليل على الفوز.

فـإذا كـان الـوالي في مملكتـه مسـتغنياً في تدبــيراته بـوزيره معرضـاً عن إشـارة هـذا العبـد الخبــيث، أدبـه صـاحب شـرطته، وساسه لوزيره وجعله مؤتمراً له مسلطاً من جهته على هـذا العبـد الخبـيث وأتباعـه وأنصـاره، حـتى يصـير العبـد مسوسـاً لا سائسـاً، ومأموراً مدبَراً لا أميراً مدبِراً.

وفي هذه الحالة يستقيم أمر البلد، وينتظم العدل بسببه.

وهكذا النفس مـتى اسـتعانت بالعقـل، وأدبت بحميـة الغضـب، وسلطتها على الشهوة، واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بــأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفـة الشـهوة واسـتدراجها، وتـارة بقمـع الشـهوة وقهرهـا بتسـليط الغضـب والحميـة عليهـا وتقبــيح مقتضياتها، اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها.

وينطبق عِل من هذا حاله مع نفسه قوله تعالى فيمن لم يخضع لغرائزه :﴿ وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)﴾ (النازعات)

أمــا إن كــان خلاف ذلــك، وأصــبح الحكم في الإنســان هــواه وغرائزه، فإنه ينطبق عليه حينهـا قولـه تعـالى:﴿ أَفَـرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَـذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِـهِ وَجَعَـلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23)﴾(الجاثية)

إن هذا المثل ينطبق تمامـا على هـذا المثـل القـرآني الجليـل، قال تعالى :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَـاهُ آيَاتِنَـا فَانْسَـلَخَ مِنْهَـا فَأَتْبَعَـهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَاقْصُـصِ الْقَصَـصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا وَأَنْفُسَـهُمْ كَـانُوا يَظْلِمُـونَ (177)﴾ (الأعـراف).. فقـد اعتـبر اللـه من خضـع لغرائزه لتسيره كما تشاء كلبا.. أو لا يختلف عن الكلب..

وكذلك هؤلاء الذين يقولون للناس: (إن هذه هي غرائـزكم.. فلا تكبتوهـا..) هم في الحقيقـة يرمـونهم كـل مـرة في هاويـة من البهيمية يصعب عليهم الخروج منها.

قلت: لم؟

قال: لأن النفس إذا تعودت شيئا أدمنت عليه.. فإذا أدمنت بان لهـا أنـه الأصـل.. ثم يـأتي هـؤلاء المحللـون ليضـموه إلى غرائـز الإنسان.

سكت قليلا، ثم قال: ألا تـرى المـدمنين على المخـدرات كيـف

يشق عليهم تركها.. ولو خيرتهم بين تلبية غريزة الطعام وغريزة الأفيون لاختاروا الأفيون.. فهل نترك لهؤلاء المحللين المجال ليفرضوا على الإنسان صاحب الفطرة الأصلية ما يقع فيه ضحايا الغرائز الشاذة؟

سكت، فقال: إن هذه النظرة من الأصول التي تجعل المسلم يشعر بأنه صاحب إرادة.. فلذلك لا يستسلم لغرائزه.. وإنما يهذبها لتستقيم مع الفطرة السليمة..

لقد ذكر القرآن الكريم أصناف الناس، وتعاملهم مع غرائزهم.. فذكر الغافلين عن أنفسهم الذين توحد الأنا فيهم بالنفس، فلم يدركوا من وظائف وجودهم غير إرضاء الشهوات والغرائز التي وضعت في الأصل لخدمة المطية التي تحملهم، قال تعالى : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (الحشر:19)

والفاسق هو الخارج عن حقيقته المستغرق في شهواته الغافل عن وظيفة وجوده، والآية تنبه إلى أن سر فسوقه هو نسيانه وغفلته عن الله، وفي ذلك إشارة إلى أن معرفة الله هي الأساس والمنطلق الذي ينطلق منه من يريد أن يترقى عن حجاب النفس.

وقد سمى القرآن الكريم هذه النفس بالنفس الأمارة بالسوء، قال تعالى : إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)(يوسف: من الآية53)

وهي نفس مطمئنة من جهة اطمئنان صاحبها لما هو فيه، فلا تحدثه نفسه بملامة أو عتاب، فهو راض عن حاله، قد كفى الشيطان هم الوسوسة، وكفى نفسه هموم الصراع، فنفسه مستقرة مطمئنة، والقلب مغلف مطبوع.

وفي مقابل هذه النفس نفس أخرى، وهي كذلك نفس مطمئنة، لأنها استسلمت بعد جموحها، وذلت بعد كبريائها، فصاحبها في راحة منها، والشيطان لا يجد مجالا ليدخل إليها، وقد عبر القرآن الكريم عنها بالنفس المطمئنة، فقال تعالى : يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر:29 ـ 30)

وهذه هي نفوس الخلاصة من عباد الله من الأنبياء والأولياء والصالحين، وهي المرحلة الأخيرة التي تنتهي إليها المجاهدات، وهي المرحلة الأولى التي تبدأ منها المواهب.

ومثل هذه النفس كالتربة الطيبة التي هذبت وصفيت وأصلحت، ثم بذرت فيها البذور الطيبة، ولا يبقى لها إلا المطر

الذي ينزل عليها، فتبسق أشجارها وتطيب ثمارها.
وبين هاتين النفسين ما يسميه القرآن الكريم بالنفس اللوامة، قال تعالى :﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:2)
وهذه النفس هي التي تتعامل مع صاحبها، أو يتعامل معها صاحبها كما يتعامل مع شخص أجنبي، فهو يلومها ويعاتبها، وقد يضطر لمعاقبتها ومجاهدتها.
لقد ذكر الإمام بديع الزمان النورسي مثالا مقربا لهذا، فذكر أنه كان في الحرب العالمية الأولى، جنديان اثنان: أحدهما مدرَّب على مهمته مجدّ في واجبه، والآخر جاهل بوظيفته متّبعٌ هواه.
فكان الأول يهتم الاهتمام كله باوامر التدريب وشؤون الجهاد، ولم يكن يفكر قط بلوازم معاشه وأرزاقه، لإدراكه أن رعاية شؤونه وتزويده بالعتاد، بل حتى مداواته اذا مرض إنما هو من واجب الدولة، وأما واجبه هو فالتدّرب على امور الجهاد ليس إلاّ.
وهو مع هذا لا يمتنع من ان يقوم بشؤون التجهيز وبعض الأعمال التي تتطلبها حياته وفي هذه الاثناء لو سُئل: ماذا تفعل؟ لقال: إنما اقوم ببعض واجبات الدولة تطوّعاً، ولا يجيب: انني اسعى لأجل كسب لوازم العيش.
أما الجندي الآخر، وهو الجاهل بواجباته فلم يكن يبالي بالتدريب ولا يهتم بالحرب، بل كان يقول: ذلك من واجب الدولة، وما لي أنا؟! فيشغل نفسه بامور معيشته ويلهث وراء الاستزادة منها.
قال النورسي معقبا على هذا المثال شارحا له:(أمّا الجنديان الاثنان؛ فأحدهما هو العارف بالله والعامل بالفرائض والمجتنب الكبائر، وهو ذلك المسلم التقي الذي يجاهد نفسه والشيطان خشية الوقوع في الخطايا والذنوب.. وأما الآخر: فهو الفاسق الخاسر الذي يلهث وراء هموم العيش لحد إتهام الرزاق الحقيقي، ولا يبالي في سبيل الحصول على لقمة العيش أن تفوته الفرائض وتتعرض له المعاصي.. وأما تلك التدريبات والتعليمات، فهي العبادة وفي مقدمتها الصلاة.. وأما تلك الحرب فهي مجاهدة الانسان نفسه وهواه، واجتنابه الخطايا ودنايا الأخلاق، ومقاومته شياطين الجن والأنس، إنقاذاً لقلبه وروحه معاً من الهلاك الأبدي والخسران المبين)

العقل:

قلت: عرفت الروح والجسد.. وما يتولد عنهما من النفس..

فما العقل(1)؟

قال: هو النافذة التي تطل بها على حقائق الوجود.. وهو النـور الذي تتعرف به على واهب النور.. وهو العقال الـذي ينظم نفسـك لتنسجم مع الكون وتتخلق بأخلاق حقيقتها؟

قلت: هل تقصد ذلك الذي يسكن الجمجمة؟

قال: الجمجمة يسكنها الدماغ.. لا العقـل.. العقـل أشـرف من أن ينحصر في قفص الجمجمة(2).

1() سنتحدث بتفصيل عن العقل في الفصل الخاص به.. وإنما نذكر هنا علاقته بأركـان الإنسان.

2() من أحسن الأبحاث العلمية الحديثة الدالة على هذا مـا ذكـره أصـحاب (العلم في منظوره الجديد) من أن (ويلدر بنفيلد) (1891-1976م)، وخلال عمليات جراحيـة أجراهـا على أدمغة ما يربـو على ألـف مـريض فى حالـة الـوعى، لاحـظ ملاحظـات مهمـة حـول وظيفة الدماغ تفوق فى حجيتها وكمالها جميع الأدلة غير المباشرة المستفادة من بحـوث أجريت على حيوانات، ومن عمليات جراحية أجريت على أدمغة أشخاص مبنجين.

لقد كان بنفيلد، والذى يعود له الفضل الأول فى إدماج مباحث الأعصـاب وفسـيولوجيا الأعصاب وجراحة الأعصاب، قد شرع فى بحوثه الرائدة فى الثلاثينات من هذا القرن غير أن الآثار الكاملة المترتبة على اكتشافه لم تتضح إلا حين نشر كتابه المسمى (لغز العقل) (the mystery of the mind)

لقـد اكتشـف بنفيلـد عـام 1993 بمحض الصـدفة أن تنبيـه منـاطق معينـه فى الـدماغ بالكهرباء تنبيها خفيفا يحدث استرجاعا فجائيا للذاكرة عند المريض الواعى.

لقـد سـاورت بنفيلـد الشـكوك أول الأمـر، ثم أخذتـه الدهشـة، فعنـدما لامس القطب الكهربائى قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كـان جالسـا يشـاهد لعبـة (بيسـبول) فى مدينة صغيرة، ويراقب ولدا صغير يزحف تحت السياج، ليلحق بجمهور المتفرجين، وهناك مريضة أخرى سمعت آلات موسيقية تعزف لحنا من الألحان.. قـال بنفليـد:(أعـدت تنبيـه الموضع نفسـه ثلاثين مـرة محـاولا تضـليلها، وأمليت كـل اسـتجابة على كاتبـه الاخـتزال، وكلما أعدت تنبيه الموضع كانت المريضة تسـمع اللحن من جديـد، وكـان اللحن يبـدأ فى المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية، وعندما دندنت، مصاحبة الموسيقا، كان إيقاعها يسير بالسرعة المتوقعة له)

لقد كان المرضى يحسون دائما بالدهشة لتذكر الماضـى بمثـل هـذه التفاصـيل الحيـة، ويفترضون على الفور أن الجراح هو المسؤول عن تنبيه الذاكرة التى ما كانت تتاح لولاه، وكان كل مريض يدرك أن التفاصيل هى من واقع تجاربه الماضية، وكـان من الواضـح أن الأشياء التى كان قد أولاها عنايته هى وحدها التى أودعها فى محفوظات دماغه.

وكان بنفيلد من وقت لآخر يحذر المريض أنه سينبه دماغه، ولكنـه لا يفعـل ذلـك، وفى مثل هذه الحالات لم يكن المريض يذكر أى ردود فعل إطلاقا.

ثم إن ملامسة المنطقة الخاصة بالنطق فى الدماغ تـؤدى إلى فقـدان مـؤقت للقـدرة على الكلام عند المريض، ونظرا لانعـدام الإحسـاس فى الـدماغ، فـالمريض لا يـدرك أنـه مصـاب بالحبسـة إلا عنـدما يحـاول أن يتكلم أو يفهم الكلام، فيعجـز عن ذلـك، وقـد روى بنفيلد ما حدث، فقال : (أخذ أحد مساعدى يعرض على المريض صـورة فراشـة وضـعت القطب الكهربائى حيث كنت أفترض وجود قشرة المخ الخاصة بـالنطق، فظـل المـريض صامتا للحظات، ثم طقطق بأصابعه كمـا لـو كـان غاضـبا، ثم سـحبت القطب، فتكلم فى الحـال، وقـال : الآن أقـدر على الكلام، إنهـا فراشـة لم أكن قـادرا على النطـق بكلمـة (فراشة) فحاولت أن أنطق بكلمة (عثة)

لقد فهم الرجل بعقله الصورة المعروضة على الشاشة،وطلب عقلـه من مركـز الكلام فى دماغه أن ينطق بالكلمة التى تقابل المفهـوم المائـل فى ذهنـه، وهـذا يعـنى أن آليـة

قلت: فما علاقته بالدماغ؟

قال: العقل يستخدم الدماغ كما يستخدم جميع وسائل الإدراك.. أما هو في ذاته فهو الروح نفسها.. ولا يعرفه إلا من يعرف سر الروح.

قلت: هل تستطيع أن تقرب لي علاقة الروح بالعقل.. وعلاقتهما جميعا بالجسد؟

قال: لن تفهم هذا إلا إذا فهمت أدوار العقل.

قلت: فما أدوار العقل؟

الكلام ليست متماثلة مع العقل، وإن كانت موجهة منه، فالكلمات هى أدوات تعبير عن الأفكار، ولكنها ليست الأفكار ذاتها، وحين عجز المريض عن التفوه بالكلمة لانسداد الكلام عنده استغرب، وأمر بالبحث عن اسم شىء مشابه هو (العثه) وعندما فشل في ذلك أيضا طقطق بأصابعه غضبا (إذ إن هذا العمل الحركى لا يخضع لمركز الكلام)، وأخيرا عندما انفتح مركز الكلام عند المريض شرح تجربته الكاملة مستخدما كلمات تناسب أفكاره، وقد استنتج بنفيلد أن المريض حصل على كلمات من آلية الكلام عندما عرض مفاهيم، ونحن نستطيع الاستعاضة عن ضمير الغائب فى عملية الاستبطان هذه بكلمة عقل فعمل العقل ليس عملا آليا)

وهكذا توصل بنفيلد إلى نتائج مماثلة فى مناطق الدماغ التى تضبط الحركات، قال: (عندما جعلت أحد المرضى يحرك يده بوضع القطب على القشرة الحركية فى أحد نصفى كرة دماغه كنت أسأله مرارا عن ذلك، وكان جوابه على الدوام (أنا لم أحرك يدى ولكنك أنت الذى حركتها) وعندما أنطقته قال: (أنا لم أخرج هذا الصوت أنت سحبته منى)

لقد لخص بنفيلد ذلك بقوله : (إن القطب الكهربائي يمكن أن يخلق عند المريض أحاسيس بسيطة متنوعة، كأن يجعله يدير رأسه أو عينيه أو يحرك أعضاءه أو يخرج أصواتا، وقد يعيد إلى الذاكرة إحساسا حيا بتجارب ماضية، أو يوهمه بأن التجربة الحاضرة هى تجربة مألوفة، أو أن الأشياء التى يراها تكبر وتدنو منه، ولكن المريض يظل بمعزل عن كل ذلك، وهو يصدر أحكاما على كل هذه الأمور وربما قال : إن الأشياء تكبر) ولكنه يستطيع مع ذلك أن يمد يده اليسرى، ويقاوم هذه الحركة.

ونتيجة مراقبة مئات المرضى بهذه الطريقة انتهى بنفيلد إلى أن عقل المريض الذي يراقب الموقف بمثل هذه العزلة والطريقة النقدية لا بد من أن يكون شيئا آخر يختلف كليا عن فعل الأعصاب اللاإرادي، ومع أن مضمون الوعي يتوقف إلى حد كبير على النشاط، فالإدراك نفسه لا يتوقف على ذلك.

وباستخدام هذه الأساليب المراقبة استطاع بنفيلد أن يرسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسئولية عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية غير أنه لم يكن في المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة في أي جزء من الدماغ، فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة، ولكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.

لقد أعلن بنفيلد عن نتائج أبحاثه قائلا : (ليس في قشرة الدماغ أي مكان يستطيع التنبيه الكهربائي فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئا، والقطب الكهربائي يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات غير أنه لا يقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقى، أو يحل مسائل فى الجبر، بل إنه لا يستطيع أن يحدث فى الذهن أبسط عناصر الفكر المنطقي، والقطب الكهربائي يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحرك، ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه، إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة، فواضح أذا أن العقل البشرى والإرادة البشرية ليس لها أعضاء جسدية) (انظر: العلم في منظوره الجديد)

قال: دوران.. أما **أولهما**، فهو خدمة الإنسان في هذا الوجـود المؤقت الذي يعيشه.. ودور العقل في هذا أن يستنبط من صنوف الحيل ما تيسر به الحياة.. وهو في ذلك يشبه دور النفس.

وأما **الثاني**، فأن يطـل على الوجـود ليتعـرف من خلالـه على رب الوجود.. وحقـائق الوجـود.. وهـذا هـو الـدور الأصـلي للعقـل.. ولهذا ينفي القرآن الكريم العقل على الـذي لم يسـتعمله في هـذا الدور الخطير.. قال تعالى :﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَـرُوا كَمَثَـلِ الَّذِي يَنْعِـقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُـونَ﴾ (البقـرة: 171)، وقال :﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِـأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ (المائـدة:58)، وقـال :﴿ إِنَّ شَـرَّ الـدَّوَابِّ عِنْـدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (لأنفـال:22)، وقـال :﴿ أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:46)

وفي المقابـل يثـني على من اسـتعملوا عقـولهم في رحلـة التعـرف على ربهم.. فيسـميهم ذوي الألبـاب.. فيقـول :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَـابِ﴾ (آل عمران:190)، وقـال :﴿ أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَسَـلَكَهُ يَنَـابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْـرِجُ بِـهِ زَرْعـاً مُخْتَلِفـاً أَلْوَانُـهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامـاً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَـذِكْرَى لِأُولِي الأَلْبَـابِ﴾ (الزمر:21)، وقال :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَـابِ مَـا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَـرَى وَلَكِنْ تَصْـدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْـهِ وَتَفْصِـيلَ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسـف:111)، وقـال :﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الرعد:19)، وقال :﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُـوا أَنَّمَـا هُـوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (ابراهيم:52)، وقال :﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْـلِ سَـاجِداً وَقَائِمـاً يَحْـذَرُ الآخِـرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَـةَ رَبِّهِ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ إِنَّمَـا يَتَـذَكَّرُ أُولُـو الأَلْبَـابِ﴾ (الزمر:9)

قلت: وعيت هـذا.. فمـا علاقـة العقـل بـالروح.. ومـا علاقتهمـا بالجسد؟

قال: أما الدور الأول.. فلـه علاقـة كـبرى بالجسـد.. لأنـه مثـل النفس لا يستخدم إلا طاقات الجسد.

وأما الثاني، فله علاقـة كـبرى بـالروح السـامية.. فلـذلك تجـده يشـف.. فـيرى من الحقـائق مـا لا يسـتطيع العقـل النفسـاني أن

يفهمه.

قلت: والدماغ؟

قال: الدماغ وجميع وسائل الإدراك وسـائل للعقـل يسـتخدمها كما تستخدم النفس المعدة في هضم الطعام.. والفم لأكله..

القلب:

قلت: عرفت أن النفس هي البرامج التي تضعها الـروح لحفـظ البدن.. وأن العقل هو الوسيلة التي تدرك بهـا الـروح العـالم.. فمـا **القلب**؟

قال: هو الوسـيلة الـتي تتفاعـل بهـا الـروح مـع العـالم تفـاعلا وجدانيا.

قلت: لم أفهم.

قال: للإنسان مجموعة علاقات بالعالم.. ولكل علاقة اللطـائف الخاصة بها.. فعلاقة العقل مـع جميـع وسـائل الإدراك هي التعـرف على هذا العـالم.. ثم إن هـذا التعـرف يحـدث آثـارا من القبـول أو الرفض، ومن الحب والبغض، ومن الإذعـان ومن الإبـاق.. والمحـل الذي خص بهذا هو ما يسمى (القلب)

قلت: لا نعـرف القلب إلا تلـك الجارحـة الـتي تضـخ الـدم إلى الجسم.

قال: لعلها تضـخ مـع الـدم تلـك المشـاعر.. وليس لعقولنـا ولا لأجهزتنا الآن القدرة على إنكار شيء من هذا.. فلا يمكن للعقل أن ينكر ما لم يستطع أن يعرفه (1)..

أما نحن.. فموقنون تماما بما قال لنا ربنا.. لقد قال لنـا : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا

1() نرى أن العلم بدأ يقترب نحو إثبات علاقة الوعي والمشاعر بـالقلب.. ومن أجمـل ما قرأنا في هذا البحث مقالا علميـا في مجلـة اليمامـة (العـدد 1607).. وهـو عبـارة عن تحقيق طبي عن آخر اكتشافات العلم الحديث حول وجود عقـل في القلب كتبـه الـدكتور فهد العريفي..

قال الدكتور: (تشير بعض البحوث الرائدة التي أجراها بعض العلماء إلى أنه يوجـد (مخ آخر) داخل الأمعاء والقلب يعرف بالجهاز العصبي الداخلي وهو مستقل عن المخ بيـد أنـه يتصل به في الجمجمة وذلك حسب رأي (مايكـل فيرشـون) رئيس قسـم التشـريح وعلم الأحياء الخلوية بكولمبيا.

إن المكـان الـذي تـذهب إليـه كـل تجربـة أو خـبرة هـو القلب لا المخ. في التسـعينات اكتشف علماء (علم القلب العصبي) الحقل الجديد الآخذ في الظهـور، اكتشـفوا عقلاً في القلب يتكون من 400.000 خلية عصبية من مختلف الأنواع إضافة إلى شبكة معقدة من المرسلات العصـبية، البروتينـات، الخلايـا المسـاعدة وتـؤدي عملاً مسـتقلاً عن الـدماغ أو العقل.

وهذا (المخ القلبي) كبير ومتسع تمامـاً كاتسـاع المنـاطق الرئيسـية في المخ (الـدماغ المفكر) ومعقد بالقدر الذي يجعله كالمخ تماماً) إلى آخر المقال.

فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: 46)، وبما قال رسول الله ﷺ : (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(1)

قلت: فما العملية التي يتم بها هذا التفاعل؟

قال: العقل ـ بوسائل إدراكه ــ يعطي معلوماته للقلب لينظر فيها ويتأملها من زاوية نوع التفاعل الذي يقابلها به.. والقلب هو الذي يتفاعل مع المعلومات بحسب توجه صاحبه.

قلت: أليست هذه عملية آلية حتمية؟

قال: لا.. لتوجه صاحبه الذي اختاره دور كبير في تحديد نوع الأثر الذي يحصل للقلب.. إنه مثل الماء الذي يجمعه صاحبه من محال مختلفة.. ثم يفكر في السبيل لصرفه.. فلكل طريقته في ذلك الصرف.

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا، فقال : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل:14).. ففي هذه الآية الإشارة إلى أن هناك ما يمكن إدراكه إدراكا تاما ومع ذلك يقابل بالجحود.

قلت: كيف تسمي آلة هذه العملية قلبا.. مع أن القرآن ــ من خلال ما قرأت علي من آيات ـ لا يسميه كذلك.

قال: هذه مصطلحات دلت عليها الحقائق القرآنية.. ولا حرج في المصطلحات.. فنحن نقول في تعابيرنا: (رأيت).. ونقول (رأت عيناي).. فنعبر عن الرؤية بمحلها.. ونعبر عنها بالمجموع.. فالمحل ليس إلا خادما للمجموع.

قلت: أللقلب كذلك توجهان؟

قال: أجل.. وجهة دنيا.. وهي تشبه دور النفس.. ووجهة عليا.. وهي تمثل دور الروح من جهة تعاملة مع حقائق الوجود.

فالذي يمتلئ قلبه عشقا للدنيا وما في الدنيا في الحقيقة لم يستعمل إلا الجزء الأدنى من قلبه.. أما الذي استغرقته الحقائق فمال إليها بقلبه ميلا كليا فإنه قد استعمل جهته العليا.

قلت: هل يمكن الجمع بينهما، بحيث يستعمل الإنسان كلا الوجهتين من غير تناقض ولا صراع؟

قال: أجل.. وذلك هو الكمال.. وقد كان من أدعية رسول الله ﷺ:(اللهم انى أسالك حبك وحب من يحبك والعمل الذى يبلغني

1() رواه البخاري ومسلم.

حبك، اللهم اجعل حبك أحب الي من نفسي وأهلي والمـاء البـارد)[1]

قلت: لم قال ذلك؟

قال: حتى لا يسيطر الحب الأدنى على الإنسـان، فيشـغله عن الحب الأعلى.

الخلافة:

قلت: أهناك لطائف أخرى للإنسان؟

قال: أجل.. هناك لطائف كثيرة.. وهي تبرز كـل حين.. إن روح الإنسان منجم ضخم.. ولكنه لا يـبرز لآلئـه وأصـدافه إلا لمن صـدق في البحث عنها.

قلت: فما البحر الذي يغوصه الإنسان حتى يخرج لآلئ روحه؟

قال: الخلافة.

قلت: ما الخلافة؟.. وما علاقتها بإبراز القدرات؟

قال: روح الإنسان بطاقاتها جميعا مثل البـذرة الـتي توضـع في التربة.. فهل يكفيها أن توضع، ثم لا تتعهد بالسقي؟

قلت: إنها بذلك لن تنتج شيئا.. ستبقى بذرة وتموت بذرة.

قال: فالسقي هو الذي يخرج ما تختزنه من الطاقات؟

قلت: أجل.. بالسقي والتعهد تصنع تلك البـذرة جـذورا راسـخة في الأرض.. وهامة عالية في السماء.. وفوق ذلـك قـد تعطينـا من الثمار ما نظل ننعم به.

قال: فهكذا روح الإنسان.. هي بذرة.. وتبقى بذرة إن لم تتعهد بالسقي.

قلت: فما السقي الذي يؤهلها للبروز؟

قال: أصناف الاختبارات والابتلاءات الـتي يواجـه بهـا الإنسـان.. فتبرز من طاقاته في مواجهتها ما يبين أصل بذرته.. هل هي بــذرة طيبة أم بذرة خبيثة..

قلت: فما الخلافة؟

قال: هذه هي الخلافة.. إنهـا السـلوك الـذي يمارسـه الإنسـان تجاه ما يواجه به من أنواع الابتلاءات والمسـؤوليات[2]، ولهـذا لمـا قال الله تعالى للملائكة ـ عليهم السلام ـ: وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً (البقرة:30) قالوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)(البقرة: من الآية30)

1() رواه أبو نعيم في الحلية.

2() سـنرى التفاصـيل الكثـيرة المرتبطـة بـأنواع الابتلاء وكيفيـة مواجهتهـا في رسـالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

قلت: لم قالوا ذلك؟

قال: لأن الإنسان وضع في موضع حرج يمكنه من أن يصعد إلى أعلى الدرجات.. ويمكنه في نفس الوقت أن ينحط إلى أسفل الدركات.

قلت: لا أزال حائرا في معنى الخلافة.. وفي علاقة حقيقة الإنسان بها.

قال: الإنسان مخلوق كريم لغاية رفيعة.. هو لم يخلق كما تتوهم الفلسفات ليأكل ويشرب ويسيطر.. ويمارس من أنواع المتع ما يغذي الفراغ الذي تعاني منه روحه، وإنما خلق ليكون خليفة.. يتولى إدارة الأرض وعمارتها وتطويرها.. وبما أنه خليفة، فإن ذلك يقتضي أمورا(1):

أولها.. انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد هو الله، بدلاً من كل الانتماءات الأخرى، والايمان بسيد واحد للكون.. وهذا هو التوحيد الخالص الذي قام عليه الإسلام.

والثاني.. إقامة العلاقة الاجتماعية على أساس العبودية المخلصة لله، وتحرير الإنسان من عبوديات الأسماء التي تمثل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

والثالث.. تجسيد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط، فما دام الله تعالى واحداً ولا سيادة إلاّ له، والناس جميعاً عباده ومتساوون بالنسبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا إخوة متكافئين في الكرامة الإنسانيّة والحقوق.

والرابع.. الخلافة استئمان، والأمانة تفترض المسؤولية والإحساس بالواجب، اذ بدون ادراك الكائن أنّه مسؤول لا يمكن أن ينهض بأعباء الامانة أو يختار لممارسة دور الخلافة.

والإنسان بهذا المفهوم الذي جاء به الإسلام للخلافة خارج عن أي نوع من أنواع التبعية لأي قوّة اجتماعية أياً كانت، بل هو خاضع لله وحده.. فلا قمية لنسب ولا لون ولا وطن ولا قومية.. ولا أي شيء من هذه الأشياء التي قام عليها التناحر بها بين البشر.

والخلافة بهذا الشكل حركة دائبة نحو قيم الخير والعدل والقوّة.. حركة لا توقف فيها لأنها متجهة نحو المطلق، وأي هدف آخر للحركة سوى المطلق سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يجمد الحركة ويوقف عملية النمو.

1() انظر: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، الشهيد آية الله الصدر، ص 11 ـ 12.

قلت: فما الفرق بين هـذا الفهم الـذي جـاء بـه الإسـلام.. وبين سائر المذاهب والأفكار؟

قال: الفروق عظيمة لا يمكن حصرها.. سأضرب لك أمثلة عنها لتدرك سمو التصور الإسلامي، وانحطاط سائر التصورات.

الإسلام يعتـبر الإنسـان.. كـل إنسـان.. خليفـة للـه.. أي انتمـاء الإنسان الأول لله، فهو الذي خلقه.. ومنه يسـتمد وجـوده، ورزقـه، وإليه يتوجه بالعبادة والدعاء.

وهـذا الانتمـاء يجعلـه يمحـو من خـاطره وسـلوكه كـل تلـك الانتمـاءات الضـيقة الـتي تمليهـا عليهـا حـدود المكـان والزمـان والمصالح.

ولهذا.. فهو يشعر بأخوة تنتظم جميـع الكـون.. ولا تنحصـر في البقع الضيقة التي ولد فيها، أو انتسب إليها.

قارن هذا المفهوم الذي ينطلق من قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾(الحجرات) بجميع المفاهيم العنصرية التي تفوح من الأديان والمذاهب والحضارات..

إن القوميات والشعوب والقبائل والآباء والأنسـاب الـتي ابتعـد بها الإنسان عن الانتماء لله.. كما يعنيه مفهوم الخلاقـة.. هـو الـذي صدر مع صداه الضارب في أحقاب التاريخ أكـثر الحـروب، وأبشـع العصبيات، وأرذل الجرائم الإنسانية.

قلت: أللخلافة كذلك جهتان؟

قال: أجل.. جهة إلى الله تستدعي التسليم له ومحبته وطاعته المطلقة، وجهة إلى الخق تستدعي التعامل معهم وفق ما يقتضـيه العدل والرحمة، وقد ذكر القرآن الجهة الثانية، فقال عن داود:﴿ يَـا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَـةً فِي الْأَرْضِ فَـاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِـالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِـلَّكَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِـلُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (صّ:26)

قلت: لقد كان داود حاكما، وليس كل الناس كذلك؟

قال: كل إنسان له حكم يرتبط بـه.. لقـد ذكـر رسـول اللـه ﷺ ذلك فقال:« كلكم مسئول عن رعيتـه، فالامـام راع وهـو مسـئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسـئول عن رعيتـه والمـرأة راعية في بيت زوجها وهي مسـؤولة عن رعيتهـا، والخـادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهـو

مسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[1]

العبودية:

قلت: وعيت كل هـذا.. وأدركت مـدى تناسـقه.. لكـني لم أفهم إلى الآن الغاية العليا للإنسان.

قال: لقد عبر القـرآن الكـريم عن هـذه الغايـة، فقـال : وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذريات:56)

قلت: فما العبودية؟

قال: هي استعمال كل اللطائف في التوجه إلى الله ومعرفتـه ومحبته..

قلت: لم أفهم.

قال: لكل ما عرفنا من لطائف الإنسان عبوديتـه الخاصـة بـه.. فللجسـد عبوديتـه.. وللنفس كـذلك.. وهكـذا.. ولهـذا تجـد عبـادات المسلمين عبادات تجمـع كـل ذلـك.. فهي جسـدية نفسـية عقليـة قلبية روحية..

قلت: أهـذه هي الغايـة عنـدكم.. أن يصـير الإنسـان عبـدا.. إن الغايـة الـتي وصـل إليهـا قـومي هي أن يتحـرر الإنسـان من كـل القيود.. ابتداء من قيود الإله.. ألم تسمع بما صاح به نيتشة؟

ابتسم، وقال: لقد أوقعهم غرورهم هذا في عبودية كل شيء.. عبدوا بطونهم.. وعبدوا جاههم.. وعبدوا سلطانهم وشهواتهم.. لقـد صاروا عبيد لكل شيء.

قلت: وعابد الله؟

قـال: عبـادة اللـه هي العبـادة الـتي تحـررك من كـل الأشـياء لتجعلـك متنعمـا بالتوجـه إلى ربـك، والاسـتغراق في مشـاهدته والتعرف عليه.

قلت: كلامك جميل.. لكنه يصـعب علي إدراكـه.. ولسـت أدري ما سبب ذلك؟

قـال: هـذه المعـاني الجليلـة تحتـاج نوعـا من الرياضـة.. ولن يفهمها إلا من مارس تلك الرياضة..

قلت: فهل تأذن لي بصحبتك لتعلمني كيف أمارس هذه الأنـواع من الرياضة[2]؟

قال: ليتني كنت أستطيع ذلك.

قلت: ولم لا تسـتطيع.. هـا أنت بين غنيماتـك.. لا تخـف.. لن

1() البخاري ومسلم.

2() ذكرنا تفاصيل الرياضات السلوكية وأنواعها والتوفيق بينها في رسالة (أسرار الإنسان).. وسنرى بعض ذلك في هذه الرسالة في فصل (النفس)

أشغلك كثيرا عنها؟
قال: أنا لا أخاف على هذه الغنيمات.. بل أخاف على غنيمات أخرى تريد نيران الفتنة أن تستأصلها.. فأنا أفكر فيها صباح مساء.
قلت: هل تريد أن ترحل إليها؟
قال: لست أدري.. لكن إذا أتيت إلى هنا مرة أخرى، ولم تجدني فهذا يعني أني قد ذهبت إلى تلك الغنيمات.
قلت: وهذه الغنيمات لمن تتركها؟
قال: لا تخف على هذه الغنيمات.. فما أسهل أن تجد لها راعيا.

***

قال ذلك، ثم استغرق في صمت عميق، فسألناه: ما الذي حصل بعد ذلك.. هل عدت فزرته في اليوم الثاني؟
قال: في تلك الليلة بت ممتلئا بالأشواق لتلك الرياضات التي تصفي لطائفي مما علق بها من أدران.. وفي الصباح الباكر لم يكن لي هم إلا أن أصعد للجبل لأبحث عن ذلك الراعي الذي كشف لي من حقائق ذاتي ما عجر عنه جميع أساتذة العالم.
قلنا: فهل وجدته؟
قال: لا.. ولو وجدته ما كنت الآن بينكم.
قلنا: فأين ذهب؟
قال: بعد أن سألت الكل.. ويئست من أن يدلني أحد.. تذكرت ما قال لي عن شأن الغنيمات، والفتنة التي تريد أن تستأصلها.. فرحت أبحث في المحال المختلفة عن هذا، فأطبق الكل على دلالتي على هذه البلاد، فجئت إليها، وها أنا الآن بينكم.. وقد قدر الله أن يكون سبب نجاتي هم أنفسهم سبب هلاكي.. وهذا ما ملأني بالحيرة والعجب.

الثاني ـ القلب

في اليوم الثاني، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. اعذروني، لقد كنت مثل من سبقني أحمـل أسـماء كثـيرة مستعارة، كنت أحاول بها أن أغطي حقيقتي التي كانت تعذبني كل حين.. لكن حقيقـتي أبت إلا أن تتمـرد علي، وتـذيقني في تمردهـا من الهوان ما لم أكن أحسب له أي حساب.

ليست بهذه المأسـاوية تنتهي قصـتي.. هنـاك جـوانت مشـرقة ممتلئـة بـالنور والسـلام والصـفاء، لعـل حيـاتي كلهـا كـانت تسـير نحوها.. ولعلي لم أسر نحو هذه البلاد إلا بحثا عنها.

قلنا: من أي البلاد أنت؟

قال: أنا من بلاد العرب.. ومن قبيلة فيها يقال لها (بنو عـذرة).. وهم قوم لم يعيشوا إلا بقلـوبهم ولقلـوبهم.. ولكـني لم يسـتقر بي المقام بها إلا قليلا، فقد جبت المشرق والمغرب.

قلنا: لم؟

قــال: ألم أقــل لكم إني من قــوم لا يعيشــون إلا بقلــوبهم ولقلوبهم؟

قلنـا: كلنـا كـذلك.. بـل كـل البشـر كـذلك.. فلا يمكن لأحـد أن يعيش بدون قلب.

قال: ما أكثر من يهيل على قلبه التراب.. وما أكـثر من يسـجن قلبه.. وما أكثر من يضيع قلبه، فيصير عضوا ضـامرا.. حيـا كميت.. أو ميتا كحي.

قلنا: وأنتم؟

قال: أما نحن، فقد اعتبرنا قلوبنـا، والـتي هي محـل عواطفنـا، أساس وجودنا، فلذلك لم ننشغل عنها بأي شاغل.

قلنا: فحدثنا حديثك.

الصراع

نظر إلى الأفق البعيد، وهو مشدوه، وراح يقول: في تلك الأيـام التي ولدت فيها ببني عذرة لم أكن أسمع إلا أحاديث الحب.. كـانت المجالس تردد كل حين:

هل العيش إلا أن تروح وتغتدي وأنت بكأس العشق في الناس نشوان

وكان أساتذتنا الذين تربينا على أيديهم يحفظوننا قول الشاعر:

وما طابت الدنيا بغير محبة وأي نعيم لامرئ غير عاشق

بل كانوا يقولون لمن رأوه مجادلا في هذا:

إذا أنت لم تعشـق ولم تـدر مـــــــا الهـــــــوى فأنت وعير في الفلاة سواء

ويقولون له:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

بل كان الأمر يصل أحيانا إلى سبه ببذيء الكلام، فيقولون:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فقم فاعتلف تبنا فأنت حمار

بل كانوا فوق ذلك كله يعتبرون الحب هو الدين الذي يغني عن كل دين، ولا يغني عنه أي دين، ويقولون في ذلك متغنين:

ما دنت بالحب إلا والحب دين الكرام

ولذلك، فـإن الأخلاق عنـدهم تنطلـق من الحب، وقـد قـال في ذلك شاعرهم:

وما أحببتها فحشا ولكن رأيت الحب أخلاق الكرام

وهم يعتبرونـه مـع ذلـك الـدنيا الـتي لا تغـني عنهـا أي دنيـا، ويقولون:

إن الغـــــواني جنـــــة ريحانها نضر الحياة فأين عنهـا نعـزف

لـــولا ملاحتهن مـــا كـــانت لنا دنيـــا نلـــذ بهـــا ولا نتصـــرف

أما علماء النفس والاجتماع، فكانوا يصفون لنا في محاضـراتهم العلمية المملوءة بالأرقـام والمصـطلحات الحب على أنـه (فضـيلة تنتج الحيلة، وتشجع الجبـان، وتسـخي كـف البخيـل، وتصـفي ذهن الغبي، وتطلق بالشعر لسان العجم، وتبعث حزم العاجز وهو عزيز

يدل له عز الملوك، وتضرع لـه صـولة الشـجاع، وهـو داعيـة الأدب وأول باب تفتق به الأذهان والفطن، وتسـتخرج بـه دقـائق المكايـد والحيل، وإليه تستريح الهمم وتسكن نـوافر الأخلاق والشـيم، يمتـع جليسه ويؤنس أليفه وله سرور يجول في النفـوس وفـرح يسـكن في القلوب)(1)

ويـذكرون لنـا أن (أرواح العشـاق عطـرة لطيفـة، وأبـدانهم ضعيفة، وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادهـا، حاشـي سـكنها الـذي سكنت إليه، وعقدت حبهـا عليـه.. وكلام العشـاق ومنـادمتهم تزيـد في العقـول، وتحـرك النفـوس، وتطـرب الأرواح، وتجلب الأفـراح، وتشوق إلى مسامع أخبارهم الملوك فمن دونهم.. ويكفي العاشق المسكين الذي لم يـذكر مـع الملـوك ومـع الشـجعان الأبطـال أنـه يعشق ويشتهر بالعشق فيذكر في مجالس الملـوك والخلفـاء فمن دونهم، تدور أخباره، وتروى أشعاره، ويبقى له العشق ذكراً مخلداً، ولولا العشق لم يذكر له اسم، ولا جرى له رسم، ولا رفع له رأس، ولا ذكر مع الناس)

ويذكرون أن أبا نوفل سئل: هل سلم أحد من العشـق؟ فقـال: (نعم.. الجلف الجافي الذي ليس له فضل، ولا عنده فهم، فأما من في طبعه أدنى ظرف، أو معـه دمائـة أهـل الحجـاز، وظـرف أهـل العراق، فلا يسلم منه)

ويذكرون عن بعضهم قوله:(لا يخلو أحد من صبوة إلا أن يكون جـافي الخلقـة، ناقصـاً، أو منقـوص البنيـة، أو على خلاف تـركيب الاعتدال)

ويذكرون عن بعض العلماء أنـه قيـل لـه: إن ابنـك قـد عشـق، فقـال:(الحمـد للـه، الآن وقت حواشـيه، ولطفت معانيـه، وملحت إشـاراته، وظـرفت حركاتـه، وحسـنت عباراتـه، وجـادت رسـائله، وجلت شمائله، فواظب على المليح، واجتنب القبيح)

أما رواتهم وقصاصوهم، فكانوا يذكرون لنا القصص والأسـاطير التي تؤيد هذه الرؤى، وتعمق هذه الأفكـار، فيحكـون لنـا عن شـيخ بخراسان له أدب وحسـن معرفـة بـالأمور، أنـه قـال لسـليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء، وقد سمعتم الحكمـة ولكم حـداء ونغم فهل فيكم عاشـق؟ قـال: لا قـال: اعشـقوا.. فـإن العشـق يطلـق اللسان، ويفتح جبلة البليد والبخيل، ويبعث على التلطـف وتحسـين اللبـاس وتطـييب المطعم ويـدعو إلى الحركـة والـذكاء وتشـريف

1() هذه النصوص منقولة من ديوان الصبابة، لابن أبي حجلة.

الهمة.

ويروون لنا من كرامات المحبين أن ليلى الأخيلية مرت مع زوجها بقبر توبة بن الحمير، فقال لها: هذا قبر الكذاب الذي قال:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

فقالت: دعه، فقال: أقسمت عليك إلا ما دنوت منه، فسلمت عليه، فأبت فكرر عليها ذلك، فلما تقدمت إلى القبر، وقالت: السلام عليك يا توبة.. فطار من جانب القبر طائر كان هناك، وزقا، ونفر منه جمل ليلى، فوقعت من أعلاه، فاندقت عنقها، وماتت من وقتها، ودفنت إلى جانب توبة.

ويحكون لنا من أمر بهرام جور ما جعله نبينا الذي نتلقى منه كل الحقائق.

قلنا: من بهرام جور؟

قال: رجل كان له ابن قد رشحه للأمر من بعده، فنشأ الفتى ناقص الهمة ساقط المروءة خامل النفس مسيء الأدب، فغم ذلك أباه فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلازمه ويعلمه، وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوما، فقال له المؤدب: قد كنا نخاف سوء أدبه، فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه، قال: وما ذاك الذي حدث؟ قال: رأى ابنة فلان المرزبان، فعشقها، فغلبت عليه فهو لا يهدأ إلا بها ولا يتشاغل إلا بها. فقال بهرام: الآن رجوت فلاحه، ثم دعا بأبي الجارية، فقال له: إني مسر إليك سرا، فلا يعدوك فضمن له ستره، فأعلمه ان ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن ينكحها إياه، وأمره أن يأمرها بإطماعه في نفسها ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وهجرته، فإن استعلمها علمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها وخبره ولا تطلعهما على ما أسره إليك، فقبل أبوها ذلك منه، ثم قال للمؤدب والموكل بأدبه حضه وشجعه على مراسلة المرأة، ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها، فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب وطلب الحكمة والعلم والفروسية والرماية وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك، ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى

الدواب والآلات والمطاعم والملابس والندماء وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه فقال له: إن الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة لا يدري به فتقدم إليه وأمره أن يرفع أمرها إلي ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك، فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوجه إياها، وأمر بتعجيلها إليه، وقال: إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئا حتى أصير إليك، فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني لا يضعن قدرها عندك مراسلتها إياك وليست في خبائك فإني أمرتها بذلك، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي، فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك، ففعل الفتى وعاش مسرورا بالجارية وعاش أبوه مسرورا به وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانه سره وأحسن جائزة المؤدب لامتثال ما أمر به.

قلنا: فما كان تأثير هذه التوجيهات عليكم؟

قال: لقد صار كل من في تلك القبيلة يصيح بقول الشاعر:

تشكى المحبون الصبابة ليتني تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

وبقول الآخر:

وددت بأن الحب يجمع كله الصدر فيقذف في قلبي وينفلق

لا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمر

وبقول الآخر:

وما سرني أني خلى من الهوى ولو أن لي ما بين شرق ومغرب

قلنا: نرى أن كل ما ذكرته يكاد يكون سليما لا حرج فيه.. فلم نر مثل الحب عاطفة نبيلة؟

قال: صدقتم.. ولكن القبلة التي وجهنا إليها قومنا ملأتنا بالصراع.. فلم نكن نشعر في لحظة من حياتنا بالسلام الذي عمر الله به كونه.. لقد كانت حياة كل منا في يد محبوبه الذي سلم إليه أمره يجرعه من الهوان ما لا يذيقه أعتى الطغاة لأعتى المجرمين.

قلنا: أكنتم تتألمون؟
قال: كلنا كان يتألم.. ومنا من مات بسبب ألمه.. لقد قال المتنبي يذكر ذلك:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

ليس الموت وحده ما يلقاه العاشقون.. فالموت يستوي فيه كل الناس.. إن الأمر أخطر من ذلك بكثير.
لقد قال لي بعض من بلي بهذه البلية منشدا:

وما عاقل في الناس يحمد أمره ويذكر إلا وهو في الحب أحمق

وما من فتى ذاق بؤس معيشة من الناس إلا ذاقها حين يعشق

وسمعت بعضهم ينشد بلوعة دونها كل لوعة:

فيبكي إن نأوا شوقا إليهم وإن وجد الهوى حلو المذاق ويبكي إن دنوا حذر الفراق

وما في الأرض أشقى من محب

تراه باكيا في كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق

وسمعت آخر ينشد، وأنا في أول رحلتي للبحث عن حبيب يملأ قلبي:

شكوتُ فقالتْ: كل هذا تبرماً بحبي أراحَ اللّه قلبكَ من حبي

فلما كَتَمْتُ الحبَّ قالَتْ لشَدَّ ما ضرتَ وما هذا بفعلِ شَجَى القَلْبِ

فأدنو فتقصيني فأبعد طالباً رضاها فتَعْتَدُّ التباعدَ من ذنبي

فشَكْوايَ تُؤْذيها وصَبْري يسوؤها وتجزعُ من بُعدي وتنفرُ من قربي

فيا قومي هل من حيلةٍ تعرفونها أشيروا بها واستوجِبوا الشكرَ من ربي

وسمعت آخر ينشد، وهو يتمرغ في التراب والقمامات:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

وسمعت آخر ينشد، وهو كالذي أعماه السكر، فصار لا يفرق بين السماء والأرض:

ويح المحبين ما أشقى نفوسهم ... إن كان مثل الذي بي بالمحبينا

يشقون في هذه الدنيا بعشقهم ... لا يرزقون به دنيا ولا دينا

وسمعت آخر ينشد:

قرين الحب يأنس بالهموم ... ويكثر فكرة القلب السقيم

وأعظم ما يكون به اغتباطا ... على خطر ومطلع عظيم

وسمعت آخر ينشد:

أما الهوى فهو العذاب فإن جرت ... فيه النوى فأليم كل عذاب

قلنا: فهل صرفك هذا عن رحلة القلب التي أردت القيام بها؟

قال: لا.. لقد جاء من ينسخ لي كل هذا.. لقد وجدت رجلا كان صديقا لي، وكان اسمه (جميل)، وقد قال لي يرد على من يريد أن يصرفني عن رحلتي:

وقالَ أناسٌ إِن في الحبِّ ذلةً ... تنقِّصُ من قَدْرِ الفتى وتخفضُ

فقلتُ صدقتمْ غير أن أخا الهوى ... لذلِ الهوى مستعذبٌ ليس يبغضُ

لكن رجلا كان ممتلئا بالحكمة ناداني، وقال لي:(يا بني.. أنت تريد أن تقوم برحلة لن تورثك إلا الهم الدائم، والفكر اللازم، والوسواس والأرق، وقلة المطعم، وكثرة السهر، ثم تتسلط على جوارحك فتنشأ الصفرة في البدن، والرعدة في الأطراف، واللجلجة في اللسان، والنحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غائب عن تدبير مصلحته، والدموع هواطل، والحسرات تتابع، والزفرت تتوالى، والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم، فإذا غشى على القلب إغشاء تاما، أخرجت إلى الجنون، وما أقربه حينئذ من التلف)

قلنا: فهل انتصحت لنصيحته؟

قال: لو انتصحت لنصيحته لانتهت قصتي هنا.. ولما ذقت ما ذقت من الذلة والهوان والجنون وكل أصناف الصراع..

قلنا: فحدثنا عن رحلتك.

قال: لقد كان أول من مررت به في رحلتي رجل يقال له

عروة بن حزام.. كان معي حينها رفيق يقال له ابن مكحول، وكـان عراف اليمامة، فرأينا عروة.. وهو أحد زملائي الذين تلقوا ما تلقينا من تربية وتوجيه.. جلسنا عنده؛ وسألناه عما به؛ وهل هـو خبـل أو جنون؟ فقال لابن مكحول: ألك علم بالأوجـاع؟. قـال: نعم؛ فأنشـأ يقول:

وما بي من خبل ولا بي جنة ... ولكن عمي يـا أخي كـذوب
أقول لعراف اليمامة داوني ... فإنـك إن داويتـني لطـبيب
فوا كبدا أمست رفاتـاً كأنما ... يلـذعها بالموقـدات طـبيب
عشية لا عفراء منك بعيـدة ... فتســلو ولا عفــراء منــك قــــــــــــــــــريب
عشــية لا خلفي مكــر ولا ... أمــامي ولا يهــوى هــواي الهــــــــــــــــوى ... غــــــــــــــــريب
فواللــه لا أنســاك مـا هبت ... ومــا عقبتهــا في الريــاح الصــــــــــــــــبا ... جنــــــــــــــــوب
وإني لتغشاني لذكراك هزة ... لهــا بين جلــدي والعظــام دبيب

ثم أخـذ يهيـل الـتراب على جسـده، وهـو ينشـد، والـدموع تملأ مقلته:

خليلي من عليـــا هلال بن ... بصـــنعاء عوجـــاء اليـــوم عـــــــــــــــامر ... واتنظـــــــــــــــراني
ولا تزهدا في الذخر عنــدي ... فإنكمــا بي اليــوم مبتليــان وأجملا
ألما على عفراء إنكما غــداً ... بوشـــك النـــوى والـــبين معترفـــــــــــــان
فيـا واشـيا عفـراء ويحكمـا ... وما وإلى من جئتما تشـيان بمن
بمن لــو أراه عانيــاً لفديته ... ومن لو رآني عانيـاً لفـداني
مـــتى تكشـــفان عـــني ... بي الضــر من عفــراء يــا القميص تبينا ... فتيــــــــــــــان
إذن تريا لحماً قليلاً وأعظماً ... بلين وقلبــاً دائم الخفقــان
وقد تركتني لا أعي لمحدث ... حـديثاً وإن ناجيتـه ونجـاني
جعلت لعـــراف اليمامـــة ... وعـــراف حجـــر إن همـــا حكمه ... شــــــــــــــــفياني

فما تركا من حيلـة يعرفانها ولا شـربة إلا وقـد سـقياني
ورشا على وجهي من الماء وقامـا مـع الـواد يبتـدران ساعة
وقـالا: شـفاك اللـه واللـه بمـا ضـمنت منـك الضـلوع مالنا يـدان
فويلي على عفراء ويلاً كأنه على الصـدر والأحشـاء حـد سنان
أحب ابنة العـذري حبـاً وإن ودانيت فيها غير ما متـداني نـأت
إذا رام قلـبي هجرهـا حـال شـفيعان من قلـبي لهـا دونه جـدلان
إذا قلت: لا، قـالا: بلى، ثم جميعـاً على الـرأي الـذي أصـبحا يريـان
تحملت من عفراء مـا ليس ولا للجبال الراسـيات يـدان لي به
فيـا رب أنت المسـتعان تحملت من عفـراء منـذ
على الـذي زمـان
كـأن قطـاة علقت بجناحها على كبـدي من شـدة الخفقـان

قال ذلك.. ثم انخفض صوته بعـدها بأبيـات لم نتبينهـا، ثم مـات بعدها، وفي قلبه من الغصص ما لا يعلمه إلا الله..

وقد مكثنا مدة في ذلك المحـل نـرقب مـا يحصـل.. ثم سـرنا، وبينمـا نحن في بعض الطريـق إذ رأينـا عفـراء تسـرع إلينـا، وهي تردد:

ألا أيهـا الـركب المخبـون بحق نعيتم عروة بن حـزام ويحكم
فلا تهنأ الفتيـان بعـدك لـذة ولا رجعوا من غيبـة بسـلام
وقـل للحبـالى: لا تـرجين ولا فرحـات بعـده بغلام غائبـاً

ولم تزل تردد هذه الأبيات وتندبـه بهـا، حـتى مـاتت.. فـدفناها، وسرنا..

ما سرنا إلا قليلا حتى رأينا رجلا على فراش الموت، وهو ينشد:

عنـد قيس من حب لبـنى داء قيس والحب صـعب

ولبـــــــــــــــــــني شـــــــــــــــــــديد
فـإذا عـادني العوائـد يومـاً قالت العين لا أرى من أريد
ليت لبنى تعودني ثم أقضي أنهـــا لا تعـــود فيمن يعـــود
ويح قيس لقـد تضـمن منها داء خبل فالقلب منـه عميد

فقال له صاحبي الطـبيب: منـذ كم هـذه العلـة بـك؟ ومنـذ كم وجدت بهذه المرأة؟ ما وجدت؟ فقـال منشـدا بصـوت تنفطـر لـه القلوب:

تعلــق روحي روحهــا قبــل خلقنا وليس إذا متنـــا بمنفصـــم العقد
فزاد كما زدنا وأصـبح نامياً وليس إذا متنا بمنصم المهد
ولكنه باق على كـل حـادث وزائـرتي في ظلمـة القـبر واللحد

فقال له صاحبي: إنما يسليك عنها تذكر ما فيهـا من المسـاوي والمعايب وما تعافـه النفس، فنظـر إليـه نظـرة اللائم المـؤنب، ثم أعرض عنه، وهو ينشد:

إذا عبتهـا شـبهتها البـدر طالعـاً وحسبك من عيب لها شـبه البـــــــــــــــــــدر
لقـد فضـلت لبـنى على النـاس مثـــــــــــــــــــل ما على ألف شهر فضلت ليلة القـــــــــــــــــــدر
إذا مـا شـئت شـبراً من الأرض أرجفت من البهر حتى ما تزيد على شـــــــــــــــــــبر

وبقي هكذا يردد الأشعار، ويبكي إلى أن فاضت روحه، فواريناه التراب..

***

ثم سرنا في تلك البرية الممتلئة بضحايا الحب المـدنس.. وفي الطريق رأينا مجنونا يهيل التراب على رأسـه، والصـبية مجتمعـون حوله يضحكون، وهو يردد:

قـــــالت جننت على أيش فقلت لها الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيـــق الـــدهر صـــــــــــــــــاحبه وإنمـا يصـرع المجنـون في الحين

ثم يردد، وهو يبكي:

وبي من هـوى ليلى الـذي لـو جماعـــة أعـــدائي بكت لي

أبثه عيونها
أرى النفس عن ليلى أبت أن فقــد جن من وجــدي بليلى
تطيعـــــــــــــــــــــــني جنونها
ثم يردد، وهو يضحك:
يقــول أنــاسٌ عــل مجنــون يروم سلواً قلت أنى لما بيا
عـــــــــــــــــــــــامرٍ
وقــد لامــني في حب ليلىً أخي وابن عمي وابن خالي
أقـــــــــــــــــــــاربي وخاليا

يقولـــون ليلى أهـــل بيت عـــــــــــــــداوةٍ بنفســـي ليلى من عـــدو ومالِيا
ولو كان في ليلى شـذاً من خصـــــــــــــــومةٍ للـــــويت أعنـــاق المطي الملاويا

بينمـا نحن كـذلك إذ جـاء رجـل، وصـاح بقـوة (ليلى)، فرأينـا المجنون يفطن، ويعود إليه من عقله مـا زال عنـه، فسـألنا الرجـل عن سـر ذلـك، فقـال: هكـذا المحبـون.. لا يـرون من الـدنيا إلا من سلموا قلوبهم له.. فإذا غاب عنهم، ذهبت عقولهم(1).

1() ربما يتوهم أن هذه حـوداث نـادرة، وأنهـا كـانت مرتبطـة بـذلك الزمـان دون هـذا الزمان، وهذا خطأ كبير، وقد سئل أحد الأطبـاء النفسـانيين – ضـمن تحقيـق أجـراه بعض الصحفيين - : هل من الممكن أن للحبّ مجانين في نهاية القرن العشرين؟

فأجـاب : هـذا سـؤال طريـف، ولكنـه على طرافتـه – سـؤال مطـروح في كـل زمـان ومكـان، ففي عصـرنا الحـالي، الموصـوف بأنـه عصـر الماديـة، يمكن أن تـؤدي الصـدمة العاطفية إلي العيادة النفسية، ولقد عُرِضتْ علي حـالات مرضـية كثـيرة، كـان الحبّ هـو السبب الرئيس لها، والعامل الأكثر تأثيراً فيها)

وقد قام بعض الصحفيين بزيارة لإحدى المصحات النفسية، ووقفوا على بعض الحالات من ضحايا الحبّ الموهوم، منها حالة شاب كانت ابنة عمه هي السبب في تـدهور عقلـه، ووصوله إلى حافة الجنون، ولما سُئل طبيبه المعالج عن سـبب وصـوله إلى تلـك الحالـة، أجاب بأنها قصة طويلة ومعقدة، خلاصتها أن هذا الشاب (أحبّ) ابنة عمه الذي كان على خلاف مع أخيه والد هذا الشاب، وكـانت الفتـاة على علم بهـذا الخلاف، فـأرادت الانتقـام لأبيها في شخص ابن عمها، فأوهمته بحبها له، حـتى إذا مـا جـاء اليـوم الموعـود للـزواج، رفضته، وتزوجت بغيره، فصُدم هذا الشاب، ووقع فيما يشبه الفصام العصبي.

ومثل ذلك ما حدثت به بعضهن قالت:(في يـوم من الأيـام جـاءني اتصـال من صـديقة لي، تخبرني فيه بأن صديقة لنا في العنايـة المركـزة بالمستشـفي، فهـرعتُ إليهـا وأنـا لا أعلم السبب، وحينما وصلت إليها، وجدتها ممددة على السرير دون حـراك، وقـد أصـابتها حالة تشنج عنيفة، تركتْ بصمات زرقاء وسوداء حـول عينيهـا، وفي جميـع أجـزاء وجههـا، وعندما سألت شقيقتها عن السبب، أخذتني بعيداً عن والدتها المنهـارة، وقـالت لي : لقـد اكتشفتْ أن خالداً متزوج، ولديه ولد! أما عن خالد هذا، فهو شـاب قـد تعـرفتْ عليـه عن طريق الهاتف ! وبعد عدة لقاءات وعدها بالزواج !، وها هي تدخل المستشفى من أجلـه، ولو علم هذان الأبوان المنهاران أمام غرفة ابنتهما سبب دخولها المستشفى لقتلاها بـدلاً من أن يبكيا عليها!)

وأغـرب من ذلـك، مـا نُشـر في بعض الصـحف من قصّـة تلـك المـرأة المصـرية الـتي فوجئت وهي تفتح دولاب ملابسها بعد أن عادت إلى بيتها، بشاب يخرج من ذلك الدولاب، فتعالت صرخاتها مستغيثة بالجيران، وقد حاول الشاب إقناعها بأنه إنما جاء لخطبة ابنتهـا الـتي تربطـه بهـا علاقـة حب ! ولكن المـرأة أصـرت على اسـتدعاء الشـرطة، وكـانت المفاجأة، أن سقط ميتاً بالسـكتة القلبيـة قبـل أن ينقـل إلى قسـم الشـرطة في أغـرب حادث حبّ غرامي مجنون)

وقد سئل الأستاذ الدكتور مصطفى محمود عن الحبّ قبـل الـزواج فأجـاب:(الحبّ هـو اتحاد شديد العمـق، يـؤدي التفريـق فيـه إلى سلسـلة من انفجـارات العـذاب والألم، قـد تستمر حتى الموت، وقد تنتهي بتغير الشخصية تماماً، وتحولها كمـا يتحـول الراديـوم بعـد تفجر الإشعاع إلى رصاص، أما الحبّ بعد الزواج، فهو الحبّ الحقيقي الذي ينمـو ويعيش، ويتحـدى النسـيان، ويضـفي النبـل والإخلاص والجلال على أبطالـه) (انظـر: وهم الحب، للمسند)

قلنا: أين؟
قال: إلى حيث ذهبت قلوبهم..
بينما نحن كذلك إذ سمعنا المجنون يردد:

أيـا ويح من أمسـى تخلس عقله — فأصـبح مـذهوباً بـه كـل مـذهب
خليعاً من الخلان إلا مجـاملا — يسـاعدني من كـان يهـوى تجنـبي
إذا ذكـرت ليلى عقلت وراجعت — عـوزاب قلـبي من هـوىً متشـعب

ثم ينشد:

وشـغلت عن فهم الحـديث سـوى — مـا كـان فيـك فإنـه شـغلي
وأديم لحـظ محـدثي لـيرى عقلي — أن قـد فهمت وعنـدكم

***

ثم سـرنا في تلـك البريـة.. فرأينـا قومـا يحملـون خيـامهم، ويرحلون بها، ثم ما فتئنا حتى رأينا رجلا عليه سيما الحب المـدنس يصيح في الآثار، وبقلبه من الأحزان لا تطيق أشعاره التعبير عنه:

أيـا حرجـات الحي حيث تحملـوا — بـذي سـلمٍ لا جـادكن ربيع
وخيماتـك اللاتي بمنعـرج اللـوى — بلين بلىً لم تبلن ربـوع
نـدمت على مـا كـان مـني ندامـةً — كما يندم المغبون حين يبيع
فقـدتك من نفسٍ شـعاعٍ فـإنني — نهيتـك عن هـذا وأنت جميع
فقـربت لي غـير القـريب وأشـرفت — إليـك ثنايـا مـا لهن طلـوع

ثم رأيناه يحفـر حفـرة في تلـك الآثار، ثم يـنزل فيهـا ويرقـد، فأسرعنا إليه، فوجـدناه قـد سـلم نفسـه للمـوت.. فلم نجـد إلا أن نهيل التراب عليه، ثم نستأنف رحلتنا.

ما سرنا إلا قليلا حتى وجدنا رجالا اشتعلت رؤوسهم شـيبا، لكن عقولهم لم تزل تترنح في متاهات الصبا:

قال أحدهم، والحزن قد خـط على وجهـه علامـات سـوداء زاد

في سوادها ذلك الشحوب الذي امتلأت به قسمات وجهه:

وكنت حبيبــا إلى الغانيــات فألبســني الشــيب هجــر الشــــــــــــــــبيب

وكنت سراجا بليل الشـباب فأطفأ نوري نهـار المشـيب

قال له صاحبه، وهو يحاوره:

فإن تسألوني بالنساء فإنني خـيرٌ بـأدواء النسـاء طـبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصـيب

يــردن ثــراء المــال حيث علمنه وشــرخ الشــباب عنــدهن عجيب

قال آخر، وهو لا يقل عن إخوانه حزنا:

أراهنَّ لا يُحْبِبْنَ من قَلَّ مالُه ولا من رأينَ الشَـيْبَ فيــه وقوَّسا

قال آخر، وكأنه يخاطب من لا يراه أصحابه:

لاتحســـبي أن الشـــبابَ يبقى ولا أن الجمـالُ يخلـدُ وشـــــــــــــــرَخهُ

عِشرٌ ويخلقُ شـطرُ حسـنِكَ ويذمُّ ما قد كان منـهُ يحمـدُ كُلَّه

قال آخر:

ومــا يَرْجُــو الكبــيرُ من الغـــــــــــــواني إِذا ذهبَتْ شـــبيبتُهُ وشـــابا

ما سرنا قليلا حتى رأينا شابا ممتلئا شبابا، لكنه كان يصيح بغناء أقرب إلى النواح منه إلى الطرب:

جننا بليلى وهيَ جُنتْ بغيرِنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريـدُها

وكان بجانبه شيخ حكيم يبدو أنه ذاق مـا ذاق إخوانـه من كـأس الحب المسمومة، كان يقول له:

لا تـأمنِ الأنـثى زمانَـك كلَّه يوماً ولو حلفَتْ يميناً تكـذبُ

تغــري بطيبِ حــد يثِهــا وإذا سَــطَتْ فهي الثقيــلُ وكلامِها الأشــــــــــــــطبُ

وتوقَّ من غدرِ النساءِ خيانةً فجميعُهن مكائدٌ لـكَ تنصـبُ

***

ما سرنا إلا قليلا حـتى رأينـا نفـرا من النـاس قـد عقـدوا حلقـة

كحلقات الذكر في تلك الفلاة.. وعلى كل منهم سيما الجنون الـتي يسمها الحب بأهله:

قال أحدهم:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقــد نهلت مــني المثقفــة السـمر

فواللـــه مـــا أدري وإني أداء عـراني من خيالـك أم لصـــادق ســـحر

وقال الآخر:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فــوددت تقبيــل الســيوف لأنهـا لمعت كبـارق ثغـرك المتبسم

وقال آخر:

ذكـرت سـلمى وحـر الوغا كقلـــبي ســـاعة فارقتها

فشـبهت سـمر القنـا قـدها وقــد ملن نحــوي فعانقتها

وقال الآخر:

ولقد ذكرتك والصوارم لمع من حولنا والسمهرية شـرع

وعلى مكافحـة العـدو ففي الحشا شــوق إليــك تضــيق عنــه الأضـــلع

ومن الصـــبا وهلم جـــرا شـــيمتي حفـظ الـوداد وكيـف عنـه أرجع

وقال الآخر:

ولقــد ذكرتــك والطــبيب معبس والجـــرح منغمس بـــه المســـبار

وأديم وجهي قـــد فـــراه حديـــده ويمينــه حــذراً على يســار

فشــغلتني عمــا لقيت وأنه لتضيق منه برحبها الأقطـار

وقال الآخر:

ولقـد ذكرتـك في الشـفينة والـــردى متلاطم متوقــع الأمـــواج

والجـــو يهطـــل ةالريـــاح و الليــل مســود الــذوائب

عواصف داجي
وعلى الســواحل للأعــادي يتوقعــون لغــارة وهيــاج
عســـــــــــــــكر
وعلت لأصــحاب الســفينة وأنا وذكرك في ألـذ تنـاجي
ضـــــــــــــــجة
وقال آخر:
ولقــد ذكرتــك والســيوف والموت يرقب تحت حصـن
لوامع المـــــــــــــــــرقب
والحسن في شفق الـدروع حســـناء ترفـــل في رداء
تخاله مـــــــــــــــــذهب
والمــوت يلعب بــالنفوس يلهـــــو بطيب ذكـــــرك
وخـــــــــــــاطري المســـــــــــــتعذب
وقال آخر:
ولقـد ذكرتـك والعجـاج كأنه مطـل الغـنى وسـوء عيش
المعسر
والسـوس بين مجتـدل في منــا وبين مغفــر في مغفر
جنـــــــــــــــدل
ظننت أني في صباح مسفر بضــياء وجهــك أو مســاء
مقمر
تعطرت أرض الكفــاح كأنها فتقت لنا أرض الجلاد بعنبر
وقال آخر:
لقد ذكرتـك والجمـاجم وقع تحت السنابك والأكف تطير
الهــام في أفــق العجاجــة فكأنها فـوق النسـور نسـور
حـــــــــــــــوم
فاعتـادني من طيب ذكـرك وبدت علي بشاشة وسرور
نشـــــــــــــــوة
فظننت أني في مجـــالس والــراح تجلى والكــؤوس
لـــــــــــــــذتي تـــــــــــــــدور
وقال آخر:
ولقـــد ذكرتـــك والرمـــاح عند الإمام وساعدي مغلول
تنوشـــــــــــــــني

ولقد ذكرتك والذي أنا عبده والسيف فوق ذؤابتي مسلول

وقال آخر:

ولقد ذكرتك والبحر الخضم أمواجه والورى منه على طغت سفر
في ليلة أسدلت جلبابة وغار كوكبها عن أعين البشر ظلمتها
والفلك في وسط الأمواج عيناً وقد أطبقت شفراً على يحسبها شفر
والروح من حزن راحت وقد صدري فيا لك من ورد بلا وردت صدر
هذا وشخصك لا ينفك في وفي فؤادي وفي سمعي خلدي وفي بصري

وقال آخر:

ولقد ذكرتكم برمل روعه في قلب كل مشرق ومغرب
وبنو بياضة كالدبي من بسوأدهم سدوا فسيح حولنا السبب
والقضيب تبري هام كل من كف أشوس بالحروب مدجج مهذب
وأسنة الرماح تلمع في كوميض برق في الدجى الدجى متلهب
وعلى العوالي كل نسر يفري أديم الليث منه واقع بمخلب
والرعد للأرماج رعد قاصف والبحر يهدر كالهزبر الأغلب
والبر بحر بالدما والبحر بر بالفرنج وكل كلب أجرب
وعلى السواحل غارة فيها لمن يرجو النجا من شعواء ما مهرب
وأنا باوتار القسى كأنني فيه أغني بالرباب وزينب
وأقول ليت أحبتي يدرون أنا فيه من لهو وعيش ما طيب

وقال آخر:

ذكرتك والحجيج له ضجيج بمكة والقلوب لها وجيب

فقلت ونحن في بلـد حـرام بـه للـه أخلصـت القلـوب
أتـوب إليـك يـا رحمن مما جنيت فقد تكاثرت الـذنوب
فأما عن هوى ليلى وتـركي زيارتهـــا فـــإني لا أتـــوب

وقال آخر:

ولقـد ذكرتـك والظلام معبس وأنـــا قعيـــد في الـــبيوت وحيـــــــــــــــــــــدتي
والجو يصـفر من قعـودي في الهـــــــــــــــــــــوا ما فيه خـل يكـون عنيـدتي
والبـــق والنـــاموس حـــولي عســـــــــــــــــــكر يتفـــاتلون على شـــريب دميمـــــــــــــــــــتي
والفار يلعب في الزوايا دائمـاً كـــــــــــــــــــويرتي وينـــط كالقعقـــاع فـــوق
والعنكبـوت يحـوك حلـة خيمة يصطاد ذبابـا تجـوز كويـتي
والأكل خبز مثل رأسي يـابس بليـــــــــــــــــــدتي والشــرب مــر من دخيــل
وسماع نغماتي طـنين بعوضة بويمة وصـرير صرصـرة وصـفر
فـوددت تعـنيق الفـويرة كلما وحســدت أيــدي لعنكبــوت لشـــــــــــــــــــبهها نطت لأنك مثلها في الخفة بأصــابع لــك شــبهها في الرقة
وطربت من صوت الصراصـر نغمة إذ اشـبهت نغمـات صـوت حبيبـــــــــــــــــــتي
فبكيت شـــــوقاً حيث لا أنت معي تتنعمين تنعمي في غرفتي

وقال آخر:

أرى كـل معشـوقين غـيري وغيرها يلدان في الـدنيا ويغتبطـان
وأمشي وتمشــي في البلاد كأننا أسـيران للأعـداء مرتهنـان
أصـلي فـأبكي في الصـلاة لـــــــــــــــــــذكرها لي الويـــــل ممـــــا يكتب الملكـــــــــــــــــــان
ضـــمنت لهـــا أن لا أهيم وقد وثقت مني بغير ضمان

بغيرها

ألا يــا عبــاد اللّــه قومــوا خصـــــومة معشـــــوقين
لتســـــــــــــــــمعوا يختصـــــــــــــــمان
وفي كــل عــام يســتجدان عتاباً وهجــراً ثم يصـطلحان
مـــــــــــــــــرة
يعيشـان في الـدنيا غريـبين أقاما وفي الأعـوام يلتقيـان
أينما

نهض رجل، وقام في وسط الحلقة يصيح بتواجد (1) :ظظظ

ملك أنا.. لو تصبحين حبيبتي
لا تخجلي مني.. فهذي فرصتي
أغزو الشموس مراكباً وخيولا
لأكون رباً، أو أكون رسولا.

كـان هـؤلاء العاشـقون منشـغلين تمامـا عن كـل مـا حـولهم، فلـذلك لم يلتفتـوا إلينـا، ولم يلتفتـوا إلى مـا حـولهم من مـراعي مجذبة، وحيوانات هالكة، وديار قد تحـولت قفـرا ليس فيهـا سـكن لأحد.

***

بعد أن يئست أن أجد قلبا منسجما مـع العقـل ومتصـالحا معـه في تلك البوادي سرت نحـو بلاد أكـثر تحضـرا.. وقلت لنفسـي: إن هؤلاء البدو الذين مرغوا قلوبهم في رمال الصحراء أقـل شـأنا من أن أسلم قلبي لما سلموا له قلوبهم.

وقلت لنفسي: ما أحقر أن تعيشي أمة عند من يسـومك سـوء العذاب، ثم لا تنالين بعد ذلك إلا الجنون.

كـان أول من التقيت بـه في تلـك البلاد المتحضـرة امـرأة بين الشـباب والكهولـة، رأيتهـا تبكي بحرقـة لا تقـل عن حرقـة عـروة وقيس وكل من مررت بهم من أهل الهوى.. اقتربت منها، وسألتها عن عدوها الذي أجرى دموعها، فقالت: ومن غيره.. إنـه الحب.. أو هو الوهم الذي سكن قلبي، فدمره، ودمر معه كل حياتي.

قلت: لقـد مـررت بقـوم من النـاس يسـتلذون الحب، فكيـف نفرت منه؟

قالت: وكيف لا أنفر من السراب الذي يحسبه ظمآن ماء، فـإذا جاءه لم يجده شيئا؟

قلت: حدثيني عن شأنك.. فإن لي قلبا خاويـا، وأنـا أبحث عمن

1() هذه الأبيات لنزار قباني.

يملؤه.

قالت(1): أنا ـ كما تـراني ــ فتـاة في التاسـعة والعشـرين من عمـري، تعـرفت على شـاب أثنـاء دراسـتي الجامعيـة.. وكـانت الظـروف كلهـا تـدعونا لكي نكـون معـاً رغم أنّـه ليس من بلـدي.. تفاهمنا منذ الوهلة الأولى.. ومع مرور الأيام توطدت العلاقة بحيث أصبحنا لا نطيق فراقاً.

قلت: هو الحب إذن؟

قالت: بل هو الوهم..

قلت: كيف ذلك؟

قالت: بعد انتهاء الدراسة عـاد إلى بلـده، وعـدت إلى أسـرتي، واستمر اتصالنا عبر الهاتف والرسائل، ووعدني بأنه سـيأتي لطلب يدي عندما يحصل على عمل، وبالطبع وعدتـه بالانتظـار.. لم أفكـر أبداً بالتخلي عنه رغم توفر فرص كثيرة لبدء حياة جديدة مع آخر.

عندما حصل على عمل اتصل بي ليخبرني أنه آت لطلب يـدي، وفـاتحت أهلي بالموضـوع، وأنـا خائفـة من رفضـهم، ولكنهم لم يرفضوا.. سألني أبي فقط إن كان أحد من أهله سيأتي معه، ولمّـا سألته عن ذلك تغير صـوته، وقـال : إنـه قـادم في زيـارة مبدئيـة.. شيء ما بداخلي أقنعني بأنه لم يكن صـادقاً.. وأتي بالفعـل، وليتـه لم يأت، لأنه عـاد إلى بلـده وانقطعت اتصـالاته، وكلّمـا اتصـلت بـه تهرب منّي، إلى أن كتبت له خطاباً، وطلبت منه تفسـيراً، وجـاءني الـردّ الـذي صـدمني، قـال:(لم أعـد أحبـك، ولا أعـرف كيـف تغيّـر شعوري نحوك، ولذلك أريد إنهاء العلاقة)

أدركت كم كنت مغفلـة وسـاذجة لأنـني تعلقت بـالوهم سـتّ سنوات.. ماذا أقول لأهلي؟ أشعر بوحدة قاتلة، وليست لدي رغبـة في عمل أي شيء.

قالت ذلك، ثم انصرفت إلى دموعهـا.. وكـأنني لم أحـدثها، ولم تحدثني..

***

لم أسر إلا قليلا حتى رأيت أختـا لهـا، ولكنهـا أقـل منهـا عمـرا، سألتها عن نفسها، فقالت: أنـا فتـاة في العشـرين من عمـري، لم أكن أؤمن بشيء اسـمه الحبّ – ومـا زلت – ولا أثـق مطلقـاً بـأي شاب، بل كثيراً ما كنت أنصح صديقاتي وأحذرهن من فخـاخ الحبّ

1() ما سـنذكره هنـا من حكايـات (بتصـرف) من كتـاب (وهم الحب)، لمحمـد بن عبـد العزيز المسند.

الزائـف الـذي لم أسـتطع أن أمنـع نفسـي من الوقـوع فيـه.. نعم، وقعت فيه..

كان ذلك في مكان عام.. شاب يلاحقـني بنظراتـه، ويحـاول أن يعطيني رقم هاتفه، فخفق قلبي له بشدة، وشعرت بانجذاب إليـه، وأنه الفارس الذي ارتسمت صورته في خيالي ورأيته في أحلامي.. وكأنه قد لاحـظ مـدى خجلي وتـردّدي، فـأعطى الـرقم لصـديقتي، وأخذته منها والدنيا لا تكاد تسعني، واتصلت بـه، وتعارفنـا، وتحـدثنا طويلاً.. فكان مهذّباً جداً، وكنت صريحة وصادقة معه.

وشيئاً فشيئاً صارحني بحبه، وطلب مني الخروج معه.. رفضـت في البداية، وأفهمته أني لست مستعدة لفقـد ثقـة أهلي، والتنـازل عن مبادئي وأخلاقي التي تمنعني من تجاوز الحـدود الـتي رسـمتها لنفسي.. لكنه استطاع إقناعي، ويبـدو أن الحبّ أعمـاني فلم أميّـز الصحّ من الخطأ.. وخرجت معه، فكانت المـرّة الأولى في حيـاتي، وصارحته برأيي فيـه وفي أمثالـه من الشـباب، فلم يعجبـه كلامي، وسخر مـني، بـل اتهمـني بتمثيـل دور الفتـاة الشـريفة، وأشـبعني تجريحاً، وكان اللقاء الأول والأخير، فقد قـررت التضـحية بحبّي من أجل كرامتي، ولكنه احتفظ بكتـاب يتضـمن أشـعاراً ومـذكرات لي كتبتها بخطي، ووقعتها باسمي، وقد رفض إعادتها لي..

قالت ذلك، ثم انصرفت إلى بكائها..

***

تركتهـا، وسـرت حـتى التقيت ثالثـة سـمعتها تحـدث نفسـها، وتقول: (الأحلام تبقى أمامي، والأوهـام تنبت في قلـبي، والكلمـات التي اخترتها لا تُكتب، لكنها توجـد في فكـري وأحاسيسـي، حكايـة فيها كل المعاناة التي أعيشها اليوم، منـذ أن افتقـدت الثقـة، ومنـذ أن أصـبح الحبّ وهمـاً ومأسـاة أهـرب منهـا أو أتجاهلهـا.. الحبّ لا يعترف بالحذر أو الخوف منه، فإما أن تطرق أبـواب الحبّ وتـوهم نفسك أنك تحبّ، وإما أن تهرب منه أو تتجاهله)

***

تركتها، وسـرت حـتى التقيت رابعـة، سـمعتها تقـول لصـاحبتها بلوعة وحزن: إياك أن تغتري بهذا الوهم، فهو لم يجلب للقلـوب إلا الدمار، ولم يجلب للبيوت إلا الخراب.

قالت صاحبتها: أراك تذمين ما أجمع الكل على حمده.

قالت: كلهم يحمـده في البدايـة، ولكنـه سـرعان مـا يبـدو لهم عواره.. اسأليني أنا.. لقـد كتب لقلـبي أن يقـع أسـيرا في شـباكه،

وكتب أن ينـال في ذلـك الأسـر من الألم مـا لم يذقـه أعـتى عـدو لعدوه.

سأقص عليك قصتي لتكون عبرة لك.. في ذلك اليوم المشأوم اتصلت بالهاتف بإحـدى صـديقاتي، ورد علي أخوهـا، وجـذبني إليـه رقّة حديثه، بعدها وجدتُ نفسي مشدودة للتفكير فيه، والتعلق به.. وتكرر الاتصال، وتعمـدت اختيـار الأوقـات الـتي لا تكـون صـديقتي موجودة فيها.. وتواعدنا على الزواج.

وفجأة.. لاحظت تهربـه من الحـديث معي، وانقطعت اتصـالاته بي.. حاولت بأسلوب غير مباشر التعرف على أسباب هذا التحول، دون فائدة.. وأخيراً وبطريق الصدفة أخبرتني صديقتي أن أخاها قد وقع اختياره على إحدى القريبات، وسيتم زفافهما قريباً..

أصـابتني دهشـة أفقـدتني تـوازني وقـدرتي على الـرد عليـه.. وفقـدت بعـدها الثقـة في نفسـي وفي كـل من حـولي.. تقـدم لي الكثيرون ولكنني رفضتهم جميعاً دون أي مبرر..

العمر يتقدم بي، لكني عاجزة عن نسـيان هـذا الجـرح القـديم، الذي تمكن مني لدرجة كبيرة بدأت تثير شـكوك أهلي تجـاهي، ولا أدري كيف أتخلص مما أنا فيه.

***

لم أسـر إلا قليلا حـتى وجـدت رجلا يحـادث آخـر، يشـكو إليـه بمرارة، ويقول في شكواه:(.. بسبب ظروف عملي سـكنت بعيـداً عن زوجتي وأولادي، وكنت أسـافر إلى بيـتي يـومين في الأسـبوع، وأحياناً يوماً واحداً.. كنت أحبّ زوجتي كثيراً، وكـانت هي كـذلك، إلا أن ضعف مرتبي حال بيني وبين إحضارها للإقامة عندي..

وفي ليلة من الليالي اتصلت فتـاة تريـد التعـرف بي، فرفضـت ذلك، وأفهمتها بأني متزوج ولدي أطفال، وقمت بإقفـال السـماعة في وجهها، ومـا كـان منهـا إلا أن أصـرت على محـادثتي والتعـرف علي، ومن تلك اللحظة أصابني صداع لم يفارقني تلك الليلة، وفي اليوم التالي اتصلت بي، فرد عليهـا أحـد زملائي فلم تكلمـه، ثم ردّ عليها الثاني والثالث، فلم ترد إلا أنا، وفي ساعة متـأخرة من الليـل اتصــلت، ولم يكن غــيري، فــرفعتُ ســماعة الهــاتف، وزيّن لي الشيطان محادثتها، وتعرفت عليها، ويا ليتني لم أفعل، فلقد زلزلت كيـاني، وزرعت طـريقي أشـواكاً، بـل لقـد فرقتـني عن زوجـتي وأولادي، فلم يعد لهم في قلبي من الحبّ مثل ما كـان قبـل ذلـك، كـان فكـري في ذلـك الشـيطان الـذي تمثـل لي في صـورة تلـك

الفتـاة، فقـدت أعصـابي مـع زوجـتي وأولادي، أثـور عليهم لأدنى سـبب، بسـبب تلـك الفتـاة الـتي زرعت المـرض والخـوف في أعمـاقي.. حـاولت أن أقاطعهـا فلم أقـدر.. كـانت تلعب بأعصـابي كثـيراً.. نسـيتُ حـتى عملي من كـثرة السـهر، ومـع ذلـك أصـابني الاكتئاب النفسي، وذهبت إلى عيادة الأمراض النفسـية، وأعطـوني أقراصاً فلم ينفع معي أي علاج)

***

تركتـه، فلم أسـر إلا قليلا حـتى سـمعت شـابة صـغيرة تقـول لصـاحبتها:(لقـد كنت متفوقـة في دراسـتي، لكـني أحببت أحـد المشاهير بشكل جنوني، فملأت بصوره الكبيرة حجرتي، ودسست صوره الصغيرة في كل كتـبي، وكنت أحلم دائمـاً بلقائـه، وأثـور إذا تحدثت عنه زميلاتي.. بدأ مسـتواي الدراسـي في الانحـدار بسـبب هذا الحبّ الجنوني، لدرجة أني أخشى من الاستمرار في الانحـدار، وفي نفس الوقت لا أستطيع التغلب على مشاعري، وأشعر بـأنني وحدي في مشكلة تهدد مستقبلي، ولا أستطيع مصارحة أحد بها..

***

تركتها تهذي بهذا الهذيان، وسرت نحو بلاد أخرى أكـثر تحضـرا، بحثا عن القلب الذي ينسجم مـع العقـل ومـع كـل اللطـائف الـتي أودعها الله في.. وهناك فرحت كثيرا.. لقد تصورت أني قد وجـدت غايتي، فقد وصلت في يوم يقال له (يوم الحب)(1)، وقد رأيت فيه

1()أو (عيد الحب)، أو (عيد العشاق)، أو (الفالنتاين)، وقد تعـود الغـرب على الاحتفـال به في في الرابع عشر من شهر فبراير (شباط) من كل عام.. وفي هذا اليوم عـادة مـا يتبادلون التهاني والورود الحمراء ويرتـدون الملابس ذات اللـون الأحمـر، وتقـام الحفلات الراقصة الماجنة..

ويرجع أصل هذا العيد إلى الرومان الوثنيين، فقد كان الرومان يحتفلون بهـذه الحادثـة في منتصف شهر فبراير من كل عام احتفالا كبيرا، وكان من مراسيمه أن يذبح فيـه كلب وعنزة، ويدهن شابان مفتولا العضلات جسـميهما بـدم الكلب والعـنزة، ثم يغسـلان الـدم باللبن، وبعد ذلك يسير موكب عظيم يكون الشابان في مقدمته يطـوف الطرقـات، ومـع الشـابين قطعتـان من الجلـد يلطخـان بهمـا كـل من صـادفهما، وكـان النسـاء الروميـات يتعرضن لتلك اللطمات مرحبات، لاعتقادهن بأنها تمنع العقم وتشفيه.

بالإضافة إلى هذا، فقد ارتبط عيد الحب بالقديس فالنتين، والذي تـوفي في رومـا إثـر تعذيب القائد القوطي (كلوديـوس) لـه حـوالي عـام 296م، وبـنيت كنيسـة في رومـا في المكان الذي توفي فيه عام 350م تخليدا لذكره.

ولما اعتنق الرومـان المسـيحية أبقـوا على الاحتفـال بعيـد الحب السـابق ذكـره، لكن نقلوه من مفهومه الوثني (الحب الإلهي) إلى مفهوم آخر يعبر عنـه بشـهداء الحب، ممثلا في القديس فالنتين الداعية إلى الحب والسـلام الـذي استشـهد في سـبيل ذلـك حسـب زعمهم. وسمي أيضا (عيد العشاق) واعتبر (القديس فالنتين) شفيع العشاق وراعيهم.

وكان من اعتقاداتهم في هذا العيد أن تكتب أسماء الفتيات اللاتي في سن الـزواج في لفافات صغيرة من الورق، وتوضع في طبق على منضدة، ويدعى الشبان الـذين يرغبـون في الزواج ليخرج كل منهم ورقة، فيضع نفسه في خدمة صـاحبة الاسـم المكتـوب لمـدة

الـورود المتنـاثرة، والقلـوب المتضـامة، ولم أر فيـه قطـرة دمـع واحدة، ولا مجنونا واحدا، فقلت لقلبي: في هذه البلاد سوف تقيم.. وفي هذه البلاد ـ التي لا تمتلئ بغير الورود ـ سـوف تمتلئ بـالهوى الممتلئ بالسلام والسكينة والسعادة.

لقد بقيت أحمل هـذه الفكـرة الجميلـة إلى المسـاء.. لم تعش معي هذه الفكرة إلا تلك السـويعات من الصـباح إلى المسـاء.. ثم عدت بعدها إلى آلامي.

قلنا: كيف كان ذلك؟ ولم كان ذلك؟

قـال: في المسـاء.. وعنـدما ذبلت تلـك الـورود، وذهب عنهـا عطرها الذي كانت تختال به، وذهب عنها بريق جمالها الـذي كـانت تحل بسببه أشرف المواقـع.. وبعـدما رميت تلـك الـورود وديسـت بالأقـدام رأيت من دلـني على مـا كـان يحملـه ذلـك الحب أو ذلـك السراب من قنابل الصراع.

كان أول من التقيت امرأة، لا تبكي بدموعها، ولكن قلبهـا يكـاد يحترق.. عندما رأيتها رحمتها، فقد رأيت جميع أحزان العالم تختزن في مقلتيهـا اللـتين شـحتا بالـدموع، فـاقتربت منهـا، وسـألتها عن سرها، فقالت: إنني فتاة لا تستحق الرحمة أو الشفقة.. لقد أسأت إلى والـــدتي وأخـــواتي، وجعلت أعينهم دومـــاً إلى الأرض، لا يستطيعون رفعها خجلاً من نظرات الآخرين.

كل ذلـك كـان بسـببي.. لقـد خنت الثقـة الـتي أعطـوني إياهـا بسبب ذلك الحب اللعين.

بسبب ذلك الإنسان المجرد من الضمير، الـذي أغـراني بكلامـه المعسـول، فلعب بعـواطفي وأحاسيسـي حـتى أسـير معـه في الطريق السيء..

وبالتدريج جعلني أتمادى في علاقتي معه إلى أسوأ منحدر.. كل

عام يختبر كل منهما خلق الآخر، ثم يتزوجان، أو يعيدان الكرة في العام التالي يوم العيـد أيضا

وقد ثار رجال الدين المسيحيين على هـذا التقليـد، واعتـبروه مفسـدا لأخلاق الشـباب والشابات فتم إبطاله في إيطاليا التي كان مشهورا فيها، لأنها مدينة الرومـان المقدسـة، ولا يعلم على وجـه التحديـد مـتى تم إحيـاؤه من جديـد. فالروايـات النصـرانية في ذلـك مختلفة، لكن تذكر بعض المصادر أن الإنجليز كانوا يحتفلون به منذ القرن الخامس عشـر الميلادي. وفي القرنين الثـامن عشـر والتاسـع عشـر الميلاديين انتشـرت في بعض البلاد الغربية مجلات تبيع كتبا صغيرة تسمى(كتاب الفالنتين) فيها بعض الأشعار الغرامية ليختار منهـا من أراد أن يرسـل إلى محبوبتـه بطاقـة تهنئـة وفيهـا مقترحـات حـول كيفيـة كتابـة الرسائل الغرامية والعاطفية. (انظر: الموسوعة الحرة، وغيرها)

وللأسف، فقد غزا هذا العيد ديار المسلمين ليصدق ما ورد في الحديث من قوله ﷺ :(لتتبعن سنن من قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسـلكتموه، قلنا : يا رسول الله، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟) (رواه البخاري ومسلم)

ذلك بسبب الحب الوهمي الذي أعمى عيني عن الحقيقة، وأدى بي في النهاية إلى فقدان أعز ما تفخر به الفتاة، ويفخر به أبواها، عندما يزفانها إلى الشاب الذي يأتي إلى منزلها بالطريق الحلال..

لقد أضعت هذا الشرف مع إنسان عديم الشرف، إنسان باع ضميره وإنسانيته بعد أن أخذ مني كل شيء، فتركني أعاني وأقاسي بعد لحظات قصيرة قضيتها معه..

لقد تركني في محنة كبيرة بعد أن أصبحت حاملاً.. وآنذاك لم يكن أحد يعلم بمصيبتي سوى الله.. وعندما حاولت البحث عنه كان يتهرب مني، على عكس ما كان يفعله معي من قبل أن يأخذ ما يريد.. لقد مكثت في نار وعذاب طوال أربعة أشهر، ولا يعلم إلا الله ما قاسيته من آلام نفسية بسبب عصياني لربي، واقترافي لهذا الذنب.. ولأن الحمل أثقل نفسيتي وأتعبها.. كنت أفكر كيف أقابل أهلي بهذه المصيبة التي تتحرك في أحشائي؟.. فوالدي رجل ضعيف، يشقى ويكد من أجلنا، ولا يكاد الراتب يكفيه.. ووالدتي امرأة عفيفة، وفرت كل شيء لي من أجل أن أتم دراستي لأصل إلى أعلى المراتب.

لقد خيبت ظنها، وأسأت إليها إساءة كبيرة لا تغتفر، لا زلت أتجرع مرارتها حتى الآن..

إن قلب ذلك الوحش رقّ لي أخيراً حيث ردّ على مكالمتي الهاتفية بعد أن طاردته.. وعندما علم بحملي، عرض على مساعدتي في الإجهاض وإسقاط الجنين الذي يتحرك داخل أحشائي.. كدت أجنّ.. لم يفكر أن يتقدم للزواج مني لإصلاح ما أفسده(1).. بل وضعني أمام خيارين : إما أن يتركني في محنتي، أو أسقط هذا الحمل للنجاة من الفضيحة والعار..

ولمّا مرت الأيام دون أن يتقدم لخطبتي، ذهبت إلى الشرطة لأخبرهم بما حدث من جانبه، وبعد أن بحثوا عنه في كل مكان وجدوه بعد شهرين من بلاغي، لأنه أعطاني اسماً غير اسمه الحقيقي.. لكنه في النهاية وقع في أيدي الشرطة، واتضح أنه متزوج ولديه أربعة من الأولاد، ووضع في السجن.

وعندما علمت أنه متزوج أدركت كم كنت غبية عندما سرت وراءه كالعمياء..

ولكن ماذا يفيد ذلك بعد أن وقعت في الهوة السحيقة التي

1() ذكرنا الحلول الشرعية المرتبطة بهذه الحالة في سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)

جعلتني أتردي داخلها ؟!
لقد ظن أنني ما زلت تلك الفتاة التي أعماها كذبه، فأرسل إلي من سجنه امرأة تخبرني بأنني إذا أنكرت أمام القاضي أنه انتهك عرضي فسوف يتزوجني بعد خروجي من السجن.. لكني رفضت عرضه الرخيص.
قلت: فماذا تفعلين الآن؟
قالت: لقد رجعت إلى بيتي، واتخذتها سجني.. وها أنا قابعة فيه لا أكلم أحداً، ولا يراني أحد، بسبب تلك الفضيحة التي سببتها لأسرتي، فأهدرت كرامتها، ولوثت سمعتها النقية..
لقد أصبح والدي كالشبح يمشي متهالكاً يكاد يسقط من الإعياء.. بينما أصبحت أمي هزيلة ضعيفة، تهذي باستمرار، وسجنت نفسها بإرادتها داخل المنزل خشية كلام الناس ونظراتهم.
***
تركتها لأسمع أخرى، وهي تقول: أنا فتاة جامعية.. أحببت شاباً بكل معنى الكلمة.. واخترته حبيباً لقلبي ورفيقاً لدربي بموافقة ومباركة الأهل، وفيما كنا نقوم بالاستعداد للزواج فوجئنا باعتراضات رسمية، وعقبات وهمية، حالت دون إتمام فرحتنا، لكننا لم نستسلم، فحاولنا التغلب عليها، وضحينا بالكثير دون جدوى، ولم نفقد الأمل رغم وصولنا إلى طريق مسدود.
واستمرت اللقاءات والاتصالات بيننا، وفي ذات يوم نسينا أنفسنا في غمرة الحب، فكان الشيطان ثالثنا..
ومن هنا بدأت المشكلة أو المأساة الكبرى، فبدلاً من تصحيح غلطته أو غلطتنا، فوجئت به يتهمني زوراً وظلماً بأبشع التهم، ويزعم ويدعي بأني لم أكن عذراء، واتخذ من ذلك حيلة للتهرب من المسؤولية، وتصحيح غلطة فظيعة ارتكبناها في لحظة طيش.
كيف يمكن أن يحدث لي هذا، ولم يمسسني أحد غيره، وقد أقسمت له أني لم أعرف رجلاً قبله ولا بعده، وبكيت أمامه، وتوسلت إليه ألا يتخلى عني، فواعدني خيراً، وعاد يؤكد حبه لي.
وكثرت اللقاءات بيننا، وكنت أحرص خلالها على عدم إغضابه، وكان هو الآمر الناهي، والقاضي والجلاد، ثم بدأ يتهرب مني، وينتحل الأعذار، وأخيراً طال غيابه وانقطعت أخباره، فأدركت أنني كنت الجانية على شرفي والضحية، وأنني قد حكمت على نفسي بالإعدام.
لقد صبرت، وانتظرت بما فيه الكفاية، ورفضت عشرات

الشبان خوفاً من افتضاح أمري فتكون نهايتي.
قالت ذلك، ثم غـرقت في دموعهـا، ولم أتـبين منهـا سـوى مـا ذكرته لكم.

***

سرت إلى بلاد أخرى.. فصادف دخولي إليها رؤيتي لمنظر بشع لا زال يلح كل حين على ذاكرتي.
قلنا: وما رأيت؟
قال: لقد رأيت فتـاة صـبت على نفسـها البـنزين، ثم أسـرعت إلى رجـل كـان قريبـا منهـا، ثم عانقتـه، ثم أشـعلت عـود الثقـاب، فاحترقا جميعا، ولم يستطع الجمع المحيطين بهما أن يفعلوا شيئا.
قلنا: عجبا.. لم فعلت هذا؟
قال: لقد سألت المحيطين بها، وقد أخبروني أن سبب ذلك هو الحب.. فقد تخلى حبيبها عنها، وارتبط بأخرى.. وكانت قبل ذلك قد حبست نفسها في غرفتها بمنزلها مدة ثلاثة أيام متتالية..
وقـد قـالت لي إحـدى جاراتهـا: إن هـذه الشـابة المسـكينة لم تتوقف عن البكاء طيلة تلك الفترة، وقـد حـاولت مواسـاتها، لكنهـا ردت علي بأنها قد رتبت لقاءً أخيراً مع حبيبها الذي ألحق بها ضـرراً بالغاً.. وتم اللقاء الأخير الذي تحول إلى مواجهة عنيفـة بينهمـا، ثم دخلا في مشادة كلاميـة حـادة، وعنـدها تـوجهت الفتـاة إلى مكـان قريب، وتناولت وعاء مليئاً بالبنزين، فصبته على جسدها أمام حشد من النـاس، وأشـعلت النـار، وقـد حـاول (الحـبيب) منعهـا، لكنهـا انقضت عليه وهي تشتعل ناراً، واحتضنته بكـل مـا أوتيت من قـوة ليحترقا جميعاً..

***

ما سرت إلا قليلا حتى رأيت شابا يطلـق الرصـاص على امـرأة كانت بجانبـه، ثم يطلـق النـار على نفسـه بعـدها، فسـألت عنهمـا، فقالوا: لقد عاش هذا الشاب في السنوات الأخيرة قصـة عاطفيـة لم تُكتب لهـا نهايـة سـعيدة بعـد أن اصـطدمت ببعض المعوقـات، بحسب رسالة تركها المنتحران بخط يديهما، قالا فيها : إنهما أقدما على الانتحار بكامل إرادتهما وقواهما العقلية.
ثم سمعت بعدها بطيار فضل الانتحار ومعه جميع الركاب، حين علم بوجود رجل على متن الطائرة التي يقودها كان قد انـتزع منـه فتــاة يحبهــا على الــرغم من اعتراضــه ســلفاً على وجــوده في الطائرة، فما كان منه إلا أن قاد حفلة موت جماعية ذهب ضـحيتها

جميع الركاب.

ثم سمعت بـامرأة وضـعت السـم لزوجهـا قبـل زفافهمـا بيـوم واحد حتى تتمكن من الزواج بشاب آخر تحبـه منـذ فـترة طويلـة.. وكان العريس قد توجه إلى مـنزل عروسـه ليعـرض عليهم كـروت الدعوة لحفل الزفاف، فقدمت له العروس كـوب شـاي مسـموم، وفور خروجه من المنزل سقط على الأرض، واكتشف الأطبـاء أنـه مات مسموماً.

***

بعدها سرت إلى إيطاليـا، وبالضـبط إلى مدينـة فيهـا يقـال لهـا (فيرونـا)، وهنـاك قـدر اللـه لي أن أعيش أحـداث مأسـاة روميـو وجولييت.. لعلكم سمعتم بها.

قلنا: حدثنا عنها.

قال: قصتهما طويلة.. لقد حـاول شكسـبير بمـا أوتي من قـوة قريحة أن يعبر عنهـا.. لكنـه في الحقيقـة لم يعـبر إلا عن الظـواهر التي رآها أو التي حاول أن يراها.. أما الحقيقة.. والتي ذقت مثلها.. فأعظم من أن يعبر عنها.

لقد كان روميو وجوليت مثالا عن الصراع الذي يعانيـه أصـحاب القلــوب.. أصــحاب القلــوب الــذين غمســوا قلــوبهم في الطين المدنس..

قلنا: لقد شوقتنا، فحدثنا.

قال: لقد كانا شابين من فيرونا في إيطاليـا، وقـد وقعـا ضـحية عداء مرير بين عائلتيهما، عائلـة مونتـاجيو وعائلـة كـابيوليت.. وقـد التقى روميو، وهـو من عائلـة مونتـاجيو، بجولـييت وهي من عائلـة كابيوليت، في حفلة تنكرية أقامتها عائلة كابيوليت.. وحضـر روميـو تلك الحفلة بـالرغم من أنـه لم يُـدْعَ هـو ورفاقـه إليهـا.. وفي تلـك الحفلة صلي روميو بنار جولييت، وصليت جولييت بنار روميو.

وقد تزوج العاشقان في اليوم التـالي سـرًا بمسـاعدة الـراهب لـورانس، ولـدى عـودة روميـو من حفـل زواجـه التقى بـابن عم جولييت، واسمه تايبولت.. وقد تحرش هذا بروميو محـاولاً الـدخول في قتال معه، لكن روميو رفض قتاله، وهب صديق روميو واسـمه ميركوشيو، وقبل التحدي دفاعًا عن شرف عائلة مونتاجيو، وعنـدما حاول روميو التدخل لفض الـنزاع، قـام تـايبولت بطعن ميركوشـيو حتى الموت، مما يدفع روميو إلى قتـل تـايبولت، وأسـفر ذلـك عن إبعاد روميو عن فيرونا.

وفي أثناء ذلك حاول والد جولييت إجبارها على قبول الزواج من ابن عمها باريس، دون أن يدري بأنها متزوجة من روميو، لكن الراهب لورانس قام بإعطائها عقارًا يجعلها في حالة نوم تشبه الموت لمدة أربع وعشرين ساعة من أجل مساعدتها على التخلص من ضغوط والدها عليها بالزواج، ثم أرسل الراهب إلى روميو رسالة في منفاه يوضح له فيها ما فعل، لكن رسالته وصلت متأخرة حيث سارع روميو إلى قبر جولييت، وتجرع سمًا واستلقى إلى جانبها في القبر، وعندما استيقظت جولييت ووجدت زوجها ميتًا إلى جانبها، طعنت نفسها وماتت هي الأخرى.

هذه هي قصة روميو وجولييت الظاهرة.. أما قصتهما الباطنة، فلا يطيق التعبير عنها إلا من ذاق من ذلك الحب ما ذقت، وما ذاقه كل العشاق.

السلام

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق.. انتظرناه برهة، فلما لم يستأنف حديثه قلنا له: لقد حدثتنا عما رأيت، فحدثنا عما حصل لك.

قال: كل ما رأيتم من آلام حصل لي.. لقد كان الكل معبرا عني..

بعد أن قطعت كل تلك المفاوز شاء الله لقلبي أن يمتلئ بحب غانية من الغواني أذاقته من الهوان، ومن المراراة، ومن ذلة الاستعباد، ما لم أر مثله في حياتي..

قلنا: فهل ظفرت بها؟

قال: وهل يمكن لأحد أن يظفر بالسراب؟.. لقد صدق من نصحني.. ولكني لم أنتصح.

قلنا: فكيف ظهر لك أن تفارقها بعد كل تلك المحبة التي وصفت؟

قال: لم أفارقها أنا.. بل هي التي فارقتني.. لقد باعتني بثمن زهيد من متاع الدنيا.. فارقتني لتترك قلبي مملوء بحسرات لا يمكن لأحد في الدنيا أن يتحملها.

قلنا: فماذا فعلت؟

قال: لقد رحت أفعل ما فعل كل العشاق.

قلنا: تقصد الانتحار؟

قال: لم يعد للحياة معنى بعدها.. لقد كنت أصبح متألما،

وأمسي متألما.. إلى أن عجز جسدي عن تحمل الألم، فراح يطالبني بالخلاص.

قلنا: فماذا فعلت؟

قال: لقد حفرت قبرا.. ورقدت فيه.. وهممت بشرب ما استحضرت من أدوية الموت.. لكني ما إن هممت حتى سمعت صوتا في المقبرة يردد بلحن عذب، فيه من ألحان العشق ما تعودت سماعه، لكنه يختلف عنها جميعا.. لقد كان مملوءا بالقوة والعزة والجمال.. وفوق ذلك كله بالسلام الذي لم أر له وجودا مع أي حب عشته أو رأيته.. لقد كان ذلك الصوت يقول:

كانت لقلبي أهواء مفرقةٌ
فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم
شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

ثم يقول بعدها متغنيا بصوت شجي متحدثا عن تأثير تلك المحبة العميقة العظيمة:

وإنْ خَطَرَتْ يَوماً على خاطِرِ امرِىءٍ
أقامَتْ بهِ الأَفْراحُ، وارتحلَ الهَمُ
ولو نَضَحوا مِنها ثَرى قَبْرِ مَيتٍ،
لعادَتْ إليهِ الرُّوحُ، وانْتَعَشَ الجسْم
ولو طَرَحوا في فيءِ حائِطِ كَرْمِها،
عليلاً، وقد أشْفى، لفارَقَهُ السّقَمُ
ولو قَرَّبوا، من حانِها، مُقْعَداً مَشى
وتِنْطِقُ مِن ذِكرِى مَذاقَتِها البُكْمُ
ولو عَبِقَت في الشَّرْقِ أنْفاسُ طيبها،
وفي الغَرْبِ مَزْكومٌ، لَعادَ لهُ الشم
ولو خُضِبتْ، مِنْ كأسِها، كفّ لامِسٍ
لَما ضَلّ في ليلٍ، وفي يَدِهِ النَّجمِ
ولو جُلِيَتْ، سِرّاً، على أكمَهٍ غَدا بَصيراً،
ومِن رَاوَوقِها تَسمعُ الصّمّ
ولو أنّ ركْباً يَمّمَوا تُرْبَ أرْضِها،

وفي الـرَّكبِ مَلْسـوعٌ، لمـا ضَـرّهُ السّـمُ
ولـو رَسَـمَ الـرّاقي حُـرُوفَ اسـمِها،
على جَـبينِ مُصـابٍ جُنَّ، أبْـرَأَهُ الرَّسـمُ

رميت ما كان معي من أدوية الموت، ورحت أسرع إلى مصدر الصوت، وأنا أصيح: هذا ما أبحث عنه، فأين أجده؟

قال: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:115)

قلت: ما تقصد؟

قال: كل من غاب عنه حبيبه اهتم، وكل من فارقه حبيبه تألم، وكل من قاطعه حبيبه انقطع.

قلت: أعرف ذلك.. وقد صليت بناره.. ولم آت إلى هنا إلا بسببه.

قال: فابحث عن الحبيب الذي لا يغيب ولا يفارق ولا يقاطع.. وابحث عن المحبة التي لا تورثك إلا العزة والخلود والكمال والجمال.

قلت: وأين أجدها؟

قال: لقد قلت لك: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:115)

قلت: وما علاقة ذلك بهذا؟.. إن ما قرأته يتحدث عن الله.

قال: وهل هناك أحد يمكن أن يتشرف القلب ويتقدس بمحبته غير الله؟

قلت: الله يعبد.

قال: أعظم عبودية توجه لله هي محبته.. فلا خير في الحركات التي لا تصحبها المحبة.. إنها لا تكاد تختلف عن النفاق والرياء والخداع.

قلت: لقد جربت الحب، وذقت من آلامه ما رماني في هذه المقبرة.. ولولا تلك الأبيات التي سمعتها منك لكنت الآن في الموتى.

قال: ذلك هو الحب المدنس.. إنه لا يرميك إلا للمقابر أو مارستانات المجانين.. لأنه حب يبدأ بالصراع، وينتهي بالصراع.

قلت: الصراع!؟

قال: أجل.. كل محب يريد أن يستولي على قلب محبوبه، ويستأثر به.. فإذا ظفر به سامه من ألوان العذاب ما لعلك رأيت بعضه.

قلت: وهل هناك حب مقدس؟
قال: أجل.. وهو حب واحد.
قلت: حب من؟
قال: حب الواحد.. فحب كل ما عداه داء وألم..
قلت: إني أشعر بجمال ما تقول.. لكن ذهني لا يـزال كليلا دون فهمه.
قال: يحق لـك أن لا تفهم هـذا.. فمن الصـعب على من ارتمى في دنس الأدناس أن يترقى إلى قدس الأقداس.
قلت: أنت تعيدني إلى اليأس إذن؟
قال: لا.. بل أنا أنشر فيك الهمـة.. فلا يمكن لمنحـط الهمـة أن يطمع في مثل هذا الحب.
قلت: وما علاقة الهمة بهذا؟
قال: صاحب الهمة العالية يترفع أن يسلم قلبـه لأي كـان.. إنـه يبحث عن المحل المناسب له.. لقـد حـدث بعض العـارفين، وكـان اسمه بشر بن الحارث قال: مررت برجل وقد ضـرب ألـف سـوط في شـرقية بغـداد، ولم يتكلم ثم حمـل إلى الحبس، فتبعتـه فقلت له: لم ضربت؟ فقال: لأني عاشـق، فقلت لـه: ولم سـكت؟ قـال: لأنّ معشـوقي كـان بحـذائي ينظـر إليَّ، فقلت: فلـو نظـرت إلى المعشوق الأكبر قال: فزعق زعقة خرّ ميتاً..
قلت: لكني تعودت أن لا أحب إلا من أرى.
قـال: واللـه لا يغيب عن المحـبين أبـدا.. إن لم يـروه بالأبصـار المدنسة بدنس التبشبيه، رأوه بالبصائر المقدسة بأنوار التنزيه..
قلت: لقد ذكرت لك أني أشعر بجمال كلماتـك.. ولكن عقلي لا يزال كليلا دون فهمه.. فهلا انتقلت من الترقيق إلى التحقيق.
قال: لك ذلك.. فهذا هو الحب الوحيد الذي ينسجم فيـه العقـل مع القلب مع النفس.. ومع جميع اللطائف التي يتكـون منهـا بنيـان الإنسان.
قلت: من السهل عليك أن تقول هذا.
قال: ومن السهل علي أن أثبته لك.
قلت: إنـك أن أثبتـه لي لم تخلصـني أنـا فقـط.. بـل سـتخلص العالم أجمع.. هذا العالم الأسير لقلبه.
قـال: لاشـك أنـك مـررت في بريـة الحب المـدنس بالمرضـى والمجانين والحزانى والغافلين والمتوهمين والمنحرفين والقتلة..
قلت: لكأنك كنت معي في رحلتي.

قال: لم أكن معك بجسدي.. ولكن حقيقتي كانت معك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كنت أنا كل أولئك.. لقد صليت بجميع نيران الحب المدنس.. إلى أن جاء اليوم الذي حفرت فيه قبرا.. وكدت أسلم نفسي للموت.. ولولا أن الله خلصني بشمس الهداية لكنت الآن في حفرة من هذه الحفر.

قلت: لكأنك تحدثني عن نفسي.

قال: الإنسان واحد.. وسنن الله واحدة.. لقد أبى الله إلا أن يعذب من رغب عنه إلى غيره..

قلت: فما الذي رغبك في هذا الحب الذي تسميه مقدسا؟

قال: أشياء كثيرة.. لا يمكن حصرها.. ولكني سأكتفي بسبعة تقابل تلك السبعة التي صليت بنارها.

قلت: فما هي؟

قال: الصحة.. والعقل.. والفرح.. والحضور.. والحقيقة.. والاستقامة.. والحياة.

الصحة:

قلت: فحدثني عن **الصحة**.. فإن أول ما ينشره الحب في أهله هو تلك الأدواء التي لا يجد صاحبها لها ترياقا.

ابتسم، وقال: لقد عبر شعراؤكم من بني عذرة على ذلك، فقال أحدكم:

الحب داء عضال لا دواء له ... يحار فيه الأطباء النحارير

قد كنت أحسب أن ... في وصفه فإذا بالقوم

العاشقين غلوا ... تقصير

قلت: بل منهم من زاد على ذلك، فراح يصيح:

ألا ما الهوى والحب ... يذل به طوع اللسان

بالشيء هكذا ... فيوصف

ولكنه شيء قضى الله أنه ... هو الموت أو شيء من

الموت أعنف

فأوله سقم وآخره ضنى ... وأوسطه شوق يشف

ويتلف

وروع وتسهيد وهم وحسرة ... ووجد على وجد يزيد

ويضعف

قال: صدق الشاعر، فالحب في مقياس الحقيقة موت حقيقي، فالروح المسلوبة، الغائبة عن نفسها، الفانية عن وجودها،

المستسلمة لهواها روح ميتة.. ولذلك يعتبر العارفون هذه الحال مرضا نفسيا لا يقع فيه إلا ضعاف العقول، قال الغزالي: (ما العشق إلا سعة إفراط الشهوة، وهو مرض قلب فارغ لا هم له)

قلت: سلمت لك بهذا.. فهل يخلو الحب الذي تدعو إليه من هذا؟

قال: أجل..

قلت: أثبت لي ذلك.

قال: ما أول ما ينشر المرض في المحبين؟

قلت: أشياء كثيرة.. منها فراق المحبوب أو إعراضه أو غيابه أو بغضه..

قال: ولذلك كان ذلك الحب مدنسا.. فمن الجنون أن تحب من يفارقك أو يعرض عنك أو يغيب أو يبغض..

قلت: لقد عرفت هذا الجنون في الحب المدنس.. فكيف يخلو المقدس من هذا الدنس؟

قال: أما الفراق.. فإن محب الله لا يعرفه.. فالله لا يغيب أبدا.. بل هو أقرب إلينا من أنفسنا.. لقد قال الله تعالى يذكر قربه من عباده :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾(البقرة: من الآية186)، وقال تعالى :﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾(هود: من الآية61)، وقال تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس:61)، وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (قّ: 16)، وقال تعالى :﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (الواقعة:85)، وقال تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: من الآية7)

وقد روي أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله:﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(البقرة: من الآية186)[1]

وسأل أصحاب رسول الله ﷺ النبي ﷺ: أين ربنا؟ فأنزل الله

1()رواه ابن مَرْدُويه، وأبو الشيخ الأصبهاني.

عز وجل: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)(البقرة: من الآية186(1)

وعن أبي موسى الأشعري، قـال: كنـا مـع رسـول اللـه ﷺ في غَزَاة فجعلنا لا نصعد شَرَفًا، ولا نعلو شَرَفًا، ولا نهبط واديًا إلا رفعنـا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقـال: (يـا أيهـا النـاس، أرْبعُـوا على أنفسكم؛ فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصـيرًا، إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته. يا عبـد اللـه بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله)(2)

سكت قليلا، ثم قال: لقد قال العارفون الـذين ذاقـوا لـذة هـذا القرب يعبرون عن هذا:

ومن عجب أني أحن إليهم
وأســـــــــــأل عنهم من أرى وهم معي
وتطلبهم عيـــــــني وهم في ســـــــوادها
ويشـــــتاقهم قلـــــبي وهم بين أضـــــلعي

وقال الشبلي: رأيت جارية حبشية فقلت: من أين؟ قـالت: من عند الحبيب قلت: وإلى أين؟ قالت: إلى الحـبيب قلت: مـا تريـدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب.

قلت: والإعراض!؟

فمن البليـــــــــــةِ أن تح بَ ولا يحبـــكَ من تحبـــهْ
ويصـــــدَّ عنـــــكَ بوجهِه وتلح أنتَ فلا تغبه

قال: كلهم قد يعرض عنكَ إلا الله.. فالله الكريم لا يعرض عن عباده، بل يقبلهم، بـل إنـه يـدعوهم بكـل الأسـاليب ليقبلـوا عليـه، رحمة منه وتفضلا ومودة.. لقـد ورد في الأخبـار أنـه كـان في بـني إسرائيل شاب عبد اللـه تعـالى عشـرين سـنة ثم عصـاه عشـرين سنة، ثم نظـر في المـرآة فـرأى الشـيب في لحيتـه فسـاءه ذلـك فقال: إلهي إني أطعتك عشـرين سـنة ثم عصـيتك عشـرين سـنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يرى شخصاً: أحببتنا فأحببنـاك، وتركتنـا فتركنـاك، وعصـيتنا فأهملنـاك وإن رجعت إلينـا قبلناك.

وفي الأثر الإلهي من خطاب الله لعباده :

(متى جئتني قبلتك..

1()رواه عبد الرزاق.

2() رواه البخاري ومسلم.

إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك..
إن تقربت مني شبرا تقربت منك ذراعا.. وإن تقربت مني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلى هرولت إليك.
لا تحجبك الخطايا عني، فلو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة.. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك.
هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما..
عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم.
إني والجن والإنس في نبإ عظيم: أخلق ويعبد غيري وأرزق، ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي.
من أقبل إلي تلقيته من بعيد ومن أعرض عني ناديته من قريب ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ومن أراد رضاي أردت ما يريد ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.
أهل ذكري أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.
من آثرني على سواي آثرته على سواه الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة والسيئة عندي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.
أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.
رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها)(1)
بهذا الحديث الودود وغيره يخاطبنا ربنا، وبهذه العذوبة والجمال يدعونا إليه، ليرفع الحجب التي تحول بيننا وبينه، ويزيل الأعذار التي تعتذر بها عن التقرب إليه.
قلت: والبغض!؟.. إن أخوف ما يخاف المحب أن يبغضه محبه.
قال: لن تلقى من الله إلا المحبة.. فالله هو الودود الذي غمر الأكوان بوده.. ولذلك لا يعرض الله إلا على من أعرض عنه.. ولا يبغض إلا من أبغضه أو أبغض التقرب إليه.

العقل:

1() مقتبس من جملة أحاديث بتصرف.

قلت: عرفت الأول.. فحدثني عن **الثاني**..

قال: لقد رأيت في برية الحب المدنس المجانين، وهم يهيلـون على رؤوسهم التراب، ورأيت الأطفال، وهم يرمونهم بالحجارة.

قلت: أجل.. لقد رأيت ذلك.. وقد أصابني بعض ذلك.

قال: أتدري لم؟

قلت: لم أتعـــــود البحث في أســـــرار الحب.. كنت أكتفي بالتعجب.. أو كنت أكتفي بأن أصلى بناره دون أن أبحث عن كيفيـة الخروج منه.

قال: لقد خلق اللـه لكـل لطيفـة من لطـائف الإنسـان محلهـا الذي لا تكمـل إلا بـه.. ولا تسـتقر إلا بـه.. ولا تسـكن إلا بـه.. فـإن تحقق لها ذلـك نعمت وسـعدت وسـلمت.. وإن لم يتحقـق ثـارت.. وقد يكون الجنون ثورة من ثوراتها.

قلت: قرب لي هذا.

قال: لقد خلق الله للمعدة طعاما هيأه لها في مطـابخ القـدرة يتناسب معها تناسبا تاما، فـإن أقبلت عليـه سـلمت، وإن أعرضـت عنه إلى ما لا يصلح لها أصابها من الجنون مـا يملأ صـاحبها بـالألم.. ومثل ذلك خلق للرئتين هواء معينا تتنفسه.. فإن أعرضت عنه إلى غيره أصابها صاحبها من الضيق والألم ما قد يسلمه إلى الموت.

قلت: ما تقوله صحيح.. ولا يمكن لأحد أن يشك فيه.

قال: وهكذا عـالم اللطـائف.. لقـد خلـق اللـه قلب الإنسـان.. والـذي هـو محـل المواجيـد محلا متوجهـا توجهـا كليـا إلى الجمـال الخالد الثابت الكامل.. فلذلك تجـده يطلبـه في كـل محـل، ويبحث عنه في كل مرآة..

قلت: ولكن لم يرضى بالجمال الزائل المتزعزع الناقص؟

قال: الغفلة ووساوس الشياطين.. ومـا يلقنـه إيـاه رجـال بـني عذرة.

قلت: تقصد قومي؟

قال: أجل.. وفي البشر مثلهم كثير.. إنهم رجـال صـرفوا تلـك اللطيفة من عالم القدس إلى عالم الدنس.. فصـار الإنسـان عبـدا للإنســان.. وتمــرغ عقــل الإنســان الســماوي وكرامــة الإنســان السماوي في أوحال الطين.

قلت: ولكن القلب يجد بعض اللذة في ذلك؟

قـال: إنهـا لـذة لا تختلـف عن لـذة الخمـرة(1).. ألم تسـمع شعراءكم وهم يرددون:

سكران سكر هـوى وسـكر ومتى إفاقة من به سـكران مدامة

وعبر الآخر عن ذلك بقوله:

تسقيك من عينها خمـرا ومن يـــــــدها خمـــــــرا فمـا لـك من سـكرين من بد

لي سكرتان وللندمان واحدة وحـــــــــــــــــــدي شـيء خصصـت بـه من بينهم

وعبر صفي الدين الحلي عن ذلك بقوله:

للعشـــقِ ســـكرٌ كالمـــدا مِ (كالمـــدام) إِذا تمكنَ في العقـــــــــــــــــولِ

يبقى اليســـــيرُ من الكث رِ (الكـــثر) فكيـــفَ ظنُّكَ بالقليـــــــــــــــــلِ

وعبر الشريف المرتضى عن ذلك، فقال:

صحا الذي يشـربُ الصـهباءَ وشاربُ الحُبِ أعيا أن يقالَ

1() نجد بعض العارفين يعبرون عن المحبة بالسكر، وهو من باب المشاكلة لا من باب الحقيقة، والأولى ترك مثل هذه التعابير لما توحي بـه من معـان قـد تفهم فهمـا خاطئـا.. وقد اشتد ابن القيم في رده لمثل هذا، فقـال: (وهـذا المعـنى (أي سـقوط التمالـك في الطرب الناشـئ عن المحبـة) لم يعـبر عنـه في القـرآن ولا في السـنة ولا العـارفون من السلف بالسكر أصلا، وإنما ذلك من اصطلاح المتأخرين، وهو بئس الاصطلاح، فـإن لفـظ السكر والمسـكر من الألفـاظ المذمومـة شـرعا وعقلا، وعامـة مـا يسـتعمل في السـكر المذموم الذي يمقته الله ورسوله قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (النسـاء: من الآية43)، وعـبر بـه سـبحانه عن الهول الشديد الذي يحصل للناس عند قيام الساعة فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:2)، ويقال: فلان أسكره حب الدنيا، وكذلك يستعمل في سكر الهوى المذموم.. فأين أطلق الله سـبحانه أو رسـوله أو الصـحابة أو أئمـة الطريـق المتقدمون على هذا المعنى الشريف الذي هو من أشـرف أحـوال محبيـه وعابديـه اسـم السكر المستعمل في سكر الخمـر وسـكر الفـواحش كمـا قـال عن قـوم لـوط لعمـرك: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر:72)، فوصـف بالسـكر أربـاب الفـواحش وأرباب الشراب المسكر، فلا يليق استعماله في أشرف الأحوال والمقامات ولا سيما في قسم الحقائق ولا يطلق على كليم الرحمن اسما يسمى سكرا)

ثم أشار إلى أن الإنكار متوجه للألفـاظ دون المعـاني، فقـال :(ونحن لا ننكـر المعـنى المشار إليه بهذا الاسم، وإنما المنكر تسميته بهذا الاسم، ولا سـيما إذا انضـاف إلى ذلـك اسم الشراب، أو تسمية المعارف بالخمر، والواردات بالكؤوس، والله جل جلاله بالساقي، فهذه الاستعارات والتسمية هي التي فتحت هذا الباب) (انظر: مدارج السالكين:3/306)

ونحن مع تسـليمنا لمـا ذكـره ابن القيم، إلا أنـه لا ينبغي المبالغـة في إنكـار مـا ذكـره الصالحون بسبب هذه الألفاظ، فهو لم يـذكر إلا على سـبيل المشـاكلة.. وكـأنهم يقولـون للمنتشي بنشوة الخمر، أو نشـوة الحب الموهـوم: دع عنـك مـا أنت فيـه، وتعـال للخمـر الحقيقية التي لا تعدل نشوتها أي نشوة، ولا لذتها أي لذة.

مترعـــــــــــــــــــةً صَـــــــــــــــــــــحا

لقد أشار ﷺ إلى هـذا المعـنى الـذي هـو حقيقـة الحب وأثـره، بقوله ﷺ :(حبك الشيء يعمي ويصم)(2)،

أي أن هذا النوع من الحب يجعل المحب مثل السكران لا يرى الأشياء على حقيقتها، فيعمى عن رؤية عيوب المحبوب، ويصم عن سماع العذال والناصحين، بل قد يلتـذ بملامتهم ونصـحهم لـذكرهم محبوبه، كما قال شاعركم:

وقـف الهـوى بي حيث أنت فليس لي متـأخر عنـه ولا متقـــــــــــــــــــدم

وأهنتـــني فـــأهنت نفســـي جاهـــــــــــــــــدا

مـا من يهـون عليـك ممن يكـــــــــــــــــــرم

أشـــهبت أعـــدائي فصـــرت أحبهم

إذ كـان حظي منـك حظي منهم

أجـــد الملامـــة في هـــواك لذيـــــــــــــــــــذة

حبا لذكرك فليلمـني اللـوم

ولهـذا نهت الملائكـة لوطـا عليه السلام عن خطـاب قومـه ودعـوتهم، وجعلت سبب ذلك ما يقعون فيـه من سـكر الهـوى، قـال تعـالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(الحجر:72)

فلذة السكر يغيب معها العقـل الـذي يعلم بـه القـول ويحصـل معه التمييز، كما قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَقْرَبُـوا الصَّـلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: من الآية43)

فالآية الكريمة اعتبرت الغايـة الـتي يـزول بهـا حكم السـكر أن يعلم السكران ما يقول، فمتى لم يعلم ما يقـول فهـو في السـكر، فإذا علم ما يقول خرج عن حكمه.

قلت: أكل ذلك الحب الذي تغنى بـه قـومي من بـني عـذرة لم يكن إلا نشوة لا تختلف عن نشوة الخمر؟

قال: أجـل.. وليس من فـرق بينهمـا إلا فـارق زمـني بسـيط.. فنشوة الخمر تأثيرها يمتد ساعات، بينما نشوة الحب الموهوم قـد تمتد إلى سنوات.

قلت: وإلام تنتهي؟

قـال: إلى مـا تنتهي إليـه نشـوة الخمـر.. صـداع في الـرأس،

2() رواه أبـو داود من حـديث أبي الـدرداء والوقـف أشـبه، وقـد بـالغ الصـغاني فحكم بوضعه ولهذا تعقبه العراقي قال: وابن أبي مـريم لم يتهم بكـذب بـل ولا شـديد الضـعف فهو حسن.(تذكرة الموضوعات:199)

وتهتك في الجسد، وانتكاسة في الروح، وجنون في العقل..

قلت: فهذا الحب الذي يتغنى به كـل أولئـك لا يعـدوا أن يكـون نوعـا راقيـا من أنـواع المسـكرات، أو صـنفا ممتـازا من أصـناف المخدارت!؟

قال: أجل.. فأي سكير أو مـدمن خمـر يجـد مـا يجـده المحب العاشق، فكلاهما قـد يظفـر باللـذة، وكلاهمـا يعيش عـالم اللاوعي واللاعقل، وكلاهما في الأخير يزول عنـه ذلـك السـكر بانتهـاء مـدة تأثيره.

الفرح:

قلت: عـرفت هـذا.. فحـدثني عن **الفـرح**.. عهـدي بـالمحبين يفرحون سويعات اللقاء، ثم يتحولون إلى الحزن الدائم المقيم.

قال: وحق لهم أن يحزنوا.. ألم تعلم أن القلب لا يجد سعادته، ولا لذته، ولا فرحه إلا بلقاء حبيبه؟

قلت: بلى.. وقد جربته..

قـال: وتعلم أنـك إن فـرحت بشـيء، ثم ضـاع منـك، أو غـاب عنك، حزنت عليه بقدر فرحك به؟

قلت: أعلم ذلك.. وأحسب أن الكل يعلمه.

قال: وتعلم أنه إن كان في حبيبك ما يسوء وما يسـر، فـرحت بما سرك منه، واستأت بما ساءك منه؟

قلت: ذلك صحيح.. فما غرضك من كل هذا؟

قال: من الجنون أن تطلب الفرح واللذة والسـعادة فيمن هـذا حال حبه.

قلت: فما البديل لذلك؟

قال: الحب الذي لا يأتيك منـه إلا الفـرح والسـعادة والرضـى.. ذلك الحب الكامل الذي تجتمع فيه جميع لـذات المحـبين، وتمـوت عنده جميع هموم العاشقين..

ذلك الحب الذي يملأ جميع أركان القلب، ويستغرق جميع زوايـا الوجدان..

ذلـك الحب الـذي يتوحـد فيـه الإنسـان، فبشـارك فيـه العقـل القلب، وتنسجم النفس فيه مع الجسد.

قلت: أين هذا الحب؟.. لقد نذرت حياتي جميعا للحب، فلم أجد حبا بهذا الوصف.

قال: ذلك الحب لا يتحقق إلا في الحب المقـدس.. فهـو الحب الوحيد الذي تجتمع عنده كل هـذه الخصـائص.. لقـد عـبر عن تلـك

الكمالات اللذيذة من ذاقه، فقال:

كـان يسـبى القلب فى كـل ليلـــــــــه ثمـــــــانون
بـــل تســـعون نفســاً وأَرجح

يهيم بهــذا ثم يــألف غــيره وقـد كـان قلـبى ضـائعاً قبـل حبكم
ويسلوهم من فوره حين يصبح فكان بحب الخلق يلهو ويمـرح

فلمـا دعـا قلـبى هـواك أَجابه وإِن كنت فى الـــدنيا بغـــيرك
فلسـت أَراه عن خبائـك يـبرح كاذبـــــــــــــــاً أَفـــــــــــــــرح

وإِن كـان شـيء فى الوجـود سـواكم يقرَّ بـه القلب الجـريح ويفـرح

إِذا لعبت أَيدى الهوى بمحبكم فإِن أَدركته غربة عن ديـاركم وكم مشـتر فى الخلـق قـد ســـــــــــــام قلبه
فليس لـه عن بـابكم مـتزحزح فحبكم بين الحشـا ليس يـبرح فلم يـــره إِلا لحبـــك يصـــلح

هـــوى غـــيركم نـــار تلظى وحبكم الفردوس أَو هـو أَفسح ومحبس
فيـا ضـيم قلب قـد تعلـق غـــــــــــــــيركم ويا رحمـة ممـا يجـول ويكـدح

وقال آخر يذكر توحد لطائفه على محبة الله:

أروح وقـــــد ختمت على فـــــــــــــؤادي بحبـك أن يحـل بـه سـواكا
فلو أني استطعت غضضـت طـــــــــــــــرفي فلم أبصــر بــه حــتى أراكا
أحبـك لا ببعضـي بـل بكلي وفي الأحبـاب مختص بوجد إذا اشـــتبكت دمـــوع في خـــــــــــــــدود
وإن لم يبق حبك لي حراكا وآخر يـدعي معـه اشـتراكا تـبين من بكى ممن تبـاكى
فأما من بكى فيذوب شوقا تبـــــــــــــــاكى وينطــق بــالهوى من قــد

وقد عجز العـارفون الـذين رزقهم اللـه هـذا الحب الكامـل عن التعبير عن مقداره، فذكروا بعض النسب للدلالة عليه، كما فعل أبو سليمان الـداراني حين أخـبر عن همـة العـارفيين، فقـال: (إن للـه

عباداً ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟)

أو عندما سئل معروف الكرخي عن الهمة التي دفعته إلى الإرادة والمجاهدة والتبتل، فسكت معروف، ليترك للسائل مجالا للتخمين، قال السائل : ذكر الموت، فقال معروف: وأي شيء الموت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا.

أو عندما سأل الثوري رابعة: ما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه، وقالت:

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهْلٌ لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

قلت: حدثتني حديث المواجيد، فحدثني حديث العقل.. ألم تزعم انسجام هذا الحب مع العقل؟

قال: صدقت.. أجبني.. ما الذي جعل قلبك ينجذب كل الانجذاب لكل من أحببت؟

قلت: أشياء كثيرة لا أكاد أحصيها.. بل لا أكاد أعرفها.

قال: لكن العارفين الخبراء الذين أطلعهم الله على أسرار القلوب عرفوها، وحاولوا إحصاءها، وقد وجدوا أنها مهما تشعبت لا تعدو ثلاثة.

قلت: فما هي؟

قال: **أولها** حب الإنسان لنفسه، فالمحبوب الأوّل عند كل حي: نفسه وذاته.. هذه سنة الله.. و لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً)(فاطر: من الآية43)

قلت: ما تعني بحب الإنسان لنفسه؟

قال: كل إنسان فطر على حبه لدوام وجوده، وعلى النفور من عدمه وهلاكه، (فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل، لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرّد الحذر من

سكرات الموت، بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غـير ثـواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لـذلك، ولا يحب المـوت والعـدم المحض إلا لمقاســاة ألم في الحيــاة، ومهمــا كــان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء، فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب)(1)

وكما أن الإنسان يحب أصل وجوده ودوامـه، فإنـه كـذلك يحب كمال وجوده، لأن الناقص فاقد للكمال، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه.

وهو لذلك يحب كل مـا يكمـل هـذا الوجـود، فهـو يحب سـلامة أعضائه، ويحب ماله وولده وعشيرته وأصدقاءه، وكل ذلك لتوقــف كمال وجوده عليها.

فحبه لولده ـ مثلا ـ وإن كان لا يناله منه أي حظ، بل قد يتحمل المشاق لأجله يرجع لاعتقاده بأنه سيخلفه في الوجود بعد عدمه، (فيكون في بقاء نسله نوع بقـاء لـه، فلفـرط حبـه في بقـاء نفسـه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجـز عن الطمـع في بقاء نفسه أبداً)

ومثل ذلك حبه لأقاربه وعشيرته، (فإنه يـرى نفسـه كثـيراً بهم قويـاً بسـببهم متجملاً بكمـالهم، فـإنّ العشـيرة والمـال والأسـباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان، وكمال الوجود ودوامـه محبـوب بالطبع لا محالة)

قلت: عـرفت هـذا.. وأحسـب أن الكـل يعرفـه.. فلا أحـد من الناس يجادل في حبه لنفسه.. بل إن الكثير يجمح بـه حبـه لنفسـه إلى الأنانية المقيتـة، والأثـرة البغيضـة.. ولكن كيـف ينسـجم الحب المقدس مع هذا.. بل كيف يكون مقدسا، وهو يرعى مثل هذا؟

قال: الحب المقدس هو الحب الذي يـراعي الفطـرة، وسـلامة الفطرة.. فلا ينكسها ولا يعكسها.. وهـو لـذلك يـرعى هـذه الناحيـة ويهذبها ويعطيها البديل الذي تكف به عن كل شطط أو جموح.

قلت: كيف يجتمع له كل هذا؟

قال: لأن من عرف نفسه وعـرف ربـه علم (أنـه لا وجـود لـه من ذاته، وإنما وجـود ذاتـه ودوام وجـوده وكمـال وجـوده من اللـه وإلى الله وباللـه، فهـو المخـترع الموجـد لـه وهـو المبقي لـه وهـو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسـباب، وإلا فالعبـد من حيث ذاتـه لا

1() الإحياء:4/297.

وجود له من ذاته، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد)(1)

ثم هو بعد هذا الوجود المستفاد من الله هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء، ثم هو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، فليس في الوجود من يقوم بنفسه إلا الله الذي هو قائم بذاته، وكل ما سواه قائم به.

فلهذا إذا أحب العاقل ذاته أحب من يقوم بها، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، فالمحبة ثمرة المعرفة تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها.

ومثال هذا المبتلى بحرّ الشمس، فإنه لما كان يحب الظل، فإنه بالضرورة يحب الأشجار التي بها قوام الظل، (وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإنّ الكل من آثار قدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر﴾ (2)

قلت: عرفت الأول، ووعيته، فما **الثاني**؟

قال: حب الإنسان لمن أحسن إليه.

قلت: صحيح هذا، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، وقد قال في ذلك شاعرنا:

وَقَيَّدْتُ نفسي في ذراك محبةً ومن وجدَ الإحسانَ قيداً تقيدا

وقال الآخر:

أحسنْ إلى الناسِ تَسْتَعبِدْ قلوبَهمُ فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

من جادَ بالمالِ مالَ الناسُ أَليه والمالُ للإنسانِ فتانُ قاطبةً

قال: لقد قال نبينا ﷺ مشيرا إلى هذا السبب:(إن استطعت أن لا يكون لفاجر عندك يدا فافعل)(3)

وكان مما يقوله ﷺ في دعائه :(اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يدا ولا نعمة، فإني وجدت فيما أوحيته إلي :﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

1() الإحياء: 4/301.
2() الإحياء: 4/301.
3() الفردوس بمأثور الخطاب.

(المجادلـة: من الآية22)[4]– ففي هـذا إشـارة إلى أن حب القلب للمحسن حب اضطراري لا يسـتطاع دفعـه، وهـو جبلـة وفطـرة لا سبـيل إلى تغيـيرها.

قلت: ألا ترى أن هذا السبب هو عين السبب السابق؟

قال: ذلك صحيح، فالإحسـان سـبب إلى دوام الوجـود وكمـال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود.. لكن بينهمـا ــ مـع ذلك ـ فرقا.. فالحب في السبب الأول ذاتي، بينما هو تبعي في هذا السبب، (ففرق كبير بـين حب الصحة وبــين حب الطبــيب الـذي هو سبب للصحة، إذ الصـحة مطلوبـة لـذاتها والطبــيب محبـوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبـوب لذاتـه والأسـتاذ محبـوب لكونـه سـبب العلم المحبوب، وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة، لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام)[1]

فالفرق بين هذه المحبوبات راجع إلى الدرجـة الـتي تحلهـا من القلب، وكلها من حيث مصـدرها ترجـع إلى حب الإنسـان لنفسـه، (فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاتـه تحقيقـاً بـل أحب إحسـانه، وهـو فعـل من أفعالـه لـو زال زال الحب مـع بقـاء ذاتـه تحقيقاً، ولـو نقص نقص الحب ولـو زاد زاد، ويتطـرّق إليـه الزيـادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه)

قلت: وعيت هذا.. ولا أحسب أني أخالفك فيـه.. فكيـف اكتمـل هذا السبب في الحب المقدس؟

قـال: بـل لم يكتمـل هـذا السـبب، بـل لم يوجـد إلا في الحب المقدس.. فليس هناك من نعمة في الوجود إلا واللـه سـببها الأول والمباشر.. فالله هو المحسن الوحيد، وكل من عداه محسن إليه.. لقد قال الله تعالى يذكر ذلك :﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَـةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّـرُّ فَإِلَيْـهِ تَجْـأَرُونَ ﴾ (النحـل:53)، وأخبرنـا عن اسـتحالة عده لنعمه علينا، فقال: ﴿ آَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (ابراهيم:34)

قلت: كيف يكون الله هو المحسـن الوحيـد.. ونحن نـرى الكـل يمارس هذه الوظيفة؟

قال: أرأيت لو أن ملكا من الملوك أمر بعض خدمـه بـأن يهبـك ما تشاء من الأموال والقصور وأنواع المتاع.. أكنت ترى تلـك النعم

4() رواه أبو أحمد العسكري.

1() الإحياء: 4/298.

من الملك، أم من ذلك الخادم البسيط الذي لم يقم إلا بما أمره به الملك؟

قلت: بل أرى كل تلك النعم من الملـك.. أمـا الخـادم فليس إلا عبد مأمور.. ولو أن الملك أمره بقتلي لفعل؟

قال: فهكذا كـل الخلائـق الـتي تراهـا منعمـة عليـك.. هي في الحقيقة وسائط الجود لا عين الجود.

قلت: عرفت الثاني، ووعيته، فما **الثالث**؟

قال: الجمال.

قلت: لن يجادلـك أحـد في هـذا.. فلـولا الجمـال مـا سـقطت القلوب في أودية الهوى..

قال: لقد ذكر الله تعالى هذا، فذكر عن امرأة العزيز أن قلبهـا قد امتلأ بحب يوسف حتى صارت لا تملك من أمرها شيئا، ثم ذكـر جماله وتأثيره في النسوة، فقال: فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف:31)

قلت: فالقرآن يقر به، فكيف تنكره أنت؟

قال: أنا لا أنكره.. ولكني أنكر أن يرضى الإنسـان بحبس قلبـه في قفص العيون النجل، أو الخدود المتوردة، أو يرضـى أن يشـنق بالشعر الأشقر المبسوط..

قلت: فما المخرج من ذلك؟

قـال: الحب المقـدس.. الحب المقـدس هـو الوحيـد الـذي لا يصلح القلب إلا به، ولا تكمل مطامح الإنسان في الفـرح الخالـد إلا به.

قلت: وما عداه؟

قال: أنت ترى وأنت تسمع.. ولا شك أنك ذقت..

ثم أخذ ينشد:

أيـا رُبَّ وجـهٍ في الـترابِ ... ويـا ربَّ حُسْـنٍ في الـترابِ
عـــــــــــــــتيقِ ... رقيـــــــــــــــــقِ
ويـاربَّ حـزمٍ في الـترابِ ... ويـا ربَّ رأيٍ في الـترابِ
ونجـــــــــــــــدةٍ ... وثيـــــــــــــــــقِ
أرى كُـلَّ حيٍّ هالكـاً وابنُ ... وذا نســبٍ في الهـالكينَ
هالـــــــــــــــكٍ ... عريـــــــــــــــــقِ
فقـلْ لقـريبِ الـدارِ : إنـكَ ... إلى مـنزلٍ نـائي المحـلِّ

ظـــــــــــــــــاعنٌ ســـــــــــــــــــحيقِ

قلت: أنت تشير إلى الهلاك؟

قال: وأشير قبله إلى الذبول.. ألم تر تلك الـورود الـتي امتلأت بها الساحات في عيد الحب.. كيف تحولت في المساء إلى هشـيم لا ترضاه العين، ولا يقبل عليه القلب؟

قلت: بلى..

قال: ولهذا، فإن القرآن الكريم ينهى عقولنا وقلوبنـا أن تتعلـق بالفاني والذابل والهالك.. لقد قال الله تعالى يشير إلى الـدنيا بكـل مـا فيهـا من الحسـناوات :﴿ وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَـلَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا كَمَـاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّـمَاءِ فَاخْتَلَـطَ بِـهِ نَبَـاتُ الْأَرْضِ فَأَصْـبَحَ هَشِـيماً تَـذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ (الكهف:45)

قلت: فما الذابل، وما الهالك، وما الفاني؟

قال: كل ما أسر المحبين من ذلك الجمال المغشوش.. الـذي هو أقرب إلى السراب منه إلى الماء..

سـكت قليلا، ثم قـال: لاشـك أنـك مـررت في رحلتـك بجميـل وعروة وقيس وكثير.. وغيرهم كثير.

قلت: أجل.. لكأنك كنت معي في رحلتي..

قال: لقد كنت معك.. وكنت جميع أولئك.. لكني سألت نفسي، وقلت: أرأيت لــو أن المجنــون لم يــر ليلى إلا بعــد أن عمــرت، وصارت عجوزا شـمطاء.. أكـان يكن لهـا كـل ذلـك الحب، أو كـان يمكن أن يجن بسببها.. أو كان يمكن أن يرضى بها زوجا؟

ابتسمت، وقلت: حينذاك سيجن أيضا.. لكن لا بسبب حبـه لهـا، بل بسبب بغضه لها.. ألم تسمع قول الشاعر:

إن العجـوزَ فـارِكٌ ضـجيعَها تسيلُ من غير بكىً دموعُها

تمـــدِّدُ الوجـــهَ فلا يطيعُها كـأن من يضـيفُها يضـيعها

وقول الآخر:

لا تنكحَنَّ عجـــوزاً إن أتيتَ واخلعْ ثيابكَ منها ممنعاً هربا بها

وإن أَتَوْكَ فقالوُا إنها نَصـفٌ فإن أمثلَ نصفَيها الذي ذَهَبا

قلت: سلمت لك بهذا، فكل جمال سيذبل لا محالة.

قال: ومن الغبن أن تحب ما يذبل.. لأن قلبك سيذبل مثـل مـا يذبل من تحبه.

قلت: وهل هناك شيء لا يذبل؟

قال: الجمال المقدس عن الدنس.. الجمال الذي لا تغير عليـه

الأيام والليالي.. ولا تكر عليه جحافل المرض والهرم.

قلت: ولكنا تعودنا على أن لا نرى الجمال إلا في تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشرباً بالحمرة وامتداد القامة وغير ذلك..

قال: لا.. هذا لا يقوله إلا المحبوس في سجن الخيالات.

قلت: كلنا سجين الخيالات..

قال: ومع ذلك فإن عقولنا تتحرر في أحيان كثيرة من هذه السجون.. بل ترانا نذم ما أطبقت العيون على حسنه.

ألم تسمع شاعركم، وهو يقول:

لا خَيْرَ في أوجهٍ صِباحٍ تسفرُ عن أنفسٍ قباحِ
كالجُرْحِ يُبْنى على فَسادٍ يظاهرِ ظاهرِ الصَّلاحِ
فقُلْ لمن مالُه مصونٌ أُصِيْتَ في عِرْضِكَ المباحِ

قلت: بلى.. وقد سمعت قول الآخر:

على وَجْهِ مي مسحةً من ملامحٍ وتحتَ الثيابِ الشينُ لو كان باديا
ألم ترَ أن الماءَ يخبثُ طعمُهُ وإن كانَ لونُ الماءِ أبيضَ صافيا

وقول الآخر:

لا تغتررْ بهوى الملاحِ فربما ظهرتْ خلائقُ للملاحِ قباحِ
وكذا السيوفُ يرون حِسنَ صِقالها وبَحدِّها تتخطف الأرواحُ

قال: فالجمال أعمق إذن من أن ينحصر في مضيق الخيالات.

قلت: ذلك صحيح.. ولكن ما الذي جعلنا نحصره في مضيق الخيالات؟

قال: أشياء كثيرة.. لا يمكننا حصرها.. لعل أهمها هو الفراغ الذي يجده القلب، فيعشق أول من يصادفه.. إنه يفعل نفس ما تفعله المعدة الجائعة حين تبحث عن أي طعام يقابلها لتملأ نهمها به.

قلت: أهكذا الحب؟

قال: هكذا الحب المدنس.

قلت: والحب المقدس؟

قال: إن القلب المترفع الذي هو محل الحب المقدس يترفع أن يستسلم لأي إغراء من أي جهة من الجهات.. إنه لا يقبل إلا بالجمال الذي لا يذبل، والصفاء الذي لا يكدر.

قلت: فأين نجد هذا؟
قال: الله.. الله هو البـديع والجميـل الـذي لا يسـكن القلب ولا يستقر إلا في محبته.
قلت: ولكنا لم نر الله.
قـال: لم نـره بأبصـارنا القاصـرة.. ولكنـا يمكن أن نـراه بكـل لطائفنـا.. بـل يمكننـا أن نصـحبه.. ويكفي ذلـك لأن نمتلئ عشـقا لجماله.
قلت: لا يزل ذهني كليلا دون فهم هذا.
قال: ألسنا نقول في أحاديثنـا :(هـذا خلـق حسـن.. وهـذا علم حسن.. وهذه سيرة حسنة.. وهذه أخلاق جميلة)؟
قلت: بلى.. وصـدقنا في ذلـك.. فنحن نستشـعر جمـال هـذه الأشياء.
قـال: ألسـنا نشـعر بجاذبيـة تربطنـا ببعض النـاس ممن التهم أجسادهم التراب؟
قلت: بلى.. فنحن نحب الكرمـاء والرحمـاء والعلمـاء والأدبـاء.. الذين لا تحلو المجالس إلا بذكرهم، ولا المصنفات إلا بأخبارهم، ولا الحياة إلا بعطر أزهارهم.
قـال: فكيـف بمن جمـع كـرم الكرمـاء وحلم الحلمـاء وعلم العلماء.. ولم تكن في هـذا الكـون مكرمـة ولا فضـل ولا جمـال إلا منه وبه وله؟
قلت: أيوجد مثل هذا؟
قال: بل إن وجود هذا هو الوجود الحقيقي الواجب.. ومـا عـداه ظلال.
قلت: أين؟
قال: الله.. فالله هو الجميل الـذي حـوى كـل جمـال، والكـريم الذي حوى كل كرم، واللطيف الذي حوى كل لطف، والبـديع الـذي حوى كل بديع.. ولو ظللنا على مقدار الأنفاس تعدد كمالات الله ما انتهينا.. لقد قال الشاعر الصالح يذكر ذلك:

ومـع تفنن واصـفيه بمدحه يفـنى الزمـان وفيـه مـا لم يوصف

الحضور :

قلت: وعيت هذا، فحدثني عن **الحضور**.. ما مرادك منه؟
قال: ألم تر أولئك الذين شربوا من خمرة الحب المدنس كيف انشغلوا عن لطائفهم وعن حيـاتهم وعن جميـع مـا وكـل إليهم من

مسؤوليات؟

قلت: بلى.. لقـد رأيتهم منشـغلين بـذكر من أحبـوهم.. فهم غائبون بهم عمن سواهم.

قال: الحياة لا تستقيم بذلك.. الحياة لا تستقيم إلا بالحضور.

قلت: لم أفهم مرادك من الحضور.

قال: لقد خلق الله الموازين.. فقال تعالى :﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9)﴾(النجم)، وقال تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)﴾ (الحديد)

قلت: ما علاقة الموازين بالحضور؟

قال: لقد خلق الله الحياة وكل ما في الحياة لرسالة معينة.. ولا يمكن أن تستقيم الحياة إلا بأداء تلك الرسالة.. فلذلك كان كل شاغل عنها حجابا خطيرا يتدنس به الإنسان، وتتدنس به الحياة.

قلت: ولكن المحب لا يمكن أن يحب إلا بعد أن يغيب في جمال محبوبه عن كل حضور.

قال: إلا محب الله.. فإن الله لا يغيب.. وفي كل حركة من حركات العبد.. وفي كل سكنة من سكناته رسالة من الله إليه.. والعبد المحب هو الذي يفك رموزها.. ليسير من خلالها إلى الله.

لقد قالت رابعة تذكر هذا:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

الحقيقة:

قلت: وعيت هذا، فحدثني عن **الحقيقة**.. فقد سئمت من أوهام الحب.

قال: لا حقيقة إلا في الحب المقدس.. أما ما عداه، فوهم وسراب.. ألم يقل شاعركم:

الحبُّ يَذْهَبُ بالفوارقِ كُلِّها ... ويجيبُ الشقراءَ والسمراءَ

ويجمِلُ الشوهاءَ حتى لا ترى ... عينُ المحبِ حبيبةً شوهاءَ

قلت: بلى.. وقد رأيت قبله بديارنا ببني عذرة المجنون، وهو

يمر على ديار ليلى يقبل جدرانها، ويقول:

أمـرُّ على الـديارِ ديـارِ ليلى أقبلُ ذا الجـدارَ وذا الجـدارا
وما حبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلبي ولكن حبُّ من سَكَنَ الديارا

بل سألته مـرة، فقلت لـه: أي شـيء رأيتـه أحب إليـك؟ قـال: ليلى.. قلت له: دع ليلى، فقد عرفنا مـا لهـا عنـدك، ولكن سـواها، قال: والله ما أعجبني شيء قط فذكرت ليلى إلا سقط من عيـني، وأذهب ذكرها بشاشـته عنـدي، غـير أني رأيت ظبيـاً مـرة فتأملتـه وذكرت ليلى فجعـل يـزداد في عيـني حسـناً، ثم إنـه عارضـه ذئبٌ وهرب منه فتبعته حتى خفيا عني فوجدت الذئب قد صـرعه وأكـل بعضه، فرميته بسهم فما أخطأت مقتله، وبقرت بطنه فأخرجت ما أكل منه، ثم جمعته إلى بقية شلوه، ودفنته وأحرقت الذئب، وقلت في ذلك:

أبى اللـــــــه أن تبقى لحي فصبراً على مـا شـاء اللـه لي
بشاشـــــــــــــــةٌ صـــــــــــــــبرا
رأيت غــزالاً يرعــتي وســط فقلت أرى ليلى تــراءت لنــا
روضـــــــــــــــةٍ ظهـــــــــــــــرا
فيا ظـبي كـل رغـدا هنيئـاً ولا تخف فإنك لي جارٌ ولا ترهب الدهرا
وعنــدي لكم حصــنٌ حصــينٌ وصـــــــــــــــارمٌ حسامٌ إذا أعملته أحسن الهبرا
ما راعني إلا وذئبٌ قـد انتحى والظفـــــــــــــــرا فــأعلق في أحشــائه النــاب
ففــوقت ســهمي في كتــوم غمزتها فخالط سـهمي مهجـة الـذئب والنحـــــــــــــــرا
فـأذهب غيظي قتلـه وشـفى جـــــــــــــــوىً بقلبي إن الحر قد يدرك الوترا

ثم رأيت بعدها آخر، وهو يقول:

وإني ليرضـيني الممـر ببابها وأقنـــع منهـــا بالشـــتيمة والزجر

بل رأيت بعدها آخر، وقـد بلـغ بـه الجنـون عتـوه، وهو يصيح:

لو حز بالسـيف رأسـي في محبتها لطـار يهـوي سـريعا نحوهـا رأسي

قـال: لقـد كنت أقـول مثـل هـؤلاء إلى أن عـرفت الحقيقـة، فمسحت عن عيني كل وهم..

قلت: وما عرفت؟

قال: عندما امتلأ قلبي بحب الغواني قـرأت كلمـة في القـرآن الكريم رفعت عني كل ذلك الوهم.

قلت: كلمة واحدة!؟

قال: أجل.. كلمة واحدة رفعت كل تلك الزخـارف الـتي زينت بها أوهام الحب.

قلت: فما هي؟

قال: (**زُيِّنَ**).. فهذه اللفظة القصيرة في مبناهـا العظيمـة في معناها دلتني على الحقيقة..

قلت: أي حقيقة؟

قال: إن كلمة (زُيِّنَ) تشير إلى أن ذلك المـزين قـد كسـي من الأثواب، ووضع عليـه من المسـاحيق مـا أحالـه حسـنا وجميلا، وإن كان في أصله قبيحا ودميما، فالمزين ليس جميلا بالضرورة.

ولهذا يـبين القـرآن الكـريم كثـيرا من مظـاهر الـتزيين الـتي لا تتناسب مـع كـل الأذواق، ولكن القلـوب المسـتعدة لـذلك الـتزيين تتناسب معها وتفرح بها وتتعجب ممن لا يتذوق حلاوتها.

ومنها تلك القلـوب الـتي أودعت فلـذات أكبادهـا جـوف الـثرى مخافة أن تقتسم معها لقمة العيش أو مخافة السـبة والعـار، وهي تبتسم فرحا، وكأنها تخلصت من وزر ثقيـل ينـوء بـه ظهرهـا، قـال تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنْ الْمُشْـرِكِينَ قَتْـلَ أَوْلَادِهِمْ شُـرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَـا فَعَلُـوهُ فَـذَرْهُمْ وَمَـا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام:137)

ومنها التي استحلت ألسنتها الطافحة بـألوان الخبث سـب اللـه تعالى وكأنه حلوى لذيذة أو فاكهة شهية، وقد نهي المسـلمون عن سبهم أو مناقشتهم في ذلك لأن حلاوة الكفر قـد تشـربتها قلـوبهم وذاقت لذتها وتمكنت منها، وفرق كبير بين مجرد الكفر وبين الكفر المزين في القلب، ولهذا يكون أبعد الناس عن اتباع الرسل رجـال الـدين الـذين اسـتحلوا صـناعة التـدين وتمكنت من قلـوبهم، قـال تعـالى :﴿ وَلَا تَسُـبُّوا الَّذِينَ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُـبُّوا اللَّهَ عَـدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:108)

ومنها القلوب المصرة العنيدة التي تحملت لأواء الشـدائد وهي

تقبض ألسنتها بشدة عن دعاء اللـه اسـتغناء عن اللـه وترفعـا عنـه كما يقبض اللئيم يده عن الكريم حسـدا وتعاظمـا واسـتنكافا، قـال تعالى :﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:43)

ومنها القلوب التي ينقل القرآن الكريم عجب الهدهد منها، وهو الحيـوان الصـغير الضـعيف صـاحب الجمجمـة الصـغيرة والطاقـة الفكرية الضعيفة حين رآها تعفر الـثرى لمخلـوق مثلهـا، لم يخطـر على باله قط وهو الحيوان أن هناك من يبيع اللـه بأشـعته الحارقـة أو الدافئة، قال تعالى :﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ فَصَـدَّهُمْ عَنْ السَّـبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل:24)

والخلاصـة الـتي يعطيهـا القـرآن الكـريم في ذلـك هي أن كـل الانحرافات التي وقعت فيها الـديانات والمـذاهب والنفـوس مزينـة وليست زينة، فهي محسنة بأنواع الحلي والمساحيق والحلل، بينمـا تبرز الدمامة بكل مظاهرها والبشاعة بكل صورها لكل من انشغل بالحقيقة عن المظهر، ولم تنسه نشـوة الفـرح الكـاذب مـا تخفيـه الصور.

قلت: مـا دام الأمـر هكـذا، فكيـف نمـيز بين الزينـة الحقيقيـة والزينة المزيفة؟

قال: كل زينة أسـرتك، أو ألهتـك عن حقيقتـك، أو أبعـدتك عن الوجود، أو وضعت الحجب بينك وبين ربك زينة مزيفة..

قلت: فكيف أميز بين الحقيقة والوهم؟

قال: بالبصيرة الإيمانية النافذة الـتي كـانت مركبـة في عقـول الذين آمنوا عندما مر بهم قـارون، وهـو في مـوكب الزينـة يسـلب الألباب وينشر الحسد والغبطة.

لقد نقل لنا القرآن الكريم بدقة صورة ذلـك المـوكب، وصـورة النفوس التي كانت تلتف به، قال تعـالى :﴿ فَخَـرَجَ عَلَى قَوْمِـهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ وَقَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللَّهِ خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (القصص:80)

والخلاف الذي وقـع بين هـذين الفـريقين ــ كمـا ينقلـه القـرآن الكريم ـ ليس في أصل الزينة، فكلا من المؤمنين والـذين يريـدون الحياة الدنيا يبصرونها وتشتهيها أنفسهم، لكن الفرق بينهمـا حصـل فيما بعد الزينة وما خلفها، فالمؤمنون كانوا يشاهدون بعيونهم آثـار

تلك الزينة المؤقتة الملطخة بآلاف العيوب، ولعل أقلها فرح صاحبها بها وانشغاله بها عن ربه، بينما الذين يريدون الحياة الدنيا كانت أعينهم عميا عن إبصار المدى البعيد الذي يبصره المؤمنون.

ولهذا يصور القرآن الكريم الذين لا يؤمنون بالآخرة بصورة الأعمه المتردد الحائر بين نوازع نفسه الكثيرة المتناقضة، قال تعالى يصور هذه الحيرة :﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (النمل:4)

الاستقامة:

قلت: وعيت هذا.. فحدثني عن **الاستقامة**.. فقد رأيت من ضحايا انحرافات الحب ما ملأني بغضا له.

قال: ذلك الحب المدنس.. فالقلب الذي دنس بالأوهام، واكتحلت عينه بها، لا يمكنه أن يبصر الطريق، فكيف يمكنه أن يستقيم عليها.

قلت: والحب المقدس!؟

قال: ليس هناك في الوجود من يحرك القلوب والعقول والجوارح وجميع اللطائف مثل هذا الحب.. لقد أشار إلى هذا أولياء الله وورثة النبوة.. فعن صادق آل محمد ﷺ أنه قال: (حبّ اللّه إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل وكلّ ذكر سوى اللّه، و المحبّ أخلص الناس سرّا للّه وأصدقهم قولا وأوفاهم عهدا وأزكاهم عملا وأصفاهم ذكرا وأعبدهم نفسا يتباهى به الملائكة عند مناجاته وتفتخر برؤيته، وبه يعمر اللّه تعالى بلاده وبكرامته يكرم اللّه عباده، يعطيهم إذا سألوه بحقّه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، فلو علم الخلق ما محلّه عند اللّه و منزلته لديه لما تقرّبوا إلى اللّه إلّا بتراب قدميه)

قلت: كيف يكون لحب الله كل هذه السطوة.. وأين ذهبت النفس الأمارة بالسوء؟ وأين ذهب الشيطان الرجيم المشغوف بالوسوسة؟

قال: أليس المحب مطيعا لمحبوبه؟

قلت: بلى.. بل إن كل المحبين يزعمون أنهم على دين من أحبوا.. وقد قال في ذلك رجل منا:

إنَّ هَـــوَاكَ الَّذِى بِقَلـــبى صَـــيَّرَنِى سَـــامِعاً مُطِيعَا

وقال آخر:

كنْ إذا أحبَبْتَ عبـــــــداً للـــــذي تَهـــوى مطيعا

لن تنـــالَ الوصـــلَ حـــتى تلـــزم النفسَ الخضـــوعا

وقال آخر:

اخضـــــــع وذل لمن تحب فليس في ويعقد شـرع الهـوى أنـف يشـال

وقال آخر:

مساكين أهل العشـق حـتى قبـــــــــــــــورهم عليهـــا تـــراب الـــذل بين المقـــــــــــــــابر

وقال آخر:

قالوا عهدناك ذا عــز فقلت لهم لا يعجب النـــــاس من ذل المحبينا

لا تنكروا ذلة العشــاق إنهم راضـــــــــــــــونا مســـتعبدون بـــرق الحب

قال: وبمـا أن من أحبـوا لا دين لـه لم يكن لهم دين.. ومن لم يكن لـه دين لم يكن لـه خلـق.. ومن لم يكن لـه خلـق لم تكن لـه استقامة.

قلت: والحب المقدس!؟

قال: ذلك عين الاسـتقامة.. فلا يحـرك الاسـتقامة مثـل الحب.. فالله لا يحبه إلا المستقيمون.. ومحبة الله لا تورث في أصـحابها إلا الإستقامة.. لقد أشار القرآن الكريم إلى ذلـك، فقـال تعـالى :﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)(المائدة: من الآية54)

قلت: فما الذي يحرك فيهم الاستقامة؟

قـال: لقـد عـرفت أن المحب هـو الـذي يسـعى في مرضـاة محبوبه، حتى لا يراه إلا في أحسن أحواله.

قلت: بلى.. وقد ذقته.

قال: لقد ذكر لنا ربنـا مـا يحبـه، ومـا يبغضـه، وأعلمنـا أننـا لن نظفر بمحبته ـ التي هي غاية الغايات ــ إلا إذا فـنى حبنـا في حبـه، ورضانا في رضاه.

فلذلك صِـرنا نحب الإحسـان، لأن اللـه يحب المحسـنين: قـال تعالى :﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة:195)

وصرنا نحب التوبة والطهارة، لأن الله الذي امتلأت قلوبنا بحبـه قال لنا :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)(البقرة: من الآية 222)

وصرنا نحب التقوى الحـاجزة عن معصـية اللـه، لأن اللـه قـال لنـــا :﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْــدِهِ وَاتَّقَى فَــإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل

عمران:76)

وصرنا نحب الصبر، ونتحمله، لأن الله قال لنا :﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:146)

وصرنا نحب التوكل على الله، لأن الله قال لنا :﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:159)

وصرنا نحب العدل، لأن الله قال لنا :﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)(المائدة: من الآية42)

وهكذا امتلأت قلوبنا وجوارحنا بكل خير.. لأن محبوبنا لا يحب إلا الخير، ولا يبغض إلا الشر.

الحياة:

قلت: وعيت كل هذا.. فحدثني عن **الحياة**.. فلم آت إلى هذه المقبرة إلا لأسلم نفسي إلى مشنفة الحب.

قال: الحب المدنس يسلمك إلى مشنقة الموت، أما الحب المقدس، فينفخ فيك من روح الحياة ما يملأك بالحياة.

قلت: لقد عرفت الشق الأول.. فحدثني عن الشق الثاني.

قال: أتدري ما سر الموت الذي يحمله الحب المدنس؟

قلت: لا.. لقد كنت غارقا إلى أذقاني في أوحاله.. ولعل ذلك ما أقعدني عن البحث في أسراره.

قال: هل تعرف دراكولا(1)؟

قلت: عندما تركت قومي من بني عذرة، وأتيت إلى هذه البلاد سمعت به.. وقد امتلأت خوفا من مهابته.. فهو من مصاصي الدماء.

قال: الحب المدنس هو دراكولا.. وهو جميع مصاصي الدماء.. ذلك أنه يريد أن يقضي على حياتك ليمد بها حياة من يحب..

قلت: ألم تكفه حياته حتى يمد أنيابه إلى حياتي؟

قال: وكيف تكفيه حياته، والموت يتهدده كل حين؟

قلت: فمن الغبن إذن محبة من يموت؟

قال: ومن الغبن التوكل على من يموت.. لقد قال الله تعالى :

1() دراكولا دراكيولا (بالإنكليزية: Dracula أو Drakula) رواية ألفها الكاتب البريطاني الإيرلندي برام ستوكر في 1897، وسميت باسم الشخصية الرئيسية فيها، مصاص الدماء الكونت دراكولا.

 وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ (الفرقان: من الآية58)

قلت: إن ما تقوله خطير.

قال: ما خطره؟

قلت: إن هناك أنواعا كثيرة من الحب الشريف.. وكلها تتعلق بموتى.

قال: كل حب لا يتصل بحي أو لا ينبع من حي لا يمكن أن ينشر الحياة، أو تنتشر به الحياة.

قلت: أنتم تذكرون حب نبيكم وحب الأولياء وحب المؤمنين.. بل تفرطون فتزعمون أنكم تحبون كل الكون، وتذكرون عن نبيكم قوله عن جبل أحد:(هذا جبل يحبنا ونحبه)(1)

قال: كل ذلك الحب فيض من حب الله.. فمن أحب الله أحب لا محالة من يحبه الله.. ألستم ترون:

رأى المجنون في البيداء فجر له من الإحسان ذيلا كلبا

فلاموه لذاك وعنفوه وقالوا:لم أنلت الكلب نيلا؟

فقال: دعوا الملامة إن رأته مرة في حي ليلى عيني

قلت: بلى.. ولكن ذلك المجنون.

قال: جنونه هو أنه صرف طاقة الحب فيه إلى ليلى.. وليلى لم تكن إلا ليلا من الوهم.. ولو أنه صرفها إلى النور لتجلى له كل شيء.. وامتلأ قلبه بالحياة التي لا حياة تضاهيها.

***

ما وصل صاحبي من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعت صائحا يصيح: يا سمنون(2).. أين كنت؟.. لقد ظللنا طول النهار

1() رواه البخاري ومسلم.

2() نشير به إلى سمنون بن حمزة، والذي يطلق عليه (سمنون المحب)، وقد كان من كبار العارفين المتحدثين في المحبة الإلهية، ومن أقواله :(أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه، وأول هجران العبد الحق مواصلته لنفسه)

وقال أبو الطيب العكي: ذكر لي أن سمنونا كان جالسا على شط دجلة، وبيده قضيب يضرب به فخذه حتى تبدد لحمه وهو يقول:

كان لي قلب أعيش به ضاع مني في تقلبه

رب فارددده علي فقد ضاق صدري في تطلبه

وعن محمد بن حمادن قال: رأيت سمنونا وقد أدخل راسه في زرمانقته، ثم أخرج رأسه بعد ساعة وزفر وقال:

تركت الفؤاد عليلا يعاد وشردت نومي فما لي رقاد

نبحث عنك؟

لست أدري كيف رميت ما كان معي من أدوية الموت.. ثم صحبته.. وقد رأيت فيه القلب الكبير الذي امتلأ بالمحبة الخالصة الصادقة الخالدة.. وقد أزحت بصحبته كل ما امتلأ به قلبي من أدران الدنس الذي علق بي من آثار الحب المدنس.

قلنا: فكيف ظهر لك أن تفارقه؟

قال: أنا لم أفارقه.. لكنه هو الذي فارقني.. وما أتيت إلى هذه البلاد إلا لأبحث عنه.

قلنا: ما الذي تقصد؟

قال: لقد سمعنا في تلك الأيام بأنباء فتنة تريد أن تجتث أصول الشجرة التي غرسها محمد.. وأن بداية الاستئصال ستكون من هذه البلاد.. فلذلك رحل سمنون إليها، وقدمت هنا لأبحث عنه، فلم تعد لي حياة إلا بصحبته.

قلنا: فقد أسلمت إذن؟

قال: لقد كنت أقرب الناس إلى الإسلام.. ولكن جبالا من الحديد والزنك والرصاص لا تزال تحول بيني وبين إعلان إسلامي.. ولست أدري لم، ولا كيف.

قال ذلك، ثم طأطأ رأسه، واستغرق في صمت عميق، لم نشأ أن نخرجه عنه.

ومن أشعاره في المحبة الإلهية قوله:

وكان فؤادي خالي قبل حبكم ... وكان بذكر الخلق يلهو ويمرح

لفما دعا قلبي هواك أجابه ... فلست اراه عن فنائك يبرح

رميت بين منك إن كنت كاذبا ... وإن كنت في الدنيا بغيرك افرح

وإن كان شيء في البلاد بأسرها ... إذا غبت عن عيني لعيني يملح

ومنها قوله:

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم ... تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

أديرت كؤوس للمنايا عليهم ... فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكر

همومهم جوالة بمعسكر ... به أهل ود الله كالأنجم الزهر

فأجسادهم في الأرض قتلى بحبه ... وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسرى

ثالثا ـ العقل

في اليوم الثالث، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. اعذروني، لقد كنت أحمل أسماء كثيرة مستعارة مثل من سبقني، كنت أحاول بها أن أغطي حقيقتي التي كانت تعـذبني كـل حين.. لكن حقيقـتي أبت إلا أن تتمـرد علي، وتـذيقني في تمردهـا من الهوان ما لم أكن أحسب له أي حساب.

هنـاك جـوانت مشـرقة في قصـتي ممتلئـة بـالنور والسـلام والصفاء.. سأحدثكم عنها(1)..

ولكني لن أحدثكم عنها حتى تبصروا الصراع الذي كنت أعانيه.. وكانت جميع لطائفي تعانيه معي.

قلنا: حـدثنا أولا عن الأسـماء الـتي تسـميت بهـا.. فلا يمكن أن نعرفك من دون أن نعرف اسمك؟

قـال: لقـد تسـميت بأسـماء كثـيرة لا تكـاد تحصـى.. منهـا مـا تعرفون.. ومنها ما لا تعرفون.. منها سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وايبيكوروس، وسيكستوس ايمبيريكوس، وأوغسطين، وبويـتيوس، وأنسـيلم كـانتربوري، ووليـام أوكـام، وجـون سـكوت، وتومـاس الأكويني، وميتشل دي مونتان، وفرانسيس بيكون، ورينيه ديكارت، وسبينوزا، ونيكولاس ماليبرانش، وغوتفريد لايبنتز، وجورج بيركيلي، وجـون لـوك، وديفيـد هيـوم، وتومـاس ريـد، وجـان جـاك روسـو، وإمانويل كانت، وجورج ويلهيلم فريدريك هيغـل، وآرثـر شـوبنهاور، وكيرغيكارد، وفريدريك نيتشه، وكـارل مـاركس، وفريجـه، وألفريـد وايتهيـد، وبيرترانـد رسـل، وهـنري بيرغسـون، وإدمونـد هوسـرل، ولودفيج فيتغينشتاين، ومارتن هايدجر، وهانز جورج غادامير، وجون بول سارتر، وألبرت كامو و كوين..

ومنها دونالد ديفيدسن، ودانيال دينيت، وجيري فودور، ويـورجن هابرماس، وساول كريبكي، وتوماس كون، وتوماس نايجل، ومارثـا نوسباوم، وريتشارد رورتي، وهيلاري بوتنم، وجـون راولـز، ووجـون سيرل.. وغيرها كثير.

قلنا: من أي البلاد أنت؟

1()استفدنا الكثير من المعلومـات عن المـدارس الفلسـفية الـواردة في هـذا الفصـل ونقدها من كتب العلامة (آية الله العظمى السيد محمـد تقي المدرسـي) ككتـاب (الفكـر الإسلامي مواجهة حضارية).. وكتاب (المنطق الإسلامي: أصوله ومناهجه).. بالإضـافة إلى الكتب الـتي أرخت للفلسـفة ومدارسـها.. بالإضـافة للموسـوعة العربيـة العالميـة، والموسوعة اليهودية.

قــال: من كــل البلاد الــتي حنت إلى العقــل.. وامتلأت بــه.. وطلقت كل شيء من أجله.. لكنها في أوج غرورها لم تكتسـب إلا الأوهام.. ولم تظفر بغير السراب.

قلنا: كثيرة هي البلاد التي تحمل هذه الصفات..

قال: كلهـا بلادي الـتي نشـأت فيهـا وترعـرعت.. ومن أفكارهـا تغذيت.. من سمومها صليت.

قلنا: نقصد البلاد التي ولد فيها جسدك.

قال: لقد ذكر لي أبي أني ولدت بأثينة..

الصراع

السفسطة:

في تلـك الأيـام تتلمـذت على أول عقـل عرفتـه.. كـان اسـمه (**السفســـطة**).. وكـــان زملائي من التلاميـــذ يســـمون (**سفسطائية**)

قلنا: فحدثنا عنهم.

قــال: هم ثلاثــة طوائــف.. وهم ينتشــرون في كــل مكــان وزمان(1)..

أمــا أولاهم.. فيمكن أن نسـميها (العناديــة).. وهم المعانــدون الـذين لا يقـرون بـالحق لأهلـه مـع علمهم بـه.. لقـد عـرف قـرآن المسلمين منهجهم العقلي خـير تعريـف حين قـال : وَجَحَـدُوا بِهَـا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً (النمل: من الآية14)

وأما الثانية.. فيمكن أن نسميها (العِندية).. وهي طائفة ترى أن الحق كل الحق عندها وحدها.. وأن الباطل كل الباطل عند غيرها.

وأما الثالثة.. فاختارت أن تسمى (اللا أدريــة).. وهي الــتي تفــر من الحقيقة ومن البحث عنها ومن الإقرار لهـا بقولهـا كـل حين (لا أدري)

قلنا: فكيف بدا لهذه الطوائف أن تظهر للوجود؟

قـال: لقـد ظهـرت هـذه الطوائـف لـترد بكسـلها على الأهـواء الكثيرة التي حاولت أن تفسر الوجود وحقائق الوجود..

لقد ظهرت عندما رأت عجز الأفكار عن تفسـير النشـأة الأولى هل هى من ماء أو من تـراب.. أو من هـواء أو من نـار.. وظهـرت عنـدما عجـز الـدين الوثـنى السـائد فى بلادنـا حينـذاك عن تلبيـة

1() هكذا صنفهم ابن حزم (384 ـ 456 هـ)، فقد قسمهم إلى ثلاثة أصناف:1- صنف نفى الحقائق جملة.2- صنف شكّوا فيها.3- صنف قالوا هى حق عند مَنْ عنده حـق، وهى باطل عند مَنْ هى عنده باطل.

الفطرة الإنسانية.. فقد كان لكل ظاهرة كونية أو إنسانية إلـه يعبـد ويقـدس.. وظهـرت عنـدما عجـزت السياسـة، فسـلمت أمرهـا للحروب والمنازعات.

في هـذه الأجـواء ظهـرت السفسـطة كعجـوز كسـولة تقـول للجميـع: ليس هنـاك شـيء اسـمه الحقيقـة.. أو تقـول لهم: كلكم تحملون الحقيقة.

أذكر في ذلـك الحين أسـتاذا لي كـان اسـمه (بروتـاجوراس) (480 ق م- 410 ق م)، كانت فلسفته تدور حـول اعتبـار الإنسـان مقياسا لكل شيء.. فهو الذى يقرر وجود الأشياء.. وهو الذي يقـرر عدم وجودها.. لقد كـان يـردد كـل حين: (إن الإنسـان هـو مقيـاس الأشياء جميعا)

وكان يردد كل حين ما ذكره في مقدمة كتابه (الآلهة): (عنـدما نأتي إلى الآلهة فإني لا أستطيع معرفة هـل هي موجـودة أم لا؟ أو حتى ماذا يشبه الآلهة في شكلهم، أو هنالـك أسـباب عديـدة تقـف في طريـق هـذه المعرفـة، منهـا غمـوض المشـكلة وقصـر حيـاة الإنسان)

انظروا إلى التناقض الذي وقع فيه (بورتـاجوراس) المسـكين.. إنـه لم يربـط معرفـة الآلهـة بالإنسـان كمـا قـال في نظريتـه في المعرفة.. لقد كان الواجب عليه تقرير موقف من الآلهـة متناسـب مـع نظريتـه.. لكنـه لم يفعـل فهـو لم يقـل بـأن الآلهـة موجـودون بالإضافة إلى من يؤمنـون بهم، وغـير موجـودين بالإضـافة إلى من ينكرهم.

لقد كانت هـذه المقولـة هي الـتي دفعت أفلاطـون(1) على أن يرد عليه في كتابه (القوانين) حين أعلن (أن الإله – ليس الإنسان- هو مقياس الأشياء جميعا بحس أعلى من أي حس إنساني)

في الصف الثاني في مدرسة السفسطة درسـنا أسـتاذ اسـمه (جورجياس).. لقد حاول المسكين بكل جهوده العقلية أن يثبت لنـا ثلاث قضايا خطيرة.. أولها أن لاشيء في الوجود موجود.. واستدل على ذلك بأن كل شيء خاضع للتغير..

والثانية.. أنه إن وجـد شـيء، فإنـه لا يمكن أن يعلم.. واسـتدل على ذلك بأن الحواس مختلفة.

والثالثة.. أنه إذا أمكن أن يعرف، فإنـه لا يمكن إيصـال معرفتـه للغير.. واستدل على ذلك بأن طريق الحواس ذاتى.

1() سنتحدث عن منهجه العقلي في هذا المبحث.

الحوارية:

بعــد أن امتلأت بــالمنهج الــذي علمــني إيــاه أســاتذتي في السفســطة مــدة من الزمــان(1) كنت حينهــا أتلاعب بالكلمــات وبالخطب.. لأبرهن على وجـود العـدم وعـدم الوجـود.. مللت هـذا المنهج الــذي يحتــال على الحقــائق ويصــارعها.. ورحت أبحث عن أساتذة جدد.. لألقن عقلي المنهج الصحيح الذي يدرك به الحقائق.

قلنا: إلى أي مدرسة ذهبت؟

قال: لقد سمعت أن هناك جمعية عقلية تسمى (جمعية محــبي الحكمة)(2).. وقد قصـدتها.. وقـد كـان أول من لاقـاني فيهـا شـيخ جليل وقور.. كان اسمه (**سقراط**)(3)

1() ظهرت السفسطائية أول مرة إبان نهاية القرن السادس وبدايـة القـرن الخـامس قبل الميلاد، ثم ظهرت فى عصور تالية، وعرفت باسم حركة الشكاك، ووقف الفيلسوف الفرنسـى مونتـانى (1532-1592م) على أعتـاب الفلسـفة الأوروبيـة الحديثـة ليعلن أن العلم القديم قد سقط، فلِمَ لا يسقط العلم الجديد كذلك وإذا كان الجهل المطبـق بدايـة العلم فـإن جهـل العـالم هـو النهايـة، وأن آلات العلم عـاجزة عن توفـير اليقين، وسـتظل كذلك.

2() أقصد بها الفلسفة.. فكلمـة (فلسـفة) مشـتقة من اللغـة اليونانيـة القديمـة، وقَـدْ تُـترجمُ بــ (حبّ الحكمــة).. والفلاســفة في العــادة يكونــون متشــوّقين لمعرفــة العــالم، والإنسان، والوجود، والقيم..

3() سـقراط (469 ـ 399 ق.م). فيلسـوف ومعلم يونـاني جعلت منـه حياتـه وآراؤه وطريقة موته الشجاعة، أحد أشهر الشخصيات التي نـالت الإعجـاب في التـاريخ. صـرف سقراط حياته تمامًا للبحث عن الحقيقة والخـير. لم يـترك أي أثـر مكتـوب رغم أنـه كـان دائمًا ينهمك في المناقشات الفلسفية، وقد وصلتنا أفكاره ومناهجـه عن طريـق مجـالس الحوار، التي كتبها تلميذه أفلاطون، حيث برز سقراط شخصًا رئيسيًا يشرف على الحوار، ويشرح عملية البحث عن الحقيقـة، وعُـرِفت معظم المعلومـات عن حياتـه وتعاليمـه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسـطو فـانيس وأرسطو.

وُلد سقراط وعاش في أثينا، وكان ملبسـه بسـيطًا، وعُـرف عنـه تواضـعه في المأكـل والمشرب.. وكان يعلم الناس في الشوارع والأسواق والملاعب، وكـان أسـلوب تدريسـه يعتمد على توجيه أسئلة إلى مستمعيه، ثم يُبين لهم مدى عدم كفاية أجوبتهم.

قُدّمَ للمحاكمة وُوجهت إليه تهمة إفساد الشباب والإساءة إلى التقاليد الدينيـة.. وكـان يُلمحُ إلى أن الحكام يجب أن يكونـوا من أولئـك الرجـال الـذين يعرفـون كيـف يحكمـون، وليس بالضرورة أولئك الذين يتم انتخابهم، وقد قضت هيئة المحلَّفين بثبـوت التهمـة على سقراط وأصدرت حكمها عليـه بالإعـدام. ونفـذ الحكم بكـلِّ هـدوء متنـاولاً كوبًـا من سـم الشوكران.

كان سقراط يـؤمن بـأن الأسـلوب السـليم لاكتشـاف الخصـائص العامـة هـو الطريقـة الاستقرائية المسماة بالجدلية؛ أي مناقشة الحقائق الخاصـة للوصـول إلى فكـرة عامـة.. وقد أخذت هـذه العمليـة شـكل الحـوار الجـدلي الـذي عـرف فيمـا بعـد باسـم الطريقـة السقراطية.

ونحب أن ننبـه هنـا إلى أن حيـاة سـقراط الـتي وصـلت لنـا تشـير إلى أن لـه علاقـة بالصالحين.. ولعل هذا ما جعل بعض علماء المسلمين يضع احتمالا لكونه نبيا من الأنبياء.. وهو ليس بمستبعد.. وما يروى عنه من خلاف منهج الأنبياء هو من التحريف الـذي أصـاب الديانات ورجالها.

لقـد اسـتطاع بمنهجـه الفريـد في الإقنـاع(1) أن يعيـد لعقلي توازنـــه، وينفي عنـــه ذلـــك العقم والكســـل الـــذي بـــذره فيـــه السفســـطائيون.. لكن الأيـــام لم تمهلـــه.. فقـــد اســـتطاع السفسطائيون أن يجرعوه السم الذي قضـى على حياتـه قبـل أن أكمل مشوار تلمذتي عليه.

لقد كان رجلا شجاعا ومتواضـعا.. اسـتطاع أن يسـتبدل بـالآراء الغامضة أفكارًا واضحة.. وكثيرًا مـا كـان يجـادل بعض أعيـان أثينـا، ويفضح ادعاءهم الفارغ للمعرفة والحكمة، ممـا سـبب لـه العـداوة بينهم، فحُكم عليه بالموت بدعوى أنـه يشـكل خطـرًا على الدولـة، وبذلك أصبح رمـزًا للفيلسـوف الـذي يواصـل باسـتمرار بحثـه عن الحقيقة مهما كان الثمن..

بعد وفاته.. أو استشهاده.. بحثت في دفاتره عمـا يـروي عقلي من مياه الحقيقة.. فلم أجد في دفاتره ما يكفيـني.. فـرحت أبحث عن تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه..

الاستذكارية:

في أثينا سمعت بمدرسة كانت تتواجـد بحـدائق (أكـاديموس).. كـان اسـمها (أكاديميـة أفلاطـون).. أسـرعت أحث خطـاي إليهـا.. فوجدت بها رجلا ضخما كان الناس يطلقون عليه لقب (**أفلاطون الإلهي**)(2).. وكان هو أستاذي الثاني بعد سقراط..

لقد ذكر لي عندما سألته عنـه أنـه ــ مثلي ــ تتلمـذ في بداياتـه

1() وذلك عن طريق أسئلة محكمة صارمة متلاحقة، من نوع :ماذا تعني؟ كيف عرفت ذلك؟ إن هذا الإجراء الـذي يسـمى الطريقـة السـقراطية مـالبث أن أصـبح من الطرائـق الفلسفية النموذجية التي تُعنى بالمناقشة والحوار.

2() أفلاطون (427؟ ـ 347؟ق.م) هو فيلسوف ومعلم يوناني قديم، يُعَـدُّ واحـدًا من أهم المفكرين في تاريخ الثقافـة الغربية.. وُلـد في واحـدة من أعـرق العـائلات في أثينـا، وتنحدر أمـه من نسـل المشـرع الأثيـني الكبير سـولون، وكلمـة أفلاطـون كنيـة تعـني ذا الكتفين العريضتين، أما اسمه الحقيقي فهو أرستوكليس.

كان يرغب في شبابه أن يكون رجل سياسة، وفي عام 404 ق.م، نصَّب مجموعة من الأثريـاء أنفسـهم حكامًـا مسـتبدين على أثينـا، ودعـوه للانضـمام إليهم إلا أنـه رفض لاشمئزازه من ممارساتهم القاسية اللاأخلاقية. وعندما أطاح الأثينيون بالحكام المستبدين في عام 403ق.م. وأقـاموا حكومـة ديمقراطيـة أعـاد أفلاطـون النظـر في الـدخول إلى ميدان السياسة، لكنه تراجع عن ذلك بعد الحكم بإعـدام صـديقه سـقراط في عـام 399 ق.م. وبعدها غادر أثينا في أسفار امتدت عدة سنين.

عاد أفلاطون إلى أثينا عـام 387ق.م حيث أسـس مدرسـة للفلسـفة والعلـوم عُـرِفَت باسم الأكاديمية، وكان الفيلسوف الشهير أرسطو أبرز تلاميذه.

من أشـهر مؤلفاتـه (المحـاورات)، وقـد اهتمت محـاورات أفلاطـون باسـتعراض ونقـد الآراء الفلسفية، حيث كانت شخصيات محاوراته تتناول المسائل الفلسفية وتتجادل حـول الجوانب المتعارضة لموضوع ما. وقد تميزت المحاورات بقيمة أدبية عالية إلى الحد الذي جعـل الكثـيرين من العلمـاء يعـدون أفلاطـون أعظم من كتب بـالنثر في اللغـة اليونانيـة وواحدًا من أعظمهم في أي لغة أخرى.. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

على السفسطائيين وعلى كراتيلِس تلميذ هراقليطس، قبل أن يرتبط بمعلِّمه سقراط في العشرين من عمره.. وأخبرني أنه تأثر كثيرًا بالحُكم الجائر الذي صدر بحقِّ سقراط وأدى إلى موته؛ الأمر الذي جعله يعي أن الدول محكومة بشكل سيئ، وأنه من أجل استتباب النظام والعدالة ينبغي أن تصبح الفلسفة أساسًا للسياسة.. وهذا ما دفعه للسفر إلى مصر.. ثم إلى جنوب إيطاليا، التي كانت تُعتبَر جزءًا من بلاد اليونان.. وهناك التقى بالفيثاغوريين.. ثم انتقل إلى صقلية حيث قابل (ديونيسوس) ملك (سيراكوسا) المستبد، على أمل أن يجعل من هذه المدينة دولة تحكمها الفلسفة.. لكنها كانت تجربة فاشلة، سرعان ما دفعته إلى العودة إلى أثينا.. حيث أسَّس أكاديميته(1).

لقد كان أول ما تعلمته من هذا الأستاذ ردوده على السوفسطائية.. وقرأت عليه فيها مجموعة محاوراته.. كمحاورة بروتاجوراس، ومحاورة جورجياس، ومحاورة هيبياس، ومحاورة السوفسطائي.. وغيرها.. وقد انتفعت منها في انتشال عقلي من الهاوية التي أوقعه فيها السوفسطائية.

لكن ذلك.. مع ذلك.. لم يكفني.. فرحت أطالبه بالمنهج البديل لمنهج السفسطائية.. فقال لي ــ وقد كنا بجنب مرآة ــ : أترى صورتنا التي تنعكس على المرآة؟

قلت: أجل.. وكيف لا أراها؟

قال: أترى لها حدودا وجرما وكثافة؟

قلت: أما الحدود.. فأراها.. وأما الجرم والكثافة.. فلا يمكن أن أراها.

قال: لم؟

قلت: لأنها صورة لا حقيقة.. هي صورة تمثل الواقع ببعض أبعاده لا بكل أبعاده.

قال: كمثل هذه الصورة هناك عالم يدعى (**عالَم المُثُل**).. كل حقائقه ذات حدود.. ولكنها دون كثافة.

في هذا العالم تتجلى صور الحقائق الأرضية جميعا، فالإنسان ـ مثلا ـ يعيش أفراده على الأرض، أما هو فإنه واحد يعيش في عالم المُثُل، وهو (أي حقيقة الإنسان) شبح هناك يمثل كل الناس في كل العصور.

1()لكن هذا لم يمنعه من معاودة الكرة مرات أخرى لتأسيس مدينته الفاضلة في سيراكوسا في ظلِّ حكم مليكها الجديد ديونيسوس الشاب، ففشل أيضًا في محاولاته؛ الأمر الذي أقنعه بالاستقرار نهائيًّا في أثينا حيث أنهى حياته محاطًا بتلاميذه.

قلت: وعيت هذا رغم صعوبته.. فما بعده؟.. ومـا علاقتـه بمنهج التفكير؟

قـال: كـان الإنسـان قبـل يـنزل إلى الأرض يسـرح في ذلـك العالم.. عالم المثل..

قلت: فأنت تذهب إلى أن للإنسان وجودا قبل هذا الوجود؟

قال: أجل.. لقـد كـان الإنسـان.. أو روح الإنسـان موجـودة في ذلك الحين.. وكانت قد أحاطت علما بكل الصـور (أو المثـل) الـتي كانت موجودة فيه.. ولكنها نسيتها بعد أن تقولبت في هذه المـادة، وهبطت إلى عالم الجسد.

قلت: فكيف يمكن للإنسـان أن يسـتعيد ذكرياتـه السـعيدة في تلك العوالم الجميلة؟

قـال: هـذا هـو منهجي الـذي خصصـت بـه.. وأسسـت هـذه الأكاديمية من أجله.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد وجدت من خلال حواراتي أن أقل تنبه يكفي الإنسـان لتذكر ما كان قد نسيه، فيعـود لمعرفـة الحقـائق الـتي عرفهـا في عـالم المثـل.. يمكنـك أن تسـمي هـذه النظريـة (النظريـة الاستذكارية).. لأن الفكر، فيهـا، ليس سـوى اسـتعادة المعلومـات، والعلم ليس الا استعادة المحفوظات المنسية(1).

قلت: فأنت ترى أن العلم صفة ذاتية في روح الإنسان؟

قـال: أجـل.. وأرى أن العقـل البشـري أسـمى من أن يعـرف الحقائق الجزئية، بل إنه يعرف الكليـات؛ أي المثـل العامـة فقـط.. فهو يعرف من الأشياء حقائقها لا أعيانها.

قلت: قد أسلم لك بأن للأرواح وجودا قبل وجود الأجسـام (2)..

1()شرح أفلاطون في كتابه (فيدروس) عملية سقوط النفس البشرية التي هَـوَتْ إلى عالم المحسوسات – بعد أن عاشت في العالم العلوي - من خلال اتحادهـا مـع الجسـم.. لكن هذه النفس، وعن طريق تلمُّسها لذلك المحسوس، تصبح قادرة على دخـول أعمـاق ذاتهـا لتكتشـف، كالـذاكرة المنسـية، الماهيـة الجليـة الـتي سـبق أن تأمَّلتهـا في حياتهـا الماضية.

وقـد عـبر عن نظريتـه (نظريـة التـذكُّر) بشـكل رئيسـي في كتابـه (مينـون) من خلال استجواب العبد الشاب وملاحظات سـقراط الـذي توصـل لأن يجـد في نفس ذلـك العبـد مبدأ هندسيًّا لم يتعلَّمه هذا الأخير في حياته.

2() ويـدل لهـذا من القـرآن الكـريم قولـه تعـالى :﴿ وَإِذْ أَخَـذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَـالُوا بَلَى شَـهِدْنَا أَنْ تَقُولُـوا يَـوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (لأعراف:172)

ويـروي الإماميـة في هـذا حـديثا يقـول فيـه رسـول اللـه ﷺ: (خلـق اللـه الأرواح قبـل الأجساد بألفي عام) (بحار الانوار،ج58،ص132)

ولكن كيف تعتبر العلم صفة أصيلة في ذات الإنسان، ولسيت صفة طارئة عليه؟

قال: وما الذي يمنع من اعتباره كذلك؟

قلت: أشياء كثيرة.. منها أنه لو كان العلم صفة للذات لم يجز أن يتخلف لحظة عن الذات، ذلك أن الذات لا تفقد نفسها إلا ساعة انعدامها.. كما أن النور لا يمكنه ان يتخلف عن الحركة والإشراق.. ذلك أن ذاته هي الحركة والإشراق؟

قال: فما الذي يمنع من اعتبار استحالة تخلف العلم عن الذات؟

قلت: أشياء كثيرة تراها وتشعر بها.. أنت تعلم أن الإنسان يبدأ جاهلا لا يعلم شيئا(1).. ثم يعلم.. ثم ينسى ما علم(2).. وفوق هذا نحن نعلم من أنفسنا صفة الجهل الذاتية، لأن العلم لا يحصل لنا إلا بتعب وإرهاق.. ثم يزول بسرعة مع هبوب عاصفة النسيان التي تتناوب على أنفسنا فتكنس معها معلوماتنا.

وفوق هذا كله، فإن ذاتي الشيء لا يمكن أن يحدد.. فالجهل والعدم والعجز من ذاتنا، ولذلك فهي غير محدودة، لأنها إذا كانت محدودة لم تكن ذاتية لنا.. أما العلم والإرادة والوجود والقوة فهي مواهب أو مكاسب، ولذلك فهي محدودة.

وبتعبير آخر: إن التحديد يعني العدم في بعض الجوانب.. فلو حددنا علم رجل ببلده مثلا، فذلك يعني أنه لا يعلم عن البلاد الأخرى شيئا، وإذا كان ذات الرجل عالما فكيف لا يعلم شيئا عن البلاد الأخرى؟ أفلا يعني ذلك أن هذا الرجل عالم وجاهل في لحظة؟ وهو تناقض مرفوض.

وهل يصح ان نقول: ان ذات الحرارة هي الحركة.. أي لا يمكن أن توجد حرارة ولا توجد حركة أو العكس بأن توجد حركة ولا توجد حرارة.. ثم نقول إن الحرارة يمكنها أن لا توجد في وقت أو في حالة مع وجود الحركة؟!

قلنا: كلامك منطقي.. فبم أجابك؟

قال: لقد أجابني بابتسامة عذبة لا تزال صورتها منطبعة في خيالي.

قلنا: نقصد إجابته لعقلك.

1() كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:78)

2() كما قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل:70)

قال: لقد فهمت من ابتسامته ما يريد أن يقول.

قلنا: فما فهمت؟

قال: لقد سلم لي ما ذكرت لـه.. كمـا سـلمت لـه مـا ذكـر لي..(1)

الصورية:

قلنا: فهل اقتنعت بما علمك هذا الأستاذ الفاضل؟

قلت: لا.. لقد كان لعقلي من الشوق للمعارف ما لم يجد معـه منهج أستاذي شيئا.. لذلك رحت أبحث عن أستاذ جديد.

قلنا: فبمن ظفرت؟

قال: لقد ظفرت بأرسطو(2).. ذلك الذي كـان يسـمى (المعلم الأول).. ذلك الذي اعتبره توما الأكويني (الفيلسوف بحـق).. وكـان دانتي يسميه (سيد العارفين)..

قلنا: كيف التقيت به؟

قال: لقد كنت حينها أسير خارج أسـوار أثينـا بـالقرب من أيكـة مخصصة لعبادة الإله أبولو ليكيوس.. وهو ما كـان النـاس يسـمونه (اللِّيسـيوم)(3).. هنـاك وجدتـه مـع تلاميـذه يسـير، وهـو يتحـدث.. وسرعان ما جذبني الحوار، فانضممت إليهم.

1() قـال تقي المدرسـي بعـد نقـده لنظريـة أفلاطـون الاسـتذكارية : (هي مرفوضـة بسبب واحد وهو أنها تدَّعي أن العلم من ذات الإنسان.. ولو فسرنا هذه النقطة منهـا، إذا لاستطعنا القبول بها فيما يخص العلم، فسرناها بـالقول: ان اللـه سـبحانه وهب الإنسـان العقل، ولكن هذا العقل محتجب بالنسيان وأن التذكر به يرجعه إليه)

2()أَرِسْطو (384 -ـ 322ق.م) لـد في سـتاجرا، وهي مسـتعمرة يونانيـة وميناء على ساحل تراقيا، و كان أبوه نيقوماخوس طبيب بلاط الملـك امينتـاس المقـدوني، ومن هنـا جاء ارتباط أرسطو الشديد ببلاط مقدونيا، الذي أثر إلى حد كبير في حياته ومصيره فكان مربي الإسكندر.. دخل أكاديميـة أفلاطـون للدراسـة فيهـا وبقي فيهـا عشـرين عامـا، ولم يتركها الا بعد وفاة أفلاطون..

بعد موت الإسكندر الأكبر في عام 323ق.م. رماه الأثينيون بتهمة عدم احترام الآلهـة، وخوفًا من مصير سقراط، هرب أرسطو إلى مدينة كلسيس (اسمها حاليًا كلكيس)، حيث مات هناك بعد عامٍ واحد.

كان من أعظم فلاسفة عصره وأكثرهم علما ومعرفـة ويقـدر مـا اصـدر من كتابـات بـ 400 مؤلف ما بين كتـاب وفصـول صـغيرة.. وتنقسـم مؤلفاتـه إلى ثلاث مجموعـات: 1- المؤلفـات الشـعبية، وقـد كـانت لعامـة الجمهـور خـارج مدرسـته.. 2- المـذكرات، وهي تصنيفات من مواد البحوث والسجلات التاريخية أعدَّها بمساعدة تلاميـذه؛ لتكـون مصـدرًا للمعلومـات الـتي يحتاجهـا العلمـاء الدارسـون.. 3- المقـالات.. وهي تمثـل تقريبًـا كـلَّ مؤلفات أرسطو التي سَلمت من الضياع وبقيت حتى الآن.. وقـد كـانت المقـالات مؤلفـةً للطلاب داخل المدرسة فقط.

3()اللِّيسيوم كان مبنىً رياضيًا في أثينـا، يتلقى فيـه الصـبية والشـبان تـدريبات بدنيـة، ويستمعون لمحاضرات يلقيها مشاهير المعلمين.. والمبنى مقام خارج أسوار أثينا بالقرب من أيكة مخصصة لعبادة الإله أبولو ليكيـوس، إلـه الشـعر في أسـاطير الإغريـق. أسـس أرسطو مدرسة شهيرة هناك حوالي عام 335 ق.م.

قلنا: فما أفادتك صحبته؟

قال: أنـا لم يكن يهمـني من كـل تلـك الـثروة الـتي حظي بهـا أستاذي أرسطو إلا ما كان يسميه (الأورجانون)

قلنا: ما (الأورجانون)؟

قال: لقد كان يطلقه على جميع مؤلفاته في المنطق.. والكلمة تعني الأداة.. لأنَّ تلـك المؤلفـات كـانت تبحث عن موضـوع الفكـر الذي هو الأداة أو الوسيلة للمعرفة.

قلنا: فما المنهج العقلي الذي استفدته منه؟

قال: يمكنكم أن تسموه (منطق الانتزاع).. أو (منهج الانتزاع).. وخلاصته باختصار أن للذهن البشري نوعين من التصورات..

أما أولاها، فهي تصورات أولية، كتصـور اللـون والحجم والطعم والرائحة، وغيرها مما يتصوره الذهن عن طريق الحواس..

وأما الثانية، فهي تصورات ثانوية، وهي التصورات الـتي يولـدها الذهن البشـري منتزعـة إياهـا عن التصـورات الأوليـة، وذلـك مثـل الكليات المجردة، وتصور العلة والمعلول وما أشبه ذلك.

ومنهجه يعتمد على اعتبار التصورات الأولية أساسـا للتصـورات الثانوية.. ولذلك، فإنه يستحيل على الذهن القيام بأي تصـور ثـانوي بدون التصورات الأولية..

وبـذلك، فإنـه يعتـبر الإحسـاس أساسـا للعلم.. وهـو يعتـبر أن الـذهن لا يقـوم بنمـو ذاتي إلا عنـدما يـدخل حريمـه تصـور أولي، فيتمخض عن تصور ثانوي.. وذلك مثل الأرض الصـالحة الـتي تنمي أشجارا كثيرة بعد أن تزرع فيها النواة.

قلنا: فهل روى هذا المنهج عقلك الباحث عن الحقائق.

ابتسم، وقال: وكيف يرويه.. وهـو منطـق شـكلي، يهتم بشـكل التفكير، ويغفل البحث عن مادة التفكير وموضـوعه.. ولـذلك فقـد تناسي دور السلبيات البشرية التي تدعو إلى الضلالة، كمـا تناسـى دور العقل في تحدي هذه السلبيات.. ولذلك لم يوفق هذا المنطق في إعطائي مزيدا من التقدم الفكري.

لقد رأيت الكثير من رفاقي ـ المتأثرين بمنطقه الشكلي ـ على مدى أجيال طويلة ينطبع تفكـيرهم بطـابع الإطلاق وسـرعة انـتزاع الكلي من جزئيـات صـغيرة.. فكـان يكفي الواحـد منهم أن يلاحـظ عدة أحداث جزئية حتى يحكم بكلي يشـمل ملايين من أمثـال تلـك الأحداث.

ثم تحول المفكرون إلى الاعتقاد بأن المنطق الأرسطي طريق

الوصول إلى الحقائق، غافلين عن أنه منهج للتفكير.. والتفكـير هـو الطريق.. فأخذوا يركبون القياسات بعضها فوق بعض لعلهم يقفون عليها ليروا الحقائق جميعا.

وقد رأيت أن القوالب الفكريـة تحـولت عنـد هـذا الفريـق، إلى أفكار استغنوا بهـا عن التجربـة، بـل زعمـوا أنهـا تغـنيهم حـتى عن عقولهم.. وهكذا لفهم الجمود.

وفوق ذلك، فهو منهج يعتمد على الحس، فيجعله سـلطانا على العقل.. مع أن الإنسان لا يمكنه الإيمـان بـالحس دون وجـود عقـل يحكم بصدق الإحساس.

قلنا: وما الذي جعلك تعتقد هذا؟

قـال: لقـد اكتشـفت ذلـك بأدلـة كثـيرة (1).. منهـا ــ مثلا ــ أن المصاب بالدوار لا يشك في أن حسه هو مبعث الإحسـاس بحركـة العالم.. وعند مقارنة حسه بحس الآخرين يكتشـف أن الـذي يحس به وحده لابد ان يكون خاطئا، فالواقع يجب أن يحس به كل أحــد.. وهكذا كل إحساس خاطئ ينكشف زيفـه فـور مقارنتـه بإحسـاس الآخرين، أو بإحساس الرجل ذاته في سائر الأوقات.

وهكذا قد تصاب العين بـالمرض فـترى الأشـياء مقلوبـة، ولكن اليـد تكشـف زيـف هـذا الإحسـاس، حين تلمس الأشـياء لتجـدها سالمة.. وهكـذا يحكم العقـل بين الأحاسـيس المختلفـة بمقارنتهـا ببعضها.

وقـد تبصـر العين رجلا قزمـا فلا يـتردد العقـل من الحكم بأنـه طويل القامة، لأنه يقـارن المسـافة بينـه وبين الرجـل، فيقـول: إذا كانت الرؤية من بعد ميل تظهر الشخص بهذا الطول ـ نصف متر ـ فلابد انه إذا اقترب يظهر ذو طول قد يتجاوز المترين.. وهكذا يقدر العقـل دور المسـافة في العين والأذن وسـائر الأعضـاء، بـل هكـذا يقـدر سـائر القـوانين الفيزيائيـة كـوزن الشـيء في المـاء، فـإن الإحساس البسيط يزعم أنه خفيف مثـل مـا يتصـور، إلا أن العقـل سرعان ما يحكم بخلاف ذلك.

وعند مقارنة سائر العوارض الداخلية قـد تشـعر جميـع أعضـاء الجسم بالبرودة أو بالحرارة الشديدة، ولكن العقل لا يـتردد في أن ذلك احساس باطل لأنه يتقارن مع عوارض المرض، مما يدل على زيف الإحساس.

وهكذا رأيت أن كل مقارنة تنطوي على مجموعـة من الأحكـام

1() سنقتصر هنا على بعضها، وسنرى المزيد منها في الفقرات التالية.

العقلية التي لم نعد نلتفت اليها لسرعة تحققها وشدة وضوحها.. فبالمقارنة ـ مثلا ـ بين ما نحس به وأحاسيس الآخرين نرى أنها تنطوي على الحكم الواضح الذي لا نرتاب فيه، وهو أن ما أحس به إن كان هو الواقع وجب ألا يختلف فيه حس الآخرين لأنهما من طبيعة واحدة، وتكشفان عن حقيقة واحدة. فلابد أن يكون الاختلاف بسبب آخر هو المرض والخطأ وما أشبه ذلك.. وبدون العقل من أين نعرف ان الحقيقة واحدة، أو ان الحقيقة الواحدة لا تبث الا لونا واحدا من الإحساس عندي وعند الآخرين، أو ان للإختلاف سببا خارجيا. فلماذا لا يكون الشيء بلا سبب؟

قلنا: أهذا فقط ما جعلك لا تكتفي بما علمك إياه أستاذك أرسطو؟

قال: ليس هذا فقط.. هناك شيء آخر.. لقد رأيت أن أرسطو ينزع منزع أستاذه أفلاطون في اعتبار النفس تسير في نمو ذاتي حتى تصل إلى العلم.. وبذلك يكون العقل وليدا طبيعيا للنفس ضمن حركة جوهرية تكاملية.

وهذا ليس بصحيح.. فإنه إذا كانت حركة النفس إلى أعلى بصورة مستمرة، فكيف تنتكس حتى لا تعلم بعد علم شيئا، وكيف ينسى الإنسان أشياء عرفها، وكيف لا يعلم أشياء يجهلها بصورة طبيعية، بل كيف يكون محتاجا إلى المعلم(1)؟

وفوق ذلك كله.. فقد رأيت أن المنطق الذي دعاني إلى تعلمه لا يكاد يغني عني شيئا.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد رأيت أنه يرى بأن التصورات لا تنال إلا بالحدود.. وأن الحد هو المركب من الجنس والفصل.. وهذا مبنى على التفريق بين الوجود والماهية، وأن الماهية أسبق على الوجود، وأنها ثابتة فى المادة، مع أنها لا توجد إلا فى الأذهان، وليس فى الخارج سوى الأعيان.. وقد وجدت أن في ذلك تقديرا لحقيقة ليست ثابتة فى الوجود.

على أن التصورات لا تنال بالحدود أصلاً، فاللفظ لا يدل السامع على معناه إن لم يكن قد تصور المعنى، وعلم أن هذا اللفظ موضوع له، فلو استفيد التصور منه لزم الدور، وبطل القول بأنه العبارة الكاشفة.

والحدود إذا كانت مبينة أو مفصلة لمجمل فليس ذلك من

1() سنرى المزيد من الردود في خلال هذا الفصل.

إدراك الحقيقة فى شىء وليس لها فائدة زائدة عما للأسماء(1).

هذا على مستوى التصورات.. أما على مستوى التصديقات.. فقد رأيت أن العلم بالقضية الجزئية سابق على العلم بالقضية الكلية، وليس من طريق يعلم به صدق الكلية إلا والعلم بذلك يمكن من العيان بطريق الأولى، فحيث لا يستدل بقياس التمثيل لا يمكن الاستدلال بقياس الشمول.

والبرهان عنده قائم على القضية الكلية، والكلى لا يكون إلا فى الأذهان، وعليه فلا يفيد العلم بشىء موجود(2)..

فلم يبق من المنطق إذن إلا صورته، وهذا لا يحتاج إليه سائر العقلاء، وليس طلب العلم موقوفًا عليه، فالمعانى العقلية لا تحتاج إلى اصطلاح خاص.

الإشراقية:

قلنا: فإلى من لجأت؟

قال: لقد سمعت بأستاذ كبير التقيت به في مصر.. كان اسمه (**أفلوطين**)(3).. فرح بي كثيرا عندما عرف أنني تتلمذت على أفلاطون.. سألته حينها عن العالم، فقال: إن ما تراه من هذا العالم المادي مجرد أوهام لا حقيقة لها..

سألته عن السياسة، فقال: هي أمر تافه لا قيمه له.

سألته عن الجسم، فقال: هو سجن مؤقت للروح.

سألته عن الحياة، فقال: هي رحلة خلال صورة من الأوهام.. أما الحقيقة، فتقع بعيدًا في كائن وحيد كامل، هو مصدر كل الحقيقة والخير والجمال.. أما الأرواح النقية، فيمكنها أن تأمل بالعودة إلى هناك..

قلت: أنا أبحث عن المعرفة في الدنيا.

قال: في الدنيا يمكن أن يتحقق ذلك في بعض الأحيان على صورة كشف روحي.. لقد جرّبت هذا الكشف الروحي.. وأنا أعتبره منهجا من مناهج البحث عن الحقيقة.

1() انظر الرد على المنطقيين ص 10.

2() انظر صون المنطق2/135.

3() أفلوطين (205؟ ـ 270؟م) هو مؤسس المدرسة اليونانية الفلسفية التي تُعرف باسم (الأفلاطونية المحدثة)، قيل أنه وُلِدَ في مصر، والتحق بحملة حربية إلى الشرق ليتعلم المزيد عن الفلسفة الهندية.. وقضى سنوات حياته الأخيرة في التدريس بروما.. كان يكره الكتابة لكنه ألقى 54 محاضرة في ست وحدات، كل وحدة تسع محاضرات تُسمَّى التُّساعيَّات.. يعكس تشاؤم أفلوطين فقط جانبًا واحدًا من فلسفة أفلاطون حيث ينظر إلى الفلسفة كعزاء أو هروب من العالم.. وكان هذا هو الجانب الذي كان يحبه الرومانيون في عهد أفلوطين.

قلت: لقد تتملذت على أفلاطون.. لكنه لم يذكر لي مـا ذكرتـه لي.

قال: ربما لم تفهمه.. أنا أفهم أفلاطون جيدا.. بل أعتبر نفسـي الوريث الوحيد لأفلاطون..

قلت: لكــني أســمع النــاس يســمون منهجــك (الأفلاطونيــة المحدثة)(1).. فهل أحدثت فيها ما لم يكن؟

قال: لا.. لقد صـغتها فقـط صـياغة تقربهـا لأهـل عصـرنا.. لقـد رأيت أن روح الإنسان متشوقة للالتقاء بالله، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق التجربة الروحانية، لذلك كانت فلسفتي جسرًا بين الفلسفة اليونانية والفلسفة المسيحية في عهدها الأول..

لقد أثبت أن الحقائق الكبرى لا تنكشف إلا عن طريـق الإيمـان بالله والفضل الإلهي، وليس عن طريق العقل.

انتفضت قائلا: ليس عن طريق العقل!؟

قال: أجل.. فالعقل حجاب عن الحقائق لا دليل عليها.

قلت: فاشرح لي كيف نصل إلى الحقائق من دون عقل.

قال: للحقيقـة مسـتويات مختلفـة.. ويعتمـد كـل مسـتوى على حقيقة تلك المستويات التي تعلـوه.. وتجـاوز الحقيقـة بأكملهـا هـو الواحد، والذي هو في حد ذاتـه غـير معـروف، ولايسـتطيع أحـد أن يقول إن الواحد هو، لأن الواحد هو ما وراء الوجـود.. ولكن الواحـد يتمدد أو يفيض إلى المستويات التي دونه، كما يسطع الضـوء خلال الظلام، ويصبح أكثر ظلمة كلما مضى أبعد..

والمستوى الأعلى للحقيقة هو ذلـك (العقلي) الـذي توجـد فيـه الأشكال كأفكار فيما وراء الوقت والفراغ. والمستوى التـالي أكـثر ظلمة وأقل حقيقة، وهو الـروح.. والمسـتوى التـالي هـو الطبيعـة، العالم المظلم لأجساد المادة.

وتحت هذه المستويات المادة التي ليس لها وجود حقيقي..

قلت: فهل يمكن رقي الأدنى إلى الأعلى؟

قال: أجل.. فنحن نسـكن المسـتويات الـدنيا.. ومـع ذلـك ترانـا نشتاق للصعود والعودة إلى المستويات الأعلى.. بل يمكن لأرواحنا أن تترك أجسامنا، وتسبح في عـالم الفكـر حيث تسـتقر الأشـكال كأفكار في العقل الإلهيّ.

الثالوثية:

1()الأفلاطونية المحدثة: هي مذهب فلسفي تطوّر عن فلسفة أفلاطون، وأخذت أيضًـا عناصر من أفكار فيثاغوروس، وأرسطو والرواقـيين.. وقـد أسـس أفلـوطين الأفلاطونيـة المحدثة. أما رواد الأفلاطونية الآخرون فهم أتباع أفلوطين بورفيري وبروكلس.

بقيت مدة في صحبة أفلوطين.. ومن معه كجُوهانْس سكوتَسْ أريجِينا(1).. وبورفيري (2).. وبـروكلس.. وغـيرهم كثـير.. ومـع أني وجدت لذة كبيرة في تلك الأجـواء الـتي كنت أعيشـها معهم إلا أن عقلي مـع ذلـك ثـار علي، فلم أكن أدري هـل مـا كنت أعيش فيـه حقائق عليـا ينبغي التسـليم لهـا.. أم أنهـا مجـرد أوهـام وخرافـات وأحلام يقظة، وليس لها أي علاقة بالحقيقة.

في تلك الأيام زارنا رجل مسيحي كان يحمل مبـادئ بسـيطة.. ولكنها جميلة.. ولكنه لم يكن مقتنعـا بهـا.. فقـد كـانت لـه أشـواق روحيـة مـع عقـل فلسـفي، ولم يسـتطع أن يمـزج بينهمـا، فجاءنـا يطلب منا أن نعلمه من مبادئنا ما يستطيع به أن يحـول المسـيحية إلى ديانة ممتلئة بالأشواق الروحية السامية.. والإشراقات النوارنية الفائضة.. والعقل الفلسفي الحكيم..

كـان اسـم هـذا الرجـل الـذي تحـول قديسـا فيمـا بعـد هـو (أوغسطين)(3).. وقـد اسـتطاع بذكائـه.. وبعـد فـترة قصـيرة.. أن

1() هو أريجِينا، جُوهانْس سكوتَسْ (810 -ـ 877م)، هو فيلسـوف ولاهـوتي أيرلنـدي عرف بثقافته الواسعة، وقد بدأ أولى المحاولات لتحقيق فلسـفة نصـرانية منظمـة.. ومن أشهر كتبه تقسيمات الطبيعة. أقر نظرية تعتمد على مبـادئ الأفلاطونيـة المحدثـة، وكـان يقول إن الفكر والوجود يبدآن وينتهيان بالله، وهـو فـوق الوجـود والفكـر، واعتُبِـر أريجينـا على أثر هذه المبادئ صاحب بدعة، وشجبت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كتاباته.

2() هو بورفيري (233 -ـ 304م). فيلسوف ينتمي إلى الأفلاطونيـة المحدثـة، وصـف كيـف أن جميـع الخصـائص الـتي ينسـبها النـاس إلى الأشـياء يمكن تصـنيفها. وكـان لهـذا الموضوع الذي عرضه في كتابه مقدمـة للمقـولات تـأثير كبـير في الفلسـفة في القـرون الوسطى، كما أثار مسألة وضع القضايا الكلية التي شغلت أذهان علمـاء المنطـق لمئـات السـنين. وهـو من مواليـد صـور، ودرس في أثينـا ثم سـافر إلى رومـا حيث انضـم إلى أفلوطين.

3() أشـير بـه إلى القـديس أوغسـطين (354 -ـ 430).. وهـو أحـد أهم الشخصـيات المؤثرة في المسيحية الغربية.. بـل تعتـبره الكنيسـتان الكاثوليكيـة والأنغليكانيـة قديسـا، وأحد آباء الكنيسة البارزين، وشفيع المسلك الرهباني الأوغسـطيني.. كمـا يعتـبره العديـد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعـاليم الإصـلاح البروتسـتانتي حـول النعمـة والخلاص.. وتعتـبره بعض الكنـائس الأورثوذكسـية مثـل الكنيسـة القبطيـة الأرثوذكسية قديسا.

وهو يتحدّر من أصول أمازيغية على الأغلب.. ولد في تغسـات عـام 354 (حاليـا سـوق أهراس، بالجزائر) التي كانت مدينـة تقـع في إحـدى مقاطعـات مملكـة رومـا في شـمال أفريقيا.. وعندما بلـغ الحاديـة عشـرة من عمـره أرسـلته أسـرته إلى (مـداورش)، مدينـة نوميدية تقع 30 كلم جنوبي تغسات. وفي عمر السابعة عشرة ذهب إلى قرطـاج لإتمـام دراسة علم البيان.

كـانت أمـه مونيكـا أمازيغيـة ومسـيحية مؤمنـة، أمـا والـده فكـان وثنيـا.. ورغم نشـأته المسـيحية إلا أنـه تـرك الكنيسـة ليتبـع الديانـة المانويـة خـاذلا أمـه، وفي شـبابه عـاش أوغسطين حياة متعية وفي قرطاج، كانت له علاقـة مـع امـرأة صـارت خليلتـه لمـدة 15 عاما.. وخلالها ولدت له خليلته ابنا حمل اسم أديودادتوس..

كان تعليمه في موضوعي الفلسفة وعلم البيان، علم الإقناع والخطابة.. وبعد أن عمل في التدريس في تغسات وقرطـاج انتقـل عـام 383 إلى رومـا لظنّـه أنهـا مـوطن خـيرة

يحول من المسيحية البسيطة إلى ديانة فلسفية عميقة، لأنـه كـان يعتقد أن الديانة التي ينبغي أن يبشر بهـا في العـالم لا يصـح إلا أن تكون من هذا النوع(1).

لقد مزج بسـاطتها أولا بــ (الأفلوطونيـة)، وهي مدرسـة غربيـة في الأمة الإغريقية اليونانية.

ومزجها ثانيا بـ (الأفلوطونية الحديثة)، وهي مدرسة في الشرق بالإسكندرية، هيئ لها جو من أساتذة الفكر الروماني اليوناني، كمـا هيئ لشيخها أن ينقل عديـدا من ثقافـات الهنـد وفـارس ويصـهرها كلها في بوتقة واحدة.

ومزجهـا ثالثـا بـالتنظيم الثـالوثي في الوثنيـة القديمـة لدولـة الرومان(2).

لست أدري كيف بدا لي أن أسافر إلى (تاجاست) حيث يتواجد

علماء البيان. إلا أنه سرعان ما خاب ظنه من مدارس روما وعندما حان الموعد لتلاميـذه أن يدفعوا ثمن أتعابه قام هؤلاء بالتهرب من ذلك. بعد أن قام أصدقاءه المانويين بتقديمه لوالي روما، الذي كان يبحث عن أستاذ لعلم البيـان في جامعـة ميلانـو، تم تعيينـه أسـتاذا هناك واستلم منصبه في أواخر عام 384.

في ميلانو بدأت حياة أوغسطين بالتحول. من خلال بحثـه عن معـنى الحيـاة بـدأ يبتعـد عن المانويـة منـذ أن كـان في قرطـاج، خاصـة بعـد لقـاء مخيب مـع أحـد أقطابهـا. وقـد استمرت هذه التوجهات في ميلانو إذ ذهبت توجهت أمه إليها لإقناعـه باعتنـاق المسـيحية كما كان للقائه بأمبروزيوس، أسقف ميلانو، أثرا كبيرا على هذا التحول.

وقد أعجب أوغسطين بشخصية أمـبروزيوس وبلاغتـه وتـأثر من موعظاتـه فقـرر تـرك المانويـة إلا أنـه لم يعتنـق المسـيحية فـورا بـل جـرّب عـدة مـذاهب وأصـبح متحمسـا للأفلاطونية المحدثة.

وفي صيف 386، بعد قراءته سيرة القديس أنطونيوس الكبير وتأثره بهـا قـرر اعتنـاق المسيحية، وترك علم البيان ومنصبه في جامعة ميلانو والدخول في سلك الكهنوت، فقام أمبروزيوس بتعميده وتعميد ابنه في عام 387 في ميلانو. وفي عام 388 عاد إلى إفريقيا وقد توفيت أمه وابنه في طريق العودة تاركين اياه دون عائلة.

بعيد عودته إلى تغسـات قـام بتأسـيس ديـر.. وفي عـام 391 تمت تسـميته كاهنـا في إقليم هيبو (اليوم عنابة في الجزائر)، وأصبح واعظا شهيرا (وقد تم حفـظ أكـثر من 350 موعظة تنسب إليه يعتقد أنها أصيلة)، وقـد عُـرِف عنـه محاربتـه المانويـة الـتي كـان قـد اعتنقها في الماضي.

وفي عام 396 تم تعيينه أسقفا مساعدا في هيبو وبقي أسقف خيبو حـتى وفاتـه عـام 430 رغم تركه الدير إلا أنه تابع حياته الزاهدة في بيت الأسقفية الأنظمة الرهبانيـة الـتي حددها في ديره أهلته أن يكون شفيع الكهنة.

توفي أوغسطين وعمره 75 بينما كان الفاندال يحاصرون هيبو، ويُزعم أنه شـجع أهـل المدينـة على مقاومـة الفانـدال وذلـك لاعتنـاقهم الاريوسـية.. ويُقـال أيضـا أن تـوفي في اللحظات التي كان الوندال يقتحمون أسوار المدينة.

وقد تحدثنا عنه وعن فلسفته وعلاقتها بالمسيحية في رسالة (أسرار الإنسان) من هذه السلسلة.

1() ما نـذكره هنـا ليس بالضـرورة آراء أوغسـطين وحـده.. بـل نشـير من خلالـه إلى المسيحية المتأثرة بالفسلفات والمذاهب المختلفة.

2() رأينا الأدلة الكثيرة المثبتة لهذا في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

(أوغسطين).. وهناك انضممت إلى جماعة من الرهبان الذين كـان القديس أوغسطين يشملهم برعايته..

في صحبته علمت الأثر الكبير الذي أحدثته الأفلاطونية المحدثة في هذا القديس.. وقد أعجبـني من تعاليمـه دعوتـه إلى الاشـتغال بالله وعدم الانشغال باهتمامات الدنيا ومتاعها.

ولكن الذي لم يعجبني وظللت فترة طويلة تحت أسره هو تلك الصــور المشــوهة عن اللــه.. والــتي لم يكن عقلي يســتطيع أن يتقبلها.. فكنت بين نـارين: نـار الأشـواق الجميلـة الـتي تصـبها في نفسي تلك المواعظ والأشـعار.. ونـار عقلي الـذي يحـترق لأنـه لم يجد حقيقة منطقية مقبولة يستطيع أن يسلم لها.

المدرسية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: ذهبت إلى (نابولي).. وهناك وجـدت مدرسـة دومينيكانيـه (1).. وفيهــا التقيت بأســتاذ حــاول أن يجمــع بين أفكــار أرســطو الرئيسية مع التوراة والعقيدة المسيحية.. كان اسمه (القديس توما الأكويني) (2)

وقد رأيت من خلال صحبتي له أنه لم يأل جهدا في المــزج بين

1() نسبة إلى تنظيم ديني روماني كاثوليكي أسسه القديس الأسـباني (دومينيـك) في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.. وقد اشتهر الـدومينيكانيون بـأنهم وعـاظ ومدرسـون ومنصرون.. وكان تنظيم الـدومينيكانيين أول تنظيم يؤكـد العمـل الـذهني، إذ أن الأنظمـة السـابقة قـد ركـزت على الأعمـال اليدويـة، وخلال جيـل من قيـام التنظيم، تـرأس الدومينيكانيون الأقسام اللاهوتية في كثير من الجامعات الكبـيرة، ومن بين الأعضـاء ذوي الشهرة في التنظيم القديس ألبرتوس ماجنوس والقديسة كـاثرين السـيناوية، والقـديس توما الأكويني.

2() هو القديس توما الأكويني (1225؟ ـ 1274م).. كان أحد أشهر الفلاسفة وعلماء اللاهوت الذين عرفتهم العصور الوسطى في الغرب بتأثيره البالغ على الفكـر النصـراني، وبصفة خاصة على مذهب الروم الكاثوليك.

نشأ ببلدة روكاسيكا قرب كاسينو بإيطاليا، وتلقى تعليمه بجامعـة نـابولي، وانضـم إلى سلك الرهبنة الدومينيكاني- عين قسيسًا على يـد القـديس ألـبرت الكبـير عـالم اللاهـوت الألماني، ثم صار توما أستاذًا للاهوت في جامعة باريس، حيث اشـتهر بتمـيزه في الجمـع بين ورعه الديني، وذاكرته الموسوعية وفرط تركيزه.

وفي عام 1258م بدأ في تأليف كتابه (الـدعوة إلى دحض المنكـرين للعقيـدة)، يـدافع فيه عن عقلانية العقيدة المسيحية، موجهًا خطابه إلي غير المسيحيين. وفي الفترة مابين الأعـوام 1259 و 1268م خصَّـص كتاباتـه للتعليـق على كتابـات الفيلسـوف اليونـاني أرسطو. وفي عام 1265م بدأ في تأليف أشـهر أعمالـه المسـمى بحث لاهـوتي شـامل. وقد اهتم فيه بشرح العقيدة النصرانية بتصنيف وترتيب متقن. ولكنه مالبث أن توقف عن التأليف، إذ أعلن عن دخوله في تجربة وجدانية تركته يوقن أن مجمل ما فعله حـتى ذلـك الحين لايرقى إلى ماتبـدَّى لـه إثـر ذلـك الفيض الروحـاني. وقـد قـام البابـا يوحنـا الثـاني والعشرون بإعلانه قديسًا في العام 1323م. ويُحتفـل بعيـده في السـابع من مـارس من كل عام..

فكر أرسطو، والفكر اللاهوتي.. وقد رأيت كثرة أتباعـه.. بـل رأيت أن فلسـفته تحـولت إلى الفلسـفة الرسـمية للكنيسـة الرومانيـة الكاثوليكيـة.. وكـانت تسـمى عنـدها (الفلسـفة المدرسـة)(1) أو (فلسفة المدرسيين)

عنـدما دخلت عليـه في مدرسـته سـمعته يتحـدث إلى تلاميـذه الذين كانوا يسجلون كل ما يقوله.. كان يقول لهم(2): مثلما تجسـد الابن فإنه من الممكن لكـل من الأب أو روح القـدس أن يتجسـد.. تماماً مثلما فعل الابن..

ثم يستغرق في صمت عميق، وكأنـه يتلقى وحيـا من السـماء، ثم يقول: إن الابن، الكلمة الأزلية، قادر تماماً على أن يتجسد مـرة أخرى، في روح و جسد فرد إنسـاني آخـر مختلـف، مولـود من أم أخرى أو مولود من أم و أب، من جنس مختلف و عـرق مختلـف و في بلد آخر و زمن آخر متكلماً لغة أخـرى ومسـتخدماً نموذجـاً من الصورة البشرية مختلفة تماماً عن المسيح ليبشّر برسالته و يشرح العلاقة بين الله و العائلة البشرية.

ثم يستغرق مرة أخرى، ثم يقول بعدها: إن الله لم يصر إنساناً لأجل أن يكون يهودياً ذكراً من أهل القـرن الأول الميلادي ذا طـول و عرض.. بل الله اختار الإنسان لأجـل أن تكـون لِلّه طبيعـة جنس الإنسان ككل.. ولذلك فإنه من الممكن للأب والابن و روح القـدس أن يتجسـدوا ثلاثتهم جميعـاً مـع بعض وفي وقت واحـد في إنسـان فرد واحد فقط، أو في عدة أفراد..

لم أكن أدري الأسـس المنطقيـة الـتي ينطلـق منهـا هـذا المدرس.. فقد قرأت الكتاب المقدس، ولم أجـد فيـه مـا يـذكره.. سـألته عن المنطـق العقلي الـذي يـبرر أقوالـه هـذه.. فنظـر إلي كالحزين، وقال: إن الحقائق الـتي يقـدمها الإيمـان لا يقـوى العقـل

1()سادت هذه المنظومـة الفكريـة بين القـرن الثـاني عشـر والقـرن الخـامس عشـر الميلاديين، وهي تُشير إلى منهج فلسفي للاستقصاء، استعمله أساتذة الفلسفة واللاهوت في الجامعات الأولى التي ظهرت في أوروبا الغربية. وكانوا يُسمّون المدرسيين.

ويعتمـد المنهج المدرسـي على التحليـل الـدقيق للمفـاهيم، مـع التميـيز البـارع بين المدلولات المختلفـة لتلـك المفـاهيم. وقـد اسـتعمل المدرسـيون المحاكمـة الاسـتنتاجية انطلاقًا من المبادئ التي وضعوها بمنهجهم، بقصد إيجاد الحلول للمشكلات العارضة.

نشأت المدرسية نتيجة لترجمـة أعمـال أرسـطو إلى اللاتينيـة الـتي هي لغـة الكنيسـة النصرانية في العصر الوسيط. فهذه الأعمال حثت المفكرين آنذاك على التوفيق بين

قدّم المدرسيون مساهمات قيمة في تطور الفلسفة، منها مـا قـدّموه من أعمـال في مجال فلسفة اللغة. حيث بينوا كيف يمكن لخصـائص اللغـة أن تـؤثر في تصـورنا للعـالم. كما أنهم ركزوا على أهمية المنطق في البحوث الفلسفية.

2() ما نـذكره هنـا ذكـره القـديس تومـا في كتابـه (Summa) (الجـزء 3 / المسـألة 3، الفقرات 5 ـ 8 والمسألة 4، الفقرات 4ـ 6)

على التدليل عليها، ففي استطاعة العقل أن يتصور ماهية الله، ولكنه لا يستطيع أن يدرك تثليث الأقانيم، ومن دلل على عقيدة التثليث في الأقانيم حقر من شأن الإيمان(1).

ثم أضاف يقول، وتلاميذه يكتبون: حتى الكنائس الشرقية تقول هذا، فالقس باسيلوس يقول: (إن هذا التعليم عن التلثيث فوق إدراكنا، ولكن عدم إدراكه لا يبطله).. ووزميله توفيق جيد يقول: (إن تسمية الثالوث باسم الأب والابن والروح القدس تعتبر أعماقاً إلهية وأسراراً سماوية لا يجوز لنا أن نتفلسف في تفكيكها أو تحليلها أو أن نلصق بها أفكاراً من عندياتنا)(2)

التجريبية:

قلنا: فهل ظللت في صحبته بعد أن سمعت منه هذا الموقف من العقل؟

قال: لا.. لم أستطع أن أستمر طويلا في صحبته.. فقد كان مع احترامه الشديد لأرسطو وللمنطق أبعد الناس عن أرسطو وعن المنطق.. وما كان لعقلي أن يرضى بصحبة من هذا حاله.

قلنا: فإلى من لجأت؟

قال: في ذلك الحين بدأت في أوروبا حركة ثقافية كبرى، تسمى النهضة، أعقبت نهاية العصور الوسطى.. وصار لكثير من الناس شغف كبير بالعلوم.. كل العلوم..

وقد أصابني من عدوى ذلك الشغف ما أصابني.. فلذلك رحت أبحث عمن يلبي أشواق عقلي للمعارف وأسباب المعارف ومناهجها.

وقد دلني بعضهم على رجل يقال له (**فرنسيس بيكون**)(3) رأيته قصد أخا له يقال له (**روجر بيكون**)(4).. كان قد نقل إلى

1() قصة النزاع بين الدين والفلسفة، توفيق الطويل: 83.

2()الله واحد أم ثالوث: مجدى مرجان: (11)

3() هو (فرانسيس بيكون) Bacon، Francis (1561 ـ 1626م)، وهو فيلسوف ورجل دولة إنجليزي، كان من المؤيدين الأوائل الأساسيّين والأكثر نفوذًا للمذهب التجريبي ومن المؤيدين لاستعمال الطرق العلمية لحل المشكلات.

من أهم كتبه الفلسفية: التقدم في التعليم (1605م)؛ الأورغانون الجديد (1620م) وهما الكتابان الوحيدان اللذان أتم كتابتهما ضمن مشروع في ستة أجزاء يُسمَّى التجديد الكبير. وهو في طرق بحث ونظريات وإنجازات العلوم التجريبية. وكتب بيكون أيضًا مقالات ذات طابع هزلي ومقالات مبتكرة.

4() روجر بيكون (1214؟ ـ 1292م؟). كان فيلسوفًا وعالمًا إنجليزيًا. وهو يعد واحدًا من الشخصيات الرائدة في تطوير العلوم في القرون الوسطى.. عُرف بصفته مؤسسًا للعلوم التجريبية وأحد الباحثين الأوائل في دراسة علم البصريات، وقد ساعد على إرساء القواعد للثورة العلمية التي ظهرت في أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

سجن بدير الراهبات بباريس.. ذهبت معه إلى الدير.. وتوسلنا إلى الراهبات بكل ما أمكننا أن نتوسل به.. فأذن لنا.. وهناك صحبناه مدة من الزمان.

كان أول ما بدأنا به أن قال لنا(1): لن يعقل عقلك حتى تحطم الأصنام التي تحيط به.. والتي تمنعه من التفكير السليم.

سألته عنها، فقال لي: هي أربعة..

أولها.. صنم الطائفة.. إنه صنم ينحرف بمرآة العقل، فيعكس الحقائق بغير صورتها الأصلية.

وثانيها.. صنم الفرد ذاته.. وهو صنم تفرضه طبيعة الميول الخاصة بكل واحد منا، حيث تسبب هذه الميول الشخصية انحرافات بعيدة في فكر الإنسان.

وثالثها.. صنم السوق.. سوق المعرفة.. وهي الأفكار الخاطئة التي تتسرب إلى أذهاننا بسبب العبارات الغامضة، فعلينا تنقية العبارات حتى نستطيع الوصول إلى الحقائق.

ورابعها صنم المعرض (معرض الأفكار القديمة) التي تحتوي أفكار الفلاسفة السابقين، وتسبب ضغطا شديدا على أذهاننا، وبالتالي أخطاءا جسيمة.

قلت: أنت تحتقر الأفكار القديمة إذن؟

وُلدَ في سومرست في إنجلترا ودرس الفنون الحرة والفلسفة في جامعة أكسفورد، ثم ترك أكسفورد في ثلاثينيات القرن الثالث عشر الميلادي وبدأ يدَرِّس في جامعة باريس.. عاد إلى أكسفورد وأمضى السنوات العشر التالية من حياته في دراسة مكثفة للرياضيات، والتقنية وخصوصًا علم البصريات.. انضم بعدها إلى جماعة الفرنسيسكان الدينية وعاد إلى باريس ليحث على الإصلاح الثقافي داخل الكنيسة وليكرس نفسه لاكتشاف ونشر نظام لكل المعرفة.

وفي هذا الوقت، قام نزاع في داخل الجماعة الفرنسيسكانية، ونتج عنه وضع رقابة على الكتب. وسمح رؤساء بيكون له بالاستمرار في الكتابة ولكنهم منعوه من نشر أعماله.

وتنفيذًا لرغبة طلب البابا كليمنت الرابع، جمع بيكون ملخصًا لنظام المعرفة وأرسل الملخص المسمى أبوس مايوس (العمل الأطول)، إلى البابا في عام 1267م، وأصبح هذا الملخص من أبرز وأهم أعمال بيكون.

خلال السبعينيات من القرن الثالث عشر الميلادي، كتب بيكون في علم الفلك والرياضيات وعلم الفيزياء. وفي عام 1278م انتقدت الكنيسة بعض مؤلفاته وسجن في باريس في دير الراهبات حتى عام 1292م. وقبل فترة وجيزة من وفاته، أتم بيكون كتابه: ملخص لدراسات علم اللاهوت، وفيه أعلن ماكان يعتبره من شرور العالم النصراني.

كانت أهم الأعمال التي كتبها بيكون في العلوم ولكنه كتب أيضًا في الفلسفة وعلم اللاهوت. وتوضح هذه الأعمال تأثر بيكون بالفيلسوف الإغريقي أرسطو، وعالم اللاهوت النصراني القديس أوغسطين وابن سينا.

1() ما ذكرناه هنا هو في الأصل لفرنسيس بيكون لا لروجر بيكون.. مع التنبيه إلى أنهما لم يعيشا في عصر واحد كما ذكرنا في ترجمتهما.

قـال: أنـا لا أحتقرهـا.. ولكـني أرى أن منهجهم في التفكـير لن يوصلهم إلى شيء.. ولن تتطـور الإنسـانية مـا دامت تتمسـك بـه.. والمنطق الذين يعتمدون عليه، ويستقون منه أفكارهم هـو منطـق صوري لا يفيد علما جديـدا، انمـا هـو ترسـيخ للمعلومـات السـابقة وإلزام الخصم بها.

قلت: فما منطقك البديل؟

قال: منطقي البديل هـو الـذي ينهض بـالعلم.. إنـه ينطلـق من القياس والتعقل، واستخراج الكليات من الجزئيات، بعـد الاسـتقراء فيها، وتنويعها، والتعقل فيها، وبدون ذلـك يظـل الاسـتدلال عقيمـا، وبدون أساس ثابت.

الرياضية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل جمع بين الفلسفة والرياضيات.. ولذلك كان لـه من العقل ما أرضى به بعض عقلي.. كان اسمه (**رينيه ديكارت**)(1).. ولكني ـ للأسف ـ لم ألقه إلا قبل فترة وجيزة من وفاته.. كان خارجا حينها من قصر الملكة كريستينا.. ملكة السويد..

قال لي أول ما التقيته: لاشك أنك تبحث عن منهج يسـتطيع بـه عقلك أن يصل إلى الحقائق من أقرب طريق، وأوثق طريق.

قلت: لقد قرأت ما في عقلي.. وأحسب ذلك كافيـا لأن يجعـل عقلي يعقد صحبة مع عقلك.

قال: لن يتيح عقلي لعقلك صحبته إلا إذا تخلق بأربع خلال.

قلت: فما **أولها**؟

قال: الاستقلال الفكري..

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: يجب ألا يعتقد عقلك إلا بما يكـون واضـحا لديـه مقبـولا لا

1() رينيه ديكارْتْ (1596 ـ 1650م)، ويعرف أيضا بكارتيسيوس Cartesius فيلسوف فرنسي ورياضياتي وعـالم يعتـبر من مؤسسـي الفلسـفة الحديثـة ومؤسـس الرياضـيات الحديثة.. والكثير من الأفكار والفلسفات الغربية اللاحقة هي نتاج وتفاعل مع كتاباته التي لا تزال تدرّس إلى اليوم..

ولد في لاهايه قرب شاتيلير و. وتعلَّم في إحدى الكُلِّيَّات اليسوعيَّة، وخـدم في جيـوش بَلَدَيْن، كما سافر كثيرًا، وقد مكَّنته الأموال التي ورثها والتي جاءتـه ممن تولـوه بالرِّعايـة من تكريس معظم وقته للدِّراسة.. وفي الفترة بين 1628 و1649م، عاش ديكارت حياة علميَّة هادئة في هولندا، وأنتج معظم مؤلفاته الفلسفيَّة.. وفي أواخر عـام 1649م، قَبِـلَ دعوة من الملكة كريستينا لزيارة السّويد حيث أُصيب بمرض عُضال وتوفي هناك.

له ثلاثة مؤلَّفات رئيسية هي: رسالة في منهج التَّصرُّف العقلي السليم للمـرء والبحث عن الحقيقة في العلوم (عام 1637م) ويُعرف هذا الكتاب باسـم شـائع وهـو رسـالة في المَنْهَج.. أمَّا الكتابان الآخران فهما: تأمُّلات في الفلسفة الأُولى (عام 1641م) ولعلَّه أهمّ عمل لديكارت، ومبادئ الفلسفة (عام 1644م). وأصبحت فلسفته تُعْرَفُ بالديكارْتيَّة.

ريب فيه..
قلت: فكيف يتسنى لي هذا؟
قال: بأربعة أركان:
أولها.. أن ترفض أفكار السابقين إذا خالفت العلم.. إذ أن اتباع الآخرين في العلم يشبه الأعمى الذي يقوده العميان.. ولهذا، فكلما كان واضحا عند النفس وضوحا شديدا كان معلوما، حتى ولو لم يكن واضحا عند القدماء.
وثانيها.. يجب ألا تتسرع في الحكم بشيء.
وثالثها.. يجب التخلص من الأهواء الداخلية.. فكما أن أفكار القدماء تأسر قلب المتعلم حتى يكاد لا يبصر الحقائق، كذلك أهواء النفس قد تأسر القلب ولا تدعه يكتشف الحقائق.
ورابعها.. اجعل وجدانك حكما على الأشياء، بحيث لا تقبل أي شيء إلا إذا كان واضحا ماثلا أمام وجدانك تماما.
قلت: عرفت أولها.. فما **ثانيها**؟
قال: التحليل.
قلت: ما تريد به؟
قال: بما أن علم الإنسان أوضح بالبسائط منه بالمركبات، فلا بد أن تحلل الحقيقة إلى أكبر قدر ممكن من البسائط.. فالمسائل كما تعلم قد يتضح جزء منها ولا يتضح جزء آخر.. ولذلك فإن التحليل هو الذي ينقذ الفكر من من التردد، ويضع لكل جزء من المسألة ما يناسبه، دون اختلاطه بالجزء الآخر.
قلت: فما **ثالثها**؟
قال: التدرج..
قلت: ما تريد بالتدرج؟
قال: بما أن التحليل يؤدي إلى تعقيد الروابط بين الأجزاء.. فإن ترتيب الفكر والتدرج في البحث عن الواقع الأبسط فالأبسط هو الذي يحمي التحليل من ذلك.
قلت: فما **رابعها**؟
قال: الاستقراء..
قلت: ما تريد به؟
قال: هو الاستقصاء عن كل ما يكشف أي جزء من المسألة حتى تشبعه بحثا وتنقيبا فلا نتحول إلى الجزء الثاني الا بعد ان ننتهي من الجزء الأول في البحث.
قلت: عرفت أصول منهجك.. فما فروعه؟

قال: لقد وجدت أن مقـدار العقـل واحـدا عنـد النـاس جميعـا.. وذلك جعلني أعتقد أن المنهج الذي ينبغي للعقـل أن يتبعـه ويسـير فيه واحد أيضا.. ولذلك يجب ألا يكـون هنـاك أي فـرق بين العلـوم المختلفة في المنهج.

قلت: فأي منهج موحد يجب أن تسير فيه العلوم جميعا؟

قال، وبقـوة: إنـه منهج الرياضـيات الـذي يبحث عن الكم.. إنـه منهج محدد وواضح.. لذلك يجب بحث جميع العلوم حتى الطبيعيات في ضوء هذا المنهج.

نستطيع على ضوء هذا المنهج أن ندخل القياسـات الكميـة في العلوم الطبيعية.. بل نستطيع أن نحول المـرض والقـوة والحـرارة وما أشبه ذلك إلى أمور مقاسة بالكم.

إن الطريقة الرياضية ـ وخصوصا طريقة الجبر ــ هي الطريقـة الوحيدة لمعرفة جميع العلوم.

قلت: فهلا شرحت لي ما تريد بهذا المنهج؟

قال: افترض ـ أولا ـ حلا مسبقا لمشكلتك.. ثم عدد النتائج التي قد تترتب على هذا الحل على افتراض صـحته.. ثم فتش عن هـذه النتائج لترى هل هي موجودة فعلا أم لا..

مثلا، لـو طـرحت عليـك مسـألة تقـول: هـل الحديـد يتمـدد بـالحرارة؟.. فـإن الجـواب السـليم لـذلك هـو أن تفـترض أولا حلا للمسـألة بأنـه (نعم الحديـد يتمـدد بـالحرارة) ثم تبحث عن النتـائج المترتبة على ذلك؟.. وأولى النتـائج أنـه من تمـدد الحديـد لا بـد أن يعوج الحديد أو يكسر أيام الحر لأنه حديد ممتد.. أو لا بـد أن يكـون بين قطع الحديد فواصل تظهر أيام الشتاء، وتختفي أيـام الصـيف.. فهذه هي النتيجة المترتبة على الحل المفترض.

وهذه النتائج تجعلك تلاحظ الواقع الخارجي لترى صحة النتيجـة خارجا، فتعرف مدى صحة الفرضية.

ثم التفت إلي، وقـال: أليس هـذا خـيرا من منهج أسـتاذك أرسطو.. ذلك المنهج العقيم الـذي لا يزيـدك إلا جهلا.. (ان النتيجـة في منطقـه ليسـت سـوى صـيغة أخـرى للمقدمـة.. فـإن كـانت المقدمة صـحيحة فـإن النتيجـة معلومـة بصـورة آليـة.. وإن كـانت إحدى المقدمات باطلة، فإن المنطق ليس سوى وبال)

قال لي ذلك، ثم سار، وسرت معه مدة من الزمان أتتلمذ على يديـه كمـا تتلمـذت الأجيـال الكثـيرة.. لكن عقلي مـع ذلـك ومـع احترامي لاكتشافاته العلمية الـتي تمت على ضـوء منهجـه الجديـد

كنت أرى في منهجه مجموعة نواقص..

منهـا أنـه لم يركـز في منهجـه على دور التجربـة في فهم الحقائق، مما صبغ منهجه بالصبغة الصورية.. وهو بـذلك وقـع فيمـا وقع فيه أرسطو من قبل.

ومنها أني رأيت أن تبسيط العلوم يفيد في كثـير من الأحيـان.. ولكنه بالرغم من ذلك قد يوصـلنا إلى طـرق مسـدودة.. فمثلا، لـو أردنا البحث عن حقيقة الوجود أو العدم، لا نصل إلى نتيجة.. فليس الأمر كما ذكر ديكارت دائما، بأنه في سـبيل البحث عن الحقـائق لا بد من تبسيطها إلى آخر درجة ممكنة، لأن العلم بالبسـائط أسـهل من العلم بالمركبات.. كلا فبعض البسائط، العلم بها لا يختلـف عن المركبات في صعوبته.

ومنها أن العلوم في لحظة وحدتها في جهة تختلـف في جهـات عديدة، وليس من الصـحيح وضـع منهج واحـد لجميـع العلـوم، كمـا حاول ذلك ديكارت.. وقد تنبـه المتـأخرون إلى مـدى فـرق العلـوم عن بعضها، فوضعوا لكل واحد منها منهجا بعد الإشـارة إلى المنهج العام الذي يشمل جميع العلوم.

بالإضافة إلى نـواقص أخـرى كثـيرة اكتشـفتها بعـد أن صـحبت العقل الذي اجتمعت فيه العقول.. والـذي لم أرحـل لهـذه البلاد إلا لأجل البحث عنه.

***

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: لقد لقيت في طريقي رجلا لم تتح لي معرفته بالتفصيل.. كان اسمه (**مابرانش**) (1608 – 1715).. كـان على مـا يبـدو تلميـذا من تلاميـذ ديكـارت.. رآني مهتمـا، فقـال: أنت تبحث عن المستحيل.. فلذلك لك أن تهتم.

سألته: ما تعني؟

قال: أنت تريد أن تعلم حقائق الأمور.. وهذا ما لا يكون.

قلت: لم؟.. وما الحائل بيني وبينها؟

قال: ما دام عقلك يصحب جسمك، ويندمج معه، فيسـتحيل أن تعرف الحقـائق.. لأن حواسـك وخيالـك الفـارغ ورغباتـك النفسـية ستحول بينك وبين الحقائق.

قلت: كيف تتسبب الحواس في حجب العقل عن الحقيقة؟

قال: تعليل ذلـك البسـيط.. إن الهـدف الفطـري من الحـواس يختلف عن الهدف الذي ينشـده الإنسـان، ولـذلك يتـورط الإنسـان

في الخطأ.. إن الغاية من الحواس بالأصل هي ايجاد علاقة مناسبة بين الجسم والعالم المحيط به، حتى يبقى الجسم مصونا من الأخطار.. بينما يستخدم البشر حواسهم فيما هو وراء هذه الغاية، وهو البحث عن العلم بحقائق الأمور، جهلا بأنها إنما تنقل المظاهر الساذجة والآثار السطحية إلى ضمير الإنسان، حتى يتجنبها لأنها هي غايته الطبيعية.

إن حواسنا ـ مثلا ـ تشعر بالألم إزاء بعض الإثارات الخارجية.. فهل الألم أثر من آثار تلك الأمور الخارجية كما نتصور وكما نقول ظاهرا بأن الضرب مؤلم، فننسب الألم إلى الضرب، ونجعله صفة من صفاته؟.. كلا إنما هو من مقتضيات ذواتنا نحن، فهي التي تتأثر بالضرب، ولا دخل له بصورة الحياة الخارجية، ونحن إنما نعبر عن الضرب أنه مؤلم لبيان نوعية العلاقة التي تربطه بأجسامنا.

أضف إلى هذا أخطر داء يحول بيننا وبين العلم بالحقائق.. إنه (التوهم).. إنه الداء الذي يجعلنا نزعم صحة أفكار الآخرين، فنتبعهم بينما هي باطلة وانما تخيلنا خيالا.

أضف إلى هذا كله الرغبات النفسية فإنها تولد الحب والبغض في الإنسان.. وهما بدورهما يحجبان نور العقل ويوقعان الإنسان في الخطأ..

أضف إلى هذا الصفات النفسية.. فهي أشد أثرا في القلب من الرغبات النفسية، لأن الصفة المنحرفة بذاتها تسبب الخطأ، دون واسطة الحب والبغض.

ليس ذلك فقط.. بل إن طاقة الفهم (العقل) قد تتسبب في الخطأ، ذلك لأنها بطبيعتها محدودة بينما يزعم الإنسان أنها قادرة على كشف الأشياء جميعا.. وهذا الغرور سبب خطير من أسباب الخطأ البشري.

قلت: عرفت الأدواء.. فما الدواء؟

قال: يجب ـ أولا ـ أن تطرح أي مسألة بصورة مبسطة.. ثم تبحث عن الوسائط المشتركة.. ثم تحذف الزوائد.. ثم تلخص المعلومات بقدر الإمكان.. ثم تتدبر في نوعية ترتيب المعلومات مع بعضها بدقة تامة.. ثم تقابل المعلومات المركبة مع بعضها لحذف المكررات عنها.. ثم تحذف الأمور غير المفيدة.. وهكذا إلى أن تصل إلى ما قد يتاح لك من الحقائق.

العقلانية المادية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل من هولندا كـان اسـمه (**اسبينوزا**)(1).. لقيتـه في أمسـتردام بين أعضـاء جماعتـه اليهوديـة.. وقـد كـان حينهـا مطـرودا مهانـا بينهم بسـبب ادعائـه بـأن اللـه يكمن في الطبيعـة والكون، وأن النصوص الدينية ليسـت سـوى اسـتعارات ومجـازات غايتها أن تعرّف بطبيعة الله.

لم يكن يهمني منه إلا البحث عن منهجه العقلي.. فقد سـمعت أنه من تلاميذ ديكارت.. وأنـه من الـذين حـاولوا أن يطـوروا أفكـار ديكارت ومنهجه.

عندما التقيت به أول مرة قال لي: لقد رأيت بعـد بحث طويـل ومعاناة قاسية أن طرق معرفة الأشياء أربعة لا خامس لها..

أما أولها.. وأدناها فهي ما نتلقـاه من أفـواه النـاس.. كمعرفتنـا مثلا بيوم ميلادنا..

وأما ثانيها.. فالتجربة المجملة.. كمعرفة الناس ـ بعـد التجربـة ـ أن النفط مما يحترق.

وأما ثالثها.. فمعرفة الرابطة بين الجزئيات والكليات.. كما نعلم

1()هـو بـاروك سـبينوزا (1632-1677م)، فيلسـوف عقلاني مـادي، من أهم فلاسـفة الحضارة الغربية الحديثة، بل هو ـ مع نيتشه ودريدا ــ فيلسـوف العلمانيـة الأكـبر.. عـاش في هولندا، ولكنه من أصل ماراني. أفصح أبوه وجده عن انتمائهما اليهودي بعد وصولهما إلى أمستردام حيث أصبحا من قادة الجماعة اليهودية ومن كبار التجار فيها، وكانا يعملان بالاستيراد أساساً.

ولد في أمستردام لأبوين يهوديين. اكتسب في بدء حياته سمعة المفكـر الحـر، ولـذلك طرد من المجتمع اليهودي في عام 1656م. ثم عـاش في عـدة مـدن في هولنـدا صـانعًا للعدسات.

كان سبينوزا طـوال حياتـه داعيًـا للتحـرر الـديني والسياسـي.. وكـان يعـتز باسـتقلاله، ورفض عروضًا لمعاش من الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسـا، وأسـتاذية جامعيـة في ألمانيا. وبالرغم من أن سبينوزا وجد الاحترام من الجميع فإنه كـان مثـيرًا للجـدل بسـبب آرائه الشاطحة في الدين والفلسفة والسياسة.

تأثرت فلسفة سبينوزا بالفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وتبنى آراء ديكـارت في أن الفكر والمادة هما النظامان الأساسيان للواقع، وأن العالم المادي ليس سوى أجــزاء من المادة تتحرك وتتفاعـل وفـق قـوانين سـببية. إلا أنـه في كتابـه الأخلاق (نُشـر بعـد موتـه بقليل)، طور أفكار ديكارت بطرق غير تقليدية تمامًا. ادعى سبينوزا بأن الإلـه أو الطبيعـة هي المادة الحقيقية، وزعم أنّ الفكر والمادة هما من الصـفات المتناهيـة للإلـه، وأن كـل الأشياء الفانية (مثل عقول البشر وأجسامهم) مجرد أشكال أو حالات من صـفات الإلـه.. لم يترك سبينوزا مجالاً لأي استثناءات للسببية، منكرًا الإرادة الحـرة للبشـرية والإلـه.. إلا أنه رأى، أن حرية العقل يمكن أن تحقق بالفهم العقلاني لمكاننـا في الطبيعـة وخضـوعنا لقوانينها خاصة قانون الانفعالات.

وقد تعددت روافد فلسفة سبينوزا فكانت من بينها روافـد يهوديـة، ولكنـه كـان يـرفض صحة القول بدقة أسفار العهد القديم ـ وقد ذكرنا رأيه في هـذا في الأجـزاء السـابقة من هذه السلسلة ــ وهـو يـرفض دعـوى اليهـود أنهم شـعب اللـه المختـار.. وقـد تـأثر كثـيرًا بفلاسفة العصور الوسطى من اليهود مثـل موسـى بن ميمـون وابن جـبرول وهـذان كانـا متأثرين بالفلاسـفة الإسـلاميين الـذين جمعـوا في تصـوراتهم، للـه والخلـق والكـون، بين الإسلام والمشائية والأفلاطونية المحدثة.

بالحرارة بعد العلم بوجود النار.. وهذا الطريـق أفضـل من الطـرق التي سبقته.

وأمــا رابعهــا.. وأعلاهــا.. فهــو الوجــدان الــذاتي والشــهود الشخصي.. وهو طريق لا يأتيه الخطـأ، لأنـه منطبـق مـع المعلـوم، ويـأتي بعلاقـة مباشـرة بين الفـرد والمعلـوم، ولـذلك فهـو مـوجب لليقين، وهـو يتعلـق بالبسـائط والمبـادئ الأوليـة، ومـوارده قليلـة جدا(1).

قلت: لم كان كذلك؟

قـال: لأن العلم بالبسـائط.. أي بـالطريق الوجـداني.. واضـح ومحدد وموافق مع المعلوم الخارجي، ولسنا بحاجة إلى حجة تـدل على صـحته.. ولهـذا فلسـنا بحاجـة إلى البحث عن منهج صـحيح للمعرفـة.. فالمعرفـة هي بـذاتها دليـل على صـحتها، وعلى صـحة الطريق المؤدي إليهـا، لا العكس... وبالتـالي فـإن العلم هـو طريـق العلم.. العلم بالواقع طريق العلم بذلك المنهج الـذي يوصـلنا اليـه، أي على ضوئه نستطيع معرفة المنهج المؤدي إليه وإلى غيره.

قلت: إن هذا يستدعي البحث عن حقيقة واضحة جدا ومتمـيزة تماما عن الباطل.

قال: أجـل.. فلا يمكن أن تؤسـس الحقـائق إلا على الحقـائق.. وكلما كانت الحقيقية واضحة أكثر وضوحا، وأشد تمييزا عن الباطل كانت أفضل.. لأن أسـاس العلم آنئـذ يكـون أكـثر رسـوخا، ويكـون العلم النابع منه أشمل إحاطة بالحياة.

قلت، وقد هزني الفرح: فما هـو ذلـك العلم الأول الـذي يتعلـق بأوسع الأشياء إحاطة وأسماها رتبة؟

قال: إنـه العلم باللـه الـذي يهـدي إلى كـل علم.. فعلى ضـوئه نتعرف على المنهج الصحيح ونبلغ به جميع الأشياء.

قلت: ومن هو الله؟.. وكيف نصل إليه؟

قـال: ليس الإلـه كائنًـا فـوق البشـر.. وليس هـو الـذي خلـق الكـون.. وليس هـو الـذي تـذهب إليـه الـديانات.. وليس هـو الـذي ينشغل بمصير البشر، ويرسل لهم العلامات والرسائل.

1() أنشـأ سـبينوزا منظومـة فلسـفية على منـوال الهندسـة، إذ حـاول أن يسـتخلص الاستنتاجات الفلسفية من عدد محدود من البديهيات المركزية؛ أي التي تفـترض أنهـا من الحقائق المسلم بها، وكذلك من التعاريف.. وهو يُعد من دعاة الفلسفة الآلية لأنه يرى أن كل شيء في الكون مقـدر حتمًـا، وكـان هدفـه الأساسـي ذا طـابع أخلاقي، حيث أراد أن يشرح كيف يمكن للإنسان أن يكون حرًا عاقلاً راضيًا مرضيًا في هذا العالم الـذي تسـيِّره الحتمية.

قلت: فمن هو إذن؟

قال لي بلغته اللاتينية: ديوس سيفي ناتورا (Deus sive natura)

قلت: تقصد (الإله أي الطبيعة)

قال: أجل.. فبما أن الطبيعة هي النظـام الكلي للأشـياء.. فـإن الإله هو النظام الكلي للأشياء(1).

الحسية التجريبية:

اكتفيت بقوله هذا.. والذي رفضـه عقلي أيمـا رفض(2).. ورحت أبحث عن أستاذ آخر.

قلنا: إلى من لجأت؟

قال: إلى رجل حاول أن يجمع بين الفلسـفة والسياسـة.. كـان اسمه (**جون لوك**)(3).. لقيتـه عنـد خروجـه من بلاط الأمـير وليم

1()ذكر المسيري أن إسبينوزا استخدم للتفرقـة بين تصـوري الإلـه والطبيعـة تعبـيرين لاتينيين (ناتورا ناتورانز natura naturans)، أي (الطبيعة الطابعة)، و(ناتورا ناتوراتا natura naturata)، أي (الطبيعة المطبوعة)، والطبيعة الطابعـة هي النظـام الشـامل للأشـياء من حيث هو ذو وجود ضروري، ولا يمكن أن يتم تصوُّره بغيره لأن شيئاً لا يخرج عنه، كمـا أن العلة كامنة فيه باطنة، أي لا يتحكم فيه شيء خـارج عنـه. أمـا الطبيعـة المطبوعـة، فهي الأوجه الجزئية أو المكوِّنات الموجودة في العـالم من حيث هي تعبـير جـزئي عن صـفات الجوهر الشاملة. ويمكن القول بأن (الطبيعة الطابعة) هي الإله/الطبيعة في حالة اكتمال، أما الطبيعة/المطبوعة فهي الإله/الطبيعة في حالة صيرورة آخذاً في التحقـق في المـادة (وهذا يقابل العقل المطلق عند هيجل ثم تحقُّقه من خلال الجدل داخـل الطبيعـة إلى أن يكتمل في نهاية التاريخ) (انظر: الموسوعة اليهودية)

وبهذا، ردَّ إسبينوزا العالم بأسره، في ثباته وحركتـه، إلى مبـدأ واحـد، وهـذا المبـدأ هـو القوة الدافعة للمادة والسارية في الأجسام، الكامنة فيهـا، والـتي تتخلـل ثناياهـا وتضـبط وجودها، قـوة لا تتجـزأ ولا يتجاوزهـا شـيء ولا يعلـو عليهـا أحـد، وهي النظـام الضـروري والكلي للأشياء، نظام ليس فوق الطبيعة وحسب ولكنه فوق الإنسان أيضاً. ويُسمي دعاة وحدة الوجود الروحية هذا المبدأ (الإله) ويسميه دعاة وحـدة الوجـود الماديـة (الطبيعـة)، ويكتشف إسبينوزا التقابل بين شكلي وحدة الوجود ويؤكد هذه الحقيقة الأساسية بالنسبة لمنظومته الفلسفية في عبارته اللاتينية الشهيرة (ديوس سيفي ناتورا Deus sive natura) وهي عبارة تعني (الإله أي الطبيعـة) والطبيعـة هي النظـام الكلي للأشـياء، ومن ثم فـإن الإله هو النظام الكلي للأشياء.. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

2() من الملاحظات التي وجهها المدرسي لمنهج اسبينوزا:

1- أنه قسّم طرق العلم بالحقيقة إلى أربعة وجعل منها الوجدان كما جعل منهـا أقـول النـاس.. ومن حقنـا أن نتسـاءل عن معـنى العلم؟ أليس هـو وجـدان الأشـياء وكشـفها الوصول مباشرة إليها، كما يقول اسبينوزا ذاته.. فإذا كان كذلك، وهو كذلك، فلا فرق بين أن يأتي هذا الوجدان عن طريق التفكير أو الإحساس أو العلم بالعلة والمعلـول، بـل إنمـا يـأتي الوجـدان بعـد هـذه الطـرق أو بعـد غيرهـا ممـا يسـبب حالـة العلم في النفس، إذ الوجدان هو العلم ذاته.. إذا فليس من الصحيح جعل النتيجة من أقسـام الطـرق المؤديـة إليها وجعلها أفضل منها.

2- بالرغم من أنه تفطن إلى أن حقيقة العلم نور وكشف وظهور إلا أنـه لم يتفطن، أو لم يذكر، كيف نستطيع الوصول إلى منهج صحيح بعد العلم بحقيقة واضحة.

3() هو جون لوك (1632م - 1704م)، وهو فيلسوف إنجليزي أثَّرت كتاباتـه في علم السياسة والفسلفة، كـان لكتابـه رسـالتان للحكومـة (1690م) تـأثير قـويّ على تومـاس جيفرسون وهو يكتب إعلان استقلال أمريكا.

بهولندا.. أراني أول ما لقيته مقالا له عن الفهم الإنساني شرح فيه نظريته حول الوظائف التي يؤديها العقل (الذهن) عند التعرف على العالم.

وقد رأيته فيه يعترض على المذاهب التي ترجع الأفكار إلى الفطرة والتلقائية.. أو التي ترى أن الأفكار تكون جزءاً من العقل عند الميلاد، ولا يتم تعلمها أو اكتسابها فيما بعد من المصادر الخارجية.

ورأيته يذكر بدل ذلك أن الأفكار جميعها تأخذ مكانها في العقل من خلال الخبرة.. وأن هناك نوعين من الخبرة: الخبرة الخارجية، والخبرة الداخلية.

أما الخبرة الخارجية، فتُكتسب من حواس البصر والتذوق والسمع والشم واللمس، وهي الحواس التي تمد المرء بمعلومات عن العالم الخارجي.

وأما الخبرة الداخلية، فتُكتسب من خلال التفكير في العمليات العقلية التي تتم لتمحيص هذه البيانات، وهي التي تمد المرء بمعلومات حول العقل.

ورأيته يذكر فيه أن في الكون ثلاثة أنواع من الأشياء: العقول، وأنماط مختلفة من الأجساد، والإله.. ويذكر أن للأجساد نوعان من الخواص: نوع يمكن قياسه حسابياً مثل: الطول والوزن، وهي أشياء توجد في الأجساد ذاتها؛ ونوع آخر كيفي مثل الصوت واللون، لا يوجد في الأجساد ذاتها ولكنه، باختصار، قوى تمتلكها الأجساد لتعريف العقل بمفاهيم الألوان والأصوات.

ورأيته يذكر فيه أن الحياة الصالحة هي حياة المتعة.. وأن المتعة والألم مفهومان مجردان يصاحبان تقريباً كل التجارب الإنسانية.. ويستلزم التصرف على نحو أخلاقي تحديد أي الأفعال يمكن أن يؤدي إلى أكبر قدر من المتعة في موقف معين، وذلك قبل ممارسته..

ورأيته يذكر فيه أن الله قد وضع قانوناً إلهياً، يمكن التعرف

وُلد في رينجتون بمقاطعة سومرست بإنجلترا، ودَرَس بجامعة أكسفورد.. وفي عام 1666م التقى بأنطوني أشلي كُوبر الذي صار فيما بعد أول إيرل لشافتسبري، وربطت بين الرجلين صداقة حميمة.. وفي عام 1679م تورط الإيرل في مؤامرات ضد الملك، وثارت الشكوك حول لوك أيضاً، فقرر أن يرحل عن إنجلترا، وانتقل إلى هولندا عام 1683م، حيث التقى بالأمير وليم والأميرة ماري، أميرة أورانج.. وفي عام 1689، صار وليم وماري حاكمي إنجلترا، فعاد لوك إليها بوصفه أحد المقربين إلى البلاط الملكي.. وقد ظل لوك حتى وفاته يكتب بقدرٍ كبير من الحرية في موضوعات مثل الإصلاح التعليمي، وحرية الصحافة، والتسامح الديني.

عليه بالعقل، يكون الخروج عليه خطأ أخلاقياً.. وكان يرى أن هنـاك توافقاً بين القانون الإلهي ومبدأ المتعة.

ورأيته يذكر فيه أن للنـاس بطـبيعتهم حقوقـاً وواجبـات معينـة، مثل: الحرية والحياة وحق الملكية.. ورأيته يقصد بالحرية المساواة السياسية..

لم يكن يهمني من آرائـه إلى مـا يتعلـق منهـا بـالمنهج العقلي، فلذلك رحت أسأله عنه، فقال: أنا صاحب (النظرية الحسـية).. أنـا الذي أسستها.. وهي مدرسة تعيد كـل العلـوم إلى مبـدأ واحـد هـو الحس..

قلت: والعقل!؟

قـال: أنـا لا أنكـره.. ولكـني أرى أنـه ناشـئ من الحس.. أو بالأحرى كان بروزه متأخرا عن الحس.. ولذلك فأنا أرى الإنسـان لا يمكنه أن يعرف حقيقة إلا بتجربتها مباشرة، فليست هنـاك حقيقـة اسـتنباطية يسـير فيهـا الفكـر من الحقـائق العامـة إلى الحقـائق الجزئية.

قلت: ولكن الحس يعتمد على العقل.. ألا ترى أنا نقول: إن كل فلز يمتد بالحرارة.. والحديد فلز.. فلابد ان يمتد بالحرارة؟

قـال: من أين عـرفت هـذا العمـوم؟.. هـل من التجربـة على الحديد التي كانت بين التجارب التي أجريت على كل فلز؟.. أم أنه مجرد تخمين؟

قلت: بل هو حكم عقلي.

قال: لا يكفي ذلك لثبت ما تريد أن تثبتـه.. بـل يجب أن تجـرب الامتداد على الحديد بالذات حتى يمكنك أن تقول ذلـك.. فـالعلم لا يحصل بدون التجربة.

قلت: على ما تعتمد هذه النظرية؟

قال: على ثلاث قواعد..

قلت: فما **أولها**؟

قـال: قـوى الادراك.. لقـد وجـدت أن في الإنسـان عـدة قـوى متدرجـة.. هي الـتي تـوفر لـه المعرفـة.. وتبـدأ هـذه القـوى بقـوة الإدراك، وهي أولى مراحل المعرفة.. تليها قوة الحفظ، وهي القوة التي تدخر المعلومات الناتجة من الإدراك.. تليها قوة التميـيز، وهي التي تفصل بين المعلومات المدخرة.. تليها قوة التقييم، وهي التي تبين نسبة المعلومات إلى بعضها.. تليها قـوة الـتركيب، وهي الـتي تكلـف بجمـع المعـاني البسـيطة وتركيبهـا.. تليهـا قـوة التجريـد أو

الانـتزاع وهي مسـؤولة عن اسـتنباط معـنى كلي من الخصـائص الجزئية التي تلاحظها في منظر واحد.

قلت: فما القاعدة **الثانية**؟

قال: التقسيم..

قلت: ما تريد به؟

قال: لقد رأيت أن التصورات.. جميع التصورات.. إما أن تكـون بسيطة منشأها حس واحد، وذلك مثل تصور الحرارة.. وإما مركبـة منشأها عدة أحاسيس.. وذلك مثل تصور الجسمية، لأنه إنمـا يـأتي من تصور الحجم والوزن وغيرها.

ورأيت أن التصور قـد يكـون مثبتـا، يكشـف عن وجـود شـيء، وذلك مثل تصـور النـور والحـرارة.. وقـد يكـون منفيـا يكشـف عن عدمه، وذلك مثل تصورنا للظلام والبرودة.

ورأيت أن الفكرة التي يستوعبها الذهن بسبب التصور تدعى بـ (المفهوم)، بينما ارتباط هذا التصور بمنشئه يسمى بـ (الخاصـية).. فمثلا الحرارة، مفهوم ذهني، ولكنها من جانب آخر خاصية للنار.

والتصور أيضا قد يكون تصور لذات شـيء، وقـد يكـون تصـورا لحاله، وقد يكون تصورا لعلاقته بسائر الأشياء.

قلت: فما القاعدة **الثالثة**؟

قال: فقه اللغة..

قلت: وما علاقته بهذا؟

قال: لا يمكن فهم العمليات العقليـة من دون فقـه اللغـة.. لأن اللغة هي التي تكشف بقدر ما عن التصورات، وتكون مقياسا أمينا لمعرفة طبيعتها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: بما أن تصور الإنسان يعتمـد على الإحسـاس في البدايـة، فإن الرجل البدائي يعبر عنه أولا، فالطفل مثال للفرد البدائي وهـو لا يعـبر أول مـا ينطـق إلا عن الأمـور المحسوسـة.. كـذلك الأمم المتوحشة، مثال للجماعة البدائية، فلا نجـد في لغتهم تعـابير تخص الأمور العقلية، وكلما تقـدمت الأمـة باتجـاه الحضـارة، كلمـا زادت تعابير لغتها التي تكشف عن أمور عقلية.

قلت: عرفت منهجك العقلي، فما حقيقة العلم؟

قـال: يقسـم العلم إلى ذاتي وتعقلي وحسـي.. فالـذاتي، هـو معرفـة نسـبة التصـورات الذاتيـة إلى بعضـها معرفـة مباشـرة.. والتعقلي، هو المعرفة التي تحتاج إلى استدلال وتفكـر.. والحسـي،

هو المعرفة الناشئة من الإحساس، وهو بالرغم من قلة قيمته الفلسفية لعدم إفادته اليقين فإنه ذات قيمة عملية لأننا نعتمد على الحس في كل شؤوننا، وخاصة في العلوم الطبيعية التي مرد تصوراتها فيها تكون خارج الذهن.

بعد أن سمعت منه هذا صحبته مدة من الزمن أتدرب على يديه.. لكني سرعان ما انصرفت عنه، فقد لاحظت تعلقه الشديد.. بل تطرفه الشديد باتجاه تقييم الحس.. وقد نتج عن تطرفه هذا أمران..

أما أولهما.. فتناسي دور العقل والسابقيات الفكرية، التي يكشفها العقل، في بناء صرح المعرفة، وهذا مخالف للواقع المشهود(1).

وثانيهما.. أنه جعل المنهج العلمي خاضعا للتجربة المادية، تتشابه مع سائر التجارب التي تجري على المادة.. وهذا مخالف للرأي العلمي السديد الذي يفصل بين أنواع التجربة حسب اختلاف المواد(2).

وبالتالي فإن عقلي رفض نظريته، لأني رأيت أنه من دون وجود عقل يكشف عن صحة أو زيف الاحساس لا يمكننا أن نثق به ونستثمره في سبيل تحصيل العلم..

وقد رأيت أن لوك ذاته تنبه إلى هذه الملاحظة فجعل العلم الناشئ من الإحساس في الدرجة الثالثة من الأهمية بعد العلم

1() سنرى تفاصيل هذا في المبحث الثاني من هذا الفصل عند حديثنا عن النظرية الإسلامية الشاملة.

2()ومن هنا قال جون ديوي عن لوك:(إن كلمة (خبرة) حين استعملت عند بدء ظهورها استعمالا يضفي عليها الوقار بولغ ـ بغير شك ــ في جانبها المتصل بالملاحظة، كما نرى مثلا عند (بيكن ولوك) ونستطيع أن نلتمس لهذه المبالغة تعليلا سريعا في كونها حدثت في الظروف التاريخية التي حدثت فيها (أي إنها كانت من وحي الظروف الخارجية) ذلك لأن الفكر الفلسفي كان قد تدهور حتى بلغ صورة استبيح معها الظن بأن اعتقاداتنا عن أمور الواقع يمكن، بل ينبغي أن نحصلها بالتدليل العقلي وحده الا إذا كانت مستندة إلى أقوال النقاد، فتولدت عن معارضة هذه النظرة المتطرفة نظرة أخرى تساويها في قصر نفسها على جانب واحد، وهي إن الإدراك الحسي وحده يمكن أن يقرر لنا على نحو مرض ما عسانا نريد أن نعتقده عن أمور الواقع، فأدت هذه الفكرة عند (بيكن) وبعد ذلك عند (لوك) إلى اهمال الدور الذي تؤديه الرياضة في البحث العلمي كما أدت عند لوك إلى تقسيم يوشك أن يكون فاصلا بين معرفتنا لأمور الواقع ومعرفتنا لما يقوم بين أفكارنا من علاقات، على أن هذه المعرفة الأخيرة ــ بناءاً على مذهبه ــ تعود فترتكز في نهاية الأمر على الملاحظة الخالصة سواء كانت تلك الملاحظة داخلية أم خارجية نتج عن ذلك مذهب يرد الخبرة إلى إحساسات هي المقومات التي تتألف منها كل ملاحظة كما يرد الفكر إلى روابط خارجية تصل هذه المقومات على أن المفروض في الاحساسات وفي روابطها معا أن تكون عقلية فقط أي أن تكون نفسية خالصة) (المنطق نظرية البحث).

الذي يحصل بالوجدان والعلم الذي ينشأ من الاستدلال.

المثالية الفلسفية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل دين كان مطرانا إنجليكانيا.. وكان في نفس الوقت فيلسوفا.. كان يقال له (**جورج باڑكلي**)(1).. لقيته بمسقط رأسه أيرلندا..

قال لي أول ما لقيته: لاشك أنك كنت عند ذلك الأعمى الذي يقال له (جون لوك)

قلت: أجل.. ولكنه لم يكن أعمى.

قال: ما دام لا يرى إلا الحس فهو أعمى.

قلت: وما ترى أنت؟

قال: أنا لا أرى إلا المعنى..

قلت: ولكن هناك أشياء محسوسة.. بل كل ما يحيط بنا محسوس.

قال: كل ما نراه من أشياء مادية ليس إلا أفكار أو أحاسيس نشعر بها تجاهها..

قلت: فأنت ـ بهذا الاعتبار ـ لا تعد التفاحة شيئاً سوى لونها، وشكلها، وملمسها، ووزنها، وطعمها، وخواصها الأخرى على النحو الذي ندركه بأحاسيسنا.

قال: أجل.. كما أن الخصائص أو الأفكار التي نشعر بها لا توجد إلا في مخيلتنا.. وهي تتغير بتغير الشخص الذي يتلقاها.. فالمياه الدافئة نفسها تبدو ساخنة لليد الباردة، وتبدو باردة لليد الساخنة.. وهكذا فإن الخصائص التي نشعر بها ماهي إلا أفكار تعتمد على العقل الذي يتلقاها، وليس لها وجود مستقل.

قلت: ما الذي جعلك تعتقد هذا مع أن الكل يعتقد أن الأشياء المادية المحسوسة تتكون من مادة، والمادة هي الشيء الذي توجد فيه الخصائص المختلفة، ومن المفترض أن المادة توجد خارج العقل، ومستقلة عنه.

قال: إن كل ما يدركه البشر يرتكز على الحس، وإذا اختبرنا الحس وجدناه مليئا بالمتناقضات.. فالبصر يرى الشيء القريب كبيرا، وإذا ابتعد عنه حسبه صغيرا.. والأذن تسمع الصوت ضعيفا إذا كان بعيدا عنها، وإذا اقترب اليها سمعته عاليا ـ أو بالأحرى تعتقد

1()هو جورج باڑكلي (1685 -ـ 1753م) هو مطران إنجليكاني وفيلسوف، وُلد فى أيرلندا.. وقد حاول ربط العلم السائد في عصره بالمسيحية.

أنها تسمعه عاليا ـ وهكذا..

فإذا كان الإحساس يتناقض فكيف نطمئن إليه؟

ثم لدى تحليل الإحساس نجده ليس سوى التصور، والتصـور لا يعدو أن يكون فكرة تعيش داخل الشعور، ولكن لدى التعمـق نجـد أن هـذه الفكـرة قـد لا تكـون وليـدة واقـع موضـوعي.. بـل وليـدة هاجسـة نفسـية أو قـوة علويـة تبعثهـا في نفوسـنا.. أليس أولئـك الواقعيون يعترفون بوجود أفكار لا واقع لها.. فلماذا لا يجعلون كـل الأفكار بعيدة عن الواقع؟

سـكت قليلا، ثم قـال: لنـدع التصـورات السـاذجة.. ولنـدرس المعارف البشـرية، هـل هي ذات قيمـة بعـد التنـاقض الـذي نجـده بينهـا؟ فهي لا تقـوم إلا لكي تنهـار.. فكم من قضـية كـانت من المسـلمات، أصـبحت من الخرافـات، وكم من فكـرة أجمـع عليهـا المفكرون، ولم تمض عليها فترة حتى اصبحت مهجورة.

فـالواقعيون لا يتمكنـون من ادعـاء الصـحة في أي جـزء من معلوماتهم ما دامت سائر الاجزاء قد تبخرت مع حرارة الزمن!

قلت: ألا ترى أن ما تقوله مثالية؟

قال: إن كانت المثالية تعني أن الوجود لا يعني سـوى التصـور، فأنا مثالي، وفلسفتي مثالية.

قلت: فأنت تنكر بقولك هذا العالم..

قال: أنا لا أنكر العالم، ولا أي حقيقـة موضـوعية فيـه.. ولكـني أنكر أن تكون حقيقة الأشياء هي الوجودات المستقلة عنا، القائمـة بذاتها.. إن هذا وهم كبير.. إن حقيقتهـا لا تعـدو أن تكـون مجموعـة تصورات تتفاعل داخل شعور كل منـا، وكـل مـا يقولـه النـاس عن العلم والصناعة والتاريخ والاكتشافات والنشاطات المادية حقيقة لا ريب فيهـا، ولكنـا نسـأل عن معـنى الحقيقـة؟ انهم يحسـبون أن معناهـا الوجـود المـادي الكـثيف، ولكـني أقـول إن معناهـا الوجـود الذهني اللطيف.

قال ذلك، ثم اسـتغرق في صـمت عميـق قـال بعـده: كـل مـا يقوله العلماء والفلاسفة والناس جميعا صحيح، ولكنه لا يعني وجود واقع خـارج الشـعور.. بـل إن كـل مـا يذكرونـه تصـورات شـعورية محضة.

لم تطل صـحبتي لـه طـويلا.. فقـد رأيت أن مـا ذهب إليـه من منهج يكـاد يقضـي على كـل العلـوم.. بـل يكـاد يحولـني إلى السفسطة..

أما ما ذكره من أدلـة فهي مجـرد التباسـات.. فمعرفـة أخطـاء الحس وتناقضاته بسيطة لمن أوتي نور العقل.. وما دمنا آمنا بـدور العقل الذي لا يخضع للحس وإنما بالعكس يخضـع الحس لـه، فـإن بمقدورنا كشف تناقضات الحس ببساطة متناهية(1).

أما استدلاله بإمكانيـة خطـأ المعـارف البشـرية، فإنـه نـوع من الخلــط بين المعرفــة والجهــل، لأن المعــارف لن تخطئ لأنهــا مشاهدات مباشرة للواقع.. وهناك فرق كبير بين تبين خطأ عقيدة، وبين تبين خطـأ علم.. العلم لا يخطئ، بينمـا تخطئ العقيـدة إذ أن الثانية تخضع للشهوات والتطورات المادية بيـد أن العلم النـابع من العقل ليس كذلك.

ويكفينا حجة: تلك المجموعة الضـخمة من المعلومـات الـتي لا يتردد أحد فيها ولا يحتمل أنها قـد تخطئ في يـوم مـا إطلاقـا مثـل الإيمـان بوجـود حقيقــة الكـون والسـنن العامـة فيـه، والقـوانين الرياضية التي تحكمـه، لا يمكن ولا نحتمـل ان تخطئ في يـوم من الأيام.

الشكوكية التجريبية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى فيلسوف أسكتلندي أثر وتأثر بالشكوكية والتجريبيـة.. فصار شكوكيا تجريبيا.. كان يقال له (**ديفيـد هيـوم**)(2).. سـألني أول ما التقيته قائلا: إذا كان كلّ ما يعرفه الإنسان مجرد فكـرة عن شيء ما، فكيـف السـبيل إلى التأكـد من وجـود شـيء في العـالم يتطابق مع تلك الفكرة؟

لم أجد بما أجيبه، فقـال: إن الوجـود يحـدث بحصـول إدراكـه.. فالشيء لا وجود له إلا عندما يدركه عقل الإنسان.

قلت: تقصد أن الأشياء المادية ليسـت سـوى أفكـار مرسـومة في العقل، وليس لها وجود مستقل.

قال: أجل.. هـذا مـا فهمتـه من نظريـات لـوك وبـاركلي.. لقـد

1() سنرى الأدلة المثبتة لهذا عند عرضنا للنظرية الإسلامية.

2() هو ديفيد هيوم (1711 -ـ 1776م) فيلسوف أسكتلندي.. وُلد في أدنـبره وقضـى غالبية سني حياته في الكتابة، ومن وقت لآخر، كان يقدّم خدماتـه في بعثـات دبلوماسـية في فرنسا وأقطار أخرى. وأعظم أعمالـه: رسـالة في الطبيعـة البشـرية في الفـترة بين 1739ـ 1740م، ولم تجذب إليها إلا اهتمامًـا ضـئيلاً، عنـدما نُشـرت. ولكن شـهرة هيـوم طبقت الآفـاق وبخاصـة في فرنسـا، بعـد أن نشـر عـددًا أكـبر من أعمالـه في الفلسـفة، والدين والتاريخ. وكـانت هـذه الأعمـال تضـم بين دفتيهـا: موضـوعات فلسـفية عن الفهم الإنساني (1748م). وبحث فيما يتعلق بمبادئ السلوك الأخلاقي (1751م)، وكتاب هيـوم عن تاريخ بريطانيا (1754، 1756م)؛ تاريخ إنجلترا (1759، 1762م)

رأيت من خلال الجمع بين فلسفتهما أن جميع محتويات العقل إنما هي انطباعات وأفكار.. وقد تخطر بالبال فكـرة يمكن الاهتـداء إلى أصلها المتمثل في انطباع سابق.

ولهـذا يجـدر بالإنسـان أن يحـدد الانطبـاع الـذي أنتج الفكـرة وأعطاهـا معـنى معينًـا، فـالفكرة الـتي تخطـر بالبـال من غـير أن نستدل على أصلها لابد أنها عديمة المعنى.

سـكت قليلا، ثم قـال: كيـف يمكن التأكـد من أن المسـتقبل سوف يكون مثل الماضي؟

قلت: ما تقصد؟

قال: هل ستمارس قوانين الطبيعة عملها على المنوال السابق نفسه؟

قلت: هذا هو الظاهر.

قال: لا نستطيع أن نؤكد أنها جميعـا سـوف تسـتمر في السـير على المنوال نفسه..

قال ذلك، ثم انصـرف عـني.. فانصـرفت إلى مؤلفاتـه أدرسـها لأبحث عن الأساس الذي انطلـق منـه في أفكـاره تلـك.. فوجدتـه عديم الثقة بالتأمل الفلسفي.. ولكنه يؤمن أن كـل معرفـة جديـدة تأتي نتيجة للخـبرة، وأن كـل الخـبرات لا توجـد إلا في العقـل على شكل وحدات فردية من الخبرة.. ووجدته يعتقد أنّ كـل مـا مَـرّ بـه الفــرد مباشــرةً من خــبرة لم يكن أكــثر من محتويــات شــعوره الخاص، أو ما يتضمنه عقله الخاص.. ووجدته يعتقد بوجود عالم مـا خارج منطقة الشعور الإنساني، ولكن لم يطـرأ على ذهنـه أنّ هـذا الاعتقاد كان من الممكن إثباته.

وقد وجدته يطلق على وحـدات الخـبرة الحيويـة الفعّالـة اسـم المدركات الحسِّية، أما وحدات الخـبرة الأقـل حيويـة وفعاليـة فقـد أطلق عليها اسم المعتقدات أو الأفكار.. فالكلمات والمدركات لهـا معانيها عند الشخص إذا كـانت لهـا علاقـة مباشـرة بوحـدات هـذه الخبرة.. وكانت كل وحـدة من الخـبرة منفصـلة متمـيزة عن بقيـة الوحدات الأخرى جميعهـا، على الـرغم من أن الوحـدات عـادة مـا تُمارس وتُجرب على أنها مرتبطة بعضها ببعض.

وقد وجدته يرى أن هناك ثلاثـة مبـادئ تربـط الأفكـار المتحـدة بعضها ببعض..

أولهـا التشـابه.. فـإذا مـا تشـابهت وحـدتان من الخـبرة، فـإن التفكير في واحدة قد يؤدي إلى التفكير في الأخرى.

وثانيها التّماس أو التجاور.. فـإذا مـا تلازمت وتجـاورت وحـدتان الواحدة مع الأخرى، فإن التفكـير في واحـدة قـد يثـير التفكـير عن الأخرى.

وثالثها السبب والنتيجة (الأثر).. فـإذا مـا سـبقت وحـدة واحـدة باستمرار وحدة أخرى، فإن فكرة الوحدة الأولى ستظهر في فكرة الوحدة الثانية.

وقد وجدته يهجم على مبدأ السببية الذي يقـرر أنـه لا يمكن أن يحدث أو يظهر إلى عالم الوجود شيء من غير سـبب.. وقـد كـان هيوم يعتقد بدل ذلك أنـه بـالرغم من أن حـدثًا واحـدًا يسـبق دائمًـا حدثًا آخر، إلا أن هذا لا يثبت أن الحدث الأول سبّب الحدث الثاني.

ووجدته يرى أن الـتزامن المتواصـل بين حـدثين، ينشـئ توقعًـا بأن الحدث الثاني سوف يتم حدوثه بعـد الأول.. ولكن لم يكن هـذا شيئًا أكثر من اعتقاد راسخ، أو عادة عقلية علمتنا إياها الخبرة، ولم يستطع أحد أن يبرهن أن هناك ارتباطات سببية بين الانطباعات.

وقـد بـنى هيـوم نظريتـه عن الأخلاقيـات على الخـبرة، رافضًـا الـرأي القائـل بـأن العقـل في اسـتطاعته التميـيز بين الفضـيلة والرذيلة.. وقد فحص الظروف التي كان فيها النـاس يتحـدثون عن الأخلاقيات، وختم أقواله بأن الميزات الفاضلة عند الناس هي تلـك التي كانت سائغة أو نافعة لهم.

النسبية الذاتية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى فيلسوف ألماني، كتب في (نقد العقل الخالص) (1).. كان اسمه (**إيمانويل كَانْط**)(2) لقيته ببروسـيا الشـرقية.. والـتي تُعرف الآن بكالينينغراد في روسيا..

1()حوى كتاب (نقد العقل الخالص) خلاصة تجربة إيمانويل كانط الفلسـفية.. بـل أدى إلى تغيير خارطة أوروبا الفكرية والفلسفية.

وقد أدى هذا الكتاب بفلاسـفة مشـهورين كـانوا قـد سـلموا بمطلقيـة العقـل النظـري وسيادة أحكامه إلى تغيير آرائهم بصورة تامة بعد قراءته، إذ سلم نيتشه بكل مـا في ثنايـا الكتاب واعتبرما جاء به من ثورة عقلية قضية مسلماً بها، أما شوبنهور فقد اعتبر الكتـاب على أنه أعظم ما أنتجه الأدب الألماني وأكثره شـهرة، وكـان لـه رأي مشـهور مفـاده أن الإنسـان يبقى طفلاً في معرفتـه حـتى يقـرأ كانـط ويفهمـه، وأتى هيجـل بعـدهم ليربـط الفلسفة كلها بمعرفـة كانـط إذ قـال (لكي يكـون المـرء فيلسـوفاً فلا بـد من أن يـدرس كانط)

2() هو إيمانويل كَانْط (1724-1804م)، فيلسوف ألماني، وُلد وعاش في كونجزبيرج في بروسيا الشرقية (تُعرف الآن بكالينينغراد في روسيا).. وقد عمـل بالتـدريس بـالقرب من كونجزبيرج من عام 1746م حتى عام 1755م، وبعد ذلك عمل بالتدريس في جامعة كونجزبيرج نحـو 50 عامًـا حـتي وفاتـه.. وقـد كـان عملـه فاتحـة لعهـد جديـد، لأنـه أنشـأ الخطوط الأساسية للتطورات الفلسفية منذ ذلك الحين.

لقيته في في جامعة كونجزبيرج، وهو يصيح في طلبته ومن حضر معهم من سائر الناس قائلا: اعملوا عقولكم أيها البشر! لتكن لكم الجرأة على استخدام عقولكم! فلا تتواكلوا بعد اليوم ولا تستسلموا للكسل والمقدور والمكتوب.. تحركوا وانشطوا وانخرطوا في الحياة بشكل إيجابي متبصر.. فالله زودكم بعقول وينبغي أن تستخدموها.

سأله بعضهم حينها عن التنوير، فأجاب: إنه خروج الإنسان عن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج أو سن الرشد.

سأله آخر عن علاقة التنوير بالإيمان، فأجاب: عند حدود العقل تبتدئ حدود الإيمان.. لكن احذروا من الطاعة العمياء للقادة أو لرجال الدين.

سأله آخر عن القصور العقلي، فأجاب: إنه التبعية للآخرين، وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار بدون استشارة الشخص الوصي علينا.

اقتربت منه أنا، وسألت سؤالي المعتاد الذي تعودت أن أسأل به العقول، قلت له: كيف يتسنى للعقل أن يبلغ حقائق الأشياء بلوغا لا شك معه.

ابتسم، وقال: أنت لا تعرفني..

قلت: رأيتك.. ولكني لا أزال لا أعرفك.

قال: ولذلك وجهت لي هذا السؤال.. ولو أنك عرفتني لما سألت هذا السؤال.

قلت: لم؟

قال: لأن منهجي العقلي ينطلق من إلغاء هذا السؤال.

قلت: فسر لي ما تريد قوله.

قال: حينما رأيت مشاكل عديدة تمنع عن بلوغ حقيقة المعرفة، فعلت ما فعل غاليلو بالنسبة إلى الهيئة؛ فبدلا من ان يقول الأرض مركز العالم والشمس تدور حولها، قال: ان الشمس هي المركز والأرض تدور حولها، فنجح وحلت مشاكله العلمية.. وكذلك نجحت حين قلت: الناس حتى اللحظة كانوا يحسبون ان الحقائق هي

إضافة لعمله نقد العقل الخالص، كتب في علم الجمال وعلم الأخلاق. وفي علم الأخلاق، حاول إيضاح: 1- أن أداء الفرد لواجبه أكثر أهمية من إسعاد نفسه أو الآخرين. 2- إذا افترضنا أن بوسع العلماء التنبؤ بما سنفعله، فإن التنبؤات لا تتعارض مع ميلنا نحو حرية الإرادة. لذا فإن تنبؤات العلماء ليس لها أي تأثير على وجوب أن نعيش متحلّين بالأخلاق.

كان عمله الرئيسي في مجال الأخلاق هو كتابه نقد العقل العملي (1788م). ثم نشر تعليقات إضافية حول عَمَلَيْه الرئيسيين تحت عنوان نقد الحكم (1790م)

المركز والفكر يدور حولها. ولكن بـدأت أقـول: الفكـر هـو المركـز والحقائق تدور حوله، وأبسط الحقائق هو الإحساس.. فمـا يزعمـه الناس حـول الإحسـاس انـه انعكـاس الحقيقـة على الـذهن، ولكن أقول بل هو صـبغة الـذهن للحقـائق.. أنـا أقـول: صـحيح أن هنـاك حقائق نحس بها، ولكن لم يكن من الممكن الإحسـاس بهـا الا في حـدود الزمـان والمكـان.. ولـدى التعمـق أكـثر من هـذا، نـرى أن الزمان لا يعني سوى نسـبة الإنسـان إلى الأحـداث.. وأمـا المكـان فهو نسبة الإنسان.. أي الفكر.. إلى الأشياء.

فاليوم يعـني: تقـارن إحساسـي مـع دورة الشـمس، والمكـان القريب يعني: قربي إليه.. ونستطيع تشبيه الزمان والمكان بظرف بلور نضع فيه الماء فيصطبغ الماء بلـون الظـرف، فنعتقـد نحن أن اللون من المـاء، ولكن الظـرف فقـط واهب اللـون، وكـذلك نحن نزعم الحقيقة في الزمان والمكان، والواقع هو أننا نحن نعيش عبر المحدودية الزمانية والمكانية، لا أن الحقائق هي التي تعيش.

قلت: فأنت تعتبر الحقيقة هي الإحساس مصبوغا بصـبغة ذاتيـة هي صبغة الزمان والمكان.

قال: أجل.. فالحقيقة كما هي في واقعها - أو كما هي في ذاتها - لا يمكن أن تعرف، لأننا لا نملـك إلا أداة محـدودة للمعرفـة، وهي أداة الذهن التي تعيش ضـمن وقت ومحـل محـدودين.. فالحقيقـة إنما تعرف بنسبة معينة.

تأمل في وجهي قليلا، ثم قال: ولذلك فإن بحـوث الميتافيزيقيـا (الغيب) بعيـدة عن إحاطـة الإنسـان، لأنهـا مجـردة عن الزمـان والمكـان.. أمـا بحـوث الرياضـيات فإنهـا أيضـا لا تعكس الحقـائق، ولكنهـا صـحيحة حسـب أفكارنـا إذ أنهـا تكريـر لحقيقـتي الزمـان والمكـان.. فالحسـاب مجموعـة أعـداد، والعـدد ليس إلا انعكـاس الذهن على شاشة الأشياء.. وكذلك الهندسة، فهي تحديـد للأمـاكن القريبة والبعيدة ونوع قربها وبعدها عني.

قلت: فأنت تفرق بين العلوم في علاقتها بالحقيقة المجردة؟

قال: أجل.. لقد وجدت أن الطبيعيات.. كل الطبيعيات.. تحتـوي على مـادة هي الإحساسـات وصـورة هي الزمـان والمكـان.. وأن الرياضيات تحتوي على صورة ـ وهي الزمان والمكان ـ ولكن بدون مادة.. أمـا (الميتافيزيقيـا) فلا تحتـوي موضـوعاتها على صـورة ولا على مادة.

ولــذلك، فــإن معارفنــا عن الطبيعيــات مزيجــة من الذاتيــة

والموضوعية، وهي لـذلك لا تمثـل إلا بعض الحقيقـة.. أمـا معارفنـا عن الرياضيات، فهي ذاتية بحتة.. فرغم أننا نعتقد بها لأنها جزء من تركيب أذهاننا لكنها مع ذلك لا تعكس حقيقة وراءها.. وأما معارفنـا عن الغيب (ميتافيزيقيا) فإنها لا ذاتية ولا موضوعية.

لم تطل صحبتي له طويلا، فقد انصرفت عنه بعد مدة قصيرة.. فلم أجد عنده ما يسد حاجة عقلي..

نعم.. النظرية النسبية التي تعتبر أساس منهجه، صحيحة علميا، إذا أريد منها: أن العلم بكل الأشـياء غـير ممكن لنـا، وكـذلك العلم بكنه الأشياء.. ولكن إذا أريد بها التشكيك في صحة علمنـا بظـواهر بعض الأشياء، فإن ذات العلم ينفي هذا النـوع من التشـكيك إذ أنـه حين يكشف لنا عن شيء يعطينـا اطمئنانـا بـالغ الشـدة بـه، بحيث ينقطع التشكيك فيه.

ومن هنا كان خطأ كانط الكبير، حين اعتبر الزمان والمكان من متصورات النفس البشرية ومن إضافاتها النهائية التي تضفيها على الأشـياء لا لأمـر إلا لتعرفهـا.. ذلـك أن الزمـان والمكـان بـدورهما حقائق يكشف عنهما العقل البشري.. ويثق بوجودهمـا في الخـارج كما يثق بوجود أي شيء آخـر.. ومـا هـو الفـرق بينهمـا وبين مـواد التصورات وكيف جاز لكانط أن يعتقد أن تصور الحـرارة من نتـائج الخارج ولكن تصور مكانها وزمانها من نتائج الذهن.

هذا بالإضافة إلى أن الذهن البشري يتصور إلى جـانب الزمـان والمكان أمورا أخرى كالشـدة والضـعف والنـوع والكيـف، فالـذهن يتصور مكـان وزمـان الحـرارة ويتصـور أيضـا الفـرق بين الحـرارة والبرودة، وبين الحرارة الشديدة والضعيفة.. وهكذا.

صـحيح أن التصـور الزمكـاني شـرط أساسـي للإحسـاس، إذ الإحساس مشروط بالتنظيم؛ وهو مشـروط بتصـور الزمكـان فهـو ينـبئ عن قـدرة الـذهن على الفهم قـدرة قبليـة.. ولكن ليس من الصحيح أن هـذا التصـور مجـرد إضـافة ذاتيـة يضـيفها الـذهن على الأشياء، بل هو كشف قبلي يجده الذهن ويجد الأشياء به(1).

1()بالإضافة إلى هذا هناك اعتراضان وجها إلى منطـق كانـط، أحـدهما من زاويـة علم (اجتماع المعرفة) والثاني من زاوية علم (نفس المعرفة).. وبالرغم من عدم صحة هذين الاعتراضين بصفة تامة، فإن فيهما قيمة اعتراضية نسبية.

1- أنها ليست الا قائمة لمقولات الفكـر الأوروبي الـتي تمخض عنهـا العصـر الكـانتي.. وأنه لم يكن واقعيا في نظرته إلى المعرفة إذ أحال المعرفة إلى (تصورية تركيبية) ونظر إلى العقل على أنه (عقل خالص)، والى الإنسان على أنه (كائن مجرد) ـ بلا تـاريخ.. على حين أننا لا نجد إنسانا مجردا على الإطلاق كمـا يسـتحيل علينـا أن نجـد عقلا خالصـا.. فلا يوجد في الواقع الا الإنسان المتحضر، أو التاريخ الذي نشاهده وندرسه من خلال احتكاكه

الجدلية المثالية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى فيلسوف ألماني.. هو أحد أكثر الفلاسفة الألمان تأثيرًا في المذاهب الفلسفية الحديثة.. كان اسمه (**جورج ويلهلم فريدريك هيغل**)(1).. كانت أول كلمة سمعتها منه هي (ديالكتيك)(2).. سألته عنها، فقال: أنت تبحث عن العقل الذي يدرك حقائق الأشياء.. وضالتك عندي..

بالآخرين، والذي يتأثر عقله بمختلف المعايير الاجتماعية وتصاغ شخصيته في قالب ثقافي، أو في صورة اجتماعية.

2- لقد ثبت في الفيزياء الحديثة أن في وسعنا اكتساب معرفة خارج إطار المبادئ الكانطية، وأن الذهن البشري ليس قائمة منحصرة من المقولات يكدس العقل في داخلها كل التجارب، بل إن مبادئ المعرفة تتغير بتغير مضمونها ويمكن تكييفها مع عالم أعقد بكثير من عالم ميكانيكا نيوتن. (انظر: المنطق الإسلامي: أصوله ومناهجه، للمدرسي).

1() هو جورج ويلهلم فريدريك هيغل (1770 ـ 1831م) ولد في عائلة بروسية تنتمي إلى البورجوازية الصغيرة، كان والده موظفاً في الدولة البروسية.. بعد أن أنهى دراساته الثانوية في مدينته الأصلية شتوتغارت دخل إلى كلية اللاهوت الشهيرة في مدينة توبنغين. وهناك درس التاريخ وفقه اللغة الألمانية والرياضيات بصحبة صديقه هولدرلين الذي سيصبح شاعراً كبيراً فيما بعد، وقد نشأت بينهما صداقة حميمة وعميقة.

أتم تعليمَه في توبينغر شتيفت (كلية الكنيسة البروتستانتية في فورتيمبيرغ)، حيث ربطته صداقة مَع فلاسفة المستقبل فريدريك شيلنغ وفريدريك هولدرلين. بعد ذلك جذبته وسحرته أعمال سبينوزا، كانت، و روسو، و الثورة الفرنسية.

وبدأ سلك التدريس الجامعي عام 1801م، في جينا. وقد عمل أستاذًا للفلسفة في جامعة برلين منذ عام 1818م حتى وفاته.

تناول في أول كتاب نشر له، ظواهر الروح (1807م) مع تطور صيغ الوعي، وتشمل صِيَغُ الوعي هذه اختلافات ثرية ومحيرة لحالات العقل، ومناظرَ للعالم، ومواقف أخلاقية، ونظراتٍ دينية نصرانية، وأنواعًا للنشاط الطبيعي، وصيغًا لتنظيمات اجتماعية.

وقد حاول أن يوضح كيف تم التقدم فيما اعتبره تسلسلاً ضروريًا وتاريخيًا تحرك خلال تناقض وحل لمستويات نضج أكبر.

وحاول في كتابه الثاني، علم المنطق (1812 -ـ 1816م)، أن يبين نوع الجدل نفسه في تطوير النظريات الفلسفية عن الحقيقة. واحتوت موسوعة العلوم الفلسفية (1817م)، نظامه الفلسفي في صورة مكثفة. وتشتمل على ثلاثة أقسام: صيغة قصيرة للكتابة عن المنطق، وفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح. وحلل كتابه الأخير فلسفة الحق (1821م)، التطور الجدلي للنظم الاجتماعية، والأخلاقية، والقانونية. وبعد وفاة هيجل، نشر تلاميذه محاضراته عن فلسفة التاريخ، والدين، والفن، وعن تاريخ الفلسفة. وقد أعادوا كتابة المحاضرات بصورة أساسية، من مذكراتهم.

2() كلمة (ديالكتيك) مأخوذة من الكلمة اليونانية (ديـاليغو) ومعناها المحادثة، أو المجادلة والمناظرة.

ثم صارت مصطلحاً علمياً عند فلاسفة الإغريق، يدلّ على حركة التغير والتطور الملاحظة في أشياء هذا الكون، سواءٌ منهم من أخضع ذلك لعلل وقوى خارجة عن الكون، أو تصور أنها ناتجة عن دوافع ذاتية كامنة في ضمن هذه الأشياء، كأن عناصر الكون تتجادل فيما بينها في حركة دائمة.

والديالكتيك عند سقراط هو الأسلوب الجدلي بين فريقين متعارضين متناظرين في موضوع ما.

استبشرت كثيرا لقوله هذا، وطلبت منه أن يبين لي الآلية الـتي أدرك بها الحقائق، فقال: لتفهم تلك الآلية تحتـاج إلى معرفـة ثلاثـة معانٍ كبرى.. هي الفكرة، والروح، والطبيعة.. وهذه المعاني الثلاثة ترجع إلى معنى واحد هو المطلق.. والمطلق هو الذات الكلية التي تنتظم كل شيء، وكل الأشياء إنما هي تطور ونمو ديالكتيكي لهـذه الذات الكلية.

قلت: فكيف نصل إلى هذه الذات الكلية؟

قال: لن تصل إليها حتى تعرف أن حركة التغير والتطـور تسـير وفق دورات لولبية صاعدة، كل دورة منهـا ذات ثلاث مراحـل، أمـا أولاها، فسميتها (الطريحة) أو (أطروحـة).. وأمـا الثانيـة، فسـميتها (النقيضـة) أو (النفي).. وأمـا الثالثـة، فسـميتها (الجميعـة) أو (نفي النفي)، أو (التركيب)(1)

والحركـة الجدليـة في هـذا المطلـق الـذي هـو الـذات الكليـة، تنطوي على ثلاث مراحل في ثلاث لحظـات، هي الوضـع الأول، ثم انقلابه إلى نقيضه، ثم مركب الوضع ونقيضه بعد توحدهما بسقوط التنـاقض بينهمـا، وارتفاعهمـا بهـذا التوحـد إلى مـا هـو أسـمى من الوضع ونقيضه.

وهكذا دواليك تتكرر حركـة الجدليـة، فيكـون في الأشـياء كلهـا تطور ونمو.

أي أن الحالة الأولى التي يكون عليها المطلـق، أو تكـون عليهـا الفكـرة، أو الـروح، أو الطبيعـة، أو الكـائن الطـبيعي، أو المجتمـع الإنساني.. وهي الحالة التي أسميها (الطريحة) تتفاعل مع أضدادها ونقائضها، فتنقلب إلى الطـرف الآخـر الـذي تقـع فيـه أضـدادها أو نقائضها، وبذلك يتم التحـول إلى الحالـة الثانيـة، وهي الحالـة الـتي أسـميها (النقيضـة).. ثم تتفاعـل الحالـة الثانيـة مـع أضـدادها أو نقائضــها، فينشــأ من ردود الأفعــال تغــير لهــا، ولكن لا إلى ذات

واستغله أفلاطونأسلوباً للوصول إلى الحقيقة، من خلال بيانين متعارضين، يكشف كـلٌّ منهما ما يراه في الآخر محلاً لتوجيه النقد إليه، أو الاعتراض عليه.

وارتقت المجادلـة أو المنـاظرة عنـد المسـلمين فصـارت لهـا أصـول وقواعـد وآداب، واقتصرت على ما يكون بين فريقين يتجادلان ويتناظران حول موضوع ما.

ثم جاء الفيلسوف الألمـاني (هيجـل) فأخـذ كلمـة (ديالكتيـك) وفـق مصـطلح فلاسـفة الإغريق الدالة فيه على حركة التغير والتطور الملاحظة في أشياء هـذا الكـون، وقـام في ذهنه تصور خاص لهذه الحركـة الدائمـة في الكـون، حـتى ظن هـذا التصـور قانونـاً ثابتـاً، تخضع له العمليات المنطقية الفكرية، وعلميات الكـون، وحركـة التـاريخ الإنسـاني، لكنـه اعتبر هذا القانون نظاماً للقوة الغيبية غير المادية، المهيمنة على الكون والمتصرفة فيه.

1() قد تختلف الألفاظ المعبرة عن هذه المراحل عن المعرفين بجدليـة (هيجـل) مثـل التعبير التالي : (الوضع، ونفيه، ومؤتلف الوضع ونفيه)

الطرف الذي سبق أن تركته في التغير الأول، بل إلى تغير صاعد يجمع بين الطريحة والنقيضة جمعاً توفيقياً، وبهذا الجمع تسقط صفات وعناصر دنيا خسيسة، وبذلك يحصل الارتقاء، وهذه هي الحالة التي أسميها (الجميعة).. ويُحذفُ التناقض في هذه الحالة إذ يتم امتصاصه في شمولٍ أعلى.

ثم تغدو الحالة الثالثة (الجميعة) من جديد (طريحة) تتغير إلى (نقيضة) جديدة، ثم إلى (جَمِعيةٍ) جديدةٍ صاعدة.. وهكذا دواليك تذهب الدورات صاعدة.

التفت إلي، وقال: هذا هو طريق الحقيقة.. وهذا هو (الديالكتيك)..

قال ذلك، ثم التفت إلى برعم شجرة أمامه، وقال: هذا (البرعم) مثلا أعتبره (طريحة).. تأتي الزهرة، فتنفيه، وتصبح الزهرة بالتالي (نقيضة).. ثم تأتي (الثمرة) التي هي الجميعة، وهي أسمى من البرعم والزهرة.

قلت: فهمت الديالكتيك الذي يعرف به منهجك.. فما المثالية؟

قال: أنا من فئة المثاليين، الذين يؤمنون بالغيبي المجرد من الحسيات، لا من فئة الماديين، فأنا أؤمن بإلهٍ.. والله في تصوري هو الوجود غير المتناهي، وهو المطلق، وهو الحقيقة الكاملة.

بقيت في صحبته مدة.. إلى أن بان لي أن ما يذكره قد يوصلني إلى بعض الحقائق.. ولكنه قد يوصلني في نفس الوقت إلى كثير من السراب والأوهام..

فقد رأيته أن مذهبه من الناحية العقلية المنطقية مبني على اجتماع الأضداد أو المتناقضات سواء في حالة اصطراعها أو في حالة ائتلافها في الجميعة، ومنطق العقل يحكم جازماً باستحالة اجتماع الأضداد أو المتناقضات في شيء واحد وزمن واحد(1).

1() من الأصول العقلية البدهية المقررة لدى الفلاسفة والمناطقة وسائر العقلاء والمفكرين أن النقيضين كالوجود والعدم، وكإيجاب الشيء وسلبه، لا يجتمعان في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما مستحيل عقلاً. ولا يرتفعان معاً من شيء واحد في وقت واحد، وارتفاعهما معاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد موجوداً ومعدوماً معاً، ولا موجباً وسالباً معاً من الجهة التي يكون فيها موجباً.. ولا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد غير موجود وغير معدوم معاً، أو غير موجب وغير سالب معاً.

أما الضدان كالأبيض والأسود، فلا يجتمعان معاً في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما معاً مستحيل عقلاً. فلا يكون الشيء الواحد بالذات أبيض وأسود معاً من الجهة نفسها في وقت واحد.. لكن الضدين قد يرتفعان معاً في وقت واحد، فيكون الجسم لا أبيض ولا أسود معاً في وقت واحد،إذ قد يكون أحمر أو أصفر أو غير ذلك من ألوان.

ومن الملاحظ أن الجدلية قد نسفت هذا الأصل العقلي المنطقي نسفاً كلياً، فأقامت الوجود كله على فكرة اجتماع الأضداد أو المتناقضات واتحادها.

ورأيــه يشــتمل على أن التغــيرات تــذهب صــاعدةً مرتقيــة باستمرار إلى ما هو أسمى، ولكن الواقع لا يُصدِّق هذا الادعاء، فهو إن صـدق بمثـالٍ أو بعـددٍ من الأمثلـة، لا يصـدق بأمثلـة كثـيرة لا تحصى، فهو إذن لا يصلح لأن يكون قانوناً شاملاً.

ولئن سلمنا في تغيرات المجتمـع البشـري، بـأن التطـرف في (الديكتاتوريــة) الفرديــة في المجتمــع قــد ينشــأ عنــه نقمــة في المجتمع، ويتولد عنه – دون حتمية- رد فعلٍ عنيف، يدفع بــالمجتمع إلى حرية اجتماعية سـمتها الفوضـى، ثم يتولـد عن هـذه الفوضـى الاجتماعية رجعة توفيقية بين الديكتاتورية والحرية المسـرفة، وهي أفضـل منهمـا.. فمن الطريحـة والنقيضـة تولـدت الجميعـة.. ولكن ذلــك لم يتم إلا من خلال وعي النــاس، ودون أن تكــون ضــرورة حتمية.

فكيـف نطبـق الحركـة التغيريـة الصـاعدة حينمـا تسـوء حالـة الجميعـة التوفيقيـة هـذه في المجتمـع، فـترجع إليـه الديكتاتوريـة المتطرفــة مــرة أخــرى، ثم الحريــة الاجتماعيــة المســرفة، ثم الديمقراطية المعتدلة؟!

أليســت هــذه دورات متنــاظرة، وليســت بصــاعدة كمــا زعم الادعاء(1)؟

وفي ادعاء اتحاد الأضداد والمتناقضات استهانة بالغة بالعقل البشـري، وإقامـة مـذهب كامل لبني الإنسان، على أمر باطل واضح البطلان.

إن اللحظة التي يكون فيها الشيء متحركـاً، لا يمكن أن يكـون فيهـا سـاكنا، واللحظـة التي يكون فيها ساكناً لا يمكن أن يكون فيها متحركاً.

ولكن الشيء الواحد قد تتداول عليه الحركة والسكون بلحظات متتابعات مهما صغرت ودقت هذه اللحظات، وقد ينخدع بذلك بعض أهل الفلسفة، فيظن أن السكون كـامن في الحركة، فيعتبر ذلك من اجتماع النقيضين، وليس الأمر كذلك.

وقد يمثل مدعو اجتماع الضدين أو النقيضين بتماس السالب والمـوجب في الكهربـاء، الذي ينجم عنه الظواهر الضـوئية والحركيـة، لكن التمثيـل بهـذا تمثيـل باطـل، فالسـالب والموجب في الكهرباء ليسا ضدين ولا نقيضين منطقيين.

إن السالب المنطقي للكهرباء هو لا كهرباء، ويصدق ذلـك بـأي شـيء غـير كهربـاء في الوجود، فالخشب والحجر والتراب والثلج والملح والحلاوة والملاسة والخشونة وغير ذلـك كلها ليست بكهرباء.

أمـا السـلك السـالب في الكهربـاء، فليس هـو السـالب المنطقي للكهربـاء، إنمـا هـو مشتمل على قوة أخرى منافرة للقوة الكهربائية.

فالموجب والسالب في الكهرباء قوتان متنافرتان متقابلتان، إذا تماسـا تفـاعلا، فأنتجـا بحسب قوانين إنتاجهما ظواهر ضوئية أو حركية، كالذكر والأنثى، وما ينتج عنهما.

إن القوى المتنافرة والمتآلفة والمتفاوتة كلهـا إذا تلاقت أو تماسـت أو اجتمعت كـانت ذات آثار ما، وآثارها تخضع لقوانين خاصة بكل منها. (انظر: كواشف زيوف، لحبنكة)

1() آستشهد (برنال) بنظرية الرغبات المكبوتة لفرويد في رد هذا الـديالكتيك، فقـال : إننا نجد الدول الديالكتيكية أبعد ما تكون عن الحتمية فيها، فالغريزة هي الطريحة والكبت هو النقيضة والتسامي هو الجميعة، ثم يقول برنال : هذا جميل، ولكن افرض أن المريض

الجدلية المادية:

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: إلى رجل تعرفونه جميعا.. استعمل جدلية هيجل بعد أن نزع عنها المثالية.. فحولها إلى مادية.

قلنا: تقصد (**كارل ماركس**)(1)

قال: أجل.. لقد أخذ هذا الرجل من هيجل آراءه في الجدلية بعد أن حذف منها نظرتها المثالية، المرتبطة بالله، وأضاف إليها نظرته المادية، فصار مذهبه الفلسفي الجذري (المادية الجدلية)

وبناء على ذلك جعل الدين، والقانون، والسياسة، والأخلاق، والنظم الاجتماعية، والفلسفة، والفن، آثاراً في الوعي الإنساني للجدلية في حركة المادة وتطورها، وجعل هذه كلها صناعة إنسانية، وجعل الإنسان نتاج المادة في حركتها الجدلية، وجعل الفكر فيه نتاجها الأعلى.

وقد أخبرني أنه بعمله هذا قد أوقف آراء هيجل على قدميها، بعد أن كانت عنده واقفة على رأسها.. قال لي: إن هيجل لما اعتبر جدليته منطلقة من الله إلى كل الأكوان، فإنه بذلك قد عكس حقيقة الأمر، إذ حقيقة الأمر في ادعائي هو أن الله من اختراع الفكر الإنساني، ومن ابتكاراته التي لا تنطبق على الحقيقة والواقع.

وقد رأيت (ماركس) يعتبر نظام الجدلية أساساً لكل التغيرات في الطبيعة وفي التاريخ الإنساني بصفةٍ عامة، ويعتبره أساساً تتغير على وفقه المجتمعات الإنسانية، من مجتمع إقطاعي إلى مجتمع بورجوازي إلى مجتمع اشتراكي وأخيراً إلى مجتمع شيوعي تنتهي فيه كل الطبقات، ولا حاجة فيه إلى سلطة حاكمة.

ورأيته يعطي هذه التغييرات التي ذكرها صفة القانون الاجتماعي الحتمي، ليقنع قطعان الجند من الشيوعيين بأن النهاية مضمونة لهم، فهم الذين سيقبضون على ناصية الأمر في كل المجتمعات.

ورأيته يطلق عليها وصف (المادية) لأن نظرتها مادية صرفة، أي: لا ترى الوجود كله إلا مادة فقط، وتعلل حوادث الكون تعليلاً

أصيب بالجنون بدلاً عن كونه قد استطاع أن يتسامى. افرض أنه قتل نفسه، أين تكون إذن هذه المواءمة بين الأضداد بين الجميعة؟! أين يكون التقدم من الأدنى إلى الأعلى في هذه الحالة ؟! (انظر: كواشف زيوف، لحبنكة)

1() سبق التعريف به.. وقد ذكرنا بتفصيل الرد على جدليته في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

مادياً، وترفض أي مؤثر غيبي، أو خارج عن حدود المؤثرات المادية.. وهذا الرفض قد جعل الماركسيين يلتزمون تلقائياً عدم حاجة الكون لعلم سابق وحكمة واختيار وقدرة، رغم كل ظواهر الإبداع والإتقان والعناية، ورغم كل روائع الحكمة البادية فيه لكل متدبر مفكر، ورغم نظام الوحدة المسيطر عليه، والدالة على وحده المنظِّم، ورغم تصاريفه الهادفة إلى غاية مثالية عظيمة، والتي لا يلاحظ فيها أية عشوائية، أو أي تخبط على غير هدى، بخلاف حال المصادفات.

قلنا: فكيف فسر الكون بجدليته هذه؟

قال: لقد ذكر لي أن مادة الكون الأولى قد تطورت تطوراً ذاتياً، ضمن نظام (جدلية هيجل) حتى تكامل للكون نظامه الرائع.. ثم ظهرت في الأرض الحياة نتيجة لحركة التطور وفق الجدلية.. ثم ظهر الإنسان بالتطور الذاتي، وتدرج في كماله حتى بلغ وضعه الحالي المشاهد..

وذكر لي أن تطور المادة يخضع لعوامل ونظم من المادة نفسها، يفهمها الإنسان منها بعد وقوعها.. وأن تطورات الكون لا تخضع مطلقاً لخطة فرضت عليها من خارجها مسير لها، مدبر لأمرها، بل تخضع لقوانين حركة المادة.

السلام

قلنا: فإلى من لجأت بعده؟

قال: لم ألجأ إلى أحد.. لقد جرفني تيار الدياليكتيكية بسياطه.. إلى أن أسلمني اليأس إلى ما أسلمكم إليه.

قلنا: الانتحار!؟

قال: أجل.. فقد وجد عقلي ـ الذي لا أستطيع العيش من دونه ـ نفسه خاويا.. فراح يطالبني بالخلاص.. ولم أجد الخلاص إلا في الموت.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: في تلك الأيام كنت في باريس منشغلا بالتفرج على مسرحيات (صمويل بيكيت) الأيرلندي و(أوجين يونسكو) الروماني زعيمي حركة اللامعقول.. وفجأة.. وبعد أن رأيت ما رأيت من حقارة حياة العقل.. وبعد أن ذقت من شراب اللامعقول ما ذقت.. أصابتني إغماءة الموت.. التي أعقبت صيحة شديدة تعالت أصداؤها في كل مكان.. ولم ينقذني منها إلا ذلك النور والسلام

الذي حدثتكم عنه.. والذي جئت إلى هذه البلاد باحثا عنه.

قلنا: كيف تم ذلك؟

قال: في المسرح الذي أهين فيه العقل.. والـذي أصـابتني فيـه إغمـاءة المـوت الـتي كـادت تقضـي علي.. هـرع الكـل لإنقـاذي مستعملين كـل وسـائلهم وأسـاليبهم وأسـبابهم.. لكنهم جميعـا لم يرتدوا إلا بالفشل الذريع.

لكن رجلا ظهر في ذلك الحين.. لست أدري هل كـان معنـا في المسرح يتفرج على ما نتفرج عليه.. أم أنه سمع صـيحتي القويـة.. فأسرع لإنقاذي..

اقترب مني.. ثم راح يرتل هذه الآية من القرآن(1) : وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَـرَ وَالْفُـؤَادَ كُـلُّ أُولَئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْؤُولاً (الاسراء:36)

ثم يعقبها بآية أخرى تقول : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل:78)

ثم يعقبهـا بهـذه : إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفلك الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَـا أَنـزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ لأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّـحَابِ الْمُسَـخَّرِ بَيْنَ السَّـمَاءِ وَلأَرْضِ لآيَـاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (البقرة: 164)

ثم يعقبها بهذه : المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَـابِ وَالَّذِي أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِنْ رَبِّكَ الحق وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ (1) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُـلٌّ يَجْـرِي لِأَجَـلٍ مُسَـمًّى يُـدَبِّرُ الأَمْـرَ يُفَصِّـلُ الآيَـاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَـاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي الأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَـاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَـاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(4) (الرعد)

ثم يعقبها بهذه : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيـلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11)

1() ذكرنا هنا بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن العقل.. والـتي سـنحاول اسـتنباط المعاني الواردة فيها في هذا البحث.. ولا يخفى وجه الرمزية فيما نذكره هنا.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِـأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَـوْمٍ يَـذَّكَّرُونَ (13) وَهُـوَ الَّذِي سَـخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)﴾ (النحل)

ثم يعقبها بهذه :﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ لأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً لِقَـوْمٍ يَسْـمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَـامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَـرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًـا خَالِصًـا سَـائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَـرَاتِ النَّخِيـلِ وَالأَعْنَـابِ تَتَّخِـذُونَ مِنْـهُ سَـكَرًا وَرِزْقًا حَسَـنًا إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنْ الشَّـجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُـونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُـبُلَ رَبِّكِ ذُللا يَخْـرُجُ مِنْ بُطُونِهَـا شَـرَابٌ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُـهُ فِيـهِ شِـفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـةً لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُـــــرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70)﴾ (النحل)

ثم يعقبها بهـذه :﴿ أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَـا فَإِنَّهَـا لا تَعْمَى الأَبْصَـارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)﴾ (الحج)

ثم يعقبها بهذه :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَـاءً فَيُحْيِ بِـهِ الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا إِنَّ فِي ذَلِـكَ لآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) ﴾ (الروم)

ثم يعقبها بهذه :﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثلا مِنْ أَنْفُسِـكُمْ هَـلْ لَكُمْ مِنْ مَـا مَلَكَتْ إِيمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَـافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) ﴾ (الروم)

ثم يعقبها بهذه :﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَـا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَـاتٌ لِقَـوْمٍ يُوقِنُـونَ (4) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِـهِ الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)﴾ (الجاثية)

ثم يعقبها بهذه :﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنسَـوْنَ أَنفُسَـكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (﴾44 (البقرة)

ثم يعقبهـا بهـذه :﴿ إِنَّا أَنزَلْنَـاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُـونَ (﴾2 (يوسف)

ثم يعقبها بهذه :﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْـرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ(﴾10 (الأنبياء)

ثم يعقبها بهذه : وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (80 (المؤمنون)

ثم يعقبها بهذه : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67 (غافر)

ثم يعقبها بهذه : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (170 (البقرة)

ثم يعقبها بهذه : وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(171 (البقرة)

ثم يعقبها بهذه : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(22 (الأنفال)

ثم يعقبها بهذه : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ(179 (الأعراف)

ثم يعقبها بهذه : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (42 (يونس)

ثم يعقبها بهذه : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ لأرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63) (العنكبوت)

ثم يعقبها بهذه: لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ(14) (الحشر)

فانتبهت.. أو بالأحرى انتبه عقلي الذي صار يشعر بأن له وجودا وحياة وحقيقة ووظيفة..

التفت إلى القارئ أبحث عنه.. فإذا به رجل في منتهى النور والسلام والصفاء.. سألته: من أنت؟

قال: أنا مسلم.

قلت: لا أريد دينك.. أريد اسمك.

قال: لقد انمحى اسمي في اسم ديني.. فصرت لا أعرف إلا به.

قلت: بم سماك أبواك؟

قال: لقد سميت أسماء كثيرة.. منها (ابن الهيثم).. ومنها (ابن

خلدون).. وأنا الآن أسمى بين قومي (تقي المدرسي)[1]
قلت: لقد سمعتك تقرأ كلاما يمجد العقل.
قال: ذاك كلام ربي.. الذي خلق لنا العقول.. وعلمنا كيف نستعملها لنصل بها إلى الحقائق.
انتفضت من مكاني، وقلت: هل حقا ما تقول؟.. هل يمكن للعقل أن يصل إلى الحقائق؟
قال: أجل.. لقد دلنا ربنا على المنهج الذي يصل بنا إلى ذلك.
قلت: لقد صحبت الكثير.. ولكني لم أجد عندهم ما يرضي عقلي أو ما يوصله إلى الحقائق.
قال: ذلك لأن عندهم بعض العقل.. لا كل العقل.. ويستحيل على بعض العقل أن يصل إلى الحقائق الكاملة.. إنه في أحسن أحواله يصل إلى حقائق وقتية أو حقائق مشوهة قد ينتفع بها بعض الانتفاع، لا كل الانتفاع.
قلت: هلا قربت لي هذا؟
قال: بأسلوب أهل هذا العصر.. أم بأسلوب غيرهم؟
قلت: ما دمنا في هذا العصر.. فلا يصح أن نستعمل أسلوب غيره من العصور.
قال: إن مثل كل من لقيت من المفكرين والباحثين مثل قوم ضلت بهم الطرق.. وكان لديهم سيارة مجهزة بكل الآلات التي تستطيع أن تقطع بهم الطريق.. لكنهم انشغلوا عن قيادتها بالبحث عن أجزائها.. فانشغل كل طرف منهم بجزء من الأجزاء.. وراح يستغرق فيه ناسيا المقصد الذي صممت السيارة من أجله.
ذهب بعضهم إلى المرائي.. وذهب آخرون إلى العجلات.. وراح آخرون يقيسون.. وراح آخرون يجربون.. وراح آخرون يوجهون أبصارهم إلى غير الجهة التي كانت السيارة قابعة فيها.. ثم يصيحون بملء أفهم: يا قوم ليس هناك سيارة.. فلماذا تبحثون عنها؟..
وكل هؤلاء لم يتعب أحد منهم نفسه ليتساءل عن مقر القيادة الكامل الذي لا تسير السيارة السير الصحيح إلا به.
نهضت من مكاني قائما، وقلت: ها أنا بين يديك.. فدلني.. فقد انقطعت بي السبل.
قال: أول الطريق هو أن تعرف أن لك عقلا.. وأن هذا العقل

1() أشير به إلى العلامة الجليل آية الله محمد تقي الدين المدرسي، والذي استفدنا من كتبه المتخصصة في هذا المجال كثيرا في هذا الفصل.

قد زود بالنور الذي يهيئه لإدراك الحقائق..
إن مثل ذلك مثل من يـدخل بيتـا تكتنفـه الظلمـات.. فـإن أول شيء يفعله هو أن يتحسس عن المصباح.. فإذا وجده استضـاء بـه في اكتشاف سائر الأشياء..
ولهذا، فإن الإسلام ـ بمصادره المقدسة ـ يذكر الإنسـان ــ كـل حين ـ بعقله، ليتخذه مصباحا يكشف به حقائق الوجود.
قلت: لقد سمعتك تقرأ علي النصوص الكثيرة التي تذكر فضـل العقل وأهميته.
قال: تلك نصوص القرآن الكريم.. إنه الكتـاب الـذي يـدلنا على النور وعلى مصادر النور.. وهو يدلنا على ذواتنا وطاقاتنا كمـا يـدلنا على الكون وكيفية الاتصال به.
قلت: فهل اهتديتم بتلك الآيات إلى العقل؟
قال: لم نهتد لعقل واحد.. بل اهتدينا إلى عقول كثيرة..
قاطعته قائلا: عقـول كثـيرة!؟.. كيـف ذلـك؟.. لا أعـرف إلا أن للإنسان عقلا واحدا.
قــال: نعم هــو عقــل واحــد من حيث الماهيــة.. ولكن الأدوار والمناهج التي قد يستعملها تختلف اختلافا يجعل من العقـل عقـولا كثيرة.
قلت: ألا يحدث الصراع بينها؟
قال: يحدث الصراع لو كان منشـئها متعـددا.. وبمـا أن منشـئها واحـد، فإنهـا تمتلئ بالسـلام الـذي يمتلئ بـه كـل ركن من أركـان الوجود.
قلت: فهلا وضحت لي هذا، فإني أرى عقلي كليلا دون فهمه.
قال: سر معي إلى (أكاديميـة العقـل المسـلم).. ففيهـا تسـمع العقول المغذاة بعقل الإسلام.. وفيهـا تـرى السـلام الجميـل الـذي يغمرها جميعا.
قلت: أكاديمية العقل المسلم!؟.. لم أسمع بها من قبل.
قال: هي أكاديمية أسسها محمد رسول الله ﷺ.. ولكن الإعلام في جميع فترات التاريخ بذل كل جهده ليهيل تراب النسيان عليهـا، فلا يبصرها أحد.. فلذلك تراهم يمرون على كل الأكاديميات عداها.
قلت: صدقت.. لقد كتب لي أن أتتلمذ على الكثير من العقول، وفي الكثير من الأكاديميات.. لكني لم أسمع أحدا منهم يذكرها.
قال: سر معي إليها.. وسترى فيها ما يرضيك.. أنا متيقن تماما.
قلت: ما الذي جعلك تتيقن؟

قـال: لقـد مـر علي الكثـير من أمثالـك.. وهم الآن بحمـد اللـه أساتذة في هذه الأكاديمية.

المدارك الحسية:

سـرنا إلى أول قسـم في (أكاديميـة العقـل المسـلم).. وكـان اسمه (المدارك الحسية).. سألت المدرسي عنـه، فقـال: في هـذا القسـم يتعلم الطلبـة كيـف يسـتفيدون من مـداركهم الحسـية في تغذية عقولهم بالمعارف.

قوة الحس:

قلت: ألا ترى أن الحس أضعف من أن أصل به إلى الحقائق؟

قـال: لا.. بـل الحس هـو أول المـدارك الـتي نصـل بهـا إلى الحقائق، ولهذا فإن القرآن الكريم يحث على اسـتعماله.. لا لنقـف عنده، وإنما لنعبر منه إلى غيره.

اسمع إليه، وهو يقول موجها العتاب الشديد للذين لم يستعملوا مـداركهم في العبـور بهـا إلى الحقـائق :﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِضِـيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَـرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيـهِ أَفَلَا تُبْصِـرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ لِتَسْـكُنُوا فِيـهِ وَلِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)﴾ (القصـص).. ويقـول :﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21) وَفِي السَّـمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَـقٌّ مِثْـلَ مَـا أَنَّكُمْ تَنْطِقُـونَ (23)﴾ (الـذاريات).. ويقول :﴿ أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا نَسُـوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْـهُ أَنْعَـامُهُمْ وَأَنْفُسُـهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (27) وَيَقُولُـونَ مَتَى هَـذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (28) قُـلْ يَـوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَـعُ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِيمَـانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَـرُونَ (29) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِـرُونَ (30)﴾ (السـجدة).. ويقـول :﴿ أَفَلَا يَنْظُـرُونَ إِلَى الْإِبِـلِ كَيْـفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّـمَاءِ كَيْـفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَـالِ كَيْـفَ نُصِـبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْـفَ سُطِحَتْ (20)ـ ﴾ (الغاشية).. ويقول :﴿ وَلَـوْ نَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ كِتَابًـا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا سِـحْرٌ مُبِينٌ (7) ﴾ (الأنعام)

ويـبين عاقبـة من لم يسـتعمل وسـائل إدراكـه في العبـور إلى الحقـائق، فيقـول :﴿ وَلَقَـدْ ذَرَأْنَـا لِجَهَنَّمَ كَثِـيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْـمَعُونَ

بِهَــا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَــامِ بَــلْ هُمْ أَضَــلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَــافِلُونَ (179) (الأعراف).. ويقول : أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (22) (هود)

قلت: فالعقل المسلم إذن يؤمن بالحس ويستسلم له.

قال: فرق كبير بين إيمانه بما يقوله الحس، وبين استسلامه له.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: الإيمان بمدارك الحس فطرة بشرية.. فكل الناس في معظم أحوالهم يؤمنون بشهادة الحس، يؤمنون بأن ما رأوه بأعينهم أو سمعوه بآذانهم، أو أحسوه بجلودهم أو شموه بأنوفهم أو ذاقوه بألسنتهم هو كما شهدت به هذه الحواس.

ولكن الاستسلام شيء آخر.. لأن الحس قد يعرض له من الأوهام ما ينصرف به عن الحقيقة.. ولذلك فإن العاقل هو الذي يجعل إحساسه تبعا لعقله.. لا عقله تبعا لإحساسه.

قلت: لم أفهم.. ماذا تقصد؟

قال: إن العاقل هو الذي يعترف بأن حواسنا لا تعطينا علماً محيطاً بما نشاهد، إنما تعطينا جانباً منه.. وهذا الذي تعطيناه وإن كان جزئياً إلا أنه حق وهو كافٍ لنا في معاملاتنا الدينية والدنيوية.

مثال ذلك أننا نعرف الآن بسبب الآلات التي تزيد من قوة حواسنا أن ما يبدو لنا صلباً من الأجسام ليس هو بالصلابة التي نراها، وإنما هو مكون من ذرات بينها فراغات كبيرة..ومثل ذلك ما نراه سائلاً.. ونحن حين نرى الشمس قد غربت أو أشرقت تكون قد فعلت ذلك قبل ثماني دقائق من رؤيتنا لها تشرق أو تغرب.. بل يذكرون أن كثيراً مما نراه من نجوم السماء يكون قد انفجر وتبدد منذ آلاف السنين، ولكن بما أننا لا نرى الشيء إلا حين ينعكس الضوء منه على أعيننا، وبما أن هذه الأجرام تبعد عنا ملايين الملايين من الأميال؛ فإن ضوءها لا يصلنا إلا بعد آلاف من السنين تكون هي في أثنائها قد ماتت؛ فما نراه منها إنما هو تاريخها لا حاضرها.

لكننا في معلاملاتنا اليومية وفي ديننا إنما نتعامل مع الأشياء بحسب ما تبدو لنا؛ فأوقات الصلاة والصيام والحج لا تعتمد على

الحقائق الفلكية التي يتحدث عنها علماء الفلك وإنما تعتمد على ما يظهر لنا منها(1).

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا وبين مغزاه وفائدته، فقال : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)﴾ (الأنفال).. وقال :﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13)﴾ (آل عمران)

قلت: فهمت هذا.. ولكن كيف يكون الحس تابعا للعقل؟

قال: الاسلام بنصوصه المقدسة أولى جانب الحس أهمية كبرى، حيث دعا إلى النظر والسير والتحرك والتثبت، ولكنه مع ذلك أولى اهتماما أكبر لدور العقل الذي يوجه الحس ويمحص نتائجه، والذي لولاه يصاب الفكر بالشلل الكامل.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لنفترض أننا أبعدنا العقل عن مجال الحس، وأصبحنا مثل أولئك الحسيين الذين لم يعترفوا بدور العقل في توجيه الحس، فسوف نرى كيف نتخبط في الضلالات حتى لا نستطيع كشف أي حقيقة مهما ضؤلت بواسطة الحس. بل إن نكران العقل يدعونا إلى التشكيك في وجود أية حقيقة وراء الحس، وينتهي بالإنسان إلى المثالية أو التشكيك التام.. أفليس من الممكن أن تكون رؤيتنا للأمور أشبه شيء برؤية الحالم في منامه، أوليس من الممكن أن يكون الإحساس نابعا من ذات الأعصاب وليس من الحقائق الخارجية؟ فإن لم يكن هناك نور لدى النفس يحكم بأن مصدر الإحساس حقيقة خارجية بصور جازمة، لو لم يكن هذا فأي حجة تقدر على إثبات الحقائق وراء الإحساس؟

قلت: لقد رأيت بعض الفلاسفة والعامة يتعلل في عدم إيمانه

1() ذكر المدرسي أن بعض الشباب في أحد المؤتمرات ببريطانيا ذكر أن رجلاً زعم أن في الإسلام ما يخالف الحقائق العلمية وضرب لذلك مثلاً بافتراضنا أن الشمس تتحرك والأرض ثابتة؛ لأننا نقول مثلاً: إن وقت الظهر يحين عندما تصير الشمس في كبد السماء، قال: فقلت له: ألستَ تجد في جرائدكم اليومية مواقيت طلوع الشمس وغروبها؟ فلو أن الناس التزموا بالحقائق الفلكية وحدها لما جاز لهم الحديث عن شروق وغروب؛ لأنه إذا كانت الشمس ثابتة بالنسبة للأرض؟ فكيف يقال إنها شرقت أو غربت؟ فالعلماء أنفسهم يسمون هذا بالحركة الظاهرية للشمس، وهي الحركة التي نعتمدها في حياتنا اليومية.

يوجود الله بمدارك الحس.. فهو يرى أنه لا ينبغي أن يـؤمن إلا بمـا يرى(1).

ابتسم، وقال: لقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الأغبياء الــذي جعلوا عقولهم سـجينة حواسـهم، فقـال :﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـا مُوسَـى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُـرُونَ (55)﴾ (البقرة)

قلت: لكن هؤلاء يدعون أن هذا أمر يقتضيه المنهج العلمي.

قال: لقد كذبوا في ذلـك.. فـإنهم لـو كـانوا صـادقين في عـدم تصديقهم بما لا تراه أعينهم للزمهم أن لا يؤمنـوا بحـوادث التـاريخ، وللزمهم أن لا يصدقوا بوجود شـيء في الأمـاكن الـتي تبعـد عنهم بُعداً لا ترى مـا فيهـا أعينهم.. بـل للـزمهم أن يـذهبوا مـذهب بعض الفلاسفة الذين كانوا يقولون إنهم إنما يؤمنون بما يـرون مـا دامـوا يرونه، ويقولون: من يـدرينا أنـه مـا زال موجـوداً حين نغمض عنـه أعيننا أو نلفت عنه أنظارنا؟

ضعف الحس:

رأيت في القاعة امرأة تخاطب امـرأة بفخـر واعـتزاز قائلـة: لا شك أنك لا تعرفيني.. أنا زرقاء اليمامة.. أنا المرأة التي ضربت بهـا العرب الأمثال في قوة بصرها، فقالت: (أبصر من زرقاء اليمامة).. أنا التي قال في النابغة:

واحْكم كحكم فَتَـاة الحيِّ إذا نَظَـرتْ ... إلى حَمَـامٍ سِـرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَد

يَحُفُّهُ جَانِبَـاَ نِيـقٍ وَتُتْبِعُـهُ ... مِثْـلَ الزجاجـة لم تُكْحَـلْ مِنَ الرَّمَـدِ

قالَتْ أَلاَ لَيْتَمَا هَذَا الْحَمَـامُ لَنَا ... إلى حَمَامَتِنَـا أَوْ نِصْـفَهُ فَقَـدِ

فَحَسبُوهُ فألفَوْهُ كَمَـا ذكَـرَتْ ... تسـعا وتسـعين لَمْ ينقص ولم يَـزِدِ

قالت لها صاحبتها، وهي تحاورها: كفي عن غـرورك يـا أخـتي.. فالعين مهما قدرت على الرؤية، فهي مخلوق عاجز خلـق اللـه لـه مجالا محدودا لا يمكنها أن تجاوزه.

قالت: أنت تقولين ذلك لما تـرين من ضـعف بصـرك.. ولـو أن بصرك كان أقوى ما قلت هذا.

ابتسمت صاحبتها، وقالت: لاشك أنك لم تخفظي الدروس التي

1() انظر الرد المفصـل على هـذه الشـبهة في رسـالة (البـاحثون عن اللـه) من هـذه السلسلة.

لقنها لنا أساتذتنا في هذه الكلية.
قالت زرقاء: أي درس منها؟
قالت صاحبتها: درس (ضعف المدارك الحسية)
قالت زرقاء: لقد درست عظمة هذه المدارك التي من الله بها علينـا.. فلم أحتج لإدراك ضـعفها.. فلا يمكنـني أن أحمـد اللـه على الضعف.
قـالت صـاحبتها: ولا يمكنـك أن تسـتفيدي من شـيء، وأنت لا تعرفين ضعفه.
قالت زرقاء: كيف ذلك؟
قالت صاحبتها: لأنك قد تقعين في فخاخ الجهل التي ينصبها لك ضعفه.
قالت زرقاء: فلنفرض أني سلمت لك بما ذكرت.. فـاذكري لي من ضعف بصري ما يكفني عن الاغترار به.
قالت: سـأذكر لـك سـبعا من أنـواع النقصـان الـتي لقننـا إياهـا علماؤنا وأساتذتنا ليحفظوا بهـا عقولنـا من أن تقـع ضـحية لأخطـاء مداركنا الحسية.
قالت زرقاء: فما هي؟
قالت(1): لقد قال الغـزالي، وهـو يلقننـا ضـعف حاسـة البصـر مقارنة بالعقل: (اعلموا أن نور بصر العين موسوم بأنواع النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه، ولا يبصـر مـا هو وراء حجاب.. ويبصر من الأشـياء ظاهرهـا دون باطنهـا؛ ويبصـر من الموجودات بعضها دون كلها.. ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيرا في إبصـاره: فـيرى الكبـير صـغيرا والبعيـد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا)
ثم قال متسائلا: (فهذه سبع نقـائص لا تفـارق العين الظـاهرة.. فـإن كـان في الأعين عين منزهـة عن هـذه النقـائص كلهـا فليت شعري هل هو أولى باسم النور أم لا؟)
ثم أجاب: (اعلموا أن في قلب الإنسان عينا هـذه صـفة كمالهـا وهي الـتي يعـبر عنهـا تـارة بالعقـل وتـارة بـالروح وتـارة بـالنفس الإنساني.. ودع عنك العبارات فإنها إذا كـثرت أوهمت عنـد ضـعيف البصيرة كثرة المعاني، فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقـل عن الطفل الرضيع وعن البهيمة وعن المجنون. ولنسمه (عقلا) متابعـة للجمهور في الاصطلاح فنقول: العقـل أولى بـأن يسـمى نـورا من

1() ما نذكره هنا مستفاد بتصرف من رسالة (مشكاة الأنوار) لأبي حامد الغزالي.

العين الظاهرة لرفعة قدره عن النقائص السبع)

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الأول.

قالت: القصور الأول هو أن العين لا تبصر نفسها، والعقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه.. إذ يدرك نفسه عالما وقادرا.. ويدرك علم نفسه.. ويدرك علمه بعلم نفسه وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية.. وهذه خاصية لا تتصور لما يدرك بآلة الأجسام.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الثاني.

قالت: القصور الثاني هو أن العين لا تبصر ما بعد منها ولا ما قرب منها قربا مفرطا، بينما العقل يستوي عنده القريب والبعيد: يعرج في تطريفه إلى أعلى السموات رقيا، وينزل في لحظة إلى تخوم الأرضين هربا.. بل إذا حقت الحقائق يكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه معاني القرب والبعد الذي يفرض بين الأجسام، فإنه أنموذج من نور الله تعالى، ولا يخلو الأنموذج عن محاكاة، وإن كان لا يرقي إلى ذروة المساواة.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الثالث.

قالت: القصور الثالث هو أن العين لا تدرك ما وراء الحجب، والعقل يتصرف في العرش والكرسي وما وراء حجب السموات، وفي الملأ الأعلى والملكوت الأسمى كتصرفه في عالمه الخاص ومملكته القريبة أعني بدنه الخاص.. بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل، وأما حجاب العقل حيث يحجب فمن نفسه لنفسه بسبب صفات هي مقارنة له تضاهي حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الرابع.

قالت: القصور الرابع هو أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها؛ بل قوالبها وصورها دون حقائقها، بينم يتغلغل العقل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها، وأنها من خلق، وكيف خلق، ولم خلق، ومن كم معنى جمع وركب، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى خالقها وما نسبتها إلى سائر مخلوقاته.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور الخامس.

قالت: القصور الخامس هو أن العين تبصر بعض الموجودات فقط دون جميع المعقولات، بل دون كثير من المحسوسات، فهي لا تدرك الأصوات والروائح والطعوم والحرارة والبرودة والقوى

المدركة من السمع والبصر والشم والـذوق، بـل الصـفات الباطنـة النفسانية كالفرح والسرور والغم والحـزن والألم واللـذة والعشـق والشهوة والقـدرة والإرادة والعلم إلى غـير ذلـك من موجـودات لا تحصـى ولا تعـد؛ فهـو ضـيق المجـال مختصـر المجـرى لا تسـعه مجاوزة الألوان والأشكال وهما أخس الموجـودات: فـإن الأجسـام في أصلها أخس أقسام الموجودات، والألوان والأشـكال من أخس أعراضها.

بينما الموجودات كلها مجال العقل؛ إذ يـدرك هـذه الموجـودات الـتي عـددناها ومـا لم نعـدها، وهـو الأكـثر: فيتصـرف في جميعهـا ويحكم عليها حكما يقينا صادقا.. فالأسـرار الباطنـة عنـده ظـاهرة، والمعـاني الخفيـة عنـده جليـة. فمن أين للعين الظـاهرة مسـاماته ومجاراته في استحقاق اسم النور كلا إنها نور بالإضـافة إلى غيرهـا لكنها ظلمة بالإضافة إليه.. بل هي جاسـوس من جواسيسـه وكلـه بأخس خزائنـه وهي خزانـة الألـوان والأشـكال لـترفع إلى حضـرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور السادس.

قالت: القصور السـادس هـو أن العين لاتبصـر مـا لا نهايـة لـه، فإنها تبصر صفات الأجسام، والأجسام لاتتصور إلا متناهية، والعقـل يدرك المعلومات، والمعلومات لا يتصور أن تكـون متناهيـه.. فهـو ـ مثلا ـ يدرك الأعداد ولا نهاية لها؛ بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثـة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهايـة، ويـدرك أنواعـا من النسـب بين الأعداد لا يتصور التناهي عليهـا: بـل يـدرك علمـه بالشـىء وعلمـه بعلمه بالشيء، وعلمه بعلمه بعلمه.. فقوته في هذا الواحد لا تقـف عند نهاية.

قالت زرقاء: فاذكري لي القصور السابع.

قالت: القصور السابع هو أن العين تبصر الكبير صـغيرا، فـترى الشمس في مقدار مجن، والكواكب في صور دنـانير منثـورة على بساط أزرق، بينما يـدرك العقـل الكـواكب وأن الشـمس أكـبر من الأرض أضعافا مضاعفة كثيرة؛ والعين تـرى الكـواكب سـاكنة، بـل تـرى الظـل بين يديـه سـاكنا، وتـرى الصـبي سـاكنا في مقـداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايـد على الـدوام، والظل متحرك دائما، والكواكب تتحرك في كل لحظ أميالا كثـيرة، وأنواع غلط البصر كثيرة، والعقل منزه عنها.

القوانين المنطقية:

بعد أن تعرفت في القسم الأول في (أكاديمية العقل المسلم) على المدارك الحسية، والضوابط التي تحكمها، سرت مع المدرسي إلى قاعة أخرى كتب على بابها (قاعة القوانين المنطقية) فسألته: أهذه هي القاعة التي يدرس فيها منطق أرسطو؟

قال: ليس هناك في الدنيا شيء اسمه (منطق أرسطو)

قلت: كيف تقول ذلك؟.. لقد رأيت أرسطو وتتلمذت على يديه.. بل حفظت على يديه (الأورجانون)

قال: فهل ابتدع منطقه ابتداعا.. أم أنه اكتشفه اكتشافا.. أم أنه وصفه وصفا؟

قلت: ربما أليق الألفاظ أن تعتبره واصفا أو ضابطا.

قال: فهل يمكن أن ننسب العربية للخليل أو لسيبويه.. فنقول (عربية الخليل) أو (عربية سيبويه)؟

قلت: العربية أوسع من أن تنحصر في هذين الرجلين.

قال: فكذلك المنطق.. لقد جبل الله عليه العقول.. فلا يصح أن يوصف به فرد دون فرد.. ولا أمة دون أمة.

قلت: فما الحاجة إلى تدريسه إذن؟

قال: لأن العقول قد تنحرف بها الأهواء عن الحقائق.. كما ينحرف اللحن بالألسن عن الإعراب.. فتحتاج إلى ما يقومها.. سأضرب لك مثالا على ذلك من القرآن الكريم..

لقد كان من مجادلات اليهود لرسول الله ﷺ قولهم :﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: من الآية91).. وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم، فقال :﴿ قل مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: من الآية91)

انظر(1).. كيف استعمل القرآن الكريم المنطق هنا للرد عليهم.. فالذي يلزم من قولهم ذلك هو أن الله لم ينزل التوراة على موسى.. لكن اليهود يؤمنون بأن التوراة كلام الله؛ ولذلك سألهم القرآن الكريم سؤالاً استنكارياً، فقال :﴿ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ (الأنعام: من الآية91)

ولهذا نزه الله تعالى القرآن الكريم من التناقض، فقال :﴿ أَفَلا

1()انظر في هذا مقالا بعنوان (معايير العقلاء)، أ.د. جعفر شيخ إدريس رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة.

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (النساء:82).. فهذه الآية لا تقول فقط إن القرآن الكريم لا تناقُض فيه، بل تجعل عدم هذا التناقض دليلاً على كونه من عند الله تعالى؛ لأنه لا يمكن لمخلوق أن يكتب كتاباً في حجم القرآن الكريم وتعدد موضوعاته وخطورتها والمدة الطويلة التي نزل فيها، ثم لا يكون فيما قال تناقض.

***

دخلنا القاعة، فرأيت طلابا مجتمعين حول أستاذين، فتعجبت من ذلك، وقلت: عهدي بالحلقات أن لا يكون لها إلا شيخ واحد.

قال: أحيانا تحتاج إلى شيخين أو أكثر.. ليكمل أحدهما ما يقصر فيه الآخر.. ألا ترى غرف العمليات كيف يجتمع فيها جموع الأطباء من كل التخصصات؟

قلت: بلى.. لكن ذلك في الأجساد.

قال: والعقول أولى من الأجساد.. فلا تصح الأجساد إلا بصحة العقول.. ألم تسمع الحكمة التي تقول (الجسم السليم لا يكون إلا لصاحب العقل السليم)؟

قلت: هم يقولون (العقل السليم في الجسم السليم)

قال: لقد قالوا ذلك احتقارا للعقل.. فقدموا عليه الجسد.. ولو أنهم فطنوا لقدموا العقول.. فلا يحفظ الأجساد مثل العقول.

قلت: فمن هما هذان الشيخان؟

قال: أما أولهما، فرجل من علماء المسلمين يقال له (ابن حزم).. وأما الثاني، فيقال له (أبو حامد الغزالي)

***

تقدمت من الحلقة، فسمعت شيخها الأول (ابن حزم) يقول(1): الحمد لله رب العالمين، بديع السماوات والأرض وما بينهما، ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، وصلى الله على محمد عبده وخاتم أنبيائه ورسله إلى عباده من الأنفس الحية القابلة للموت، من الإنس والجن، بالدين الذي اجتبرهم به، ليسكن الجنة التي هي دار النعيم السرمدي من أطاعه ويدخل النار التي هي محل العذاب الأبدي من عصاه؛ وما توفيقنا إلا بالله تعالى، ولا حول ولا

1() هذه مقدمة (التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية) لابن حزم، تحقيق: إحسان عباس (بتصرف).. وقد ذكرناها لما فيها من الأدلة على شرعية تعلم هذا العلم ووجه الحاجة إليه.

قوة إلا بالله، عز وجل.. أما بعد:

فإن الأول الواحد الحق الخالق لجميع الموجودات دونه، يقول في وحيه الذي آتاه نبيه وخليله المقدس :﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:62)

وقال مثنيا على عباده من أولي الألباب :﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: 191)

وقال ممتنا على عباده :﴿ الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (﴾4 (الرحمن)

وقال آمرا عباده:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (﴾5 (العلق)

تدبروا هذه الآيات، فإنها جامعة لوجوه البيان الذي امتن به الله تعالى على الناطقين من خلقه وفضلهم به على سائر الحيوان، فضلا منه تعالى يؤتيه من يشاء.. والله ذو الفضل العظيم.

وقد وجدنا أن الله عز وجل عدد في عظيم نعمه على من ابتدأ اختراعه من النوع الإنسى تعلمه أسماء الأشياء؛ فقال تعالى :﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)(البقرة: من الآية31).. وهو الذي بانت به الملائكة والإنس والجن من سائر النفوس الحية، وهو البيان عن جميع الموجودات، على اختلاف وجوهها، وبيان معانيها، التي من أجل اختلافها وجب أن تختلف أسماؤها، ومعرفة وقوع المسميات تحت الأسماء فمن جهل مقدار هذه النعمة عند نفسه، وسائر نوعه، ولم يعرف موقعها لديه، لم يكن يفضل البهائم إلا في الصورة؛ فلله الحمد على ما علم وآتى، لا إله إلا هو.

ومن لم يعلم صفات الأشياء المسميات، الموجبة لافتراق أسمائها، ويحد كل ذلك بحدودها، فقد جهل مقدار هذه النعمة النفيسة، ومر عليها غافلا عن معرفتها، معرضا عنها، ولم يخب خيبة يسيرة بل جليلة جدا.

قال بعض التلاميذ: كيف تقول هذا، ولم نر أحدا من السلف الصالح تكلم فيه؟

قال ابن حزم: إن هذا العلم مستقر في نفس كل ذي لب.. فالذهن الذكي واصل بما مكنه الله تعالى فيه من الفهم، إلى فوائد هذا العلم.. والجاهل كالأعمى يحتاج إلى أن ينبه عليه.. وهكذا سائر

العلوم.. فما تكلم أحد من السلف الصالح، رضى الله عنهم، في مسائل النحو، لكن لما فشا جهل الناس، باختلاف الحركات التي باختلافها اختلفت المعاني في اللغة العربية، وضع العلماء كتب النحو، فرفعوا إشكالا عظيمة، وكان ذلك معينا على الفهم لكلام الله عز وجل، وكلام نبيه ﷺ، وكان من جهل ذلك ناقص الفهم عن ربه تعالى، فكان هذا من فعل العلماء حسنا وموجبا لهم أجرا.. وكذلك القول في تواليف كتب العلماء في اللغة والفقه؛ فإن السلف الصالح غنوا عن ذلك كله بما آتاهم الله به من الفضل ومشاهدة النبوة، وكان من بعدهم فقراء إلى ذلك كله، يرى ذلك حسا ويعلم نقص من لم يطالع هذه العلوم ولم يقرأ هذه الكتب وأنه قريب النسبة من البهائم، وكذلك هذا العلم فان من جهله خفي عليه بناء كلام الله عز وجل مع كلام نبيه ﷺ، وجاز عليه من الشغب جوازا لا يفرق بينه وبين الحق، ولم يعلم دينه إلا تقليدا، والتقليد مذموم، وبالحرى إن سلم من الحيرة، نعوذ بالله منها.

قال آخر: لقد ذكرت بأن هذا العلم موجود في ذهن كل إنسان، فهل هو كسب اكتسبه، أم أنه معرفة ولد بها وفطر عليها.

قال ابن حزم: بل هو من العلم الذي اكتسبه.. لقد قال الله تعالى يشير إلى هذا :﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78)

قال التلميذ: فكيف تسنى للعقل أن يصل إليها؟

قال ابن حزم (1) : العقل هو الوسيلة التي تدرك بها الحقائق.. أو هو النور الذي إذا سلط على الحقائق ظهرت له وتجلت.. ولذلك فإن تلك الحقائق يكشفها نور العقل للنفس كما يكشف ضوء الشمس ألوان الحقول..

وقد كان خطأ الإنسان الأكبر غفلته عن مصدر النور وتوجهه إلى الأحكام زاعما أنها هي حقيقة النور، فراح يبحث عن مصدر يقيِّم به تلك الأحكام.. ولو كان الإنسان قد تذكر بأن الذي يساعده على البحث ليس الا هذا النور، وانه لو افتقده أصبح كالمجنون والنائم حيث لا يفهمان أمرا ولا يعلمان شيئا، وأنه أشبه شيء بنور الإرادة ونور الحرية الذين تملكهما النفس البشرية، وتملك بهما القدرة على الاختيار وهي بذاتها قدرة ذاتية لا تعلل..

لو فعل الإنسان ذلك إذا لتخلص عن سلسلة لا تنتهي من

1() ما نذكره هنا من التعليلات للمدرسي، وليس لابن حزم كما هو ظاهر.

المشاكل العلمية التي أحاطت بنظرية المعرفة.

ذلك لأنه حينذاك يجد أن البحث عنه ضرب من الإسراف والترف الفكري.. إذ ما من بحث الا وهو يؤكد على وجود قوة للإنسان تساعده على البحث، وهي بالتالي تنير طريقه إلى الحقيقة، وتلك القوة هي العقل، وهو نور مقدس عن الإحاطة به من لدن الذات..

التفت إلي، وقال: ومن هنا كانت عملية (كانط) النقدية ـ والتي استهدفت نقد العقل ـ عملية موغلة في الجهل إذ أن الغفلة عن نور العقل، ذلك النور الذي لم يستطع (كانط) ذاته القيام بعملية النقد بدون وجوده لديه.. إن الغفلة عنه فقط كانت السبب في التوجه إلى السابقيات الذهنية، كتصور الزمان والمكان والعلة و.. و.. لينقدها وينتهي بالتالي إلى نظرية النسبية ومنطقه الوضعي.

ولو أن (كانط) كان يتذكر بوجود نور يجعله يقيم الأشياء ويعتمد على تقييمه هذا، وأن ذلك النور هو الذي يكشف له عن الزمان والمكان والعلة والسبب، إذا لنقد الأشياء به، ولم يزعم انه استطاع نقده هو، غافلا عن أن العقل لا يمكن الإحاطة به، فكيف يتاح له نقده، وبأي شيء ينقد الإنسان عقله؟ أبعقله أم بجهله؟ والعقل لا يشكك في ذاته والجهل لا يمكنه نقد العقل..

ومن هنا ـ أيضا ـ أصاب (ديكارت) دوار عنيف في مسيرته عبر العقول إذ أنه شكك نفسه في معلوماته النظرية.. وحين زعم أنه تخلص منها قام ليبني صرح العلم على قواعد جديدة، فلم ير تحت رجليه حجرا ثابتا، وجر إليه انتقادات كبيرة من لدن معارضيه من الحسيين.. ورغم ان (ديكارت) عقلي التفكير فإنه أيضا مخطئ في منهجه، وينشأ خطئه من أمرين:

أولهما: تشكيكه في أن تكون سابقياته الفطرية ناشئة من النفس أو من قوة شيطانية داخلها.. ولم يعلم أن تشكيكه إنما هو في التصورات الغامضة التي لم تتنور بعلم الإنسان.. أما الحقائق الواضحة التي أحاط بها علم البشر فلم يمكن التشكيك فيها أبدا.. ولهذا عاد (ديكارت) نفسه فاعترف بالنفس، وعلل اعترافه بأنه يجدها ظاهرة مميزة أمامه بحيث لا يمكنه إلا الاعتراف بها.

وثانيهما: غفلته عن حقيقة النور الذي كان معه في لحظة تشكيكه في العقل، وإلا فكيف استطاع أن يبلغ بالتشكيك مرحلة متقدمة منه بترتيب النتائج على الأسباب.. كيف استطاع أن يقول: يمكن أن يكون هناك شيطان مضلل للفكر؟.. مع أن علمه

باستلزام سبب للأفكـار الخاطئـة إنمـا هـو ناشـيء من حكم عقلي مسبق وهو: (لا بدية السبب لكل شيء) وأن علمه بـأن الشـيطان يقـوم بالإضـلال، يقـوم على أسـاس وجـود ضـلالة وهدايـة، وقبح الضلالة وحسن الهداية، وكل هذه الأحكام عقلية.

إن مثـل (ديكـارت) في ذلـك مثـل الـذي يشـكك في وجـود الشمس، ثم يرينا الحقول والواحات المضاءة بالشمس، ويقول لـو كانت الشمس موجودة لما كانت لها ظلال وارفة.. إن مجرد رؤيـة الحقـول والواحـات دليـل على وجـود الشـمس، وإن ذات الظلال الوارفة لهي دليـل على وجودهـا.. فكيـف يسـتدل بهمـا على عـدم وجود الشمس؟ وهكذا القدرة على التشـكيك نـوع من إثبـات نـور العقل.

والواقع: إن (ديكارت) لم يحاول التشكيك في عقله، إنما شكك في ركام الجهل الذي تجمع فـوق النفس البشـرية وزعم الإنسـان أنها علم وعقل.. لذلك فإن تصوره للعقل يختلف عن العقـل الـذي أرشد إليه الدين، فإنه زعم أن العقـل إنمـا هـو كـل مـا في النفس البشرية من تصورات، أما الإسلام فـيرى ان التصـورات ليسـت الا معقولات يكتشفها نور العقل وينقدها.

وهكذا ترون كيـف اضـطربت وتناقضـت مقـاييس البشـر حين زعمت أن المسبقات ذاتها العقل، بينما العقل هو: مـا ينـور للنفس تلك المسبقات العلمية.

قال تلميذ آخر: وعينا هذا.. فحدثنا عن خصائص هـذه الأحكـام الـتي نجـدها في عقولنـا.. فقـد رأينـا من الأسـاتذة من يبث من الشبهات حولها ما يرفع الثقة عنها.

قال: للأحكام العقلية السليمة أربعة خصائص كـبرى ترفـع كـل شبهة.

قالوا: فما **أولها**؟

قال: **الجزم**.. فجميع الحقائق المنطقيـة ثابتـة جازمـة لا تقبـل الـريب.. إذ أن ذاتهـا الكشـف، والكشـف يعـني ملامسـة الواقـع وشهوده.. فكيف يجد الانسان الواقع ثم يشكك فيه؟ ومن هنا فـإن الحكم بقبح الظلم، وحسن التضحية، وجمال الآداب ليست أحكامـا تقبـل الـريب، والـذي يرتـاب فيهـا يحـاول الفـرار عنهـا بتغيـير موضـوعاتها بحيث تصـبح الأحكـام ليسـت هي الـتي تغـيرت، بـل موضوعاتها فقط تبدلت، فمثلا: الذي يقول: ان الظلم حسـن يغـير

معنى الظلم حتى يجعله يساوي معنى العدل ثم يقول بأنـه حسـن [1].

قالوا: فما **الثانية**؟

قال: **الشمول**.. فالأحكام العقل شاملة لا تخصص، فإذا كانت الرذيلة قبيحة، فليس هناك فرق بين أن تكون صـادرة من كبـير أو صغير، وفي أي عصـر وأي زمـان.. وإذا كـانت الحادثـة بحاجـة إلى علة محدثة وسبب موجد، فلا فرق بين أن تكون الحادثة رمي كـرة القدم أم وجود كرة الأرض.. واذا كـانت الصـدفة محالـة في وجـود سـاعة يـد، فإنهـا محالـة أيضـا في صـنع مخ الإنسـان.. وإذا كـانت معادلة 5×5=25 صـحيحة، فلا فـرق ان تكـون في أي وقت وأي مكان.

قالوا: فما **الثالثة**؟

قـال: **العمـوم**.. فأحكـام العقـل تتفـق عليهـا عقـول البشـر، فالعقل هو العقل في أي إنسان كان.. وما هو فضيلة أو رذيلـة هنـا فهي في كل مكان ولدى كل إنسان فضـيلة أو رذيلـة.. اذهبـوا إلى من شـئتم فسـوف لا تجـدون الفضـيلة في الخيانـة والنفـاق وبيـع الأوطـان وإيثـار النفس على الآخـرين.. وسـوف لا تجـدون معـاني التضحية والفداء والشـجاعة والإبـاء من معـاني الرذيلـة.. ومن هنـا فـإن الأمم تتبـارى بهـذه القيم، وتجعـل منهـا مقياسـا يحتجـون بـه وينتهون إليـه، وترتكـز أجهـزة إعلامهم على الادعـاء بـأنهم يمثلـون الفضيلة والعـدل، وأن أعـداءهم يمثلـون الزيـف والباطـل.. وهكـذا أصبح العقل حجة بين الأفراد ومقياسا لكل أحكـامهم، فلا يمكن أن نتصور رجلا عاقلا في الأرض يحكم عقله بإمكان الصـدفة أو صـحة التناقض والتشكيك في وجود الذات وغيرها.

قالوا: فما **الرابعة**؟

قال: **الثبات**.. فأحكام العقل لا تتطور حسـب تطـور الأوضـاع الاقتصــادية أو الاجتماعيــة أو الفســيولوجية.. لأنهــا تكشــف عن الحقـائق الخارجيـة تمامـا كمـا لا تتغـير المـرآة وهي تعكس صـور الحياة الناشطة الحركات..

وهنا تختلف الرؤية الإسلامية في المعرفة عن النظريات الذاتية والديالكتيكية.. ذلك أن تلك النظريات حسـبت العقـل وليـدا لنفس المـادة المتطـورة، فـادعت انهـا تتطـور أيضـا، ولم تسـتطع تلـك الفلسفات اكتشاف حقيقة العقل التي لا تعدو أن تكـون طاقـة من

1() انظر رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) عند الكلام عن الحسن والقبح.

نـور زودت بهـا النفس للكشـف عن الحقـائق بصـورة مباشـرة.. ولذلك فإن حكمه مشهود متيقن ثابت وان أي حكم يتغير أو يتصور فيه التغيير لهو ليس بحكم العقل.. ومن هنا لا يمكن القول: بـأن 2×2=4 انما هو صحيح اليوم ويمكن ان يتطـور غـدا حسـب تطـور الاوضاع السياسية فيصـبح 2×2=5 إذ هـذا القـول مضـحك بذاتـه لدى كل نفس عاقلة.

وأيضا كان الزعم بـأن القـول (أن الحـادث بحاجـة إلى سـبب) صحيح اليوم، أما غدا فحيث يحكم البلاد نظم جديدة في الاقتصـاد، فـإن الحـادث يمكن ان يحـدث بلا سـبب، كـان هـذا الـزعم قـولا مرفوضا بذاته، وهكذا.

قال تلميذ من التلاميذ: نـراك تعـاتب كـانت وديكـارت.. مـع أن المنطق الذي تدرسنا إياه ليس إلا وليد البيئة التي ولـد فيهـا هـذان الرجلان.. أليس هو من تأليف أرسطو اليوناني؟

قال ابن حزم: وما الحرج في ذلك.. إن المنطـق من المعـارف الإنسانية العامة، كعلم الحساب والهندسة، فـإن كنـا نجـيز لأنفسـنا أن نستفيد من علم الحسـاب فى الفـرائض فلمـاذا لا نسـتفيد من المنطق؟

قال آخر: ولكن علماء المسلمين نظـروا في تلـك الكتب الـتي تشرحها لنا، فرأوا فيها أموارا عظاما؟

قال ابن حزم: لقد وجدت أن مواقـف المطـالعين لتلـك الكتب أربع طوائف.. وقد اخترت لنفسي ولكم أشرفها وأعلاها.

قالوا: فمن **الطائفة الأولى**؟

قال: هم قوم حكموا على تلك الكتب بانها محتويـة على الكفـر وناصرة للإلحاد، دون ان يقفوا على معانيها أو يطالعوها بـالقراءة.. وهؤلاء هم المقصودون بقوله تعالى :﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَـانَ عَنْـهُ مَسْـؤُولاً﴾ (الاسـراء: 36).. وهم المقصودون بقوله تعالى :﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَـا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَـاجُّونَ فِيمَـا لَيْسَ لَكُمْ بِـهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران:66).. وهم المقصودون بقوله تعـالى :﴿ قُـلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(البقرة: من الآية111)

ونحن ـ في مجلسنا هذا ــ نطلب من هـذه الطائفـة إزالـة هـذا الباطل من نفوسـهم الجـائرة الحاكمـة قبـل التثـبيت، القابلـة دون علم، القاطعة دون برهان..

قالوا: فمن **الطائفة الثانية**؟

قال: هم قوم يعدون هذه الكتب هذيانا من المنطق، وهذرا من القول.. وهؤلاء ـ كأكثر الناس ـ سراع إلى معاداة ما جهلوه، وذم ما لم يعلموه.. ولا يصدق عليهم إلا قوله ﷺ :(الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة)(1)

قالوا: فمن **الطائفة الثالثة**؟

قال: هم قوم قرأوا هذه الكتب بعقول مدخولة، وأهواء مشوبة، وبصائر غير سليمة.. وقد أشربت قلوبهم لذلك حب الاستخفاف، واستلانوا مركب العجز، واستوبأوا نقل الشرع، وقبلوا قول الجهال، فوسموا أنفسهم بفهمها، وهم أبعد الناس عنها وعن درايتها..

ونحن ـ في مجلسنا هذا ـ نصحح ما أخطأوا فيه.. عسى أن يكون ذلك سببا في هداية من سبقت له الهداية في علم الله عز وجل، فيفوز بالحظ الأعلى، ويحوز القسم الأسنى.

قالوا: فمن **الطائفة الرابعة**؟

قال: هم قوم نظروا بأذهان صافية، وأفكار نقية من الميل، وعقول سليمة، فاستناروا بها، ووقفوا على أغراضها فاهتدوا بمنارها، وثبت التوحيد عندهم ببراهين ضرورية لا محيد عنها، وشاهدوا انقسام المخلوقات وتأثير الخالق فيها وتدبيره إياها، ووجدوا هذه الكتب الفاضلة كالفريق الصالح والخدين الناصح والصديق المخلص الذي لا يسلم عند شدة، ولا يفتقده صاحبه في ضيق إلا وجده معه.. فلم يسلكوا شعبا من شعاب العلوم إلا وجدوا منفعة الكتب أمامهم ومعهم، ولا طلعوا ثنية من ثنايا المعارف إلا أحسوا بفائدتها غير مفارقة لهم، بل ألفوها لهم كل مستغلق، وتليح لهم كل غامض في جميع العلوم.

وهؤلاء هم أنتم.. وقد قصدنا في مجلسنا هذا ــ أنا وأخي الغزالي ـ أن نبسط لكم ما تعقد.. ونكشف لكم ما غمض..

وقد كان منهجي في ذلك التبسيط والتيسير.. وقد رأيت تعقيد الترجمة في تلك الكتب، لأنها وردت بألفاظ غير عامية ولا فاشية الاستعمال، وليس كل فهم تصلح له كل عبارة.. فلذلك رأيت أن أورد هذه المعاني بألفاظ سهلة بسيطة يستوي في فهمها العامي والخاصي، والعالم والجاهل.

وهذا بناء على مذهبي في أن العالم هو الذي يسهل العلم جهده، ويقربه بقدر طاقته، ويخففه ما أمكن.. بل لو أمكن أن

1() رواه البخاري ومسلم.

يهتف به على قوارع طرق المارة، ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه، ويجزي الأجور لمقتنيه، ويعظم الأجعال عليه للباحثين عنه، ويسني مراتب أهله، صابرا في ذلك على المشقة والأذى، لكان ذلك حظا جزيلا، وعملا جيدا، وسعيا مشكورا كريما وإحياء للعلم.

بالإضافة إلى هذا.. فقد رأيت أن هذه الكتب كالدواء القوي، إن تناوله ذو الصحة والمستحكمة، والطبيعة السالمة، والتركيب الوثيق، والمزاج الجيد، انتفع به وصفى بنيته وأذهب اخلاطه وقوى حواسه، وعدل كيفياته؛ وإن تناوله العليل المضطرب المزاج، الواهي التركيب، أتى عليه، وزاده بلاء، وربما أهلكه وقتله.. ولذلك فإن منهجي في تدريسها هو ربطها بالدين بمصادره المقدسة.. حتى لا يضل من شاءت له نفسه الضلالة، وهو يرى من أمثلتها ما يتناسب مع هواه.

قالوا: هذا منهجك.. ونحن نقدره.. فما منهج أخيك (الغزالي)؟

قال ابن حزم: ها هو أمامكم.. وسيحدثكم.. فخير من تحدث عن الإنسان لسانه.

***

قال ذلك، ثم التفت إلى الغزالي، وقال: لقد جاء دورك.. فهلم حدثهم عن منهجك.

قال الغزالي: قبل أن أذكر لكم منهجي أحب أن أبين لكم سر اهتمامي بالمنطق.. والذي ألفت فيه كما تعلمون مجموعة كتب.. منها (محك النظر).. ومنها (معيار العلم) وغيرها..

لقد بلغ اهتمامي بهذا العلم أن ذكرت بأن الحقائق لا يمكن أن تعرف في أي علم من العلوم على وجهها إلا إذا كان المنطق ميزانها.. وقد قلت في مقدمة كتابي (المستصفي) التي شرحت فيها علم المنطق إجمالاً.. وجعلته مقدمة لأصول الفقه:(نذكر في هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها في الحد والبرهان، ونذكر شرط الحد الحقيقي، وشرط البرهان الحقيقي، وأقسامها على منهاج أو جزء مما ذكرناه في كتاب محك النظر، وكتاب معيار العلم، وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول، ولا من مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً)(1)

قال بعض التلاميذ: نحن نعرف كل ذلك.. وقد رأينا من يرميك

1()مقدمة المستصفي:1/10.

بسببه بالعظائم.. فهذا الإمام العلامة المحدث أبو عمرو بن الصلاح الشهرزوري يقول - فيما جمعهُ من طبقات أصحاب الشافعي وقرَّرهُ الشيخ أبو زكريا النووي – في فصل عقده بعنوان: (فصلٌ في بيان أشياء مهمةٍ أُنكرت على الإمام الغزالي في مصنفاته، ولم يرتضيها أهل مذهبهِ من الشذوذ في مصنفاته).. ومما ذكره فيه قوله عنك: (فكيف غَفَلَ الغزالي عن شيخه إمام الحرمين ومِن قبلهِ من كلِّ إمام هو لهُ مُقدِّم، ولمحله في تحقيق الحقائقِ رافعٌ ومُعظِّم، ثم لم يرفع أحدٌ منهم بالمنطقِ رأساً، ولا بنى عليه أُسَّاً، ولقد أتى بخلطة المنطق بأصول الفقه بدعةً عظُمَ شؤمها على المتفقهة، حتى كثُرَ فيهم بعد ذلك المتفلسفة والله المستعان)

وقال العلامة أبو بكر بن العربي المالكي:(شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر).. وقال في موضع آخر : (يوجد في كلام أبي حامد ونحوه من أصول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يُحرفون كلام الله ورسوله ﷺ عن مواضعه كما فعلت طائفة القرامطة والباطنية)

قاطعه الغزالي، وقال، وهو يبتسم: بل قال في صديقي وحبيبي ابن رشد: (إنه ـ أي أنا ـ لم يلزم مذهبا من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشعرية أشعري، ومع الصوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف، حتى أنه كما قيل:

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدناني

قال التلميذ: أجل.. وقد قال غيره مثل ما قال، أو قريبا مما قال، أو أعظم مما قال.

قال الغزالي: لا ينبغي للعالم أن يخاف من آراء الرجال فيه أو نقدهم له.. لقد كنت في موقف لو وقفوا فيه لفعلوا ما فعلت.

قال التلميذ: كيف ذلك؟

لقد انتشر في ذلك الحين ما يسمى بالفلسفة، أو علوم الأوائل.. وكان الناس حولها مختلفين إلى ثلاث طوائف.

قالوا: فما الطائفة الأولى؟

قال: هم المحافظون المتشددون الذين راحوا يقابلون تلك العلوم بالرفض الكلي.. بل بتأليب الرأي العام عليها، وتكفير أو تبديع كل من يبحث أو يخوض فيها.. ولم تكن علاقة هؤلاء بتلك الثقافات إلا علاقة الحكم المسبق في معظم الأحيان، ولهذا لم يكن نقدهم لها إلا نقدا ظاهريا لا يعتمد البرهان العلمي، ولا الحجة المنطقية،لأن المنطق نفسه من الفلسفة.

وأنا شخصيا أعتبر هـذا التيـار سـببا لانتشـار الأفكـار المضـللة.. فهم كالصديق الجاهل يضر صاحبه أكثر مما ينفعه.

انظروا ـ مثلا ـ إن هؤلاء أنكروا كون خسوف القمـر عبـارة عن انمحاق ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس.. بـل أنكـروا الهندسة والحساب والمنطـق والفلـك وغيرهـا.. وكـان دافعهم إلى ذلك جميعا هو كون مصدر ذلك هو كونها من الثقافات الأجنبية، مـع أنها لا تصادم النصوص الشرعية.

لقد قلت في بعض كتبي أقررهذا: (وأعظم ما يفرح به الملحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع، فيسهل عليه طريق إبطال الشرع)، مع أن الشرع لم يتعرض لهذه العلـوم نفيا ولا إثباتا،ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الشرعية.

وقد انجر عن هذا المنهج نوع من الشعور بالتصـادم بين العقـل والـدين، فـإن تلـك القضـايا من الوضـوح والدقـة، وبراهينهـا من الوضوح والقوة بحيث لا يمكن رفضـها؛ ورفض العلمـاء لهـا بحجـة منافاتها للدين كذب عليه، وخدمة للملحدين والمشـككين، وهـو مـا حصـل في أوروبـا عنـدما أنكـرت الكنيسـة الكثـير من الكشـوف العلمية التي تتنافى مـع موروثاتهـا اليونانيـة وغيرهـا، ممـا أدى إلى النفور من الكنيسة، والتمكين للإلحاد.

قالوا: هـذه الطائفـة الأولى.. ولا يـزال ــ للأسـف ــ لهـا وجـود واقعي خطير.. فما الطائفة الثانية؟

قال: هم طائفـة عكس الأولى.. فهم يـرون القبـول الكلي لمـا ورد في تلك الفلسفات والثقافات.. بل يرون طـرح الـدين بسـببها والانخداع بمظاهرها.. لقـد قلت واصـفا هـذه الطائفـة في مقدمـة كتابي (تهافت الفلاسفة) : (أما بعـد، فـإني رأيت طائفـة يعتقـدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء قـد رفضوا وظائف الإسلام، واستحقروا شعائر الدين، بل خلعوا بالكلية ربقة الدين بفنون من الظنون يتبعون فيها رهطا يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا)

وقد رأيت أن ذوبان هذا التيـار في تلـك الثقافـات لا يرجـع إلى تحكيم الموازين العقلية بقدر رجوعه إلى أوهام وخيـالات وأسـباب النفسـية.. منهـا إطنـاب طوائـف من متبعيهم في وصـف عقـولهم ودقة علومهم، وأنهم مع كل ذلك الذكاء منكرون للشرع متنصـلون من تكاليفه.

ومنهـا مصـادرتهم العامـة على مطـالبهم المعرفيـة اسـتدراجا

لهم.. فقد كانوا إذا ما أوردوا عليهم إشكالا تذرعوا بأن هذه العلـوم غامضة، وأنها أعصى العلوم على الأفهام الذكية، ولا يمكن التوصل إلى فهمهـا إلا بتقـديم الرياضـيات والمنطـق، وهـذا كلـه اسـتدراج نفسي للوصول بهم إلى حالة الانبهار التـام المـؤدي إلى ا لخضـوع الكلي.

ومنها الخلـط بين العلـوم الطبيعيـة والهندسـية والمنطقيـة مـع الآراء الميتافيزيقيـــة، حـــتى ظن من ينظـــر في منطقهم فـــيراه مستحسنا أن سائر علومهم مؤيدة بتلك البراهين.

ومنهـا مـا مزجـه (إخـوان الصـفا) بتصـانيفهم المسـتمدة من الفلسفة اليونانية من الحكم النبوية والكلمـات الصـوفية اسـتدراجا للعامة إلى مقاصدهم، مع العلم أن انتشـار آراء تلـك الجمعيـة في ذلك الحين كان واسعا شاملا كـل فئـات المجتمـع،كمـا تشـير إليـه رسائلهم.

وقد رأيت ـ كما ترون معي ـ أن جميـع هـذه الأسـباب لا ترجـع إلى براهين عقليـة، أو حجج منطقيـة، وإنمـا هـو حالـة من الانبهـار الساذج، والتـأثر العـاطفي الـذي لا يحكمـه العقـل، ولا يسـتند إلى الحجة.

قالوا: فما الطائفة الثالثة؟

قال: هي الطائفة التي اخترت أن أنتسب إليها.

قالوا: وما تقول هذه الطائفة؟

قال: هذه الطائفة تريد أن تكون وسطا بين الطائفتين.. فتســد المفسدة، وتجلب المصلحة.

قالوا: أي مفسدة؟

قال: مفسدة الطائفة الأولى التي تحـرم المسـلمين علومـا لم يحرمها الشرع.. ومفسـدة الطائفـة الثانيـة الـتي تريـد أن تسـتغل العقل لتضرب الدين.. مـع أن الـدين عين العقـل.. بـل لا عقـل بلا دين.. ولا دين بلا عقل.

قالوا: وأي مصلحة؟

قال: لقد رأيت في تلك العلوم مصالح كثيرة يمكننا أن نسـتفيد منها فيها.. فمن علومهم الرياضـيات.. وهي تتعلـق بعلم الحسـاب والهندسة وعلم هيئة العالم، ولا يتعلق شيء منهـا بـالأمور الدينيـة، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجا حدتها بعـد فهمهـا.. بـل إنهـا من الفروض الكفائية ما دام يحتاج إليها.

ومنها العلوم الطبيعيـة.. وهي تشـمل الطب والكيميـاء والفلـك

وغيرهـا.. وهي لا تتعـرض للـدين.. ولـذلك لا ينبغي مخـالفتهم في شيء منها إلا بما هدى إليه الدليل العلمي.

ومنهـا العلـوم السياسـية.. وهي تبحث عن الحكم المصـلحية المتعلقـة بـالأمور الدنيويـة ولا علاقـة لـذلك بالـدين.. بـل يمكن الاستفادة من أبحاثهم فيها باعتبارها مستمدة ـ كما أرى ـ من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء.

ومنها العلوم الأخلاقية.. وكلامهم فيها يرجـع إلى حصـر صـفات النفس وأخلاقها وأجناسها وأنواعهـا وكيفيـة معالجتهـا ومجاهـدتها.. وأنا لا أرى ردهـا باعتبارهـا لا تنـاقض الشـرع، بـل إن كلامهم فيهـا مأخوذ من كلام الصوفية والمتألهين الذين لم يخلو من وجودهم أي عصـر من العصـور، ولـذلك فـإن الاسـتفادة منهم تلـق لمزيـد من التجارب والفوائد التي لم تمنعنا الشريعة من الأخذ بها.

ومنها العلوم الإلهية.. وأكثر أغاليطهم فيهـا.. وأنتم تعلمـون أني نـاظرتهم في هـذه العلـوم معتمـدا المنطـق الـذي وضـعوه هم بأنفسهم.. وفي ذلك تمام الحجة عليهم ببيان تناقضـهم.. لقـد قلت في مقدمة الكتاب الذي وضعته لهذ الغـرض:(وننـاظرهم في هـذا الكتاب بلغتهم، أعني بعباراتهم في المنطق، ونوضح أن ما شرطوه في صـحة مـادة القيـاس في قسـم البرهـان من المنطـق، ومـا شـرطوه في صـورته في كتـاب القيـاس.. لم يتمكنـوا من الوفـاء بشيء منه في علومهم الإلهية)

ومنها العلوم المنطقية.. والـتي وجـه إليـك اللـوم لي بسـببها.. وهي تتعلق بالنظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقـدمات البرهان وكيفية تركيبها، ولا يتعلق شيء منها بالدين إلا مـا حشـيت به من أمثلة تتنـاقض وتتعـارض مـع الأصـول الدينيـة، ولأجـل ذلـك ألفت كتبي المنطقية،كمعيار العلم وغيره،وحشـوتها بـدلا من ذلـك بالأمثلة الفقهية.

قال بعض التلاميذ: ولكن لم ذلك؟.. ألم يكن عندنا ما يكفي؟

ابتسم الغزالي، وقال: ولكن ما المانع من قبولها؟

قال: لأن الذي كتبها وقالها ليس مسلما.

ابتسم الغزالي، وقال: ألم تعلم ـ يا ولـدي ــ أن الحكمـة ضـالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها..

قال التلميذ: ولكنهم فلاسفة.. وليسوا حكماء؟

قـال الغـزالي: إن مثـل من ينكـر على هـؤلاء بسـبب كـونهم فلاسفة كمن يسـمع من النصـراني قولـه : (لا إلـه إلا اللـه عيسـى

رسول الله)، فينكره، ويقول:هـذا كلام نصـراني، ولا يتوقـف ريثمـا يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هـذا القـول أو باعتبـار إنكـار نبـوة محمد ﷺ.

قال بعض التلاميذ: وعينا هذا.. وبورك فيك.. فحـدثنا عن المنهج الذي تريد أن نتعلم من خلاله هذا العلم.

قال: لقد رأيت ـ كما وضح لكم زميلي ابن حـزم ــ أن الأحكـام العقلية إذا تجردت من سلطة حكم الحس و الوهم لا تكـاد تخطئ، لأنها فطرة فطر الله الناس عليها.. قال تعالى :﴿ فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: من الآية30).. انظروا كيف سمى اللـه العقل دينا..

ولكون أحكـام العقـل المجـرد دينـا، فـإن التنـاقض بين أحكـام العقل وأحكام الشرع مسـتحيلة.. بـل إن أسـاس الشـرع العقـل.. فالعقل كالأس والشرع كالبناء.. ولن يغـني أ س مـا لم يكن بنـاء.. ولن يثبت بناء ما لم يكن أ س.

والشرع ـ بسبب مراعاته الضرورية للأحكـام العقليـة ــ عقـل.. فالشـرع عقـل من الخـارج، والعقـل شـرع من الـداخل.. وهمـا متعاضدان بل متحدان.

و بسبب هذا الاتحـاد بين أحكـام العقـل وأحكـام الشـرع، فـإن تمجيد العقل تمجيـد للشـرع، وإعمالـه أعمـال للشـرع، ونبـذه نبـذ للشرع.. لأن كليهما من وضع الله.. أما ذم من ذمه فسـببه إلى أن النـاس نقلـوا اسـم العقـل إلى المجادلـة والمنـاظرة بالمناقضـات والإلزامات، فاستخدموا العقل في غـير مـا خلـق لـه، فلـذلك كـان الـذم منصـبا على الاسـتخدام السـيئ لا على المحـل فـإن (نـور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسـله، لا يتصـور ذمه؟،وقد أثنى الله تعالى عليه ؛ وإن ذم فما الذي بعده يحمد؟)

قال بعض التلاميذ: وعينا هذا.. فما المنهج الذي تريـد أن تعلمنـا إياه؟

قال: لقد وفقني الله بعـد أن كتبت في المنطـق مـا تعرفـون.. فكتبت كتابا حاولت فيه أن أكتب المنطق بأسلوب يفهمه الجميـع.. ولن يعـترض عليـه أحـد من النـاس.. إنـه كتـابي (القسـطاس المستقيم).. وقد جعلته ـ بتوفيق الله ـ الميزان الـذي ينفي الخلاف عن الخلق.

قـال بعض التلاميـذ: لقـد رأيت الكتـاب.. ولكـني رأيت أن تلـك

الموازين التي وضعتها فيه مطابقة للموازين المنطقية اليونانية.

ابتسم الغـزالي، وقـال: لا يمكن لأحـد في هـذا البـاب أن يـأتي بالجديد المجرد.. إن تلك الموازين تتفق فيهـا العقـول جميعـا، ولـو خالفتها لكنت مجنونا.

قال التلميذ: فما فعلت إذن؟

قال: تقريب الصياغة وربطها بمصـادرنا المقدسـة.. لقـد فعلت ذلك لصنفين من الناس..

أمـا أولهمـا.. فالـذين اسـتهوتهم الفلسـفة بمـا فيهـا من علـوم عقليـة، فخلطـوا بين حقهـا وباطلهـا، وظنـوا التنـاقض بين العلـوم النقلية والأحكام العقلية.

وأما ثانيهما، فالعلماء الحرفيين الذين رفضوا المنطـق باعتبـاره فلسفة وعلما غريبين عن الدين.

لقـد قلت في مقدمـة كتـابي هـذا : (لا يتصـور أن يفهم ذلـك المـيزان ثم يخـالف فيـه أهـل التعليم لأني اسـتخرجته من القـرآن وتعلمته منه، ولا يخالف فيه أهل المنطق، لأنه موافق لما شـرطوه في المنطق غير مخالف له، ولا يخـالف فيـه المتكلم، لأنـه موافـق لما يذكره في أدلة النظريات،وبه يعرف الحق في الكلاميات)

قلت: لقد شوقتنا إلى هذه الموازين.. فما هي؟

قـال: هي ثلاثـة مـوازين: مـيزان التعـادل.. ومـيزان التلازم.. وميزان التعاند.

قلت: فما ميزان التعادل؟

قال: له ثلاثة أشكال(1)..

أما أولهما، فالميزان الأكبر.. ومثالـه قولـه تعـالى على لسـان إبراهيم ﷺ :﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهَـا مِنَ الْمَغْرِبِ)(البقرة: من الآية258)، وصـياغة هـذا المـيزان هي: كـل من يقدر على إطلاع الشـمس فهـو الإلـه، فهـذا أصـل؛ وإلهي هـو القــادر على الإطلاع، وهــذا أصــل آخــر؛ فلــزم من مجموعهمــا بالضرورة أن إلهي هو الإله، ويمكن صياغته رمزيا هكـذا : أ هي ب، وب هي ج،إذن :أ هي ج.

وأما الثاني، فالميزان الأوسط.. ومثاله قوله تعالى عن إبـراهيم ﷺ :﴿ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ)(الأنعام: من الآية76)، وصياغة هذا المـيزان هي : أن القمر آفل، والإله ليس بآفل؛ فـالقمر ليس بإلـه.. ويمكن

1() هذه الموازين الثلاثة المشـكلة لمـيزان التعـادل تشـبه مـا يعـبر عنـه في المنطـق بأشكال قياس أرسطو الاقتراني الثلاثة.

صياغته رمزيا هكذا :أ هي ب، وج ليست ب،إذن : أ ليست ج.

قلت: فما الفرق بين هذا الميزان والميزان الأكبر؟

قال: الفرق بينهما واضح.. فالصفة في الميزان الأكبر عامة تشمل جزئيات الموصوف كلها، بخلاف ما هي عليه في الميزان الأوسط حيث تنحصر في شيئين متباينين كل التباين بحيث ينفي عن أحدهما ما يثبت للآخر.

قلت: فما الشكل الثالث من أشكل ميزان التعادل؟

قال: الميزان الأصغر.. ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ ت) (الأنعام: من الآية91)، ووجه الوزن بهذا الميزان هو أن موسى عليه السلام بشر، وقد أنزل عليه الكتاب، إذن بعض البشر أنزل عليهم الكتاب.. وصياغته الرمزية هي: ب هي أ، وب هي ج، إذن بعض أهي ج.

والفرق بين هذا الميزان وما قبله أته يستخدم في التخصيص والتمييز بين الصفات الذاتية التي تشترك فيها عموم جزئيات الجنس والصفات العرضية التي لا يشترك فيها إلا قسم من هذه الجزئيات.

قلت: فما الميزان الثاني؟

قال: ميزان التلازم(1).. وهو ـ كما عرفه الغزالي ــ أن كل ما هو لازم للشيء تابع له في كل حال، فنفي اللازم يوجب بالضرورة نفي الملزوم، ووجود الملزوم يوجب بالضرورة وجود اللازم، أما نفي الملزوم ووجود اللازم فلا نتيجة لهما.

وقد ضرب له مثالا بقوله تعالى :﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)(الانبياء: من الآية22)﴾، وصياغة هذا الميزان هي أنه لو كان في السموات والأرض إلهان لفسدتا، فهذا أصل، ومعلوم أنهما لم تفسدا، وهذا أصل آخر؛ فيلزم منهما ضرورة نفي الإلهين، وإثبات الإله الواحد.

قلت: فما الميزان الثالث؟

قال: ميزان التعاند.. وهو ـ كما يعرفه الغزالي ــ بأن (كل ما انحصر في قسمين، فيلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر بشرط أن تكون القسمة منحصرة، لا منتشرة)

وقد ضرب له مثالا من القرآن الكريم بقوله تعالى :﴿ قُلْ مَنْ

1() وهذا الميزان هو المسمى في المنطق بالقياس الشرطي المتصل.

يَـرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُـلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُـدىً أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ:24)، ووجه الاستدلال به هو: (إنـا أو إيـاكم لعلى هـدى أو في ضـلال مـبين، ومعلـوم أننـا لسـنا في ضـلال، والنتيجة هي: أنتم ضالون)

قال بعض التلاميذ: إن ما ذكرته من الموازين العقلية هي نفس المقاييس المنطقية..

قال: لقد ذكرت لكم ذلك.. لقد ذكرت في كتـابي (القسـطاس المستقيم):(أما هذه الأسامي فأنا ابتدعتها، وما عندي أني سبقت إلى استخراجها من القرآن؛ وأما أصل المـوازين فقـد سـبقت إلى استخراجها، ولها عند مستخرجيها من المتـأخرين أسـام سـوى مـا ذكرتها، وعند بعض الأمم الخالية السابقة على بعثة محمد وعيسـى ـ صلوات الله عليهما ــ أسـام أخـر كـانوا قـد تعلموهـا من صـحف إبراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ)

قال التلميذ: فهل سندرس في هذا الفرع هذه الموازين؟

قال: في هذا الفرع ستتدربون على هذه الموازين وغيرهـا.. فلا يمكن للمحاور أن يحاور، وعقله لا يعرف كيـف يـزن، وكيـف يتثبت مما يزن.

التجارب الميدانية:

سرنا إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. كان اسمه (قسـم التجـارب الميدانيـة).. عنـدما رأيت هـذا القسـم، قلت للمدرسي: لاشـك أن هـذا القسـم من تأسـيس فرنسـيس بيكـون الذي عاش ما بين (1561-1626م).. فهو الذي يعزى إليـه فضـل نشـوء طريقـة البحث العلمي الحـديث المعتمـدة على المنهج التجريبي(1).

لست أدري كيف جذبني بعضهم جذبا شديدا، وقال: كيف تقول هذا.. إن ما تقوله يخالف جميع الحقائق، وجميع الأدلة.

قلت: من أنت؟

قـال: أنـا رجـال كثـيرون كلهم يشـهدون بـأن المنهج التجريـبي أعمـق وأخطـر من أن يختص بمن ذكـرت.. فالتجربـة في الأمـور الخاضعة للتجربة فطرة أصلية في العقل الإنساني، والإنسان يلجـأ إليهـا بشـكل تلقـائي إذا أمكنـه ذلـك ليتأكـد من صـحة أحكامـه، أو ليختبر بعض القضايا، وربما يفعـل ذلـك دون الاعتمـاد على قـواعد

1()استفدنا من بعض المـادة العلميـة هنـا من مقـال بعنـوان (شـبهة سـبق الغـرب للمسـلمين في وضـع منـاهج البحث العلمي)، للأسـتاذ عبـد الـرحيم الشـريف، من موقـع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

معينة لذلك.. لقد قال كلود برنارد يؤكد هذا :(إنني أعتقـد أن كبـار المجربين قد ظهروا قبل أن توجد القواعـد العــامة لفن التجـريب، ومن ثم يبدو لي أنه لا يحق لأحد أن يقول في حديثه عن بيكون إنه اخــترع المنهج التجريــبي، ذلــك المنهج الــذي اســتخدمه جــاليلو وتورشيلي على نحو جدير بالإعجاب عجز عنه بيكون)(1)

وقالت زيغريد هونكه :(إن الإغريق تقيدوا دائماً بسيطرة الآراء النظرية، ولم يبدأ البحث العلمي القائم على الملاحظة والتجربة إلا عند العرب)(2).. وقالت:(لم يكن مستوى روجر بيكون العلمي في الكيمياء أرفع من معاصريه ألا أنه رأى في التجربة التي أخـذها عن العـرب السـبيل الحقيقي للوصـول إلى نتـائج حاسـمة في العلـوم الطبيعية وخاصـة في الكيميـاء، وهكـذا كـان روجـر علمـاً متوهجـاً سـطع في سـماء القـرون الوسـطى المظلمـة وفي حنايـاه روح الشاعر الأندلسي ابن الخطيب الذي قال : مبـدئياً يجب أن يكـون كـل برهـان متـوارث قـابلاً للتعـديل إذا مـا اتضـح لحواسنا عكسه)

وقد اضطر (فون كريمر) للاعتراف بدور المسـلمين في حقـل المعرفــة التجريبية(3)، فقـال:(إن أعظم نشـاط فكـري قـام بـه العـرب يبـدو لنـا جليـاً في حقـل المعرفـة التجريبيـة ضـمن دائـرة ملاحظاتهم واختباراتهم، فإنهم كانوا يُبدون نشاطاً واجتهاداً عجيـبين حين يُلاحظون ويمحصون، وحين يَجمعون ويُرتبـون مـا تعلمـوه من التجربة، أو أخذوه من الرواية والتقليـد، ولـذلك فـإن أسـلوبهم في البحث أكبر ما يكون تـأثيراً عنـدما يكـون الأمـر في نطـاق الروايـة والوصف)(4)

ويؤكد (الدكتور فرانتز روزنتـال) أن المسـلمين كـانوا ينظـرون إلى التجربــة والملاحظــة على أنهـا ذات قيمــة فريــدة في البحث العلمي، وأننا نجـد أمثلـة هائلـة لـذلك في الحضـارة الإسـلامية في حقول المعرفة المتنوعة، وينقل هـذه العبـارة عن ابن أبي أصـيبعة عن الــرازي (مــتى كــان اقتصــار الطـبيب على التجــارب دون القيـاس وقـراءة الكتب خُـذل) مما يدل على أن التجربة كانت عند الأطباء منتشرة بشكل كبير، وأنه كان يحمد للطـبيب أن يضـم إلى

1()المنطق الحديث ومناهج البحث د. محمود قاسم ص 38.

2() (شمس الله تسطع على الغرب) ص 401 – ترجمة فاروق بيضون – دار الجيل – بيروت –

3()وإن كان هذا الإنصاف منه مقدمة لما يريد أن يصل إليـه من إقنـاعٍ للقـارئ بتفـوق الجنس الآراي واليوناني على غيره.

4()مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي فرانتز روزنتال ص 15.

تجاربه العلمية القراءة النظرية والقياس العقلي.

قال ذلك، ثم انصرف، ليتركني لصاحبي المدرسي الذي سار بي في فروع كثيرة في ذلك القسم، شد انتباهي منها رجل يقال له (ابن الهيثم)(1)

كان هذا الرجل محل إعجاب الكثيرين، منهم (زيغريد هونكه)، التي قالت، وهي تتحدث عنه: (لقد علّم إقليدس وبطليموس بأن العين المجردة ترسل أشعةً إلى الأشياء التي تريد رؤيتها فجاء ابن الهيثم وأعلن أن هذا الادعاء خاطئ لأنه ليس هناك أشعةً تنطلق من العين ليتحقق النظر بل إن شكل الأشياء المرئية هي التي تعكس الأشعة على العين فتبصرها هذه بواسطة عدستها)

وقد سمعت من ابن الهيثم قوله ــ وهو يجمع في إيجاز بين الاستقراء والقياس، ويقدم الاستقراء على القياس، ويحدد فيه الشرط الأساسي في البحوث العلمية الصحيحة وهو أن يكون الغرض طلب الحقيقة ـــ : ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المُبْصَرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقاء المقدمات، والتحفظ من الغلط في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل، لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نجيزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء.

قال لي صاحبي المدرسي، وهو يحدثني عنه، وقد رآني شديد الإعجاب بمنهجه(2) : ليس ذلك فقط.. بل إن ابن الهيثم قد عمق تفكيره إلى ما هو أبعد غوراً مما يظن أول وهلة فأدرك ما قال به من بعده (ماك) و(كارل بيرسون) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدثين في القرن العشرين.

ومن مميزاته أنه كان يشرح الجهاز، ويبين وظيفة أجزائه المختلفة، ويستعمل أجهزة مبتكرة لشرح الانعكاس والانعطاف، وتدل تجاربه وحساباته أنه استطاع أن يجمع بين مقدرته الرياضية، وكفايته العلمية الممتازة، يدل على ذلك صنعه للأجهزة،

1() أشير به إلى محمد بن الحسن بن الهيثم، وهو مهندس من أهل البصرة ولد عام 354 هـ سكن في مصر واستوطن فيها على باب الجامع الأزهر فانقطع للتصنيف والإفادة إلى أن توفي عام 430 هـ له تصانيف في الهندسة وترجمت بعض مصنفاته إلى الألمانية مثل كيفية الإظلال والمرايا المحرقة.. انظر الأعلام 3/ 83، 84.

2() انظر: مناهج البحث في العلوم الإسلامية مصطفى حلمي ص 76.

واستعمالها في أغراض مختلفة.

كما أنه اعتني بالقياس كما في كتابه (المناظر).. فهو ينتقل من التجربة إلى القياس، ويستنبط من ذلك قضايا مهمة، ويشرح ظواهر خطيرة في الضوء.

***

رأيت في تلك القاعة الكثير من الشخصيات المسلمة الكبيرة التي كان لها الفضل العظيم على الحضارة الإنسانية، وقد رأيتها جميعا تستعمل هذا النوع من المدارك من غير أن تشعر بأي تناقض بينه وبين معرفتها بالله وإيمانها به، وقد دعاني الفضول في بعض المجالس، فسألت بعض أولئك العلماء عن سر عدم استعمالهم هذا المنهج في التعرف على الله(1)، فابتسم، وقال: هل يمكن لأذنك أن تدرك المبصرات، أو يمكن لذوقك أن يدرك المشمومات؟

قلت: كلا.. فلكل منها ميدانه الذي لا يمكنه أن يتجاوزه.

قال: فكيف تريد من عيوننا القاصرة، وقدراتنا المحدودة، وتجاربنا الحقيرة أن تتطلع لمعرفة الذي ليس كمثله شيء.

إن التجربة تقتضي التكرار.. وليس ربك إلا واحد.

قال ذلك، ثم انصرف عني بهمة عجيبة إلى تجاربه.

الخواطر النفسانية:

سرنا إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. فوجدت رجلا منشغلا عن كل شيء، فقصدته، وقلت له: ما الهم الذي جعلك تنعزل عن الكل؟.. اذكره لي لعل في طاقتي أن أملأ قلبك بأنواع السلوى.

قال: أنا لم أجلس هنا مهتما ولا حزينا، بل جلست متعلما.

قلت: على من؟.. لا أرى أمامك أي أستاذ.

قال: على نفسي.. إن من لم يتتلمذ على نفسه لا يصلح له أن يتتلمذ على أي أستاذ.

قلت: نفسك إن تتلمذت عليها ساقتك إلى أنواع الشرور.

قال: تلك النفس الأمارة.. أما النفس المطمئنة، فإنها لا تسوقك إلا إلى الخير الذي لا خير بعده.

قلت: لن تطيق النفس ذلك حتى يكون لها من المدارك ما تستطيع أن تصل به إلى الحقائق.

1() انظر الرد المفصل على هذه الشبهة في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

قال: صدقت.. وقد وهب الله النفس من المدارك ما يمكنها أن تصل به إلى الحقائق.

قلت: لم أسمع من يقول بهذا.

قال: نفسك تقوله.

قلت: نفسي!.. كيف؟

قال: ألا ترى في نفسك أشياء كثيرة توقن بها مع أن هناك الكثير ممن يخالفك فيها؟

قلت: ذلك صحيح.

قال: فلمن تخضع؟.. ألم تقوله نفسك، أم لما يقوله غيرك؟

قلت: بل أخضع لنفسي.. ولكني أعتبر نفسي أحيانا مخطئة في ذلك.

قال: خطأ نفسك في شيء من الأشياء لا يدل على خطئها مطلقا.

قلت: ذلك صحيح.

قال: فكيف تنفي أن تكون النفس مدركا من مدارك العقل؟

قلت: لأنها تخطئ.

قال: وحواسك كذلك تخطئ.. ومع ذلك تعتبرها مدركا صحيحا.

قلت: لقد ألزمتني الحجة.. لكن كيف أتقي الخطأ؟

قال: في هذا القسم من (أكاديمية العقل المسلم) ندرس هذا.. فنضع الضوابط التي تحمي النفس من الأخطاء التي يمكن أن تسربها للعقول.

قلت: فهلا ذكرت لي بعضها.

قال: أهمها هو حماية النفس من الأهواء.. لأن هذا هو الذي يدع الإنسان يخضع للظروف ويتطور حسبها.. فمتى ما أحب الإنسان شيئا تأثر به بقدر حبه له، ووجب عليه أن يعطي من ذاته تنازلاً له، فطبيعة الحب تختلف عن المعرفة، لأنهما يمثلان جانبين مختلفين في النفس.

صحيح أن الإنسان لا يقدر على تمييز ذلك في كل وقت، وصحيح أن ذلك بحاجة إلى أنواع من التجرد الموضوعي والنقد الذاتي، كما أنه بحاجة إلى التفكر الممنهج. إلا أنه لدى ممارسة التمييز فترة طويلة يسهل ذلك على النفس حتى يبدو العلم والحب بعيدين عن أحدهما، مميزين عن بعضهما..

قلت: فهلا ضربت لي مثالا يقرب لي هذا؟

قال: سأضرب لك أمثلة عن **افتراق المعرفة عن الحب**..

فمن أمثلة ذلك أن المعرفة تفترق عن الحب في أننا نحب كثيرا من الأشياء ونعلم أنها غير موجودة فعلا.. إننا نحب الخلود حتى أنه قد يطغى علينا هذا الحب فينسينا العلم بالموت، ونعمل كما أننا نعلم بالخلود.. وأننا نحب السيطرة ونعمل في كثير من الحالات مدفوعين بهذا الحب، بل زاعمين أننا نملك السيطرة فعلا، ولكن العلم الحقيقي يكشف لنا خلاف هذا الواقع.

وتفترق المعرفة عن الحب أيضا حينما نحب أن تكون كل معارفنا صحيحة وكل عقائدنا موافقة للحق.. بيد أنا نواجه في كثير من الأوقات حقائق تكرهنا على إعاة النظر في معارفنا وعقائدنا والاعتراف بخطئها كليا أو جزئيا.

وتفترق المعرفة عن الحب، عندما نحب أن تكون كل أمم الأرض تخدم مصالحنا الخاصة في حين نعلم أن طائفة كبيرة منها تخالفها تماما!..

إن هذه الأمثلة توضح الفارق الكبير بين الحب والمعرفة، إلا أنه رغم وجود هذا الفارق يواجه الفرد غموضا بالغا في التمييز بينهما.. فمثلا حين يحب الإنسان ذاته يخادع نفسه عن نقائصها، ويحاول ايجاد تبريرات لأخطائها ويريد أن يوقع مسؤولية ما تصدر عنها على الآخرين.. وحين يحب المرء أبناءه يغمض عينا عن كل ما فيهم من سيئات حتى يصبحوا مجموعة حسنات في عينيه!.. وهكذا حينما يحب الإنسان مبدأ يركز نظره إلى محاسنه حتى يحذف دور عقله كليا في نقد المبدأ أو حتى في تطويره وينقلب إلى إنسان ممسوخ.. ونعرف من ذلك كله: أن الإنسان يستطيع أن يميز الفكرة النابعة من كشف الواقع، والفكرة النابعة من حب النفس وهواها، لأن الأولى تمثل جانب القوة والثانية جانب الضعف في الإنسان.

قلت: ولكن الإرادة قد تقهر الحب.. وتعيد للنفس توازنها.

قال: ولكن الإرادة مع ذلك قد تقهرها الأهواء.. فتضلل النفس..

إن العقل بمثابة مصباح منير تملكه النفس، وتنصرف فيه لرؤية الحقائق وكشفها؛ متى ما تريد وكيف ما تريد؟ فإذا لم يرد الإنسان رؤية جمال العدل، وحسن الآداب، واستحالة التناقض يمكنه ألا يعرف ذلك فعلا، بأن لا يستعمل المصباح الذي أوتيه أو يدسه تحت التراب.

وهذه حقيقة قد تخفى علينا، إلاّ أنه من المؤكد عمليا أننا لسنا في كل لحظة نعلم جميع أحكام العقل، وأننا في أي لحظة نريد

التعرف عليها فهي لا تعصى علينا، وهذه حجة كافية على أن العقل يدخل ضمن حرية الفرد واختياره فيستخدمه حينا لمعرفة الحقـائق ويدعه عاطلا حينا آخر..

ألست ترى أنك قادر في كل لحظـة وفي كـل مكـان أن تفكـر فيما حولك من الأشياء والأشخاص بصورة منهجيـة، وتسـتعمل في تفكيرك مقاييسك العقلية الثابتـة؟ كمـا أن بإمكانـك أن تتوجـه إلى أمور أخرى ولا تفكر منهجيا وعقلانيا في أي شـيء.. نعم، إن هنـاك لحظات لا يمكننا إلا أن نعرف أحكام العقل، كتلـك اللحظـات الـتي نقـع فيهـا تحت تـأثير موجِّه روحي قـوي، أو نشـاهد تجربـة عمليـة حادة، إلا أننا سرعان ما نعود إلى حالتنا السابقة حيث يخضع العقل لتصرفنا وإرادتنا من جديد.

قلت: وعيت هذا الضابط وأدركت أهميته.. فهل هناك غيره؟

قال: هنـاك الكثـير.. إن هـذا يسـتدعي دراسـة مفصـلة للنفس للتعرف على نواحي ضعفها وقوتها..

قلت: فهل أشار قرآنكم إلى هذا؟

قال: أجل.. أشار إلى مجامعه، ونحن ندرسها هنا..

قلت: هلا ضربت لي مثالا على ذلك.

قال: من ذلك مثلا قوله تعالى :﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيـلٌ وَاللَّهُ الْمُسْـتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)﴾ (يوسف).. وقـال تعـالى :﴿ قَـالَ فَمَـا خَطْبُـكَ يَـا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْـتُ قَبْضَـةً مِنْ أَثَـرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَـوَّلَتْ لِي نَفْسِـي (96)﴾ (طـه).. وقـال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّـيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ﴾ (محمد)

فهذه النصوص وغيرهـا تشـير إلى أن للنفس البشـرية مقـدرة تمويهية كبـيرة، فهي تقـوم ــ مثلا ــ بتهدئـة النفس وتسـكينها حين تهجم عليها المصائب.. وهي تحاول التخفيف عن النفس بما يدعى في علم النفس (بأحلام اليقظة) فتسليها بآمـال مسـتحيلة وأمـاني غير ممكنة الوقوع.. وحين يحب الإنسان شيئا حبا جما تحاول هـذه الطاقـة تـبرير كـل الوسـائل المؤديـة إليـه، حـتى تخـترع النفس معلومات ليست واقعية، أو تفسير المعلومات التي لا تلائم بلوغ ما أحب بما يلائمها، وهكذا..

الخبرات البشرية:

سرنا إلى قسم آخـر في (أكاديميـة العقـل المسـلم).. فـرأيت

شيوخا كثيرين يلتف بهم شباب وصبية، فسألت المدرسي عنهم، فقال: هذا قسم (الخبرات البشرية)

قلت: فما علاقة هذا القسم بالعقل؟

قال: إن هذا القسم يجعل من العقل الواحد عقولا كثيرة.

قلت: كيف؟

قال: لا يمكن للعقل الواحد أن يصل إلا إلى بعض الحقائق.. ولذلك فإن الله جعل له من العقول المعينة ما ينوب عنه في البحث عن غيرها..

قلت: ولكن الأوهام قد تتسرب من هذا الطريق.. بل لا تكاد تتسرب الأوهام من غير هذا الطريق.

قال: لقد جعل الله في العقول القدرة على التمييز بين الحقائق والأوهام.. ولذلك فإن العاقل هو الذي يستقبل كل الخبرات، ثم يصفيها في غربال عقله ليميز الصادق منها من الكاذب، والحق منها من الباطل.

قلت: ألا يمكن أن نستغني عن هذا النوع من المدارك؟

قال: لو استغنينا عنه لم نصل إلى أي حضارة؟

قلت: وما علاقة الحضارة بهذا؟

قال: الحضارة تتأسس على الخبرات المختلفة.. فكل عالم يبدأ بما انتهى إليه غيره.. بالإضافة إلى أن العلوم يخدم بعضها بعضا.. ولا يمكن لشخص واحد أن يتخصص في العلوم جميعا.

قلت: إن هذا يستدعي البحث عن الخبراء.

قال: صدقت.. ولهذا أمرنا الله بالبحث عنهم وسؤالهم.. فقال تعالى :﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)﴾ (الفرقان).. وقال :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43)﴾ (النحل)

قلت: فكيف يميز الدجال عن الخبير؟

قال: في هذا القسم نبحث عن هذا.. فنميز بين الدجال والخبير.. بل نميز بين أقوال الخبير نفسها.. فقد يدخل فيها الدجل من حيث يشعر، ومن حيث لا يشعر.

قلت: إن هذا يستدعي الشك في الخبراء.

قال: الأصل في هذا وغيره الشك.. فلا يمكن أن نتيقن إلا بما تثبت الأدلة صدقه.

الفيوضات الربانية:

بعـد أن اسـتفدت الكثـير من الخـبرات والمعـارف في قسـم (الخبرات البشرية) سرت مـع صـاحبي المدرسـي إلى قسـم آخـر في (أكاديميـة العقـل المسـلم).. كـان اسـمه (قسـم الفيوضـات الربانية)، وقد رأيت فيه جموعا كثيرة ترفـع أبصـارها نحـو شـيء لا أراه.. سألت المدرسي عنه، فقال: هذا القسم هو أشرف الأقسام وأعلاها وأقدسها.

قلت: ما العقل الذي يحكمه؟

قال: هو فوق العقول.. ولذلك لا تجد العقول إلا التسليم له.

قلت: أهناك شيء فوق العقول؟

قال: أجل.. هنـاك من الحقـائق مـا تعجـز العقـول عن إدراكـه، فلذلك تداركها الله بلطفه، وأفـاض عليهـا عـبر وسـائط هدايتـه مـا يدلها على ذلك.

قلت: مثل ماذا؟

قال: خالق الكون مثلا..

قلت: لكن العقل يدل عليه؟

قال: العقل يدل عليه.. لكنه لا يسـتطيع أن يعـرف بـه.. وفـرق كبير بين أن تؤمن بوجود الشيء، وبين أن تعرفه.

قلت: لم أفهم.

قال: إذا طرق بابك طارق.. قد يعرف عقلك بـأن هـذا الطـارق إنسان عاقل مريد حي..

قلت: ذلك صحيح..

قال: ولكنه يقف عند هذا الحد.. فلا يستطيع أن يعرف من هـذا الطارق.. وهل هو صديق أو عدو.. وهل يريد بطرقه أن يكرمــك أو يهينك..

قلت: ذلك صحيح أيضا.

قال: فكيف تتعرف عليه؟

قلت: لذلك وسيلتان.. أما إحداهما، فأن أفتح له الباب، فـأراه.. وأما الثانية فأن أنصب أجهزة تخبر عنه.

قال: أجهزة وسيطة تعرفك به.

قلت: أجل.. مثل الكاميرات وغيرها.

قال: فقد فعل الله هذا بنا.. لقد أرسل لنـا عـبر أنبيائـه ورسـله من يعرفنا به وبحقـائق الوجـود الكـبرى الـتي تضـعف عقولنـا عن الوصول إليها.

قلت: لكن ما أسهل الدعاوى في هذا الباب.

قال: وما أسهل أن تميز العقول هذه الدعاوى.
قلت: كيف تميز بينها؟
قال: لقد جعل الله لوسائط هدايته ما يدل عليهم.. فلذلك يسلك العقل معهم مسلك التمحيص والشك إلى أن يتيقن صدقهم.. فإذا تيقن صدقهم استطاع أن يستفيد من المعارف التي لا يمكن أن يصل إليها من غير طريقهم.
قلت: ولكن لم لم تتح هذه المعارف لجميع الناس؟
قال: إذا كان جميع الناس قد عجزت مداركهم عن أبسط الأشياء، فكيف تصل مداركهم المحدودة إلى هذه الأمور الخطيرة؟
قلت: فما يدرس في هذا القسم؟
قال: تدرس الضوابط التي يمكن للعقول أن تستفيد بها من هذه الفيوضات.
قلت: أرى جموعا كثيرة تلتفت حول هذه الفيوضات..
قال: وحق لها.. أرأيت لو أن قادما قدم الأرض من كوكب آخر.. ألا ترى أن الناس سيلتفون حوله يسألونه؟
قلت: بلى.. ذلك صحيح.
قال: فإذا كان هذا القادم يعلم سر الأزل والأبد.. ويعلم ما سيحل بالأرض والكون والإنسان.
قلت: إن الاهتمام بهذا سيشتد.
قال: فلنفرض أن هذا القادم رجل رحل من الأرض وسار في الكون، ثم جاء بأخباره.
قلت: الأمر لا يختلف.. ونحن نرى البشر يصرفون أموالا كثيرة لأجل بعض هذا.
قال: فهؤلاء الذين تراهم يلتفون حول مصدر النور والهداية يفعلون هذا.. لقد علموا أن الله اختار رجلا هو أفضلهم وأكملهم لينوب عنهم في هذه الرحلة العظيمة التي تعرف البشر بحقائق الوجود.

الإشراقات الروحية:

سرنا إلى قسم آخر في (أكاديمية العقل المسلم).. لست أدري كيف خطر على بالي عندما وطئت أول عتبة هذا القسم (أفلوطين).. سألت صاحبي المدرسي عنه، فقال: هو كغيره فقه أمورا، وغفل عن أمور، أو اختلطت عليه أمور(1).

1() هذا بحسب ما وصل إلينا لا بحسب حقيقة الحال، لأن ما وصل إلينا من تراث المدارس القديمة لا يمكن الجزم بصحته.. فقد يكون التحريف أو الدس قد دخله.

قلت: فما فقه؟

قال: لقد عرف أن من مدارك العقـول مـدارك خفيـة لا يفطن لها كثير من الناس بسبب كثافتهم.

قلت: فما أخطأ؟

قال: لم يكن للمسكين ما يعصم بـه تلـك المـدارك من الخطـأ الذي يعتري هذا النوع من العقل.

قلت: فهل في الإسلام ما يعصم هذا العقل؟

قال: أجل.. ففي الإسلام تتكامل العقول ولا تتناقض.

قلت: فأين أجد فقه هذا؟

قال: في هذا القسم.. في هذا القسم يلقن الأسـاتذة من يريـد هذا النوع من العقل كيفية تحصـيله.. ويعلمـوهم في نفس الـوقت كيفية تحصينه من الخطأ الذي قد يقع فيه.

دخلنا إلى القسم، فرأينا حلقة تربـع على عرشـها رجـل ممتلئ بالأنوار، سألت صاحبي عنه، فقال: هذا رجـل من أهـل اللـه، راض نفسه في ذات الله، وقد وهبه الله لذلك من العلوم التي تحار فيها العقول ما لا يمكن إدراكه إلا بالعقل الذي أدرك به.

قلت: وما العقل الذي أدرك به؟

قال: هو لب لباب العقول.. ولا يصل إليه إلا من حصـل التقـوى التي نص عليها قولـه تعـالى :﴿ وَاتَّقُـوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: من الآية282)

قلت: فما علاقة التقوى بهذا النوع من العقول؟

قال: تعال بنا لنسـتمع لهـذا الرجـل المنـور بنـور الإيمـان، فلن تفهم حقيقـة هـذا العقـل، ولا علاقتـه بـالتقوى إلا بالاسـتماع إليـه، والاستفادة منه.

قلت: من هو أولا؟

قـال: هـو رجـال كثـيرون، امتلأت بهم هـذه الأمـة المباركـة.. والكثير هنا يسميه (المتوسم)، وبعضهم يسميه (الخضر)

قلت: لم؟

قـال: أمـا المتوسـم، فلقولـه تعـالى :﴿ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (الحجر:75)، وقد ورد في تفسير هذا قوله ﷺ : (إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم)(1)

وأما الخضر، فهو رجل آتـاه اللـه من العلم اللـدني مـا رأى بـه

1()رواه الطبري والقضاعي في مسند الشهاب والطبراني في المعجم الأوسط، وقال الهيثمي في المجمع (10/268): إسناده حسن.

الحقائق، وقد ذكر الله هذا العلم الذي آتاه، فقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ (الكهف:65)

اقتربنا من الرجل، فسمعناه يقول(1): اعلموا أن القلب مثل المرآة، واللوح المحفوظ مثل المرآة أيضا؛ لأن فيه صورة كل موجود، وإذا قابلت المرآة بمرآة أخرى حلت صور ما في إحداهما في الأخرى، وكذلك تظهر صور ما في اللوح المحفوظ إلى القلب إذا كان فارغا من شهوات الدنيا، فإن كان مشغولا بها كان عالم الملكوت محجوبا عنه، وإن كان في حال النوم فارغا من علائق الحواس طالع جواهر عالم الملكوت؛ فظهر فيه بعض الصور التي في اللوح المحفوظ.

وإذا أغلق باب الحواس كان بعده الخيال؛ لذلك يكون الذي يبصره تحت ستر القشر، وليس كالحق الصريح مكشوفا فإذا مات - أي القلب - بموت صاحبه لم يبق خيال ولا حواس.. وفي ذلك الوقت يبصر بغير وهم وغير خيال، ويقال له: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (قّ:22)

قال له بعض التلاميذ: فمتى يحجب القلب عن مطالعة عالم الملكوت؟

التفت إليه، وقال: اعلم أنه ما من أحد إلا ويدخل في قلبه الخاطر المستقيم، وبيان الحق على سبيل الإلهام.. وذلك لا يدخل من طريق الحواس، بل يدخل في القلب، لا يعرف من أين جاء؛ لأن القلب من عالم الملكوت، والحواس مخلوقة لهذا العالم (عالم الملك)، فلذلك يكون حجابه عن مطالعة ذلك العالم إذا لم يكن فارغا من شغل الحواس.

قال تلميذ آخر: فمتى يطالع القلب عالم الملكوت؟

التفت إليه مبتسما، وقال: لا تظنن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة.

فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائما : (الله - الله – الله) بقلبه إلى أن يصير لا خير معه من

1() ما نذكره من حقيقة العلم اللدني والاستدلال له مستفاد من مراجع مختلفة للغزالي منها (الإحياء)، و(كيمياء السعادة)، و(معارج القدس في معرفة النفس)

نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئا إلا الله سبحانه وتعالى انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم؛ فتظهر له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجملية، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي ﷺ : (زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغربها)، وقال الله عز وجل :﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام:75)، لأن علوم الأنبياء ـ عليهم السَلام ـ كلها كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس، كما قال سبحانه وتعالى :﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل:8)، ومعناه: الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتهال إليه سبحانه وتعالى بالكلية.

قال له تلميذ آخر: أليس هذا خاصا بالأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ـ

قال: هي في الأصل مختصة بالأنبياء.. ولكن لورثة الأنبياء حظ منها.. ولذلك لا يفتح لهم في هذا الباب إلا ما يؤيد النبوة ويؤكدها..

قال له التلميذ: فكيف نعرف هذه الطريق، ونتأكد من وجودها؟

قال: هذه الطريق لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم.. والواجب التصديق بها حتى لا تحرم منها.. ومن لم يبصر لم يصدق، كما قال سبحانه وتعالى :﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس:39)، وقال :﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)(الاحقاف: من الآية11)

قال تلميذ آخر: ألا يمكن أن تبسط لنا هذا حتى نفهمه أولا.

التفت إليه، وقال: اعلم أن العلوم التي ليست ضرورية - وإنما تحصل في القلب في بعض الأحول - تختلف الحال في حصولها، فتارة تهجم على القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدري، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم.

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى إلهاماً، والذي يحصل بالاستدلال يسمى اعتباراً واستبصاراً.

ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل، وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب.

أما الأول، فيسمى إلهاماً ونفثاً في الروع.. وأما الثاني، فيسمى

وحياً، ولا يختص به إلا الأنبياء.. بينما يختص بالأول الأولياء والأصفياء.. والذي قبله - وهو المكتسب بطريق الاستدلال - يختص به العلماء.

قال التلميذ: ألا يمكن أن تفرق لنا بين منهج الأولياء ومنهج العلماء بمثال محسوس؟

التفت إليه، وقال: سأضرب لك مثالين قد يقربان لك هذا:

أما أولهما، فهو: أنه لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض، فإنه يحتمل أن يساق الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي، فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم، وقد يكون أغزر وأكثر.. فذلك القلب مثل الحوض، والعلم مثل الماء، وتكون الحواس الخمس مثال الأنهار.. وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علماً، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله.

قال التلميذ: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه؟

قال: كما أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض، ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة، فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالم من أوله إلى آخره في اللوح المحفوظ، ثم أخرج إلى الوجود على وفق تلك النسخة، والعالم الذي خرج إلى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى إلى الحس والخيال، فإن من ينظر إلى السماء والأرض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والأرض في خياله حتى كأنه ينظر إليها، ولو انعدمت السماء والأرض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والأرض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر إليهما، ثم يتأدى من خياله أثر إلى القلب فيحصل فيه حقائق الأشياء التي دخلت في الحس والخيال. والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال، والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجاً من خيال الإنسان وقلبه، والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ.

فكأن للعالم أربع درجات في الوجود: وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني، ويتبعه وجوده الحقيقي، ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي - أي وجود صورته

في الخيال - ويبتع وجوده الخيال وجوده العقلي - أي وجود صورته في القلب - وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية، والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض.

وهذا اللطف من الحكمة الإلهية، إذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث تنطبع صورة العالم والسموات والأرض على اتساع أكنافها فيها، ثم يسري من وجودها في الحس وجود إلى الخيال، ثم منه وجود في القلب فإنك أبداً لا تدرك إلا ما هو واصل إليك، فلو لم يجعل للعالم كله مثالاً في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك، فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والأبصار ثم أعمى عن دركها القلوب والأبصار، حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها.

قال التلميذ: وعينا هذا.. فاذكر لنا المثال الثاني.

قال: المثال الثاني يتجلى من خلال هذه الحكاية.. فقد روي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور، فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانباً وأهل الروم جانبياً ويرخى بينهم حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر ففعل ذلك، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر، ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم فرغوا أيضاً فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ؟ فقيل: وكيف فرغتم من غير صبغ! فقالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب، فرفعوا وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق، إذ قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التقصيل.

فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق كفعل أهل الصين، وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم.

قال تلميذ آخر: كل ما ذكرته نجد من نفوسنا قبوله.. ولكن الاعتراض الذي قد يوجه لكل ذلك هو أن الأمر لو كان كما ذكر الأولياء لاستوى الناس في التعرف على الحقائق.. ذلك أن لكل إنسان المرآة التي يبصر بها الحقائق.

التفت إليه، وقال: إن هذا يستدعي البحث عن الحجب التي

تحول بين مرائي الناس والحقائق.. وإدراك ذلك بسيط لا يستدعي إلا التأمل في سر عدم انكشاف الأشياء للمرآة الحسية مع وجودها، ووجود الأشياء حولها.. فأخبرني عما تراه من أسباب ذلك.

قال التلميذ: لقد بحثت في هذا.. ووجدت أن المرآة لا تنكشف فيها الصورة لخمسة أمور.. أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل.. والثاني لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل.. والثالث لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة.. والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة.. والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها.

قال: فهكذا مرآة القلب.. فهي تحجب عن الحقائق بالأسباب الخمسة التي ذكرتها..

أما أولها، فهو نقصانها في ذاتها كقلب الصبي فإنه لا ينجلى له المعلومات لنقصانه.

وأما الثاني، فلكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات، فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه.

وأما الثالث، فأن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب. بل يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكراً فيها، أو مصالح المعيشة إن كان متفكرا فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً عن انكشاف جليه الحق فما ظنك فيمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي؟.

وأما الرابع، فالحجاب.. فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوباً عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن، فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد.. وهذا حجاب

عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقيقة.

وأما الخامس، فالجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب، فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتنجلى حقيقة المطلوب لقلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة، بل كل علم لا يحصل إلا من علمين سابقين يأتلفا ويزدوجان على وجه الخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث.

التفت إلى التلميذ، وقال: هذه هي الأسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الأمور.. وإلا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف.

***

في نهاية هذه القاعة وجدنا شرطة تحمل بعض الناس إلى سجونها، فسألت المدرسي عنه، فقال: هؤلاء قوم استغلوا قدرات العقل.. فراحوا يستعملونها في غير ما خلقت له..

قلت: ولكن لم يسجنون؟

قال: هم أولى بالسجن من اللصوص.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت لو أن رجلا جاء لصبي صغير صاحب فطرة سليمة وراح يعلمه فنون التلصص.. على من تقع تبعة سرقة الصبي؟

قلت: لاشك أنها تقع على معلمه.

قال: فهكذا الأمر مع من يحتال للعقول ويحتال عليها.

***

سألنا صاحبنا عن سر فراقه لصاحبه المدرسي، ولأكاديمية العقل المسلم، فقال: في ذلك اليوم الذي أزحت فيه كل الكدورات التي تحول بيني وبين الإسلام.. جئت إلى أكاديمية العقل المسلم فوجدتها مغلقة، فسألت عنها، وعن أساتذتها، فأخبرني بعض الثقات أنهم ساروا إلى هذه البلاد ليدرؤوا الفتنة التي تريد أن تستأصل الإسلام والمسلمين.

وقد حضرت إلى هذه البلاد بمجرد أن سـمعت ذلـك.. وهـا أنتم ترون المصير الذي صرنا إليه.

رابعا ـ النفس

في اليوم الرابع، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنا عن حديثي.. لا لتتألموا ببعض ما أصابني من آلام.. ولكن لتعلموا من نحن.. وما هي النفوس التي كنا نهتدي بهديها، ونتحرك تحت أوامرها، ونصارع كل شيء من أجل تلبية شهواتها.

لقد كان اسمي في تلك الأيام (سارتر)(1) لا شك أنكم تعرفونه.. إنه اسم ذلك الرجل الذي ارتبط بما يسمونها (الوجودية)(2).. نعم.. هي تلك التي تختصر الوجود في الإنسان.. وأحيانا كثيرة في شهوات الإنسان.

كنت كما كان سائر أساتذتي: (سُورِين كيركيجارد) ذلك الفيلسوف الدنماركي اللاهوتي البروتستانتي الذي يُعدّه أصحابنا مؤسس حركتنا، و(فريدريك نيتشه)، الذي لا شك أنكم تعرفونه، ذلك الذي صاح بموت الإله.

وكنت كما كان سائر أصدقائي من المفكرين الوجوديين كألبير كامو، وجابرييل مارسيل، وكارل ياسبر، ومارتين هايدجر، ونيقولاس بيرديف، ومارتن بوبر.

كنت كهؤلاء جميعا أصيح في داخلي بموت الإله، وكل القيم، وكل المبادئ، وكل الأخلاق.. وكل ما يمنع النفس الممتلئة بالشهوات، ويقف في طريقها.

لقد كنت كمن امتلأت بطنه، فراحت تزاحم دماغه وقلبه.. وتريد أن تحرمهما من الوجود..

هكذا كنت.. وهذه هي صورتي الكاريكاتورية.. أو هي صورتي

1() أشير به إلى (جان بول سار تر) ولد عام (1905م) ومارس التدريس في (الهافر) ثم في المعهد الفرنسي بـ (برلين)، واعتقل عام (1940) ولبث سنة كاملة في السجن، ثم تخلى عن مهنة التدريس وقد تأثر في فلسفته بمؤلفات (هوسرل) و(هيجدر)... وقد كان شيوعياً في ابتداء أمره، ثم عدل عن ذلك إلى (الوجودية) التي تزعمها، وصار على طرفي نقيض مع الشيوعية، ولذا كل من الفريقين يحارب الآخر ويهاجمه أشد مهاجمة، لكنه كان يعتقد بأن المستقبل للاشتراكية، لأن ظروفها باقية، ولسارتر مكان خاص في (باريس) يرتاده مريدوه، ولهم أشكال غريبة وهيئات خاصة من حيث الملبس وغيره، ولسارتر آراء خاصة حول (الكون) و(الإنسان) و(النظام) و(الأخلاق) وغيرها، وكثيراً ما يميل إلى صب آرائه في القوالب القصصية، مما يجعل فهم آرائه أصعب، والوجودية ليست مبدءاً اخترعه هو بل كانت من ذي قبل وإنما نفخ فيها وجعل لها قوالب جديدة. (انظر: الموسوعة العربية العالمية.. وغيرها)

2()الوجودية: حركة فلسفية ظهرت في أوروبا أثناء القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. وسميت الوجودية لأن معظم أعضائها اهتموا مبدئيًا بطبيعة الوجود أو الكينونة، فقصدوا بمصطلح الوجود الوجود البشري.

وقد نشأت الوجودية من جهود اثنين من مفكري القرن التاسع عشر هما سُورِين كيركيجارد، الفيلسوف الدنماركي اللاهوتي البروتستانتي الذي يُعدّ مؤسس الحركة، وفريدريك نيتشه، الفيلسوف الألماني. (انظر: الموسوعة العربية العالمية.. وغيرها)

الحقيقية.. فأنا لم أكن إلا بطنا مليئا بأصناف اللعب والشهوات..

نعم.. أنا ذلك الرجل.. وتلك هي حقيقتي.. ولكني لن أحدثكم عن نفسي.. فلا شك أنكم تعرفون الكثير عني.. أنا أريد أن أحدثكم عن سر رحلتي إلى هذه البلاد.

لعلكم لا تصدقون أنني ـ أنا سارتر ــ جئت إلى هذه البلاد بحثا عن المحاسبي(1).. لقد وجدت في المحاسبي الماء الذي كنت أبحث عنه.. أو كانت نفسي وجميع لطائفي تبحث عنه..

قلنا: فمن أين تبدأ قصتك؟

قال: بعد أن تشربت كل تلك المبادئ، وامتلأ عقلي بذلك التمرد الذي أوحته إليه نفسي، قررت أن أصير أستاذا لألقن الأجيال ما كنت قد لقنته، واقتنعت به، وسرت حياتي جميعا على هديه.

لقد كنت أصيح في تلاميذي بكل صوتي: ليس الوجود إلا أنتم.. ولولا أنتم لما كان هناك أي وجود.

وكنت أقول لهم: الإنسان أقدم شيء في الوجود.. وما قبله كان عدماً.. وما بعده سيكون عدما..

وكنت أقول لهم: لقد عجزت كل الأديان والنظريات الفلسفية أن تحل مشكلة الإنسان.. لأنها كانت تبحث عن اللاإنسان.

وكنت أقول لهم: أعيدوا الكلي لذواتكم بكل حرية.. فلا يحق لأحد مهما كان ـ حتى لو كان الله نفسه لو فرضنا وجوده(2) ــ أن يتحكم فيكم.

وكنت أقول لهم: أثبتوا وجودكم كما تشاءون، وبأي وجه تريدون، دون أن تراعوا أي قيد، مهما كان ذلك القيد.. فالقيد ليس إلا قيدا.

وكنت أقول لهم: اطرحوا عنكم جلابيب الماضي.. وتنكروا لكل القيود.. دينية كانت أم اجتماعية أم فلسفية أم منطقية.. فلا ينبغي أن تؤمنوا بوجود قيم ثابتة توجه سلوك الناس وتضبطه.. إنما كل إنسان يفعل ما يريد، وليس لأحد أن يفرض قيماً أو أخلاقاً معينة

1() أشير به إلى المحاسبي، وهي الشخصية التي جعلناها مقابلة لسارتر في هذا الفصل، وسنترجم لها عند الحديث عنها.

2() تنقسم الوجودية من حيث موقفها من الدين إلى قسمين: (وجودية) ملحدة، و(وجودية مسيحية).. واللاهوتيون من الوجوديين لا يحاولون أن يؤسسوا الدين على الأدلة العقلية. فالمعتقد الديني في رأيهم ليس مشكلة تتطلب إثباتًا أو رفضًا، ولكن تتطلب قرارًا، مثل جميع القرارات البشرية الأخرى، يجب أن تتخذ بحرية كاملة بوساطة كل فرد في غياب الدليل المقنع. وينبع اهتمام الوجودي بالدين من اهتمام مبدئي بالتجربة البشرية الدينية. (انظر: الموسوعة العربية العالمية.. وغيرها)

على الآخرين.
وكنت أقول لكل من يجادل من تلاميذي فيما أطرحه من أفكار: انطلق أيها الأحمق الغبي في عمل ما تريد أو تشتهي وتهوى، مهما كان ذلك في اعتبار الناس شراً، دون أن يكون لأحد عليك سلطان، فأنت الذي تصنع فكرة الخير حسب مزاجك، وأنت الذي تصنع فكرة الشر، وأنت الذي تخلق فكرة الحق وفكرة الباطل، وأنت الذي تخلق فكرة الحسن وفكرة القبيح.
كنت أقول لهم هذا وغير هذا.. إلى أن امتلأوا بهذه الخرافات التي ملأت العالم صراعا.
قلنا: فما كانت نتيجة هذه الدروس التي لقنتها لتلاميذك؟
قال: سأذكر لكم بعض المآسي التي رأيتها في تلاميذي.. وقد كانت هي السبب الذي جرني إلى الانتحار.. ولولا أن قيض الله المحاسبي لإنقاذي لكنت الآن في عداد الموتى.

الصراع

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق.. لم نشأ أن نفسده عليه..
قال بعده: لقد كنت أسير مرة في بعض بلادنا.. وهناك رأيت تلميذا من تلاميذي يخاصم امرأة يظهر عليها الفقر والحاجة مخاصمة شديدة، ثم يستولي على ما بقي لها من مال، بل يطلب منها بعد ذلك أن تمضي له على بعض الأوراق..
وقد أثر في ذلك المنظر، فأسرعت إلى ذلك التلميذ الذي ما إن رآني حتى أسرع إلي يصافحني بكل حرارة، وكأنه لم يحصل منه أمام عيني ما حصل من القسوة والشدة.
سألته: ما خبر هذه المرأة، وما علاقتك بها.. أراك تخاصمها بشدة؟
قال: لا.. بل هي التي تخاصمني بشدة.. لقد كنت أقرضتها قبل فترة بعض المال.. بفائدة كما تعلم.. وأنا الآن آتي كل حين لآخذ منها من الفوائد ما استحققته عليها.. وهي دون الناس تماطلني كل حين.. وتتعامل معي كما رأيت.
قلت: ألا ترى حالها.. إن حالها على ما يبدو شديد؟
قال: لا يهمني حالها.. يمكنها أن تعمل أشياء كثيرة لتسدد ما عليها من حقوق.
قلت: ولكني أعلم أنك سليل أسرة غنية!؟
قال: أجل.. ولولا ذلك ما كان لي هذا المال الذي أقرضته إياها

كما أقرضت غيرها.
قلت: ألا يمكن أن تسامحها فيما وجب عليها من حقك؟
قال: مقابل ماذا؟
قلت: ما تقصد؟
قال: لقد تعلمنا في مدرستك أن لا نعطي من غـير أن نأخـذ.. فما الذي تريدني أن آخذ منها؟
لم أجد مـا أجيبـه بـه.. فقـال: أنت تعلم ــ يـا أسـتاذ ــ أني من تلاميذك النجباء.. وأنا ممنون لك بثروة كبـيرة من المـال كنت أنت سببها.. بل لولاك لضاعت مني الثروة التي ورثتها.
قلت: كيف؟
قال: لقد كنت صاحب قلب رقيق.. وقد تعلمت منك أن الرقـة لا تتناسب مع الاقتصاد.. فلذلك تخلصت منها كما يتخلص المرء من الداء القاتل.. وكان تخلصي منها بركة على مالي، فقد نما كما نمـا مال قومي..

***

في ذلك المساء قدر الله أن أشغل التلفـاز، لأتفـرج على قنـاة من قنواتنا المحترمة المختصة بالأخبار، وقد فـوجئت إذ رأيت نفس ذلك التلميذ يصرف أموالا ضخمة على مشاريع سـمتها تلـك القنـاة (مشاريع خيرية).. لقد امتلأت من العجب من ذلك الخـبر.. ولكـني عجبي زال عندما رأيته يظهر على التلفاز، وهو ممتلئ فخرا وكـبرا ورياء ليعرف بنفسه، وبشركاته وخدماته التي يقدمها للبشرية.

***

في يـوم آخـر رأيت إعلانـا بـأن بعض تلاميـذي يريـد أن يقـدم محاضرة في بعض النوادي العلمية، فسرني ذلك، وأسرعت أحجـز لي مكانـا في قاعـة المحاضـرات.. وقـد فـوجئت بـأن موضـوع المحاضرة كـان حـول مـا يطلـق عليـه قومنـا (الجنسـية المثليـة)، ويريدون به الميل الجنسي إلى الجنس المماثل.
وقد أطنب هذا التلميـذ في مـبررات هـذا النـوع من الانحـراف حتى اعتبره الأصل والفطرة التي لا تستقيم الحياة إلا بمراعاتها.
بعد انتهاء المحاضرة دعينا إلى احتفال في ذلك النادي العلمي، وقد ملأني ذلك الحفل بالتقزز والغثـاء.. فقـد رأيت فيـه من ألـوان البهيمية والشذوذ ما تنفر منه النفوس.
لست أدري كيف خطـر على بـالي أن أقـترب من جماعـة من ضيوف ذلك الحفل ممن كان يبدو عليهم الوقار.. ومما سمعته من

حديثهم:

قـال أحـدهم: من العجب أن أولئـك الهمجـيين من المسـلمين ينكرون علينا هذا السلوك ويعتبروننا منحرفين عن الفطرة.

قال آخر: عن أي فطرة يتحدثون؟.. هل اطلعـوا على البرنـامج الذي جبل عليه كل البشر حتى يمكنهم ادعـاء مثـل هـذه الـدعاوى العريضة؟

قال آخر: لعلهم لم يسمعوا ما ذكر سيدنا فرويـد من أن الفـرد يمــر بمرحلــتين: الأولى حب نفس الجنس، والثانيــة حب الجنس الآخر أو المغـاير.. وقـد ذكـر أن مكونـات حب الجنس الآخـر لـدى المثلي تكـون ضـعيفة مقارنـة بمكونـات حب نفس الجنس القويـة لديه مما يدفعه إلى الانسجام وممارسة الحب مع نفس الجنس.

قال آخر: ولعلهم لم يسمعوا بأن بعض علمائنـا الكبـار اكتشـف أن دماغ الرجـال المثلـيين تكـون المنطقـة الأماميـة فيـه أكـبر من مثيلتها في الرجال غير المثلـيين، وهـذا قـد يكـون ناتجـاً عن زيـادة هرمون الذكورة في دم الأم في فترة الحمل.

قال آخر: بما أن القرد الشمبانزي أقرب الحيوانات من الناحيـة البيولوجيـة للإنسـان ويشـترك معـه في 98% من الجينـات، فقـد أجرى العلماء تجاربهم على الشـمبانزي واكتشـفوا أن الشـمبانزي (بونوبـوس) ينشـغل في بعض الأحيـان بسـلوك جنسـي مثلي بين الذكور، ربمـا لتوطيـد الانتمـاءات الفريقيـة، أي ليكـوّن عـدة ذكـور فريقاً واحداً ضد الذكور الآخرين.

واكتشفوا ـ أيضا ـ بأن هناك نسـبة بسـيطة من الخـراف تكـون مثلية مائة بالمائة ولا تقترب من النعاج أبداً.

ولهذا، فإن الشذوذ الجنسي ليس منبعثاً عن ظروف اجتماعية، لأن الشمبانزي والخراف تتصرف حسـب الطبيعـة ولا تتحكم فيهـا الموانع الاجتماعية مثل الإنسـان. وإذا كـان هـذا صـحيحاً فلا بـد أن يكون الشذوذ الجنسي موروثاً عن طريق الجينات.

قالوا ذلك.. ثم انصرفوا ببهيمية للشـهوات الشـاذة الـتي ظلت الأجيال تلعنها..

***

في يوم آخر سرت إلى عيادة للأمراض النفسية.. وهنـاك رأيت امرأة في العشرينات من عمرها كانت في يـوم من الأيـام تلميـذة من تلميذاتي(1)..

1()انظر : مشاهداتي في بريطانيا: د. عبد الله الخاطر، ص 10.

اقتربت منها، فوجدت حالتها في غاية الانهيار.. انتظرت إلى أن تحسنت حالها، ثم رحت أسألها عن سر ما أصابها.. فأجابت ؛ والدموع تنهمر من عينيها، قالت : مشكلتي الوحيدة أنني أعيش بقلق واضطراب، ولا أدري متى سينفصل عني صديقي، ولا أستطيع مطالبته بالزواج مني، لأني أخشى من موقف يتخذه، ونُصحتُ بالعمل على إنجاب طفل منه، لعل هذا الطفل يرغبه في الزواج.. لكنه لم يفعل..

قالت ذلك، ثم أخذت تصيح بهستيرية: ها أنت تراني.. لا ينقصني الجمال.. ولا المال.. ومع هذا وذاك فأنا أبذل كل السبل ؛ من تقديم خدمات.. وإنفاق أموال.. ومع ذلك لم أنجح في إقناعه بالزواج..

التفتت إلي، وقالت: هذا سر مرضي، وسبب قهري.. إنني أشعر بأنني وحدي في هذا المجتمع، فليس لي زوج يساعدني على أعباء الحياة، ولي أهل ولكن وجودهم وعدمهم سواء، وليتني بقيت بدون طفل لأنني لا أريد أن يتعذب ويشقى في هذه الحياة كما تعذبت وشقيت..

***

في يوم آخر مررت على مركز من مراكز الأمن.. وهناك رأيت الكثير من تلاميذي يساقون بشدة من طرف بعض الشرطة(1)..

لم ألتفت إلى في البداية لذلك.. فقد كان هذا من الأمور العادية.. لكن بعض تلاميذي راح يصيح بقوة في الشرطة: أسرعوا.. وخذوا ذلك الرجل.. فإنه رئيس عصابتنا.. إنه قائدنا الروحي الذي استلهمنا منه جميع ما سلكناه من سلوك.

أسرعت الشرطة إلي، واقتادتني معهم..

حاولت بكل الطرق أن أتملص من أيديهم.. فلم أستطع..

استدعيت محامي الخاص.. فجاء.. ومعه دفاتير القوانين التي تتيح له أن يخلصني من القيود التي يريد تلاميذي أن يغلوني بها.

جلس المحامي مع المحقق، ورحت أسمع من حديثهما ما ندى له جبيني:

قال المحامي: بأي قانون سقتم موكلي مع المجرمين.

قال المحقق: نحن نبحث منذ فترة عن عصابة خطيرة ليس لها من دور إلا انتهاك الأعراض.. فهي تتحرش بالنساء..

1() استفدنا من الدراسات والإحصائيات الواردة في هذه الفقرة من مقال طويل بعنوان (ظلم المرأة في ظل الحضارة الغربية)، موقع إسلاميات.

وتغتصبهن.. وتبيعهن.

لقد كشف مسح استطلاعي أعدتـه وزارة الداخليـة البريطانيـة أن 80 بالمائة من ضابطات الشرطة، أي بنسبة أربعة إلى خمسة، يتعرضن للمضايقات خلال نوبات العمل الرسمية.

لقد شارك في الاستطلاع 1800 ضـابطة في عشـر مـديريات أمن في إنكلترا وويلـز، وأشـرفت عليـه الـدكتورة (جـنيفر بـروان) وهي باحثــة اجتماعيــة في الوحــدة الملحقــة في مديريــة أمن (نيوهامبشاير)

ألا ترى ـ حضرة المحامي ـ أنها نسـبة مفزعـة؟.. تصـور أربعـة أخمــاس الشــرطيات ــ عفــوا ضــابطات الشــرطة ــ يتعرضــن للمضايقات.. ومتى ؟ خلال نوبـات العمـل الرسـمية.. خلال العمـل على حفظ الأمن(1)!

قال المحامي: ولكن..

قاطعه المحقق بقوة قائلا: هذا في حق حاميات الأمن.. أما في حـق السـاهرات على مصـلحة المرضـى فهنـاك أفعـال ينـدى لهـا الجبين.

لقد أشارت دراسة صدرت عن جمعيـة علم النفس البريطانيـة إلى أن 60 بالمائة من الممرضات اللاتي تم اسـتطلاع آرائهن قـد عانين من التحرش من مرضاهن الرجال.

وقد دعت الباحثة النفسية البريطانية سارة فينـيز خلال مـؤتمر لجمعية علم النفس البريطانية عقد في لنـدن إلى ضـرورة صـياغة توجيهات ولوائح داخلية تلـزم الممرضـة بـالإبلاغ عن جميـع حـالات التحرش الجنسي التي تعاني منها خلال العمل، على أمل أن يؤدي ذلك إلى الحد من تلك الظاهرة المسيئة لمهنة التمريض ومــؤامرة الصمت التي تحيط بها.

وقد أشـارت الدراسـة إلى أن الرجـال (المرضـى) لا يتورعـون عن الإتيــان بأفعــال ينــدى لهــا الجــبين خلال قيــام الممرضــات بمساعدتهم (2)..

التفت إلي، وقــال: انظــر.. لا اقــتراب المــوت، ولا أجــواء المستشفى ؛ ولا كل تلـك القـوانين الصـارمة اسـتطاعت أن تمنـع هؤلاء المرضى من القيام بتلـك الأفعـال الـتي وصـفتها الدراسـة بـ (يندى لها الجبين)

1() جريدة الشرق الأوسط عدد: (5170)

2() الوطن الكويتية العدد (5711)

نظـر إلى المحـامي، وقـال: ليس التحـرش وحـده هـو الـذي تتعرض له نساؤنا المسكينات من أصحاب النفوس الشرهة.

هناك ما هو أخطر من ذلك.. هناك الاغتصاب..

لقد أعلن مركز الضـحايا الوطـني الـذي يناصـر حقـوق ضـحايا جرائم العنف أن معدل الاغتصاب في الولايات المتحدة أصـبح يبلـغ 1.3 امـرأة بالغـة في الدقيقـة الواحـدة ؛ أي 68000 امـرأة في العام.

وأضاف المركز أن واحدة من كل ثمـاني بالغـات في الولايـات المتحدة تعرضت للاغتصاب ليكون إجمالي من اغتصبن اثني عشـر مليونا ومائة ألف امرأة على الأقل.

ويشير المسح إلى أن 61 بالمائـة من حـالات الاغتصـاب تمت لفتيـات تقـل أعمـارهن عن 18 عامـاً، وأن 29 بالمائـة من كـل حالات الاغتصاب تمت ضد أطفال تقل أعمارهم عن 11 عاما.

وأظهرت الأرقام زيادة معدل الاغتصاب عن العام الـذي سـبقه بنسبة 59 بالمائة(1).

وتقـول دراسـة أمريكيـة: إن جـرائم الاغتصـاب شـأن هجمـات واعتداءات الغرباء، تنخفض خلال الشـتاء ؛ لأن النـاس لا يخرجـون كثيراً.. وبالتالي فإن فرص الالتقاء تكون أقل.

قال المحامي: لكن..

قاطعه المحقق، وقال: ليس ذلك فقـط.. هنـاك مـا هـو أخطـر من ذلك.. هناك استغلال المرأة في التجارة الجسدية..

لقد استغلت المرأة جسدياً حتى ظهر ما يسمى بتجارة الرقيق الأبيض.. وقد بلغت أرباحها بالملايين.

قبـل أيـام ألقت الشـرطة التشـيكية القبض على أربعـة رجـال وامرأة كانوا يشـكلون عصـابة لاسـتدراج الفتيـات التشـيكيات إلى الغرب عن طريق وعدهن بالعمل في الغناء والـرقص في النـوادي الليلية مقابل رواتب مغرية فيما كان الهدف من ذلك إجبارهن على ممارسة الدعارة أو المشاركة في تمثيل أفلام جنسية.

وذكـرت بلانكـا كوسـينوفا المتحدثـة الصـحافية باسـم رئاسـة الشرطة التشيكية أن العصـابة اسـتدرجت 25 فتـاة تشـيكية، وأن أحد أفرادها أجنبي من دولة من جنوب شرق أوروبا غير أنـه انتحـر قبـل إلقـاء الشـرطة القبض عليـه، أمـا زعيم العصـابة فـألقت الإنتربول القبض عليه في برشلونه وسيسلم إلى القضاء التشـيكي

1() جريدة صوت الكويت العدد 542.

لاحقا.

ورغم هذا النجاح للشرطة التشيكية إلا أن ظاهرة استدراج أو تصدير الفتيات من تشيكيا ومن دول أوروبا الشرقية الأخرى بمختلف الأساليب لا تزال تعتبر من الظواهر المقلقة التي تعيشها هذه الدول منذ سقوط الأنظمة الشيوعية فيها، وما أعقب ذلك من تراجع مستويات المعيشة وسهولة الانتقال عبر الحدود واللهث وراء المال بأي ثمن كان.

ويؤكد تقرير حديث لمنظمة الهجرة الدولية أنه يجري سنويا بيع نصف مليون امرأة إلى شبكات الدعارة في العالم، وأن النساء من دول أوروبا الشرقية يشكلن ثلثي هذا العدد، أما أعمارهن فتتراوح بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين

وتعترف منظمة الشرطة الأوروبية (أوروبول) بأن تجارة الرقيق الأبيض منظمة بشكل جيد.. أما المنظمات غير الحكومية المهتمة بهذه المسألة وبعض الأجهزة الأمنية في أوروبا الشرقية فتؤكد أن الكثير من النساء يقعن في فخ الاستدراج الذي يجري عادة عن طريق نشر إعلانات مكثفة في مختلف الصحف في دول أوروبا الشرقية عن الحاجة إلى مربيات أو نادلات في المطاعم أو مغنيات أو راقصات أو عارضات أزياء للعمل في الغرب أو في بعض الدول البلقانية بعروض مغرية.. وبعد وصول الفتيات إلى (أماكن العمل) تصادر جوازات سفرهن ويحتجزن لعدة أسابيع يتعرضن خلالها للإهانات والتعذيب، ثم يجبرن على ممارسة الجنس مع كثير من الرجال إلى أن يروضن تماماً، ثم يبيعهن القوادون إلى عصابات مختلفة، الأمر الذي يجعل عودتهن إلى بلدانهن أو الوصول إلى الشرطة صعبا.

وتؤكد العديد من المصادر المتابعة لتجارة الرقيق الأبيض في أوروبا أن العديد من الدول والمناطق في البلقان غدت مفترق طرق بالنسبة للكثير من النساء، ولاسيما اللواتي يستدرجن من جمهوريات رابطة الدول المستقلة كأوكرانيا أوملدوفيا وروسيا البيضاء، فالنساء الأكثر جمالاً يرسلن إلى أوروبا الغربية ولاسيما إلى المانيا وفرنسا وإيطاليا، في حين أن الأقل جمالا وجاذبية يرسلن إلى تركيا واليونان والشرق الأوسط.

ويؤكد الكسندر لوناس الجنرال في الشرطة الرومانية الذي يترأس المركز الإقليمي لمكافحة الجريمة المنظمة أن مدينة برتشكو الواقعة في البوسنه والهرسك واقليم كوسوفو أصبحا من

المعاقــل الرئيســية لتجــارة الرقيــق الابيض، وأن أغلب الفتيــات اللــواتي يجــري الاتجــار بأجســادهن تــتراوح أعمــارهن بين 18-24 عاماً.

و أكــد خــبراء في الأمم المتحــدة، أن تجــارة الرقيــق الأبيض، أصــبحت تحتــل المركــز الثــالث عالميــاً، بين النشــاطات غــير المشروعة.

وجــاء في نــدوة عقــدها مســؤولون من مكتب الأمم المتحــدة لمكافحة الجريمة والمخــدرات في البرازيــل، وشــارك فيهــا خــبراء دوليون، ومسؤولون من الإنتربول، وشرطة اسكوتلانديارد، أن هذه التجارة تحقق عوائد بلغت أكثر من ســبعة مليــارات من الــدولارات في العام الواحد، ويبلغ عدد ضحاياها أكثر من أربعة ملايين شخص، يهاجرون من بلادهم بصورة غير مشروعة سنوياً، الأمــر الــذي دفــع وزير العدل البرازيلي إلى وصف الدعارة بأنها (مرض العصر)

بعد أن انتهى المحقق من سرده لهذه الإحصائيات والدراســات التفت إلى المحامي، وقــال: ألا تــرى الجــرائم العظيمــة الــتي وقــع فيها موكلك؟

قال المحامي: أنا لم أرك تسند له أي جريمة.. لم أرك إلا تذكر الدراسات المختلفة التي تشير إلى ازدياد معدلات الجريمة.

قال المحقق: لقد ثبت بالأدلة القطعيــة أن موكلــك ضــليع بكــل الجرائم التي وقعت.

اهــتز المحــامي، والتفت إلي، وقــال: لعلــك أخطــأت حضــرة المحقق.. هذا أستاذ جامعي محترم.. له مؤلفات.. وله تلاميذ كبار..

قاطعه المحقق، وقال: تلاميذه الكبار هم الذين ساقوه إلى هذا المحــل.. لقــد رأينــا من خلال دراســة إحصــائية لجميــع الجــرائم أن لموكلك ضلع فيها.. فالقائمون بهــا إمــا تلاميــذه المباشــرون.. وإمــا تلاميذه غير المباشرين.

قال المحامي: غير المباشرين!؟

قال المحقق: أجل.. هم الذين تتلمذوا على كتبه وأفكاره.. لقــد كان موكلك هو الأب الروحي لكل هذه العصابات.. ولذلك فــإن من العدالة أن يزج به في السجن الذي يزج إليه المجرمون.

قال ذلك، ثم نادى بصوت عال: ليدخل الشاهد الأول.

دخــل بعض تلاميــذي، فســأله المحقــق عن علاقتــه بي، فقــال: يؤسفني حضرة المحقق أن أخبرك بأن هذا الأستاذ هو الذي جرني إلى ارتكاب هذه الجرائم.

قال المحقق: كيف ذلك؟

قال: لقد قدمت الجامعة التي يدرس فيها بنفس مملوءة بالطهر.. كنت أسكن في الريف.. وكنت أحرص الناس على الأعراض.. لكن هذا الرجل الذي يقف أمامك بقي يلقي في روعي كل حين بأنه لا وجود لشيء اسمه الطهارة.. بل إن الطهارة لا تؤدي إلا إلى الكبت.. والكبت هو أم العقد.. وأم الخطايا.

وتعلمت على يده أن الغاية تبرر الوسيلة..

وبنيت من هذه التعاليم جميعا فلسفة حياتي ودستورها..

وتلك الفلسفة وذلك الدستور هو الذي قادني إلى هنا.

بعد أن أدلى هذا التلميذ بشهادته، استدعي المحقق تلميذا ثانيا وثالثا ورابعا.. وهكذا بقيت طيلة اليوم أسمع تلاميذي المجرمين.. وأرى الجرائم التي ارتكبوها على ضوء التعاليم التي لقنتهم إياها.

بعد أن انتهى الشهود.. ابتسم المحامي، وقال: ومع ذلك كله.. فإن القانون ـ حضرة المحقق ـ يقف في صف موكلي.. وكل هذه الدفاتر التي معي تقول ذلك..

قال ذلك، ثم فتح دفاتره.. وراح يسرد القوانين التي تبرئني وتبرئ أمثالي من الأساتذة والمفكرين والزعماء الروحيين للعصابات والمجرمين..

لم يجد المحقق ما يقول، فلذلك أمر بإطلاق سراحي.. وهو ينظر إلي نظرة ممتلئة بالحقد.. وكان زملاؤه وزميلاته من الشرطة ينظرون إلي نفس النظرة.. وكأنهم يرون المجرم الأكبر يطلق سراحه بينما يزف بالمجرمين الصغار ظلمات السجون.

***

في يوم آخر سرت إلى مستشفى كبير لعيادة بعض أقاربي المرضى.. وهناك حصل ما حصل في اليوم السابق..

قلنا: كيف ذلك.. هل اتهمك المرضى بأنك سبب أدوائهم؟

قال: أجل.. لقد صاح في الكثير.. بعضهم كان مريضا بالسيلان.. وبعضهم كان مريضا بالزهري.. وبعضهم كان مريضا بالسفلس.. وبعضهم كان مريضا بأنواع السرطان المختلفة.. وبعضهم كان مريضا بالأيدز..

قلنا: وما علاقتك أنت بهذه الأمراض؟

قال: سأحدثكم بما حصل.. وستكتشفون علاقتي بها.

أصخنا أسماعنا إليه، فراح يقول: بمجرد دخولي المستشفى.. وبعد أن صاح في المرضى بما ذكرت لك قبضت علي يد شديدة،

وأدخلتني قاعة لا تختلف عن قاعة التحقيقـات.. ولكـني لم أر فيهـا أحدا من الشرطة.

قال لي الجالس على مكتبها: اسمح لنا حضرة البروفيسـور أن نوجه إليك تهمة خطيرة.. ربما لم توجه في جميع التاريخ لغيرك.

قلت: ائـذنوا لي أن أسـتدعيي المحـامي الـذي يتـولى الـدفاع عني.

قال: لن تحتاج إليه..

قلت: كيـف.. إن القـوانين الديمقراطيـة لا تسـمح لكم بتوجيـه الاتهامات دون حضور المحامين.

قـال: نحن نعلم مـا سـيقوله المحـامي.. ونحن نعلم مـا تقولـه القوانين.. ولذلك لن تحتاج للمحامي.

قلت: فلن أخضع للحكم إذن.

قــال: أنت حــر في ذلــك.. نحن لن نحاكمــك لنســجنك في سجوننا.. فليس لدينا سجون.. ولكنـا نحاكمـك لضـميرك.. لتسـجن في سجون نفسك.

قلت: ما فعلت حتى أسجن في سجن ضميري.

قـام أحـدهم، وقـال: أنـا الـدكتور (بـرك جـونز).. أقـف أمامـك لأخبرك.. أو لأخبر ضـميرك بـأن خمسـين مليـون شـخص يصـابون بمرض السفلس كل عام (1).

وقد بلـغ عـدد المصـابين المسـجلين رسـمياً لعـام (1998م) ـ حسـب تقريـر منظمـة الصـحة العالميـة - حـوالي خمسـة ملايين شخص.. وبلغ عدد الوفيات - حسب ذات التقريـر - (159,000) شخص.

قام آخر، وقال: وأنـا طـبيب مختص بمـرض السـيلان.. إن هـذا المرض من أكثر الأمراض المعدية انتشاراً في الوقت الحاضر، وقد يصاب بـه 200-500 مليـون شـخص في كـل عـام، معظمهم في سن الشباب ممن تتراوح أعمـارهم بين 15و28 سـنة.. وغـالبيتهم من طلاب المدارس والجامعات.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية - مثلاً - يتراوح عـدد الإصـابات المسجلة رسمياً بالسيلان ما بين 4و5ملايين إصابة.

أما في البرازيـل فتسـجل يوميـاً حـوالي عشـرين ألـف إصـابة جديدة في العيادات والمستشفيات.

وفي فرنسا يقدر عدد المصابين بالسـيلان سـنوياً بـ 500 ألـف

1() حسب إحصائية جرت عام 1974م.

رجل وامرأة وطفل.
وقد بلغ عدد المصابين بالسيلان لعام (1998م) حسب تقرير منظمة الصحة العالمية حوالي خمسة ملايين شخص.
أما الوفيات فيبلغ عددهم حسب ذات التقرير ثمانية آلاف شخص.
قام آخر، وقال: أنا طبيب مختص بمرض الهربس الزهري، أو القوباء التناسلية.. إن هذا المرض يحتل المرتبة الخامسة من حيث الانتشار في سلسلة الأمراض الجنسية.. وقد تضاعف عدد المصابين في العالم بهذا المرض منذ عام (1970م).. ففي الولايات المتحدة الأمريكية تسجل سنوياً مليون إصابة جديدة، ويقدر عدد المصابين فيها بحوالي 25 مليون شخص.
وتشكل هذه الإصابات 15 بالمائة من مجموعة الأمراض الجنسية.. وفي اليابان يفوق عدد الإصابات الجديدة بالقوباء عدة مرات عدد الإصابات بالسيلان والسفلس.
وفي أوربا الغربية يشكل الهربس التناسلي 20 بالمائة من مجموع الأمراض المتناقلة عبر الجنس، فقد تم رصد أكثر من عشرة آلاف حالة في بريطانيا وحدها عام (1980م).
وقد ذكر الدكتور (مورس) ـ وهو أستاذ الفيروسات الطبية في كلية طب جامعة مانشستر ببريطانيا ـ أن نتيجة الدراسة التي قام بها في بريطانيا تشير إلى أن انتشار هذا المرض يزداد يوماً بعد يوم، وأن أكثر الإصابات به تقع بين الشباب والشابات الذين تتراوح أعمارهم بين 15-30 سنة.. وأن هذا المرض يتناسب طردياً مع الجنس وطرق ممارسته وازدياده في المجتمع بطرق غير صحيحة، فيما يقل بالمقابل عند الذين يحبون العفاف ويسعون إليه.
وقد انتقل المرض إلى عواصم عالمية أخرى مثل: بروكسل وأمستردام وكوبنهاجن وستوكهولم وبرلين وباريس وجنوب إفريقية)
قام آخر، وقال: أنا طبيب مختص بمرض الإيدز.. لاشك أنك لاحظت أن عدد الإصابات بوباء الإيدز منذ اكتشافه في أوائل الثمانينات حتى يومنا هذا في تصاعد مستمر ومخيف.
فحسب إحصاءات منظمة الصحة العالمية التي كشف النقاب عنها في المؤتمر العالمي الخامس ضد مرض الإيدز المنعقد في مونتريال بكندا عام (1989م)، فإن عدد الإصابات بمرض الإيدز حتى عام (1985م) لم يتجاوز 70,000 إصابة.

ثم ارتفع هـذا العـدد مـا بين عـامي (1986و1988م)، ليصـبح حوالي 300,000 إصابة.

ويقدر عدد الإصـابات مـا بين عـامي (1989و1990م) مـا بين 700,000 إصابة ومليون ونصف المليون إصابة.

وقد بينت منظمة الصحة العالميـة بأنـه إذا لم يسـتطع الأطبـاء إيجاد وسيلة فعالة للقضاء على هذا الوبـاء في السـنوات المقبلـة، فإن عـدد الإصـابات سـيبلغ في أواخـر هـذا القـرن خمسـة ملايين إصابة.

ولكن يبـدو أن توقعـات منظمـة الصـحة العالميـة عن عـدد المصابين بهذا المرض كانت متواضعة جداً.. فقد بلغ عدد المصابين بالإيـدز بنهايـة عـام (1998م) 70,930,000 إصـابة (35 مليـون مصاب من الذكور، و34 مليـون مصـاب من الإنـاث تقريبـاً)، وبلـغ عـدد الوفيـات 2,285,000 شـخص.. وذلـك حسـب الإحصـاءات الصادرة عن المنظمة نفسها عام (1999م).

قالوا ذلك، ثم نظروا إلي بقسوة، فصحت فيهم: وما علاقتي أنا بكل هذا؟

قال الجـالس على المكتب: ألسـت أنت الـذي فتحت لهم كـل الأبواب والنوافذ ليتمتعوا بما تمليه عليهم نفوسهم من شهواتهم؟

ألست أنت الذي كنت تلقنهم الأفكار التي تخلصهم من الـبراءة والطهر والعفاف؟

ألست أنت الذي كنت ترمي بالتخلف كل من تمسـك بـالأخلاق والتزم بها؟

لم أجد بما أجيبهم، فقالوا جميعا: أنت مجرم، وإن برأتك جميـع محاكم الدنيا.. وأنت قذر ولو اغتسلت في جميع بحارها.

قالوا ذلك، ثم انصرفوا.. وقد تركـوا في نفسـي خدوشـا كثـيرة لم تستطع الأيام أن تمحوها.

***

في يوم آخر.. ذهبت إلى البنك لأستلم أجـرتي الشـهرية.. وقـد فـوجئت إذ رأيت في رصـيدي مبلغـا ضـخما من المـال.. فسـألت القائمين عمن أرسله إلي، فوجدته تلميـذا من تلاميـذي القـدامى.. أرسله لي، وترك مكتوبا قال لي فيه: شكرا يا أسـتاذ.. فأنـا مـدين لك بثروتي الضخمة.

لست أدري كيف دب الأمل إلى نفسي.. لقد قلت لها: هـا أنت ترين جـدوى تعاليمـك.. هـا هـو تلميـذ من تلاميـذك النجبـاء يعـرف

الوفاء.. ويتعامل به.
لكن ضميري الذي بدأت الحياة تدب إليه دعاني للبحث عن هذا التلميذ (الوفي!).. وقد اكتشفت ما ملأني ألما..
نعم.. صار لهذا التلميذ ثـروة ضـخمة من المـال.. ولكن عنـدما بحثت في كيفية اكتسابه لها.. وفي كيفيـة إنفاقـه منهـا وجـدت مـا ملأني بالتقزز.
لقد كـان صـاحب شـركات كثـيرة.. منهـا شـركات ربـا.. ومنهـا شركات متاجرة في الأعضاء البشرية.. ومنها شركات وهمية تصدر جميع أنواع السموم..
بالإضافة إلى قنوات منحرفة كثـيرة كـان يـديرها.. وكـانت تـدر عليه مبالغ من المال لا تخطر على البال.
لكني مع كل ذلـك كلـه قبضـت المـال.. وتمتعت بـه برهـة من الزمان.. إلى أن جاء اليوم المشؤوم الذي قررت فيـه التخلص من الحياة.
قلنا: كيف كان ذلك؟
قلت: كنت أسير في ذلك اليـوم في شـارع من شـواع مـدينتنا العريضة.. كانت السيارات الضخمة القوية تسير بسـرعة جنونيـة.. وفجأة حـدث أمـامي حـدث أليم.. راح ضـحيته صـبي صـغير تفـوح عيناه بكل عطور البراءة.
عندما رأيت جثتـه المشـوهة امتلأت ألمـا.. وشـعرت.. ولسـت أدري كيف.. بأنني أحد الذين خططوا لقتل هذه البراءة..
وقد وجدت الأمر كما تصورت.. أو كما حدثتني مشاعري..
لقد قبض على الجاني.. وكان شابا مراهقا.. وكـانت علاقتـه بي علاقة وطيدة.. فهو تلميذ كتبي وأفكاري.. وعندما سـئل عن سـبب سـوقه بتلـك السـرعة قـال بكـل بسـاطة: لقـد وجـدت راحـتي وسعادتي ومتعتي وهوى نفسي في هذا النوع من السياقة.. فلذلك رحت أرفع سرعتي إلى الحد الذي رأيتم.
قـال ذلـك، ثم التفت إلي، وقـال: ألم تعلمنـا ــ يـا أسـتاذ ــ أن نضحي بكل شيء من أجل أن نلبي ما تطلبه نفوسنا.
صمت.. وتدخل المحامي الموكل بي ليدافع عـني.. لكـني قلت للمحامي: دعه يتحدث.. ودعهم يرمونـني.. فأنـا مجـرم.. ولا يحـق للمجرم أن يتلاعب بالقوانين التي تبرئه..
لكني مع قولي هـذا لم أجـد أحـدا يقبض علي.. أو يودعـني أي سجن..

كان الناس في الطرقات ينظرون إلي نظـرة ازدراء واحتقـار.. ويتمنون من كل قلوبهم لـو يزيحـوني من تلـك الكراسـي الكثـيرة الـتي كنت أجلس عليهـا لألقن الأجيـال كيـف يخضـعون لنفوسـهم وشهواتهم ولو على حساب كل حقائق الوجود.

***

كان لي صديق في تلك الأيام.. كان فيزيائيا كبيرا.. كـان اسـمه (لويس دي برولي).. وهـو الحـائز على جـائزة نوبـل عـام 1929.. كتب كتابـا كأنـه يخـاطبني بـه.. كـان عنوانـه (الفيزيـاء والميكروفيزياء).. قال فيه: (يتطلب جسـدنا المتوسـع زيـادة في الروح).. وقال : (هل سنستطيع الحصول على هـذه الزيـادة بنفس سرعة تقدم العلم؟ لاشك أن مصير البشرية متوقـف على ذلـك).. وقال : (والآن في هذا الجسـد الـذي اتسـع أكـثر ممـا ينبغي بقيت الروح كما كانت أضـأل من أن تملأه وأضـعف من أن ترشـده.. إن هـذا الجسـد المتخم ينتظـر إضـافة في الـروح، وإن الآلـة تتطلب تصـوفا.. إن الإنسـانية تئن، تكـاد تسـحقها أثقـال التقـدم الـذي صنعته)..

عندما قرأت هـذه الكلمـات قـررت أن أبحث عن الـروح الـتي تردع النفس.. وكان أول ما بدأت بـه الكتـاب المقـدس.. لكـني لم أجد فيه.. ولا في الكنيسة.. ولا في الأديرة إلا ما ملأني بالغثاء (1)..

ولذلك قررت أن أنتحر.

صحنا جميعا: تنتحر!؟

قال: أجل.. بعد كل هذه الآلام والصـراع.. خطـر على بـالي أن أنتحر.. فلم يعد للحياة عندي أي معنى.

وقد قدر الله أن يكون أحد تلاميذي هو المنفـذ لمـا خطـر على بالي.. لقـد كـان يعمـل في مستشـفى من مسشـفيات واشـنطن الكبرى.. كان اسمه (تيموثي كيـل).. عنـدما رأيتـه لم يكن خطـر على بالي بعد أن أنتحر.. ولكـني بعـد أن سـمعت حديثـه مـع بعض رفاقه خطر على بالي.. سأنقل لكم بعض ما سمعت من حوار(2).. وسأذكر لكم بعدها ما فعلت مع هذا التلميذ:

1() ذكرنـا في الرسـائل السـابقة الكثـيرة من الأدلـة على هـذا، ولـذلك لم نحتج إلى إعادته هنا.

2() انظر: (القتل الرحيم: هل هو رغبة إنسانية أم دعوة شيطانية؟؟)، الدكتور محمـد السقا عيد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسـنة، وانظـر: مجلـة (زهـرة الخليج) في عددها رقم 694 يوليو 1992 السنة الرابعة عشرة.

وقـد ذكرنـا المسـألة بتفصـيل في رسـالة (أدويـة من الأرض) من سلسـلة (ابتسـامة الأنين)

قال أحدهم: أنا من الهند.. وقـد اجتمـع مـؤتمر الاتحـاد الـدولي لجراحي المخ والأعصاب بنيودلهى من 8-13 أكتـوبر 1989 م وأجمـع أعضاؤه.. وكانوا أربعة آلاف طبيب على اتخاذ قـرار ينص على أنـه في حالات الأمراض غـير القابلـة للشـفاء.. وفى المرحلـة الأخـيرة يحق للطبيب بعـد مناقشـة واضـحة وقـرار من المـريض أو أقـرب أقاربـه أن يحـد تدخلـه من هـذا العلاج بشـكله المناسـب إلى قـدر الإمكان لنوعية الحياة التي تقترب من نهايتها.

قال آخر: كنت معه في هذا المـؤتمر، وقـد نص أيضـا على أنـه من الواجب العناية بالمريض الذي على حافة الموت حتى النهايـة.. ولكن بطريقة تسمح للمريض بالمحافظة على كرامته.

قال آخر: كنت معهم.. وكان القرار الذي وافق عليه أربعة آلاف طبيب من مختلف دول العالم على أن من حق الطبيب في إيقاف علاج المريض الذي أصبح ميئوساً من شفائه.

قال تيموثي كيل: لقد أبدعنا في بلادنا (اليوتانيجا)

قالوا: وما (اليوتانيجا)؟

قال: تستطيعون تسميتها (القتل من أجل الرحمة) أو (القتل يأساً من الشفاء)

قالوا: وضح ما تريد.

قـال: لـو قـرأتم مـا نشـرت مجلـة (..؟)الطبيـة الأمريكيـة في مارس عام 1991 حولي لعرفتم معناها.

قالوا: فماذا كتبت عنك؟

قـال: لقـد رويت أنـا الطـبيب (تيمـوثي كيـل) قصـة المريضـة (دياني) الـتي كـانت مصـابة بسـرطان حـاد في الـدم، وقـررت ألا تتناول جرعة الدواء الكيميـائي المخصـص لهـا، والـتي وصـفها لهـا الطبيب المعالج.. ونظراً لاقتنـاعي بـأن ديـاني قـد اتخـذت بالفعـل القرار الحكيم، فقد وصفت لها المحاليل الكيميائيـة الـتي سـاعدتها على التخلص من حياتها.

قالوا: وصفت لها ما يقتلها.

قال: أجل.. وفى يوليو في نفس العام رفضـت هيئـة المحلفين إدانتي بتهمة مساعدة المريض على الانتحار.. ثم جاءت (المبـادرة 119) وهى اسـتفتاء ولايـة واشـنطن على مشـروع قـانون يـبيح ممارسة القتل الرحيم، ليصبح أكـبر دليـل على تزايـد التأييـد لهـذه الفكرة في الولايات المتحدة.

قالوا: فهل يجد هذا تأييدا شعبيا عندكم؟

قال: أجل.. ولم يقتصر الأمر على ذلك.. ففي عام 1990 كان الطبيب المتقاعد جاك كينعوركاتاب حديث العناوين الرئيسية في الصحف عندما ساعد جانيت إدكيز، وهي سيدة مصابة بمرض عضال على الانتحار في مدينة ميتشجان باستخدام آلة الانتحار التي اخترعها.. والتي من خلالها يستطيع المريض حقن نفسه بمادة سامة من خلال أنبوبة خاصة.

وفى سبتمبر عام 1991 ساعد الطبيب كيفور اثنين من مرضاه على الانتحار أيضاً في ميتشجان التي ليس لديها أي قوانين حدية تمنع تدخل الطبيب لمساعد مرضاة على الانتحار.

وفى أبريل 1919 نشرت جمعية هيملوك كتاب ديري همفري (المخرج الأخير Final Exit) الذي يصف أكثر من طريقة للانتحار، ويقدم بياناً كاملاً بالأقراص التي يستطيع الشخص تناولها للانتحار وعددها، وسرعان ما أصبح هذا الكتاب في مقدمة أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد امتدح مؤيدو الكتاب مضمون الكتاب واعتبروه مادة قيمة لمساعدة المرضي الميئوس من شفائهم.. خاصة المصابين بالإيدز الذين يخشون فقد السيطرة على أنفسهم وعدم كيفية موتهم.

بل إن انتشار الكتاب على هذا النحو قد يدفع أصحاب الأمراض العصبية بقوة إلى الانتحار.

قال آخر: أنا من هولندا.. ولنا طرقنا الخاصة بالقتل الرحيم.. فعندنا يعطي المريض محاليل بهدف قتله رحمة به.. وهذه العقاقير تصيب المريض بغيبوبة عميقة لا إفاقة منها خلال 30 دقيقة على أن تضع حداً لحياته في غضون عدة ساعات.

قال آخر: أنا من بلده.. وقد أصدرنا وثيقة خاصة بـ (الليثمانميا)، وصدرت عن أطباء الجمعية الهولندية الملكية للأدوية.. وهي تنص على أنه يجب عدم منح المريض أي عقاقير خاصة بالهلوسة أو التشنجات.. وإن حصل احتمال للتقيؤ فيجب أن يواجه بإعطاء المريض المزيد من العقاقير.

ومنذ نحو 20 عاماً مضت قبل أن تصبح اليوتانجيا عملاً مقبولاً في النظام الطبي الهولندي كان المريض الذي يطلب تطبيق اليوثانيي عليه يخاطر بمواجهة موت أقل راحة وكرامة.. ففي ذلك الوقت كان الأطباء الذين يشعرون بالأسي لوضع حد لآلام المرضي يلجئون إلى إصابة المريض بنسبه نقص السكر من خلال حقن بجرعات مضاعفة من الأنسولين وحقنه بعقاقير أخري

تساعد على إصابة نوبة قلبية، وأحياناً كانوا يخنقون المرضي بالوسائد.

قال آخر: أما الآن فيتم تخيير المريض بين حقن بعقار سام تحت الجلد حتى يغرق في غيبوبة كاملة يعقبها حقن آخر بمواد تساعد على ارتخاء العضلات من أجل شل عمل الجهاز التنفسي علاوة على طرق أخري يتم خلالها قتل المريض الميئوس من شفائه على عدة مراحل تستغرق عدة ساعات من خلال عقاقير سامة أيضاً.

قال آخر: والأمر يزداد شدة.. ونخشى أن يخرج الأمر على السيطرة.. فيصبح الأطباء منفذي إعدام أكثر منهم أطباء.. وخاصة إذا أصبح الأمر بيد الطبيب، ولم يعد المريض هو صاحب القرار.. فإن ذلك سيفتح الباب أمام ممارسات غير مشروعة لا أول لها ولا آخر وقد يصعب وقفها.. وليس بعيداً عن الأذهان تجارة الأعضاء التي أصبحت رائجة عند الكثيرين لدرجة أنه يمكن التأكيد على أن هناك طرقا خاصة بهذه التجارة.

***

بعد أن سمعت هذا الكلام.. وبعد أن امتلأت قناعة بأنه لا يصلح لي إلا الانتحار.. ذهبت إلى هذا التلميذ في المستشفى الذي يعمل فيه، فعرفته بنفسي، وبكوني كنت في يوم من الأيام أستاذا له.. فلم يكترث كثيرا لمعرفتي.. بل ما زاد على أن تحدث معي ببرودة عن طلبي، فأخبرته به.. فلم يبدو عليه ـ مع غرابة هذا الطلب ـ أي تعجب.. بل اكتفى بأن طلب مني مبلغا من المال.. ومع أنه كان مبلغا كبيرا إلا أني قبلت به، فقد كان لي من الجبن ما يمنعني من ممارسة ما يمارسه أكثر الناس من أساليب الانتحار.

بعد أن سلمته المال أعطاني ذلك العقار، ووصف لي بدقة الكمية التي أستعملها منه.. ووصف لي ما سيحدث لي بالضبط.

قلنا: ما دمت معنا، فأنت لم تتجرأ على استعماله؟

قال: لا.. بل استعملته.

قلنا: فقد غشك تلميذك إذن.. أخذ مالك دون أن يعطيك العقار القاتل.

قال: لا.. لقد أعطاني العقار القاتل.. ولكني لم أستعمله بالكيفية التي حددها.

قلنا: لم؟

قال: لقد سقطت القارورة من يدي فجأة.. لا.. ليس فجأة..

بل بعد سماعي لصوت جميل كان يردد من قرآن المسلمين هذه الآية :﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ (الفجر)

لست أدري كيف سرت قشعريرة لذيذة إلى جسمي جميعا وأنا أسمع هذه الكلمات.. وقد غصت بعدها في غيبوبة عميقة.. ولم أستفق إلا وأنا في بيت النور والسلام والطمأنينة والصفاء.

قلنا: فحدثنا عن حديثك معه.

السلام

امتلأ وجه صاحبنا بالسلام الجميل، ثم قال: لقد كان أول ما سمعته من ذلك المسلم هو تحية السلام.. المنطلقة من وجه ممتلئ بالسلام..وكان أول ما قال لي: لقد شاء الله أن يمد في عمرك لترى من حقائق السلام ما حجبك عنه الصراع.

قلت: وما حقائق السلام؟.. وما الحجب التي حالت بيني وبينها؟

قال: السلام هو الذي يملأ كيانك كله بالطمأنينة والاستقرار، فتشعر بأن كل شيء في محله الذي يصلح له.. أو تشعر بأن كل شيء هو في حالته التي خلقه الله عليها لم يغير ولم يبدل.

قلت: فما الحجب التي تحول بيني وبين هذا السلام؟

قال: أول الحجب هو النفس..

قلت: ولكننا لا يمكن أن نعيش من دون نفوسنا.. ألم يخلق الله لنا النفوس لنعيش بها؟

قال: لنعيش بها.. لا لنعيش لها.

قلت: لم أفهم.

قال: فرق كبير بين أن تعيش لتأكل، وبين أن تأكل لتعيش.

قلت: لقد قرأت هذا.. ولكني ضحكت عليه، وسخرت منه، ورحت ألقن تلاميذي ما يخالفه.

قال: فماذا رأيت من تلاميذك؟

لم أجد ما أجيبه به، فقال: لقد خلق الله لنا مع نفوسنا التي لا تشبع أو لا تريد أن تشبع عقولا وأرواحا وقلوبا وفوق ذلك خلق معنا بشرا وحيوانات وأفلاكا.. وكل ذلك ينبغي أن يراعى.. فلا ينبغي للعاقل أن يترك لنفسه العنان لتصارع نفسها، وتصارع ما حولها.

قلت: ولكن الكبت نفسه صراع.

قال: لا.. ليس الكبت صراعا.. الكبت علامة السلام الكبرى.
قلت: كيف يكون ذلك؟.. والكابت إنما يصارع نفسه التي بين جنبيه.
قال: ألا ترى أن وقوف ذلك الشرطي في محله سليما معافى دليل على الاستقرار وسبب له.
قلت: وما علاقة الشرطي بما نحن فيه؟
قال: أليس الشرطي هو الذي يقوم بالكبت.. فيكبت كل النزعات الشريرة التي تريد أن تغذي هوى النفس على حساب العقل والقلب.. والكون؟
قلت: قد يصح ما تقول.
قال: بل لا يصح إلا ما أقول.
قلت: أنت على ثقة كبيرة بنفسك؟
قال: أجل.. ذلك أن معي النور الأزلي الذي لا تكشف الحقائق إلا به.
قلت: وما هذا النور؟
قال: كلام ربي الذي أنزله إلي كما أنزله إلى كل البشر ليحتموا بأنواره من الظلمات التي توقعهم فيها نفوسهم وشياطينهم.
قلت: فهل تحدث ربك عن النفس، وتلك الغرائز التي تمتلئ بها؟
قال: أجل.. لقد ذكر ربي النفس.. وبين أنها المحل الذي قد يرتع فيه الشياطين.. وهي المحل الذي قد يرفع صاحبها إلى أعلى الجنان.. قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) (الشمس)
لقد أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الله تعالى خلق النفس سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، وبين أنها في أصل خلقتها مستعدة لأن توظف ما وهب لها من طاقات في سبل الخبر.. كما أنها مستعدة لأن توظفها في سبل الشر، كما قال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم: 30)، وكما قال رسول الله ﷺ :(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء هل تحسون فيها من جدعاء؟)(1)، وقال ﷺ

1() رواه البخاري ومسلم.

حاكيا عن ربه عز وجل:(يقـول اللـه عـز وجـل: إني خلقت عبـادي حُنَفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)

وأخبر أنه لن يفلح إلا من حافظ على سلامة فطرة نفسه، فلم يدنسها بأي دنس..

التفت إلي، وقال: أتدري ما مثل ذلك؟

قلت: ما مثله؟

قال: إن مثله كمثل قوم لهم أجسـام سـليمة وعقـول سـليمة كلفـوا بالـدخول إلى أرض تختلـط فيهـا أشـعة الشـمس الطيبـة بالأشـعة الخبيثـة.. وقـد زودوا لـذلك بمـا يقيهم من أوزار الأشـعة الخبيثة.. كما زودوا بما يمكنهم من الانتفاع بالأشعة الطيبة.

لكن بعضهم لم يرض هذا الوضع، فـراح يقتحم الأشـعة الخبيثـة بوجهه العاري زاعما أن ذلك القناع الذي يضعه على وجهه نوع من الكبت يحرم النفس من حقها في التمتع بأنواع الأشعة.

أتدري ما يحصل لهذا؟

قلت: أجل.. لاشك أنه سيحترق بتلك الأشعة.

قال: فهكـذا الأمـر بالنسـبة لنفوسـنا.. لقـد خلـق اللـه لهـا مـا يتناسب معها.. وأباحـه لهـا.. وخلـق مـا لا يتناسـب معهـا، وحرمـه عليها.

قلت: ما دام لا يتناسب معها، فلم خلقه؟

قال: هو لا يتناسب معها من الجهـة الـتي تريـد أن تتناولـه من خلالها، ولكنه يتناسب معها من حيث منفعته العامة.

قلت: لم أفهم.

قال: أليست الكهرباء وسيلة نافعة من وسائل الحياة؟

قلت: بل قد صارت ضرورة من ضروراتها.

قال: فمن أراد أن يلمس التيار الكهربائي بيديه العاريتين؟

قلت: ستصعقه الكهرباء بلهيبها.

قـال: وهكـذا النفس.. إنهـا إن تنـاولت الأشـياء من محلهـا، وبالسـبل الـتي أبيحت لهـا، فإنهـا لن تظفـر إلا بالسـعادة والسـلام والصـفاء.. ولكنهـا إن أبت إلا أن تـركب نفسـها وهواهـا، فإنهـا لن تجني إلا ما يجنيه الجـريء على الكهربـاء أو الجـريء على الأشـعة السامة.

قلت: كلامك معقول.. فهل ورد في كتـابكم المقـدس مـا يـدل على هذا؟

قال: أجل.. لقد سمى الله تعالى تلـك المشـاعر الـتي تجـذب

النفـوس إلى الهاويـة (هـوى)، فقـال :﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَـرَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا (38) فَـإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَـأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَـافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَـأْوَى (41) ﴾ (النازعات)

قلت: ولكن الحياة التي تمتلئ بقمع هوى النفس حيـاة ممتلئـة بالصراع.. فكيف يتحقق السلام مع هذا الصراع؟

قال: هو صراع محدود ومؤقت.. والنفس التي تقدم عليه تنال من اللذة ما يناله ذلك الذي انتصر على أعدى أعدائه.

قلت: ولكن الصراع يظل صراعا؟

قال: السلام لا يتحقق إلا بهذا النوع من الصراع.. ألا ترى العالم لا يتحقق له مراده من الكمـال العلمي إلا ببـذل الجهـد، ومصـارعة نزوات الهوى التي تدعوه إلى الركون إلى الراحة؟

قلت: بلى.. فلا يمكن لأحـد أن يتمكن من شـيء مـا لم يبـذل جهده فيه.

قال: ولذلك قال تعالى :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البلـد: 4).. فالإنسـان لابـد أن يكبـد في حياتـه ويتعب إلى أن يتحقـق لـه مراده..

قلت: وعيت مـا ذكرتـه.. فهلا حـدثتني عن مطـالب النفس الأمارة.. وعن كيفية قمعها.

قال: ذلك علم طويل.. والعلم لا يكفي وحـده فيـه.. بـل لا بـد معه من تربية ومجاهدة..

قلت: فهل تدلني على من أرى فيهم ما تتحدث عنه؟

ابتسم، وقال: أنا أسـتاذ مثلـك.. ولـذلك سـأمر بـك على بعض تلاميذي(1)، ولنحاول أن نختبرهم بما تشاء من أنواع الاختبار.. لترى كيف تحولت نفوسـهم إلى نفـوس طـاهرة طيبـة ممتلئـة بالسـلام الجميل.

قلت: يسرني ذلك.. لكن أخبرني من أنت حتى أعـرف مـع من أسير.. وتلاميذ من سألتقي.

قال: أنا المحاسبي(2).. أنا الرجل الذي تعامل مـع نفسـه كمـا يتعامل الغريم مـع غريمـه.. حاسـبتها وجاهـدتها إلى أن اسـتقامت

1() ذكرنا في هذا المبحث الأسس الـتي تقـوم عليهـا النظـرة الإسـلامية للتعامـل مـع النفس.. وهي خير رد على المذاهب الوجودية.. أما التفاصيل المرتبطة بهذا، فقـد أفردنـا لها فصولا في رسالتي (أسرار الإنسان) و(أسرار الحياة)

2()أشير به إلى أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، أحد علماء السـلوك الكبار، سمي المحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه. و هو أسـتاذ أكـثرِ البغـداديين؛ و هـو من أهل البصرة. مات ببغداد سنة 243هـ.

على طريق الله.. وأسأل الله أن يثبتني على ذلك.

قلت: فهل ستدلني على الطريق التي سرت فيها؟

قال: يسرني ذلـك.. فلا هـدف لي في الحيـاة إلى الدلالـة على هذا.

قلت: فاختر لنا مجلسا نتحدث فيه.

قال: أنا مجرد فرد.. وحديثي وحـده لا يكفي.. سأسـير بـك إلى كلية مختصة بهذا.. إنها (كلية التهذيب والترقي) وفيها فروع كثيرة.. سـأمر بـك على بعضـها.. لتبصـر كيـف عـالج الإسـلام النفس من أدوائها.. وكيف لم يكتف بذلك، بل راح يغرس فيها من المكارم مـا جعلها حقلا عظيما لها.

قلت: من أسس هذه الكلية؟

قال: ومن غيره؟.. إنـه محمـد ﷺ.. إنـه ذلـك الرجـل الـذي لم تعرف البشرية مربيا مثله.

الهدي الإلهي:

كان أول قسم في (كلية التهـذيب والـترقي) قسـم كتب عليـه من القرآن هذه الآية: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45) (ق)،) وهذه الآية : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَـالِحِينَ فَإِنَّهُ كَـانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُـورًا (25) (الإسـراء)، وهـذه الآيـة : وَنُنَـزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيـدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَـارًا (82) (الإسراء)، فسألت المحاسبي عنه، فقـال: في هـذا القسـم لن تسمع إلا القرآن.

قلت: وهل للقرآن كل هذه القوة في تهذيب النفس؟

قال: لقد وصف الله القرآن بكونه شفاء.. وما دام كـذلك، فإنـه يشفي من كل العلل النفسية.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد صيغ القرآن صياغة خاصـة، فهـو يخـاطب النفس من جذورها.. ولذلك فإن الذي أدمن عليـه والتزمـه تـأدب على يديـه لا

روي من ورعه أنه كان إذا مد يده إلى الطعام فيه شـبهة تحـرك إصـبعه عـرق، فكـان يمتنع منه.. وقال الجنيد: مربي يوماً، فرأيت فيه أثر الجـوع، فقلت: (يـا عم، نـدخل الـدار وتتناول شيئاً)، فقال: نعم، فدخلت الدار، وحملت إليه طعاماً، من عرس قوم؛ فأخذ لقمة وأدارها في فيه مراراً، ثم قام وألقاها في الدهليز وفر، فلما رأيته بعـد أيـام، قلن لـه في ذلك، فقال: إني كنت جائعاً أن أسرك بأكلي وأحفظ قلبك، ولكن بيـني وبين اللـه علامـة: ألا يسوغني طعاما فيه شبهة، فلم يمكنني ابتلاعه، فمن أين كان ذلك الطعام؟ فقلت: إنه حمل من دار قريب لي من العرس، ثم قلت له: تدخل اليـوم، فقـال: نعم، فقـدمت اليـه كسراً كانت لنا فأكل، وقال: إذا قدمت إلي فقير شيئاً فقدم مثل هذا.

من مؤلفاته: (الرعايةِ لحقوق الله)، و(مائية العقل وحقيقة معناه)، وغيرها.

ولا يخفى سر اختيارنا له في هذا الفصل.

محالة.

إن كل من رباهم رسول الله ﷺ.. وكل من تربوا في حجر هذه الأمة لم يتهذبوا إلا بالقرآن..

روي أن النجاشي طلب من جعفر بن أبي طالب أن يسمعه شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ عن الله، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلت لحاهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون.

وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل عليّ فتلوت :﴿ والذاريات ﴾ فلما بلغت قوله تعالى :﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)﴾(الذاريات)، قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلّم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت :﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)﴾ (الذاريات)، فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤوه إلى اليمين قائلها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه.

***

سمعنا صوتا عذبا يرتفع بالقرآن.. أردت أن أتكلم، فقال لي المحاسبي: لقد ذكرت لك أن هذا القسم لا يوجد فيه إلا القرآن.. فهلم نسمع إلى المقرئين، وهم يخاطبون النفوس، ويهذبونها بكلام ربها.

اقتربنا من المقرئ.. فسمعته يردد من القرآن هذه الآيات :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب: 72).. :﴿ وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:

283).. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَنْ تُـؤَدُّوا الأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَـا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَـدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِـهِ إِنَّ اللَّهَ كَـانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (النساء: 58).. ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لاَ تَخُونُـوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُـوا أَمَانَـاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُـونَ ﴾ (الأنفـال: 27).. ﴿ قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَـلَاتِهِمْ خَاشِـعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُـونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَـاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ فَـإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُـومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَـادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَاعُـونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُـونَ الْفِـرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ (المؤمنون).. ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِـقَ هَلُوعًـا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَـقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الـدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (27) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (28) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُـرُوجِهِمْ حَـافِظُونَ (29) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْـرُ مَلُـومِينَ (30) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (31) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (32) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَـهَادَاتِهِمْ قَـائِمُونَ (33) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (34) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (35)﴾ (المعارج)

رأيت المجتمعين حوله مستغرقين اسـتغراقا تامـا، ورأيت على وجوه بعضهم دموعا كثـيرة تنحـدر.. ورأيت بعضـهم يمسـك ورقـة يكتب فيها شيئا، فاقتربت منه، فرأيته يضع جداول مملوءة أرقاما.. فقلت له مختبرا: ما تفعل يا رجل.. أنت تنشغل عن كلام ربك بعـد ثروتك؟

قال لي ـ والدموع تنحدر من عينيه ــ : لا يـا أخي.. لا تسـئ بي الظن.. أنا رجل كنت مسرفا على نفسي.. وقد أخذت أموالا كثيرة بغـير حـق.. وقـد نبهتـني هـذه الآيـات إلى وجـوب إرجـاع الحقـوق لأصحابها.. وقد عاهدت الله في هذا المجلس ألا أخرج منـه إلا بعـد أن أرد كل حق لصاحبه حـتى لـو افتقـرت.. فلأن أذوق فقـر الـدنيا خير من أن أذوق فقر الآخرة.

***

تركته، وسـرت إلى مجلس آخـر، فـرأيت رجلا يـردد بينـه وبين نفسه: : بلى يا رب قد آن.. بلى يا رب قد آن.. بلى يا رب قد آن.

فسألت المحاسبي عن شأنه، فقال: هـذا الفضـيل بن عيـاض.. كان شاطراً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس.. وكان سبب توبته أنه ارتقى بعض الجدران فسمع تالياً يتلو قولـه تعـالى :﴿ أَلَمْ يَـأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُـوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ مِنْ قَبْـلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَـدُ فَقَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16)﴾ (الحديد)، فلما سمعها قال: بلى يا رب قد آن فرجع، فآواه الليل إلى خربةٍ فإذا بها سابلة.. فقـال بعضـهم: نرحل، وقال بعضهم حتى نصـبح فـإن فضـيلاً على الطريـق يقطـع علينا.. قال: ففكرت، وقلت أنا أسعى بالليل في المعاصـي، وقـوم من المسـلمين هاهنـا يخـافوني، ومـا أرى اللـه سـاقني إليهم إلا لأرتـدع، اللهم إني قـد تبت إليـك وجعلت توبـتي مجـاورة الـبيت الحرام.

***

تركته، وسـرت إلى مجلس آخـر، فـرأيت رجلا يتوسـط حلقـة، وهو يقرأ عليهم القرآن، وبعد أن انتهى سأله أحدهم قائلا: يا شيخنا عن سر تأثير القرآن في قمع الشهوات الخسيسة الـتي تمتلئ بهـا النفوس.

فأجابه(1): لقد جعـل اللـه في القـرآن من الحكمـة والموعظـة الحسـنة بـالترغيب والـترهيب والتزهيـد في الـدنيا والـترغيب في الآخرة والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصـار.. وكـل ذلك يرغب القلب السـليم إذا أبصـر ذلـك فيمـا ينفعـه في معاشـه ومعاده، ويرغب عمـا يضـره، فيصـير القلب محبـا للرشـد، مبغضـا للغي..

فالقرآن مزيـل للأمـراض الموجهـة للإرادات الفاسـدة، فيصـلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطـر عليهـا، فتصـلح أفعالـه الاختياريـة الكسـبية كمـا يعـود البـدن بصـحته وصـلاحه إلى الحال الطـبيعي فيصـير بحيث لا يقبـل إلا الحـق كمـا أن الطفـل لا يقبل إلا اللبن، فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه ويثبت ملكه كما يتغذى البـدن بمـا ينميه ويقويه.

وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى، فينمو ويزيد حـتى يكمـل ويصـلح، فكمـا أن البـدن محتـاج إلى أن يزكـو بالأغديـة المصلحة له والحمية عما يضره فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ومنـع

1() هذا الجواب منقول بتصرف من: إغاثة اللهفان لابن القيم: 1/45.

ما يضره فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن، وإن وصل إلى شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل له به تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين.

الهدي النبوي:

بعد أن تجولت على حلقات كثيرة في قسم القرآن من كلية (كلية التهذيب والترقي) سرت مع صاحبي المحاسبي إلى قسم آخر كتب عليه من القرآن هذه الآية: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)﴾ (آل عمران)

فسألت المحاسبي عنها، فقال: في هذه الآية يذكر الله الوظائف التي كلف بها رسول الله ﷺ..

قلت: فما علاقتها بالتهذيب والترقية؟

قال: لا يوجد في العالم رجل وضع خطة متكاملة للتهذيب والترقية مثل رسول الله ﷺ..

قلت: فأين أجد هذه الخطة؟

قال: في أحاديثه.. تلك التي اجتهد العلماء في تمييز الموثوق منها من غيره.. ثم اجتهدوا في معرفة المعاني العظيمة التي تحملها.. ثم اجتهدوا في استنباط الكيفيات العملية التي تجعل منها واقعا ملموسا.

أردت أن أسأل، فقال لي: تعال.. فخير جواب لك أن ترى وتسمع، فليس الخبر كالعيان.

سرت معه إلى أول حلقة كان يجلس فيها شيخ عرفت فيما بعد أن اسمه (عبد الوهاب الشعراني) (1)

1() نشير به إلى الشيخ عبد الوهاب الشعراني (898 -ـ 973 هـ = 1493 -ـ 1565 م)، ولد في قلقشندة (بمصر) ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرى المنوفية) وإليها نسبته: (الشعراني، ويقال الشعراوي) وتوفي في القاهرة.

له تصانيف، منها (الاجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية) و(أدب القضاة) و(إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العالمين) و(الانوار القدسية في معرفة آداب العبودية)، و(البحر المورود في المواثيق والعهود)، و(بهجة النفوس والاسماع والاحداق فيما تميز به القوم من الآداب والاخلاق)، و(العهود المحمدية) الذي رجعنا إليه في هذا المحل، وغيرها.

وننبه هنا إلى أن بعض الخرافات دست في كتبه، وقد نبه هو إلى ذلك، وأشار إليه المؤرخ عبد الحي بن العماد الحنبلي في كتابه (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) عند ترجمته، فقال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع، وعقائد زائغة، ومسائل تخالف الإجماع، وأقاموا عليه القيامة، وشنَّعوا وسبُّوا، ورموه بكل عظيمة، فخذلهم الله، وأظهره الله عليهم وكان مواظباً على السنة، ومبالغاً في الورع،

كان يقول: قال رسول الله ﷺ :(نضر الله امرأ سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع)(1)

ومعنى نضر الله : الدعاء بالنضارة وهي النعمة والبهجة والحسن تقديره جمله الله وزينه بالأخلاق الحسنة والأعمال المرضية.

وفي رواية: (فربما حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)(2)

وفي رواية:(اللهم ارحم خلفائي قالوا يا رسول الله وما خلفاؤك ؟ قال الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي ويعلمونها للناس)(3)

بعد أن روى هذه النصوص قال(4): أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نسمع الناس الحديث، ونبلغه إلى البلاد التي ليس فيها أحاديث، وذلك بكتبنا كتب الحديث وإرسالها إلى بلاد الإسلام.

***

انتقلنا إلى حلقة أخرى، كان يطلق على شيخها لقب (ابن أبي الدنيا)(5).. عندما جلسنا سمعنا سائلا يسأل قائلا: نحن تجار قدمنا من بلاد بعيدة.. ونريد منك أن تحدثنا عن نبينا ﷺ.. وعن التوجيهات التي خصنا بها.

ابتسم ابن أبي الدنيا ابتسامة هادئة، وكأنه يرحب بهم من خلالها، ثم قال: قال رسول الله ﷺ :(ثلاثة لا ينظر الله إليهم ولا

مُؤثِراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه، متحملاً للأذى، موزعاً أوقاته على العبادة؛ ما بين تصنيفٍ وتسليكٍ وإفادة.. وكان يُسمَعُ لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ، ولم يزل مقيماً على ذلك، معظّماً في صدور الصدور، إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته) (شذرات الذهب في أخبار من ذهب:8/374)

1() رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه مرفوعا.

2() هي للطبراني.

3() هي للطبراني.

4() هذه النصوص منقولة بتصرف من كتاب (العهود المحمدية) لعبد الوهاب الشعراني.

5() أشير به إلى أبي بكر عبدالله بن محمد بن عُبيد بن سفيان بن قيس المعروف بابن أبي الدنيا، البغدادي (208 ـ 281هـ، 823 ـ 894م)، وهو الحافظ، المحدث، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، كان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس، إن شاء أضحك جليسه، وإن شاء أبكاه.. وثقه أبوحاتم وغيره.. صنّف الكثير حتى بلغت مصنفاته 164 مصنفاً منها: العظمة؛ الصمت؛ اليقين؛ ذم الدنيا؛ الشكر؛ الفرج بعد الشدة وغيرها. (الموسوعة العربية العالمية)

ولا يخفى سر اختيارنا له هنا، فهو من المؤلفين المكثرين في الأحاديث المرتبطة بالأخلاق.

يزكيهم ولهم عذاب أليم) قال الراوي: فقرأها رسول اللـه ﷺ ثلاث مرات.. قال الراوي: فقلت: خابوا وخسروا من هم يا رسول اللـه؟ قال : (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)(1)

وفي رواية (2) :(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يـوم القيامـة أشـيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشـتري إلا بيمينـه ولا يبيع إلا بيمينه)

وقال ﷺ :(ثلاثة لا يكلمهم اللـه يـوم القيامـة ولا يـزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل)(3)

وفي رواية : (يقـول اللـه لـه اليـوم أمنعـك فضـلي كمـا منعت فضل ما لم تعمل يداك، ورجل بايع رجلا سلعة بعد العصـر فحلـف بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه فأخذها وهو على غـير ذلـك، ورجـل بايع إماما لا يبايعه إلا للدنيا فإن أعطاه منها ما يريد وفى له وإن لم يعطه لم يف له)

وفي رواية:(ورجل حلف على سلعة لقد أعطي بهـا أكـثر ممـا أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منـع فضـل مـاء فيقـول اللـه لـه يـوم القيامة اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك)

وقال رسـول اللـه ﷺ :(أربعـة يبغضـهم اللـه : البـائع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر)(4)

وعن واثلة قال: كان رسول الله ﷺ يخرج إلينا وكنا تجارا وكـان يقول : (يا معشر التجار إياكم والكذب)(5)

وقال رسول الله ﷺ :(الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب﴾ (6)

وقـال رسـول اللـه ﷺ :(التـاجر الصـدوق الأمين مـع النبـيين والصديقين والشهداء)(7)

وقال رسول الله ﷺ :(إن أطيب الكسب كسب التجـار الـذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعـدوا لم يخلفـوا، وإذا اشـتروا لم يـذموا، وإذا بـاعوا لم يمـدحوا، وإذا كـان عليهم لم

1() رواه مسلم والأربعة.
2() هي للطبراني في الكبير.
3() رواه البخاري ومسلم.
4() رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.
5()رواه الطبراني بإسناد لا بأس به.
6() رواه البخاري ومسلم.
7()رواه الترمذي بسند حسن.

يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا)[1]

وقال رسول الله ﷺ :(البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدق البيعان وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ويمحقا بركة بيعهما.. اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب)[2]

وخرج ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون فقال : (يا معشر التجار)، فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال : (إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى وبر وصدق)[3]

الصراط المستقيم:

بعد أن تجولت على حلقات كثيرة سمعت فيها من هدي محمد وتربيته للنفوس، وتمكنه منها، سرت مع المحاسبي إلى قسم آخر في (كلية التهذيب والترقي)، وقد رأيت على لافتة بابه هذه الآية: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)} [الفاتحة: 6، 7]، فسألت المحاسبي عنه وعن سر الآية التي وضعت على بابه، فقال: إن النفس الإنسانية تحتاج إلى نماذج ممتلئة بالطهر والعفاف والكمال الإنساني لتحتذي بها، وتسير على هديها، ولهذا فإننا في هذا القسم نبحث عن هذه النماذج الطاهرة لنقتفي أثرها، ونسير خلفها.

قلت: ألا تكفي تلك التعاليم الراقية التي كنت سمعتها في القسمين السابقين؟

قال: بلى.. ولكن للشيطان منافذه التي يحول بها الخير شرا، والهداية ضلالة.

قلت: أيمكن ذلك؟

قال: أجل.. وقد وقع في هذه الأمة من ذلك كثير من الصراع نتيجة انحرافهم عن الصراط المستقيم الذي أمروا بالالتزام به، والتمسك بحبله.. لقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك، ففي الحديث عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا فقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمين الخط ويساره وقال: هذه سُبل، على كل سبيل منه شيطان يدعوه، ثم تلا: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

1()رواه البيهقي وغيره.
2()رواه البخاري ومسلم.
3()رواه الترمذي وابن حبان والحاكم وصححوه.

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام: 153] يعني الخطوط التي عن يمينه ويساره(1).

قلت: ما دام الأمر كما وصفت، وأن الشيطان قد مزج الخير بالشر، فصار الشر خيرا، والخير شرا، فكيف تميزون بينهما؟

قال: لقد ترك لنا رسول الله ﷺ من الوصايا والإشارات ما يستطيع به كل عاقل مخلص أن يميز دين الله عن الدين الذي وضعه الشيطان ليلبس به على عباد الله.

قلت: ولكن ألا يمكن أن تتسرب الشياطين إلى تلك الوصايا والموازين فتنحرف بها، وتحولها إلى سبل الشيطان؟

قال: لا.. يستحيل ذلك.. فتلك الوصايا من الوضوح والدقة ما لا يمكن للشياطين الوصول إليه.. وهي فوق ذلك محمية بالمحكم من القرآن، وبما تقتضيه الفطر السليمة.

قلت: فهلا انتقلت من الإجمال إلى التفصيل.

قال: لقد وردت الوصايا الكثيرة من رسول الله ﷺ بأهل بيته الذين حددهم بدقة متناهية، واعتبرهم متمسكين بحبل الله، وأنهم لن يتركوه أبدا، فقد ورد في الحديث المتواتر: (إنّي تركت فيكم ما إنْ تمسّكتم به لنْ تضلّوا بعدي : كتاب اللّه حبلٌ ممدودٌ مِن السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولنْ يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)(2)

قلت: ولكن ألا يمكن أن يكون في هذا الحديث دعوة إلى الاهتمام بهم ومحبتهم دون اعتبارهم أوصياء على الدين، أو حافظين للصراط المستقيم؟

قال: سأضرب لك مثالا عن وصية من تلك الوصايا، وهو منقول بالتواتر، وأخبرني عن فهمك له، لقد ورد في الحديث بعد عودته ﷺ من حجة الوداع، ووصوله إلى مكان يسمى غدير خم قرب الجحفة جنوب المدينة.. هناك أمر الحجاج الذين معه بالتوقف، وعددهم حوالي عشرة آلاف من الصحابة، وفيهم صفوتهم المهاجرون والأنصار أصحاب القرار في المسلمين.. ثم أمر بانتظار المتأخرين من الناس ورد من فات عن هذا الموضع.. حتى عاد الفائت ووصل المتأخر ثم خطب مودعاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد.. أيها الناس إنما أنا

1() رواه أحمد والنسائي والدارمي.

2() الحديث متواتر، وقد ورد بصيغ كثيرة رواه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم، وقد نص الألباني على صحته انظر حديث رقم : 2458 في صحيح الجامع.

بشر يوشك ان يأتيني رسول ربي عز وجل فـأجيب، وإني تـارك فيكم ثقلين: أولهمـا كتـاب اللـه عـز و جـل فيـه الهـدى والنـور فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به.. فحث على كتاب الله ورغب فيه.. [ثم] قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهـل بيـتي.. أذكركم الله في أهـل بيـتي.. أذكـركم اللـه في أهـل بيـتي)، ثم قال: (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا بلى! قال من كنت مـولاه فعلي مـولاه، اللهم وال من والاه وعـاد من عـاداه) (1).. هل تتصور أن كل هذه التوجيهات والإعـدادات من أجـل أن يطلب من النــاس محبتهم.. أم أن الأمــر لــه علاقــة بالــدين والسلوك والحياة جميعا؟

قلت: الأمر كما ذكرت.. ولكن ما علاقة ذلك بهذه الكلية؟

قـال: لقـد وقعت انحرافـات كثـيرة في وصـف الشخصـية الإنسـانية السـوية الـتي أراد اللـه أن يصـطبغ بهـا المسـلم.. فبعضهم صـور المسـلم بصـورة الإنسـان المسـتعلي المسـتكبر على غيره من الأمم.. وبعضهم صوره بصورة الضعيف المتهالك السلبي.. وهكذا دب الانحراف إلى هذه الأمـة نتيجـة بعـدها عن الصراط المستقيم الذي أوصاها به.

قلت: فماذا تفعلون في هذا القسم من الكلية؟

قــال: نحن في هــذا القســم نبحث عن هــؤلاء الهــداة المتمسكين بحبـل اللـه، فنعيش في صـحبتهم وولايتهم ونـتربى على أيديهم، وننفي الدخن ومزيج الشيطان بهديهم..

تجولت على حلقـات كثـيرة في هـذا القسـم، وقـد امتلأت تعظيما لتلك النفوس الطاهرة الممتلئة بالقداسـة، والـتي مثلت بجدارة كتاب ربها وسنة نبيها.

وقد شدني منها خطبة كانت تردد كثيرا، وبأصوات جميلــة، كانوا يطلقون عليها خطبة المتقين، وقد رأيتها تصور الشخصــية الإنسانية في قمة كمالها وجمالها، وقصتها كما ذكـر لي هي: أن صاحبا لأمير المؤمنين يقال له همام كان رجلا عابدا، فقـال لـه: يـا أمـير المؤمـنين صـف لي المتقين حـتى كـأني أنظـر إليهم، فتثاقل عن جوابه، ثم قال: يا همام اتق الله وأحسن، فـإن اللـه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فلم يقنع همام بهذا القـول حتى عزم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النـبي ﷺ، ثم قال: (أما بعد، فإن الله ــ سـبحانه وتعـالى ــ خلـق الخلـق حين

1() الحديث ورد بصيغ كثيرة وهو متواتر ومروي في كثير من كتب السنة.

خلقهم غنيا عن طاعتهم آمنا من معصيتهم، لانة لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معايشهم، ووضعهم من الدنيا مواضعهم. فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. لو لا الاجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب، وخوفا من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون.. قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة.. صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة، يسرها لهم ربهم.. أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها.. أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لاجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم.. وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: قد خولطوا! ولقد خالطهم أمر عظيم! لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لانفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون.. إذا زكي أحد منهم خاف مما يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم مني بنفسي! اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.. فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعلما في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع.. يعمل الاعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت

حذرا، ويصبح فرحا، حذرا لما حذر من الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة.. إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب.. قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل.. تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه.. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون.. إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين.. يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه.. بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكره، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره.. في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور.. لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب.. يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه.. لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالالقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق.. إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له.. نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة.. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه.. بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوه بمكر وخديعة..((1)

العقل:

بعد أن تجولت على حلقات كثيرة سمعت فيها من هدي آل محمد وتربيتهم للنفوس، سرت مع المحاسبي إلى قسم آخر في (كلية التهذيب والترقي)، وقد رأيت على لافتة بابه هذا النص العجيب :﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)﴾ (البقرة، وغيرها كثير)، فسألت المحاسبي عنه، فقال: في هذا القسم تخاطب العقول بما وضع الله فيها من المدارك.. فتربى النفوس من خلال ذلك.

دخلنا قاعة الدرس.. فرأيت تلاميذا كثيرين متحلقين في حلق مختلفة، وهم في منتهى الأدب والنظام، وقد تعجبت من ذلك إذ لم أر مراقبين ولا أساتذة كبارا يشرفون عليهم.. بل كانوا كلهم في سن المراهقة.. ومع ذلك كانوا كلهم في حكمة الشيوخ واتزانهم

1() ذكرت الخطبة بطولها لأهميتها، ولاستمدادها التام من القرآن الكريم، ولتصويرها لشخصية الإنسان المسلم بأرقى صورها.

وانضباطهم(1).

اقتربنا من حلقة من الحلقات، فسمعنا شيخها الشاب يقول(2): السعاة الحقيقية هي السعادة التي لا تعني إلا بقاء بلا فناء، ولذة بلا عناء، وسرورا بلا حزن، وغنى بلا فقر، وكمالا بلا نقصان، وعزا بلا ذل.. وفوق ذلك تكون أبد الآباد، وعلى وجه لا تنقصه تصرم الأحقاب والآماد، بل لو قدّرنا الدنيا مملوءة بالدّرر، وقدّرنا طائراً يختطف في كل ألف سنة حبة واحدة منها، لفنيت الدّرر ولم ينقص من أبد الآباد شيء.

فمثل هذه السعادة لا نحتاج إلى استحثاث النفوس على طلبها، إذ أن كل يتسارع إلى ما هو أقل منها بكثير، ولا يصرفه عنها كون الطريق إليها متوعراً، ومحوجاً إلى ترك لذات الدنيا، واحتمال أنواع من التعب هنا.. فإن المدة في احتمال التعب منحصرة، والفائت فيها قليل.. واللذات الدنيوية منصرمة منقضية.. والعاقل يتيسر عليه ترك القليل نقداً في طلب أضعافه نسيئة.

ولذلك ترى الخلق كلهم في التجارات والصناعات، وحتى في طلب العلم، يحتملون من الذل والخسران، والتعب والنصب، ما يعظم مقاساته طمعاً في حصول لذة لهم في المستقبل، تزيد على ما يفوتهم في الحال زيادة محدودة، فكيف لا يسمحون بتركه في الحال للتوصل إلى مزايا غير مقدرة ولا محدودة.

قال آخر: إن سبب فتور الخلق عن طلب هذا النوع من السعادة هو ضعف إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فالعقل الناقص قاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلاً عن الكامل.

1() سنذكر هنا ـ من خلال ما ورد في كتب السلوك الإسلامية ـ ما بنى عليه الإسلام تعامله مع النفس، وهو مما اشتركت في ذكره مدارس السلوك الإسلامية باختلاف توجهاتها.

2()استفدنا الكثير من مادة هذا المبحث من كتاب (ميزان العمل) للإمام أبي حامد الغزالي، مع التصرف الذي يقتضيه المقام.

وقد قال الغزالي في مقدمة هذا الكتاب :(لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال إلا بالعلم والعمل، وافتقر كل واحد منهما إلى الإحاطة بحقيقته ومقداره، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار، وفرغنا منه، وجب معرفة العمل المسعد، والتمييز بينه وبين العمل المشقي، فافتقر ذلك أيضاً إلى ميزان، فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة، ثم نبيّن العلم وطريق تحصيله، ثم نبيّن العمل المسعد وطريقه. وكل ذلك بطريقة تترقى عن حد طريق التقليد إلى حد الوضوح، لو استقصى بحقيقته وطوّل الكلم فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط التي ذكرناها في (معيار العلم)، وإن كنا لسنا نطوّل الكلام به، ولكن نرشد إلى أصوله وقوانينه)

والكتاب في جملته خير ما يبين النظرة الإسلامية للتعامل مع النفس، وهو في نفس الوقت يرد على المقولات المختلفة التي تبرر للنفس سلوكاتها العشوائية غير المنضبطة.

واستفدنا كذلك من كتاب (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين) للراغب الأصفهاني.

قال آخر: لقد تأملت فـرق النـاس في أمـر الآخـرة فوجـدتهم أربع فرق:

أما أولاها، وهي أكمل الفرق وأعقلهـا، وأحقهـا بنيـل السـعادة، فهي الفرقـة الـتي اعتقـدت الحشـر والنشـر والجنـة والنـار، كمـا نطقت بهـا الشـرائع، وأفصـح عن وصـفه القـرآن، وأثبتـوا اللـذات الحسية جميعها من المطعـوم والمشـموم والملمـوس والملبـوس والمنظور إليه، وغير ذلك.. واعترفوا بأنه يضاف إلى ذلك أنواع من السرور، وأصناف من اللذات التي لا يحيط بهـا وصـف الواصـفين، فهي (مما لا أعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشـر) (1)

واعتقدوا أن ذلك يجري أبداً بلا انقطاع، وأنـه لا ينـال إلا بـالعلم والعمـل، وهـذا هـو قـول المسـلمين.. وهـو مـا يملـؤهم بالسـلام والسعادة والطمأنينة.

وأما الثانية، فقوم اعـترفوا بنـوع من اللـذة لا تخطـر على قلب بشر كيفيتها، وسموها لذة عقلية، وأما الحسـيات فـأنكروا وجودهـا من الخـارج إلا من طريـق التخييل(2).. وهـذا القـول يتنـافى مـع متطلبـات النفس الـتي تـرى أنهـا لا تسـتغني عن الملمـوس من اللذات والمنظور منها والمطعوم وغيره.

وأما الثالثـة، فـذهبوا إلى إنكـار اللـذة الحسـية جملـة، بطريـق الحقيقة والخيال، وزعموا أن التخيل لا يحصل إلا بـآلات جسـمانية، والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن، الذي هو آلته في التخيل وسائر الاحساسات، ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعـد أن أطرحـه، فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من الحسية.

1() ورد هذا الوصف للجنة في أحاديث كثيرة منها ما روي عن ابن عباس ـ رضي اللـه عنه ـ عن النبي ﷺ قـال :(لمـا خلـق اللـه جنـة عـدن خلـق فيهـا مـا لا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر على قلب بشـر، ثم قـال لهـا: تكلمي فقـالت: قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ) (المؤمنون:1)، وفي رواية :(خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارهـا ثم نظـر فيهـا فقـال لهـا: تكلمي فقـالت : قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ) (المؤمنـون:1)، فقـال: (وعـزتي لا يجـاورني فيـك بخيـل) رواه الطـبراني في الأوسـط والكبـير وأحـد إسـنادي الطبراني في الأوسط جيد.

2() وفرق هؤلاء بين طريق التخيل في حالة النوم وبين هذا التخييل بـأن النـوم يتكـدر بالتنبـه، وذلـك لا تكـدر لـه، بـل هـو على التأبيـد، وذكـروا أن هـذا قاصـر على طائفـة من المشـغوفين بالمحسوسـات، والـذين التفـات نفوسـهم مقصـور عليهـا، ولا يسـمون إلى اللذات العقلية، وذكروا أن هذا لا يفضي إلى أمر يـوجب فتـوراً في الطلب، فـإن الالتـذاذ إنما يقع بما يحصل في نفس الإنسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعـوم وغـيره، والشيء الخارج سـبب في حصـول الأثـر، وليسـت اللـذة من الأثـر الخـارج بـل من الأثـر الحاصل عند حضور الخارج. فإذا أمكن حصول الأثر في النفس دون الشيء الخارج، كمـا في حالة النوم، فلا أرب في الشيء الخارج.. (انظر: ميزان العمل)

وأما الرابعة، فهم جماهير من الحمقى، ذهبوا إلى أن الموت عدم محض، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما، ويرجع الإنسان بعد موته إلى العدم، كما كان قبل وجوده.

وقد رأيت أن الدعاة لهذا المذهب لا يعدون كونهم بطّالين غلبت عليهم شهواتهم، واستولى عليهم شيطانهم، فلم يقدروا على قمع هواهم، ولم تسمح لهم رعونتهم بأن يعترفوا بالعجز عن مقاومة الهوى، فتعللوا لنقصانهم بأن ذلك واجب وأنه الحق، ثم أحبّوا أن يساعدهم غيرهم، فدعوا إلى البطالة وما جلبت عليه النفس من اتباع الهوى الذي هو أشد حامل للأحمق على المسارعة إلى التصديق به.

قال آخر: لقد تحدث شيخنا أبو حامد عن هذا الصنف الرابع كثيرا، وذكر علة ما وقعوا فيه ورد على مقولاتهم.. ومن أشهرها ادعاءهم أن (**النقد خير من النسيئة.. ولذات الدنيا يقين.. ولذات الآخرة شك!!.. ولا يترك اليقين بالشك**)

وقد اعتبر أن هذا القياس فاسد.. وأنه لا يختلف عن قياس إبليس فى قوله :﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: من الآية12).. فظن أن الخيرية فى النسب..

وقد ذكر أن علاج هذا الغرور يتم بأمرين: التصديق الإيماني.. والبرهان.

أما **التصديق** فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله :﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (القصص: من الآية60)، وقوله :﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران: من الآية185)).. وتصديق الرسول ﷺ فيما جاء به.

وأما **البرهان**: فهو أن يعرف وجه فساد قياسه، وأن قوله: الدنيا نقد والآخرة نسيئة مقدمة صحيحة، وأما قوله: النقد خير من النسيئة. فهو محل التلبيس.. وليس الأمر كذلك.. بل إن كان النقد مثل النسيئة في المقدار.. والمقصود فهو خير.. وإن كان أقل منها.. فالنسيئة خير منه.. فإن الكافر المغرور يبذل في تجارته درهماً ليأخذ عشرة نسيئة، ولا يقول :(النقد خير من النسيئة فلا أتركه)، وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك في الحال خوفاً من ألم المرض في المستقبل؛ فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة.. والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الأسفار نقداً لأجل الراحة والربح نسيئة، فإن كان عشرة في ثاني الحال خيراً من واحد في الحال فانسبوا لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة

الآخرة، فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة، وليس هو عشر عشير من جزء ألف ألف جزء من الآخرة، فكأنه تـرك واحـداً ليأخـذ ألـف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حـد، وإن نظـر من حيث النـوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخـرة صـافية غير مكدرة، فإذن قد غلط في قوله: (النقد خير من النسيئة)

فمنشأ هذا الغرور ـ كما ترون ــ هـو قبـول لفـظ عـام مشـهور أطلق وأريد به خاص، فغفل به المغرور عن خصـوص معنـاه، فـإن من قال: النقد خير من النسيئة، أراد به خـيراً من نسـيئة هي مثلـه وإن لم يصرح به.

قـال آخـر: ولكن الشـيطان لا يكتفي بهـذا.. بـل هـو يفـزع إلى قياس آخر هو: (**أن اليقين خير من الشك.. والآخرة شـك.. والدنيا يقين**)

قال آخر: إن هذا القياس لا يختلـف عن الـذي قبلـه.. بـل لعلـه أكثر فساداً من الذي قبله.. لأن كلا أصليه باطل، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثلـه، وإلا فالتـاجر في تعبـه على يقين وربحـه على شـك، وطـالب العلم في طلبـه على يقين وفي إدراكـه رتبـة العلم على شـــك، والصـــياد في تـــرددده على المقتنص على يقين وفي الظفر بالصيد على شـك، وكـذا الحـزم دأب العقلاء بالاتفـاق وكـل ذلـك تـرك اليقين بالشـك، ولكن التـاجر يقـول: إن لم أتجـر بقيت جائعـاً وعظم ضـرري، وإن اتجـرت كـان تعـبي قليلاً وربحي كثـيراً؛ وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهـو من الشـفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين، ولكن يقول: ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ما أخافه من المرض والموت.

وهكذا من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول: أيام الصبر قلائل، وهو منتهى العمر بالإضافة إلى ما يقـال من أمـر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً؛ فما يفوتني إلا التنعم أيام حيـاتي وقـــد كنت في العـــدم من الأزل إلى الآن لا أتنعم، فأحســـب أني بقيت في العدم، وإن كان ما قيل صدقاً، فأبقى في النار أبـد الآبـاد وهذا لا يطاق، ولهذا قال علي ـ رضي الله عنه ـ لبعض الملحـدين: إن كان ما قلته حقاً فقد تخصلت وتخلصنا، وإن كان ما قلنـاه حقـاً فقد تخلصنا وهلكت.

قال آخر: أما الأصل الثاني من كلامه: وهو (**أن الآخرة شك**)،

فهو أيضاً خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين، وليقينه أدلة كثيرة(1) لعل أقلها هو الإيمان تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص، ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني فإنه يطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك البراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعلم به، ولو بقي سوادي أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عدداً وأغزر منه فضلاً وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمهم بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً، فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل، وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار، فجحدوا الآخرة وكذبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي وقول السوادي لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء فكذلك قول هذا الغني الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوالها الأنبياء والأولياء والعلماء.

قال آخر: وفوق ذلك، فلو تأمل هذا الشاك(2) آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيئته ووحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا به عنه لعلم أن ذلك حق لاشك فيه وأن خالق هذا العالم هو رب السموات والأرض، يتعالى ويتقدس ويتنزه عن خلاف ما أخبرت به رسله عنه، ومن نسبه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه وأنكر ربوبيته وملكه إذ من المحال الممتنع عند كل ذي فطرة سليمة أن يكون الملك الحق عاجزا أو جاهلا لا يعلم شيئا ولا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهي ولا يثيب ولا يعاقب ولا يعز من يشاء ولا يذل من يشاء ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها ولا يعتني بأحوال رعيته، بل يتركهم سدى، ويخليهم هملا.. إن مثل هذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولايليق به، فكيف

1() سنرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

2() هذا الدليل منقول بتصرف من (الجواب الكافي) لابن القيم ص22.

يجوز نسبه للملك الحق المبين.

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدإ كونه نطفة إلى حين كماله واستوائه تبين له أن من عني به هذه العناية، ونقله إلى هذه الأحوال، وصرفه في هذه الأطوار لا يليق به أن يهمله ويتركه سدى لا يأمر ولا ينهاه ولا يعرفه بحقوقه عليه ولا يثيبه ولا يعاقبه.

ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلا له على التوحيد والنبوة والمعاد، بل إن الانسان نفسه دليل على وجود خالقه وتوحيده وصدق رسله وإثبات صفات كماله.

قال آخر: والشيطان لا يكتفي بهذا، بل يلجأ إلى قياس آخر يوسوس به لمن امتلأت نفوسهم بحب الشهوات يقول لهم فيه : (**لقد أحسن الله إليكم بنعم الدنيا.. وكل محسن فهو محب.. وكل محب فهو محسن**)

وليس الأمر كما يقول، فقد يكون في الظاهر محسناً.. ولكنه ليس محباً.. بل ربما يكون الإحسان سبب هلاكه على الاستدراج.. وذلك محض الغرور.. لقد قال الله تعالى يبين فساد هذا القياس : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾ (الفجر).. وقال :﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)﴾ (المؤمنون).. وقال:﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45)﴾ (القلم).. وقال :﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)﴾ (الأعراف)

قال آخر: لكن مم ينشأ هذا النوع من الغرور؟

قال آخر: هو قياس من أقيسة إبليس جعلهم ينظرون مرة إلى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا.. فيقيسون عليها نعم الآخرة، ومرة ينظرون إلى تأخير عذاب الله عنهم في الدنيا فيقيسون عذاب الآخرة كما أخبر الله تعالى عنهم، فقال :﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8) ﴾ (المجادلة).. ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم

فقـراء.. فـيزدرونهم ويقولـون: أَهَـؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَـا (الأنعام: من الآية53).. ويقولون: لَوْ كَانَ خَيْـراً مَـا سَـبَقُونَا إِلَيْـهِ (الاحقاف: من الآية11)

***

انتقلنا إلى حلقة أخرى، وقد التف جمع من الشباب يتـذاكرون، وقد كان لهم من الوقار والسـمت والهيبـة مـا ملأني تعظيمـا لهم، قال أحدهم: إن استسلام النفس لربها وخضوعها لـه لا يقـف بينهـا وبين سعادتها وملذاتها.

قال آخر: لقد قال شيخنا أبو حامـد في حـواره للطوائـف الـتي امتلأت بالعبودية لنفوسها يذكرها باللذات التي فاتتها بسبب ذلك :(إن هذه الفرقة، وإن أنكروا السعادة الآخروية، فلم ينكروا السعادة الدنيويـة، وأعلى السـعادات الدنيويـة العـزة والكرامـة، والمكانـة والقدرة، والسلامة من الغموم والهموم، ودوام الراحـة والسـرور.. وهذا أيضاً لا يفـوز بـه الإنسـان إلا بـالعلم والعمـل.. فلا يخفي لـذة العالم في علمه، وفيما ينكشـف لـه في كـل لحظـة من مشـكلات الأمور، لا سـيما إذا كـان في ملكـوت السـموات والأرض، والأمـور الآلهية.. وهذا لا يعرفه من لم يـذق لـذة انكشـاف المشـكلات.. ثم إنها لذة لا نهاية لها، لأن العلوم لا نهاية لهـا، ولا مزاحمـة فيهـا، لأن المعلومـات تتسـع للطلاب وإن كـثروا، بـل اسـتئناس العـالم يزيـد بكثرة شركائه، إذا كان يقصد ذات العلم، لا حطام الدنيا ورئاسـتها، فـإن الـدنيا هي الـتي تضـيق بالمزاحمـة، بـل يـزداد سـعة بكـثرة الطلاب.. ثم مع أنها أوفى اللـذات عمن أنس بهـا، فهي أدومهـا، إذ المنعم بها عليه هو الله، ولكن عند اكبابه على الطلب وتجـرده لـه. ولـذلك لا تـرى جماعـة من الرؤسـاء والـولاة، إلا وهم في خـوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء.. وأمـا العمـل فلسـنا نعني به إلا رياضة الشهوات النفسانية، وضبط الغضب، وكسر هذه الصفات، لتصير مذعنة للعقل، غير مستولية عليه، ومستسخرة لـه في تـرتيب الحيـل الموصـلة إلى قضـاء الأوطـار. فـإن من قهـر شهواته، فهو الحرّ على التحقيق، بل هو الملـك. ولـذلك قـال بعض الزهاد لبعض الملوك: (ملكي أعظم من ملك)، فقال: كيف؟ قـال: (من أنت عبده عبدي)، وأراد به أنه عبد شهواته، وشـهواته صـارت مقهورة له.. فعبد الشـهوات، العـاجز عن كسـرها وقهرهـا، رقيـق وأسير بالطبع، لا يزال في عناء دائم وتعب متواتر، إن قضى وطره يوماً عجز عنـه أيامـاً. ثم لا يخلـو في قضـائها عن أخطـار، وعلائـق

ومشـاق، يضـطر إلى تقلـدها، فتقليـل الشـهوات تقليـل لأسـباب الغموم، ولا سبيل إلى إماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة، وهو المـراد بالعمل.. فـإذن العـالم العامـل أحسـن النـاس حـالاً، عنـد من رأى السعادة مقصورة على الدنيا. فإن الدنيا ليست تصفو لأحـد، وليس يفي جدواها بمشاقها. فالممعن في اتباع الشهوات، والمعرض عن النظر في المعقولات، شقيّ في الدنيا باتفاق، وشـقيّ في الآخـرة إلا عند شـرذمة من الحمقى، لا يؤبـه لهم، ولا يعبأ بهم، ولا يعـدون في جملة العقلاء رأساً)(1)

الطب:

انتقلنا بعد قسم الحكمة إلى قسـم آخـر كـان أشـبه بالعيـادة.. وقـد رأيت مكتوبـا على بابـه (عيـادة عيـوب النفس ومـداوتها)(2)، فسألت المحاسبي عنـه، فقـال: هـذه العيـادة تحـاول أن تشـخص عيوب النفس.. لتقوم بعد ذلك بعلاجها.

قلت: فمن طبيبها؟

قال: رجل من أهل الله يقال لـه (أبـو عبـد الـرحمن السـلمي)(3).. قدمت به من (نيسابور) لما رأيت فيه من حكمة وعلم وقدرة على التأثير والإصلاح..

وقد قدر الله بمنه وكرمه أني بمجرد أن قدمت بـه، وسـمع بـه الناس.. انهالوا عليه.. واستفادوا منه.. وتربوا على يديه..

قال ذلك، ثم طلب مني أن ندخل تلك العيادة العجيبـة الـتي لم أر مثلها في حياتي..

رأينا جمعا من الناس ملتفين حول الشيخ كما تلتف الهالة حول الشمس.. كانوا وكأن على رؤوسهم الطير..

1() انظر: (ميزان العمل) للغزالي.

2() هذا اسـم الكتـاب الـذي اسـتفدنا منـه المعـاني الـتي سـنذكرها، وهـو لأبي عبـد الرحمن السلمي.

3() أشـير بـه إلى الإمـام الجليـل محمـد بن الحسـين بن محمـد بن موسـى الازدي السلمي النيسابوري، المعروف بأبي عبد الرحمن السلمي (325 - 412 هـ)

صرف أبو عبـد الـرحمن همـه إلى الدراسـة الحـديث والتصـوف، ولقي شـيوخ عصـره فيهما. فرحل في الطلب إلى: العراق، والـري، وهمـدان، ومـرو، والحجـاز، وغيرهـا لكتب الحديث، ولقاء الشيوخ، كما جـرت بـذلك عـادة عصـره، فـوق تتلمـذه لشـيوخ نيسـابور.. ونيسـابور يومئـذ من أمهـات المـدن الإسـلامية، الـتي بلغت قمت الاكتمـال في العمـران والفكر.

بلغت تصانيفه مئة أو أكثر، منها (حقائق التفسـير) و(طبقـات الصـوفية) و(مقدمـة في التصوف) رسالة، و(مناهج العارفين) و(رسالة في غلطات الصوفية) و(رسـالة الملامتيـة) و(آداب الفقــر وشــرائطه) و(بيــان زلــل الفقــراء ومنــاقب آدابهم) و(الفتــوة) و(آداب الصحبة).. و(عيوب النفس ومـداواتها)، ومنـه اسـتفدنا مـا سـنذكره في هـذا المحـل من الأدوية الروحانية.

جلسنا مع الجمع نسمع وصفات الطبيب الحكيم..

قال أحد الحاضرين: يا شيخ.. أشكو إليك نفسي فإنها تطلب كشف الضر ممن لا يملكه، وترجو النفع ممن لا يقدر عليه، وتهتم بالرزق وقد تكفل الله لها بالرزق.

قال السلمي: فعالجها بالرجوع إلى صحة الإيمان بما أخبر الله في كتابه.. فقد قال: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)﴾ (الأنعام:17).. وقال :﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود:6).. ثم انظر إلى ضعف الخلق وعجزهم لتعلم أن كل من يكون محتاجا لا يقدر على قضاء حاجة غيره.. ومن يكون عاجزا لا يمكنه ان يصلح أسباب غيره.

قال آخر: نفسي ألفت الخواطر الرديئة حتى استحكمت فيها المخالفات.

قال السلمي: فعالجها برد تلك الخواطر في الابتداء، لئلا تستحكم.. وذلك بالذكر الدائم، وملازمة الخوف، وبعلمك أن الله يعلم ما في سرك كما يعلم الخلق ما في علانيتك، فتستحي منه أن تصلح للخلق موضع نظرهم، ولا تصلح موضع نظر الحق.

حدثني شيخي وقدوتي إبراهيم الخواص، قال : (أول الذنب الخطرة، فإن تداركها صاحبها بالكراهية وإلا صارت سقط الهوى فتصد العقل والعلم والبيان)

قال آخر: نفسي استحكمت فيها الغفلة والتواني والإصرار والتسويف وتقريب الأمل وتبعيد الأجل.

قال السلمي: فعالجها بدواء الجنيد.

قال: وما دواؤه؟

قال: لقد سئل: كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله؟.. فقال : (بتوبة تحل الإصرار، وخوف يزيل التسويف، ورجاء يبعث على قصد مسالك العمل، وذكر الله على اختلاف الأوقات، وإهانة النفس بقربها من الأجل، وبعدها عن الأمل)، قيل: فبم يصل العبد إلى هذا؟ فقال : (بقلب مفرد فيه توحيد مجرد)

قال آخر: نفسي استحكمت فيها رؤيتها لأعمالها، وإعجابها بها، فانشغلت بها عن كل شيء.

قال السلمي: فعالجها برؤية فضل الله عليها في جميع الأحوال تسقط عنك رؤيتها لنفسها.. حدثني شيخي الواسطي قال :

(أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس وأفعالها)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فقد انشغلت بعيوب الناس عما بها من عيبها.

قال السلمي: فعالجها بمحبة الصالحين والائتمار بأوامرهم.. وأخبرها أن أقل حسنة تفعلها أن تسكت عن عيوب الناس وتعذرهم فيها وتستر عليهم خزاياهم لعل الله أن يصلحها لها ما ابتليت به من عيوبها.. فقد قال ﷺ : (من ستر على أخيه المسلم ستر الله عورته ومن تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته)

وحدثني شيخي (زاذان المدايني) قال : (رأيت أقواما من الناس لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فستر الله عيوبهم، وزالت عنهم تلك العيوب.. ورأيت أقواما لم تكن لهم عيوب اشتغلوا بعيوب الناس فصارت لهم عيوب)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها اشتغلت بتزيين الظواهر.. والتخشع من غير خشوع.. والتعبد من غير حضور.

قال السلمي: فعالجها بالاشتغال بحفظ الأسرار، ليزين الله أنوار باطنها.. فقد قال ﷺ : (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها تطلب العوض على أعمالها.

قال السلمي: فعالجها برؤية تقصيرها في عملها، وقلة إخلاصها.. فإن الكيس في عمله من أعرض عن طلب الأعراض أدبا وتورعا.. وأعلمها أن ما قدر لها سيأتيها دنيا وآخرة.

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها لا تجد لذة للطاعة.

قال السلمي: ذلك من سقم القلب، وخيانة السر.. فعالجها بأكل الحلال، ومداومة الذكر، وخدمة الصالحين والدنو منهم، والتضرع إلى الله تعالى في ذلك.. ليمن على قلبك بالصحة وزوال ظلمات الأسقام فتجد عند الذكر لذة الطاعة.

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها لا تحن لشيء كما تحن للراحة والنوم والكسل.

قال السلمي: الكسل ميراث الشبع.. فإن النفس إذا شبعت قويت.. فإذا قويت أخذت بحظها وغلبت القلب بوصلها إلى حظها.. فعالجها بالتجويع فإنها إذا جاعت عدمت حظها، وضعفت فغلب عليها القلب، فإذا غلب عليها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل، ولذلك قال النبي ﷺ : (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من

بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان ولابد ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها تطلب الرئاسة بالعلم.. وتتكبر به وتفاخر وتباهي وتتطاول..

قال السلمي: فعالجها برؤية منة الله عليها في أن جعلها وعاء لأحكامه.. وعالجها برؤية تقصيرها في شكر نعمة الله عليها بالعلم والحكمة والتزام التواضع والانكسار والشفقة على الخلق والنصيحة لهم.. فإنه روى عن النبي ﷺ أنه قال : (من طلب العلم ليباهى به العلماء، أو ليمارى به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده في النار)

وقال بعض السلف : (من ازداد علما فليزدد خشية، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾(فاطر: من الآية 28).. وقال رجل للشعبي : (أيها العالم)، فرد عليه : (إنما العالم من يخشى الله)

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها كثيرة الكلام.

قال السلمي: فعالجها بإخبارها بأنها مؤاخذة بما تتكلم به.. وأنه مكتوب عليها.. وأنها مسئولة عنه.. فالله تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)﴾ (الانفطار).. ويقول : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (قّ: 18).. ويقول : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (النساء:114)

ويقول ﷺ : (وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم)(1) وقال: (لا تكثر الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي)(2)

قال آخر: أشكو لك نفسي، فإنها إن رضيت مدحت الراضي عنه فوق الحد، وإذا غضبت ذمته، وتجاوزت الحد.

قال السلمي: فعالجها برياضتها على الصدق والحق حتى لا تتعدى في مدح من رضى عنه ولا في ذم من سخط عليه، فإن أكثر ذلك من قلة المبالاة بالأوامر والنواهي.. وقد قال رسول الله ﷺ : (احثوا في وجوه المادحين التراب)

1() رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه كلهم من رواية أبي وائل عن معاذ وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

2() رواه الترمذي والبيهقي، وقال الترمذي حديث حسن غريب.

قال آخـر: أشـكو لـك نفسـي.. فإنهـا تسـتخير اللـه تعـالى في أفعالها، ثم تتسخط عليه فيما يختار لها.

قـال السـلمي: فعالجهـا بإعلامهـا بأنهـا لا تعلم من الأشـياء إلا ظواهرها.. أما الله فإنه يعلم علنها وحقائقها.. وأعلمهـا بـأن حسـن اختيار الله لها خير من اختيارها لنفسها.. فإن اللـه هـو المـدبر، ولا مدبر سواه.. وأعلمها بأنها سخطها للقضاء لا يغير المقضى.

قال آخر: أشكو لك نفسي.. فإنها كثيرة التمـني.. وليس تمنيهـا إلا اعتراض على الله تعالى في قضائه وقدره.

قال السلمي: فعالجها بإعلامها أنها لا تدري مـا يعقبـه التمـني.. أيجرها إلى الخـير أم إلى الشـر.. أم إلى الرضـا أم إلى السـخط.. فإذا أيقنت ذلك رجعت إلى الرضا والتسليم، فتستريح.. ولذلك قال النبي ﷺ : (لا يتمـنين أحـدكم المـوت لضـر نـزل بـه وليقـل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفـاة خـيرا لي) ولذلك قـال النـبي {صـلى اللـه عليـه وسـلم} (إذا تمـنى أحـدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته)

قال آخر: أشكو إليك نفسي.. فهي كثرة الذنوب والمخالفـات.. وهي تجعل قلبي مثل الحجارة الصلبة القاسية.

قـال السـلمي: فعالجهـا بكـثرة الاسـتغفار، والتوبـة آنـاء الليـل وأطراف النهار.. وعالجها بمداومة الصيام والتهجـد بالليـل والنـاس نيـام.. وعالجهـا بخدمـة أهـل الخـير ومجالسـة الصـالحين وحضـور مجالس الذكر مع الذاكرين.. فقد روي فإن رجلا شكي إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: (أدنـه من مجـالس الـذكر).. وقـال:(إني لأستغفر الله في اليـوم سـبعين مـرة)، وقـال:(إن العبـد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب واستغفر الله ذهبت فإن أذنب ثانيا فكت في قلبه نكتة أخـرى إلى ان يصـير القلب غيثـا لا يعـرف معروفـا ولا ينكـر منكـرا)، ثم قـرأ النـبي ﷺ :﴿ كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين:14)

قَال آخر: أشكو إليك نفسـي وسـرورها لمن يمـدحها.. وطلبهـا الراحة.

قال السلمي: ذلك من نتاج الغفلـة.. فعالجهـا بالتيقـظ لمـا بين يديها، وأعلمها بتقصيرها فيما أمرت بـه، وارتكابهـا مـا نهيت عنـه.. وأعلمها أن هذه الـدار سـجن.. ولا سـرور ولا راحـة في السـجن.. فإن النبي ﷺ قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)..

حدثني أستاذي داود الطائي قال : (قطع نياط قلوب العـارفين

أحد الخلودين)، وقال رجل لبشر الحافي: ما لى أراك مهموما؟ فقال : (لأني مطلوبه)

قال آخر: أشكو إليك نفسي.. واتباعها هواها، وموافقتها لمواضع رضاها.. وحرصها على مراداتها.

قال السلمي: فعالجها بقوله تعالى :﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41)﴾ (النازعات).. وأعلمها بقوله تعالى :﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)﴾ (يوسف).. حدثني مطر الداري قال : (لنحت الجبال بالأظافير أهون من زوال الهوى إذا تمكن في النفس)

قال آخر: أشكو إليها نفسي واستراحها إلى معاشرة الأقران.. وميلها إلى صحبة الإخوان.

قال السلمي: فأعلمها بأنها ستفارق كل صاحب.. وأنه لا يدوم لها إلا صحبة ربها.. فقد روي أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ : (عش ما عشت فإنك ميت وأحببت من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزى به)

حدثني أبو القاسم الحكيم قال : (الصداقة عداوة إلا ما صافيت، وجمع المال حسرة إلا ما واسيت، والمخالطة تخليط إلا ما داويت)

السياسة:

بعد أن استفدت ما شاء الله لنا أن أستفيد في عيادة أبي عبد الرحمن السلمي سرنا إلى قسم آخر كتب على بابه (تهذيب الأخلاق) (1).. فسألت المحاسبي عنه، فأخبرني أن هذا القسم خاص برجل جاء به من الري يطلق عليه (ابن مسكويه)(2)

1() هذا اسم الكتاب الذي استفدنا منه المعاني التي سنذكرها، وهو لابن مسكويه.

2() أشير به إلى أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت421 هـ)، وهو مؤرخ بحاثة، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها.. اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والادب والانشاء.. وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عضد الدولة بن بويه، فلقب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده.

وقال أبو حيان في جملة وصفه: (لطيف الالفاظ، سهل المأخذ، مشهور المعاني شديد التوقي، ضعيف الترقي، يتطاول جهده ثم يقصر)

من كتبه (تجارب الامم وتعاقب الهمم) في التاريخ، انتهى به إلى السنة التي مات فيها عضد الدولة (372 ه)، وله (تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق)، ومنه استفدنا في هذا المطلب، و(طهارة النفس) و(آداب العرب والفرس) و(الفوز الاصغر) في علم النفس، و(ترتيب السعادات) في الاخلاق، و(رسالة في ماهية العدل) و (نديم الاحباب وجليس الاصحاب) و(الحكمة الخالدة)، و (الادوية المفردة) و(الاشربة) وغير ذلك.. عاش عمرا طويلا.. (انظر: الأعلام للزركلي)

فسألته عن الفرق بين هذا والذي قبلـه.. فقـال لي: ذاك رجـل يقصده الكل.. أما هذا فرجل يقصده صنف خاص من الناس.. وهم صنف يحن إلى الحكمة العقلية ويميل إليهـا.. ولا يـؤتى إليـه إلا من قبلها.

دخلنا قاعة الحكمة التي تربع فيها ابن مسكويه يحيط بهـا جمـع قليل من الناس.. وقد كان من حسن حظنا أن حظرنا الـدرس من أوله..

بدأ ابن مسـكويه درسـه بقولـه: (الحمـد للـه الـذي أرشـد إلى الصراط المستقيم ومـدح الخلـق العظيم وأرسـل نبيـه محمـدا ﷺ متمما لمكارم الأخلاق، وأدبـه فأحسـن تأديبـه على الإطلاق.. اللهم إنا نتوجه إليك ونسعى نحوك ونجاهد نفوسـنا في طاعتـك ونـركب الصـراط المسـتقيم الـذي نهجتـه لنـا إلى مرضـاتك فـأعن بقوتـك واهـدنا بعزتـك واعصـمنا بقـدرتك وبلغنـا الدرجـة العلي برحمتـك والسعادة القصوى بجودك ورأفتك إنك على ما تشاء قدير)[1]

ثم قال: غرضنا في هذا الدرس أن نحصل لأنفسنا خلقـا تصـدر به عنا الأفعال كلها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا، لا كلفة فيها ولا مشقة، ويكون ذلك بترتيب تعليمي.

وقـد رأيت أن حسـن طريـق في ذلـك هـو أن نعـرف ــ أولا ـ نفوسنا ماهي، ولأي شيء أوجدت فينا، أعني كمالهـا وغايتهـا، ومـا قواها وملكاتها الـتي إذا اسـتعملناها على مـا ينبغي بلغنـا بهـا هـذه الرتبة العلية، وما الأشياء العائقة لنا عنها، ومـا الـذي يزكيهـا فتفلح، وما الذي يدسيها فتخيب فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَـدْ خَـابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾ (الليل)

***

ثم أخذ يتحـدث عن حقيقـة النفس وقواهـا بمـا بهـرني.. ولكن أهم ما سمعته منه، واستفدت منه كثيرا قوله: (لقد شـبه الحكمـاء من أهمل سياسة نفسه العاقلة وتـرك سـلطان الشـهوة يسـتولي عليها برجـل معـه ياقوتـة حمـراء شـريفة لا قيمـة لهـا من الـذهب والفضة جلالة ونفاسـة.. وكـان بين يديـه نـار تضـطرم فرماهـا في حباحبها حتى صارت كاسا لا منفعة فيها، فخسرت منافعها.

فقـد علمنـا الآن أن النفس العاقلـة إذا عـرفت شـرف نفسـها وأحست بمرتبتها من الله عزوجل أحسنت خلافتـه في تربيـة هـذه

1() هذه مقدمة كتاب (تهذيب الأخلاق).

القوى وسياستها ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالى إلى محلها من كرامة الله تعالى ومنزلتها من العلو والشرف ولم تخضع للسبعية ولا للبهيمية.

بل تقوم النفس الغضبية التي سميناها سبعية وتقودها إلى الأدب بحملها على حسن طاعتها.. ثم تستنهضها في أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها إلى الشهوات حتى يقمع بهذه سلطان تلك وتستخدمها في تأديبها وتستعين بقوة هذه على تأبى تلك)

لقد محت هذه الكلمات عن نفسي توهم الصراع بين قوى النفس.. فقد عرفت أن الله ما أودع فينا تلك القوى التي نراها متناقضة إلا لنستعمل بعضها في إصلاح بعض.

التربية:

بقيت مدة أستمع إلى سياسة النفس التي نطق بها ابن مسكويه.. إلى أن طلب مني صاحبي المحاسبي أن نسير إلى رجل له طرقه الخاصة في مخاطبة النفوس..

لم نسر إلا قليلا حتى رأينا رجلا يقال له (بديع الزمان)(1) كان بالغ الذكاء والفطنة.. قوي الحجة والدليل.. له قدرة كبيرة على الغوص في أعماق النفوس.. وله قدرة كبيرة على التحاور معها.

كان يخاطب أطفالا.. يقول لهم بلطف وحنان: كان يا ما كان في قديم الزمان.. وسالف العصر والأوان.. كان هناك سلطان له ثروات طائلة، وخزائن هائلة، تحوي جميع أنواع الجواهر والألماس والزمرد، مع كنوز خفية أخرى عجيبة جداً.. وكان هذا السلطان صاحب علمٍ واسع جداً، وإحاطة تامة، واطلاع شامل على العلوم البديعة التيً لاتحد، مع مهارات فائقة لا تعد.

وبما أن كل ذي جمال وكمالٍ يحب أن يشهَد الغير جمالَه وكمالَه.. فكذلك هذا السلطان العظيم، أراد أن يفتح معرضاً هائلاً لعرض مصنوعاته الدقيقة كي يُلفت أنظار رعيته إلى أبهة سلطنته، وعظمة ثروته، ويُظهر لهم من خلاله خوارق صنعته الدقيقة وعجائب معرفته وغرائبها، ليشاهِد الكل جمالَه وكمالَه.

ولأجل هذه الحكمة بدأ هذا السلطان بتشييد قصر فخم شامخ جداً، وقسّمه بشكل بارع إلى منازل ودوائر مزيّناً كلَّ قسمٍ بمرصعات خزائنه المتنوعة، وجمّله بما عملت يداه من ألطف آثارً

1() أشير به إلى الإمام بديع الزمان النورسي.. وقد تحدثنا عنه مرات كثيرة في هذه السلسلة.

إبداعه وأجملها، ونظّمه ونسقه بأدق دقائق فنون علمه وحكمته.

وبعد أن أتمه وكمله، أقام في القصر موائد فاخرة بهيجة تضم جميع أنواع أطعمته اللذيذة، وأفضل نِعَمه الثمينة، مخصصاً لكل طائفة ما يليق بها ويوافقها من الموائد، فأعدّ بذلك ضيافة فاخرة عامة، مبيناً سخاء وإبداعا وكرماً لم يشهد له مثيل، حتى كأن كل مائدة من تلك الموائد قد امتلأت بمئات من لطائف الصنعة الدقيقة وآثارها، بما مَدّ عليها من نِعمٍ غالية لا تحصى.

ثم دعا أهالي أقطار مملكته ورعاياه، للمشاهدة والتنزه والضيافة، وعلّم كبير رُسُل القصر المكرّمين ما في هذا القصر العظيم من حكم رائعة، وما في جوانبه ومشتملاته من معان دقيقة، مخصصاً إياه معلماً رائداً وأستاذا بارعاً على رعيته، ليعلّم الناس عظمة باني القصر وصانع ما فيه من نقوش بديعة موزونة، ومعرّفاً لكل الداخلين رموزَه وما تعنيه هذه المرصعات المنتظمة والإشارات الدقيقة التي فيه، ومدى دلالتها على عظمة صاحب القصر وكماله الفائق ومهارته الدقيقة. مبيناً لهم تعليمات مراسيم التشريفات بما في ذلك آداب الدخول والتجول، وأصول السير وفق ما يرضي السلطان الذي لا يُرى إلاّ من وراء حجاب.

وكان هذا المعلم الخبير يتوسط تلامذته في أوسع دائرة من دوائر القصر الضخم، وكان مساعدوه منتشرين في كلٍ من الدوائر الأخرى للقصر.

بدأ هذا المعلم هذا بإلقاء توجيهاته إلى المشاهدين كافة قائلاً: (أيها الناس إن سيدنا مليك هذا القصر الواسع البديع، يريد ببنائه هذا، وبإظهار ما ترونه أمام أعينكم من مظاهر، أن يعرّف نفسه إليكم، فاعرفوه واسعوا لحسن معرفته.

إنه يريد بهذه التزيينات الجمالية، أن يحبب نفسه إليكم، فحببوا أنفسكم إليه، باستحسانكم أعماله وتقديركم لصنعته.

وهو يتودد إليكم ويريكم محبته بما يسبغه عليكم من آلائه ونعمه وأفضاله فأحبوه بحسن إصغائكم لأوامره وبطاعتكم إياه.

وهو يظهر لكم شفقته ورحمته بهذا الإكرام والإغداق من النعم فعظّموه أنتم بالشكر.

وهو يريد أن يظهر لكم جماله المعنوي بآثار كماله في هذه المصنوعات الجميلة الكاملة فأظهروا أنتم شوقكم ولهفتكم للقائه ورؤيته، ونيل رضاه.

وهو يريد منكم أن تعرفوا أنه السلطان المتفرد بالحاكمية

والاستقلال، بما ترون من شعاره الخاص، وخاتمه المخصص، وطرته التي لا تقلد على جميع المصنوعات.. فكل شيء له، وخاص به، صدر من يد قدرته.. فعليكم أن تدركوا جيداً: أن لا سلطان ولا حاكم إلاّ هو، فهو السلطان الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا مثيل)

هكذا خاطب هذا المعلم الكبير الداخلين للقصر والمتفرجين عليه، لكن الداخلين انقسموا إلى فريقين:

أما الفريق الأول.. فكان من أصحاب العقول النيرة، والقلوب الصافية المطمئنة، الذين أدركوا قدر أنفسهم.. كان هؤلاء حيثما تجولوا في آفاق ذلك القصر يسرحون بنظرهم إلى عجائبه، وهم يرددون: لابد أن في هذا شأناً عظيماً.. ولابد أن وراءه غاية سامية.. فعلِموا أن ليس هناك عبث، وليس هو بلعب، ولا بلهو صبياني.. ومن حيرتهم بدئوا يقولون: يا تُرى أين يكمن حل لغز القصر، وما الحكمة في ما شاهدناه ونشاهده؟!

وبينما هم يتأملون ويتحاورون في الأمر، إذا بهم يسمعون صوت خطبة الأستاذ العارف وبياناته الرائعة، فعرفوا أن لديه مفاتيح جميع الأسرار وحل جميع الألغاز، فأقبلوا إليه مسرعين، وقالوا له: السلام عليكم أيها الأستاذ.. إن مثل هذا القصر الباذخ ينبغي أن يكون له عرّيف صادق مدقق أمين مثلك، فالرجاء أن تعلّمنا مما علّمك سيدُنا العظيم.

فذكّرهم الأستاذ بخطبته المذكورة آنفاً، فاستمعوا إليه خاشعين، وتقبّلوا كلامه بكل رضى واطمئنان، فغنموا أيمّا غنيمة، إذ عملوا ضمن مرضاة سلطانهم، فرضي عنهم السلطان بما أبدوا من رضى وسرور لأوامره. فدعاهم الى قصر أعظم وأرقى لايكاد يوصف، وأكرمهم بسعادة دائمة، بما يليق بالمالك الجواد الكريم.

هذا حال الفريق الأول.. وهذا جزاؤه..

أما الفريق الثاني.. فكان أهله من الذين فسدت عقولهم، وانطفأت جذوة قلوبهم، فما إن دخلوا القصر، حتى غلبتْ عليهم شهواتُهم، فلم يعودوا يلتفتون إلا لما تشتهيه أنفسُهم من الاطعمة اللذيذة، صارفين أبصارهم عن جميع تلك المحاسن، سادّين آذانهم عن جميع تلك الارشادات الصادرة من ذلك المعلم العظيم، وتوجيهات تلاميذه.. فأقبلوا على المأكولات بشراهة ونهم، كالحيوانات، فأطبقت عليهم الغفلة والنوم وغشيهم السُكرُ، حتى فقدوا أنفسهم لكثرة ما أفرطوا في شرب ما لم يؤذن لهم به

فأزعجوا الضيوف الآخرين بجنونهم وعربدتهم، فأساءوا الادب مع قوانين السلطان المعظم وانظمته، لذا أخذهم جنوده وساقوهم الى سجن رهيب لينالوا عقابهم الحق، جزاءً وفاقاً على ما عملوا من سوء الخُلق)

حكى بديع الزمان هذه الحكاية، ثم التفت للأطفال الملتفين به، وقال: الى هنا انتهت القصة يا أبنائي.. وسأختبر ذكاءكم في معرفة العبر التي تختزنها.. فما يوحي إليكم القصر؟

قال طفل من الأطفال الملتفين به: إن القصر ـ سيدنا ــ يشير إلى هذا العالم الذي نعيش فيه.. فهذا العالم المسقف بهذه السماء المتلألئة بالنجوم، والمفروش بهذه الارض المزيّنة بالازهار المتجددة كل يوم.. ليس إلا قصرا بديعه بناه لنا ربنا العظيم.

قال بديع الزمان: وما توحي إليكم أوصاف ذلك القصر التي وصفتها لكم؟

قال طفل آخر: أما منازل ذلك القصر فقد فهمت منها تعدد العوالم التي تزينت كل منها وانتظمت بما يلائمها من مخلوقات الله.. وأما الصنائع الغريبة في ذلك القصر فهي معجزات القدرة الإلهية الظاهرة في عالمنا لكل ذي بصر وبصيرة.. وأما الأطعمة اللذيذة التي فيه، فهي عيون الرحمة الالهية التي تشاهد في كل مكان وفي كل زمان.. وأما ومطبخ ذلك القصر هو سطح الارض وقلبها الذي يتّقد ناراً.

قال بديع الزمان: وما يوحي إليكم ذلك السلطان العظيم صاحب القصر؟

قال طفل آخر: لاشك أنه يدلنا على الله تعالى.. فهو سلطان الأزل والأبد.. وهو الملك القدوس ذو الجلال والاكرام الذي : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)(الاسراء: من الآية44)

قال بديع الزمان: وما توحي إليكم تلك الكنوز الخفية؟

قال طفل آخر: أعظم الكنوز هي تجليات أسماء الله الحسنى المقدسة.

قال بديع الزمان: ومن ذاك المعلم الحكيم؟

قال طفل آخر: لاشك أنه سيدنا، وسيد الكونين محمد ﷺ.

قال بديع الزمان: فمن مساعدوه، ومن تلاميذه؟

قال طفل آخر: مساعدوه هم الانبياء ـ عليهم السلام ـ وتلاميذه هم الاولياء الصالحون، والعلماء الأصفياء.

قال بديع الزمان: فمن خدم ذلك السلطان؟
قال طفل آخـر: لاشـك أنهم الملائكـة الكـرام ــ عليهم الصـلاة والسلام.
قال بديع الزمان: فمن الذين دُعُوا إلى دار الضيافة؟
قال طفل آخر: إنهم نحن.. نحن البشر هم الذين استضافنا الله في هذا القصر الدنيوي.
قال بديع الزمان: فمن الفريقان؟
قال طفل آخر: أما أولهما، فهم أهل الإيمـان الـذين لم يرتضـوا لأنفسهم مائدة غير مائدة القـرآن.. وأمـا ثانيهمـا، فهم أهـل الكفـر والطغيان.. الصمّ البكم الضالون الذين اتبعوا أهواءهم والشـيطان، فما عرفوا من الحياة إلاّ ظاهرها، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.
قـال بـديع الزمـان: صـدقتم يـا أبنـائي.. ونجحتم في الاختبـار.. فاجتهـدوا أن تكونـوا من أصـحاب الفريـق الأول.. أولئـك الأبـرار السعداء الذين أنصتوا إلى المعلم العظيم والأستاذ الجليل.
ذلك الفريـق الـذي أدى الوظـائف المتنوعـة للعبوديـة في هـذا المسجد الأكبر المسمى بـدار الـدنيا، حـتى اتخـذوا صـورة أحسـن تقويم، واعتلوا مرتبةً تفـوق جميـع المخلوقـات قاطبـة، اذ أصـبحوا خلفاء أمناء في الأرض، بما أُودع فيهم من الإيمان والأمانة..
وبعد انتهاء مدة الامتحان والخروج من قبضة الاختبـار يـدعوهم ربهم الكـريم إلى السـعادة الأبديـة والنعيم المقيم ثواباً لإيمـانهم، ويرزقهم الدخول إلى دار السلام جزاء إسـلامهم، ويكـرمهم - وقـد أكرمهم - بنعم لا عين رأت ولا إذن سـمعت ولا خطـرت على قلب بشر، إذ المشاهد المشتاق لجمال سرمدي والعاشق الذي يعكسـه كالمرآة، لابد أن يظل باقياً ويمضي إلى الأبد.
هذه هي عقبى تلاميذ القرآن.. اللّهمّ اجعلنا منهم!.
أما الفريق الآخر وهم الفجار والأشرار الذين ما إن دخلوا قصر هـذا العـالم حـتى قـابلوا بـالكفر دلائـل الوحدانيـة كلهـا، واتهمـوا الموجودات كلها بالتفاهة وحقّروها بالعبثية ورفضوا تجليات الأسماء الإلهيـة على الموجـودات كلهـا، فـارتكبوا جريمـة كـبرى في مـدة قصيرة، مما استحقوا عذاباً خالداً.
قال ذلك، ثم التفت إلينـا، وقـال، وكأنـه يخـاطبني: فيـا نفسـي الحائرة.. ويا صديقي المغرم بالهوى.. أتحسبون أن مهمـة حيـاتكم محصـورة في تلبيـة متطلبـات النفس الأمـارة بالسـوء ورعايتهـا بوسائل الحضارة إشـباعا لشـهوة البطن والفـرج؟.. أم تظنـون أن

الغايـة من إدراج مـا أودع فيكم من لطـائف معنويـة رقيقـة، وآلات وأعضـاء حساسـة، وجـوارح وأجهـزة بديعـة، ومشـاعر وحـواس متجسسـة، إنمـا هي لمجـرد اسـتعمالها لإشـباع حاجـات سـفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟ حاشَ وكلا!!

ويا صـديقي الحميم، ويـا نفسـي الامـارة بالسـوء.. اسـتجمعوا عقولكم، ولا تهدروا رأس مال عمركم، ولا تبـددوا طاقـات حيـاتكم واستعداداتها لهذه الدنيا الفانية الزائلة، وفي سبيل لذة مادية ومتاع حيـواني.. فالعاقبـة وخيمـة، اذ تُـردّون الى دَرَكـةٍ أدنى من أخس حيوان، علماً أن رأس مالكم أثمن من أرقى حيوان!

***

بعـد أن بقينـا مـدة نسـتمع لحكمـة هـؤلاء الحكمـاء قـال لي المحاسبي: لاشك أنك تريد أن ترى تأثير هذه التعاليم في الواقع.

قلت: لقد طرقت ما في نفسي.. فأنا أشعر، وكأني أعيش في برج عاجي لا علاقة له بالواقع.

قال: تعـال معي.. وسـترى النفـوس المطهـرة، وكيـف تتحـول معها الحياة..

سرت معـه إلى محـال كثـيرة(1).. وقـد رأيت فيهـا من طهـارة النفوس وسماحتها ولطفها وجمالها ما لا يمكن التعبير عنه..

لقد رأيت مقابل كل صورة من الصور التي رأيتهـا من تلاميـذي صورة تنسخها وتمحوها..

وقد أيقنت من خلال كل ذلك أن الله وضـع نفس الإنسـان بيـد الإنسان.. وأن لذتها وسعادتها لا تتحقق إلا في اختياراتهـا الرفيعـة.. وأن حريتها الحقيقية لا تكمن إلا في عبوديتها.

قلنا: فقد أسلمت إذن؟

قال: لم يبق بيني وبين الإسلام إلا شـعرة واحـدة.. لكن لسـت أدري من قطعها.. وقد جئت هنا أبحث عمن يصلني بها.

قلنا: ألم تكن معهم؟

قال: بلى.. لقـد كنت معهم.. ولكـني في اليـوم الـذي أردت أن أكسر فيه الخراسانات المسلحة التي كانت تحول بيني وبين إعلان إسلامي لم أجد أحدا منهم.

قلنا: أين ذهبوا؟

قال: لقـد أجمـع جميـع من سـألتهم على أنهم جـاءوا إلى هـذه

1() انظر الشواهد الكثيرة المثبتة لهذا في رسالتي (أسرار الإنسان) و(أسرار الحيـاة) من هذه السلسلة.

البلاد ليقمعوا الفتنة التي تريد أن تستأصل دين محمـد من الأرض.. لكن قدري رماني إلى هذه الحفرة التي ترون.. فصار سبب حياتي هم سبب موتي.

خامسا ـ الأسرة

في اليوم الخامس، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنا عن حديثي.. اعذروني، لقد كنت مثل من سبقني أحمل أسماء كثيرة مستعارة صحبتني زمنا طويلا إلى أن التقيت النور والسلام والصفاء، فطلقت أسمائي جميعا.. وجئت إلى هذه البلاد أبحث عن اسم لي.

لقد كان آخر اسم لي هو (توماس روبرت مالتوس)(1).. لاشك أنكم تعرفونه..

إنه ذلك الرجل الذي بدأ بالدعوة إلى إبادة الأسرة وتفكيكها، لأن الميزانية التي تتطلبها ويتطلبها نسلها لن يكفيه ما وضع الله في الأرض من بركات(2).

وهو الرجل الذي أوحت أفكاره بعد ذلك للكثير من المجرمين بأن يبحثوا في الوسائل التي تجعل من المرأة مجرد متعة.. لا علاقة لها بالأسرة.. ولا علاقة للأسرة بها.

وهو الرجل الذي جعل من الوالدين فردين حريصين شحيحين

1()أشير به إلى توماس روبرت مالتوس (1766 ـ 1834م)، وهو اقتصادي بريطاني، اشتهر بمقالته عن مبادئ علم السكان سنة 1798م.. وتقوم فكرته الأساسية في هذا الكتاب على أن أعداد السكان في العالم تميل إلى الزيادة، بينما كميات الطعام تقل، كما كان يعتقد أن الحروب والأمراض ستفتك بالأعداد الزائدة من البشر، ما لم يتم تحديد النسل.

وأوحت مقالة مالتوس المذكورة إلى تشارلز داروين فكرة العلاقة بين التطوّر والبقاء للأصلح.. وفشلت تنبؤات مالتوس في التحقق خلال القرن التاسع عشر، حيث أمكن عن طريق وسائل الزراعة المتقدمة إنتاج الطعام الكافي لمعظم الناس.

وُلدَ مالتوس في مدينة سري ببريطانيا، وكان يرغب في أن يكون رجل دين، إلا أنه بعد تخرجه في جامعة كمبردج عمل أستاذًا للتاريخ والاقتصاد السياسي في كلية شركة الهند الشرقية عام 1805م وبقي في هذه الوظيفة إلى أن توفي.

2() ثبت بطلان هذه النظرية وما دعا إليه أصحابها، بل ثبت خلاف ما تدعو إليه هذه النظرية، فقد تضاعف سكان أوربا منذ أن أقدم (مالتوس) على نظريته عدة مرات، ومع ذلك لم تصب إنكلترا، ولا أوربا، ولا الولايات المتحدة بالمجاعات التي كان ينذر بها (مالتوس). بل على العكس من ذلك زاد الإنتاج زيادة رهيبة، حتى إن الفائض من الطعام في أوربا والولايات المتحدة بلغ جبالاً من القمح والجبن واللحم، وأنهاراً من اللبن والزبد. ومن أجل ذلك، قامت حكومات هذه الدول بحرق الفائض أو رميه في البحر؛ حتى لا ينخفض السعر في السوق العالمي!!!.

ولأجل ما سبق، أصبحت كثير من الدول تدعو إلى زيادة النسل والإنجاب وتحث عليه، وتزيل الأسباب التي تعوق ذلك.

فهذه إيطاليا تصدر قانوناً ضد منع الحمل المراقب، فقد صدرت رسالة بابوية عام (1968م) تمنع ذلك. وهذه إسبانيا تحظر بيع وسائل منع الحمل. وهذه ألمانيا تحذر من انقراض الألمان في القرن القادم - أي القرن الحالي-، إن لم يحصل توازن بزيادة عدد المواليد.

وهذا الرئيس اليوناني يحض على إنجاب المزيد من الأبناء؛ لإقامة قوات مسلحة ضخمة لمواجهة القوات التركية وتهديداتها، وهذه زوجة رئيس فرنسا اختارت الأمهات المثاليات - على مستوى الدولة - من اللواتي أنجبن نحو ثلاثة عشر مولوداً.

ينظـرون إلى أولادهمـا كمـا ينظـرون إلى اللصـوص والشـحاذين والمجرمين.

وهو الرجل الذي ملأنا بالأنانية والحرص.. ونزع منا كـل عاطفـة إنسانية.. بـل كـل عاطفـة في الكائنـات الحيـة الـتي تضـحي فيهـا الأمهات والآباء بأنفسها من أجل أولادها(1).

الصراع

هذا هو الرجل الذي سميت باسمه..

لقد صبت علي جميع لعناته منذ رأيت النـور المختلـط بـالظلام في هذا الوجود، بل قبل ذلك..

لقد حدثتني أمي الـتي طـرحت جميـع جلابيب حيائهـا عن ذلـك اليوم الذي أتاها والدي فيه، قبل أن يقترنا بذلك العقد المزيـف من عقــود الــزواج، وطلب منهــا أن تلقيــني من بطنهــا إلى مزابــل واشنطن..

لم يكن بيني وبين مزابـل واشـنطن في تلـك الأيـام إلا خطـوة واحدة.. وهي خطوة قدر لا خطوة تكليف..

لقد توفيت زوجة والدي.. ولست أدري كيف.. ربمـا تكـون أمي هي التي قتلتها، فقد كانت زوجة أبي هي الحجاب الذي حـال بينهـا وبين أن تقترن بأبي.. وكان فوق ذلك هـو السـبب في إصـرار أبي على أن ترميني أمي في مزابل واشنطن.

قلنا: لم نفهم كل ما تـذكره.. فمن كـانت أمـك إن لم تكن هي عينها زوجة أبيك؟

قال: لا.. لقد كان أبي ـ كما كان أكثر قومنا ــ زيـر نسـاء.. ولم يكن القانون ـ كما لم يـزل ــ يـراعي هـذه الناحيـة فيـه.. فلم يكن القانون ـ كما لم يزل ـ يـبيح تعـدد الزوجـات.. فلـذلك كـان الرجـل غاليا بين النساء.. وبما أن أبي لم ير أمي إلا بعـد اقترانـه بزوجتـه، ولم تملأ قلبه الممتلئ بالشـهوات إلا بعـد ذلـك الاقـتران، فقـد راح يتخذها خليلة بعد أن حيل بينه وبين أن يتخذها زوجة.

قلنا: فلم لم يطلق زوجته، ويقترن بأمك؟

قـال: لقـد كـان رجلا ينتمي إلى عائلـة محافظـة لهـا علاقـة بالكنيسة.. وأنت تعلم موقف الكنيسة من الطلاق (2)..

1() انظر في هذا كتابا رائعا لهارون يحي عنوانه (التضحية عند الكائنات الحية)

2() ظل الطلاق محرماً في ظل الكنيسة زمناً طويلاً حتى حدث الانفصام بين الكنيسة والدولة فأباحت التشريعات الوضعية الطلاق ثم تبعتها بعض الطوائف المسيحية، أما تعدد

لقد أخبرني الثقاة أن أبي ذهب في تلك الأيـام إلى صـاحب لـه من رجال الدين، واعترف بين يديه، وامتلأت عينـاه بالـدموع، وهـو يعترف له، وبعدها طلب منه أن يحل له هذا الإشـكال الـذي وقعت فيه حياته، وهذا الصراع الذي دب إلى نفسه.

لقد كان بين أمرين، كلاهما لا تبيحه الكنيسة: أمـا أولهمـا، فهـو أن يقترن بالثانية كما اقترن بالأولى، فيلبي مقتضيات نفسه وقلبـه، كما يلبي ما تطلبه منه أمي ـ أي معشوقته ـ كل حين.. وأما الثاني، فأن يطلق زوجته ليقـترن بـأمي اقترانـا شـرعيا يجعـل من ولـده ـ الذي هو أنا ـ ولدا شرعيا معترفا به عند الجميع.

ما قال هذا حتى انتفض رجل الدين في وجهه انتفاضة عظيمة، وقال: ما هذه الهرطقات التي تتحدث بها..

قال أبي: أنا ما فعلت إلا أن شكوت إليك حالي، واعـترفت بين يديك، ثم ذكرت لك ما توهمته من حلول.

قال: إن كلا الحلين اللذين ذكرتهمـا همـا حـل أهـل الهرطقـة.. أولئك الذين يتبعون المارق الذي يقال له (محمد).. أمـا نحن.. نحن الذين شرفنا بالمسيح.. المسيح الذي صلب من أجلنا ليخلصـنا من خطايانا.. فلا نقبل تلك الحلول.

لقد قال لنا المسيح لنا :(من بدأ الخليقـة ذكـراً وأنـثى خلقهمـا الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق (ويلـزم) بامرأتـه ويكون الاثنان جسداً واحداً إذ ليسا بعد اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لايفرقه الإنسان)(متى : 19 / 4 - 5)

***

كان أبي ـ رغم كونه زير نساء ـ على علاقة بالكتـاب المقـدس، باعتباره في الأصل سليل رجال كثيرين من رجال الكنيسة، ولـذلك راح يبحث في الكتاب المقدس لعله يجد ما يحل له مشكلته.. وكم كان فرحه عظيما حينما وجد فيه أن إبراهيم كان متزوجاً من سارة وهاجر وقطورة، وكان له مع ذلك سرارى كثـيرة لقولـه :(أمـا بنـو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصـرفهم عن إسحاق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق وهو بعد حى) (تكوين 25 : 6)

ووجد فيه أن موسى كان متزوجاً من مديانية وحبشية (عدد 12 : 1)

النسـاء فإنـه مـازال محرمـاً وإن نظـرت إليـه بعض الطوائـف على أنـه مبـاح ومـا زالـوا يمارسونه بشكل سري في بعض الولايات الأمريكية.

ووجد فيه أن يعقوب كان متزوجاً من حرتين وأمتين، وهما ليئة وراحيل وزلفة وبلهة، كما في (تكوين: 29 وما بعده)

ووجد فيه أنه كان لداود نساء هن: أخينوعم اليزرعبلية وأبيجايل ومعكة وحجيث وأبيطال وعجلة.. هؤلاء ستة.. ويضاف إليها بشبع امرأة أوريـاالحثى الـتى أنجب منهـا سـليمان، كمـا في (صـموئيل الثانى 3: 1ـ5)

ووجد فيه أنه كان لسليمان (سبع مائـة من النسـاء السـيدات، وثلاث مائة من السرارى)، كما في (الملوك الأول 11: 3)

بل لم يجد فيه فوق ذلك كله أي نص من نصوص التوراة تحرم الـتزوج بأزيـد من امـرأة واحـدة، ولـو كـان حراماً لصـرح موسـى بحرمته، كما صرح بسائر المحرمات وشدد في إظهار تحريمها، بل وجد أن نصوص التوراة تفيد جوازه من مواضـع.. ففيهـا أن الأبكـار التي كانت من غنيمة المديانيين، كانت اثنتين وثلاثين ألفاً، وقسمت على بني إسرائيل، سواء كانوا ذوي زوجات أو لم يكونوا، ولا يوجـد فيه تخصيص العزب.

بل وجد في الباب الحادي والعشـرين من سـفر الاسـتثناء هـذا النص:(وإذا خرجت إلى القتال مع أعـدائك وأسـلمهم الـرب إلهـك في يـدك وسـبيتهم ورأيت في جملـة المسـبيين امـرأة حسـنة وأحببتها، وأردت أن تتخذها لك امرأة، فأدخلها إلى بيتك وهي تحلق رأسها وتقص أظفارها، وتنزع عنها الرداء الـذي سـبيت بـه وتجلس في بيتك وتبكي على أبيها وأمها مـدة شـهر ثم تـدخل إليهـا وترقـد معها ولتكن لك امرأة، فإن كانت بعد ذلك لا تهواها نفسك فسرحها حرة ولا تستطيع أن تبيعها بثمن ولا تقهرها أنك قد ذليتها، وإن كان لرجل امرأتان الواحدة محبوبة والأخرى مبغوضة ويكون لهمـا منـه بنون وكان ابن المبغوضة بكراً، وأراد أن يقسم رزقه بين أولاده فلا يسـتطيع يعمـل ابن المحبوبـة بكـراً ويقدمـه على ابن المبغوضـة، ولكنه يعرف ابن المبغوضة أنه هو البكر ويعيطه من كل ما كان لـه الضعف من أجل أنه هو أول بنيه ولهذا تجب البكورية)[1]

ثم قرأ أبي في بعض الصحف[2] أن أستاذة لاهـوت في جنـوب إفريقيا دَعَتْ إلى السماح للبيض بتعدد الزوجات، لمواجهـة ارتفـاع معدل الطلاق في البلاد، وهو من أعلى المعدلات في العالم، وقـرأ أن الأستاذة (لاندمان) قالت :(ليس هناك سوى عدد محدود للغاية

1() ذكرنا تفاصيل موقف الكنيسة والمسيحية من التعـدد بتفصـيل في رسـالة (النـبي المعصوم) من هذه السلسلة.

2() صحيفة الحياة في العدد (13099).

من الرجال في العالم، فقد قُتِل بعضهم في الحروب، والآن حان الوقت كي تختار المرأة زوجاً من بين الرجال المتزوجين، وأن تتفاوض مع زوجته على أن تُصبح فرداً من أفراد أسرته)

بل وجد أن هذا الموقف لم يتبناه جميع المسيحيين، فقد ظهر منهم رجال دين يبيحون الزواج مرة ثانية وثالثة ورابعة، بل ويبيحون الجمع بين أكثر من زوجة، ومن هؤلاء فرقة الان نابتست Ananabaptistes، والمورمون Mormons.. وهؤلاء ظلوا يمارسون التعدد حتى أوائل القرن التاسع عشر.. بل ظهرت دعوات من المفكرين والعلماء تدعو إلى إباحة التعدد الزوجات، وبخاصة بعد أن عانت أوروبا من نقص شديد في عدد الرجال نتيجة للحربين العالميتين التي قتل فيهما أكثر من ثمانية وأربعين مليون رجل.. وكذلك لانتشار الفواحش وزيادة عدد اللقطاء، ومن هؤلاء بول بيرو Boul Bureou، وفرديناند دريفوس Ferdinand Dryfus، و بن لندسي Ben Lindsey، وغيرهم..

وفوق ذلك وجد من يبين له حقيقة مقصد المسيح عندما قال : (من بدأ الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق (ويلزم) بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً إذ ليسا بعد اثنين بل جسد واحد، فالذي جمعه الله لايفرقه الإنسان)

لقد قال له هذا الرجل: إن هذه العبارة ليس فيها أي منع للتعدد، بل غاية الكلام هنا منع الطلاق لا غير.. وهذا ما سأله الفريسيون من البداية، فقد ورد هكذا النص كما في متى (19 : 3 -ـ 5): (وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: هل يحل للرجل ان يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم: أما قرأتم ان الذي خلق من البدء خلقهما ذكرا وانثى، وقال: من اجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدا واحدا)

هذا ما عناه المسيح، فكما أن إتحاد الرجل بزوجته ليس حقيقياً بل مجازاً فكذلك من الممكن بكل سهولة أن يكون اتحاده بامرأة أخرى ويصيرا جسداً واحداً أيضاً.

حمل أبي كل هذه النصوص.. وسار بها إلى الكنيسة لكنه اصطدم برجل يقال له (القس شروش).. سمعه يعظ في الكنيسة يقول:(يسوع أعلن أن الذي خلقهم من البدء خلقهم رجلاً و امرأة، و لو أراد الله الرجل أن تكون له أربع زوجات لخلق من البدء أكثر من حواء)

حاول أبي أن يقنعه.. فلم يقتنع.. سار إلى كنيسة أخرى فسمع واعظها (القس سويجارت) يقول مفاخراً بتشريع الكنيسة في قصر الزواج على واحدة : (المسيحية تسمح لنا بواحدة فقط، و لذلك ارتضي أفضلهن من أول قذيفة)

***

انتقل أبي يبحث في الحل الثاني، وكان أسوأ الحلين عنده.. فلم يكن يرضى أن يطلق زوجته الأولى.. لكنه بفعل سحر أمي راح يبحث في النصوص التي تبيح له أن يطلقها.

وكم كانت فرحته شديدة عندما قرأ في الكتاب المقدس.. وفي سفر التثنية هذا النص : (إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ فَإِنْ أَبْغَضَهَا الرَّجُلُ الأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلاَقٍ وَدَفَعَهُ إِلى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ أَوْ إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ الأَخِيرُ الذِي اتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً لا يَقْدِرُ زَوْجُهَا الأَوَّلُ الَذِي طَلَقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذَهَا لِتَصِيرَ لهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ) (تثنية 24: 1-4)

وكانت فرحته أعظم عندما وجد اليهود الذين نزلت هذه الشريعة عليهم لا يزالون يبيحون الطلاق (1)..

أخذ هذه النصوص معه.. وأخذ معها قول المسيح ــ كما في (متى: 5 /ـ 17 ـ 19) ــ:(لا تظنوا أني جئت لانقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فاني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى اصغر في ملكوت السموات، وأما من عمل وعلّم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السموات)

أخذ هذه النصوص، وذهب إلى بعض القسيسين يترجاهم أن يطلقوا زوجته، لأجل أن يتزوج عشيقته.. فواجهوه جميعا بما ورد في متى على لسان المسيح عندما سأله اليهود عن الطلاق فقال : (وقيل من طلق إمرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا

1() ذكر المسيري في موسوعته عن اليهودية بأن الطلاق يتم حسب الشريعة اليهودية في محكمة حاخامية.. وتنتهي الإجراءات بأن يعطي الرجل زوجته قسيمة طلاق تُسمَّى في التوراة «سفير كيرتوت» أي كتاب الطلاق (تثنية 24/3)، وتُسمَّى في التلمود «جيط»، ويكون في حضور شهود أو أمام محكمة شرعية (بيت دين). وتتلخص وظيفة المحكمة في التأكد من أن الإجراءات تتفق مع القانون الديني، ولا تتنافى معه، ثم يسجل كاتب المحكمة الطلاق، ويعطي نسخة من القسيمة لكل من الزوجين.. والطلاق، حسب الشريعة اليهودية، من حق الرجل، يمارسه متى أراد. (انظر: الموسوعة اليهودية)

فأقول لكم : ان من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تـزنى، ومن تزوج مطلقه فإنه يزنى) (متى 5 : 31).. ولما اعترض اليهود عليه قائلين : (فلماذا أوصـى موسـى أن يعطى كتـاب طلاق فتطلـق؟) قال المسيح لهم : (إن موسى من أجـل قسـاوة قلـوبكم أذن لكم أن تطلقوا النساء.. لكن من البدء لم يكن هذا) (متى)

صاح فيهم: فما الحل؟.. لقد تعلق قلبي بالمرأة الأخـرى.. فمـا أفعل؟

قال له بعض الرهبان: أقوم حل لك يا أخي إذا أردت أن تـدخل الملكوت هو أن تتخلص من الرغبة في النساء.

قال أبي: كيف.. دلني..

قال الراهب: لقد قال المسيح يعلمنا ذلك : (لأنه يوجد خصيان ولدوا هكـذا من بطـون أمهـاتهم، ويوجـد خصـيان خصـاهم النـاس ويوجــد خصــيان خصــوا أنفســهم لأجــل ملكــوت الســموات، من استطاع أن يقبل فليقبل) (متى:19/12)

قال له أبي: أنا لا أطيق ذلك..

قال له بعض القسيسين: فاترك زوجتك زوجـة.. واتخـذ الثانيـة عشيقة.. وإن شئت أن تضم إليها غيرها فافعل.

قال أبي: ولكن الشريعة تحرم الزنا..

قال القسيس: أترى أنك أطهـر من الأنبيـاء.. ألم تقـرأ أن داود لم يكن ينام إلا فى حضن امـرأة عـذراء: (ملـوك الأول 1:ـ 1-4).. وأن رب الأرباب سلم أهل بيت داود للـزنى (صـموئيل الثـانى 12: 11-12)، وأن ابن داود زنى بأختـه (صـموئيل الثـانى: 13).. وأن رأوبين زنى بزوجــة أبيــه بلهــة (تكــوين 35:ـ 22 ؛ـ 49).. وأن شمشون ذهب إلى غزة ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها (قضاة 16:ـ 1)، وأن حزقيال شجع النساء على الزنى والفجور (حزقيـال 16: 33-34).. وأن..

سار أبي بهذه الرخصـة الـتي أعطـاه إياهـا رجـال الـدين تاركـا القسس يعدد الأدلة على إباحة الزنا..

لكن أمي لم ترتض أن تظل مجرد عشيقة.. فلـذلك عملت في الخفاء ما عملت لتتحول إلى زوجة.. وزوجة وحيدة تستأثر بأبي.

***

بهذه المأساوية تبدأ حياة والدي.. وليس عند هـذا الحـد تنتهي.. فــالآلام الــتي عشــتها لا تكــاد تنتهي.. ولــذلك رأيت من إخــواني وأخواتي ـ الذين لا أدري هـل هم إخـواني فعلا، أم لا مـا ملأ حيـاتي

بالصراع.

قال رجل منا: كيف تقول هذا؟.. أتشك في إخوانك؟

قال: لست الوحيد الذي شك في ذلك.. الكل عندنا يشك في ذلك.. حتى أبي كان يشك في كون إخواني أولادا له.. لقد ولدوا بعد فترة طويلة من زواجه.. وفي تلك الفترة كان الصراع بينه وبين أمي قد بلغ أشده.. فقد اتخذ أبي من الخليلات ما شغلنه عنا.. ولولا أنه كان يجد عند أمي من المال والسكن ما عاد إلينا..

وكانت أمي لتحمي نفسها من الجنون الذي كاد يلم بها في تلك الفترة قد التجأت إلى الخمر تحتسيها كما تحتسي المياه.. وظلت تحتسيها حتى أدمنت عليها.. وكانت تخرج أحيانا فترات طويلة من الليل والنهار لا نراها ولا نعلم ماذا فعلت في خروجها..

المهم أننا لم نكن نعرف إلا شيئا واحدا هو أنها كانت تنتقم من أبي بالطريقة التي أملى عليها شياطيها أن تنتقم بها.

***

قلت: حدثتنا عن أمك.. فحدثنا عن إخوانك الذين تشك في أخوتهم لك.

قال: لقد كاني لي أختان وأخوان.. وكانوا جميعا هم الانتقام الإلهي الذي أرسله الله على أبي وأمي..

قلت: كيف؟.. وهل يمكن للولد أن يكون نقمة على والديه؟

قال: في مجتمعاتنا لا يكون إلا ذلك.. فنحن في جميع مصادر فكرنا لا ننهل إلا من المنابع التي تغذي فينا العقوق.. ليس على آبائنا فحسب.. بل على كل شيء.. حياتنا كلها تعتمد على التمرد والصراع.. ولا يمكن أن نخلي والدينا من هذا الصراع.

قلنا: فحدثنا عن إخوانك.

قال: أما **أولهم**.. وكان أصلح إخواني.. فقد كان متوجها توجها دينيا، ولكنه كان مع ذلك ممتلئا بالعقوق.. وقد كان يبرر عقوقه بما يجده في الكتاب المقدس من دعوة مباشرة أو غير مباشرة للعقوق.

وكان يصيح فينا كل حين بقوله ـ كما في (لوقا14: 26) ـ:(إِنْ جَاءَ إِلَيَّ أَحَدٌ، وَلَمْ يُبْغِضْ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَزَوْجَتَهُ وَأَوْلاَدَهُ وَإِخْوَتَهُ وأَخَوَاتِهِ، بَلْ نَفْسَهُ أَيْضاً، فَلاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ تِلْمِيذاً لِي)

ويصيح بما صاح به المسيح:(لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلقي سَلاماً عَلَى الأَرْضِ.. مَا جِئْتُ لأُلقي سَلاَماً، بَلْ سَيْفاً.. فَإِنِّي جِئْتُ لأَجْعَلَ الإِنْسَانَ عَلَى خِلاَفٍ مَعَ أَبِيهِ، وَالْبِنْتَ مَعَ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ مَعَ حَمَاتِهَا)

(متى: 10 : 34)
بل جعلتموه يقـول :(جِئْتُ لأُلْقِيَ عَلَى الأَرْضِ نَـاراً، فَلَكَمْ أَوَدُّ أَنْ تَكُونَ قَدِ اشْتَعَلَتْ؟) (لوقا 12 : 49)

***

وأما أخي الثاني، فقد كـان على عكس أخي الأول.. كـان شـابا شيوعيا ملحدا لا علاقة له بالدين.. ولا علاقـة لـه بـالأخلاق.. وفـوق ذلك كان من المثليين.. بل كان من دعاتهم الكبار..

لقد كان يحمل جنسية هولندية(1).. وقـد سـعى مـع رفاقـه لأن يقـر البرلمـان الهولنـدي تشـريعًا يسـمح بـزواج الشـواذ، ويعـترف بحقهم في كل ما يتصل بالزواج الحقيقي..

وقد استطاع مع رفاقه الشواذ أن يعقد في العاصمةُ الهولنديــة (أمستردام) أولَ زواج رسمي بين الشواذ في العالم، وسط حضور وزراء الحكومة والمواطنين الهولنديين، بالإضافة إلى إذاعة الــزواج على الهواء مباشرة.

***

قلنا: حدثنا عن أخويك.. فحدثنا عن أخواتك.

قال: أما أختي الأولى.. فقد كان اسـمها (سـيمون دي بوفـوار) (2)، فقد كان لها من التحرر ما عمقت به الهوة التي كانت تعيشــها أسرتنا، وقد انتمت إلى بعض حركـات تحريـر المـرأة الـتي نشـأت في الستينات، والتي بدأت بالمطالبة بضمانات قانونيـة للمـرأة في مجـال ظـروف العمـل والحقـوق السياسـية تحت شـعار (تحريـر المرأة من سلطة الرجل)

1() المعلومات التي نذكرها هنا منقولة من مقال بعنوان (الانهيـارُ الاجتمـاعي يعصـف بالمجتمع الغربي) في موقع الألوكة.

2() أشير به إلى (سيمون دي بوفوار)، ولدت عام 1908 في باريس لعائلة برجوازيـة، والدها كان محاميا خسر أملاكه في الحرب العالمية الأولى.. أما أمها فعملت على تلقينها هي وأختها الصغرى مبادئ الكاثوليكية، والتي ما لبثت دي بوفوار أن أعلنت كفرها بها.

درست الفلسفة في جامعة (أكول نورمال سوبراير) وكانت جامعة تضم الـذكور فقـط حينها، وفي عام 1929 تعرفت على جان بول سارتر الـذي كـان وقتهـا طـالب في قسـم الفلسفة، ونشأت قصة حب بينهما استمرت حتى وفاة سارتر عام 1980، لكن بـدون أن يلتزما بالزواج.

في الأعوام 1931-ـ 1943 درست بوفـوار الفلسـفة في ثانويـات مختلفـة في إرجـاء فرنسا. في الأعوام 1941-ـ 1943 عملت كبروفيسور (أستاذه جامعيـه) في السـوربون. عـام 1943 نشـرت روايتهـا الأولى (المـدعوة)،. هـذه الأعـوام كـانت مهمـة في صـقل شخصيتها كفيلسوفة ومفكرة، لاسيما في المجال النسوي. في عام 1981 كتبت (مباركة الانفصال عن سارتر)، وبه وصف صعب للسنوات الأخيرة التي عاشـها سـارتر. تعتـبر دي بوفوار أماً للتيار النسوي ما قبل عام 1968، وقد اشتهرت بصـورة خاصـة بفضـل كتابهـا (الجنس الآخر) الذي نشرته عام 1949. تـوفيت بوفـوار في بـاريس عـام 1986 ودفنت إلى جانب جان بول سارتر.

لكنها في غمرة انتصاراتها لم تكتف بذلك، بل تحولت إلى استخدام مفهوم جديد من (الأنثوية)، أو (النسوية) أو (النسوانية)، أو كما نعبر عنه في بلادنا (Feminism)

لقد مارست هذه الأخت المتمردة كل ما لقنوها إياه من دروس لم تزد إلا في تفكك أسرتنا.. لقد كانت كل حين تصيح فينا بأنها الأفضل.. وأنها ترفض رفضا مطلقا ما تسميه (السلطة الأبوية)، وكانت تذكر لنا كل حين أن المجتمعات الإنسانية كانت في البداية أمومية، ثم استولى عليها الرجال.

بل إن التمرد وصل بها إلى درجة الوقاحة فذكرت لنا أن المرأة يمكنها أن تستغني عن الرجل في كل شيء حتى في العلاقات الجنسية.. وقد أدى ذلك بها إلى أن تقع أسيرة لنوادي المثليات.

ولم تكتف أختي بالخراب الذي سببته لأسرتنا.. بل راحت ـ مع أعضاء حركتها ـ ترحل إلى العالم أجمع لتبشر بالتخلص من عبء الأسرة، والدعوة إلى (أن النظام الأسري ضد طبائع البشر)

وقد تحقق لأختي وللحركة التي تنتمي إليها الكثير من المطالب.. لقد أقنعوا المجتمعات المختلفة أن هذا السلوك الذي يمارسونه من قضايا حقوق الإنسان التي ينبغي أن تثار كل الصراعات من أجلها.

بل قد استطاعوا أن يقنعوا الكثير من مجموعات ذلك العالم الذي لا يعرف إلا استهلاك بضائعنا بجدوى ما يدعون إليه من قيم، وهي قيم ومبادئ لا تدعو إلا للشذوذ والسلوك الاجتماعي المنافي للطبيعة.

والأخطر من كل ذلك هو أن حركتها بدأت في تبني هذه المفاهيم والمبادئ النسوانية وصياغتها في وثائق رسمية تضفي عليها الصفة القانونية والشرعية، لتحاول بعد ذلك أن تصنع منها قضية دولية.

بل إنها في غمرة سعيها لاعادة تحديد المفاهيم المرتبطة بدور الرجل والمرأة داخلها، طالبت بمخاطبة الله عز وجل بضمير (هي) معتبرة أن مخاطبة الخالق بضمير المذكر فقط إهانة للنساء وتحقير من شأنهن.

لقد كانت من نتائج تلك الصيحات الشيطانية أن تخرب بنيان الأسرة في بلادنا، وفي بلاد كثيرة.. فتلك الحركات التحررية لم تجعل من المرأة عندنا معولاً لهدم أسرتها فقط، وإنما جعلتها معولا لهدم مقومات مجتمعها من الأساس.

وقد ظهر نتيجة لذلك أشكال شاذة من التعايش بين امرأة وامرأة، أو بين رجل ورجل وحتى بين أكثر من رجل وامرأة، بل إن بعض الدول الإسكندنافية أضفت جميعها شرعية قانونية على مثل هذه الأشكال، وسمحت لهؤلاء الشواذ بتبني الأطفال وتنشئتهم وسط هذا العبث الإنساني غير الأخلاقي.

سكت قليلا، ثم قال: نعم.. ليست كل الأسر حصل لها ما حصل لهؤلاء.. ولكن القوة التي ينتشر بها هؤلاء لا تبشر إلا بالخراب العظيم الذي ينتظر البشرية..

لقد بدأت أمارات هذا الخراب تظهر على الأسر عندنا.. فلم يبق ذلك الزواج التقليدي الذي تباركه الكنيسة.. والذي يتم بين رجل وامرأة كما اعتادت البشرية منذ نشأتها.. إلا في بيئات محدودة.. لقد حل محله شكل قانوني جديد يفرغ مؤسسة الزواج من مضمونها بشكل مدهش، فبدلاً من الزواج الكنسي أو حتى المدني الذي يفرض على طرفيه تبعات قانونية يضيق بها كلاهما، ظهر عندنا شكل جديد من العلاقة بين الرجل والمرأة ضمن ما يسمى بزواج العقود، وهو ليس زواجاً من الأساس إلا أن طرفيه يلجآن إليه لتنظيم توزيع النفقات ومسئوليات الحياة اليومية بين طرفين غالباً ما يكونان قد تعاشرا لمدة سابقة معاشرة الأزواج، ولكن دون أن يتم تسجيل هذه العلاقات على أنها علاقات زواج قد تؤدي عند الانفصال مثلاً إلى اقتسام ثروة الطرفين بالتساوي كما هو متبع عند الطلاق من زواج كنسي أو مدني.

***

قلنا: فحدثنا عن أختك الثانية.

قال: لقد اشتغلت المسكينة في بعض دور السينما(1).. وقد عاشت حياتها جميعا منشغلة عن نفسها وعن أهلها.. وقد انتهت في الأخير إلى مصحة نفسية..

لا أزال أذكر جيدا اليوم الأول والأخير الذي زرتها فيه قبل أن تنتحر..

لقد كانت تردد، وهي تحت تأثير الأقراص الكثيرة المخدرة التي شربتها: أهلا (بريجيت باردو).. أهلا بالممثلة الفرنسية المشهورة.. ألست أنت الذي قال لك الصحفي: لقد كنتِ في يوم من الأيام رمزاً للتحرر والفساد.. فأجبته قائلة: هذا صحيح كنت كذلك، كنت

1()استدفنا المعلومات عن الفنانات الواردة هنا من كتاب (التوبة وظيفة العمر) للشيخ محمد الحمد.

غارقــة في الفســاد الــذي أصــبحت في يــوم مــا رمــزاً لــه.. لكن المفارقة أن الناس أحبوني عاريــة، ورجمــوني عنــدما تبت.. عنــدما أشاهد الآن أحد أفلامي السابقة فإنني أبصق على نفســي، وأقفــل الجهاز فوراً، كم كنت سافلة.

ثم التفتت إلى جهة أخرى، وقالت: أهلا (مــارلين مــونرو).. أهلا بممثلة الإغراء الأمريكية التي تعد أشهر ممثلــة في تــاريخ هوليــود.. ألست المرأة التي قيل عنها: (إنها أســطورة هوليــود الــتي لا يخبــو نورها، ولا ينطفىء وهجها، ولا ينقطع الحديث عنها)

لقد كنت أظن أنك فارقت الحياة منذ سبعة وثلاثين عاماً.. كيف ظهــر لــك أن تعــودي.. حــدثيني عن ســبب وفاتــك.. فقــد مت في ظروف غامضة..

لقــد ذكــر المحققــون أنهم وجــدوك جثــة هامــدة في منزلــك، واكتشف المحقــق الــذي تنــاول قضــيتك أنــك مت منتحــرة، ووجــد رسالة محفوظة في صــندوق الأمانــات في مانهــاتن في نيويــورك، وجهتهــا إلى فتــاة تطلب نصــيحة منــك عن الطريــق إلى التمثيــل.. قلت فيها تخاطبينها وتخاطبين كل من ترغب العمــل في الســينما: (احذري المجد، احذري كل من يخدعك بالأضواء؛ إني أتعس امرأة على هــذه الأرض؛ لم أســتطع أن أكــون أمــاً، إني أفَضِّــل الــبيت، والحيــاة العائليــة الشــريفةَ على كــل شــيء، إن ســعادة المــرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة، بــل إن هــذه الحيــاة العائلية لهي رمز سعادة المرأة، بل الإنسانية)

وقلت في نهاية الرسالة : (لقد ظلمني الناس، وإن العمــل في السينما يجعل المرأة سلعة رخيصــة تافهــة مهمــا نــالت من المجــد والشهرة الزائفة.. إني أنصح الفتيات بعدم العمل في السينما وفي التمثيل؛ إن نهايتهن إذا كن عاقلات كنهايتي)

التفت إلى جهة أخرى، وقالت: أهلا بالفنانــة الإيطاليــة العالميــة (داليدا).. أهلا بالفنانة التي وصلت مبيعــات أغانيهــا إلى 85 مليــون اســطوانة، والــتي غنت 400 أغنيــة بالفرنســية، و 200 أغنيــة بالإيطالية، و 20 أغنيــة بلغــات مختلفــة منهــا الألمانيــة، والأســبانية، واليابانية، والعربية.. أهلا بالتي حصدت الجوائز العالمية.. أهلا بالتي تركت للدنيا أغاني كثيرة، خلفت ثــروة تقــدر بــأكثر من 30 مليــون فرنك فرنسي..

أجيبيني.. هل عشت حياة سعيدة رغم كل تلك الثروة والجاه ؟

لقد علمت أنك لم تؤسسي أسرة، ولم تنجبي طفلاً، أو طفلــة،

مع أن الإنجاب كان حلم حياتك.
وقد علمت ـ فوق ذلك ـ أنـك كنت مدمنـة للمخـدرات، تلجـئين إليها كل حين للخلاص من الاكتئاب، والوحدة، والعذاب النفسي.
وقد علمت ـ فوق ذلك كله ـ أنك حاولت الانتحار عام 1967م، محاولة اللحاق بحبيبك (لويفي تانكر) الذي قتـل نفسـه بمسدسـه، فلم تطيقي العيش من دونـه، فتجـرعت مـواد سـامة؛ رغبـة في الانتحار، ولكن محاولتك باءت بالإخفاق في المـرة الأولى.. ولكـني صممت ونجحت أخيرا.. وقـد تـركت ورقـة كتبت فيهـا : (الحيـاة لا تحتمل، سامحوني؛ الحياة أصبحت بالنسبة لي مستحيلة)
التفت إلى جهة أخرى، وقالت: أهلا بالفنانة الأمريكية الشـهيرة، التي نالت من المال والشهرة والانطلاق ما جعلها أشـهر فنانـة في هذا العصر.. الفنانة العظيمة (مادونا).. هل تعلمين أن شـهرتك قـد طبقت الخـافقين؟.. وأن ثروتـك لا يمكن تقـديرها.. أجيبيـني.. هـل وجدت الراحة والاستقرار؟
لقد سمعت أنك صـرحت بأنـك تعيشـين حالـة اكتئـاب عميـق، وذلك بعد أن اكتشفت أنه لم يبـق بينـك وبين سـن الأربعين سـوى ثلاث سنوات، ذلك السـن المتعـارف عليـه لـدى الأطبـاء بأنـه آخـر فرصة للإنجاب بالنسبة للمرأة دون مشكلات.
وسمعت بأنك صرحت لمجلة نمساوية بأنك نادمة نـدماً شـديداً على السنوات التي أضعتها وراء الغناء هنـا وهنـاك دون أن تفكـري أن تتزوجي من جديد بعد زواجك الأول الـذي لم يسـتمر، ودون أن تفكـري في إنجـاب طفـل أو أكـثر يملأون عليـك حياتـك بعـد أن تنصرف عنك الأضواء.
قالت ذلك، ثم راحت تصرخ بهستيرية.. وقد سمعت أنها مـاتت بعد تلك الكلمات..

***

قلنا: حدثتنا عن أسرتك.. فحدثنا عنك أنت.
قال: ماذا عساي أقول لكم..
بعد أن خرج جميع إخواني وأخـواتي، ولم يبـق إلا أنـا، ولم يبـق معي إلا ذلك الأب المشوه، وتلك الأم المنحرفة.. قـررت أن أكـون مستقيما، فطلبت لنفسي زوجة.. لقد كـانت الفطـرة تحثـني على أن أتخذ زوجة..
لكـني لم أتمتـع بـذلك الـزواج إلا شـهرا واحـدا.. بعـدها انقلبت حياتي إلى جحيم..

كان أول ما فرضته علي زوجتي هـو التخلص من والـدي.. فلم تكن تطيق أن ترى وجهيهما.. وقد اضطررت لذلك ـ وقد شاخا ـ إلا أن أرميهما في بعض ديار العجزة..

قال رجل منا مستغربا: ترمي والديك في ديار العجزة!؟

ابتسم، وقال: ربما لا يوجد شيء أرحم لهما في تلك الديار من ديار العجزة..

لعلكم لم تسـمعوا بمـا قـال النـائب الـديمقراطي الأمـريكي (كلودبير) في معرض تعليقـه على تقريـر أعدتـه لجنـة في مجلس النواب الأمريكي، بعد دراسة استمرت ست سنوات جاء فيهـا: (إن أكـثر من مليـون مسـن ومسـنة، تجـاوزت أعمـارهم (65عامـاً) يتعرضـون لإسـاءات خطـيرة، فيضـربون ويعـذبون عـذاباً جسـدياً ونفسياً، وتسرق أموالهم من قبل ذويهم)

وقد أكد التقرير أن الإساءة للمسنين، تأخذ عـدة أشـكال، منهـا الضرب والإهمال والحرمان من الطعام والشراب، وقد يصل الأمر إلى القتل أحياناً.

لقد قال معلقا على هذا : (إن وضع المسـنين في أمريكـا عـارٌ وطني مرعب)، وقال: (لا أحد يدرك حتى الآن أبعاد هذه المشكلة المرعبة، ولا يرى أحد أن يعترف بما يجري، لقـد تجاهلنـا المشـكلة لأنهـا مخيفـة، لدرجـة تمنعنـا من الاعـتراف بوجودهـا، ولا نريـد أن نصدق أن مثل هذه الأشياء، يمكن أن تحدث في دولة متحضرة)

وقالت الدكتورة (سوزان ستايتمتر) أستاذة الدراسـات العائليـة في جامعـة (ملاويـر): (لقـد تعودنـا طـوال تاريخنـا على الإسـاءة للمسنين، إننا نميل إلى العنف البدني، وقد أصبح هذا جزءاً ثابتاً من طبيعة عائلات كثيرة تسيء للمسنين، بـالعنف والاضـطهاد، وأصـبح إهمالهم وعدم الرفق بهم، أو حتى نجدتهم من الأمور الشـائعة في المجتمعات الأوربية)(1)

قال الرجل: أيحصل هذا في أمريكا المتحضرة؟

قال: ليس في أمريكا وحدها يحصـل هـذا.. في كـل تلـك البلاد الممتلئة بالصراع تحدث كـل الغـرائب.. اسـمحوا لي أن أذكـر لكم بعض ما يحصل هناك مما رأيته أو شاهدته أو سمعت به لتروا مدى الانحطاط الذي وصلنا إليه.

مما سمعت به في تلك البلاد أن امرأة قامت بتقييد أبيها البـالغ

1() انظر مقالا بعنوان: المسنون في ديننا وحضارتهم، لخالد ابن ناجم الشريف، مجلـة الأسرة، العدد (105)

من العمر(81عاماً) بسلسلة وربطته أمام الحمـام، وأخـذت تعذبـه لعدة أيام.

وحدثني صديق لي كان يدرس في بريطانيا أن صديقاً له، كـان يعمل مناوباً في أحد المستشـفيات هنـاك، وكـان قـد تـوفي رجـل مسن في تلك الليلة عنده، فأحب أن يعزي أسرة المتوفى، واتصل بولـده في السـاعة الثانيـة عشـرة ليلاً، وعـزاه بوفـاة والـده على وجـل.. فمـا كـان من الابن إلا أن امتعض من هـذا الاتصـال وقـال: أتتصل بي في هـذه السـاعة المتـأخرة من الليـل، لتخـبرني بوفـاة والدي؟! وماذا تنتظر مـني أن أفعـل؟!.. أنـا مسـافر صـباحاً لمـدة ثلاثة أيام، ضعوه في الثلاجة، وسـأراجعكم حين عـودتي، من أجـل استلام الجثة.

***

قلنا: فماذا حصل بعد أن رميت والديك في ديـار العجـزة.. هـل اطمأنت زوجتـك بعـد ذلـك؟.. وهـل وجـدت الاسـتقرار الـذي كنت تحلم به؟

قال: كيف أجد الاستقرار في تلك البلاد التي لم تكن تعـرف إلا الصراع ؟

قلنا: فأي صراع جديد حصل لك؟

قال: تلك الجريمة الخطيرة التي تسمى (الخيانة الزوجية)..

قلنا: كيف حصل ذلك؟

قال: ما أسهل أن تقع الخيانات في مجتمعاتنا.. فقـد كـان فيهـا من التفتح والانحلال ما ييسر كل سبل الرذيلة..

لقــد جــاء في الإحصــائيات(1) أن 75% من الأزواج يخونــون زوجاتهم في أوروبا، وأن نسبة أقل من المتزوجات يفعلن الشــيء ذاته.. وفي كثير من هذه الحالات يعلم الزوج بخيانـة زوجتـه وتعلم الزوجـة بخيانـة زوجهـا، ومـع هـذا قـد تسـتمر العلاقـات الزوجيـة الشكلية دون أن يطرأ عليها أي انفصام.

قلنا: فما مصير زواجك بعد اكتشافك للخيانة؟

قال: الطلاق.. لقد رحت للمحاكم أسعى لتطليق زوجتي.

قلنا: لكنك ذكرت موقف الكنيسة من الطلاق..

قـال: لقـد رضـخت الكنيسـة أخـيرا.. وصـارت تقـر بـالطلاق.. وتحكم به.. وتوافق عليه..

1()نشرت هذه الإحصائية صحيفة الشـرق الأوسـط الـتي تصـدر في لنـدن في عـددها الصادر 15/7/1400 هـ الموافق 29/5/1980 م.

ومع ذلـك، فلم يكن لي اهتمـام بالكنيسـة، ولا اهتمـام بمعرفـة رأيهـا.. فقـد كـانت الفضـائح الـتي تملأ أذني من أخبـار رجالهـا مـا يردعني عن الالتفات إليها.

قلنا: فكيف صار المجتمع ينظر إليك بعد تطليقك لزوجتك؟

قهقه بصوت عال، وقال: كل الذين قاموا بالإجراءات المرتبطة بتطليقي لزوجتي كانوا من المطلقين أو المطلقات.

قلنا: هي مصادفة غريبة إذن؟

قال: لا.. ليسـت مصـادفة غريبـة.. الطلاق عنـدنا يكـاد يسـاوي الزواج..

لقــد نشــرت بعض صــحفنا(1) مقــالا تحت عنــوان (بريطانيــا الجديدة: أزمـات زوجيـة وعائليـة وارتفـاع حـالات الخيانـات.. على أنواعها) جاء فيه : (بريطانيـة مقبلـة على أزمـة اجتماعيـة كبـيرة.. وتتحدث أرقام رسمية نشرت أمس في لندن عن تزايـد المخـاوف من زيـادة نسـبة الطلاق وانخفـاض نسـبة الـزواج وارتفـاع نسـبة الخيانة الزوجية بين الطرفين وتقـول الأرقـام مـا يلي: 30 بالمائـة من الأزواج الـذين تـتراوح أعمـارهم بين 20 و 24 عامـاً عليهم أن يتوقعوا سلسلة عمليات طلاق خلال 15 عامـاً الآتيـة.. ارتفـع عـدد الأمهات المطلقات إلى مليـون وربـع المليـون أم، والـرقم مرشـح للزيـادة.. 50 بالمئـة من الأزواج الجـدد يرفضـون الإنجـاب خلال السنوات الثلاث الأولى من زواجهم..

أما في أمريكا.. فنسبة الطلاق في ازدياد مطـرد فبينمـا كـانت نسبة الطلاق سنة (1900م) لا تتجاوز (10%) قفـزت النسـبة في عام (1948م) لتصبح (40%) أما الآن فنسـبة الطلاق في أمريكـا تتجاوز (70%) من الزيجات تنتهي بالفشل والطلاق.

قلنا: فما أسباب ذلك؟

قال: الأسباب معروفة.. منها: الخيانة الزوجية، وقد ذكـرت لكم أن نسبتها تتجاوز (75%).. ومنها التكاليف الباهظة في وقت ليس لدى الرجل فيه أي استعداد لتحمل أية مسؤولية لا عن الزوجـة ولا عن الأطفال، فهو يريد أن يستمتع بـالمرأة، لكن لا يريـد أن تنجب، وإذا أنجبت لا يعـترف بهـذا الولـد، ولا ينفـق عليـه.. ومنهـا العمـل، فالرجل يعمل والمرأة تعمـل، وبالتـالي ليس بينهمـا علاقـة زوجيـة حقيقية.. وغيرها من الأسباب الكثيرة..

1()انظــر: صــحيفة الشــرق الأوســط في عــددها الصــادر 12/7/1400 الموافــق 26/5/1980.

***

قلنا: فما حصل بعد تطليقك لزوجتك؟

قال: تزوجت أخرى.. ثم أخرى.. ثم أخرى.. إلى أن يئسـت من أن أجد امرأة محترمة أكون معها بيتا ممتلئا بالسلام..

وعندما يئست من ذلك لجأت إلى ما لجأ إليه رفاقي.

قلنا: الانتحار.

قال: أجل.. لقـد كـان هـو الحـل الوحيـد الـذي أنهي بـه حيـاتي الممتلئة بالصراع.

قلنا: فحدثنا كيف تم تخطيطك للانتحار؟

قال: لم يكن الأمـر صـعبا.. فمـا أسـهل أن يصـنع المصـارعون أدوية الموت.

قلت: أي دواء استعملته؟

قال: لقد ذهبت إلى جمعية من جمعيات الانتحار.. كانت تسمى (طائفة معبد الشمس)(1)، وقد كانت من الطوائف التي تـدعو إلى الانتحار، وتيسر السبل إليه.

وقد سلمتني هذه الطائفة من أدوية الموت ومناهجـه مـا رحت به أحاول التخلص من نفسي.. لكن من سـوء حظي أو من حسـنه أن الله أنقذني من أن يكون مصـيري هـو الانتحـار بـالرغم من أني أعددت كل عدته.

قلنا: كيف كان ذلك؟

السلام

قال: لقـد سـقطت قـارورة المـوت من يـدي فجـأة.. لا.. ليس فجـأة.. بـل بعـد سـماعي لصـوت جميـل كـان يـردد من قـرآن المسلمين هذه الآية: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجـاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْنَكُمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:21)

قلنا: وما حصل بعدها؟

1() وهي طائفة تتواجد في كندا وأوروبا وخاصة فرنسا وسويسرا.. وأصحابها يعتقدون أن الانتحار الجماعي في طقوس معينة يمكّن الواحد منهم أن يولد من جديـد في كـوكب الشعرى اليماني.

وقد وجد (48) شخصاً من أعضاء هذه الطائفة قتلى منتحرين في أحد الشـاليهات في سويسرا.. وفي جبال الألب بفرنسا انتحر 16 شخصـاً من أتباعهـا في ديسـمبر 1995م.. وفي كويبك بكندا عثر على جثث لخمسة منتحـرين في مـارس 1997.. وكـان قـد سـبق ذلك العثور على خمسة أطفال آخرين في مدينة مونتريال بكندا أيضاً.. انظر مقالا بعنوان (ظاهرة الانتحار) لأوزجان يشار، منشور في موقع عشتار / التاريخ: 1423هـ.

قال: لقد أغمي علي بعد أن حصلت لي بعض تلك اللذات التي حدثتني عنها تلـك الطائفـة.. ولم أفطن إلا وأنـا في بيت رجـل من المسلمين كان يسكن واشنطن.. ولكنه كان أغرب الناس عنها.

بعد أن فتحت عيناي في بيته، وجدته وأهل بيته جميعا بجـانبي.. شعرت براحة عظيمـة لم أشـعر بمثلهـا في حيـاتي.. لقـد لاحظت ابتسـامتهم العذبـة وهم ينظـرون إلي، بـل إني سـمعت تكبـيرهم بمجرد أن فتحت عيناي.. لقد كبروا اللـه وحمـدوه على نجـاتي مـع أني لم أكن أعرفهم، ولم يكونوا يعرفونني.

بعدها قال لي الرجل: الحمد لله على نجاتك.

نظـرت إليـه خجلا، وقلت: من أنت؟.. وكيـف أنقـذتني؟.. لقـد شــربت الــدواء الــذي لا يحتــاج شــاربه إلى أي دواء بعــده.. فلم خلصتني؟

ابتسم، وقال: أنا أخ من إخوانك.. أرسلني اللـه إليـك في وقت أحوج ما تكون فيه إلي.. وأنا أعتذر إليك، لأني لم أسـرع بـالمجيء إليك حتى وصلت إلى تلك الحال.

قلت: من أنت؟

قال: أنا رجل من هذه البلاد.. كان قلبي ممتلئا بالبرودة.. وكـان صدري مملوءا بالظلمات.. ربما كنت مثلك تمامـا.. لكن اللـه شـاء أن أتعرض للشمس التي لا يتعرض لها أحد إلا أطعمتـه من الأنـوار ما يخلصه من كل برد ومن كل ظلمة.

قلت: لا أعي كثيرا مما تقول.. فاذكر لي اسمك.

قال: لقد كنت أسمى أسماء كثيرة.. مرة فرويد، ومرة نيتشة.. لكني بعد أن تعرضت لتلـك الأشـعة تسـميت باسـم محمـد.. ولكن أصحابي يأبون إلى أن يدعونني أمين الدين(1).

قلت: لقد سمعت بمثل هـذه الأسـماء.. أليسـت هـذه الأسـماء هي الأسماء التي يتخذها أولئك الإرهابيون من أكلة لحوم البشر؟

ابتسم، وقال: أنت تردد ما كنت أردد أنا زمنا طويلا.. وإن شئت

1() أشير به إلى المفسر الفقيه المحدث أمين الدين أو أمين الإسلام الشـيخ أبـو علي الفضــل بن الحســن بن الفضــل الطبرســي الطوســي الســبزواري الرضــوي المقلب بـ(المشهدي)..

قال صاحب (رياض العلماء) بعد الترجمة له: كان قدس سره وولده رضـي الـدين أبـو نصر حسين بن الفضل، صاحب (مكـارم الأخلاق) وسـبطه: أبـو الفضـل علي بن الحسـن صاحب (مشكواة الانوار) وسائر سلسلته وأقربائه من أكابر العلمـاء ويـروي عنـه جماعـة من أفاضـل العلمـاء، منهم ولـده المـذكور، وابن شـهر آشـوب والشـيخ منتجب الـدين، والقطب الراوندي)

وسبب اختيارنا له هنا هو ما اشتهر عنه من اهتمامه بأسرته، حـتى تخـرج منهـا الكثـير من العلماء الأفاضل.

أريتـك من مقـالاتي مـا يـبين لـك أني لم أختلـف عنـك في هـذا الموقف.

قلت: فكيف تحـولت عن قولـك؟.. وأي سـحر هـذا الـذي رمي عليك، فجعلك تتراجع عن آرائك؟

قال: كنت صحفيا.. وقد شاء الله أن أرسل إلى بقعة من بقــاع ذلك العالم.. وقـد ودعت أهلي عنـد إرسـالي وداع من سـيفارقهم فراقا لا يعود بعده.. ولكني عدت إليهم بالحياة التي كنت أفتقدها..

لقــد كنت أعيش قبــل أن أذهب إلى تلــك البقعــة كمــا تعيش القطط والكلاب.. بـل كمـا تعيش الخنـافس والجعلان.. بـل كـانت حياتي لي لا تختلف عن حياة أي بهيمة من بهـائم الغـاب لا هم لهـا من الحياة إلا اقتناص ما تملأ به غرائزها.

ولكــني عنــدما ذهبت، ورأيت من أهــل اللــه من رأيت امتلأت بأشواق رفيعة سامية، وامتلأت نفسي بسـلام لا أرى أن هنـاك في الدنيا سلاما يعدله.

قال ذلـك، ثم ابتسـم بلطـف، وقـال: اعـذرني.. لقـد انشـغلت بالحديث عن نفسي عن تعريفك بهؤلاء..

أشــار إلى المحيطين بي، وقــال: هــؤلاء هم أهلي.. لقــد كنــا متفرقين متفككين يصارع بعضنا بعضـا.. ولكـني بمجـرد أن رجعت جعلت أول أهدافي أن تكون لي أسرة كما لكل مسلم أسـرة.. فلا يمكن أن يرى الإنسان السلام وهو يعيش في أجواء الصراع.

بمجـرد أن عـدت ذهبت إلى والـدي اللـذين أرسـلتهما إلى دور العجزة، فأسكنتهما معي، وها هما أمامك.. لقـد قامـا ليـال طويلـة يدعوان الله لك بالشفاء.. ولعل ما تظفر به من العافيـة لم يكن إلا بسبب تلك الدعوات المباركة التي دعوا بها لك.

أشار إلى أربع نسوة، وقال: هؤلاء هن زوجاتي..

انتفضت من فراشي، وقلت: أنت تعدد الزوجات.. هذا ما يؤخذ على المسلمين؟

قال: أجل.. هم يقولون ذلك.. وهم يتلاعبون بذلك القول.. لقــد اتخذت الصحافة من زواجي بهؤلاء الزوجات الأربع مـادة للسـخرية مع أنهن أنفسهن كن صديقاتي قبل أن يمن الله على بالإسلام..

لقد كنت في تلك الجاهلية الجهلاء أعيش معهن جميعا معيشــة الأزواج.. وكان الكل يعلم ذلك، ولم ينكـر أحـد علي ذلـك.. ولكـني بمجرد أن نظرت إليهن نظـر الرحمـة، فخـيرتهن بين الفـراق وبين الزواج بي اخـترن جميعـا الـزواج بي.. كلهن.. لم تـرد إحـداهن أن

تلغي الأخرى.. في ذلك الحين قامت الدنيا ولم تقعد.
لقد كتبت الصحافة ما شاء لها أن تكتب مع أن الحرية التي تدعيها تجعل لأي شخص الحرية في أن يختار المعيشة التي يريد.. ولكن تلك الصحافة الممتلئة بالتناقضات تقدر معيشة الخليلات البئيسة، وتحتقر معيشة الزوجات الشريفة.
أذكر ممن كتب في ذلك صديقا لي كان مسؤولا كبيرا.. كان من أكبر مسؤولي هذا البلد.. كان اسمه (جونسون)، وكانت حياته مملوءة بكل أنواع الانحراف.. وكانت له علاقات مع صحفيات وغيرهن كان معاونوه يحضرونهن له، وذات مرة ـ وبمرآي ـ أحضر جونسون ثلاث فتيات دفعة واحدة من مزرعته بتكساس، وأصر على توظيفهن في البيت الأبيض ليبقين رهن إشارته.
وكان منهم (فرانكلين روزفلت) ــ الذي حكم هذه البلاد منذ عام 1933، وأعيد انتخابه للمرة الثالثة في عام 1940 ـ لقد كان هذا الرجل المقعد ذا علاقات نسائية متعددة، على الرغم من أنه كان مقعدا يتحرك بكرسي طبي.
وكان منهم (جون كيندي).. وكان من أشهر عشيقاته ممثلة الإغراء الراحلة (مارلين مونرو)، والتي لقيت مصرعها في حادث غامض قيل إنه من تدبير المخابرات المركزية الأمريكية، وكان شقيقه (روبرت) على علاقة هو أيضا بمارلين مونرو في ذات الوقت، وكان يقابلها في مكتبه أثناء عمله مدعيا عاما لهذه البلاد.
وقد أقام جون كيندي علاقات أخرى مع عشرات من النساء أثناء ارتباطه بزوجته (جاكلين).. ومن عشيقاته سكرتيرتان هما الشقراء (فيدل) والسمراء (فادل) والثالثة كانت فتاة تعمل في عصابات المافيا وتدعى (جوديث كامبل)
كل هؤلاء لقيت منهم ما لقيت بعد أن هداني الله.. وبعد أن هدى الله هؤلاء النسوة الطيبات، فرحن يبدلن الحياة الخبيثة في البيت الخبيث بالحياة الطيبة في البيت الطيب.
أشار إلى مجموعة أولاد وبنات، وقال: هؤلاء هم أولادي.. وهم ـ كما ترى ـ قد نور الله قلوبهم بالإيمان.. لقد تداولوا عليك في فترة مرضك.. كل واحد منهم يسقيك من بره ما يسر الله لك الشفاء.
نظرت إليهم نظرة امتنان، فبادلوني بنظرات جعلتني أرى الحياة بصورة أجمل بكثير من الصورة التي كنت أنظر بها إليها.
***
بعد أن يسر الله لي الشفاء التام، وصرت أنهض من فراشي

كما ينهض الأصحاء، طلبت من أمين الدين أن يأذن لي في العـودة إلى بيتي.. ذلك الـبيت المملـوء بالظلمـات، فقـال: لا.. لا ينبغي أن تذهب الآن.. أنت في حالة نقاهة.. وينبغي أن تظل هنا.

قلت: شكرا.. لقد شفيت تماما.. وأنا ممتن لـك.. يكفيـني ذلـك الإزعاج الذي سببته لكم.

قال: ومن قال لك بأنك أزعجتنا.. بالعكس نحن سـررنا كثـيرا.. الحمد لله.. لقد وسع اللـه علينـا.. ومن وسـع اللـه عليـه ينبغي أن يوسع على غيره.. هكذا علمنا الإسلام(1).

لقـد اتخـذت في هـذا الـبيت بيتـا خاصـا بـأي ضـيف يـأتيني.. واسـتفدت ذلـك من المسـلمين الـذين عشـت معهم.. فلـذلك لا يسبب لي الضيوف أي حرج، أما الطعـام، فقـد أخبرنـا نبينـا ﷺ أن الله يبعث مع الضيف رزقه، فقال ﷺ:(الضيف يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم يمحص عنهم ذنوبهم)(2)، وقال ﷺ:(إذا دخل الضيف على القوم دخل برزقه، وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم)(3)، وقـال ﷺ:(إذا أراد الله بقوم خيرا أهدى إليهم هدية الضيف ينزل برزقهن ويترحل، وقد غفر الله لأهل المنزل) (4)، وقال ﷺ:(الـرزق أسـرع إلى البيت الذي يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير)(5)

بل أخبر ﷺ، فقال: (إن أسـرع صـدقة إلى السـماء أن يصـنع الرجل طعاما جيدا، ثم يدعو إليـه ناسـا من إخوانـه)(6)، وقـال ﷺ: (إن من موجبات المغفرة إطعام السغبان)(7)

بل أخبر ﷺ بما هو أعظم من ذلـك، فقـال:(أطعمـوا الطعـام، وأفشوا السلام تورثـوا الجنـان)(8)، وقـال ﷺ:(من أطعم مسـلما جائعا أطعمه الله من ثمـار الجنـة)(9)، وقـال ﷺ:(من ذبح لضـيفه ذبيحة كانت فداه من النار)(10)

1() ننبه هنا إلى أنا اقتصـرنا في هـذا الفصـل على بعض مـا شـرعه الإسـلام في هـذا الباب، أما التفاصيل، فقـد أفردناهـا ــ أولا ــ بسلسـلة فقهيـة مفصـلة هي (سلسـلة فقـه الأسرة برؤية مقاصدية) والتي طبعت أجزاؤها تحت عنوان (مكتبة الأسرة المسلمة)
والثاني أن الكثير من التفاصـيل المرتبطـة بالموضـوع في هـذه السلسـة طرقنـاه في رسالة (رحمة للعالمين).

2() رواه أبو الشيخ.
3() الديلمي.
4() أبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم في المعرفة.
5() ابن ماجة والبيهقي.
6() ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان.
7() البيهقي في الشعب.
8() الطبراني.
9() أبو نعيم في الحلية.
10() الحاكم.

وأخبر ﷺ عن فضل مطعم الطعام، فقال:(خيركم من أطعم الطعام ورد السلام)(1)، وعلى عكس ذلك، قال ﷺ:(لا خير فيمن لا يضيف)(2)

في مساء ذلك اليوم قدم أقارب كثيرون لمحمد يهنئونه بشفائي، ويهنئوني مثله.. وقد تعجبت لما رأيت من اللحمة التي وصلت بين قلوبهم، وهي ما لم أجده في البيئة التي كنت أعيش فيها.

سألت محمدا عن سر هذا، فقال: إن الفضل لما تراه من هذه اللحمة التي وصلت قلوبنا للإسلام.. لقد كنا في جاهليتنا قبل أن يمن الله علينا بالإيمان والإسلام ننفر من بعضنا نفورا تاما، لكني بمجرد أن جئت من تلك البلاد الطيبة رحت أبحث عن أقاربي وأجدد علاقاتي معهم وأمتنها، وقد من الله على كثير منهم بالإسلام بسببي.

قلت: أفيمن رأيت من ليس مسلما؟

قال: أجل.. فيهم المسلم، وفيهم غير المسلم.

قلت: ولكنك لم تفرق بينهم في معاملتك؟

قال: هكذا علمنا الإسلام.. لقد حدثت أسماء قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قدمت علي أمي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال : (نعم، صلي أمك)(3)

بل إن القرآن الكريم ذكر هذا، فقد قال تعالى :﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:8)

قلت: ولكن.. أليس الطبع يغلب التطبع.. فكيف تحولت بهذه السهولة مما كنت عليه إلى ما صرت إليه؟

قال: لأني سمعت النصوص المقدسة التي وردت في مصادر المسلمين تخاطب أركاني جميعا.. تخاطب نفسي وعقلي وقلبي وروحي.. فلذلك لم أجد إلا أن أخضع لها، وألتذ بذلك الخضوع بلذة لا تعدلها لذة.

قلت: فأسمعني هذه النصوص التي أثرت فيك كل هذا التأثير.

قال: أول ما هزني من النصوص هو ما ورد في القرآن الكريم من التشديد في قطع الرحم:

1() أبو يعلى، والحاكم.

2() أحمد، والبيهقي.

3() رواه البخاري ومسلم.

فالقرآن يقرن تقوى الله بالرحم، وكأنه يقول :(لا تقوى لمن لم يصل رحمه)، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:1) أي واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

وهو يقرن بينها وبين الإفساد في الأرض، قال تعالى :﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (محمد: 22)، وقال :﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة:27)، وفي موضع آخر ما هو أشد من ذلك، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد:25)، وفي مقابل ذلك قال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: 21)

وتأكيدا لهذه المعاني وردت الأحاديث النبوية تشدد على قطع الرحم، وتعتبره من الكبائر التي رتبت عليها العقوبات التي تنزجر لهولها النفوس:

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى، قال فذاك لك)، ثم قال رسول الله ﷺ : (اقرءوا إن شئتم :﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23)﴾ (محمد)(1)

وقال ﷺ :(ما من ذنب أجدر - أي أحق - أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم)(2)

وقال ﷺ :(لا يدخل الجنة قاطع)(3)

وقال ﷺ :(إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس وليلة جمعة

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه والحاكم، وقال صحيح الإسناد.

3() رواه البخاري ومسلم، قال سفيان : يعني قاطع رحم.

فلا يقبل عمل قاطع رحم)[1]

وقال ﷺ :(إنه أتاني جبريل عليه السلام فقال : هذه ليلة النصف من شعبان ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى مسبل - أي إزاره خيلاء - ولا إلى عاق لوالديه ولا إلى مدمن خمر)الحديث[2].

وقال ﷺ :(ثلاثة لا يدخلون الجنة مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر)[3]

وقال ﷺ :(يبيت قوم من هذه الأمة على طعم وشرب ولهو ولعب، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير، وليصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس، فيقولون: خسف الليلة ببني فلان وخسف الليلة بدار فلان خواص، ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور، ولترسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عادا على قبائل فيها وعلى دور بشربهم الخمر ولبسهم الحرير واتخاذهم القينات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم)[4].

وعن جابر قال :خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال: (يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم، وإياكم والبغي فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغي، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار إزاره خيلاء إنما الكبرياء لله رب العالمين)[5]

وعنه قال: كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ فقال : (لا يجالسنا اليوم قاطع رحم)، فقام فتى من الحلقة فأتى خالة له قد كان بينهما بعض الشيء فاستغفر لها فاستغفرت له ثم عاد إلى المجلس فقال النبي ﷺ :(إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)[6]

1() رواه أحمد بسند رواته ثقات.

2() رواه البيهقي.

3() رواه ابن حبان وغيره.

4() رواه أحمد مختصرا وابن أبي الدنيا والبيهقي، وفي تتمة الحديث :(وخصلة نسيها جعفر)

5() رواه الطبراني في الأوسط.

6() رواه الأصبهاني، ويؤيد هذا ما رواه الطبراني بسند صحيح عن الأعمش قال: كان ابن مسعود جالسا بعد الصبح في حلقة فقال : أنشد الله قاطع رحم لما قام عنه فإنا نريد أن ندعو ربنا وإن أبواب السماء مرتجة مغلقة دون قاطع رحم)

وفي حديث آخر قال ﷺ :(إن الملائكة لا تـنزل على قـوم فيهم قاطع رحم)(1)

وقال ﷺ :(الرحم معلقة بالعرش تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله)(2)

وقال ﷺ:(قـال اللـه عـز وجـل : أنـا اللـه وأنـا الـرحمن خلقت الرحم وشـققت لهـا اسـما من اسـمي، فمن وصـلها وصـلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته)(3) أي قطعته.

وقـال ﷺ :(إن من أربى الربـا الاسـتطالة في عـرض المسـلم بغـير حـق، وإن هـذه الـرحم شـجنة من الـرحمن عـز وجـل فمن قطعها حرم الله عليه الجنة)(4)

وقال ﷺ :(إن الرحم شجنة(5) من الرحمن(6) تقول يـا رب إني قطعت، يا رب إني أسيء إلي، يـا رب إني ظلمت، يـا رب يـا رب، فيجيبها : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟)(7)

وقـال ﷺ :(الـرحم حجنة(8) متمسـكة بـالعرش تتكلم بلسـان ذلق : اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني، فيقول الله تبارك وتعالى : أنا الرحمن الرحيم وإني شققت الـرحم من اسـمي فمن وصلها وصلته ومن بتكها(9) بتكته)(10)

وقال ﷺ :(ثلاث متعلقات بالعرش : الرحم تقول اللهم إني بـك فلا أقطع، والأمانـة تقـول اللهم إني بـك فلا أخـان، والنعمـة تقـول اللهم إني بك فلا أكفر)(11)

وقال ﷺ:(الطـابع معلـق بقائمـة العـرش فـإذا اشـتكت الـرحم وعمـل بالمعاصـي واجـترئ على اللـه - تعـالى - بعث اللـه الطـابع فيطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئا)(12)

وقال ﷺ :(من كان يؤمن باللـه واليـوم الآخـر فليكـرم ضـيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمـه، ومن كـان يـؤمن

1() رواه الطبراني.
2() رواه البخاري ومسلم.
3() رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.
4() رواه أحمد بإسناد صحيح.
5() الشجنة بكسر أوله وضمه وإسكان الجيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.
6()أي مشتق لفظها من لفظ اسمه الرحمن.
7() رواه أحمد بإسناد جيد قوي وابن حبان في صحيحه.
8() الحجنة بفتح الحاء والجيم وتخفيف النـون : صـنارة المغـزل، أي الحديـدة العقفـاء التي يعلق بها الخيط ثم يفتل الغزل.
9() البتك : القطع.
10() رواه البزار بإسناد حسن.
11() رواه البزار.
12() رواه البزار واللفظ له والبيهقي.

بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)(1)

وقال ﷺ :(من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه)(2)

وقال ﷺ :(تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر)(3)، أي بها الزيادة في العمر.

وقال ﷺ :(من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه ويدفع عنه ميتة السوء فليتق الله وليصل رحمه)(4)

وقال ﷺ :(إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما ميتة السوء ويدفع بهما المكروه والمحذور)(5)

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه فقلت : أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال : نعم، قلت : يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ قال الإيمان بالله، قلت : يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال : ثم صلة الرحم، قلت : يا رسول الله أي الأعمال أبغض إلى الله ؟ قال : الإشراك بالله، قلت : يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال قطيعة الرحم، قلت : يا رسول الله ثم ماذا ؟ قال: ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف(6).

وعرض أعرابي لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني عن النار؟ فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: لقد وفق هذا أو لقد هدي، قال: كيف قلت ؟ فأعادها، فقال النبي ﷺ :(تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، دع الناقة)(7)، وفي رواية: وتصل ذا رحمك، فلما أدبر قال رسول الله ﷺ :(إن تمسك بما أمرته به دخل الجنة)

وقال ﷺ:(إن الله ليعمر بالقوم الديار وينمي لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضا لهم)، قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال :(بصلتهم أرحامهم)(8)

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري.
3() رواه الترمذي.
4() رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والبزار بإسناد جيد والحاكم.
5() رواه أبو يعلى.
6() رواه أبو يعلى بإسناد جيد.
7() رواه البخاري ومسلم واللفظ له.
8() رواه الطبراني بإسناد حسن.

وقال ﷺ :(إنه من أعطي الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار ويزدن في الأعمار)(1)

وقيل له ﷺ : يا رسول الله من خير الناس؟ قال :(أتقاهم للرب وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر)(2)

وعن أبي ذر قال : أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير : أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوقي وأن أنظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي، وإن أدبرت، وأوصاني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرا، وأوصاني أن أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة)(3)

وأتى النبي ﷺ رجل فقال: إني أذنبت ذنبا عظيما فهل لي من توبة؟ فقال: هل لك من أم؟ قال : لا، قال: وهل لك من خالة ؟ قال نعم، قال: فبرها(4).

وقال ﷺ :(ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها)(5)

وأتاه آخر، فقال: يا رسول الله : إن لي قرابة أصل ويقطعونني وأحسن إليهم ويسيئون إلي وأحلم عليهم ويجهلون علي، فقال : (إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل - أي الرماد الحار - ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك)(6)

وقال ﷺ:(أفضل الصدقة صدقة على ذي الرحم الكاشح)(7)، أي الذي يضمر عداوة في كشحه - أي خصره - كناية عن باطنه.

وقال ﷺ:(ثلاث من كن فيه حاسبه الله حسابا يسيرا وأدخله الجنة برحمته) قالوا : وما هي يا رسول الله؟ قال :(تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك ؛ فإذا فعلت ذلك يدخلك الجنة)(8)

وعن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال؟ فقال :(يا عقبة

1() رواه أحمد بسند رواته ثقات إلا أن فيه انقطاعا.
2() رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقي.
3() رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له.
4() رواه ابن حبان والحاكم.
5() رواه البخاري وغيره.
6() رواه مسلم.
7() رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.
8() رواه البزار والطبراني والحاكم وصححه.

صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك)(1)

وقال ﷺ :(ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة : أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وأن تعفو عمن ظلمك)(2)

وقال ﷺ :(إن أفضل الفضائل : أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن شتمك)(3)

وقال ﷺ :(ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع به الدرجات؟) قالوا: نعم يا رسول الله؟ قال :(تحلم على من جهل عليك، وتعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)(4)

وقال ﷺ :(أسرع الخير ثوابا البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم)(5)

وقال ﷺ :(ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والخيانة والكذب، وإن أعجل البر ثوابا لصلة الرحم حتى إن أهل البيت ليكونون فجرة فتنمو أموالهم ويكثر عددهم إذا تواصلوا)(6)

***

قلت: فكيف ظهر لك أن تخرج والديك من دور العجزة لتضمهما إليك؟

قال: لقد امتلأت بالمعاني العظيمة التي وردت في النصوص المقدسة.. والتي تحث على البر، وتحذر من العقوق، ومن العواقب الخطيرة التي تنتظر العاقين.

قلت: فاذكر لي منها بعض ما أثر فيك هذا الأثر العظيم.

قال: من ذلك ما ورد في القرآن الكريم من اقتران عبادة الله وتوحيده بالبر بالوالدين.. ولا يقرن المهم إلا بمثله(7): قال تعالى :﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى

1() رواه وأحمد بإسنادين أحدهما رواته ثقات.

2() رواه الطبراني بسند محتج به.

3() رواه الطبراني.

4() رواه البزار والطبراني.

5() رواه ابن ماجه.

6() رواه الطبراني.

7() وفي ذلك يقول ابن عباس : ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاث لم تقبل منها واحدة بغير قرينتها: إحداها : قوله تعالى :﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (المائدة: من الآية 92)، فمن أطاع الله ولم يطع رسوله لم يقبل منه.. والثانية قوله تعالى :﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة: من الآية43)، فمن صلى ولم يزك لم يقبل منه.. الثالثة قوله تعالى :﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ (لقمان: من الآية14)، فمن شكر الله ولم يشكر والديه لم يقبل منه.

وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً) (النساء:36)، وقال تعالى :﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)(الأنعام: من الآية 151)، وقال تعالى :﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان:14)، وقال تعالى :﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)﴾ (الاسراء:23)

انظر كيف نهى الله تعالى حتى على مجرد أن يقال لهما أف، ولو علم الله شيئا أدنى من (أف) لنهى عنه.. ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم: أي اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر، لأن الكبير يصير كحال الطفل لما يغلب عليه من الخرف، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا، فإذا طلبت رعايته وغاية التلطف به في هذه الحالة وأن يتقرب إليه بما يناسب عقله إلى أن يرضى.

ثم أمر - تعالى - بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القول بأن لا يكلمهما إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك لهما واحتمال ما يصدر منهما، ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما، وأنه من أجل ذلك ذليل حقير، ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يثلج خاطرهما، ويبرد قلبهما عليه، فينعطفا عليه بالرضا والدعاء(1).

وقد ضرب الله تعالى نموذجا للبر بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد ذكر القرآن الكريم خطابه لأبيه بلطف شفَّافٍ، وإشفاقٍ بالغ، وحرص أكيد؛ رغبة في هدايته ونجاته، وخوفاً من غوايته وهلاكه.. يقول الله تعالى :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (41) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (43) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (44)﴾ (مريم)

انظر هذه الرقة التي يخاطب بها إبراهيم ـ عليه السلام ــ أباه

1() انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر.

رغم كفره بالله.. ورغم شدته عليه.. لقد ذكر القرآن جواب الأب الشديد لابنه، فقال : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم:46).. وما كان من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن رد عليه بكل رقة :﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾ (مريم:47)

بل ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ لازم الاستغفار لأبيه إلى أن نهي عن ذلك، قال تعالى :﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (التوبة:114)

وهذه البراءة التي ذكرها الله عن إبراهيم ــ عليه السلام ـ ليست براءة من الإحسان إليه، أو الأدب معه، بل هي براءة من اتباعه على كفره ونصرته عليه.. كما قال تعالى يوصي المؤمنين : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان:15)

وبمثل هذه الوصايا العظيمة أوصانا رسول الله ﷺ.. فقد اعتبر العقوق من أكبر الكبائر.. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ:(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر -ثلاثا -؟) قلنا: بلى يا رسول الله، قال : (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وكان متكئا فجلس فقال :(ألا وقول الزور وشهادة الزور)، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)(1)

وقال ﷺ :(الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس)(2)

وذكر ﷺ في كتابه الذي كتبه إلى أهل اليمن وبعث به عمرو بن حزم : (وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم)الحديث(3).

وقال ﷺ :(إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)، قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال :(يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه)(4)

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري.
3() رواه ابن حبان في صحيحه.
4() رواه ابن حبان في صحيحه.

وفي رواية:(من الكبائر شتم الرجل والديه)، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال:(نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)(1)

وقال ﷺ :(إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعا وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال)(2)

وقال ﷺ :(ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه، وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه والديوث والرجلة(3) من النساء)(4)

وقال ﷺ :(ثلاثة حرم الله - تبارك وتعالى - عليهم الجنة : مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والديوث الذي يقر الخبث في أهله)(5)، أي الزنا مع علمه به.

وقال ﷺ :(يراح ريح الجنة من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحه منان بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر)(6)

وقال ﷺ:(ثلاثة لا يقبل الله عز وجل منهم صرفا ولا عدلا عاق ومنان ومكذب بقدر)(7)

وقال ﷺ:(أربع حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه)(8)

وقال ﷺ:(ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف)(9)

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وصليت الخمس وأديت زكاة مالي وصمت رمضان، فقال رسول الله ﷺ :(من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة هكذا، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه)(10)

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري وغيره.
3() الرجلة: المترجلة، أي المتشبهة بالرجال.
4() رواه النسائي والبزار واللفظ له بإسنادين جيدين والحاكم وصححه.
5() رواه أحمد واللفظ له والنسائي والبزار والحاكم وصححه.
6() رواه الطبراني في الصغير.
7() رواه ابن أبي عاصم بإسناد حسن.
8() رواه الحاكم وصححه.
9() رواه الطبراني في الكبير.
10() رواه أحمد والطبراني بإسنادين أحدهما صحيح، وابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما باختصار.

وعن معاذ قال : أوصاني رسول الله ﷺ بعشر كلمات، قال:(لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمـراك أن تخرج من أهلك ومالك)الحديث(1).

وقال ﷺ :(أربع حق على الله أن لا يـدخلهم الجنـة ولا يـذيقهم نعيمها : مـدمن الخمـر وآكـل الربـا، وآكـل مـال اليـتيم بغـير حـق، والعاق لوالديه)(2)

وقـال ﷺ:(لا يلج حظـيرة القـدس مـدمن خمـر ولا العـاق ولا المنان عطاءه)(3)

وقال ﷺ :(لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عـاق ولا منـان)، قـال ابن عباس : فشق ذلـك علي ؛ لأن المؤمـنين يصـيبون ذنوبـا حـتى وجدت ذلك في كتاب الله عز وجل في العـاق :﴿ فَهَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ وفي المنـان :﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَـدَقَاتِكُمْ بِـالْمَنِّ وَالْأَذَى)(البقـرة: من الآية 264)، وفي الخمـر :﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصَـابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:90)(4)

وتكميلا لهذا وردت النصـوص الكثـيرة تحث على الـبر، وتقرنـه بأفضل الأعمال، وفي الحـديث: سـئل رسـول اللـه ﷺ: أي العمـل أحب إلى الله؟ قال:(الصلاة على وقتهـا)، قيـل: ثم أي؟ قـال:(بـر الوالدين)، قيل: ثم أي؟ قال:(الجهاد في سبيل الله)(5)

وفي حديث آخر، قـال ﷺ :(لا يجـزي ولـد والـده إلا أن يجـده مملوكا فيشتريه فيعتقه)(6)

وجاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاسـتأذنه في الجهـاد، فقـال: أحي والداك؟ قال: نعم قال:(فيهما فجاهد)(7).. وفي روايـة قـال: أقبـل رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهـاد أبتغي الأجر من الله، قال:(فهـل من والـديك أحـد حي؟)، قـال: نعم، بـل كلاهمـا حي، فقـال ﷺ :(فتبتغي الأجـر من اللـه) قـال: نعم قـال : (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)(8)

1() رواه أحمد وغيره.
2() رواه الحاكم وصححه.
3() رواه أحمد، ورواه البزار إلا أنه قال :(لا يلج جنان الفردوس)
4() رواه الطبراني بسند رواته ثقات.
5()رواه البخاري ومسلم.
6()رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.
7()رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.
8() هذه الرواية لمسلم.

وجاءه رجل، فقال :(جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان)، فقال :(ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)(1)

وروي أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ: فقال: هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواي قال: أذنا لك قال: لا قال: (فارجع إليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما)(2)

وأتاه رجل، فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: هل بقي من والديك أحد؟ قال: أمي قال: (قابل الله في برها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)(3)

وأتاه طلحة بن معاوية السلمي، فقال: يا رسول الله إني أريد الجهاد في سبيل الله، قال: أمك حية، قال: نعم، فقال النبي ﷺ : (الزم رجلها فثم الجنة)(4)

وأتاه جاهمة، فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك، فقال: هل لك من أم؟ قال: نعم قال :(فالزمها فإن الجنة عند رجلها)(5)

وقيل له: يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما؟ قال : (هما جنتك ونارك)(6)

وقال ﷺ :(من سره أن يمد له في عمره، ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه)(7)

وقال ﷺ :(من بر والديه طوبى له زاد الله في عمره)(8)

وقال ﷺ :(إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر)(9)

وقال ﷺ :(عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلا، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض)(10)

1()رواه أبو داود.

2()رواه أبو داود.

3()رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط وإسنادهما جيد ميمون بن نجيح وثقه ابن حبان وبقية رواته ثقات مشهورون.

4()رواه الطبراني.

5()رواه ابن ماجه والنسائي واللفظ له والحاكم وقال صحيح الإسناد.

6()رواه ابن ماجه.

7()رواه أحمد ورواته محتج بهم في الصحيح.

8()رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم والأصبهاني، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

9()رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم بتقديم وتأخير وقال صحيح الإسناد.

10()رواه الحاكم من رواية سويد عن أبي رافع عنه وقال صحيح الإسناد قال الحافظ سويد عن قتادة هو ابن عبد العزيز واه.

وقال ﷺ :(رغم أنفه، ثم رغم أنفه(11)، ثم رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال:(من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة)(12)

وصعد النبي ﷺ المنبر، فقال: آمين آمين آمين، ثم قال :(أتاني جبريل ـ عليه الصلاة و السلام ـ فقال: يا محمد من أدرك أحد أبويه فمات فدخل النار فأبعده الله، فقل آمين، فقلت آمين، فقال: يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار، فأبعده الله، فقل آمين فقلت آمين، قال ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله فقل آمين فقلت آمين) (3)

وقال ﷺ :(من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله)(4)

وحكى رسول الله ﷺ، فقال: (انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار ـ أي: دخلوا الغار للمبيت فيه قال: ـ فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال الأول: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبِقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً ـ أي: لا أقدم عليهما أحدًا بهذا الغبوق من الحليب ـ قال: فنأى بي طلب الشجر يومًا ــ أي: استطرد مع غنمه في المرعى إلى أن بعُد عن مكانه على غير العادة ــ قال: فلم أرح عليهما ـ أي: لم أرجع عليهما ــ حتى نامـا، فحلبت لهما غبُوقهُما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي ــ أي: يتصايحون ببكاء من شدة الجوع ـ قال: فاستيقظا فشربا غبُوقهُما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت لا يستطيعون الخروج منه) الحديث (5)..

11()رغم أنفه: أي لصق بالرغام وهو التراب.

12()رواه مسلم.

3()رواه الطبراني بأسانيد أحدها حسن ورواه ابن حبان في صحيحه.

4()رواه أحمد من طرق إحدها حسن.

5() رواه البخاري ومسلم.. وتتمة الحديث:(قال الآخر : اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها.. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :(من أصبح مطيعًا لله فِي والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة وإن كان واحدًا فواحدًا ومن أمسى عاصيًا لله فِي والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار وإن كان واحدًا فواحدٌ)، قال رجل: وإن ظلماه ؟ قال : (وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه)(1)

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : (مَا من ولد بار ينظر إِلَى والديه نظر رحمة إلا كتب له بكل نظرة حجة مبرورة)، قالوا : وإن نظر كل يوم مائة مرة؟ قال :(نعم، الله أكبر وأطيب)(2)

بل إن النصوص المقدسة لا تكتفي بالحث على البر في الحياة، بل تضيف إليه الأمر بالبر بعد الوفاة، ففي الحديث أن رجلا جاء رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ ز فقال ﷺ :(نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما)، فقال الرجل: ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه، فقال ﷺ :(فاعمل به)(3)

سكت قليلا، ثم قال: لقد أثمرت هذه النصوص ثمارا عظيمة في واقع المسلمين.. فكانت المجتمعات المسلمة في جميع فترات التاريخ تراعيها وتحافظ عليها، وتخشى العواقب الوخيمة التي يجرها العقوق، وترجو الثمار الطيبة التي يجرها البر.

***

بقيت في أسرة أمين الدين مدة من الزمان أرى فيها السلام وهو ينشر أشعته الدافئة الجميلة عليها إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم الذي استأذنني فيه أن يسير إلى هذه البلاد ليساهم في رفع الفتنة التي تريد أن تستأصل المسلمين، وقد استأذنته في أن أحضر معه، لكنه أبى، وقال لي: أنا لست أدري هل أعود من هذه الفتنة أم لا.. ولا أريد أن أزج بك في أي شيء يضرك.

لكني بعد فراقه لي، أظلمت الدنيا في عيني، فلم أجد إلا أن

الخروج منها.

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا.. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون)

1() رواه البيهقي فِي شعب الإيمان.

2()رواه البيهقي فِي شعب الإيمان.

3()رواه أبو داود وابن حبان فِي صحيحه.

ألحقه، وها أنا ذا بينكم.. وقد قدر الله من شأننا مـا تـرون.. وأنـا لا آسف على شيء في حياتي إلا على ذلـك الـذي فتح اللـه بـه علي من الأبـواب مـا كـان مغلقـا، وأضـاء بـه علي من الأنـوار مـا كـان مظلما.

سادسا ـ المجتمع

في اليوم السادس، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنا عن حديثي.. اعذروني، لقد كنت مثل من سبقني أحمل اسما مستعارا، لأني منذ ذلك اليوم الذي التقيت فيه بالنور والسلام والصفاء، صرت أستحيي من الاسم الذي سماني به أهلي رغم أنفي..

لقد كان اسمي في تلك الأيام (هابر) لا شك أنكم تعرفونه.. إنه ذلك الرجل الذي كان يصيح بملء فيه في الأسواق والمجامع قائلا: إن ما ذكره لكم كل الحكماء من أن الإنسان مدني بالطبع خطأ فاضح، لأن الإنسان بطبعه عدو الإنسان!.. ولذلك، فإن الحكمة البديلة التي وضعتها هي (الإنسان للإنسان ذئب).. فالإنسان لا يريد شيئا الا لنفسه، وهو لذلك يحارب الآخرين أبدا.

وعلى هذا الأساس، فقد كنت أرى أنه لا محل للأخلاق في قلب الإنسان.. بل الأخلاق تابعة للمنافع فقط.

وكنت أرى أن أساس الحكم هو الاستبداد، والحكم عن طريق القوة، وذلك لأن الناس حيث يحارب بعضهم بعضا، لا يستطيعون العيش بسعادة فلابد من تقرير الأمن الذي يعتبر من أهم الضرورات له.

وتقرير الأمن إنما يمكن بأن يتنازل الكل عن حرياتهم ويسلموها بيد رجل واحد يحكمهم بالقوة.. ولا يجوز أن يوضع لهذا الواحد أي قانون ولا يحدد بأي قيد.

وكان اسمي في تلك الأيام (نيتشة).. وقد كنت لأجل ذلك أرى بأن الإنسان إنما جاء إلى الحياة ليتمتع بما فيها، وكل ما يهيء له طريق التمتع فهو خير (وافق الحق أو خالفه)، وما يقال عن تساوي الخلق بعضهم مع بعض خطأ، بل الحق ان في الناس سادة وعبيدا، وعلى العبيد أن يهيئوا وسائل الراحة للسادة.

وفوق ذلك كله تتلمذت على أساتذة كثيرين كلهم ملأوني بالصراع..

لن أحدثكم عنهم الآن.. وإنما سأحدثكم عن بعض ما عاينت من مظاهر الصراع الاجتماعي لتعرفوا قيمة السلام الذي جئت إلى هذه البلاد باحثا عنه.

الصراع

بعد صمت عميق، تنفس صاحبنا الصعداء، ثم قال:

العنصرية:

كان أول مظهر من مظاهر الصراع التي عاينتها وعانيت منها (العنصرية).. ذلك الداء الخبيث الذي يجعل من الإنسان وحشا كاسرا لا يبصر إلا نفسه، ولا يعظم إلا نفسه، ولا يترفع إلا بنفسه.

وللأسف.. فقد تتلذت على هذا الداء في جميع المدارس.. كلها لقنتني أصوله ومبادئه والسلوكات الأخلاقية التي تخرجه من القوة إلى الفعل.. ومن الإيمان إلى العمل..

لن أحدثكم على ما لقنتنا تلك المدارس(1) فإن الكلام في ذلك طويل ممل، وربما تعرفونه، وربما تسمعون من بعض رفاقي من يحدثكم عنه.. ولذلك سأكتفي بذكر بعض ما رأيت في بلدي الأول.. أمريكا..

في تلك الأيام كنت في أمريكا تلك التي تعتبر نفسها أما لحقوق الإنسان.. بينما هي في الحقيقة ليست سوى أم لانتهاك حقوق الإنسان.

لقد كان التمييز العنصري جزءا من الحياة اليومية التي يعيشها المواطن الأمريكي في مختلف قطاعات الحياة الإنتاجية، الاقتصادية والسياسية حتى أصبح السمة الرئيسة التي يتميز بها الشارع الأمريكي.

وحتى منتصف القرن الماضي، كان الكثير من المؤسسات والنوادي والمقاهي تضع يافطات كُتِبَ عليها بالخط العريض (يمنع دخول الزنوج والكلاب).. وكان على الزنجي الأمريكي الوقوف من مقعده في الحافلة إذا لم يكن من مقعد فارغ ليفسح المجال أمام جلوس نظيره (الأمريكي الأبيض)

وكثير من مؤسسات الخدمات العامة في المقاطعات الجنوبية في الولايات المتحدة ومنها المطاعم كانت لا تقدّم الوجبات إلى الزنوج إلا وهم واقفون، وجرت أول عملية جلوس قسري في عام 1960، وكانت حصيلة ذلك الجلوس القسري إلقاء القبض على 53 زنجياً والحكم عليهم بالسجن مدة أربعة أشهر في ولاية (نورث كارولينا)

وإلى جانب الاضطهاد العنصري الذي كان يعيشه السكان السود في الولايات المتحدة، كان الظلم الاقتصادي الأكثر بشاعة، ففي الستينات كان يعيش أكثر من عشرين مليون زنجي في بيوت سكنية فقيرة قذرة مبينة من الصفيح والأخشاب في مدن

1() سنرى بعض النماذج عنه في فصل (العالم) من هذه الرسالة.

الولايات المتحـدة الشـمالية هربـاً من ظلم التفرقـة العنصـرية في الجنوب، ففي هذه الأماكن كان الظلم الاقتصادي يترجم إلى بطالة وفقر، كمـا كـان يـترجم إلى بحث مضـن عن العمـل، وعن أمـاكن صالحة للسكن، وجعلت هذه الأسباب من الزنجي الأمـريكي نوعـاً من الطاعون المقيم في وسط المدن الكبرى لا يسـتطيع الخـروج منها والانتقال إلى مكان أكثر صحة وعافية.

وفي الوقت الذي كـانت الأمم المتحـدة تصـدر مواثيـق حقـوق الإنسان مركزة على مفاهيم أكثر رقيا للحريـة الفرديـة من مجـرد حق العمل والمساواة والمعتقد، كان أصحاب البشرة السمراء في الولايـات المتحـدة حـتى عـام 1955 لا يسـتطيعون الجلـوس في الباصات العامة، وكانت القوانين تقضي بعـدم جلـوس الزنـوج في الباصات التي تقّل البيض.

وكانت قائمة المطالب التي رفعها السـود في عـام 1955 في مدينــة مــونتغمري الجنوبيــة مجــرد السـماح لهم بــالجلوس في الباصات العامة ولو بـالجلوس في المـؤخرة، وأن يعـاملوا بتهـذيب ولياقــة كمعاملــة الــبيض، واضــطر السـود إلى طلب مسـاعدات إنسانية من اليابان لشراء باصـات خاصـة بعـد مقـاطعتهم للأخـرى المملوكة للدولة.

وما تشهده المدن الأمريكية من فترة لأخرى هو بمثابـة نسـخة طبق الأصل عن جولة حدثت في أواخر الستينات في عهد الرئيس ليندون جونسون حيث انفجر الغضب الأسود بعد أن قامت السلات المحلية بتحقيرهم وإذلالهم، مما اضطر الرئيس الأمريكي لأن يدفع بـالجيش الفيـدرالي إلى الشـوارع لضـبط الأوضـاع في ديـترويت وشـيكاغو ونيويـورك ومـدن متعـددة أخـرى، حيث كـانت الخسـائر المادية بمليارات الدولارات إلى جـانب عشـرات القتلى والجـرحى والمفقودين.

وعلى مـدى السـنوات الـتي تلت، لم تنطفىء نـار العنصـرية وظلت تتحـرك تحت الرمـال، والدلالـة على ذلـك تكـرار حـوادث العنـف العنصـري خلال السـنوات العشـرين الماضـية بين الـبيض والسود في أكثر من مدينة أمريكيـة، وأبـرز هـذه الحـوادث حادثـة مقتل (يوسف هادكنز) الفتى الأسود الذي لم يبغ السادسة عشــرة في حي (بروكلين) في نيويـورك (1990) والـتي وقعت في وضـح النهار، عندما أطلـق جماعـة من الـبيض النـار على يوسـف وبعض أصدقائه الذين اختلفوا معهم على شراء سيارة مستعملة.

واعـترف تقريـر صـادر عن مكتب التحقيقـات الفدراليـة (إف. بي.آي) عام 1999 بارتفاع جرائم الكراهية والجرائم القائمـة على أساس عنصري داخل الولايـات المتحـدة، مشـيرا إلى أنـه تـرتكب حوالي 8000 جريمة سنويًا من تلك الجـرائم. وأشـار التقريـر الى أن 4292 جريمة ارتُكبت في 1999 بدوافع تتعلق بلـون البشـرة، كمـا تم ارتكـاب نحـو 1411 جريمـة بـدافع ديـني، بينمـا تم تقـدير الجـرائم الجنسـية بنحـو 1317 جريمـة، فضـلا عن الجـرائم ذات الطـابع الإثنيـة الـتي بلغت نحـو 829 جريمـة، مشـيرًا إلى أن 19 معاقا تعرضوا لاعتداءات عام 1999 لتلك لأسباب.

سكت قليلا، ثم قال: لقد قال (أندرو شايير) مؤلف كتاب (نحن القـوة الأولى) عن السـود: (إنهم هنـا في أمريكـا يعيشـون كـأفراد غربـاء وأجـانب على أرض ولـدوا وترعرعـوا فيهـا، ولا يعرفـون سواها.. يمكننا النظر إلى أمريكا على أنها دولة تتكون من شعبين: البيض وهم الأغلبية المسيطرة، والسود وهم الأقلية المضطهدة)

ونشرت صحيفة (وول ستريت جورنال تقريراً عن وضع السـود في مجال الشرطة ذكرت فيه أن شرطيا من أصل أفريقي وصـل إلى رتبة كابتن في مدينة سنسناتي - وهذه هي المرة الرابعة التي يصل فيها أسود لهذه الرتبة- ولكن بعض البيض اعترض على هـذه الترقية، مما جعل السلطات القضائية تتدخل للنظر في القضية.

أمـا في المـدن الأخـرى فالحـال ليسـت أفضـل، ففي ولايـة نيويـورك حيث يبلـغ الأمريكـيين الأفارقـة 28.7 بالمائـة من عـدد سكان الولايـة، ولكنهم لا يؤلفـون أكـثر من 11.4بالمائـة من قـوة الشرطة، أما الذين وصلوا إلى رتبة قيادية فلم يتجاوز 6.6بالمائة.

ويقول التقرير إن السود بالرغم مما بلغوه في العصر الحاضـر فـإنهم لا يزالـون يعـانون من العقبـات في التوظيـف والترقيـات والمضـايقات من زملائهم الـبيض الـذين يعترضـون على ترقيـة زملائهم السود، حتى إن بعضهم يرفض إطاعة أوامر رئيس أسود.

وقد انفجرت الأوضاع الأمنيـة في مدينـة لـوس أنجلـوس حيث انـدلعت أعمـال عنـف وشـغب إثـر قيـام محطـات التلفـاز بعـرض شريط لبعض رجال الشرطة من البيض وهم يضربون أحـد السـود وهو رودني كينج بعنف ووحشية.. وكانت نتائج هذه الاضطرابات أن قتل ثمانية وخمسون منهم عشـرون شـرطياً، وبلـغ عـدد الجـرحى 2382، منهم 220 جريحـاً في حالـة خطـرة، واعتقـل 13505 شخصـاً، ودمـرت الحرائـق 5537 محلاً تجاريـاً، وقـدرت الخسـائر

الماليــة ب785 مليونــا، وســاهم من رجــال الشــرطة والحــرس القومي وجنود البحرية واحد وعشرون ألفاً.

وذكر كارل بيل - مـدير مجلس الصـحة العقليـة بشـيكاغو - إن المواطنين السود لا يزالون يتعرضون يومياً للإهانـة والعنـف بحيث أصبح ذلك جزءاً من لا شعورهم المحبط.

ويعترف نيكسون بأن المحاكم الأمريكية حاولت فرض حصـص تميزية على أسـاس العـرق في القَبـول في الجامعـات والتوظيـف والترقيــة، وتغاضــت عن التميــيز في إشــغال الوظــائف العامــة والقطاع الخاص وإبرام العقود مع الحكومـة ممـا جعـل الجامعـات وبعض الوظـائف تقبـل بالأقـل كفـاءة لتغطيـة الحصـص الخاصـة بالأعراق.

وقــد ظهــرت في الســنوات الأخــيرة جماعــات متطرفــة في المجتمعـات الغربيـة.. ومن هـذه الجماعـات جماعـة تطلـق على نفسها (الأحرار)، والتي تتزعم حرباً عرقية ودينية ضد السود وبقيـة الملونين الذين لا ينحدرون من أصول شمال أوروبية، ويزعم هؤلاء أنهم - البيض- شعب الله المختار، وأن الولايات المتحدة الأمريكيــة هي أرض الميعاد وليست أرض فلسـطين (إسـرائيل).ويبلـغ تعـداد هذه الجماعة من عشرة آلاف إلى أربعين ألفاً.

ويشـبه هـذه الجماعـة أيضـاً حركـة أخـرى تطلـق على نفسـها (حليقي الــروس) وهي جماعــة مســلحة متطرفــة تنطلــق من منطلقـات عنصـرية حاقـدة على كـل الأجنـاس غـير الـبيض، وقـد قدمت محطة التلفزيون H.B.O. برنامجاً خاصاً عن هؤلاء في صـيف عام 1995.

وقد أوردت وكالة الأنباء الفرنسـية تقريـراً من لـوس أنجلـوس مفاده أن جرائم الكراهية ضد الآسيويين قد ارتفعت بنسـبة ثمـانين بالمئـة في العـام الماضـي في ولايـة كاليفورنيـا عن العـام الـذي سبقه.

وقد نقلت الوكالة عن التقرير السنوي الثاني للتجمـع القـانوني لأسـيويي المحيـط الهـادى الأمريكـيين بـأن هنـاك أربعمئـة وثمـان وخمسين حالة اتهام مثبتة لحوادث ضد الأسيويين مع وجود حـالات كثيرة لا تصل إلى الشرطة بسبب اللغـة والحـاجز الثقـافي وعـدم وجود سجلات كاملة لدى الشرطة.

ومن الطريــف أن التجمــع يوجــه اللــوم للخطــاب السياســي المعـادي للمهـاجرين الـذي يتسـبب في إثـارة العواطـف وأعمـال

العنـف ضـد الآسـيويين.. ومن الأمثلـة على ذلـك أن حـاكم ولايـة أريزونا استخدم حـق النقض ضـد قـانون يحـارب الكراهيـة بسـبب العــرق بــالرغم من ارتفــاع هــذه الجــرائم في ولايتــه بــأكثر من خمسمئة في المئة في الخمس سنين الماضية.

وتشهد فرنسا تطرفاً عرقيا حيث ارتفعت الطوائـف المتطرفـة بنسـبة خمسـين في المئـة في الفـترة من 1983 حـتى 1995، فهناك مئة واثنتين وسبعين مجموعة ترتبط بها ثمانمئة فرقه تابعـة لهـا بينهـا خمس عشـرة طائفـة تتمـيز بخطورتهـا الشـديدة على الأوضاع العامة.

الجريمة:

سكت قليلا، ثم قال: لا تشكو مجتمعاتنـا من العنصـرية فقـط.. هناك ما لا يقل خطرا.. إنه الجريمة.. الجريمة بكل أنواعها..

لقد تحـدث البـاحث الإجتمـاعي الأمـريكي (لويـل فـاكنت) في دراسة له عن ذلك، فقال: (وواقع الأمر أن الولايـات المتحـدة قـد اختارت أن تبني لفقرائها بيوت اعتقال وعقاب بدل المستوصــفات ودور الحضانة والمدارس.. هكذا ومنذ عام 1994 تخطت الموازنة السـنوية لـدائرة السـجون في كاليفورنيـا (المسـؤولة عن مراكـز الإعتقــال للمحكــومين الــذين تتجــاوز عقــوبتهم الســنة الواحــدة) الموازنة المخصصة لمختلف فروع جامعة الولاية فقد تقدم الحاكم (بيت ويلسون) عام 1995 بمشروع موازنة يلحظ فيـه إلغـاء ألـف وظيفة في التعليم العالي من أجل تحويلهـا الى ثلاثـة آلاف وظيفـة حــارس ســجن جديــدة، والســبب واضــح فمثلا في 22/8/1999 أعلنت وزارة العـدل الأمريكيـة (أن عـدد البـالغين المسـجونين أو الذين خارج القضبان بكفالة بلغ عـام 1998 خمسـة ملايين و900 ألف شخص، وتعني هـذه الأرقـام أن 3 في المائـة من الأمريكـيين مع نهاية عام 1998 إما يكونوا داخل السجن وإما خـارج القضـبان بكفالة)

لم تكتف الجريمة بالشوارع.. بـل انتقلت عـدواها المريعـة إلى المــدارس، حيث شــاعت ظــاهرة إطلاق النــار على المدرســين والمدرسات وعلى التلامذة بشكل لافت لم يشهد له العالم مثيلا.

لقــد تنــاقلت وســائل الإعلام في مــارس 1998 المعلومــات التالية: (لاحظ الخبـير في علم دراسـة الجـرائم (رونالـد وايـنر)من الجامعة الأمريكية أن وتيرة العنف لـدى الشـباب زادت إلى درجـة كبيرة بسبب ثقافة الأسلحة النارية، وغلبة العقليـة المسـتوحاة من

قــانون الشــارع أو (التعــاليم التوراتيــة) على الأخلاق والمبــادئ الإنسانية.. وأظهرت دراسة كشف عنهـا الـبيت الأبيض، أن واحـدة من كل عشر مدارس رسمية أمريكية شهدت أعمال عنف خطـرة عام 1997.

وكتب أحد كبار صحافيي نيويورك متعجبا: (هناك حرب حقيقيـة في شوارع الولايات المتحدة. ويسقط قتلى بالرصـاص مـا يقـارب 45 ألف شخص كل تسعة عشـر شـهرا، وهـو العـدد نفسـه الـذي سقط خلال تسعة أعـوام من حـرب فيتنـام، هـذا يكشـف أمـراض المجتمع الأمريكي المستعصـية، والعنصـرية المتفشـية في داخلـه، والتباينات الإجتماعية الواضحة، إن دل هذا على شـيء فيـدل على تفجــر اللحمــة الأســرية، وإفلاس النظــام الــتربوي، واستشــراء المخدرات، وعن عدم فاعلية النظام القضائي، وعن قوة اللوبيــات المدمرة داخل المجتمعات الامريكيه، وخصوصا اللوبي الصهيوني.

وهـذا يـدل ايضـاعلى الإرهـاب الـدموي الـذي يطـال مختلـف الشرائح والطبقات. فمثلا في سنة 1991 قتـل الإرهـاب الـداخلي الأمريكي 38317 شـخص وجـرح 175 ألـف شـخص، هـذا يعـني حصول 105 قتيلا في اليوم الواحد.

ولترجمة هـذه الأرقـام على الواقـع لنفهم نتـائج هـذا الإرهـاب، يكفي أن نقـارن طبيعـة القتلى بالسـلاح بين أمريكـا وبعض الـدول الأوروبية، ففي سنة 1990 بلغ عدد حالات القتل بأسلحة اليــد في الولايات المتحدة فقط الى 10567 حالة بينما بلغ في بريطانيا 22 حالة وفي السويد 13حالة، وفي استراليا10 حالات وفي كنـدا 68 حالـة وفي اليابـان 87 حالـة.. وهـذا مـا دفـع الكثـير من المحللين الأمريكـيين من إطلاق وصـفا لهـذه الحالـة الإرهابيـة بأنهـا (حـرب حقيقية في كل بيت) أو (الإرهاب على الذات).. لذلك صرح بصوت عال (كولمان يونغ) عمـده مدينـة شـيكاغو الأسـود البشـرة، الـذي رفض بإصرار تجريد مواطنيه من أسلحتهم حيث قـال: (قـد أكـون مجنونا إذا صادرت الأسلحة، في الحين الـذي نحن فيـه محاصـرون بأناس عدوانيين) ممـا جعـل لجنـة أمن منتجـات الاسـتهلاك، الـتي باشرت عملية إحصاء لحوادث إطلاق النار الى التوصـل إلى نتيجـة مفادها أن في الولايات المتحدة وفق التقـديرات المختلفـة حـوالي 200 ألف شخص يصابون بالرصاص سنويا.

بالطبع لا يتضمن هـذا الإحصـاء عـدد الضـحايا المجهولـة الـذين يعـالجون بعـد إصـابتهم بعيـدا عن أعين الحكومـة الفيدراليـة، كمـا

ينتشـر في الولايـات المتحـدة 211 مليـون قطعـة من الأسـلحة النارية، بينها 67 مليون مسدس مختلف الأنواع.

يقول الكاتب (جيل ديلافون) الذي أصدر كتاب (violente Ameique) العنـف في أمريكـا: (ففي نهايـة 1994حطم النظـام القضـائي الأمريكي المتعثر رقما قياسيا مرعبا بوجود أكثر من مليون شخص من الأمريكيين يتعفنون وراء قضـبان السـجون، وهـو أعلى معـدل اعتقالات على سطح هذا الكوكب. مع الإشـارة إلى أن ثلاث أربـاع المتهمين لا يعتقلون ولا يضـعون داخـل السـجون لأسـباب قانونيـة معينة. والاسوأ من النظام القضائي هو نظام السجون الـذي يصـنع (مجرمين محترفين) حقيقيين محكومين نهائيا بالعودة إلى الأجرام. فأكثر من 60بالمائة من المعتقلين نفذوا بالسابق حكمـا بالسـجن، وبناء على دراسة أجريت على مسـتوى الولايـات كلهـا هنـاك 108 ألف مجـرم تم إيقـافهم حـوالي 109 مليـون مـرة. هـذا يعـني أن أمريكا تقبع تحت مسلسل الإرهاب والجريمة الداخليـة والمسـؤول عنها الشعب الأمريكي بامتياز. وأمريكا متخلفة أكـثر من أيـة دولـة عربية أو أية دولة من دول العالم الثـالث المتهم بـالتخلف. ويكفينـا تحاليل وتنظـيرات من المتـأمركين المتصـهينين الـذين يسـتهزئون بشعوبهم ويريدون إقناعها بالتجربة الأمريكية الرائعة، وهذه الأرقام لأكبر دليل على روعة التجربة الأمريكية.

إذن الإرهاب الداخلي مستفحل في جـذور المجتمـع الأمـريكي وفي كل آليات حركته، بل كان ركيزة نشـأة هـذا البلـد، سـواء من خلال الصـراعات بين الغـزاة الـبيض فيمـا بينهم أو صـراعهم مـع أصحاب الأرض الحقيقيون من الهنود الحمر.. إن الغازي الأمـريكي أصـبح مواطنـا أمريكيـا بمقـدار مـا وسـع أرضـه وقتـل أصـحابها الحقيقيين، أو من خلال الإضطهاد الشرس ضد الأفارقـة والـتي مـا زالت تغذيه المعتقدات التوراتيـة والقـوانين الأمريكيـة الـتي تعتمـد على العهد القديم في تشريعاتها.

وحسب تقرير رسمي صدر عام 1989 بعنوان (ضـحايا العنـف في القوانين الأمريكية) تحدث أحد كاتبي التقرير (ليونارد جيفـري) عن أن في أمريكـا 5500 عصـابة مسـلحة معروفـة تنتشـر اليوم،وبعضها منظم وله أفـرع في كـل الولايـات المتحـدة. وتقـوم هذه العصابات أو الميليشيات بـ 25 ألـف عمليـة قتـل في السـنة، والقتلى معظمهم من السود، وأخذت هذه الميليشيات تبـني دولهـا و قوانينها الخاصة بها داخل الولايات المتحدة.وهي محمية بكميـات

كبـيرة من الأسـلحة المتطـورة،و أكـد كثـير من المطلعين أنهم يملكون كميات وافرة من أسلحة الـدمار الشـامل تفـوق الخيـال.. ولعـل اسـتخدام الجمـرة الخبيثـة بعـد أحـداث 11 سـبتمبر داخـل الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والإربـاك الـذي أصـاب المؤسسـات الحكومية والاجتماعية من جرائه لدليل ساطع على ذلك. وتم إثبات أن هـذه الجمـرة الخبيثـة المسـتخدمة هي أمريكيـة داخليـة بحتـة صـنعت على يـد الإرهـابيون الأمريكيـون.. كمـا لهـذه الميليشـيات نفوذهـا الانتخـابي والاجتمـاعي، وهي تمـارس العنـف الهسـتيري، وتطمع إلى تجهيز جيشا من الإرهابيين للزحـف على الـبيت الأبيض وتدمير الحكومة الفيدرالية فيه واحتلال البلاد.

الانحلال:

سكت قليلا، ثم قال: بالإضافة إلى هذا هناك ما لا يقل خطـرا.. بل لعله أخطر الجميع.. إنه الانحلال والتفسخ الذي أنهـك مجتمعنـا، وحوله إلى ماخور كبير للرذيلة.. لن أطيل عليكم الحديث في هذا، فلاشك أنكم جميعا تعرفونه، وعانيتم منه.

لقد أصبحتم المرأة المحترمة بسببه إلى كائن لا هـدف لـه في الحياة إلا إرضاء النزوات الشاذة للمنحرفين..

لقـد كتب بعضـهم يقـول في هـذا تحت عنـوان (امـرأة بلادي والعشق والجنس): (لنتحدث عن حريـة المـرأة.. دعـوني أعـترف لكم فوراً إن حرية المرأة ليس لهـا غـير معـنى واحـد إنـه المعـنى الجنسي.. المرأة في نظري هي مصعب الأشواق والشهوات.. هي مخلوقة غرامية لا معنى لها خارج الوجد والعشق والجنس..)

وكتب يقول:(ما هي حرية المرأة ؟ حريتها الحقيقية هي حريـة العلاقة الجنسية مع الجنس الآخر، أو حتى مع بنات جنسـها، أو مـع الجنسين معاً.. والرجل ما هو دوره؟ عليه أن يحـرض المـرأة على الحرية. إنني أطلب لامرأة بلادي الحق بأن تصادق رجلاً فجـأة فـإذا اشـتهته حققت شـهوتها.. إنـني أطلب لامـرأة بلادي كسـر طـوق الاضطهاد العائلي والديني والأخلاقي وحريتها في أن تكون حـرة بلا حدود.. حرة في اقامة علاقة جنسية قبل الزواج (ولماذا ليس بعده أيضاً).. حرة في تغيير حبيبها متى ضجرت منه.. حرة في التصـرف بجسدها دون قيد ولا شرط)

أتدرون ما نتيجة هذا الانحلال الذي قامت كل مدارسنا وصـحفنا ووسائل إعلامنا تحرض عليه بكل الوسائل؟

إن الإحصاءات في ذلك تكاد تصيبنا بالجنون..

تقول (الريدرز دايجست) في عـدد أغسـطس 1983 :(هنـاك مليون حالة اعتداء جنسي على الأطفال في كل عام في الولايـات المتحدة الأمريكيـة.. وانتشـرت الأمـراض الجنسـية.. في الولايـات المتحدة عشرين مليون هربس (عام 1983) وفي كل عام تضاف إلى القائمة العتيدة أكثر من نصـف مليـون حالـة هـربس.. وأخـيراً ظهر مرض الايـدز الـذي يصـيب المخنـثين أساسـاً. وقـد بلـغ عـدد المصابين في الولايـات المتحـدة 2600 حالـة (حـتى نهايـة أكتـوبر 1983) والعدد يتضاعف كل ستة أشهر.. والايدز يقتل المصاب بـه في خلال عامين أو ثلاثـة.. ولا علاج لـه بـل ولا يعـرف سـببه حـتى الآن..)

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن هنـاك الآلاف من الفتيـات الصـغيرات اللائي يعانين من الحمل سنوياً نتيجة لعدم معـرفتهن بوسـائل منـع الحمل معرفة جيدة.. ولذا قـام كبـار المـربين والمسـؤولين بوضـع بـرامج منـع الحمـل في المـدارس الثانويـة، ثم قـاموا بعـد ذلـك بتدريسها لطلبة الإعدادي.. وأخيراً توصـلوا إلى قـرار تدريسـها في المدارس الابتدائية بعد أن وجدوا أن الطالبات الصـغيرات جـداً هن اللائي يقعن بالدرجـة الأولى فريسـة لهـذا الحمـل.. ولم يعـد يهم المسـؤولين أن يعم البغـاء، ولكن همهم منصـب فقـط على نشـر وسائل منع الحمل بين الأطفال.

واضـطرت القـوانين الغربيـة إلى إباحـة الإجهـاض ولـو على مضض.. وانتشرت حالات الاجهـاض حيث يتم في أمريكـا إجهـاض مليون امرأة سنوياً.. ويتم ما يقارب هذا العدد في أوروبا..

وتـذكر الإحصـائيات أن أغلب حـالات الانتحـار هي من الفتيـات الصغيرات اللائي يعشن حياة قلقة وبائسة.

العنف:

بالمناسبة.. هناك ظاهرة لا تقل خطرا.. إنهـا العنـف الممـارس ضد القصر.. لقد ظهرت في عصرنا للأسف، ولأول مرة في تـاريخ الطب حالات جماعية لضرب الأطفال الصغار ضـرباً وحشـياً يـؤدي في كثير من الأحيان إلى الوفاة أو إلى تشوهات جسدية وعقلية.

وقد تحدثت المجلات الطبية بإسهاب عن هـذا المـرض الجديـد الذي لم يكن معهوداً من قبل وأسمته (مرض الطفـل المضـروب) الذي اكتشفه الدكتور كيمب منذ خمسة وعشرين عاماً فقط.

وتذكر مجلـة هيكسـاجين الطبيـة أنـه لا يكـاد يوجـد مستشـفى للأطفال في أوروبا وأمريكا إلا وبه عدة حالات من هـؤلاء الأطفـال

المضروبين ضرباً مبرحاً من أمهاتهم وأحياناً من آبائهم.

وفي عام 1967 دخل إلى المستشفيات البريطانية أكثر من 6500 طفل مضروب ضرباً مبرحاً أدى إلى وفاة ما يقرب من 20 بالمائة منهم، وأصيب الباقون بعاهات جسدية وعقلية مزمنة.. وقد أصيب المئات بالعمى كما أصيب مئات آخرون بالصمم.. وفي كل عام يصاب المئات من هؤلاء الأطفال بالعته والتخلف العقلي الشديد والشلل نتيجة الضرب المبرح.

ويتساءل الدكتور آبلي رئيس أقسام الأطفال في مستشفيات بريستول المتحدة في مدينة بريستول ببريطانيا: هل هؤلاء الآباء والأمهات وحوش؟ وينتهي في مقاله إلى أن هؤلاء الأمهات يواجهن أزمات نفسية خطيرة أدت بهن إلى ضرب أطفالهن ضرباً مميتاً.. أو مؤدياً إلى عاهات مستديمة.. ويقول أن أغلب هؤلاء الأمهات لسن مجرمات بطبيعتهن ولكن وجود الأم بدون زوج واضطرارها للعمل والخروج ثم عودتها مرهقة إلى المنزل لتواجه الطفل الذي لا يكف عن الصراخ يفقدها اتزانها وعواطفها.. وقد لوحظ أن كثيراً من هؤلاء الأمهات يكرهن أولادهن كرهاً شديداً حيث ينغص هؤلاء الأطفال على أمهاتهن حياتهن.

وقد نشرت الصحف قصة الشاب والشابة اللذين قاما ببيع طفلتهما البالغة من العمر ستة أشهر في أمريكا بثمانين دولاراً، وقد أجاب الأبوان عندما سئلا: لماذا يقومان ببيع طفلتهما؟ بأنهما لا يجدان من المال ما يكفي لإعاشتهما فكيف بهما مع الطفلة وأنه من الخير لطفلتهما أن تجد من يعولها بدلاً منهما رغم أنهما يحبان الطفلة ولكنهما مضطران لبيعها (1) !

ونشرت بعض الجرائد(2) خبراً مفاده أن مطلقة بريطانية اسمها (مانيس جاكسون) عرضت ابنها الوحيد للبيع بمبلغ ألف جنيه والمبلغ يشمل ملابس الطفل وألعابه، وقد قالت بأنها ستبيع ابنها لأنها لا تستطيع الإنفاق عليه، وليس لديها دخل لإعاشته.

والأكثر فظاعة وبشاعة من كل هذا أن يرتكب الأب الفاحشة بطفلته وتقول مجلة هيكسا جون الطبية أن الاعتداءات الجنسية على الأطفال من آبائهم أكثر بكثير مما هو معروف ومدون.. كما أن كثيراً من الأمهات والآباء يقومون بتسميم أطفالهم بإعطائهم السموم والعقاقير الخطيرة.

1()نشرت ذلك صحيفة ((السعودي جازيت)) مع نشر صورة الأبوين الشابين في 22/1/1977 الموافق 3/2/97.

2()جريدة الشرق الأوسط في عددها الصادر 15/9/1400 الموافق 27/7/1980.

السلام

سكت قليلا، ثم قال: بعد أن عاينت كل هذا وتـألمت لـه، رحت أبحث عما بحثتم جميعا عنه.

قلنا: الموت!؟

قال: أجل.. ولم يصعب علي أن أجد جمعيات الموت..

قلنا: أي جماعة قصدت منها؟

قال: لقد قصدت جماعـة (جيم جـونز).. القس (جيم جـونز).. لاشك أنكم تعرفونه.. إنه قس مهووس، ومدمن للمخـدرات، أقـام لأتباعه مزرعة ضخمة وجمعهم فيها، وأبـاح لهم الجنس، وأتـاح لهم المخدرات، وظنوا أن الحياة داخل هذه المزرعة هي السعادة، وأن هـذا هـو النعيم المقيم.. ولكن بعـد فـترة خـاب ظنهم، وأصـابهم الإحباط، واستطاع هذا القس إقناعهم بالانتحار.. وبالفعل وفي عام 1978م أقـدم 918 شخصـاً على الانتحـار، وكـان بينهم كثـير من الأطفال وكبار السن.

لقـد كـان مقـر هـؤلاء مدينـة جويانـا بولايـة سـان فرانسـيكو بالولايــات المتحــدة، وكــان أكــثر أعضــاء الطائفــة من الزنــوج الســاخطين على النظــام الاجتمــاعي، والــذين كــانوا يعــانون من التفرقة العنصرية التي يعاملهم بها الأمريكان البيض.

انضممت إلى هـذه الجمعيـة لا لشـيء إلا لأتنـاول المـوت على أيديهم..

لكن قدر الله أنقذني.. ولم ينقذني إلا ليريني من النور والسلام والصفاء ما لم أكن أدرك له أي وجود.

في ذلك المحل الذي كنت فيـه في بـرزخ بين المـوت والحيـاة رأيت السلام الذي جئت إلى هذه البلاد أبحث عنه.

قلنا: كيف كان ذلك؟

قال: لقد حملني وأنا في سـكرات المـوت رجـل لا أعـرف إلى الآن اسمه.. ولكنه كان رجلا عظيما ممتلئـا بكـل معـاني الإنسـانية والنبل..

لقد مكث معي فترة طويلـة يـداويني من جـروحي، ويواسـيني من آلامي.. وفوق ذلك كله يمدني من المعارف المرتبطـة بجـوهر اهتمامي في الحياة ما أحال المجتمع في عيني كخلايا النحـل الـتي تتآلف وتتواصل وتتعاون لتؤدي الرسالة التي كلفت بها.

وفوق ذلك كله أراني عينات واقعية من هذا المجتمع.. جعلتـني أمتلئ تفاؤلا وهمة..

قلنا: فحدثنا عن المجتمع البديل الذي عرضه عليك.
قال: لقد سألته عن ذلك، فقال: هـو مجتمـع يقـوم على أربعـة أصول كبرى تفتقر إليها جميع المجتمعات الإنسـانية إلا المجتمعـات المستظلة بظل الإسلام.
سألته عنها، فقال: هي: التآلف، والتكافل، والتناصر، والتناصح.
سألته عن وجه الحصر فيها، فقال: إن أفـراد المجتمـع لا يمكن أن يستقيم بغير توفر هذه الأربع:
أما أولها.. وهو الألفة.. فهو تلك الخصال الطيبة التي تملأ حيـاة أفـراد المجتمـع محبـة ومـودة واسـتقرارا.. فلا يسـمعون إلا مـا يرضيهم، ولا يرون إلا ما يطمئنهم.
وأما ثانيها، فلأنه لا يمكن لمجتمع أن يعيش السلام وفيه الجـائع والعاري..
وأمـا ثالثهـا، فلأنـه لا يمكن لمجتمـع أن يعيش السـلام وفيـه المظلوم والمستضعف..
وأمـا رابعهـا، فلأنـه لا يمكن لمجتمـع أن يعيش السـلام وفيـه المجرم والمنحرف..
ثم ذكر لي أن القرآن الكتـاب المقـدس للمسـلمين أشـار إلى هذه الأربع.. ففيه عند ذكر الخصال الموجبة للنجاة من عذاب الله: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَـامٌ فِي يَـوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد:11 ـ 17)
فقوله :﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ إشارة إلى النصـرة، لأن أعظم نصـر للأخ لأخيه أن يفك رقبته من قيد من استعبده.
وقولـه :﴿ أَوْ إِطْعَـامٌ فِي يَـوْمٍ ذِي مَسْـغَبَةٍ يَتِيمـاً ذَا مَقْرَبَـةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ إشارة إلى ركن التكافل الاجتماعي.
وقوله:﴿ ثُمَّ كَـانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ وَتَوَاصَـوْا بِالْمَرْحَمَـةِ ﴾ إشـارة إلى التناصـح بين المؤمـنين، والتـآلف بينهم.. فالمرحمة هي أساس الألفة.

التآلف:

قلنا: فحدثنا عن التآلف.
قال: سألته عنه، فقال: تتأسس الألفة الاجتماعيـة في الإسـلام على أساسين: **الرحمة والمحبة**..
أما أولهما، فأشار إليه قوله تعالى :﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُـولُ اللـهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: 29)

وقد ربى الأمة عليه تلك التوجيهـات القوليـة والعمليـة الكثـيرة لرسول الله ﷺ..

فقد كان الرسول ﷺ **يعامل الصبية** معاملة كلها رحمة ورقـة وتلطف.. وكان يلوم على القسوة والجمود، فكان يحمـل الصـبيان ويقبلهم ويتركهم يركبونه ويضعهم في حجره، ويحملهم على عاتقه حتى وهو بين يدي ربه في الصلاة.

وعندما قبل رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن على، وعنده الأقرع بن حابس التميمى، فقال الأقرع : إن لي عشـرة من الولـد ما قبلت منهم أحداً قط، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (من لم يرحم لا يُرحم)(1)

وعن أبى قتادة قال: خرج علينـا النـبى ﷺ وأُمَامَـةُ بنت العـاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها(2).

وعن جابر قـال: صـليت مـع رسـول اللـه ﷺ صـلاة الأولى، ثم خرج إلى أهله وخرجت معه فاستقبله ولدان، فجعـل يمسـح خـدَّيْ أحدهم واحد واحد.. قال : وأما أنا فمسح خدي، فوجدت ليده بـرداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار(3).

وكان ﷺ يولي **كفالة اليـتيم** المنزلـة العظيمـة.. ويخـبر عن الأجر العظيم الذي أعده الله لمن يكفل يتيمـا، فقـال:(أنـا وكافـل اليتيم فى الجنة هكذا ــ وأشـار بالسـبابة والوسـطى وفـرج بينهمـا شيئا ـ)(4)

ومن عنايتـه ﷺ باليتـامى مـا حـدث بـه ابن أبى ملكيـة أن ابن الزبير قال لابن جعفر: أتذكر إذا تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن أبى عباس؟ قال : نعم، فحملنا وتركك(5).

فالثلاثة صبية صغار كانوا خرجوا لتلقى الرسـول ﷺ وهـو عائـد من إحدى سفراته، فحمل عبد الله بن جعفر على دابته ــ حيث أن جعفر كان قد استشهد فى مؤتة ـ هو وابن عمـه وتـرك ابن الزبـير لأبيه.

ويقول عمر بن أبى سلمة: كنت غلاماً ـ يتيماً ـ فى حجـر النـبي ﷺ فكانت يدي تطيش في الصفحة فقال لي رسـول اللـه ﷺ :(يـا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) فما زالت تلك طعمــتي

1()رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري ومسلم.
3() رواه مسلم.
4() رواه البخارى وأبو داود والترمذى وابن حبان.
5() رواه البخارى.

بعد(1).

وهـذا وغـيره لمـا ورد في النصـوص الكثـيرة من الحث على رحمة اليتامى والاهتمام بهم..

ومن ذلك رحمته ﷺ **بالنساء**.. فقد روي أنه وقـف بينهن وقـد جئن يبايعنه على أن يأتمرن بأوامر الله ويجانبن نواهيه، فقـال لهن الرسـول ﷺ :(فيمـا اسـتطعتن وأطعتن)، فقلن: (اللـه ورسـوله أرحم بنا من أنفسنا)(2)

وكـان ﷺ يقـول: (اللهم إني أحـرج حـق الضـعيفين : اليـتيم والمرأة)(3)

وكانت حياته ﷺ بين نسائه فى بيتـه المثـل الأعلى فى المـودة والموادعة وترك الكلفة، وبذل المعونة، واجتناب هُجْر الكلام ومره.

ومن ذلك رحمته ﷺ بالأرقاء.. روي أن أبـا ذر خـرج إلى النـاس يوماً ومعه غلاماً يرتدى حلـة مثـل حلتـه، فسـئل عن ذلـك فقـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: (هم أخـوانكم وخـولكم، جعلهم اللـه تعالى تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمـه ممـا يأكـل وليلبســه ممــا يلبس ولا تكلفــوهم من العمــل مــا يغلبهم فــإن كلفتموهم فأعينوهم)(4)

وقال ﷺ :(ما خففت على خادمك من عمله كان لك أجـرا في موازينك)(5)

وأمــا **الأســاس الثــاني الــذي يقــوم عليــه التــآلف الاجتمـاعي في الإسـلام، وهـو المحبة**، فأشـار إليـه قولـه تعـالى : وَالَّذِينَ تَبَـوَّءُوا الـدَّارَ وَالإِيمَـانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِمْ (الحشر:9)

وقد وردت النصوص الكثـيرة تـبين فضـل المحبـة في اللـه بين المؤمنين.. ففي الحديث قال رسـول اللـه ﷺ :(ثلاث من كن فيـه وجـد بهن حلاوة الإيمـان: أن يكـون اللـه ورسـوله أحب إليـه ممـا سواهما، وأن يحب المـرء لا يحبـه إلا للـه، وأن يكـره أن يعـود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار) (6)

وقال ﷺ :(سـبعة يظلهم اللـه في ظلـه يـوم لا ظـل إلا ظلـه: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلـق

1() رواه البخاري.
2() رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة، وقال الترمذى : حسن صحيح.
3() رواه ابن ماجة وأحمد.
4()رواه ابن حبان في صحيحه وهو في مسلم باختصار.
5()رواه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه.
6() رواه البخاري ومسلم.

بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) (1)

وقال ﷺ :(إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي) (2)

وذكر ﷺ :(أن رجلاً زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال:أين تريد؟ قال:أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها، قال: لا غير أني أحببته في الله عز وجل، قال : فإنّي رسول الله إليك بأنَّ الله قد أحبك كما أحببته فيه)(3)

وقال:(المتحابون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء) (4)

وقد شرع الإسلام لرعاية هذا الأساس وتحقيقه الكثير من الأحكام والتشريعات والآداب(5).. والتي تجعل من الإنسان ملتزما إنسانا محبوبا مألوفا كما قال ﷺ:(المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس)(6)

ومن ذلك ما ورد في الحديث من قوله ﷺ :(والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم) (7)

ومن ذلك ما ورد في موعظة لقمان عليه السلام من قوله لابنه :﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:18)

ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التنبيه إلى كثير من أصول الآداب الاجتماعية، كآداب الاستئذان، كما في قوله تعالى :﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور:59)

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه مسلم.
3() رواه مسلم.
4() رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
5() ذكرنا الكثير منها بتفصيل في (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية)
6() الدارقطني في الأفراد والضياء عن جابر، وفي حديث آخر:« المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » رواه أحمد والطبراني في الكبير.
7() رواه مسلم.

أو آداب الزيارة كما في قوله تعالى :﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْـرَجِ حَـرَجٌ وَلا عَلَى الْمَـرِيضِ حَـرَجٌ وَلا عَلَى أَنْفُسِـكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ إِخْـوَانِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخَـوَاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَعْمَـامِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُـوتِ أَخْـوَالِكُمْ أَوْ بُيُـوتٍ خَـالاتِكُمْ أَوْ مَـا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَـهُ أَوْ صَـدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتـاً فَسَـلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَـةً طَيِّبَـةً كَـذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيـاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (النور:61)

أو آداب المجالس، كما في قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَـحُوا يَفْسَـحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيـلَ انْشُـزُوا فَانْشُـزُوا يَرْفَـعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة:11)

أو آداب الكلام، كمـا في قولـه تعـالى :﴿ وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمـان:19)ـ وقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِـكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَـطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات:2)

أو آداب التحية، كمـا في قولـه تعـالى :﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النسـاء:86)

أو آداب المشي، كمـا في قولـه تعـالى :﴿ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (الاسراء:37)

أو آداب التعامل مع مختلف أصناف النـاس بمـا يناسـبهم، كمـا في قوله تعالى :﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ (النور: من الآية63)

وقد كان ﷺ يعلم الصحابة ﷺ أصول هذه الآداب وفروعها، وقد قـال لهم مـرة:(إنكم قـادمون على إخـوانكم، فأحسِـنوا لباسَـكم، وأصلحوا رِحالكم، حتى تكون كأنكم شامَةٌ في النـاس، فـإنَّ اللـه لا يُحبُّ الفُحشَ ولا التَفَحُّشَ)(1)، والنصوص والأمثلة على ذلك كثـيرة تفيض بها كتب السنة.

بالإضافة إلى هذا.. فقد **حمي التآلف الاجتماعي من كـل المنغصات التي قـد تـؤثر في العلاقـات الاجتماعية**، ومن ذلك ما نص عليه قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ

1() أبو داود وأحمد والحاكم في « المستدرك».

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8) وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) (الحجرات)

وكان رسول الله ﷺ يدرك أن بقاء هذه المة رهين بتآلف القلوب التي التقت على الحب في الله، وأن حتفها في تناحر قلوبها لذلك كان يحذر من أن يذر الخلاف قرنه فيقول: (الا تختلفوا فتختلف قلوبكم)(1)

وكان ﷺ يجتث بذرة الخلاف قبل أن تتنامى.. فعن عبدالله بن عمر قال : هجّرت إلى رسول الله ﷺ يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب فقال : (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)(2)

التكافل:

قلنا: فحدثنا عن ثانيها.. ذلك الذي سميته التكافل (3).

قال: لقد سألته عنه، فقال: التكافل هو إعانة الأخ لأخيه إعانة تخرجه من العوز إلى الغنى.. وهو ركن أساسي لأن حياة الإنسان لا تقوم إلا بحياة هذا الجسد وصحته، وتوفر ما يلزمه وما يقتضيه بقاؤه، وذلك كله يقتضي توفر ما يلزم من قوت ومأوى ونحو ذلك.

1() رواه البخاري.
2() رواه مسلم.
3() خصصنا التكافل بفصل خاص في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

وهـذا الـواجب لا يتحقـق إلا بتـوفر التربيـة الـتي تشـعر الفـرد بمسؤوليته على الجماعة..

ويشير إلى هذ من القرآن الكريم قولـه تعـالى :﴿ وَالَّذِينَ تَبَـوَّأُوا الــدَّارَ وَالْإِيمَــانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَــاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِــدُونَ فِي صُـدُورِهِمْ حَاجَـةً مِمَّا أُوتُـوا وَيُـؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ وَلَـوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:9)

ففي هذه الآية إخبار عن الإيثار الذي تحلى به الأنصار لمـا قـدم المهاجرون إليهم، بعد أن تركـوا في بلادهم كـل مـا يلـزم لنفقتهم، فوجـدوا لهم إخوانـا لهم اقتسـموا معهم زادهم، بـل آثـروهم على أنفسهم.

وقـد حفظت لنـا كتب الحـديث بعض مـا فعلـه الأنصـار مـع المهاجرين، فعن أنَس قال: قال المهـاجرون:(يـا رسـول اللّـه مـا رأينا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسـن مواسـاة في قليـل ولا أحسـن بذلاً في كثير، لقـد كفونـا المؤنـة وأشـركونا في المهنـأ، حـتى لقـد خشـينا أن يـذهبوا بـالأجر كلـه)، فقـال ﷺ:(لا، مـا أثـنيتم عليهم ودعوتم اللّه لهم)(1)

وظلوا هكذا حتى بعد أن فتح الله على المؤمنين، وقـد روي أن النـبي ﷺ دعـا الأنصـار أن يقطـع لهم البحـرين، فقـالوا:(لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها)، قـال:(إمـا لا، فاصـبروا حـتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة)(2)

بل روي أكثر من ذلك، ففي الحـديث: قـالت الأنصـار:(اقسـم بيننـا وبين إخواننـا النخيـل)، فقـال:(لا)، فقـالوا:(أتكفونـا المؤنـة ونشرككم في الثمرة؟) قالوا:(سمعنا وأطعنا)(3)

بـل روي أكـثر من ذلـك، فقـد كـان الأنصـار من حرصـهم على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين أنه ما نزل مهـاجري على أنصـاري إلا بقرعة.

وكان المهاجرون في قمة الاستغناء، كما كان إخـوانهم الأنصـار فيقم البذل، فقد روي أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول اللـه ﷺ بين عبـد الـرحمن بن عـوف وسـعد بن الربيـع، فقـال سـعد لعبـد الـرحمن:(إني أكـثر الأنصـار مـالا، فأقسـم مـالي نصـفين، ولي امرأتان فـانظر أعجبهمـا إليـك، فسـمِّها لي أطلقهـا، فـإذا انقضـت

1() رواه أحمد.
2() رواه البخاري.
3() رواه البخاري.

عدتها فتزوجها)، فقال عبد الرحمن:(بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟؟)

فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدُوَ..ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ:(مَهْيَمْ؟)، قال:(تزوجتُ)، قال:(كم سقتَ إليها)، قال:(نواة من ذهب!)(1)

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التكافل بصورة أخرى جميلة، فقال تعالى :﴿ وَيُطعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ (الانسان:8 ـ 9)

ففي هاتين الكريمتين إخبار عن إيثار هؤلاء المحاويج من المؤمنين غيرهم بالطعام مع حبهم له وحاجتهم إليه، ثم هم لا يطلبون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهو موقف يشبه كثيرا موقف موسى عليه السلام عندما سقى للفتاتين، ثم أوى إلى الظل من غير أن يشعر نفسه أو يشعر غيره أنه فعل شيئا، قال تعالى:﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:24)

وهذه المواقف ـ في حقيقتها، وفي حقيقة الإسلام ــ ليست شيئا ثانويا مستحبا، وإنما هي واجب من واجب من واجبات الدين، فقد قال ﷺ:(ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)(2)، وقال ﷺ:(أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)(3)

بل نص القرآن الكريم على هذا في مواضع مختلفة بصيغ مشددة تدل على أن الأمر ليس موكولا لرغبات الناس، وإنما هو واجب من واجبات الدين، فلا يصح أن يموت الناس جوعا في نفس الوقت الذي تمتلئ يه خزائن الكثيرين، ولو دفعوا الزكاة.

فالواجب هو إغناء المحتاجين بأدنى ما يجب إغناؤهم به، وما الزكاة إلا وسيلة لذلك، إن كفت فبها، وإن لم تكف وجب في أموال الجميع ما يكفيهم.

والقرآن الكريم يحض على هذا ويصرح به ويشير إليه، قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ

1() رواه البخاري.
2() البزار، والطبراني في الكبير.
3() مسلم.

يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:38 ـ 48)

فقد اعتبر تعالى عدم إطعام المساكين من الجرائم التي تسبب الدخول في جهنم، بل تقرن هذه الجريمة بترك الصلاة، ثم تقدم على التكذيب بالدين، ثم يتوعدون بعدم نفع الشافعين فيهم.

بل لم يعف القرآن الكريم من هذا الواجب حتى العامة من الناس الذين لا يملكون ما يطعمون غيرهم، لأنه لم يأمر بالإطعام فقط، بل أمر بالحض على الإطعام، ليشمل هذا الأمر الجميع، قال تعالى:﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ (الفجر:17 ـ 20)

وقالتعالى وهو يذكر موقفا من مواقف القيامة الشديدة:﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة:30 ـ 37)

بل نجد هذا في سورة كاملة تكاد تكون خاصة بهذا الجانب يعتبر من لا يحض على طعام المسكين مكذبا بالدين، قال تعالى:﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾(الماعون:1 ـ 7)

وقد ذكر العلماء درجات المؤمنين في قيامهم بما يتطلبه هذا الركن من البذل، وهي ثلاث درجات:

الأولى: وهي أدناها أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

الثالثة: وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابين.

التناصر:

قلنا: فحدثنا عن ثالثها.. ذلك الذي سميته التناصر.

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فأجابني قائلا: هو نصرة الأخ لأخيه في مواقف الشدة والحاجة، لأن الأمن ركن أساسي في الحياة لا يقل عن ركن الغذاء، ولذلك جمع الله تعالى بينهما في قوله :﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل:112)، وقال تعالى في ذكر نعمه على قريش:﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش:4)

لأن أسباب الهلاك لا تصيب الإنسان من جهة الجوع وحده، بل تصيبه أيضا من الأعداء الذين يتربصون به، بل إن هذا الجانب أكثر ضررا بالإنسان من جانب الجوع.

وقد أشار إلى هذا الركن قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الأنفال:72)

ففي هذه الآية الكريمة حض على نصر المؤمنين بعضهم بعضا، فلا يصح أن ينعم المسلم بالأمن في الوقت الذي يصاب إخوانه بكل أنواع البلاء.

وقد قال ﷺ وهو يحض على رعاية هذا الركن:(المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله)، وقال ﷺ:(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، قيل: يا رسول الله! أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالما؟)، قال:(تمنعه من الظلم؛ فذلك نصرك إياه)(1)

ولأجل تحقيق هذا الركن شرع الإسلام الجهاد في سبيل الله، قال تعالى في تبرير الأمر بالجهاد مع كونه إزهاقا للأرواح التي جاءت الشريعة لحفظها:﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء:75)

وقد ورد هذا التبرير في مواضع مختلفة، وكلها تنطلق من أن الغرض من القتال في الإسلام ليس المقصود منه التوسع ولا الاستعمار والسيطرة، وإنما المقصد منه نصرة المستضعفين، قال تعالى:﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

1() رواه البخاري وأحمد.

لَقَـدِيرٌ﴾ (الحج:39)،ـ وقـال تعـالى: ﴿ وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَــاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَــدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَــدِينَ﴾ (البقــرة:190)، وقالتعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِـيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَـرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْـتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَـدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَيَمُتْ وَهُـوَ كَـافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:217)

وتحقيق هـذا الـركن يسـتدعي بـذل الجهـد في تحصـيل القـوة بأنواعها المختلفة، كما قال تعـالى: ﴿ وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُـونَ بِـهِ عَـدُوَّ اللَّهِ وَعَـدُوَّكُمْ﴾ (لأنفـال: من الآية60)، وقـال ذامـا من لم يعـد للأمـر عدتـه، واعتبـه كـاذا في دعواه: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَـهُ عُـدَّةً وَلَكِنْ كَـرِهَ اللَّهُ انْبِعَـاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (التوبة:46)

ومما يدخل في هذا الباب (ذب الأخ عن أخيـه في غيبتـه مهمـا قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض فحـق الأخـوة التشـمير في الحمايـة والنصـرة وتبكيت المتعنت وتغليـظ القـول عليه، والسكوت عن ذلك موغر للصدر ومنفـر للقلب وتقصـير في حق الأخوة.. فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومـك وهـو سـاكت لا تحركـه الشـفقة والحميـة للـدفع عنـك وتمزيـق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولـذلك شـبهه اللـه تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَـدُكُمْ أَنْ يَأْكُـلَ لَحْمَ أَخِيـهِ مَيْتاً ﴾ (الحجرات: من الآية12))(1)

التناصح:

قلنا: فحدثنا عن رابعها.. ذلك الذي سميته التناصح.

قال: لقـد سـألت صـاحبي عنـه، فقـال: هـو الـركن الرابـع من الأركان التي يقوم عليها بنيان المجتمع في الإسـلام، وهـو أساسـي من حيث أن الإنسان ليس جسدا فقط يحتـاج إلى غـذاء قـد يكفي أمره التكافل، أو حماية قد يكفي أمرها التناصر، ولكنه روح وعقـل يحتاج إلى تعليم وتوجيه وتربية ونصح، وكـل ذلـك يسـتدعي وجـود هذا الركن.

يقول الغـزالي في بيـان الحاجـة إلى هـذا الـركن:(ومن ذلـك

1() الإحياء: 2/181.

التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مؤاساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا، فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة)(1)

وقال ذو النون:(لا تصحب مع الله إلا بالموافقة، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة، ولا مع النفس إلا بالمخالفة، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة)

وقد رد الغزالي على من اعتبر هذا سببا للوحشة بين المؤمنين، فقال:(إعلم أن الإيحاش: إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك والصفات الذميمة عقارب وحيات وهي في الآخرة مهلكات فإنها تلدغ القلوب والأرواح وألمها أشد مما يلدغ الظواهر والأجساد وهي مخلوقة من نار الله الموقدة)(2)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الركن في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد:17)، وقالتعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر:3)

وإلى هذا الركن الإشارة بقول لقمان عليه السلام في وصيته لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان:17)

وقد اعتبر القرآن الكريم هذا الركن خاصة من خصائص هذه الأمة، فقال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: من الآية 110)

واعتبر أداء هذا الركن من علامات المؤمنين الصادقين، فقال تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران:114)، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

1() الإحياء: 2/182.
2() الإحياء: 2/183.

بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:71)، وقال تعالى:﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:112)

بل اعتبره من صفات الرسول ﷺ الأساسية، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف:157)

واعتبره بعد ذلك من علامات صحة التمكين في الأرض، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج:41)

وقد اعتبر ﷺ هذا التناصح ركنا من أركان الدين، فقال ﷺ: (الدين النصيحة) ثلاثا، قلنا لمن؟ قال:(لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)(1)، فقد اعتبر ﷺ الدين نصيحة، ثم عد من النصيحة النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

وقد ورد في الإسلام الآداب الكثيرة التي تجمع بين الألفة والنصيحة.. فلا يحصل الصراع بينهما، ومن ذلك أن تكون النصيحة في سر لا يطلع عليه أحد، لأن ما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشافعي: (من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه)، وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك؟ فقال: إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم وإن قرّ عني بين الملأ فلا.

قال الغزالي:(فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء. فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن)(2)

***

قلنا: فكيف كانت نهاية صحبتك لهذا الرجل الفاضل؟

1() رواه مسلم.

2() الإحياء: 2/182.

قال: كما كانت نهاية صحبتكم.. لقـد سـمعنا من يصـيح بالفتنـة التي تريد أن تستأصل المسـلمين.. فلم ألبث حـتى رأيت صـاحبي يهرول لقمعها لا يلوي على شيء..

وقد جئت إلى هذه البلاد بحثا عنه.. فقد علمت كما علمتم بــأن الفتنة تريد أن تنطلق من هذه البلاد لتشمل غيرها.

سابعا ـ الدولة

في اليوم السابع، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنـا عن حديثي..

أنـا رجـل كتب لـه أن يكـون مواطنـا بسـيطا في أنظمـة حكم كثـيرة.. تعـاملت معـه كمـا يتعامـل الخـبراء المغفلـون مـع فـئران التجارب.. إلى درجة أني صـرت أطلب المـوت.. بـل أسـتعمل من الوسائل ما يصلني به.. ولـولا أن أمـدني اللـه بلطفـه.. وأراني من السلام ما أراني لكنت الآن في عداد الموتى.

وقد شاء الله اللطيف الخبـير أن يكـون منقـذي هـو نفسـه من يريد أن ينفذ في حكم الإعدام.. وإلى الآن لا يـزال عقلي كليلا دون إدراك هذا وفهمه.

قلنا: من كان هذا الذي أنقذك؟

قـال: لن أحـدثكم عمن أنقـذني حـتى أحـدثكم عمن أرداني، وجعلني بكامل اختياري أطلب الموت.

الصراع

قلنا: فمن هو الذي أرداك؟

قال: لقد ذكرت لكم أنهم كثيرون.

الثيوقراطية:

قلنا: فمن أولهم؟

قال: الثيوقراطيون(1).

قلنا: ثيوقراطيون!؟.. ما تعني؟

قال: هم رجال كثيرون كانوا يزعمون أنهم ينوبون عن اللـه في حكم عبـاده.. كـانت لهم مقـار كثـيرة.. وكـان آخرهـا مقـر اسـمه الكنيسة.. كان فيهـا رجـال كثـيرون لا أزال متعجبـا من التناقضـات التي كانوا يحملونها، والتي كانت تملؤني بالصراع.

فهم من جهة أصحاب ألسنة عذبـة يقولـون لنـا بهـا كـل حين : (من ضربك على خدك الأيمن، فأدر له الأيسر)

ومن جهة أخرى كانوا يحملوننا كل حين على أن تظـل وجوهنـا

1()نسـبة للثيوقراطيـة، وتعـني حكومـة الكهنـة أو الحكومـة الدينيـة.. وتتكـون كلمـة ثيوقراطية من كلمتين مدمجتين هما (ثيو) وتعني الدين و(قراطية) وتعني الحكم.. وعليـه فإن الثيوقراطية هي نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته أو بالأحرى شـرعيته مباشـرة من الإله.. حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين.

مستديرة لهم، ليصفعوها متى شاءوا، وبما شاءوا.
أذكر في بعض تلك الأيام أن (تشرلس التاسع) أراد سـنة 574 م أراد أن ينشر الأمن فى ربوع البلاد، فهادن (الهوجونـوث)، وأدنى زعماءهم من حضرته، وتوج هذه الحركة بالرغبـة فى تـزويج أختـه من زعيم لهم، فأثار هذا المسلك ثائرة الكنيسة.
وفى ليلة الزفاف أقبل جموع (الهوجونوث) تـترى إلى بـاريس، فأطلق الرصاص على زعيمهم.
وعندئذ وطد عزمه على التنكيـل بمن حـاول اغتيالـه، وخشـيت (الكنيسة) مغبة ذلك، فعقدت النيـة على أن تجعـل عيـد (القـديس بـارثلميو) فى 24 أغسـطس سـنة 1572 م مذبحـة يبيـدون فيهـا خصومهم.
وفى منتصف الليل دق ناقوس (كنيسـة سـان جرمـان) مؤذنـا ببدء المذبحة.. فإذا بأشـراف الكاثوليـك والحـرس الملكى وجمـوع الجمـاهير تنقض على بيـوت (الهوجونـوث) والفنـادق الـتى آوتهم، وتأتى على من بها ذبحا.
فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تجرى بـدماء ألفين من النفوس.
وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم، فإذا بها تسـتحيل ـ بدورها ـ مجزرة تجرى بدماء ثمانيـة آلاف من هـؤلاء المسـاكين.. بل قيل: إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفا.
وقـد أثـار وقـوع هـذه المذبحـة الغبطـة والرضـا فى أوروبـا المسـيحية الكاثوليكيـة كلهـا، فكـاد (فيلب الثـاني) يجن من فـرط الفرح عندما بلغته أنباؤها، وانهالت التهانى على (تشرلس التاسـع) بغـير حسـاب.. وكـاد (البابـا جريجـورى الثـالث عشـر) يطـير من السرور، حتى إنه أمر بسك أوسمة لتخليد ذكراها توزع على وجـوه الشعب وعيونه.
وقـد رسـمت على هـذه الأوسـمة صـورته، وإلى جانبـه ملـك يضرب بسيفه أعناق الملحدين، وكتب على هـذه الأوسـمة (إعـدام الملحدين)
وإلى جانب هذا أمر البابا بإطلاق المـدافع وإقامـة القـداس فى شـتى الكنـائس، ودعـا الفنـانين إلى تصـوير منـاظر المذبحـة على حوائط الفاتيكان، وأرسل تهنئته الخاصة إلى (تشرلس)
هذا ليس إلا مشهدا واحدا من مشاهد الدماء التي كانت تسـيل لإرضاء نهم الكنيسـة ورجـال الـدين الـذين كـانوا يحيـون كـل حين

وصايا العهد القـديم بحـرب الإبـادة، الإبـادة الـتى لا تبقى فى ديـار الأعداء إنسانا ولا حيوانا.. حتى لو كان الأعداء مواطنون.

لقـد كـان أولئـك الرجـال الـذين سـفكوا تلـك الـدماء يعتـبرون أنفسهم يقدمون قرابين يطلبون بها رضوان الرب.

لقد كانوا يعتصرون أعناق الضحايا كما يمارسون الصـلاة سـواء بسواء.. أسوتهم في ذلـك مـا ورد في سـفر (يشـوع) عنـدما قـال للشعب: اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة، فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب.

وكان حين يسمع الشعب صوت البوق أن الشـعب هتـف هتافـا عظيما، فسقط السور فى مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة، كـل رجل مع وجهه.

وأخذوا المدينة، وحرموا كل ما فى المدينة من رجـل، وامـرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها)

لقد كان يشوع هو أسوتهم.. وكان يشوع هو رجل الدولة الـذي صلينا بناره فترات طويلة.

وبما أن يشوع الـذي كـان يمثـل رجـال الـدين والدولـة لم يكن يقيم أي وزن للحياة الدنيا، بل كـان يحتقرهـا ويزدريهـا ويـدعو إلى إهمالها وعدم الالتفـات إليهـا في سـبيل الحصـول على (الخلاص)، فإن الدين(1) ـ في صورته الكنسية ــ لم يكن يسـعى إلى تحسـين أحوال البشر على الأرض، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية التي تقع عليهم، وإنما يدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا برمتها، وترك كل شيء على ما هـو عليـه، لأن فـترة الحيـاة الـدنيا أقصر وأضأل وزناً من أن يحاول الإنسان تعديل أوضاعه فيها. إنمـا يسـعى جاهـداً إلى الخلاص منهـا دون أن يعلـق بروحـه شـيء من الآثام. والمتاع ذاته هو من الآثـام الـتي يحـاول المتطهـرون النجـاة منها بالرهبنة واعتزال الحياة.

بـل أكـثر من ذلـك : إن احتمـال المشـقة في الحيـاة الـدنيا، واحتمال ما يقع فيهـا من المظـالم هـو لـون من التقـرب إلى اللـه يســاعد على الخلاص. ومن ثم دعت الكنيســة الفلاحين للرضــا بالمظالم الـتي كـانت تقـع في ظـل الإقطـاع وعـدم الثـورة عليهـا لينالوا رضوان اللـه في الآخـرة وقـالت لهم : ((خـدم سـيدين في

1() استفدنا الكثير من المعلومات التاريخية الواردة هنا من كتـاب (العلمانيـة) لمحمـد قطب.

الحياة الدنيا خير ممن خدم سيداً واحداً))!

ومن جهة أخرى كان هذا الدين يحصر كيان الإنسان في نطـاق محدود محصور أشد الحصر ليبرز جانب الألوهية في أكمل صورة.. ألوهية الله بمعناها السلبي.

ومن ثم فـإن فاعليـة الإنسـان محصـورة في الطاعـة للأوامـر الإلهية _ كما تعرضـها الكنيسـة بـالحق أو الباطـل _ لا تتعـداها إلى الإنشاء لأنه ليس للإنسان أن ينشئ شيئاً من عند نفسه.

ومن ثم كـذلك كـان ثبـات الأوضـاع في أوروبـا في العصـور الوسطى لفترة طويلة من الزمان بكل ماتحمل من ألوان الفسـاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري والروحي على أسـاس أنها قدر الله الذي لا يجـوز للنـاس تغيـيره إنمـا ينبغي الخضـوع لـه والمحافظة عليه تقرباً إلى الله.

قال رجل منا: كيف تقول ذلك عن الكنيسة، وهي لا تزال أزهـد الناس في الرئاسة والسلطة، وهي لا تـزال تـروي كـل حين قصـة المسيح التي رواها الملهم متى، فقال: (فَذَهَبَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَتَآمَرُوا كَيْفَ يُوْقِعُونَهُ بِكَلِمَةٍ يَقُولُهَا. فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ بَعْضَ تَلاَمِيـذِهِمْ مَـعَ أَعْضَـاءِ حِزْبِ هِيرُودُسَ، يَقُولُـونَ لَـهُ: يَـامُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَـادِقٌ وَتُعَلِّمُ النَّاسَ طَرِيقَ اللهِ فِي الْحَقِّ، وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ لأَنَّكَ لاَ تُـرَاعِي مَقَامَـاتِ النَّاسِ، فَقُلْ لَنَا إِذَنْ مَا رَأْيُكَ؟ أَيَحِـلُّ أَنْ تُـدْفَعَ الْجِزْيَـةُ لِلْقَيْصَـرِ أَمْ لاَ؟ فَـأَدْرَكَ يَسُوعُ مَكْرَهُمْ وَقَالَ: (أَيُّهَا الْمُرَاؤُونَ، لِمَـاذَا تُجَرِّبُـونَنِي؟ أَرُونِي عُمْلَـةَ الْجِزْيَةِ! فَقَدَّمُوا لَهُ دِينَاراً. فَسَأَلَهُمْ: لِمَنْ هَذِهِ الصُّـورَةُ وَهَـذَا النَّقْشُ؟ أَجَابُوهُ: لِلْقَيْصَرِ! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَنْ، أَعْطُوا مَا لِلْقَيْصَرِ لِلْقَيْصَرِ، وَمَـا لِلـهِ لِلهِ، فَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا، مَدْهُوشِينَ مِمَّا سَمِعُوا) (متى:14/15-21)

كما أن (بولس) كرر نفس ما قاله السيد المسيح، فـأمرهم بالخضوع لأيـة حكومـة تبسـط سـلطانها عليهم، وألا يحـاولوا إثـارة الفتن، لأن تسلط هـذه الحكومـات عليهم إنمـا هـو بقَـدَر من اللـه، ومن ثم لا ينبغى التمـرد على سـلطانها، بـل عليهم دفـع الجزيـة والجبايات دون أى تذمر : (لِتَخْضَعْ كلُّ نفس للسلاطين العالية، فإنه لا سلطان إلا من اللـه، والسـلاطين الكائنـة إنمـا رتَّبهـا اللـه، فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب الله، والمعاندون يجلبـون دينونـة على أنفسـهم، لأن خـوف الرؤسـاء ليس على العمـل الصـالح بـل على الشرير، أفتبتغى ألا تخاف من السلطان؟ افعل الخير فتكـون لديه ممدوحا لأنه خادمُ الله لك للخـير فأمـا إن فعلتَ الشـر فَخَـفْ فإنه لم يتقلد السيف عبثا لأنه خادمُ الله المنتقمُ الذى يُنْفِذ الغضب

على من يفعل الشر، فلذلك يلزمكم الخضوع له لا من أجل الغضب فقط بل من أجل الضمير أيضا، فإنكم لأجل هذا تُوفُون الجزية أيضا، إذ هم خُدّام الله المواظبون على ذلك بعينه، أدُّوا لكلٍّ حقه : الجزية لمن يريد الجزية، والجباية لمن يريد الجباية، والمهابة لمن له المهابة، والكرامة لمن له الكرامة)

قال: ما تقوله صحيح من حيث النظرية.. ولكن التطبيق كان مختلفا تماما.. لقد استطاعت الكنيسة بنفوذها أن تجعل الملوك والأباطرة طوع إرادتها.. وأعلن البابا (نقولا الأول) (858-867م) بياناً قال فيه : (إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس في تسلسل مستمر متصل (ولذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكاماً كانوا أو محكومين)

وأعلن البابا جريجوري السابع الذي تولى البابوية من (1073-1085 م) قائلا: (إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق البابا وواجبه أن يخلع الملوك غير الصالحين، وأن يؤيد أو يرفض اختيار الحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال)

التفت إلى صاحبنا، وقال: لم يكن ذلك مجرد كلام.. لقد كان واقعاً عاشته أوروبا عدة قرون.. لعل أبرز ما يشير إلى تلك الفترة ما حدث بين (جريجوري السابع) هذا والإمبراطور الألماني (هنري الرابع) إذ أن خلافاً نشب بينهما حول مسألة (التعيينات) أو ما يسمى (التقليد العلماني)، فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا، ورد البابا بخلع الأمبراطور وأصدر قرار حرمان ضده، كما أحل أتباعه وأمراء مملكته من ولائهم له وألبهم عليه، فعقد الأمراء مجمعاً قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد، فوجد الإمبراطور نفسه مضطراً إلى استرضاء البابا، ولم يستطع أن ينتظر حتى يصل البابا إلى ألمانيا فسافر إليه في (كانوسا)، وظل واقفاً في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام في لباس الرهبان متدثراً بالخيش حافي القدمين عاري الرأس حتى تعطف عليه البابا، ومنحه مغفرته!

وفي بريطانيا حصل نزاع بين الملك (هنري الثاني) وبين (توماس بكت) رئيس أساقفة كنتربري بسبب دستور رسمه الملك

يقضي على كثير من الحصانات التي يتمتع بها رجال الدين، ثم إن رئيس الأساقفة اغتيل فثارت المسيحية على هنري الثاني ثورة عنيفة، فاعتزل الملك في حجرته ثلاثة أيام لايذوق فيها الطعام، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة، وأعلن للبابا براءته من الجريمة وألغي الدستور، ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها ومع ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربري حاجاً مظهراً ندمه، وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافي القدمين حتى دميت قدماه، ثم استلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط، وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات في سبيل استرضاء البابا وأتباعه.

الميكافيللية:

قلنا: عرفنا الثيوقراطيين.. فمن غيرهم؟

قال: قوم يسمون (ميكافيليين)(1).

قلنا: ميكافيليون!؟.. ما تعني؟

قال: هم قوم يقودهم رجل كان يقال له (مكيافيلي).. وكان يقودهم كتاب كان يقال له (الأمير)

قال رجل منا: لكن الذي أعلمه هو أن الكل كان يبغض مكيافيلي.. بل إن اسمه أصبح ملازماً للشر دائماً حتى في الفنون الشعبية.. وأول من هاجم مكيافيلي هو (الكاردينال بولس) مما أدى لتحريم الإطلاع على كتاب الأمير ونشر أفكاره، وكذلك أنتقد غانتيه في مؤلفٍ ضخم أفكار مكيافيلي، ووضعت روما كتابه عام 1559 ضمن الكتب الممنوعة وأحرقت كل نسخة منه.

ابتسم، وقال: لقد كان كل ذلك مجرد دعاية للكتاب ولأفكار الكاتب.. فعندما بزغ نور عصر النهضة في أرجاء أوروبا ظهر من يدافع عن مكيافيلي ويترجم كتبه.. لقد مدحه جان جاك روسو، وفيخته، وشهد له هيغل بالعبقرية.. بل إن مكيافيلي اعتبر أحد

1() نسبة لمكيافيلي (Niccolò Machiavelli)، ولد في فلورنسا 3 مايو 1469، وتُوفي في فلورنسا في 21 يونيو 1527، فيلسوف سياسي إيطالي إبان عصر النهضة.. وقد أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عَصّبَ دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن كتيب تعليمات للحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيدٌ فهو ضروري، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية.

وألف مكيافيلي العديد من (المطارحات) حول الحياة السياسية في الجمهورية الرومانية، فلورنسا، وعدة ولايات، والتي من خلالها برع في شرح وجهات نظر أخرى.

الأركـان الـتي قـام عليهـا عصـر التنـوير في أوروبـا.. وقـد أختـار موسوليني كتاب الأمير موضوعاً لأطروحته التي قدمها للـدكتوراه.. وكان هتلر يقـرأ هـذا الكتـاب قبـل أن ينـام كـل ليلـة.. وهكـذا من سبقهم من الملوك والأباطرة كفريدريك وبسمارك وكريستينا وكل من ينشد السلطة.

قلنا: عرفنا الكـاتب والكتـاب.. ولكنـا لم نعـرف مـذهب الحكم الذي يحمله ويدعو إليه.

قال: كل الكتاب.. وكل المذهب الذي يحمله ليس سوى جوابـا عن سؤال واحد هو: (كيف لحاكمٍ أو أمـير مُلهم أن يبـدأ أو يُحافـظ على مُلكه وحكومته؟)

قلنا: فكيف أجاب ميكافيلي على هذا السؤال الخطير؟

قـال: يـرى مكيـافيلي أن القيم والمبـادئ الأخلاقيـة يجب أن تخضع، أو يُتخلى عنها، لصالح الأهـداف.. وعليـه فهـو ينص على أن العالم الذي يعايشه الأمير يجب أن يظل على ما هو عليـه، ورجـال هذا العالم لايحسنون ولايسيئون. ومهمةُ الأمير هي أن يحصل على أفضل النتائج مع هؤلاء الرجال، من دون أن يعمـل على تثقيفهم أو تنويرهم.

وقد تجاهـل مكيـافيلي أي ترابـطٍ بين الأخلاق والسياسـة، كمـا شـدّدَ على أن الأمـير يجب أن يظهـر بمظهـر الـرحيم، والمتـدين، والأمين، والأخلاقي. ولكن واقعياً، فإن مركـزه لا يُؤهلـه لكي يمتـاز بأي من الخصال السالفة.

لقد اسـتطاع مكيـافيلي أن يعـري (السياسـة) من ذلـك القنـاع الأخلاقي المستمد من الدين، وكشفها عارية من كل أثـر للـدين أو الأخلاق!

جاء يشرع الجريمة السياسـية ويجعلهـا أصـلاً ينبغي للحكـام أن يتبعوه!

لقد كان الحكام يسيرون في سياستهم على أسـاس أن الغايـة تبرر الوسيلة، والغايـة طبعـاً هي غـايتهم هم! ولكنهم كـانوا – حين يستخدمون الوسائل غير النظيفة لتحقيـق غـايتهم غـير النظيفـة – يستترون وراء عبارات براقة تحـوى كـل نبيـل من القيم والمبـادئ والأخلاقيات، أما مكيافيلي فإن الجديد الذي أتى به- وهو خطير في ذاته أنه أعطى الوسائل الخسيسة في السياسـة شـرعية صـريحة لامواربة فيها ولا إنكار.

قال رجل منا: ماذا أضاف مكيافيللي من عنده إلى الواقع؟ ألم

يكن الواقع خسيساً في غايته ووسائله؟ فكـل مـا فعـل مكيـافيللى أنه كان صريحاً بالدرجة التي كشف بها القناع عن الواقـع المزيـف وجعله حقيقة واقعة!

قال: الفارق العملي كبير.. وقد لا يتضح الفرق في البدايـة، لأن البداية تكون مجرد مطابقة النظرية للواقع الموجود.. ولكن الفارق يتبين – ويزداد – مع التطبيق.. حين ترتكب المنكر وأنت شاعر بأنه منكر، فستقتصـد في ارتكابـه فلا تلجـأ إليـه إلا تحت ضـغط قـاهر، وستقف في ارتكابه عند الحد الذي ترى أنه لا يطيح بسمعتك كلهـا أمام الناس، وقد تحاول الرجوع عنه في يـوم من الأيـام، أمـا حين يكتسب المنكـر في حسـك الشـرعية فلمـاذا تقتصـد في ارتكابـه، ولماذا تقف عند حد من الحدود ؟!

ونظرة إلى ما وقـع في أيـام موسـولينى وهتلـر، ومـا وقـع في الدول الشيوعية منذ الثورة الشيوعية حتى اليوم، كفيلـة بـأن ترينـا إلى أي مدى انحـدرت السياسـة (الميكافيليـة) في تـبرير الوسـيلة بالغاية، وكلتا الوسيلة والغاية ما أنزل بها من سلطان!

في فاشـية موسـولينى ونازيـة هتلـر كـانت الغايـة هي التجمـع القـومي والعـزة القوميـة وإحلال قوميـة كـل منهـا مكانهـا (تحت الشمس)

وفي سبيل هذه الغاية (التي قـد تكـون مشـروعة في ذاتهـا إذا خلت من العدوان على الآخرين) استباح كل من الرجلين أن يقتـل ألوفـاً ومئـات الألـوف من المعارضـين باسـم (حركـات التطهـير) و(وحـدة الصـف) و(القضـاء على الثورةالمضـادة) و(القضـاء على الطابور الخامس) وما أشبه ذلـك من التعلات، وفتحت معسـكرات التعذيب، وذاق الشعب كله ويلات الجاسوسية والإرهاب.

وفي الثورة الشيوعية كانت الغاية إزالـة الظلم (!!) الـذي يقـع على الناس من جراء الملكية الفرديـة والصـراع الطبقي واسـتئثار الطبقة المالكة بالحكم والسـلطان والمنـافع على حسـاب الطبقـة الكادحة ! وإقامة العدل(!) بالوسائل النبيلـة (!) الـتي تـدعيها هـذه الثورة، ومن بينهـا ذبح ثلاثـة ملايين ونصـف مليـون من المسـلمين في عهد رجل واحد، وإخضاع الشعب كله لألوان من الإرهاب نادرة في التاريخ!

أما الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية فهي الـتي تـبيح احـتراف المعارضــة واحــتراف التأييــد بحســب موضــع كــل حــزب من الحكم :هل هو بداخله أم خارجه، بصرف النظر عن الحـق والعـدل

والمصلحة الوطنيـة أو القوميـة.. وتـبيح الكـذب من الساسـة على شعوبهم في الدعاية الانتخابية (وغـير الانتخابيـة) وتـبيح اسـتخدام وسائل اسـتراق السـمع بحجـة المحافظـة على الأمن، وهي تقـوم أساسـاً على مسـاندة الطبقـة الرأسـمالية في امتصـاص دمـاء الكـادحين وإن أخـرجت ذلـك كلـه في مسـرحية طريفـة اسـمها (الحرية والإخاء والمساواة!)

وهذا كله في السياسة الداخلية..

أما في السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر.. فالقرن الجاهلي العشرون هو الـذي شـهد أبشـع حـالات قـانون الغـاب الـتي يأكـل القوي فيها الضعيف!

في حربين عالميتين متتاليتين شهد الناس أفظع فنون العـدوان في التاريخ، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير جماعي وقتـل للنساء والأطفال والشيوخ والمدنيين غير المحاربين..إلى أن كـانت القمة قنبلتى هيروشيما ونجازاكي الذريتين، اللتين ما تـزالان حـتى اليوم بعد أكـثر من أربعين سـنة من إلقائهـا تنتجـان أجنـة مشـوهة بفعل الإشـعاع الـذري السـام، وذلـك غـير الخـراب المـدمر الـذي أحدثتاه وقت إلقائهما في مساحة كبيرة من الأرض قتلتـا فيهـا كـل من عليها من الأحياء من البشر والدواب والشـجر، وحرمتـا الحيـاة فيها لأجل غير معلوم !

والقنبلة الذرية لعبة صغيرة إلى جوار المدمرات التي اخـترعت بعد ذلك والتي تهدد الحياة في أي حرب تاليـة تقـوم بين الوحـوش ويصلاها الآدميون !

وذلـك إلى إباحـة الكـذب الـدولي والخيانـة على أنهـا عملـة (شرعية) في عالم السياسة الدولية!

تبرم المعاهدات لكي تنقض! ويعلم المبرمون جميعـاً أنهـا حـبر على الأوراق! وأنه لن يتقيد بهـا أي طـرف إلا ريثمـا يجـد الفرصـة السانحة للخروج عليها وإلقائها طعمة للنيران!

وتتكـون عصـبة للأمم وهيئـة للأمم كلتاهمـا سـتار للسياسـة العدوانية التي تتخذها (الدول العظمى) ضد الدول الصغار!

وذلـك بخلاف الوسـائل الفرديـة الـتي تسـتخدمها (الـدول العظمى !) بطريقها المباشر لتنفيذ (غاياتها) النبيلة!

حين قامت ثورة المجر سنة 1956 ميلادية وجـدت روسـيا في نفسها من (النبل) ماتحرك به الدبابات الشـاهقة تهـدم بـه الـبيوت على أصحابها أحياء وتـردمهم في الركـام لأنهم تجـرأوا فطلبـوا أن

يمنحوا حرية التصرف بأنفسهم في أمر أنفسهم دون وصاية الدولة الروسية عليهم.. فهل تقاوم الردة إلا بالقتل الجماعي؟!

أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب.. نريد انقلابا هنا..ونريد تغيراً هناك! وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال وكل الوسائل حلال! الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال ! المهم أن تنفذ الغاية..والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة في الأوحال!

العلمانية:

قلنا: عرفنا الميكافيليين.. فمن غيرهم؟

قال: العلمانيون.

قلنا: ما تريد بهم؟

قال: بعد أن انتشرت أفكار ميكافيلي في المصلحة المجردة أخذ الملوك والأباطرة يتمردون على ذلك السلطان القاهر الذي تستذلهم به الكنيسة، ويطالبون (بالسلطة الزمنية) خالصة لهم على أن تقتصر الكنيسة على السلطة الروحية فحسب، وكان مستندهم في ذلك نظرية الحق الإلهي المقدس.

يقول رندال: (نشأت نظرية الحق الإلهي للملوك في أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية، أوالعلمانية من رقابة البابا والكهنة، كما أنها كانت رداً على دعواه أن له حقاً إلهياً في السيطرة على الأمور الزمنية)(1)

ونظرية الحق الإلهي تستند إلى نظرية رومانية قديمة تعرف بنظرية (العقد الاجتماعي)

وقد كانت الإمبراطورية الرومانية – كما ضمنت في مجلة الحقوق المدنية – على القول بأن كل السلطة وكل حق في وضع القوانين يعودان للشعب الروماني، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحق للإمبراطور، وهو تفسير طبيعي لمجرى التاريخ الروماني فجميع حقوق الشعب الروماني وجميع سلطاته انتقلت إلى الإمبراطور، وله وحده حق (إصدار) القوانين وحق تفسيرها.

وعندما تم إحياء القانون الروماني في القرون الوسطى انتبه الإمبراطور إلى هذه النظرية واتخذها سلاحاً ضد سيطرة الكنيسة، ثم تبعه في ذلك جميع الأمراء.. وهكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعي القائلة بأن كل سلطة مدنية ترتكز في أساسها على

1() تكوين العقل الحديث:1/277..

الشعب، وأن الشعب قد حولها إلى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الوظائف الضرورية.

قلنا: فما الضير في هذه الأفكار؟

قال: لقد كانت هذه الأفكار وقودا لنيران كثيرة لا نزال نحترق بها.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لقد كانت تلك الأفكار تحمل معاول خطيرة تهدم بها كل القيم النبيلة.. وأولها أن (المفكرين الأحرار) بدأوا يهاجمون فكرة الألولهية وينفون الرسالات والوحي، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار.. ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية في غيبة من العقل، والآن وقد صحا العقل فقد آن الأون لنبذها وتركها للهمج المتأخرين.

بل انتشرت الأفكار الإغريقية القديمة التي تذكر أن الآلهة في صراع دائم مع الإنسان.. وأنها تريد أن تقهر الإنسان وتكبته وتحطمه لكي لا يطمح في أن يكون مقتدراً مثلها، فلا تفتأ كلما حقق نجاحاً أن تصب الكوارث فوق رأسه لكي لا يستمتع بثمرات نجاحه، وهو من جانبه دائم التحدي للآلهة، كلما وقع في حفرة من حفائرها عاد يستجمع قواه ليصارعها من جديد.

وتكفي أسطورة بروميثيوس الشهيرة لبيان هذا المعنى بصورة مباشرة، إذ تزعم تلك الأسطورة أن (زيوس) إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ثم سواه على النار المقدسة (التي ترمز إلى المعرفة) ثم وضعه في الأرض محاطاً بالظلام (الذي يرمز إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطوري يسمى بروميتوس، فسرق له النار المقدسة لكي ينير له ماحوله، فغضب زيوس على الإنسان وعلى بروميثيوس كليهما.. فأما بروميثيوس فقد وكل به نسراً يأكل كبده بالنهار، ثم تنبت له كبد جديدة بالليل يأكلها النسر بالنهار في عذاب أبدي!

وأما الإنسان فقد أرسل له زيوس (باندورا) (التي ترمز إلى حواء) لكي تؤنس وحشته (في ظاهر الأمر!) وأرسل معها هدية عبارة عن علبة مقفلة، فلما فتحها إذا هي مملوءة بالشرور التي قفزت من العلبة وتناثرت على سطح الأرض لتكون عدواً دائماً وحزناً للإنسان !

ويشير جوليان هكسلي إشارة صريحة إلى هذه الأسطورة في كتاب (الإنسان في العالم الحديثMan in the modern world)، فيقول

إن موقـف الإنسـان الحـديث هـو ذات الموقـف الـذي تمثلـه هـذه الأسطورة فقد كان الإنسان يخضع لله بسبب الجهل والعجز، والآن بعد أن تعلم وسـيطر على البيئـة فقـد آن لـه أن يأخـذ على عـاتق نفسه ماكان يلقيه من قبـل في عصـر الجهـل والعجـز على عـاتق الله، ويصبح هو الله)

قلنا: فما المصدر الذي هرب إليه الإنسان بعد هربه من الله؟

قال: لقد اتجه الفكر المنسلخ من الدين إلى البحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين! ذلك أن أوروبا لم تكن قد انسـلخت بعد من القيم ذاتها كما حدث فيما بعد حين امتـد الخـط المنحـرف فازداد بعداً وانحرافاً، أو لم تكن قد سنحت الفرصـة للشـريرين أن يعلنوا الحرب المنظمة على كل مقومات (الإنسـان) كمـا سـنحت لهم بعد ظهور الداروينية وإعلان حيوانية الإنسان!

ففي تلك الفترة وجد (الفكر الحر !) أنه إن أقر بأن الدين هــو مصدر القيم الإنسانية فقد وجب عليه أن يحافظ عليـه ولا يهاجمـه ولا يسـعى إلى تحطيمــه ! فينبغي إذن أن يبحث ذلــك الفكــر عن مصدر آخر يستمد منه القيم ويسندها إليه، لكي لا يقول أحد إنــه لا يمكن الاستغناء عن الدين ! وعلى هذا الضـوء يمكننـا فهم فلسـفة (أوجست كومت) من ناحية، وأفكار (جان جـاك روسـو) من ناحيـة أخرى، فكلاهمـا يجهـد نفسـه ليقـول للـذين يقفـون مـدافعين عن الدين: ها قد وجدنا مصـدراً آخـر تنبـع منـه القيم الضـرورية لحيـاة الإنسان غير الدين وجدناه في (الطبيعــة) وفي (النفس البشــرية) وهــو مصــدر أفضــل _ في إثبـات القيم وترسـيخها _ من الــدين.. فدعونا إذن من الدين، وتعالوا معنا إلى تلك المصادر (الحرة) التي يقبل عليها الإنسان إقبـالاً (طبيعيـاً) (وذاتيـاً) دون أن يحس بـالقهر المفروض عليه من قوة أعلى منه!

وفي الوقت ذاته اتجه هذا (الفكر المتحرر) إلى عبادة الطبيعــة بدلاً من عبادة اللــه، ونسـبة الخلـق إليهـا بـدلاً من اللــه.. وفي ذات الوقت كذلك اتجه الفن إلى مناجاة الطبيعـة بـدلاً من مناجـاة اللـه وتأليهها بدلاً من تألية الله.

وعندما جاءت الثورة الصناعية جاء معها المزيد من إبعاد الــدين عن الحياة..

ففي العهد الزراعي _ أو الإقطاعي كما يسمونه _ كان ما يزال للدين نفوذ كبير في حياة الناس.

كان الملوك قـد اسـتقلوا عن سـطان البابـا، وقـامت (علمانيـة

الحكم) بفصل الدين عن السياسة (أي إقصاء رجال الدين عن التدخل في شؤون السياسة) ولكن الكنيسة كان ما يزال لها سطان ضخم على أخلاق الناس وعاداتهم وأفكارهم رغم كل الصراعات وكل الاعتبارات.

ولكن الثورة الصناعية أحدثت _ أو أريد لها أن تحدث _ هزات عنيفة في حياة الناس.. فقد عملت هذه الثورة على إخراج المرأة إلى العمل وإفساد أخلاق الرجل معها، واستغلال قضية المساواة مع الرجل في الأجر لبث روح الصراع في نفس المرأة وإحراج صدرها من قوامة الرجل والعمل في البيت والتفرغ للأمومة، وما نتج عن ذلك كله من تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال والفوضى.. ونسبة ذلك إلى التطور الذي يهدم ما يشاء من القيم ويلغي ما يشاء!

وكانت الطامة العظمى هي الداروينية وإبعاد الإنسان ذاته من عالم الإنسان وإلحاقه بعالم الحيوان ! فعندئذ لم تعد هناك حاجة إلى القيم أصلاً.. لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد المستمدة من الدين.

قال رجل منا: ولكن ألا ترى في النظام العلماني من المصالح ما قضى به على تلك الآثار الخطيرة التي أنشأها الحكم الديني؟

لقد كان ــ في ظل الحكم الديني ــ النظام الإقطاعي هو السائد، وكانت الكنيسة قد أوهمت الناس أنه هو النظام الرباني الدائم الثابت الذي لايتغير، لأن أوضاع الناس فيه هي الأوضاع التي قدرها الله منذ الأزل ورضي عنها واقتضت مشيئته أن يظل الناس عليها إلى الأبد ! وأنه من رضي بما فيه من هوان ومذلة وشظف ومشقة فقد استحق من الله الجنة والرضوان!

قال: ذلك صحيح.. ولكن الناس حين خرجوا من الدين على خط العلمانية لم يستبدلوا بالإقطاع ماهو خير منه، سواء في الرأسمالية أو الشيوعية، بل ظلوا ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية حتى هذه اللحظة، وكلما حاولوا أن يصلحوا الظلم جاءوا بظلم جديد.

فهم ينقسمون أولاً إلى سادة وعبيد، سادة في أيديهم المال والسلطان، يشرعون وحين يشرعون فإنهم يضعون القوانين التي تضمن مصلحتهم وتسخر الآخرين لهم، وعبيد ليس في أيديهم مال ولا سلطان، فلا يشرعون، إنما يقع عليهم ما يضعه السادة من تشريعات، ويسخرون – رضوا أم أبو- لمصلحة أصحاب

السلطان..ومن جهة أخرى يصيبهم الخبل والاضطراب والتخبط نتيجة القصور البشري والجهل البشري والعجز عن الإحاطة والعجز عن رؤية المستقبل الذي ينبني على الحاضر، نعم ولكنه مع ذلك غيب لا يمكن التنبؤ به عن يقين.

الديمقراطية:

قلنا: عرفنا العلمانية.. فما غيرها؟

قال: كذبة تسمى (الديمقراطية) (1)

قلنا: لا نسمع عنها إلا طيبا، فكيف تصفها بهذا(2) ؟

قال: لأنها كذلك.. إنها أكبر كذبة يمارسها المستبدون ليلعبوا بها على أذقان شعوبهم.

قلنا: كيف ذلك؟

قال: لذلك قصة طويلة لن تفهموا آخرها حتى تفهموا أولها.

قلنا: فحدثنا عن أولها.

قال: لا شك أنكم تعرفون أن أول من مارس الديمقراطية كنظام حكم هم الإغريق في مدينتي أثينا وإسبارطة خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وذلك بعد تطور سياسي طويل استغرق حوالي سبعة قرون، حيث كانت تقوم في المدينة حكومة، يطلق عليها اصطلاحاً: اسم حكومة المدينة.

لقد كان أفراد الشعب من الرجال يجتمعون كلهم في المدينة، ويشاركون جميعاً في حكمها، أي يجتمعون في هيئة جمعية

1() مصطلح الديمقراطية يونانى الأصل، ويتكون من شقين : الشق الأول (Demoskratia) وتعنى بالعربية: (الشعب)، والشعب فى لسان العرب : القبيلة العظيمة، والجمع شعوب.. أما الشق الثانى من الديمقراطية (Demoskratia): فيعنى حكم أو سلطة بمعنى التحكم فى المصير الشخصى، وأحيانا تعنى مصير الغير.

ومجموع الشقين يعنى : حكم الشعب، أو سلطة الشعب.

ويلاحظ أن الكلمة فى النطق العربى لها أقرب إلى أصلها اليونانى مما هو عليه فى اللغات الأوربية الحية.

ويرى منتسكيو - وهو من أبرز مفكرى عصر النهضة وممن ساهموا فى إرساء نظرية الديمقراطية- أن الديمقراطية هى حكم الشعب، أو من يمثلونه وفق قواعد نيابية خاصة، فإذا كان الحكم فى أيدى فئة من أغنياء الشعب، فتلك هى الأرستقراطية.

ففى الديمقراطية يستطيع كل شخص وفق قواعد خاصة تمثيل الشعب، أو حكم الشعب باسم الشعب، أما فى حالة الأرستقراطية فإن الحكم محصور فى طبقة معينة أو عدة طبقات لا يتعداها.. وأحسن شكل للحكم الأرستقراطى هو ذلك الحكم الذى يقترب من الحكم الديمقراطى.

أما الحكم الملكى - فى رأى مونتسكيو- فهو الذى يقوم على هيئات تتوسط بين الملك والشعب، وتكون لها اختصاصات محدودة تحديدا دقيقا يحد من سلطان الملك.

(انظر: د حسن سعفان، روح القوانين لمونتسيكو، ص 28، وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تراث الإنسانية، 1995م)

2() استفدنا هنا من كتاب بعنوان (الديمقراطية) للدكتور صالح الرقيب.

عمومية، يتشاورون فيها في كل أمور الحكم، مثل: انتخاب الحاكم وإصدار القوانين، والإشراف على تنفيذها، ووضع العقوبات على المخالفين، وربما ساعد على هذا الاجتماع العام: قلة عدد السكان، وبساطة الحياة، وسهولة المشاكل ويسرها، وقد توزعت الاختصاصات التشريعية والتنفيذية والقضائية على الهيئات التالية: الجمعية الشعبية (العمومية)، والمجلس النيابي، والمحاكم الشعبية.

فحكم الشعب في هاتين المدينتين كان مطبقاً بصورة مباشرة، وكانت التسمية (حكم الشعب) مطبقة بصورة مباشرة، ومنطبقة على الواقع انطباقاً كاملاً.

ولكن هذه الصورة من حكم الشعب (الديمقراطية) قد انتهت بانتهاء حكومة المدينة في أثينا وإسبارطة اليونانيتين(1).

بعد ذلك بفترة طويلة.. وبعد أن عرفت أوربا نظام الإقطاع الذي ظل يحكمها أكثر من ألف عام في ظل الإمبراطورية الرومانية والقانون الروماني، ولما آمنت أوربا بالديانة المسيحية، لم تغير المسيحية من واقع الحياة في الجانب التشريعي والقانوني شيئاً بل مارس رجال الدين النصارى ظلماً وطغياناً تجاه الشعوب الأوربية، وفي ظل النظام الإقطاعي والطغيان الكنسي لم يكن للشعب قيمة أو وزن، بل كان يتعرض لأبشع أنواع الظلم والطغيان.

بعد أن كان الشعب يعاني من ظلم وطغيان الملوك والأمراء الذين كانوا يمارسون الحكم المستبد استناداً إلى نظرية التفويض الإلهي التي اُخترعت لتبرير سلطانهم المطلق، حيث تقول هذه النظرية: (إن الملوك يستمدون سلطانهم من تفويض الله لهم سواءً كان تفويضاً مباشراً أو غير مباشر)، وكان الشعب يعاني أيضاً من ظلم الإقطاعيين ورجال الكنيسة، ونتيجة المظالم المتراكمة تفجرت الثورة الفرنسية، ورفع شعار: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)

لقد تخلصت أوربا من ظلم الإقطاع والأمراء والملوك ورجال الكنيسة، ولكنها استبدلت نظام الحكم الظالم الذي كان جاثماً على صدرها لعدة قرون بنظام حكم آخر، هو النظام الديمقراطي الذي أخذته من تراثها الإغريقي الروماني.

1()انظر الديمقراطية الأثينية أ.هـ.م. جونز، ترجمة د. عبد المحسن الخشاب، الهيئة المصرية العامة 1976م ص 121.

والأساس الـذي اسـتندت إليـه أوربـا الحديثـة في أخـذها بمبـدأ سيادة الشعب هو نظرية (العقد الاجتماعي) الـتي صـاغها كـل من تومـاس هـوبز، وجـون لـوك، وجـان جـاك روسـو.. وجـوهر هـذه النظرية: (أن الناس في أول أمرهم كانوا يعيشون حياتهم الفطرية البدائية حياة غير منظمة، تخلو من التشـريع الـذي يحكمهم، وليس هناك دولة أو مؤسسـة تنظم معـاملاتهم وأمـور حيـاتهم، ثم نتيجـة تطور الحيـاة احتـاج النـاس إلى دولـة وتشـريع حـاكم، لأجـل ذلـك عقـدوا فيمـا بينهم عقـداً تنـازلوا بمقتضـاه عن جميـع حقـوقهم أو بعضـها للمجمـوع، من أجـل إقامـة السـلطة الـتي تحكمهم وتنظم شؤون حياتهم وتحفظ حقوقهم وحرياتهم)

والسلطة حسب هذا التصور قامت بنـاء على الإرادة الشـعبية، فالشعب هو صاحب السيادة والسلطة.

وبعد نضال وكفاح اسـتمر فـترة طويلـة من الزمـان اسـتقرت الديمقراطية في أوربا على صورتها الحالية، على اختلاف بينهـا في الجزئيات لا يؤثر في صورتها العامة ومبادئها الرئيسية.

قال رجل منا: فما الضير في هذا.. أليس من حـق الشـعب أن يحكم بالقوانين التي تتناسب مع مصالحه؟

قال: ذلك صحيح.. ولكن التاريخ في القديم والحـديث لم يـذكر لنـا أن هـذه الخصيصـة قـد تحققت، فالديمقراطيـة كنظـام للحكم كانت دوماً نظاماً طبقياً، أي كانت ومازالت طبقة واحـدة هي الـتي تفرد إرادتها ومشيئتها على باقي طبقات المجتمع.. ولـذلك ذكـرت لكم أن الديمقراطيــة لا تعــدو كونهــا كذبــة تفنن المســتبدون في التلاعب بها.

قلنا: كيف ذلك؟

قـال: في القـديم - عنـد الإغريـق- كـانت الطبقـة المكونـة من الأمـراء والنبلاء وأشـراف القـوم هي الطبقـة الحاكمـة المشـرِّعة صاحبة الإدارة العليا، بينما كان بقية أفراد الشعب - وهم الأغلبية- لا تملك من الأمر شيئاً.

وفي الحـديث نجـد طبقـة كبـار الأغنيـاء من أصـحاب رؤوس الأمـوال هم الـذين يشـكلون الطبقـة الحاكمـة المشـرِّعة صـاحبة الإرادة العليا، فهي التي تملك الأحزاب ووسائل الإعلام الـتي تصـنع الرأي العام وتوجهه لصالح القلة الحاكمة.

إن الديمقراطية لعبة الأقلية سواء كانت فئة أو طبقة، وليسـت حكومة الشعب أو الأغلبية كما جاء في تعريفها، وكمـا يتـوهم كثـير

من الناس.

ولهـذا فـإن الديمقراطيـة قـدمت لنـا صـوراً كثـيرة للنظم المسـتبدة، كالديمقراطيـة القيصـرية، وكنظـام نـابليون بونـابرت، ونظام لويس نابليون 1852م.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن المجلس النيـابي - بكـل أفـراده أو أكـثرهم- في النظـام الـديمقراطي لا يسـتطيع أن يسـنّ تشـريعاً صالحاً نافعاً، لتعذر اتفاق عقول جميـع النـواب على تشـريع واحـد، ولمّا أدرك هؤلاء النواب اسـتحالة ذلـك، جعلـوا في المجلس لجنـة قانونية، ولها مقرر واحـد، حـتى يمكن وضـع النظـام من واحـد، ثم يعـرض للنقـاش من عـدد محـدود - أعضـاء اللجنـة القانونيـة-، ثم يعرض على المجلس لا لوضعه، وإنما لإقراره، بعد نقـده من عـدة أشخاص، وبعد ذلك يصبح قانوناً من قبل المجلس. وحقيقـة الأمـر: أن واضع القانون شـخص واحـد، وناقشـه عـدة أشـخاص، فيكـون واضـع القـانون بضـعة أفـراد، لا الشـعب ولا أكثريتـه، ولا المجلس النيابي المنتخب نفسه.

وعلى فرض أن نواب الأمة - ممثلي أكثريـة الأمـة- هم واضـعو القوانين، فإن القانون أو النظـام الـذي وضـعوه لا يصـلح لأن يعين المصلحة ويحـدد المفسـدة، الـتي تقـوم عليهـا علاقـات الأمـة في المجتمع، لأن النظام أو القانون مصـدره العقـل، والعقـل وحـده لا يملك ذلـك، لأن عقـول النـاس متفاوتـة ومتباينـة من حيث الأفكـار وتحديد المصالح والمفاسد.

بالإضـافة إلى هـذا، فـإن الديمقراطيـة تقـوم على مبـدأ تقريـر الحقوق والحريات للأفراد، ووجوب ضمانها وصيانتها وحمايتها، ولقد ظهـرت هـذه الحقـوق والحريـات في البدايـة لحمايـة الأفـراد في مواجهـة سـلطة الدولـة، واسـتمدت دعائمهـا من النظريـات الـتي أوردت قيـوداً على سـلطان الدولـة كنظريـتي القـانون الطـبيعي والعقد الاجتماعي، ولقد اسـتقرت أخـيراً هـذه الحقـوق والحريـات وأصـبحت جـزءاً من النظـام الـديمقراطي، إذ قررتهـا من قبـل إعلانـات الحقـوق المختلفـة عقب الثـورات الإنجليزيـة والأمريكيـة والفرنسـية، وظهـرت في شـكل نصـوص دسـتورية في صـلب القوانين الأساسية، وهو ما أخذت به أغلب الدساتير. وقررها أيضـاً ميثاق هيئة الأمم، والميثـاق العـالمي لحقـوق الإنسـان الصـادر في 15 ديسمبر 1948م.

قال رجل منا: ما أجمل هذا.. فلم تعيبه؟

قال: أنا لا أعيبه.. ولكني أذكر خطورته.
قال الرجل: فما خطورته؟
قال: سأضرب لك مثالا على هذا فيما يتعلق بالحرية التي كفلتها الديمقراطية **في مجال الأخلاق**..
أنت تعلم أن حرية الإنسان في أن يفسد حرية مكفولة بالقانون الديمقراطي.. فالسلوك الجنسي مسألة خاصة إلى أبعد حدود الخصوصية، لا يتدخل القانون بشأنها، أي تدخل إلاَّ في حالة واحدة هي جريمة الاغتصاب، لأنها تقع بالإكراه لا بالاتفاق، أما أي علاقة - على الإطلاق- تقع بالاتفاق فلا دخل للقانون بها ولا دخل للمجتمع ولا دخل لأحد من الناس.. فسواء كانت هذه العلاقة سوية أو شاذة، وسواء كانت مع فتاة لم تتزوج أو مع امرأة متزوجة، فهذا شأن الأطراف أصحاب العلاقة، وليس شأن أحد آخر.
تلك هي الحرية التي تقر بها الديمقراطية في بلاد الغرب، وتحميها بالقانون، وتعطيها الشرعية الكاملة.
هذا في مجال السلوك الأخلاقي.. أما الحريات الاقتصادية، فقد أعطت الديمقراطية الفرد حرية مطلقة في الكسب والتملك والثراء والإنفاق، دون ضوابط ولا قيود، ومن هنا كان الربا والاحتكار والكساد والبطالة، والإسراف في إنفاق المال ولو كان على الفساد والرذيلة، وظهر المحتالون على أموال الناس، يأكلونها بالقمار، والرشوة واستغلال السلطة، وعبر المصنوعات التافهة، والتجارة بالمواد المفسدة للفطرة والذوق الإنساني، ومن خلال دور العهر والبغاء، وصالات الرقص والتعري والانحلال، ومن خلال الحروب المصطنعة لإيجاد أسواق تصريف فائض الإنتاج من السلاح ووسائل الدمار، ومن خلال مؤسسات الجنس والسينما والمودة والتقاليع المفسدة للأخلاق والطباع.
بالإضافة إلى هذا، فإن عدم وجود شروط يجب توافرها في الشخص الذي يريد ترشيح نفسه للحكم في الديمقراطية يجعل طلاب السلطة يتنافسون عليها، بل يتقاتلون من أجلها، ويسلكون في سبيل الوصول إلى الحكم كل الوسائل اللاأخلاقية التي من شأنها التأثير على الناخبين وشراء أصواتهم بالأموال المبذولة للعامة، والمناصب الموعودة للكتاب والصحفيين والساسة والزعماء ونحوهم ممن يسير في موكب النفاق للشخص أو الحزب المرشح للحكم.
ثم إن انعدام هذه الشروط تمكِّن غير المؤهلين علمياً وإدارياً

وخلقياً -من خلال أموالهم الطائلة وموكب المنافقين السائدين معهم- من الوصول إلى الحكم، وأمثال هؤلاء يكونون لعنة على شعوبهم وبلدانهم، كما نرى في واقعنا المعاصر.

إن الأنظمة والتشريعات التي تصدر عن المجالس البرلمانية الديمقراطية تؤكد أن نسبة الأغلبية التي توافق على هذه التشريعات والأنظمة نسبة تافهة مجردة من القيم والأخلاق، نسبة خاضعة لأهواء ورغبات شياطين الإنس والجن الذين يهمهم تفكيك روابط الأسرة والمجتمع، وهدم قواعد الحق والعدل والأخلاق. وإلا: بماذا نفسر القوانين التي تبيح ما لا يقبله من لديه مسكة من عقل أو ذرة من حياء، كقوانين إباحة اللواط، وعقد الرجل الزواج على رجل آخر كما يعقد الزواج بين الرجل والمرأة، وإباحة الزنا والربا والقمار، وإباحة المشروبات الكحولية المدمرة للفرد والمجتمع، والمسببة للضياع وفقدان الإحساس، ونحو ذلك مما تقشعر منه الفطر والعقول السليمة.

الفاشية:

قلنا: عرفنا الديمقراطية وأوزارها.. فما غيرها.

قال: الفاشية(1).

قلنا: ما الفاشية؟

قال: هي الصورة الفاضحة للديمقراطية والميكافيلية والعلمانية.. إنها شكل من أشكال الحكومات التي يرأسها دكتاتور يسيطر على الحكومة سيطرة تامة، ويسيطر معها جميع على النشاطات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية.

وهو يغذي كل ذلك بكافة أشكال التطرف الوطني، والسياسات النازعة للعسكرية، والتوسّع، والغزو واضطهاد الأقليات.

قلنا: فكيف يسمح لهذا بالمرور؟

قال: يستغل الفاشيون ببراعة ما يحصل في الدولة من أزمات.. فهم يأتون إلى السلطة ــ في أغلب الحالات ــ على إثر حدوث انهيار اقتصادي بالبلاد أو هزيمة عسكرية أو كارثة أخرى.. ويكسب الحزب الفاشي تأييدًا شعبيًا لما يبذله من وعود بأنه سينعش الاقتصاد، وسيسترد كرامة البلاد.. وقد يستغل الفاشيون

1() يطلق مصطلح (فاشية) لكل نظام حكم، أو مفهوم سياسي، يشبه حكم بنيتو موسوليني، وأدولف هتلر وسياساتهما.. فقد قامت حكومتان فاشيتان في كل من إيطاليا بقيادة موسوليني من سنة 1922م إلى سنة 1943م، وفي ألمانيا بقيادة هتلر من سنة 1933م إلى سنة 1945م.

خوف هذه الشعوب من الأقليات أو من شيء ما.. ونتيجة لذلك قد يستحوذ الفاشيون على السلطة عن طريق انتخابات سلمية أو عن طريق القوة.

وبعد أن يستولي الحزب الفاشي على السلطة، يتسلم أعضاؤه الوظائف التنفيذية والقضائية والتشريعية في الحكومة.. وفي أغلب الحالات يتولى رئاسة الحكومة شخص واحد ــ وغالبًا مايكون ذا نزعة استبدادية وجاذبية لدى الجماهير.. وأحياناً، تتولى قيادة الحكومة هيئة من أعضاء الحزب.. ولايسمح الفاشيون بقيام حزب آخر أو معارضة لسياستهم.

ويؤدي شغف الفاشيين بتمجيد الوطنية إلى ازدياد الروح العسكرية.. وقد يجنحون، عندما تزداد القوات المسلحة قوة، إلى غزو بلاد أخرى واحتلالها.

وتسمح الفاشية، بل وتشجع النشاط الاقتصادي الخاص، ما دام يخدم أهداف الحكومة.. وتحظر الحكومة الإضرابات؛ حتى لا يضطرب الإنتاج. وتحرم الفاشية النقابات العمالية وتستعيض عنها بشبكة من المنظمات في الصناعات الكبرى.. ويطلق على هذه المنظمات التي تتكون من العمال وأصحاب الأعمال، اسم المؤسسات. لكنها تختلف عن تلك التي تنشأ في بلاد أخرى.

ويفترض في المؤسسات الفاشية أن تمثل العمال وأصحاب العمل معًا. وفي حقيقة الأمر فإن هذه المؤسسات تخضع لسيطرة الحكومة، وعن طريقها تحدد الحكومة الأجور، وساعات العمل، وأغراض الإنتاج.

والحرية الشخصية في هذا النظام مقيدة تقييدًا شديدًا، فعلى سبيل المثال، تقيد الحكومة السفر إلى البلاد الأخرى، وتحد من أي اتصال بشعوبها، وتهيمن على الصحف ووسائل الاتصال الأخرى في بلدها، وتبث الدعاية للترويج لسياساتها، وتمارس رقابة صارمة على المطبوعات لقمع الآراء المناوئة لها.. ويفرض على كل الأطفال الالتحاق بمنظمات الشباب، حيث يتدربون على المسيرات ويتعلمون المفاهيم الفاشية.. وتسحق الشرطة السرية أية مقاومة.. وقد تؤدي المعارضة إلى السجن والتعذيب والموت.

ويعتبر الفاشيون كل الشعوب الأخرى أدنى من قوميتهم التي ينتمون إليها، لذلك قد تضطهد الحكومة الفاشية أو تقتل حتى الغجر أو من ينتمون إلى أقليات أخرى.

قلنا: أليست هذه الكلمة التي كان ينادي بها (بنيتو موسوليني)؟

فال: (بنيتو موسوليني) لم يكن إلا داعيـة من دعاتهـا.. أمـا هي كواقع وتطبيق فقد كانت أسبق وأطول عمرا.

السلام

بعـد أن ذكـر لنـا صـاحبنا مـا ذكـر من أنظمـة الحكم المختلفـة سكت سكوتا عميقا، قطعناه بقولنا: فما غيرها؟

قال: حسبكم ما سمعتم.. لقد كان كل اسـم من تلـك الأسـماء قنبلة نووية جثمت على كياني وكيان الملايين لتفجرنا، وتفجر معنـا كل خصائص الإنسان التي جعلها الله له.

قلنا: لقد ذكرت لنا أنك حاولت التخلص من حياتك.

قال: أجل.. عندما رأيت أن حياتي أصبحت مجرد عـدد يسـتغله الأمراء والملـوك والمسـتبدون ليملأوا حيـاة البشـر ظلمـا وقهـرا.. وعندما رأيت أن صوتي أصبح وسـيلة من الوسـائل الـتي ينفخ بهـا المسـتبدون كـير اسـتبدادهم.. عنـدما رأيت هـذا رأيت أن كـأس الموتى أحلى، وأن القبر أسلم.. فلذلك لجـأت إلى مـا لجـأتم إليـه جميعا.

قلنا: فما فعلت؟

قال: لم يصعب علي البحث عن الموت.. فقد عرفت مـا تحبـه الأنظمة وما تبغضه.. وعرفت أن المـوت يترصـد كـل من تبغضـه.. فلـذلك رحت أصـيح بـه.. ومـا أسـرع أن هبت رصاصـة نحـوي، فأردتني.. ولست أدري هل كان من سـوء حظي أو من حسـنة أن الرصاصة لم تجهز علي تماما.

قلنا: كيف نجوت منها؟

قـال: في غمـرة جـراحي، وبعـد أن ظن من صـوب رصاصـته نحوي أنه قتلي جاءني رجل ممتلئ بالسلام والنـور والصـفاء، وراح يمسح على جراحي جرحا جرحا إلى أن برئت تماما.

ولم يكتف هذا الرجل الفاضـل بـأن يمسـح على جـراحي.. بـل راح يملؤني بمعاني الحكومة العادلة التي أمر الله بها.. والتي مثلها الصديقون والنبيون، وسيعيد تمثيلها خلفاؤهم من الصالحين(1).

ولم يعد لي هم بعد ذلك إلا أن أكون لبنة تمهد لهـذه الحكومـة،

1() للأسـف الشـديد لم يسـمح الطغـاة والمسـتبدون والظلمـة الـذين حكمـوا الأمـة الإسلامية لفترات طويلة بقيام مثل هذه الحكومة الإلهيـة الـتي يعم نورهـا وعـدلها الأرض جميعا، ولكن ذلك لا يعني عدم قيامها، فالله وعـد بـذلك.. والأسـف الأخطـر من هـذا هـو على من يشوه هذه الحكومة العادلة بنسبة تطبيقها في الواقع التاريخي الإسلامي حرصـا على التاريخ وعلى الحكام الظلمة الذين حـالوا بين الأمـة وبين الدولـة الـتي أرادهـا اللـه لهم.

وصوتا يدعمها.. وقد انتشرت في همة عجيبة.. لكـني، وفي غمـرة سروري وقوتي بحثت عن الرجل الذي نفخ في من الهمـة مـا نفخ فإذا بي أسمع أنه قد جاء لهـذه البلاد ليـدرأ فيهـا الفتنـة العظيمـة.. وقد قدمت لقدومه، وساقتني الأقدار إلى ما ساقتكم إليه.

قلنا: فحدثنا عن هذه الحكومة التي بعثت فيك كـل هـذه الهمـة مع أنك لم ترها.

قال: سيطول بي الحديث لو حدثتكم عنها(2)..

قلنا: لا مناص لنا من الحديث عنها.

قال: هي حكومة تقوم على أربعة أسـس: الدسـتور، والحـاكم، والرعية، والتنظيمات.

الدستور:

قلنا: فحدثنا عن الدستور.

قال: لقد سـألت عن هـذا صـاحبي المسـلم الممتلئ بالسـلام، وقـد ذكـر لي أن النظـام السياسـي في الإسـلام يختلـف عن كـل الأنظمة في نقطة مهمـة وخطـيرة غفلت عنهـا كـل الأنظمـة، بـل هناك من راح يحاربها أو يشوهها.

سألته عنها، فقال: إنه نظام ينطلق من أن العباد عباد الله.. ولا يحـق لأحـد أن يحكمهم إلا ربهم الـذي خلقهم.. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُـوَ خَيْـرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (الأنعـام: من الآية57).. :﴿ وَهُـوَ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ لَـهُ الْحَمْـدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِـرَةِ وَلَـهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:70).. :﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص:88)

وربهم الـذي خلقهم أنـزل عليهم بفضـله وكرمـه ورحمتـه مـا يدلهم على مراضيه ليجعلوه دستور حياتهم الـذي عليـه تقـام، وبـه تستقر، فلا يحق لأحد أن يتجاوزه أو يقدم رأيه عليـه، قـال تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًـا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَـا مِنْكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًـا وَلَـوْ شَـاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُـوَكُمْ فِي مَـا آتَـاكُمْ فَاسْـتَبِقُوا الْخَيْـرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَـرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ

2() تحدثنا عن هذا وما يرتبط به من تفاصـيل في رسـالة (عدالـة للعـالمين).. ولـذلك اكتفينا هنا ببعض الأسس التي تقوم عليهـا النظـام السياسـي في الإسـلام، وقـد لخصـناه بتصرف من الرسالة المذكورة.

النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) (المائدة)

سألته: ولكن هذا الذي تنص عليه الحكومات الدينية؟

قال: لا.. الحكومات الدينية زعمت أنها تنوب عن الله.. لقد احتالت على الرعايا باسم الله لتلبي مصالحها.

قلنا: فما علاقة هذا بالدستور؟

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال: أرأيت الآلات الكثيرة التي يتزاحم الناس عليها ابتغاء ما فيها من رفاه؟

قلت: ما بها؟

قال: ألست تجد معها من الدفاتر ما يوضح غرضها، ووجوه استعمالها، وأساليبه.. وكيفية تصحيح ما يقع لها من أعطاب.. وكيفية تجنب تلك الأعطاب قبل حصولها؟

قلت: أجل.. وذلك من المحاسن لا من المساوئ.

قال: أرأيت لو أن مؤسسة ما اخترعت جهازا معقدا غاية التعقيد.. وله من الاستعمالات ما لا يمكن حصره.. وكان فيه في نفس الوقت من الاستعداد للعطب ما يجعله يتأثر لأبسط المؤثرات.. ؟

قلت: إن مثل هذا الجهاز قد لا يحتاج دفترا فقط.. إنه يحتاج فوق ذلك إلى تدريب خاص لمن يمتلكه.

قال: من يقوم بذلك التدريب.. ومن يعين عليه؟

قلت: الجهة المصنعة هي الجهة المسؤولة عن ذلك.

قال: ولو قصرت الجهة؟

قلت: تقصيرها لا يغتفر.. بل تكون إساءتها بالتقصير في هذا ناسخة لمحاسنها في صناعته.

قال: فهكذا الأمر مع صنعة الله.. الإنسان.. بنيان الله الفريد العجيب.. إنه آلة معقدة.. بل هو أعقد الآلات.. ولو جمعنا جميع عقول آلات الدنيا.. فلن تعدل عقل مجنون من مجانين بني آدم..

قلت: سلمت لك بهذا.. فما تريد منه؟

قال: هل ترى الله الرحمن الرحيم الذي خلق هذه الآلة العجيبة.. وأمدها بكل ما تحتاجه.. البسيط والمعقد.. يمكن أن يقصر في هذا، في الوقت الذي لا تقصر فيه أبسط المؤسسات وأحقرها؟

سكت، فقال: ولهذا.. فنحن المسلمين نعتقد أن الله تعالى برحمته أرسل إلى البشرية.. في كل فترة من فترات تاريخها..

وفي كل أمة من أممها ما يدلها على الطريق الصحيح الذي تعبد به ربها، وتمارس به حياتها:

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِـدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَـفَ فِيـهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُـوهُ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُـوا فِيـهِ مِنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ وَاللَّهُ يَهْـدِي مَنْ يَشَـاءُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ (213)﴾ (البقرة)

وقـال تعـالى عن تقصـير بـني إسـرائيل ــ باعتبـارهم نموذجـا لرسالة من رسالات الله ـ فيما أنزل إليهم من كتاب:﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَـابِ يُـدْعَوْنَ إِلَى كِتَـابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لَنْ تَمَسَّـنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)﴾ (آل عمران)

وقال يصفهم :﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّـحْتِ فَـإِنْ جَـاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِـطِينَ (42) وَكَيْـفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِـكَ وَمَـا أُولَئِكَ بِـالْمُؤْمِنِينَ (43) إِنَّا أَنْزَلْنَـا التَّوْرَاةَ فِيهَـا هُـدًى وَنُـورٌ يَحْكُمُ بِهَـا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَـا اسْـتُحْفِظُوا مِنْ كِتَـابِ اللَّهِ وَكَـانُوا عَلَيْـهِ شُـهَدَاءَ فَلَا تَخْشَـوُا النَّاسَ وَاخْشَـوْنِ وَلَا تَشْـتَرُوا بِآيَـاتِي ثَمَنًـا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَـا أَنَّ النَّفْسَ بِـالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِـالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِـالْأُذُنِ وَالسِّـنَّ بِالسِّـنِّ وَالْجُـرُوحَ قِصَـاصٌ فَمَنْ تَصَـدَّقَ بِـهِ فَهُـوَ كَفَّارَةٌ لَـهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَـدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْـلُ الْإِنْجِيـلِ بِمَـا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47)﴾ (المائدة)

وعلى هـذا النهج والسـنة الإلهيـة أنـزل القـرآن الكـريم ليـؤدي الوظيفة التي أدتها سائر الدساتير الإلهية، قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًـا عَلَيْـهِ فَـاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَـقِّ لِكُـلٍّ جَعَلْنَـا

مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) (المائدة)

وقد سمى الله تعالى كل خلاف للمنهج الذي اختاره لعباده جاهلية، فقال : أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (50) (المائدة)

ابتسمت، وقلت: هل ترى أن الله ينزل من علياء عرشه.. ليحكم هذه الذرات التائهة المسماة (بشرية) ؟

ابتسم صاحبي، وقال: أليس الله هو الذي خلق النمل والنحل والبعوض ووحيدات الخلية، وأمدها بالفطرة السليمة التي تتيح لها أن تحيا الحياة السليمة؟

قد لا تقول بعض الديانات المحرفة بهذا.. أما تصورنا نحن المسلمين، فيقوم على هذا، فالله هو القيوم الذي يقوم به كل شيء من الخلق والأمر.. قال الله تعالى : اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة:255)

لقد أخبرنا ربنا أن حركات النحل التي تتحركها لتصنع ذلك الشفاء الرباني العجيب لا تتحركها إلا انطلاقا من الوحي الإلهي، قال تعالى : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(69) (النحل)

فإذا كان النحل البسيط يحتاج إلى الله في حركاته.. فكيف نستغني نحن عنه؟

قلت: لقد عرفت الله، وعرفت أنه أرفع من أن ينزل إلى عرش قيصر ليحكم بدل قيصر.. فلذلك قال لنا الكلمة: (دعوا ما لقيصر لقصير، وما لله لله)

قال: أما لقيصر لله، أم ليس لله؟

قلت: ما تقصد؟

قال: أليس البشر الذين يحكمهم قيصر عباد للـه.. خلقهم اللـه وصورهم ووهبهم من أفضالهم ما وهبهم؟

قلت: صحيح ما تقول.

قال: فهم لله.. وليسوا لقيصر.

قلت: ولكن قيصر هو الذي يحكمهم.

قال: أرأيت لو أن رجلا سطا على بيتك.. وجلس على عرشك.. وراح يأمرك وينهاك أكنت تعتقد أن طاعتـه واجبـة عليـك لا منـاص لك منها؟

قلت: لا.. طاعتي له جريمة.. فكيف أرضى لمن سـطا علي أن يتملكني.

قال: فكذلك قيصـر.. وكـذلك كـل القياصـرة.. لقـد خلقنـا اللـه أحرارا، فرحنا نبيع حريتنا للمستبدين ليحرقونا بنيرانهم.. ثم ننسـب ذلك كله لله.

الخليفة:

قلنا: حدثتنا عن الأساس الأول.. فحدثنا عن الثاني.. فهـو الـذي تتنازع فيه الأنظمة والمذاهب وتمتلئ صراعا.

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال ـ وهو يشير إلى السماء ـ : ألا ترى السماء.. وأقمارها وكواكبها ونجومها ومجراتها؟

قلت: بلى.. وما علاقتها بهذا؟

قال: ألا ترى كيـف نظم اللـه الكـون.. فـالقمر تـابع للكـوكب.. والكـوكب تـابع للنجم.. والنجم سـائر مـع المجـرة يتحـرك وفـق حركاتها.. فلا يشذ عنها ولا ينحرف.

قلت: بلى.. فما علاقة ذلك بما نحن فيه؟

قال: إن الحركات المنتظمة تستدعي نقطة مركزية أو محورا.. ولا يمكن أن تنظم الحركات من دون ذلك.

قلت: أتقصد أن الركن الثاني هو تلك النقطة المركزية؟

قال: أجل.. فلا يكفي الدستور وحده لأكثر النـاس.. فلـذلك هم يحتاجون إلى من ينظم حياتهم وحركاتهم.

قلت: ذلك متفق عليه عنـد البشـر جميعـا.. فمـا مـيزة النظـام الإسلامي في هذا؟

قال: ميزة الإسلام في هذا أنه وضع القوانين التي تتيح لشخص ما أو لجماعة ما هذه الوظيفة الخطـيرة الـتي تتوقـف عليهـا حيـاة الناس.

قلنا: فما هذه الضوابط؟

قال: لقد ذكر القرآن الكـريم ضـابطين عظيمين لـذلك، تنـدرج ضمنهما سائر الضوابط، وذلك في قوله تعالى على لسـان يوسـف عليه السلام: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَـزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيـظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسـف: 55)

لقد ذكـر اللـه في هـذه الآيـة الكريمـة ضـابطين عظيمين، أمـا أولهما، فالحفظ، وأما الثاني، فالعلم.

أما الحفـظ، فيتمثـل في جميـع الأخلاق الـتي تجعـل من وكلت إليه هذه المهمة لا يسعى لحظ نفسه.. بل يسعى لحفـظ مـا وكـل به من شؤون الرعية..

وأما العلم.. فيتمثل في جميع القدرات والخـبرات الـتي تمكنـه من أداء وظيفته.. فلا يمكن أن تـؤدى وظيفـة من وظـائف الوجـود بالجهل.. فالجاهل لا ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟

قلت: فأين مثل هذا الرجل.. إنه كالدرة اليتيمة.

ابتسم صاحبي، وقـال: جـل جنـاب الحـق أن يخلي الأرض من أصحاب القدرات المختلفة.

قلت: فما الذي يحول بينهم وبين الوصول إلى المناصـب الـتي هم أهل لها؟

قال: أصحاب النفوس والأهواء هم الذين يحولون بينهم وبينهـا.. لقد ذكر الله ذلك فقال حاكيا عن بـني إسـرائيل وعنصـريتهم الـتي حالت بينهم وبين قبول الحاكم الذي رضيه الله لهم.. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْـدِ مُوسَـى إِذْ قَـالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَـالَ هَـلْ عَسَـيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَـا وَأَبْنَائِنَـا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَـالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًـا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَـعَةً مِنَ الْمَـالِ قَـالَ إِنَّ اللَّهَ اصْـطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْـطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْـمِ وَاللَّهُ يُـؤْتِي مُلْكَـهُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ (247)﴾ (البقرة)

ومع ذلك لم يقبلوا إلى أن رأوا المعجزة الـتي تـدلهم على أنـه الحاكم الذي رضيه الله لهم.

ولم يكن الأمر قاصرا على بني إسـرائيل.. فـأكثر الأمم واجهت أنبيائها الذين هم أشرف الناس وأقدر الناس على تحمل مثل هـذه المسؤوليات بالتكذيب والاحتقار لسبب بسيط كهـذا السـبب الـذي

أورده القرشيون في رفضهم لمحمد ﷺ.. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (30) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)﴾ (الزخرف)

وقد رد الله عليهم هذا المنطق، فقال: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)﴾ (الزخرف)

وللأسف فإن ما حصل للأمم الأخرى حصل لأمتنا التي أعرضت عن الخلفاء الراشدين الهادين المهديين الذين ارتضاهم الله لهم، واستبدلت بهم ظلمة وطوغيت وملوكا شوهوا دين الله، وانحرفوا به.

الرعية:

قلنا: حدثتنا عن الأساس الثاني.. فحدثنا عن الثالث..

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال: الرعية.. الرعية هم الذين يتشكل منهم نظام السياسة في الإسلام.

قلت: وفي غير الإسلام.. فلا يمكن أن يكون هناك نظام من غير رعية.

قال: لا أقصد بالرعية الشعب المجرد عن حرية الرأي، وقوة الإرادة، ونفاذ العزيمة.. بل أقصد الشعب الممتلئ بالحرية والوعي والقدرة على أن تكون له إرادته الحرة التي يهابها الحاكم، ويحسب لها حسابها.. بل لا يمكن للحاكم أن يحكم الرعية من دونها.

قلت: تقصد الانتخاب؟

قال: لا أقصد الانتخاب وحده.. بل أقصد كل ما يربط الرعية براعيها حتى عزله إن أرادت.

قلت: أفي الإمكان ذلك؟

قال: أجل.. بل يجب على الرعية أن تعمل على عزل راعيها إن أساء..

قلت: نرى أن للرعية شأنا في النظام الإسلامي.. فما هو؟.. وما منطلقاته؟

قال: للرعية في النظام السياسي الإسلام أربع مسؤوليات(1): البيعة لمن توفرت فيه الأهلية.. والطاعة في المعروف.. والمعصية

1() تحدثنا عن هذه المسؤوليات بتفصيل في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

في المنكر.. وعزل من لم تتوفر فيه الأهلية.

التنظيمات:

قلنا: فحدثنا عن الأساس الرابع الذي يقوم عليه النظام السياسي الإسلامي..

قال: لقد سألت صاحبي عنه، فقال: أرأيت لو أن رساما رسم على لوحته صورة لحديقة زينها بأجمل الزهور والألوان، ونسقها تنسيقا بديعا.. لكنه تلاعب بالألوان.. فجعل أوراق الأشجار سوداء.. وجعل المياه حمراء.. وجعل الشمس خضراء؟

قلت: لا شك أن هذا رسام هازل.

قال: لا.. هو رسام جاد.. ولكنه أراد أن يبدع.. وقد رأى أن كل الرسامين يرسمون الأوراق خضراء، فراح يحولها إلى سوداء.

قلت: فهذا مجنون إذن.

قال: لم تر جنونه؟

قلت: لأن الإبداع لا يكون بالتلاعب بحقائق الأشياء..

قال: ففيم يكون إذن؟

قلت: في تنسيقه واختياراته والإيحاءات التي تعبر عنها صوره..

ثم أضفت قائلا: ما تريد بكل هذا؟

قال: أريد أن أبين لك العلاقة بين التنظيمات والدستور.. فالدستور الإلهي دوره أن يبين فطر الأشياء وحقائقها حتى لا يتلاعب الساسة بها.. وأما التنظيمات، فدورها أن تجعل صورة الحياة جميلة حية ممتلئة بالسعادة.

قلت: فما علاقة هذا بالنظام السياسي الإسلامي؟

قال: كما أن الإسلام تشدد في دستوره الذي يحفظ حقائق الأشياء، فإنه في مقابل ذلك تفتح تفتحا تاما على كل ما يخدم الحياة من تنظيمات.. فالحياة لا تستقيم إلا بالتنظيمات الصالحة التي تيسر للرعية حياتها.

***

بعد أن ذكر لنا صاحبنا من أنباء النظام الإسلامي ما ذكر سألناه عن صاحبه، فقال: لقد مكثت معه فترة من الزمن يشرح لي جوانب السلام التي يختزنها الإسلام في جميع مبادئه ونظمه.. وفي اليوم الذي قررت فيه بكل قواي أن أحطم تلك الخراسانات المسلحة التي جثمت على قلبي وعقلي وحالت بيني وبين الإسلام.. في ذلك اليوم لم أر صاحبي.. فرحت أسأل عنه، وأمعن في السؤال، وقد دلني الناصحون على أنه قدم هذه البلاد، وقد

قدمت لأجله، وها أنتم ترون ما أصابنا من البلاء.
وأنا لا أحزن على فوات ما فاتني من الدنيا، ولكني أحـزن على تلـك المبـادئ العظيمـة الـتي جـاء بهـا الإسـلام كيـف تشـوه هـذا التشويه.

ثامنا ـ العالم

في اليوم الثامن، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. فاسمعوني.. وأرجو أن تصبروا على مـا سـأذكره لكم من مآس.. فأنـا لا أذكرهـا لكم إلا لأنفس عن صـدري بعض تلـك الآلام الـتي تنهشــه، وأطفئ تلــك الحرائــق العظيمــة الــتي تملأ قلــبي بالخراب..

أنا رجل كتب له أن يكون ضحية لأفكار سـوداوية كثـيرة جعلتـه تلميذا للإجرام وأستاذا من أساتذته.. ولم أكن وحدي في ذلك.. لقد كنت في أمـة من النـاس لا تفكـر إلا بالعقـل الـذي أفكـر بـه، ولا تمارس من الأساليب إلا ما أمارسه من الأساليب.

ليس عند هذا الحد تقف قصتي.. هناك جوانب مشـرقة جميلـة ختمت بها.. ولأجلها جئت إلى هذه البلاد.. ولكن الله قدر أن أصـلى ببعض النيران التي كنت أصـليها غـيري.. وأنـا راض بـذلك، مطمئن له.. لأني على حسب ما ذكـر لي النـور والطهـر والسـلام لن ألقى في حياتي إلا ثمار ما غرسته فيها.

ولكني مع ذلك متأسف أسفا لا يمكن أن يكون له حد.. لأني ما أتيت هنا إلا لأستبدل تلك الثياب الدمويـة الـتي ولـدت بهـا ونشـأت عليها وسرت في حياتي جميعا وأنا ألبسـها.. بثيـاب أخـرى ممتلئـة بالطهر والسلام والصفاء.. ثياب قد تكفر تلك الجرائم الكثيرة الـتي ارتكبتها كما ارتكبها أسلافي في حق الإنسانية.

قلنا: من أنت؟

قال: لقد تسميت بأسماء كثيرة.. فمن أسمائي نيرون.. ومنهـا شارون.. ومنها هتلر.. ومنها نابليون.. ومنهـا بـوش.. ومنهـا أسـماء كثيرة ستعرفونها عند سردي لقصتي..

قلنا: فمن أي البلاد أنت؟

قال: من كل تلك البلاد التي تصدر الإجرام، وتتعامل مع البشر كما تتعامل مع الحشرات.

قلنا: فمتى ولدت؟

قـال: من قـديم.. من زمن طويـل.. لا أذكـر اليـوم بالضـبط.. ولكني أذكر أنه في اليـوم الـذي بـدأت أمـيز فيـه قـدمت لي آلاف القرابين البشرية.. وعمدت بالسباحة في دمائها..

الصراع

في ذلك الحين جاء الكاهن ورتل علي آيات كثـيرة من الكتـاب

المقدس.. كانت أول مـرة أسـمع فيهـا بالكتـاب القـدس.. سـأقرأ عليكم أول مـا طـرق سـمعي منهـا.. ولعلكم تعـذروني في ذلـك التوجه المؤلم الذي توجهت إليه في حياتي.. وكيف لا أتوجـه إليـه.. وقـد بـدأ الكـاهن حيـاتي بـأن أسـمعني هـذه النصـوص الممتلئـة بالقداسة:

لقد أسمعني من سفر (حزقيال: 9 :ـ 5) قول الرب:(اعْبُـرُوا فِي الْمَدِينَةِ خَلْفَهُ وَاقْتُلُوا. لاَ تَتَرَأَّفْ عُيُونُكُمْ وَلاَ تَعْفُـوا. أَهْلِكُـوا الشَّـيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَـذْرَاءَ وَالطِّفْـلَ وَالنِّسَـاءَ. وَلَكِنْ لاَ تَقْرَبُـوا مِنْ أَيِّ إِنْسَـانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ، وَابْتَدِئُوا مِنْ قَدِسِي. فَابْتَدَأُوا بِالرِّجَـالِ الْمَوْجُودِينَ أَمَامَ الْهَيْكَلِ. وَقَـالَ لَهُمْ: نَجِّسُـوا الْهَيْكَـلَ وَامْلَأُوا سَـاحَاتِهِ بِالْقَتْلَى، ثُمَّ اخْرُجُوا. فَانْدَفَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ وَشَرَعُوا يَقْتُلُونَ)

وأسمعني من سفر (العدد: 31 :ـ 1):(وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَـى: انْتَقِمْ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَعْدَهَا تَمُوتُ وَتَنْضَمُّ إِلَى قَوْمِـكَ. فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: جَهِّزُوا مِنْكُمْ رِجَالاً مُجَنَّدِينَ لِمُحَارَبَةِ الْمِـدْيَانِيِّينَ وَالانْتِقَامِ لِلرَّبِّ مِنْهُمْ.. فَحَارَبُوا الْمِدْيَانِيِّينَ كَمَا أَمَرَ الـرَّبُّ وَقَتَلُـوا كُـلَّ ذَكَرٍ؛ وَقَتَلُوا مَعَهُمْ مُلُوكَهُمُ الْخَمْسَةَ: أَوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُـورَ وَرَابِـعَ، كَمَـا قَتَلُـوا بَلْعَـامَ بْنَ بَعُـورَ بِحَـدِّ السَّـيْفِ. وَأَسَـرَ بَنُـو إِسْـرَائِيلَ نِسَـاءَ الْمِـدْيَانِيِّينَ وَأَطْفَـالَهُمْ، وَغَنِمُـوا جَمِيـعَ بَهَـائِمِهِمْ وَمَوَاشِـيهِمْ وَسَـائِرِ أَمْلاَكِهِمْ، وَأَحْرَقُوا مُدُنَهُمْ كُلَّهَا بِمَسَاكِنِهَا وَحُصُونِهَا، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى كُـلِّ الْغَنَائِمِ وَالأَسْلاَبِ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ.. فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ وَكُـلُّ قَادَةِ إِسْرَائِيلَ لاِسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمُخَيَّمِ، فَأَبْـدَى مُوسَـى سَـخَطَهُ عَلَى قَادَةِ الْجَيْشِ مِنْ رُؤَسَاءِ الأُلُـوفِ وَرُؤَسَـاءِ الْمِئَاتِ الْقَـادِمِينَ مِنَ الْحَرْبِ، وَقَـالَ لَهُمْ: لِمَـاذَا اسْـتَحْيَيْتُمُ النِّسَـاءَ؟ إِنَّهُنَّ بِاتِّبَـاعِهِنَّ نَصِـيحَةَ بَلْعَـامَ أَغْـوَيْنَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ لِعِبَـادَةِ فَغُـورَ، وَكُنَّ سَـبَبَ خِيَانَـةٍ لِلـرَّبِّ، فَتَفَشَّى الْوَبَاءُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. فَالآنَ اقْتُلُـوا كُـلَّ ذَكَـرٍ مِنَ الأَطْفَـالِ، وَاقْتُلُوا أَيْضاً كُلَّ امْرَأَةٍ ضَاجَعَتْ رَجُلاً، وَلَكِنِ اسْتَحْيَوْا لَكُمْ كُـلَّ عَـذْرَاءَ لَمْ تُضَاجِعْ رَجُلاً)

وأسمعني من سفر (يشوع: 6 :ـ 16):(قَـالَ يَشُـوعُ لِلشَّـعْبِ: اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ وَهَبَكُمُ الْمَدِينَةَ. وَاجْعَلُـوا الْمَدِينَـةَ وَكُـلَّ مَـا فِيهَـا مُحَرَّماً لِلرَّبِّ.. أَمَّا كُلُّ غَنَائِمِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَـةِ النُّحَـاسِ وَالْحَدِيـدِ، فَتُخَصَّصُ لِلرَّبِّ وَتُحْفَظُ فِي خِزَانَتِهِ. فَهَتَفَ الشَّعْبُ، وَنَفَخَ الْكَهَنَـةُ فِي الأَبْـوَاقِ. وَكَـانَ هُتَـافُ الشَّـعْبِ لَـدَى سَـمَاعِهِمْ صَـوْتَ نَفْخِ الأَبْـوَاقِ عَظِيماً، فَانْهَارَ السُّورُ فِي مَوْضِعِهِ. فَانْدَفَعَ الشَّعْبُ نَحْـوَ الْمَدِينَـةِ كُـلٌّ إِلَى وِجْهَتِهِ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا. وَدَمَّرُوا الْمَدِينَةَ وَقَضَوْا بِحَدِّ السَّـيْفِ عَلَى

كُلِّ مَنْ فِيهَا مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ وَشُيُوخٍ حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ)

وأسمعني من سفر (هوشع: 13 :ـ 16) قول الرب :(تجازى السامرة لأنها تمردت على إلهها، بالسيف يسقطون، تحطم أطفالهم، والحوامل تشق)

وأسمعني من سفر (إشعيا: 13 :ـ 16) قول الرب :(وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم)

وأسمعني من سفر (التثنية:20 :ـ 10) قول الرب :(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا)

وأسمعني قول بولس في رسالته إلى العبرانيين (12 :ـ 29): (لأن إلهنا ناراً آكلة)

وأسمعني ما جاء في مزمور (94 :ـ 1):(يا إله النقمات : يا رب. يا إله النقمات)

وأسمعني من سفر (الخروج: 3/18-21) قول الرب لموسى : (تدخل أَنْتَ وَشُيُوخُ إِسْرَائِيلَ أَمَامَ مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُ لَهُ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدْ تَقَقَّدَنَا، فَدَعْنَا نَمْضِي مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنُقَدِّمُ ذَبَائِحَ لِلرَّبِّ إِلهِنَا. وَلَكِنِّي عَالِمٌ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَنْ يُطْلِقَكُمْ مَا لَمْ تُرْغِمْهُ يَدٌ قَوِيَّةٌ. فَأَمُدُّ يَدِي وأَضْرِبُ مِصْرَ بِجَمِيعِ وَيْلاَتِي الَّتِي أَصْنَعُهَا فِيهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ. وَأَجْعَلُ هَذَا الشَّعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَلاَ تَخْرُجُونَ فَارِغِينَ حِينَ تَمْضُونَ، بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا أَوْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا جَوَاهِرَ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ وَثِيَاباً تُلْبِسُونَهَا بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ فَتَغْنَمُونَ ذَلِكَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ)

وأسمعني من سفر (الخروج: 12/34-36):(فَصَرَّ الشَّعْبُ فِي ثِيَابِهِمْ مَعَاجِنَهُمْ وَعَجِينَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْتَمِرَ، وَحَمَلُوهَا عَلَى أَكْتَافِهِمْ، وَطَلَبُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ آنِيَةَ فِضَّةٍ وَذَهَباً وَثِيَاباً بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَجَعَلَ الرَّبُّ الشَّعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَأَعْطَوْهُمْ كُلَّ مَا طَلَبُوهُ، فَغَنِمُوا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ)

وأسمعني من سفر (التثنية 20 :ـ 16):(أما مُدُنُ الشُّعُوبِ الَّتِي يَهَبُهَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ لَكُمْ مِيرَاثاً فَلاَ تَسْتَبْقُوا فِيهَا نَسَمَةً حَيَّةً، بَلْ دَمِّرُوهَا عَنْ بِكْرَةِ أَبِيهَا، كَمُدُنِ الْحِتِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ)

وأسمعني من سفر (صموئيل الأول: 15 : 3):(وَقَالَ صَمُوئِيلُ لِشَاوُلَ: أَنَا الَّذِي أَرْسَلَنِي الرَّبُّ لأَنصِّبَكَ مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، فَاسْمَعِ الآنَ كَلاَمَ الرَّبِّ. هَذَا مَا يَقُولُهُ رَبُّ الْجُنُودِ: إِنِّي مُزْمِعٌ أَنْ أُعَاقِبَ عَمَالِيقَ جَزَاءَ مَا ارْتَكَبَهُ فِي حَقِّ الإِسْرَائِيلِيِّينَ حِينَ تَصَدَّى لَهُمْ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ. فَاذْهَبِ الآنَ وَهَاجِمْ عَمَالِيقَ وَاقْضِ عَلَى كُلِّ مَالَهُ. لاَ تَعْفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَلِ اقْتُلْهُمْ جَمِيعاً رِجَالاً وَنِسَاءً، وَأَطْفَالاً وَرُضَّعاً، بَقَراً وَغَنَماً، جِمَالاً وَحَمِيراً)

قلنا: فما أورثتك هذه الآيات المقدسة؟

قال: لقد أورثتني سبعة خلال.. كانت حياتي كلها ممتلئة بها.. إلى أن لقيت النور والسلام والصفاء..

***

الحروب:

قلنا: فما أولها؟

قال: حب الحروب..

قلنا: حب الحروب!؟

قال: أجل.. لقد صرت عاشقا للحروب.. لا يرتاح لي جفن إلا إذا سمعت أصوات المدافع والرصاص.. حتى أني.. وإلى فترة قريبة.. كنت آتي بالمتفجرات لأنام على أصواتها.. لقد كانت أصوات المتفجرات هي الصوت الذي يملؤني بالراحة والطمأنينة.

قلنا: ولكن الحروب لا تجلب إلا الدماء؟

قال: وقد كنت أحب الدماء.. بل لم يكن حبي للمتفجرات إلا لكون المتفجرات هي السبب الأكبر لكثرة الدماء..

لقد حضرت الحرب العالمية الأولى، وتلذذت بدماء القتلى الذين بلغ عددهم (22) مليونا.. بالإضافة إلى أعداد كثيرة من الجرحى سالت منهم دماء كثيرة لكني لم أكن أكتفي بها.. لم يكن يكفيني إلا دماء القتلى.

لذلك، وبعد سنوات قليلة شاركت في الحرب العالمية الثانية والتهمت دماء ما يزيد على (70) مليونا.

ليس هذا فقط ما شربت من دماء.. هناك دماء كثيرة.. كثيرة جدا.. أكثر مما تتصورون..

لقد شربت مع صديقتي المفضلة بريطانيا العظمى دماء أكثر من عشرين مليونا من دماء الصينيين الذين رفضوا أن يضعوا التاج على رأس هذه الصديقة المفضلة..

وعندما اندلعت الحرب العنيفة في الهند الصينية بين شطري فيتنام واستمرت لمدة ثلاثين عاماً، شربت دماء أكثر من ثلاثة ملايين ومائتي ألف قتيل (3.200.000) بين مدني وعسكري، وسبعة ملايين وأربعمائة وثلاثة وخمسين ألف جريح (7.453.000) بين مدني وعسكري، وأربعمائة ألف عاجز (400.000).

وعندما ألقى الطيران الأميركي من سنة 1961 إلى سنة 1972م زهاء ستة ملايين وسبعمائة وسبعة وعشرين ألف طن من القنابل (6.727.000) على منطقة الهند الصينية شربت دماء كثيرة.. كثيرة جدا.. لا يمكن إحصاؤها.

وعندما ألقت الطائرات الأميركية واحد وسبعين مليون لتراً من المواد الكيمياوية السامة على منطقة في جنوب فيتنام توازي مساحة إيرلندا الشمالية شربت دماء كثيرة.. كثيرة جدا.. لا يمكن إحصاؤها.

وهكذا في كل الحروب التي كانت تشتعل في أي منطقة من مناطق العالم.. كنت أسرع، وأحمل ملعقتي وجميع الوسائل التي أبدعنا في صناعتها لأغترف من تلك الدماء ما يملؤني بالمسرة.

الاستعلاء:

قلنا: عرفنا الأول.. فما الثاني؟

قال: الاستعلاء.. الكبرياء.. التضخم..

قلنا: ما علاقة هذا بالدماء، وبحبك للدماء.. وبالكتاب المقدس بعد ذلك؟

قال: كل ذلك مترابط.. كل ذلك سلسلة يؤدي بعضها إلى بعض.. ربما يوجد في السلسلة بعض الخيوط الخفية.. لكن الحقيقة هي أن كل هذه الحلقات مترابطة تشكل جميعا سلسلة واحدة.

قلنا: فأظهر لنا ما خفي من هذه الخطوط.

قال: أنتم تعلمون أن الكتاب المقدس يعتبر اليهود شعب الله المختار.. وأنهم جنس أرقى من غيرهم من الأجناس؟

قلنا: نعلم ذلك.

قال: ولذلك أتاح الرب لهذا الشعب ــ على حسب الكتاب المقدس ـ أن يبيد كل الأغيار.. ويقضي عليهم بلا رأفة ولا رحمة.

قلنا: ذلك صحيح.. وما قرأته من الكتاب المقـدس يـدل عليـه.. ولكن ذلك ـ على حسب الكتاب المقدس ـ خـاص بـاليهود، فكيـف انتقل إلى غيرهم؟

قال: ألا تعرفون المنطق؟

قلنا: نعرفه.

قال: فمنطقوا هذه القضية لتعرفوا الحلقة المفقودة.

قلنا: منطق لنا أنت.

قال: لقد أعطتني المقـدمات الـتي ذكرتهـا لكم نتيجـة مهمـة.. كانت حياتي وحروبي كلها متوجهة إليها.

قلنا: ما هي؟

قال: الاستعلاء.. لقد صرت أشعر ـ بأسـباب كثـيرة ــ أنـني من الجنس الأعلى.. من الدم الأرقى.. وقد أشعرني هـذا الشـعور بـأن غيري أغيار.. وانطلاقا من تلك المقدمات رحت بكل مـا أوتيت من قوة أسعى لمحو الغير واستئصاله والتلاعب به..

ولست وحدي في ذلك.. كل تاريخنا كـان يمثلـني.. كـان يمثـل وقاحتي وكبريائي وتضخمي.

لقـد ذكـر بعضـهم هـذا الاسـتنتاج، فقـال في مقالـه بعنـوان (الأنجلوسكســونية عقــده المحوريــة وفلســفة التفــوق):(كـانت مطاردة مهاجري أوروبا للهنود الحمر في العالم الجديـد الأمـريكي مشـابهة لمـا جـاءت بـه التـوراة في مطـاردة العـبريين القـدماء للكنعانيين في فلسطين حسـب إدعـائهم، وقـد أوجـد التشـابه في هذه التجربة قناعة وفلسفة ووجدانا متشابها ومشـتركا بين الكيـان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحديث)

ســكت قليلا، ثم قــال: لكــني لشــراهتي للــدماء لم يكفــني الاستعلاء الذي عمقه في نفسي البعد الديني.. ولـذلك رحت أبحث في العلوم والفلسفات عما يعمق هـذا الاسـتعلاء الـذي امتلأت بـه نفسي.

قلنا: فهل وجدت فيها ما يرضيك؟

قال: أجل.. فما أسهل أن تطوعـوا العلم لمـا تشـاءون.. فقـط عرفوا الباحثين ما تريدون أن تستنتجوه.. وأنيلوهم ما يملأ نفوسهم الشرهة.. وسترونهم يخضعون لكم كل الخضـوع، ويفيـدونكم بكـل ما تريدون.

قلنا: فحدثنا عن النتائج التي خرج بها هؤلاء الباحثون.

قال(1): لقد اعتبر هؤلاء الباحثون ـ بوحي منا ـ الأساس البيولوجي العرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيف البشر.. وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية، ونظرية أخرى شبه علمية وهي الداروينية الاجتماعية، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الداروينى.

وهذه النظرية (شبه العلمية!؟) تُقسِّم الجنس البشري بأسره إلى أعراق.. لكلٍ منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً.. ومن ثم يمكن تصنيف البشر إلى أعراق راقية عليا.. وهم على الخصوص الآريون(2)، وبخاصة النورديون.. وأعراق دنيا: وهم الزنوج والعرب واليهود.

قلنا: واليهود!؟.. ألم تكن تزعم أنهم شعب الله المختار؟

قال: لقد كانت كبرياؤهم هي السبب في وضعهم في هذا المحل.. لقد حفروا حفرة الكبرياء في العقيدة المسيحية.. فسقطوا في تلك الحفرة.. وأسقطوا معهم كثيرا من الشعوب.

قلنا: فما نتيجة هذا التفريق بين الأدنى والأعلى؟

قال: لقد اعتبر هؤلاء الباحثون بوحي منا العنصر الآري الأبيض متفوقا على كل الشعوب الأخرى.. وهذا التفوق ليس له جانت نظري فقط.. بل له جانت عملي خطير.

قلنا: ما هو؟

قال: لقد أعطوا هذا العرق المختار من الحقوق ما يتجاوز أية منظومات قيمية، وأي حديث عن المساواة.

وقد ذهب هؤلاء الباحثون إلى أبعد من ذلك حين أثبتوا ـ

1() انظر (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

2()كلمة آريانAryan، أي (آري)، مشتقة من اللغة السنسكريتية ومعناها (سيِّد)، وقد استُخدم المصطلح في بداية الأمر للإشارة إلى مجموعة من اللغات الإيرانية ثم الهندية الأوربية، إذ طرح العالم الألماني ماكس مولر (1823 ـ 1900) نظرية مفادها أن هناك جنساً يُسمَّى (آرياس) كان يتحدث اللغة الهندية الأوربية التي تفرعت عنها اللغات الهندية الأوربية الأخرى جميعاً ابتداءً بالهندوستانية وانتهاء بالإنجليزية.

كما استُخدم المصطلح للإشارة إلى الشعوب الهندية الأوربية التي انتشرت في جنوب آسيا وشمال الهند في العصور القديمة. وكان جوزيف جوبينو (1816 ــ1882) من أهم المفكرين الذين أشاعوا هذه الفكرة، فكان عادةً ما يضع الآريين مقابل الساميين، وكان ثمة تَرادُف مُفترَض بين الآرية والهيلينية مقابل السامية.

وقام المفكرون العرْقيون الغربيون بتطوير المفهوم فذهبوا إلى أن هذا الجنس الآري انتشر من شمال الهند وإيران عبر الإستبس، إلى أوربا، وهو جنس يتسم ـ حسب نظريتهم ـ بالجمال والذكاء والشجاعة وعمق التفكير والمقدرة على التنظيم السياسي، وبأنه المؤسس الحقيقي للحضارة وبتفوقه على الساميين والصفر والسود. ونبه هيوستون ستيوارت تشامبرلين (1855 ـ 1927) إلى أن النورديين هم أرقى الآريين، فهم الجنس السيد، أما اليهود والسود والعرب فيشغلون أدنى درجات السلم العرْقي. انظر (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

بالوسائل الشبيهة بوسائل العلم ـ أن التزاوج بين أعضاء الأجناس المختلفة يؤدي إلى تدهور العرْق الأسمى الذي يجب أن يحتفظ بنفسه قوياً نقياً حتى يضمن لنفسه البقاء والتماسك العضوي.

وقد كان من الطبيعي بعد هذا أن يصنف أعضاء الأجناس الأدنى باعتبارهم غير نافعين من منظور المطلق العرْقي لأنهم خطر على تماسك العرْق وعلى تجانسه، وعدم التماسك يؤذي المصلحة العليا للدولة، لأن التماسك يؤدي إلى زيادة الكفاءة الإنتاجية، وإلى زيادة قوة الدولة في مقدرتها على البقاء والانتشار والهيمنة.

لقد أثمرت هذه الأفكار كثيرا من المرارات الذي صلي بشر كثير بنارها:

منها أن ذات الدولة تعاظمت.. بل تحولت إلى مقدس.. بل إلى إله.. لا يجوز مسه بأي حال من الأحوال.. بل أصبح الدفاع عن مصلحة الدولة القومية.. ظالمة كانت أم مظلومة.. مسألة لا تقبل النقاش، لا تخضع لأي معيارية.. واعتبر الانحراف عن هذا الهدف النهائي المطلق خيانة العظمى.. وليس لها من عقوبة إلا الإعدام.

ومنها أن مؤسسات بيروقراطية قوية.. حكومية وغير حكومية.. تولت كثيراً من الوظائف التي كانت تتولاها الأسرة في الماضي، وتقوم بعملية الاختيار بالنيابة عن الإنسان الفرد، الأمر الذي زاد في ضمور الحس الخلقي وانكماش رقعة الحياة الخاصة.

وهذه المؤسسات البديلة صارت ترى نفسها ذاتاً مطلقةً تُعبِّر عن مصلحة الدولة.. والتي هي بدورها تُعبِّر عن إرادة الشعب.. وقد جعلت جل همها أن تنفِّذ المطلوب منها تنفيذه بأقل التكاليف وأكثر الوسائل كفاءة، دون أن تأخذ أية اعتبارات خُلقية.

ومنها تزايد معدلات التجريد في المجتمع.. لاشك أنكم لا تعرفون هذا المصطلح.. إنه لا يعني ذلك الذي يريده الصوفية من التجرد لله.. بل هو يعني التجرد لتلك المؤسسات التي لا تعرف القيم ولا تؤمن بها.

لقد نجحت عمليات التجريد المتزايدة في جعل القيمة الأخلاقية شيئاً بعيداً للغاية لا علاقة له بفعل الإنسان المباشر.. سأضرب لكم مثلاً على ذلك من صناعة الأسلحة الكيماوية الفتاكة.. ففي صناعة هذا النوع من الأسلحة الخطيرة ــ كما في غيرها كثير ــ تُقسَّم عملية إنتاج المبيد البشري إلى عدة وظائف صغيرة، كل وظيفة تُشكِّل حلقة تؤدي إلى ما بعدها وحسب.. ولأنها مجرد حلقة،

فهي محايـدة تمامـاً ولا معـنى لهـا، إذ لا يوجـد أي مضـمون خلقي لعملية إضافة محلول لآخر.. ومن ثم، تظل النهاية الأخلاقية، والـتي هي حـرق البشـر وإبـادتهم بعيـدة للغايـة.. والعامـل أو الموظـف المسئول عن هـذه الحلقـة سـيبذل قصـارى جهـده في أداء عملـه الموكل إليه دون أية أعباء أخلاقية، ومن ثم تستمر الآلـة الجهنميـة في الدوران من خلال الحلقـات والـتروس، ولا يتحمـل أي شـخص مسئولية إبادة البشر، إذ أن مسئولية العامل أو الموظف مسـئولية فنية وليست مسئولية أخلاقية.

أستطيع أن أقول لكم بأن مـا تم إنجـازه في الحضـارة الغربيـة الحديثة هو القضـاء على الشخصـية التقليديـة ذات الـولاء لمطلـق خُلقي ثابت يتجاوز عالم المـادة والتـاريخ، وحلَّت محلهـا الشخصـية الحركية المتغيرة والمتقلبة مع حركة المـادة، والـتي لا ولاء عنـدها لأية ثوابت أو مطلقات والمتحررة من أية قيم أو غائية، فهي تعيش في عالم الواحدية المادية المعقم من القيم المتجاوزة.

هـذه الشخصـية يمكن أن تتبـدَّى من خلال إمبرياليـة داروينيـة مليئة باليقينية العلمية توظِّف الكون والإنسان لصالحها، ويمكن لهـا أن تتبدَّى من خلال إذعـان أداتي فتصـبح شخصـية نمطيـة تعاقديـة برجماتيـة ذات بُعـد واحـد، تسـتبطن تمامـاً النمـاذج السـائدة في المجتمـع والـتي تروجهـا الأجهـزة الأمنيـة للمجتمـع وضـمن ذلـك الإعلام، وهي شخصـية نسـبية هزيلـة مهـتزة لا تثـق في ذاتهـا ولا رؤيتها ولا هويتها ولا منظوماتها، ولذا يتحدد تَوجُّهها حسب ما يصـدر لها من أوامر تأتي لها من عل، ويتحدد ولاؤها استناداً إلى المصلحة المادية المتغيرة التي يتم تعريفها مدنياً وقومياً وعلمياً وموضـوعياً من خلال الجهات المسئولة واللجان المتخصصة والسوبرمن، ومن ثم يمكنها أن تطيع الأوامر البرانية وتنفذ التعليمـات بدقـة متناهيـة. وهي شخصـية ذات عقـل أداتي لا تفكـر في الغايـات وإنمـا في الوسائل والإجراءات وحسب، وفي أحسن السبل لإنجاز مـا أوكـل لهـا من مهـام دون تسـاؤل عن مضـمونها الأخلاقي أو هـدفها الإنساني.

وحينما ظهـر هـذا النـوع من الشخصـية، أصـبح من الممكن أن تقـرر الدولـة وأعضـاء النخبـة إبـادة عناصـر تراهـا غـير نافعـة في المجتمع أو في وطـن آخـر أو قارة بأسرها.

ولم يعـد هذا ـ بهـذه الاعتبـارات ـ جريمـة، إذ لا توجـد قـوانين مطلـقة خارجـة عن الدولـة، أو هـي ـ بتعبير آخر ـ جريمـة قانونيـة

مشروعة تكتسب مشروعيتها من أن الدولة توافق عليها وتباركها، بل تشجع عليهقال:، وتضرب على يد كل من يعارضها أو يحجم عن اقترافها.

لقد أثمر كل هذا وجود مؤسسات متخصصة لتنفيذ الجريمة، وهي مؤسسات بيروقراطية منفصلة عن القيمة، تتجاوز الخير والشر، ولا تسأل عن السبب وإنما عن الوسيلة، والعاملون في مثل هذه المؤسسات لا يتخذون قرار قتل الأطفال، على سبيل المثال، بأنفسهم، ولا ينفذون جريمة القتل بأيديهم فاللجان المتخصصة التي تضم السوبرمن تجتمع على أعلى مستوى وتناقش المسألة بطريقة علمية وبيروقراطية وفي لغة محايدة وتتخذ القرارات في ضوء ما تراه هي الصالح العام. ثم يصدر الأمر في نهاية الأمر، لا بالقتل أو التصفية الجسدية وإنما بالقيام بعمليات (التطهير العِرْقي) أو (الحل النهائي) أو خدمة (مصلحة الدولة العليا). ثم يُقسَّم القرار إلى مئات التفاصيل التي يقوم بها آلاف الموظفين التنفيذيين من الجنود والعمال والفلاحين والمهنيين الذين لن يشعروا بهذا الطفل الذي سيُقتَل في غابات فيتنام أو في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين أو في معسكرات الاعتقال النازية.

قلنا: والضمير الخلقي.. ألا يمكن أن يتكلم؟

قال: ربما.. ولكن هذه الحضارة اللعينة عملت الإنسان كيف يسكت ضميره.. لقد أعطته من الآليات ما يجعله قادراً على إسكات حسه الخُلقي.. فالإنسان الحديث أصبح بوسعه، بحسه العملي، ومن خلال الحسابات الرشيدة والتسويغ العلمي الموضوعي المحايد الصارم والنسبية الكاملة التي تجعل الأمور متساوية، تبرير أي شيء وقبول أي وضع، فتمكن التضحية بالجزء في سبيل الكل، والأقلية في سبيل الأغلبية، والمرضى في سبيل الأصحاء، والعجزة في سبيل الشباب. ومع سيطرة حب البقاء، باعتبار أن البقاء قيمة مطلقة، فإن الجميع يمكن أن يتعاونوا مع الدولة من قبيل تقليل الخسائر.. إذ لا توجد قيم مطلقة أو مرجعية متجاوزة يمكن للفرد أن يؤمن بها ويموت من أجلها ويحاكم البشر والأمم كافة من منظورها.. ثم تتكفل المؤسسات الإعلامية للدولة بتصفية كل ما تبقى من أحاسيس إنسانية أو أخلاقية متخلفة.

قلنا: إن ما تطرحه من فلسفة خطير.. فهل وقع في تاريخنا ما يؤكد ذلك؟

قال: ليس ما أطرحه فلسفة.. هو واقع.. واقع مرير عشته.. لقد شربت من الدماء تحت ظل الاستعلاء ما لم أشرب مثله في حياتي جميعا.

لقد حَوَّلنا أنفسنا.. نحن الإنسان الغربي.. إلى سوبرمان له حقوق مطلقة تتجاوز الخير والشر، ومن أهمها حق الاستيلاء على العالم وتحويله إلى مجال حيوي لحركتنا ونشاطنا، وتحويل العالم بأسره إلى مادة خام، طبيعية أو بشرية.

ومن هذا المنطلق اعتبرنا شعوب آسيا وإفريقيا الصفراء والسوداء المتخلفة مجرد مادة بشرية تُوظَّف في خدمتنا، كما اعتبرنا العالم مجرد مادة طبيعية تُوظَّف في خدمة دول أوربا وشعوبها البيضاء المتقدمة، واعتبرنا الكرة الأرضية مجرد مجال حيوي لنا نصدِّر مشاكلنا له.. بل لم تفرق الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية الشاملة في نهاية الأمر بين شعوب آسيا وأفريقيا وشعوب العالم الغربي، فالجميع مادة بشرية، نافعة أو غير نافعة، ضرورية أو فائضة.. فكان العمال يُنظر لهم باعتبارهم مادة بشرية نافعة، ومصدراً لفائض القيمة، أما المتعطلون فهم مادة بشرية فائضة. وصُنِّف المجرمون (وفي مرحلة أخرى، المعوقون والمسنون) مادةً بشريةً غير نافعة. وهذه المادة يجب أن (تُعالج)، وكانت الوسيلة الأساسية للمعالجة هي تصدير المادة البشرية الفائضة إلى مكان آخر لتحويلها إلى مادة نافعة إن أمكن (مع عدم استبعاد (الحلول الأخرى) إن استلزم الأمر)

الاستعباد:

قلنا: فما الثالث؟

قال: الاستعباد.

قلنا: الاستعباد !؟.. لقد ألغت أمتنا الاستعباد.. ذلك الذي شرعه الإسلام(1).

نظر إلينا بحزن، وقال: لا شك أنكم لا زلتم خاضعين لتلك المخدرات التي خدرنا بها قومنا.

قلنا: ما تقول؟

قال: لقد أخطأتم خطأين.. أما الخطأ الأول، فهو إلغاء أمتنا للاستعباد.. وأما الخطأ الثاني، فتشريع الإسلام له..

1() انظر بتفصيل الموقف الإسلامي من الرق، والمعاملات الرحيمة التي شرعها تجاه الرقيق في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.. ونحب أن نذكر هنا فقط بأن ما حصل في التاريخ الإسلامي من مآس حول الرقيق لا يتحمله الإسلام الإلهي، وإنما هو نتاج للإسلام البشري الذي اجتمع على تأسيسه الحكام الظلمة وعلماء السوء.

قلنا: هذا ما نعلمه.. ويعلمه كل الناس.

قال: لقد كنت أقول ذلك.. ولكني عندما عرفت الحقيقة من مصدرها عرفت أن قومنا أقسى قلوبا من يقوموا بعمل جليل كإلغاء الرق، وعرفت أن الإسلام أعظم رحمة من أن يشرعه.

قلنا: كيف؟.. لقد ورد في النصوص المقدسة للمسلمين الكثير من النصوص التي تتحدث عن الرق.

قال: قارنوا تلك النصوص بما أسمعني الكاهن من النصوص.

لقد قرأت في كتاب المسلمين، فلم أجد حرفا واحدا يدعو إلى استعباد الإنسان للإنسان.. بل وجدته جميعا يدعو إلى تحرير الرقاب، وإلغاء الرق، ويعتبر ذلك من قمم العبودية.. لقد قرأت فيه :﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ (البلد:10 ـ 13)

وقرأت فيه ترتيبه الكفارات على الذنوب التي تعم بها البلوى على تحرير الرقاب..

وقرأت فيه الأمر بالإحسان إلى الرقيق والتعامل الإنساني معهم..

لكن الكاهن الذي لقنني الكتاب المقدس لم يلقني كلمة واحدة تحوي هذه المعاني الجليلة.. بل عكس ذلك لم أجد في الكتاب المقدس إلا أمر الرقيق بالخضوع التام لأسيادهم..

لقد لقنني ما ورد في (أفسس 6 عدد5):(أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح)

ولقنني ما في (لوقا:12 عدد45):(ولكن أن قال ذلك العبد في قلبه سيدي يبطئ قدومه.فيبتدئ يضرب الغلمان والجواري ويأكل ويشرب ويسكر)

ولقنني ما في (لوقا 12 عدد47):(وأما ذلك العبد الذي يعلم إرادة سيده ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيضرب كثيرا)

ولقنني ما في (خروج:20 عدد17):(لا تشته بيت قريبك..لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك)

ثم علمني ــ بتفصيل مما ــ ما ورد في سفر التثنية من الشريعة التي أوحى بها الرب إلى موسى فيما يتعلق بالسبي والنساء السراري.. ولا يزال يعلق بذهني إلى الآن ما جاء في (التثنية 21 عدد10-14):(إذا خرجت لمحاربة أعدائك ودفعهم

الرب إلهك إلى يدك وسبيت منهم سبيا ورأيت في السبي امرأة جميلة الصورة والتصقت بها واتخذتها لك زوجة (12) فحين تدخلها إلى بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها وتنزع ثياب سبيها عنها وتقعد في بيتك وتبكي أباها وأمها شهرا من الزمان ثم بعد ذلك تدخل عليها وتتزوج بها فتكون لك زوجة. وان لم تسرّ بها فأطلقها لنفسها. لا تبعها بيعا بفضة ولا تسترقها من أجل انك قد أذللتها)

ثم أخبرني بخبر رحبعام الذي لم يكتف بثماني عشر زوجة، بل ضم إليها ستين سرية، فصار مجموع نسائه وسراريه بعد تزوجه بمعكة بنت أبشالوم تسعة عشر زوجة وأكثر من ستين سرية، ولا أدري هل زاد عن ذلك بعد زواجه بمعكة أم اكتفى بهذا؟

لقد جاء في سفر (أخبار الأيام الثاني: 11 عدد21) خبره : (وأحب رحبعام معكة بنت ابشالوم أكثر من جميع نسائه وسراريه لأنه اتخذ ثمانية عشر امرأة وستين سرية وولد ثمانية وعشرين ابنا وستين ابنة)

لقد لقنني جميع هذه النصوص.. ولم يلقني معها أي نص يدعو إلى تحرير الرقاب والإحسان إليهم واعتبار ذلك من التقرب إلى الله.. لم أجد أي شيء من هذا.

هذا على مستوى النصوص المقدسة..

أما على مستوى الواقع.. فقد قدر الله أن أقرأ رحلة كرستيان سنوك الهولندي.. لا شك أنكم لا تعرفونه.. إنه أحد الرحّالة الأوربيين، في القرن التاسع عشر الميلادي، نال شهادة الدكتوراه سنة (1880م) من جامعة ليدن، وزار الجزيرة العربية، ودخل مكة وبقي في الحجاز سنة (1882م) ستة أشهر، وكتب حوادث رحلته هذه بالألمانية، وتكلم في هذه الرحلة عن الرق الذي رآه وشاهده في الحجاز، ومع أنه ليس هو الرق بجميع آدابه الإسلامية إلا أنه قال عنه:(إن الذي يدخل سوق الرقيق بتصورات أوروبية وفي ذهنه كابينة العم توم (Uncle Tom –Cabin) - وهي إشارة إلى الرقيق الذي كان يُرسل إلى العالم الجديد - سيأخذ انطباعاً سيئاً، وسوف يغادر السوق وهو مشمئز من سوء المنظر، وهذا الانطباع الأولي هو انطباع خاطئ، ومع الأسف فإن معظم المستشرقين الرحّالة لم يصوّروا لنا إلا انطباعاتهم الأولية، وهذا هو مصدر الخطأ لديهم)

إلى أن قال: (وعلى العموم فإن الرقيق في العالم الإسلامي لا يختلف كثيراً عن الخدم والعُمّال في المجتمع الأوروبي، وإن الذي يعرف الظروف المحليّة يعرف هذا تماماً، ويعلم كذلك أن

إلغاء الرقيـق يعـني ثـورة اجتماعيـة في الجزيـرة العربيـة. وهنـاك العديد من الأوربيين الذين يعرفون جيداً شؤون الشرق، لا يريــدون أن يقولوا ذلك بصراحة؛ لئلا يتهم هؤلاء بـأنهم ضـد الاتجـاه السـائد عموماً، الداعي إلى تحرير الرقيق نهائياً، وبأنهم ضد الاتجاه المبـني على مشاعر إنسانية نبيلة)

ثم يقول :(إن خدعـة مـا يُسـمى حركـة تحريـر الرقيـق، ليس سَبَبُها اهتماماً شعبياً لغاية شريفة، ولكنه لعبة خطرة مزيّفـة، يقـوم بها رجال السياسة الكبار، لأغراض غير إنسانية، وذلك من أجــل أن يتخذ العالم المسيحي موقفاً عدائياً خاطئاً ومزيَّفاً ضدّ الإسلام)(1)

في ذلــك الــوقت.. وقبلــه.. والــذي نعم فيــه الرقيــق في بلاد الإسلام بما لا ينعم به الأحـرار عنـدنا.. كـان قومنـا يجوبـون العـالم ليسترقوا الأحرار.. ويحملون معهم شعار القداسة، وهم يسـترقون أحرار العالم.

لقد اعتبر البرتغاليون اقتناص الأفارقة من الشواطىء الإفريقية وبيعهم عملاً مقدســاً، إذ تم بعــد اختطــافهم اقتيــادهم إلى أوربــا وتعميـدهم، ثم جـرى بيعهم وتسـخيرهم للعمـل في ضـياع الأمـراء الإقطاعيين.

وقد كان نظر الأوربـيين إلى هـذا الأمـر نظـرة عاديـة طبيعيـة، فالمسـيحية إنقـاذ لأرواح هـؤلاء الزنـوج أمـا أجسـادهم فتبقى في الرق، ومرسـوم سـنة 1455 البـابوي اعتـبر غـير النصـارى كفـاراً ينبغي إذلالهم واسترقاقهم، وهكذا تطلـع البرتغـاليون إلى الأفارقـة نظـرة السـيد للعبـد، وجـرى القنص والاختطـاف باسـم المسـيح والقديسين، ولم يفكر الأوربيون في هذا الـوقت بتنصـير السـود أو بتحريرهم، وإنمـا كـان جـل اهتمـامهم اختطـافهم وتسـخيرهم في أشق الأعمال وفي إعمار واستغلال العالم الجديد.

لقد نقل لنا أحد المعاصرين للحملات البرتغالية صورة حية لمــا فعله البرتغاليون بالأفارقة عندما اشتبكوا معهم، ووضح لنا كيف أن عمليات القنص قد تمت باسـم المسـيح والقديسـين والقديسـات، فقـال: (كـان رجالنـا يهتفـون (القديسـة يـاجور، القـديس جـورج)، ويسقطون عليهم فيقتلون أو يخطفون كل من تقـع عليـه أيـديهم، وقــد تشــاهد هنــاك أمهــات يهــربن بأطفــالهن، وأزواجــاً يفــرون بزوجاتهم، وكل منهم يبذل قصاراه للنجاة، يقفز بعضهم في البحــر

1()صفحات من تاريخ مكّة، سـنوك هـو رخونيـة، وترجمـة د. على الشـيوخ، طبـع دارة الملك عبد العزيز: (1419هـ):2/323، 326، 330

ويـرى بعضـهم أن يختـبىء في أركـان أخصاصـهم، وخبـأ البعض أطفالهم تحت الشجيرات، حيث كان رجالنـا يعـثرون عليهم. واللـه الذي يمنح كل إنسان ما يستحق من جزاء، وهب رجالنا آخر الأمــر النصـر على أعـدائهم، تعويضـاً لهم على مـا بـذلوه من عنـاء في خدمته أخذوا مئة وخمسة وسـتين بين رجـال ونسـاء وأطفـال ولم يحسب القتلى في هذا العدد)

وازدادت بمــرور الــوقت شراسـة الحملات البرتغاليــة واتسـع نطاقهـا وتنافسـت الـدول الأوربيـة في جلب الرقيـق من إفريقيـا ودخلت الميدان إلى جانب البرتغـال وهولنـدا وإنجلـترا ثم فرنسـا، ونجح هؤلاء في تفريـغ القـارة من سـكانها، فبينمـا حققت كـل من أوربا وآسـيا زيـادة طبيعيـة لا بـأس بهـا، ظـل عـدد سـكان القـارة الإفريقية مستمراً عند المائة مليون نسمة.

لقد جرى نقل الأفارقة من قـراهم إلى المـزارع الكبـيرة الـتي يملكهـا الأوربيـون من أوربـا والأمريكـتين أو حـتى في مورشـيوس ورينــون وسيشــل، وقــد تنافســت الــدول الأوربيــة في عمليــات الاسترقاق والاختطـاف وازدهـرت المـدن والمـوانىء الأوربيـة إلى درجة كبيرة ومن بينها ليفربول وبيستول ونانت وبوردو وإشبيلية.

ولم تقتصر تجارة الرقيق على القراصنة والمغامرين، بل تورط فيها الملوك والأمراء ورجال السياسة والـدين لقـد جـاء في تقريـر خـاص بعـام 1862: (تفـوق أعـداد النـاس المتـورطين في تجـارة الرقيق وكمية الأموال الموظفة بها طاقتنا عن التقدير وتعتبر مدينة نيويورك حتى الأيام الأخيرة من عـام 1862 المينـاء الرئيسـي في العالم لهذه التجارة الآثمة بيد أن مدينتي بورتلاند وبوسـطن تأتيـان وحدهما في المرتبة الثانية من ذلك التصنيف)

وقد بلغت أرباح تجارة الرقيـق أرقامـاً خياليـة، وقـد قـام جـون هوكــنر على ســبيل المثــال بثلاث رحلات إلى غــرب إفريقيــا في ستينات القرن السادس عشر واختطـف أفارقـة وبـاعهم للإسـبان من أمريكا وأغرت أرباحه الطائلـة ملكـة برطانيـا إلـيزابيت الأولى، فأرسلت في طلبه وعرضـت عليـه رغبتهـا في مشـاركته في هـذه التجارة الآثمة فوافق من فوره وقدمت لهذا الغرض سفينة تحمــل اسم (المسيح) أو (يسوع) وبالفعل أبحر هوكنر على ظهر السـفينة الكبيرة (يسوع) لاختطاف وسرقة المزيـد من الأفارقـة، وعـاد إلى إنجلترا بإيرادات هائلة جعلت الملكة إليزابيت تمنحـه لقب فـارس، واختار هوكنر أن يكون شعار النبالة الخاص به على شكل إفــريقي

مقيـد بالسلاسـل الأمـر الـذي يفضـح الطبيعـة السـادية العدوانيـة للرجل الأوربي الأبيض.

وشــهدت هــذه القــرون اســتنزافاً لمــوارد إفريقيــا البشــرية والمادية.. وكمثال مقرب لذلك ما قام به الملك ليوبولد الثاني حتى 1906 من جمعه حوالي (20) مليـون دولار من المطـاط والعـاج، ويقــدر البلجيكيــون أن حجم رأس المــال الأجنــبي المتــدفق إلى الكونغو بين عام 1887ـ 1953 قد بلغ (5700) مليون جنيـه كمـا حقق اتحاد كانتجا أرباحاً سنوية وصلت إلى (27) مليـون جنيـه في العام الواحد، ونزح رأس المال الأجنبي المصادر الطبيعية الإفريقية كالفوســفات والــذهب والبــترول الزنــك والنحــاس والحديــد والبوكسايت والقصدير ورواسب التبر)

وهكذا فقـد جـرى قنص الأفارقـة منـذ القـرن الخـامس عشـر الميلادي باسم المسيح وتم نقل وبيـع الأفارقـة في أقاصـي الأرض وأدانيها باسم المسيح، ورغم تعميـد هـؤلاء الأفارقـة وإدخـالهم في المسيحية غصباً وبمجـرد وصـولهم إلى مـواني‌ء الشـحن والتفريـغ فــإن عبــوديتهم ظلت قائمــة، وادعى المســيحيون الأوربيــون أن المسـيحية قـد خلصـت أرواحهم فقـط.. أمـا أجسـادهم فتبقى في الــرق، ولــذلك لم تأخــذ الرحمــة أو الشــفقة قلب الرجــل الأبيض فسخر السود في إدارة الطواحين والآلات وفي جر العربات وشـق الطـرق وحفـر المنـاجم وحمـل الأثقـال ومـا إلى ذلـك من أعمـال شاقة.

نظر إلينا، وقال: كيف تقارنون بين الإسلام وهؤلاء.. إن الإسلام يجعل من أعظم الجرائم استرقاق الأحرار.. لقد قال محمد :(ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامـة ومن كنت خصـمه خصـمته : رجـل أعطى بي ثم غـدر، ورجـل بـاع حـرا فأكـل ثمنـه، ورجـل اسـتأجر أجـيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره)(1)

قلنا: دعنا من الإسلام.. وحدثنا عن الاسـتعباد الـذي عـانت منـه البشرية في مراحل كثيرة من تاريخها.

قـال: لقـد بحثت في التـواريخ(2)، فوجـدت أن معاملـة السـيد لرقيقه اتسمت في جميع فترات التاريخ.. ما عـدا في تلـك الفـترة المقدســة الــتي ظهــرت كفلتــة في تــاريخ البشــرية.. بالقســوة والجبروت ومجافاة الإحساس الإنسـاني والمشـاعر الآدميـة، حيث

1() رواه ابن ماجة.

2() انظر: الموسوعة العربية العالمية، بتصرف.

كان يتعامل معهم كما يتعامل مع الأثاث والأدوات والآلات الجامدة.
ولم يكن للرقيق أدنى حق إنساني، بل كان لمالكه تمام الحرية في إبقائه على قيد الحياة، أو تجويعه وتعذيبه والتنكيل به.
وقد منعت أكثر القوانين الزواج بالرقيق، وكثيرًا ما عاقبت الطرفين المتزوجين بالحرق في النار معًا وهم أحياء، في حين كانت تسمح للرجال أن يقضوا شهواتهم مع من يشاءون من النساء الرقيق.
وقد بولغ في إجبار الرقيق على أداء أشق الأعمال، تحت ضربات السياط الملهبة، وكان جزاء من يمتنع عن ذلك تعليقه من رجليه، ووضع الأجسام الثقيلة في يديه، وضربه أو كيّ مواضع حساسة من جسمه، وقد يعمدون إلى ملء فمه وأذنيه بالزيت المغلي، أو قطع لسانه وأعضائه والتمثيل به، أو قتله بأفظع الصور.
هذا عند القدماء.. في ذلك التاريخ الغابر..
قلنا: ذلك جبروت القدماء.. وقد تغير الأمر كثيرا عند الأمم الحديثة..
قال: تقصدون الأمم والشعوب والدول التي عايشت النهضة الأوروبية.. منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادي، وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي؟
قلنا: أجل.. لقد اختلف الأمر فيها كثيرا..
قال: صحيح ذلك.. لقد وضعت كل دولة من تلك الدول وضعت ـ في زمن ما يُسمى عصر المدنية والنهضة ـ قانونًا خاصًا يرتقي بأحوال الرقيق ويفصل حدود معاملتهم، وعرف هذا القانون بالقانون الأسود، لكونه مختصًا بمعالجة أحوال الأرقاء السود وبيان الأحكام المتعلقة بهم. إلا أن تلك القوانين لم تحدث تغيرات جذرية في الطريقة التي يعامل بها الرقيق:
لقد كان من مقتضى القانون الأسود الفرنسي، أن الزنجي إذا اعتدى على أحد الأحرار أو ارتكب جريمة السرقة، عوقب بالقتل، أو بعقاب بدني آخر شديد.
أما إذا أبق ـ أي هرب ـ الرَّقيق من سيده مرة أو مرتين، فإن القانون يسمح للسيد بقطع أذني رقيقه وكيّه بالحديد المحميّ في النار، فإذا أبق الثالثة قُتل.
وكان قتل الرَّقيق الآبق معمولاً به أيضًا في إنجلترا، حيث نصّ القانون الأسود فيها على أن من أبق من الرَّقيق وتمادى في إباقه قُتل.

وكان غـير مسـموح للملـونين، أن يحضـروا في فرنسـا لطلب العلم والثقافة.

وظل الحال في فرنسا على الوصف السابق حتى قيام الثـورة الفرنسية في سـنة 1789م حيث لم تجـرؤ على إلغـاء الـرق، بـل منحت صفة المواطنة لكـل مقيم على أرضـها مهمـا كـان لونـه أو عرقـه، وفي عـام 1791م أصـدر مجلس الثـورة الفرنسـي قـرارًا بإلغاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية، ومساواة جميـع من فيها في الحقوق والواجبات مع تمتعهم بالجنسية الفرنسية.

لكن حين تــولى نــابليون الحكم، لاحــظ انخفــاض صــادرات المسـتعمرات الفرنسـية الـتي تعتمـد على اليـد العاملـة الزنجيـة، فأصـدر قـرارًا عـام 1802م بـالعودة إلى اسـترقاق الزنـوج، فثـار الزنوج في المستعمرات وقاوموا مدة ثلاث سنوات فقضى نابليون على ثورتهم وأعادهم إلى الرق.

وفي عــام 1884م صــدر قــرار في فرنســا بإلغــاء الــرق في المستعمرات الفرنسية ـ مرة أخرى ـ تماشيًا مع قـرارات مشـابهة اتخذتها قبـل فـترة وجـيزة كـل من بريطانيـا ثم البرتغـال، فتبعتهـا هولندا والدنمارك عام 1860م.

هذا في فرنسا.. أمـا في أمريكـا، ففي العصـر الأول من تـاريخ الولايات المتحدة الأمريكية كان كثـير من سـكانها ــ وبخاصـة أهـل الجنوب ـ يملكون الرقيق، إذ كان تجـار الرقيـق من أهـل الجنـوب يقومون بحملات منظمة ومسلحة إلى القارة الإفريقية ويختطفـون الرجــال والنســاء في مــداهمات وغــارات مفاجئــة على قــراهم ومسـاكنهم، ويجلبـونهم قسـرًا إلى المـدن الأمريكيـة ــ وبخاصـة الجنوبية ـ ليبيعوهم في أسواق الرقيق.

وكــانت معاملــة هــؤلاء المختطفين المغصــوبين في منتهى الفظاعة والقسوة والهمجيـة، وكـان من مقتضـى القـانون الأسـود الأمريكي أن للسيد كل الحق في الإبقاء على رقيقه حيًا أو إماتتـه، بـل صـرّح قـانونهم بأنـه ليس للرقيـق روح ولا عقـل وأن حياتـه محصورة في ذراعيه، كما أنه ليس له حق الخروج إلى الشــوارع ـ وقت شدة الحرّ ـ إلابتصـريح قـانوني، وإذا شـوهد أكـثر من سـبعة أرقاء مجتمعين في شارع واحد، كـان لكـل رجـل أبيض الحـق في إلقــاء القبض عليهم وجلــدهم، ولــو كــان خــروجهم إلى الشــارع بتصـريح قـانوني، وكـان القـانون أيضًـا يجـيز للسـيد رهن رقيقـه وإجارته وبيعه، بل والمقامرة عليه.

وظل الأمر على هذا الحال حتى شهر يناير من عام 1863م حين أصدر أبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إعلانًا بتحرير الرَّقيق في ولايات الجنوب الأمريكي، وكان هذا القرار من أسباب اغتياله عام 1865م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقّعت الدول المشتركة في عصبة الأمم عام 1926م اتفاقية تقضي بملاحقة تجارة الرق والمعاقبة عليها، والعمل على إلغاء الرقيق بجميع صوره، وفي عام 1948م أصدرت هيئة الأمم المتحدة إعلانًا عالميًا تضمن حظر الرِّق وتجارة الرقيق، وقد التزمت بهذا الإعلان أكثر دول العالم.

قلنا: ها قد انتهت المأساة أخيرا.. وعادت للإنسان حريته.

ابتسم، وقال: عن أي حرية تتحدثون؟.. ليس هناك مع المصارعين شيء اسمه (حرية).. إن الذي يحمل في عقله وقلبه وروحه وجميع لطائفه جميع أنواع الكبرياء يستحيل أن يترك لغيره فرصة يتنعم فيها بحريته.

إن قومنا لم يعلنوا انتهاء عصر الرقيق إلا بعد أن رأوا الرقيق المحدود لا يكفي.. فراحوا يسترقون الشعوب.

قلنا: يسترقون الشعوب؟

قال: أجل.. هم يسترقون الشعوب المستضعفة، ويمكننون لأنظمة الاستبداد فيها أن تتولى مهمة استرقاق شعوبها.. ليحولوا من جميع العالم سوق نخاسة.

قلنا: نراك متشائما؟

قال: هذه هي الحقيقة التي عشتها، وكنت في يوم من الأيام أحد فصولها..

أنا.. وكثير من قومي ـ إن لم أقل كل قومي ــ كنا ننظر إلى تلك الشعوب السمراء أو السوداء نظرة ممتلئة بالاحتقار.. وكيف لا نكون كذلك، ونحن لم نكن نتغذى إلا على الأفكار التي تملؤنا بالعنصرية.

أذكر أنا كنا في الذكرى السنوية للقديس نقولا التي يحتفل بها الأوربيون في غرب أوربا.. كان يمثل لنا القديس الطيب في صورة كاهن أبيض على جواد أبيض يوزع الصدقات، بينما خادمه بطرس الأسود الذي يحمل الحقيقة السوداء ينشر الخوف والرعب ويخطف الأطفال الأشقياء، وفي اللحظة التي يهم فيها العبد بإمساك الطفل يتبعه القديس ويمنع الاعتداء عليه وسط تهليل وتصفيق الحاضرين وصيحاتهم.

هذه النظرة العنصرية لها أصولها ــ كما تعلمون في الكتاب المقدس ـ فقد ورد في العهد القديم أن نوحاً سكر يوماً ثم تعرى ونام في خبائه، فاتفق أن ابنه حاماً أبصره على هذه الحال فلما استيقظ نوح وعلم أن حاماً قد أبصره عارياً دعا عليه ولعن نسله الذين هم كنعان.. اسمعوا هذه الكلمات المقدسة من سفر التكوين (9 من 18 ـ 27):(كان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث وحام وهو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض.. وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته، وقال مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم)

وتفرعت عن حكاية العهد القديم حكايات وأساطير انتشرت في أجزاء متفرقة من العالم وكلها تعلي الرجل الأبيض وتحط من الأسود، بينما تعترف هذه الحكايات للرجل الأبيض بالنقاء والطهارة لا تعترف بأن الأسود من البشر وإذا اعترفت فإن لونه الأسود لا بد أن يكون آية غضب الله عليه.

وجاء في إحدى الأساطير التي اختلقها الرجل الأبيض، أن الله قد خلق الخلق سوداً كلهم وهيأ لهم جميعاً الفرصة لكي يتطهروا فاغتسل البيض وابيضت أجسامهم، أما الزنوج فلم ينظفوا إلا راحات أيديهم.

وتذهب قصة أخرى إلى أن من أساء العمل صار أسود، وأعطي قليلاً من اللباس، ومن كان أقل منه سواءاً كان أسمر اللون وكان أكثر حظاً من الملابس، أما من أحسن فقد ظل أبيض اللون وأعطي وفرة من الملابس.

وتذهب أسطورة ثالثة إلى أن الله رأى ثلاثة زنوج يبكون، ولكي ينفى عنهم الحزن سمح لهم أن يغتسلوا ليصيروا ذوي بشرة بيضاء، فلم يفعل ذلك إلا واحد منهم دون أخويه الآخرين.. وهذا صار أبيض اللون جميل المنظر، فأكلت الغيرة قلب أحد أخويه، ولكن الماء قد نفذ فمسح بدنه بتربة الأرض الحمراء فصار لونه

أحمر أما الثالث فلم يستطع إلا غسل راحتي يديه وقدميه وهي الأجزاء الوحيدة في جسمه التي أصبحت بيضاء.

قلنا: ولكن.. قد سمعنا أن في إنجيل متى (6/25):(سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين)

ضحك ضحكة عالية وقال: واقرأوا في نفس الإنجيل (إنجيل متى 25/ـ 29):(كل من له يعطي فيزداد ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه والعبد البطال اطرحوه إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان)

قلت: لكن أكثر قومنا الآن لا يعرفون الإنجيل.. وفي حال معرفتهم له لا يسمعون إلا ما قرأناه لك.

قال: إن ذلك النص لا يكفي لا يكفي تلك النظرة المملوءة بالاستعلاء.. لعلكم قرأتم ما ذكره سيمونز في كتابه (لون البشرة وأثره في العلاقات الإنسانية).. لقد ذكر أن نظرة الأوربي الأبيض إلى الإفريقي الأسود تتلخص في أن (لون الزنجي الأسود يدل على سخافة عقله.. الزنوج شهوانيون ولأجسامهم رائحة نتنة.. الزنوج سطحيون ومتعلقون بالحلي وأدوات الزينة.. الزنوج عراة وبدائيون ومعادون للحضارة المدنية.. الزنوج وثنيون متعددو الآلهة ويجب إدخالهم في المسيحية غصباً)

الاستعمار:

قلنا: فما الرابع؟

قال: هو نتيجة لكل ما سبق.. وهو نتيجة تلك القراءات المقدسة للكتاب المقدس.

قلنا: ما هو؟

قال: الاستعمار..

قلنا: لقد كان يلقن لنا بأن الاستعمار ما هو إلا نوع من الانتشار الذي لا يقصد منه إلا التعمير.

قال: صدقوا في هذا التعبير.

قلنا: فلم تنظر إليه إذن نظرة تشاؤمية؟

قال: لأن التعمير فيه ليس للمستعمرات وإنما للمستعمرين.. فلم تكن المستعمرات المسكينة تجني من قدوم تلك الجحافل من الجيوش سوى الخراب والدمار والاستعباد والإبادة.

قلنا: فحدثنا عن قصتك مع الاستعمار(1).

قال: في البدء كانت الإمبراطورية الرومانية أكبر دولة استعماريةٍ في التاريخ القديم، فقد بدأت توسُّعَهَا فيما وراء البحار نحو عام 264ق.م.. وفي أوج مجدها، كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من شمالي بريطانيا إلى البحر الأحمر والخليج العربيّ.. ولكن القدر لم يهمل هذه الامبراطورية، فقد قضي عليها، وكان من رحمة الله بعباده أن قضي عليها.

بعد قرون طوال.. وبعد أن أحس المارد الروماني الذي يسكننا أنه أصبح له من القوة ما يعيد به مجد روما بدأ الاستعمار من جديد.

بدأت البرتغال وأسبانيا في القرن الخامس عشر الميلادي بإرسال مستكشفين للبحث عن طرق بحرية جديدة إلى الهند والشرق الأقصى، حيث كان المسلمون يهيمنون على الطرق البرية ويسيطرون على التجارة بين آسيا وأوروبا.. وكان الأوروبيون يطمحون إلى السيطرة على تلك التجارة، فقد نجحت البرتغال في السيطرة على البرازيل، وأنشأت مراكز تجاريةً في كل من غربي إفريقيا والهند وجنوب شرقي آسيا..كما نجحت أسبانيا في السيطرة على أجزاء مما يعرف اليوم بالولايات المتحدة، واحتلت معظم أجزاء أمريكا اللاتينية.

وفي القرن السابع عشر الميلادي، انتزع الهولنديون والبريطانيون التجارة الآسيوية من البرتغاليين، وذلك بعد أن نجحوا في احتلال جزر الهند الشرقية الهولندية (إندونيسيا) وأصبح للإنجليز نفوذٌ قويٌّ في الهند، وتمكّن الهولنديون والبريطانيون والفرنسيون من احتلال بعض المناطق في أمريكا اللاتينية.

بالإضافة إلى ذلك، احتل عددٌ من المهاجرين البريطانيين والفرنسيين بعض المناطق في كندا، كما أنَّ الهولنديين والبريطانيين والفرنسيين ادَّعوا ملكية بعض أجزاء من الولايات المتحدة.. وفي نهاية المطاف، تمكن الإنجليز من إنشاء ثلاث عشرة مستعمرة في تلك البلاد، ودخل البريطانيون والفرنسيون في صراعٍ على أمريكا الشمالية سُمّي حروب الهنود والفرنسيين الأربع، واستمر ذلك الصراع من عام 1689م حتى 1763م. وفي آخر تلك الحروب، انتصرت بريطانيا ونجحت في احتلال معظم

1() انظر: الموسوعة العربية العالمية، وكتاب (الاستعمار و التنصير في إفريقيا السوداء)، لعبد العزيز الكحلوت.

الممتلكات الفرنسية في أمريكا الشمالية.

لم يتطوَّر الاستعمار الأوروبي في بداية القرن التاسع عشر مع أنَّ بريطانيا ضَمَّت عددًا من المستعمرات في أستراليا، وقد كانت نيوساوث ويلز أول مستعمرة أسترالية تم تأسيسها في القرن الثامن عشر.. وكان معظم المستوطنين الأوائل من السجناء الذين أبعدوا إلى أستراليا عقابًا لهم. وقد أوقف إرسال السجناء إلى تلك المناطق في منتصف القرن التاسع عشر، وبحلول ذلك التاريخ، أنشئت مستعمراتٌ جديدة في كوينزلاند وفان ديمنزلاند (تسمانيا حالياً)، وغربي أستراليا وجنوبيها، وفكتوريا. أما نيوزيلندا، فإنها لم تصبح مستعمرة بريطانية إلا عام 1840م.

لم تهدأ النفوس الثائرة بعد كل هذا.. فقد ساعدت الثورة الصناعية وظهور القومية الأوروبية، على تطور الاستعمار في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في كلٍّ من إفريقيا وآسيا، ففي هاتين القارتين، سعت الدول الصناعية إلى الحصول على المواد الخام لمصانعها، والأسواق لمنتجاتها الصناعية، كما سعت إلى هاتين القارتين بوصفهما مناطق استثمار جديدة، وللبحث عن أقطار جديدة تقويها في منافستها للأقطار الأوروبية الأخرى.

فاقتسم إفريقيا كلٌّ من بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا، ولم يبق من المناطق الإفريقية مستقلة إلا إثيوبيا وليبيريا.. أما بريطانيا، فقد سيطرت بدورها على الهند وبورما وما يُعرف الآن بماليزيا.. كما احتلت فرنسا الهند الصينية، وكانت الهند الصينية الفرنسية تضم كلاّ من كمبوديا ولاوس وفيتنام، وتوسَّع الهولنديون في الهند الصينية الشرقية. أما الولايات المتحدة، فقد احتلت الفلبين.. وكان هناك تنافسٌ كبير بين فرنسا وألمانيا وبريطانيا وأسبانيا والولايات المتحدة للسيطرة على جزر المحيط الهادئ.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أنشأت اليابان إمبراطوريةً ضمَّت كوريا وتايوان، وخلال الحرب العالمية الثانية (1939 -ـ 1945م)، وسَّعت اليابان إمبراطوريتها على حساب بعض المستعمرات الصغيرة التي كانت تسيطر عليها دول غربية. إلا أنَّ هذه الإمبراطورية سقطت بعد أن هُزمت اليابان عام 1945م. وتحولت هذه المناطق مرةً أخرى إلى مستعمرات غربية.

قلنا: نعرف تاريخ الاستعمار.. فما جرائمه التي تدينه من أجلها؟

قال: كثيرة.. الاستعلاء لا يولد إلا الخبث.. وقد كان المستعمرون ممتلئون إلى أذقانهم كبرا واستعلاء.. ولهذا راحوا يفرضون أسلوب حياتهم على المستعمرات، فقد كانوا يؤمنون بتدنّي مستوى ثقافة المناطق المُستعمَرة قياسًا إلى ثقافتهم.. بل حاول بعض هؤلاء الحكام أن يُغيّروا من ديانة المناطق التي يَستعمِرونها، كما عَمَدوا إلى جعل لغتهم الأجنبية اللغة الرسمية في تلك المستعمرات. وفي عدد من الحالات، حاول الحكام المستعمرون أن يحلوا ثقافتهم الخاصة محلَّ الثقافة المحلية.

أما السياسة الاقتصادية التي مارسها الاستعمار، فقد كانت ممتلئة بالجشع.. ففيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين، ظهر نظام اقتصادي في أوروبا يُدعى المركنتالية (أي النزعة التجارية).. وفي ظلِّ هذا النظام، قامت القوى الأوروبية بتشكيل اقتصاد المناطق المستعمرة حسب حاجاتها التجارية.. فعلى سبيل المثال، سنَّت بريطانيا عددًا من القوانين في القرن السابع عشر لتقوية سيطرتها على اقتصاد مستعمراتها الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية. وقد كان بعض هذه القوانين يحصر التجارة بين المستعمرات البريطانية مع التجار البريطانيين فقط،كما كانت تشترط استخدام سفنٍ بريطانية فقط. أما القوانين الأخرى، فقد قلّصت من الصناعةً في المستعمرات لأنَّ البريطانيين كانوا يريدون أن تعتمد المستعمرات على السلع المصنَّعة في بريطانيا. ولتشجيع الأمريكيين على تصدير السلع التي تحتاج إليها بريطانيا، عمد البريطانيون إلى إعطاء امتيازات تجارية لهذه الصادرات للتجار الأمريكيين. وقد أدارت القوى الأوروبية الأخرى تجارتها بالطريقة نفسها.

قلنا: لقد ذكرت أن الاستعمار كان وليدا لتلك القراءات التي سمعتها من الكاهن؟

قال: أجل.. لقد كانت تلك القراءات سر كل أنواع البلاء.. لقد امتزجت تلك النصوص مع ما امتلأت به نفوسنا من صراع وأحقاد لنملأ العالم بكل أنواع البلاء.

قلنا: ولكنا نرى أن المبشرين من قومنا يذهبون لمناطق المستعمرات ليملأوها بالبشارة؟

قال: صدقتم.. إنهم يذهبون لتلك المناطق ليقولوا لهم بكل وقاحة: دعوا ملككم الأرضي ليأخذه المستعمر، وتنالوا بدله

ملكوت السماء..

بل كان لهم فوق هذا دور أخطر بكثير.. يقول الدكتور والتر رودني: (قد كانت البعثات المسيحية جزءاً من قوى الاستعمار إلى حد كبير، مثلها في ذلك مثل المكتشفين والتجار والجنود، وربما يكون هناك مجال للمجادلة حول ما إذا كانت البعثات التبشيرية في مستعمرة ما هي التي جلبت قوى الاستعمار الأخرى أم أن العكس هو الصحيح، ولكن ليس هناك شك في حقيقة أن البعثات (التبشيرية) كانت أدوات الاستعمار من الناحية العملية، وقد كان جونستون المغامر الإمبريالي بكره تلك البعثات (التبشيرية) لكنه قال في الثناء عليها: (كل موقع لبعثة تبشيرية هو تدريب على الاستعمار)

وقد علق سيمونز على دور البعثات التبشيرية في إفريقيا بالقول: (جاء الرجل الأبيض إلى إفريقيا وبيده الإنجيل، وأصبح الإنجيل بيد الزنجي)

إن هذا الأسلوب يذكرنا بالمناديل القرمزية..

قالوا: ما المناديل القرمزية؟

قال: لقد ذكر ايستبان مونتجو، وهو إفريقي هرب من مزرعة كوبيه في القرن التاسع عشر أن شعبه قد وقع في حبائل الرق بواسطة اللون الأحمر، حيث جاء البيض بمناديل قرمزية، وأخذوا يلوحون بها من سفنهم، فاستثارت هذه المناديل السود وصعدوا إلى السفن الأوربية ليحصلوا على هذه المناديل القرمزية فوقعوا في الرق.

وهكذا فعل المبشرون.. إنهم حين يقيمون الكنائس الجميلة وسط الحدائق الخضراء المحاطة بالأشجار الباسقة لا يقصدون بذلك خدمة الرب، وإنما خدمة القوى الاستعمارية التي ارتأت وقف الاسترقاق، واستعمار القارة لضرورات اقتصادية بحتة، فأرادت توجيه ضربتها الأخيرة القاصمة وهي الاستحواذ على الأرض والثروات الطبيعية وتقزيم الإفريقي وتفريغه من إفريقيته وثقافته وتراثه.

وقد شهد مطلع القرن التاسع عشر بداية التدفق الاستعماري للقارة الإفريقية، وهو نفس التاريخ الذي شهد تدفق الإرساليات التنصيرية إلى القارة، ومن هذه البعثات التنصيرية جمعية الآباء البيض التي تأسست في كل من نيجيريا والجزائر سنة 1868 ثم امتدت إلى منطقة البحيرات 1878 وإلى غرب إفريقيا 1885

ومنها جمعية شهودة يهوه، وجمعية برلين التنصيرية، وجمعية لنـدن التنصيرية، وجمعية آباء الكنيسة الإنجليزية.. بالإضافة إلى جمعيـات الرومان الكاثوليك.. وغيرها.

سـكت قليلا، ثم قـال: هنـاك جريمـة أخـرى مـا رسـناها بكـل وقاحة، وهي قريبة من الاستعمار.

قلنا: ما هي؟

قال: النفي.. الإخراج من الأرض.. الإبعاد عنها..

قلنا: ما تعني؟

قال: لقد كان من الأسـاليب الـتي مارسـناه مـع من نعتـبرهم حشرات وأوباشا وهباء هو النفي والإخراج من الأرض.. لقـد بـدأنا، فنقلنا السـاخطين سياسـياً ودينيـاً (البيوريتـان) إلى أمريكـا، ونقلنـا المجرمين والفاشلين في تحقيق الحراك الاجتمـاعي في أوطـانهم إلى أمريكا وأستراليا. وتبعتها عمليات نقل أخرى تهدف جميعـاً إلى تحقيق صالح السوبرمن.. الإنسان الغربي..

منها نقْل سـكان أفريقيـا إلى الأمريكـتين لتحــويلهم إلى مـادة اسـتعمالية رخيصة.

ومنها نقْل جيوش أوربـا إلى كـل أنحـاء العـالم، وذلـك للهيمنـة عليها وتحويلها إلى مادة بشرية وطبيعية تُوظَّف لصالح الغرب.

ومنها نقْـل الفـائض البشـري من أوربـا إلى جيـوب اسـتيطانية غربيــة في كــل أنحــاء العــالم، لتكــون ركــائز للجيــوش الغربيــة والحضارة الغربية.

ومنهـا نقْـل كثـير من أعضـاء الأقليـات إلى بلاد أخـرى.. نقـل الصينيين إلى ماليزيا.. ونقل الهنود إلى عدة أمـاكن.. ونقـل اليهـود إلى الأرجنتين.. كل ذلك كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطاني، إذ أن هذه الأقليات تشكل جيوباً استيطانية داخل البلاد التي تستقر فيها.

ومنهــا نقْــل كثــير من العناصــر المقاتلــة من آســيا وإفريقيــا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة في الجيوش الغربية الاستعمارية، مثل الهنود في الجيـوش البريطانيـة.. وفي الحـرب العالميـة الأولى، تم تهجير 132 ألفاً من مختلف أقطار المغرب لسد الفراغ الناجم عن تجنيد الفرنسيين، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم مباشرةً للقتال.

وفي هذا الإطار المعـرفي، تمت عمليـة الاسـتيطان الصـهيونية التي هي في جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية.. تلك المعضلة التي تسمى المسألة اليهودية.. إلى الشرق، فيهود أوربــا

هم مجـرد مـادة، أو فـائض بشـري لا نفـع لـه داخـل أوربـا يمكن توظيفـه في خـدمتها في فلسـطين، والعـرب أيضـاً مـادة أو كتلـة بشـرية تـقف ضد هـذه المصالح الغربية، وفلسـطين كـذلك مـادة، فهي ليست وطناً وإنما هي جزء لا يتجزأ من الطبيعة/المادة تُطلَـق عليه كلمة (الأرض). فتم نقـل العـرب من فلسـطين ونُقـل اليهـود إليها، وتمت إعادة صياغة كل شيء بما يتلاءم مع مصـالح الإنسـان الغربي.

لقد تمت ـ نتيجة لهذا أيضا ـ عمليات نقـل ضـخمة بعـد الحـرب العالميـة الأولى، فنُقـل سـكان يونـانيون من تركيـا إلى اليونـان، وسكان أتراك من اليونان إلى تركيـا، كمـا نُقـل سـكان ألمـان من بروسيا الشرقية بعد ضمها إلى بولندا.

وهذه العمليات هي التي أوحت لهتلر بعمليات نقل اليهود خارج الرايخ.. بل إنـه في السـنين الأخـيرة من حكم الـرايخ طـوَّر هملـر جنرال بلان أوست لنقل 31 مليوناً (غير ألمان) من أوربا الشـرقية وتوطين ألمان بدلاً منهم.

الإبادة:

قلنا: فما الخامس؟

قال: الإبادة.. القتل.. أو ما نسميه بلغتنا التي هذبنا بها الجريمـة (التطهير)

قلنا: ما تعني؟

قال: لقد سـاهمت كـل تلـك الأفكـار.. المقدسـة.. والعلميـة.. والفلسفية.. وغيرها، في نزع القداسة عن البشر كافـة، وتحـويلهم إلى مادة ليست لها قيمة مطلقة، ولا علاقة لها بأية قيم.

وهذا ما يسر عمليات الإبادة الضـخمة الـتي سـالت فيهـا دمـاء كثيرة.. دماء لا يمكن إحصاؤها..

في أمريكـا الشـمالية.. كـانت العقيـدة التطهريـة هي عقيـدة المستوطنين البيض، فهي أولى الأيـديولوجيات الإمبرياليـة الإباديـة الـتي كـانت تغطيهـا ديباجـات دينيـة كثيفـة.. حيث كـان هـؤلاء المتطهـرون يشـيرون إلى هـذا الـوطن الجديـد باعتبـاره (صـهيون الجديـدة) أو (الأرض العـذراء) فهي (أرض بلا شـعب)، وكـان المسـتوطنون يشـيرون إلى أنفسـهم باعتبـارهم (عبرانـيين)، وللسـكان الأصـليين باعتبـارهم (كنعـانيين) أو (عمـاليق) وكلهـا مصطلحات توراتية إبادية، اسـتخدمها معظم المسـتوطنين الـبيض فيما بعد في كل أرجاء العالم.

وكـان كـل هـذا يعـني إبـادة السـكان الأصـليين حـتى يمكن للمستوطنين البيض الاستقرار في الأرض الخالية الجديدة..

قلنا: فهل تم بعض هذا؟

قال: بـل تم الكثـير منـه.. لقـد تم إنجـاز هـذا من خلال القتـل المباشر، أو من خلال نقـل الأمـراض المختلفـة كـأن تُـترَك أغطيـة مصابة بالجدري(1) كي يأخذها الهــنود، فينتشـر الوبـاء بينهــم ويتم إبادتهم تماماً..وكانت الحكومة البريطانيـة في عصـر الملـك جـورج الثالث تعطي مكافأة مالية لكل من يحضر فروة رأس هندي قرينة على قتله.

واستمرت هذه التقاليد الغربية الإبادية بعد استقلال أمريكا، بـل تصـاعدت بعـد عـام 1830 حين أصـدر الـرئيس جاكسـون قـانون ترحيل الهنود، والـذي تم بمقتضـاه تجميـع خمسـين ألفـاً من هنـود الشيروكي من جورجيـا وتـرحيلهم أثنـاء فصـل الشـتاء سـيراً على الأقدام إلى معسكر اعتقال خُصِّص لهم في أوكلاهومـا، وقـد مـات أغلبهم في الطريـق.. وهـذا شـكل من أشـكال الإبـادة عن طريـق التهجير، فهو ـ شكلاً ـ نقل من مكان لآخـر ولكنـه حقيقـة نقـل من هذا العالم للعالم الآخر.

وقد وصـلت العمليـة الإباديـة إلى قمتهـا في معركـة ونديـد ني Wounded Knee (الركبة الجريحة) عام 1890.. وكانت الثمرة النهائيـة لعمليات الإبادة هذه أنه لم يبـق سـوى نصـف مليـون من مجمـوع السكان الأصليين الذي كـان يُقــدر بنحـو 6.5 مليـون عــام 1500 لدى وصول الإنسان الأبيض، أي أنه تمت إبادة سـتة مليون مواطن أصلي.. وهو رقم سحري لا يذكره أحد هذه الأيـام، إذا لم نحــسب نسبة التزايد الطبيعي(2).

وقد تكرر نفس النمط في أستراليا التي كان يبلغ عـدد سـكانها الأصليين 2 مليون عند اسـتيطان الـبيض للقـارة في عـام 1788، ولم يبـق منهم سـوى 300 ألـف. ولا تـزال عمليـة إبـادة السـكان

1() يـذكر المؤرخـون أنـه في عـام 1763 أمـر القائـد الأمـريكي (البريطـاني الأصـل) جفري أهرسـت بـرمي بطانيـات كـانت تسـتخدم في مصـحات علاج الجـدري إلى الهنـود الحمر بهدف نشر المرض بينهم مما أدى إلى انتشار الوباء الـذي نتج عنـه مـوت الملايين من الهنود، ونتج عن ذلك شبه إفناء للسكان الأصليين في القارة الأمريكية.

وقد كانت هذه الحادثة أول وأكبر استخدام لأسـلحة الـدمار الشـامل بشـكلها الشـامل ضد الهنود الحمر، حتى أن القنابل النووية التي أطلقت بعد ذلك بما يزيد عن قـرن ونيـف على هيروشيما وناكازاكي لم تكن اكثر فتكا من جرثومة الجدري المستخدمة ضد الهنـود، حيث قتل من اليابانيين 5% من عدد ضحايا الهنود في تلك المجزرة.

2()يُقدر البعض أن العدد الفعلي الذي تم إبادته منذ القرن السادس عشر حـتى بدايـة القرن العشرين قد يصل إلى عشرات الملايين.

الأصليين مستمرة في البرازيل وأماكن أخرى، وإن كان بشكل أقل منهجية وخارج نطاق الدولة.

وترتبط بالتجربة الاستيطانية في أمريكا الشمالية عمليات نقل ملايين الأفارقة السود للأمريكتين لتحويلهم إلى عمالة رخيصة، وقد تم نقل عشرة ملايين تقريباً، ومع هذا يجب أن تعلموا أن كل أسير كان يقابله بوجه عام عشرة أموات كانوا يلقون حتفهم إما بسبب الإنهاك والإرهاق وسوء الأحوال الصحية، أو من خلال إلقائهم في البحر لإصابتهم بالمرض.

وكانت أعمال السخرة الاستعمارية في أفريقيا ذاتها لا تقل قسوة، ففي كتابه رحلة إلى الكونغو (1927)، يُبيِّن أندريه جيد كيف أن بناء السكة الحديد بين برازفيل والبوانت السوداء.. وهي مساحة طولها 140 كيلو متر.. احتاجت إلى سبعة عشر ألف جثة.. ويمكن أن تعلموا هنا أيضاً أن حفر قنال السويس بنفس الطريقة وتحت نفس الظروف وبنفس التكلفة البشرية.

وقد ورد في إحدى الدراسات أن عدد المواطنين الأوربيين الذين لهم علاقة بعمليات التطهير العرْقي والإبادة داخل أوربا، إما كضحايا أو كجزارين، يصل إلى مائة مليون، فإذا أضفنا إلى هذا عدد المتورطين في عمليات القمع والإبادة الاستعمارية في الكونغو وفلسطين والجزائر وفيتنام وغيرها من البلدان فإن العدد حتماً سوف يتضاعف.

سكت قليلا، ثم قال: أرجو أن تملكوا أنفسكم.. فسأذكر لكم نموذجا قريبا رأيته وعشته من عمليات الإبادة المنظمة.. إنه الإبادة النازية..

قلنا: الكل ينكر على النازية(1)؟

1()كلمة «نازي» مأخوذة بالاختصار والتصرف (بهدف التهكم) من العبارة الألمانية «ناشيونال سوشياليستيش دويتش أربايترپارتي National Sozialistische Deutsche Arbeiterpartei» (NSDAP)، أي «الاشتراكية القومية»، وهي حركة عرْقية داروينية شمولية، قادها هتلر وهيْمنت على مقاليد الحكم في ألمانيا. وعلى المجتمع الألماني بأسره. والحركة النازية هي حركة سياسية وفكرية، ضمن حركات سياسية فكرية أخرى تحمل نفس السمات، ظهرت داخل التشكيل الحضاري الغربي بعد الحرب العالمية الأولى. كانت النواة الأساسية للحركة النازية هي حزب صغير يُسمَّى «حزب العمال الألمان» أسِّس في جو البطالة والثورة الاجتماعية عام 1918 بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإذلالها على يد الدول الغربية المنتصرة. وكان المنظِّر الأساسي للحزب هو جوتفريد فيدر الذي نادى بعقيدة لها صبغة قومية قوية وطابع اشتراكي، تدعو إلى ملكية الدولة للأرض وتأميم البنوك. وكان من أوائل من انضم لعضوية هذا الحزب محاربون قدامى مثل رودولف هس وهرمان جورنج، ومثقفون محبطون مثل ألفريد روزنبرج و ب.ج. جوبلز وهتلر نفسه، وشخصيات أخرى مثل يوليوس ستراير. وقد ازدادت عضوية الحزب لأنه توجه إلى المخاوف الكامنة لدى قطاعات كبيرة من

قال: أصدقكم القول.. لم تكن النازية سوى اللحظة التي تبلور فيها النموذج الغربي للإبادة وأفصح عن نفسه بشكل فاضح، دون زخارف أو ديباجات.. ولذا أذهلت الجميع.

لقد كنت في ذلك الحين أشرب الدماء مع النازيين.. وكان النازيون ـ حينها ـ يُدركون تماما أن نظامهم النازي وممارساته الإبادية هما ثمرة طبيعية للتشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي الحديث.

لقد عشت مع هتلر، وعرفت من صحبته موقفه من أولى تجارب الإنسان الغربي الاستعمارية الاستيطانية، أي تجربته في أمريكا الشمالية.. لقد كان يعتبرها تجربة مثالية أوحت له بكثير من أفكاره التي وضعها موضع التنفيذ فيما بعد(2).

الألمان من الشيوعيين والبلاشفة، وإلى حنقها على معاهدة فرساي التي أذلت ألمانيا وحولتها إلى ما يشبه المستعمرة، وعلى جمهورية وايمار المتخاذلة التي قبلت هذا الوضع، وإلى إحساس الجماهير بالضياع في المجتمع الحديث وإحساسهم بالقلق وعدم الطمأنينة نتيجة تآكل المجتمع التقليدي. ورغم أن الحزب كان يُسمَّى «حزب العمال»، فإنه لم يضم كثيراً من العمال بين أعضائه، ولم ينضم له من العمال سوى العاطلين عن العمل. وأُعيد تنظيم الحزب عام 1920 وسُمِّي «حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي» وترأسه هتلر الذي حصل على تأييد لودندورف (بطل الحرب العالمية الأولى) وعديد من رجال الصناعة الذين رأوا أن بإمكان هتلر تقويض دعائم النظام السياسي القائم، الذي لم يكن يسمح لهم باتباع سياسة رأسمالية حرة تماماً، كما أنهم رأوا أن وجوده يمثل الفرصة الوحيدة أمامهم لوقف تقدم الشيوعيين. وقد تزايد نفوذ الحزب مع اتساع نطاق الكساد الاقتصادي. وحل كتاب هتلر كفاحي محل برنامج جوتفريد فيدر (الذي تحول إلى مجرد ناطق بلسان هتلر)، كما تراجع الخطاب الاشتراكي وحل محله خطابٌ نازيٌ أكثر تبلوراً ومادية. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

2() وكأدلة على ذلك يذكر المؤرخ جون تولاند أن هتلر، في أحاديثه الخاصة مع أعضاء الحلقة المقرَّبة إليه، كثيراً ما كان يعبِّر عن إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين وطريقة معالجتهم لقضية الهنود الحمر. فقد قاموا بمحاولة ترويضهم عن طريق الأسر، أما هؤلاء الذين رفضوا الرضوخ فكان يتم إبادتهم من خلال التجويع أو القتال غير المتكافئ.

ويقول يواقيم فست إن حروب هتلر القارية المستمرة كانت محاكاة للنموذج الاستعماري الغربي في أمريكا الشمالية. وبالفعل صرح هتلر في إحدى خطبه بأنه حين قام كورتيز وبيزارو (وهما من أوائل القواد الاستعماريين الإسبان) بغزو أمريكا الوسطى والولايات الشمالية من أمريكا الجنوبية، فهم لم يفعلوا ذلك انطلاقاً من أي سند قانوني وإنما من الإحساس الداخلي المطلق بالتفوق. فاستيطان الإنسان الأبيض لأمريكا الشمالية، كما أكد هتلر، لم يكن له أي سند ديموقراطي أو دولي، وإنما كان ينبع من الإيمان بتفوق الجنس الأبيض. ولذا في مجال تبريره للحرب الشرسة التي شنها على شرق أوربا قال هتلر: (إن هناك واجباً واحداً: أن نؤلمن هذه البلاد من خلال هجرة الألمان الاستيطانية وأن ننظر إلى السكان الأصليين باعتبارهم هنوداً حمراً)

وأكد هتلر أن الحرب التي تخوضها ألمانيا ضد عناصر المقاومة في شرق أوربا لا تختلف كثيراً عن كفاح البيض في أمريكا الشمالية ضد الهنود الحمر. ومن هنا كان هتلر يشير إلى أوربا الشرقية باعتبارها أرضاً عذراء وصحراء مهجورة.

وقد بيَّن ألفريد روزنبرج، أثناء محاكمته في نورمبرج، هذه العلاقة العضوية بين العنصرية النازية والمشروع الغربي الإمبريالي، فأشار مثلاً إلى أنه تعرَّف لأول مرة على مصطلح (الإنسان الأعلى) (السوبرمان) في كتاب عن الاستعماري الإنجليزي

ولعل أكبر دليل على أن الإبادة تضرب بجذورها في حضارتنا المتعفة بالدماء، وأنها لم تكن مقصورة على النازيين، ما لاحظتموه من فكر وسلوك الحلفاء، أعداء النازيين الذين قاموا بمحاكمتهم بعد الحرب:

فإرنست همنجواي، الكاتب الأمريكي، كان يُطالب بتعقيم الألمان بشكل جماعي للقضاء على العنصر الألماني..

وفي عام 1940 قال تشرشل: إنه ينوي تجويع ألمانيا وتدمير المدن الألمانية وحرقها وحرق غاباتها..

وقد عبَّر كليفتون فاديمان(1) عن هذا الموقف الإبادي بشكل متبلور.. فقد شن حملة كراهية ضارية ضد الألمان تشبه في كثير من الوجوه الحملة التي شنها الغرب ضد العرب في الستينيات، والتي يشنها ضد المسلمين والإسلام في الوقت الحاضر.. لقد جعل الهدف حملته (إضرام الكراهية لا ضد القيادة النازية وحسب، وإنما ضد الألمان ككل.. فالطريقة الوحيدة لأن يفهم الألمان ما نقول هو قتلهم.. فالعدوان النازي لا تقوم به عصابة صغيرة.. وإنما هو التعبير النهائي عن أعمق غرائز الشعب الألماني، فهتلر هو تَجسُّد لقوى أكبر منه، والهرطقة التي ينادي بها هتلر عمرها 2000 عام)، ومثل هذا الحديث لا يختلف كثيراً عن الحديث عن عبء الرجل الأبيض وعن الخطر الإسلامي ومن قبله الخطر الأصفر.

وقد اشترك بعض الزعماء والكُتَّاب اليهود في هذه الحملة، فصرح فلاديمير جابوتنسكي عام 1934 بأن مصلحة اليهود تتطلب الإبادة النهائية لألمانيا، فالشعب الألماني بأسره يُشكِّل تهديداً لنا.

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنكم قرأتم كتاب الكاتب الأمريكي تيودور كاوفمان بعنوان (لابد من إبادة ألمانيا).. إنه من أهم الكتب المحرضة على الإبادة، وقد استفادت منه آلة الدعاية النازية، وبيَّنت أبعاد المؤامرة الإبادية ضد الألمان، وهو ما شكَّل تبريراً لفكرة الإبادة النازية نفسها.

لقد ورد في هذا الكتاب أن كل الألمان، مهما كان توجههم السياسي (حتى لو كانوا معادين للنازية، أو شيوعيين، أو حتى

كتشنر، وأن مصطلح (الجنس المتفوق) أو (الجنس السيد) مأخوذ من كتابات العالم الأمريكي الأنثروبولوجي ماديسون جرانت والعالم الفرنسي لابوج، وأن رؤيته العرْقية هي نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية، فالنازية - كما أكد روزنبرج لمحاكميه - جزء من الحضارة الغربية. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

1() كان محرر مجلة النيو يوركر، وهي من أهم المجلات الأمريكية، ورئيس إحدى الوكالات الأدبية التي أنشأتها الحكومة الأمريكية إبَّان الحرب بغرض الحرب النفسية.

محبين لليهود) لا يستحقون الحياة، ولذا لابد من تجنيد آلاف الأطباء بعد الحرب ليقوموا بتعقيمهم حتى يتسنى إبادة الجنس الألماني تماماً خلال ستين عاماً!

وكان هناك أحاديث كثيرة عن ضرورة هدم ألمانيا، وعن تحويل ألمانيا إلى بلد رعوية، أي هدم كل صناعاتها ومؤسساتها الحديثة.

ولم يكن كل هذا مجرد كلام..

لقد نجحت غارات الحلفاء على المدن الألمانية في إبادة مئات الألوف من المدنيين من الرجال والأطفال والنساء والعجائز وتحطيم كل أشكال الحضارة والحياة.. وقد بلغ عدد ضحايا الغارات على مدينة درسدن الألمانية وحدها 200 ألف قتيل.

كما استمرت النزعة الإبادية بعد الحرب،فقامت قوات الحلفاء بوضع مئات الألوف من الجنود الألمان في معسكرات اعتقال وتم إهمالهم عن عمد، فتم تصنيفهم على أساس أنهم DEFS(1) أي (قوات معادية تم نزع سلاحها) بدلاً من تصنيفهم (أسرى حرب)

وإعادة التصنيف هذه لم تكن تعني سوى حرمانهم من المعاملة الإنسانية التي تنص عليها اتفاقيات جنيف الخاصة بأسرى الحرب، وبالفعل قضى 793.239 جندي ألماني نحبهم في معسكرات الاعتقال الأمريكية عام 1945،كما قضى 167 ألف نحبهم في معسكرات الاعتقال الفرنسية نتيجةً للجوع والمرض والأحوال الصحية السيئة، وفي الوقت ذاته كان يوجد 13.5 مليون طرد طعام في مخازن الصليب الأحمر، تعمدت سلطات الحلفاء عدم توزيعها عليهم.

ولم تقتصر الإبادة على التصفية الجسدية بل كانت هناك إبادة ثقافية، فقد قام الحلفاء بما سُمِّي (عملية نزع الصبغة النازية عن ألمانيا) للقضاء على النازيين في الحياة العامة، فأقيمت 545 محكمة دائمة على الأقل يتبعها طاقم من الفنيين والسكرتارية عددهم اثنان وعشرون ألفاً.

وقام الأمريكيون بتغطية ثلاثة عشر مليون حالة (أي معظم الذكور الألمان البالغين)، وتم توجيه الاتهام إلى ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف، أجريت لهم محاكمات عاجلة، وأدين تسعمائة وثلاثون ألفاً منهم، وصدرت أحكام بشأنهم من بينها 169.282 حكماً بتهمة ارتكاب جرائم نازية لا مجرد التعاون مع النظام النازي. وأصدر البريطانيون 22.296 حكماً والفرنسيون 17.353

1() وهي اختصار عبارة (ديس آرميد إنيمي فورسيز disarmed enemy forces).

حكماً، والروس ثمانية عشر ألف حكم. وبحلول عام 1945، كان قد تم طرد 141 ألف ألماني من وظائفهم، من بينهم معظم المدرسين في منطقة الاحتلال الأمريكية، وزُج بعدد أكبر من هؤلاء في السجن.

وتظهر نفس النزعة الإبادية في استجابة الحلفاء لليابان، فقبل اكتشاف القنبلة الذرية، كان الجنرال الأمريكي كورتيس لي ماي يقوم بتحطيم مدن اليابان الواحدة تلو الأخرى بشكل منهجي لم يسبق له مثيل في التاريخ.. فخلال عشرة أيام في مارس 1945، قامت الطائرات الأمريكية بطلعات جوية بلغ عددها 11.600، تم خلالها إغراق 32 ميل مربع من أكبر أربع مدن يابانية بالقنابل، وهو ما أدَّى إلى محو هذه المساحات وكل ما عليها من الوجود وتسببت في مقتل150.000. أما الغارات الجوية على طوكيو يوم 25 مايو 1945، فتسببت في اندلاع عاصفة نارية ضخمة حتى أن قائدي الطائرات المقاتلة كانوا يشمون رائحة لحم البشر المحترق وهم على ارتفاع آلاف الأقدام. وأدَّت هذه الغارات إلى مقتل الآلاف وتشريد مليون شخص على الأقل.

وكانت عملية الإبادة من الشمول لدرجة أن الجنرال جروفز المسئول عن مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية كان يخشى ألا يجد أي هدف سليم يمكن أن يُلقي عليه بقنابله ويدمره.

ورغم أن الولايات المتحدة كانت تعرف أن اليابانيين كانوا قد بدأوا يفكرون بشكل جاد في إنهاء الحرب، فقد رأى الجنرال جروفز ضرورة استخدام القنبلة مهما كان الأمر ـ بعد أن تم إنفاق 2 بليون دولار في تطويرها وهو ما يُعادل 26 بليون دولار بحسابات اليوم ـ كما أن ترومان كان يشعر بعدم الثقة في نفسه أمام تشرشل وستالين، ولذا كان يود أن يذهب للاجتماع بهم وهو في موقع قوة، خصوصاً وأن الدب الروسي كان قد بدأ في التضخم. ومن ثم، كان لابد من إلقاء القنبلة الذرية بغض النظر عن عدد الضحايا أو حجم التدمير. وكان الجنرال جروفز (محظوظاً) (كما تقول بعض الدراسات) إذ وجد ضالته المنشودة في هيروشيما التي كان يقطنها 280 ألف نسمة، ووجد أنها محاطة بتلال يمكن أن تُحوِّل المدينة إلى جهنم حقيقية بعد الانفجار إذ أنها ستركز الحرارة، وبالفعل قُتل فور وقوع الانفجار 70 ألف مدني ومات 130 ألف آخرون بعد عدة شهور متأثرين بحروقهم من الإشعاع.

وكـأن هيروشـيما لم تكن كافيـة، فـأُلقيت قنبــلة أخـرى على ناجازاكي، أدَّت هي الأخـرى إلى مقـتل 70 ألـف آخرين، غير مئات الألوف الآخرين الذين لقـوا مصـرعهم فيمـا بعـد، فمـا بين ألمانيــا واليابـان تم إبــادة وإصــابة حـوالي مليـوني شـخص معظمهم من المدنيين.

ومثـل هـذا كـان يقـوم بـه النظـام الســتاليني ضـد الشـعوب الإســلامية المســالمة في الخانــات التركيــة، والــتي أصــبحت الجمهوريات السوفيتية الإسلامية:

لقد كان عدد شعب التتار وحده يساوي عدد سكان روسيا، أمـا الآن فهو لا يُكوِّن سوى نسبة مئوية ضئيلة، ومصيره بهذا لا يختلــف كثيراً عن مصير السكان الأصليين في أستراليا وأمريكا الشمالية.

وقـد اسـتمر النظـام السـتاليني في عمليـات الإبـادة المنهجيـة والمنظمة لأعدائـه الطبقـيين مثـل الكـولاك الـذين قـاوموا تحويـل مزارعهم إلى مزارع جماعية، بل تم إبادة كثير من أعضـاء الحـزب الشيوعي ممن عارضوا الديكتاتور.

وكانت الإبادة تأخـذ أشـكالاً مختلفـة مثـل الإعـدام والعمـل في معسكرات السخرة. وقد بلغ عدد الضحايا 20 مليـون، مـات منهم 12 مليــون على الأقــل في معســكرات الجــولاج: هــذا حســب التقديرات المحافظة، أما أعداء النظام الستاليني فيقولون إن عدد الضحايا بلغ 50 مليوناً! وبعد حـوالي نصـف قـرن لا تـزال عمليـات الإبادة والتطهير العرْقي على قـدم وسـاق في البوسـنة والهرسـك والشيشان ولا تـزال بعض الـدول الغربيـة تـراقب هـذا بحيـاد غـير عادي.

قلنا: فحدثنا عن الإبـادة النازيـة الـتي اعتبرتهـا النمـوذج الأمثـل الذي تجلت فيه دموية قومنا.

قال: لا شك أنكم تعرفون الغجر(1)؟

قلنا: وكيف لا نعرفهم.. ما بهم؟

قال: لقد كانوا من الشعوب التي شملتهم عنصريتنا وكبرياؤنا.. فرحنا نبيدهم بكل ما أتاحت لنا وسائلنا من قدرات على الإبادة.

1() الغجر مجموعةٌ متجوِّلةٌ من الناس عاش أسلافهم أصلاً في الهند، ويعيشون اليـوم في كل جزء من العالم تقريباً. وقد استقر بعضهم، ولكن الكثيرين مازالوا رُحَّلا.. ولايعرف عدد الغجر لأنهم منتظمون في جماعات صـغيرة، ويتجنبـون الاتصـال بالجهـات الرسـمية. وتتراوح تقديرات أعداد الغجر في كلِّ أنحاء العالم بين مليون وستة ملايين. وتعيش أكـبر أعـداد الغجـر في أوروبـا الشـرقية. وتوجـد مجموعـات كثـيرة منهم تشـمل الكـالي في أسبانيا، والمانوش في فرنسا، والسنتْ في ألمانيا. وقبائـل رُوم هي الجماعـة الأكـبر من الغجر، وتعيش في كلِّ أنحاء العالم تقريباً. (انظر: الموسوعة العربية العالمية).

قلنا: لم نكن نعلم أن الإبادة مست هذا الشعب المسالم.. لقد كنا نتصورها خاصة باليهود(1)؟

قال: ذلك من تلاعبنا وتلاعب إعلامنا بالحقائق.. فنحن لم نشهر إبادة اليهود حبا لليهود، وإنما لنوظفهم في إبادة شعوب أخرى واستغلال شعوب أخرى.. أما الغجر.. فلم نر لهم أي وظيفة، فلذلك لم نسقط عليهم أي دمعة.

قلنا: فحدثنا عن إبادة هذا الشعب الطيب.

قال: لقد كانت إبادة الغجر مُدرجة في برنامج ألمانيا النازية.. وكان لدى شرطة إقليم بافاريا الألماني منذ عام 1899 قسمٌ خاص بشئون الغجر يتلقى نسخاً من قرارات المحاكم المكلّفة بالبت في المخالفات التي يرتكبها الغجر.. ثم تحوَّل هذا القسم عام 1929 إلى مركز وطني مقره ميونيخ، وحُظر على الغجر منذ ذلك التاريخ التنقل بدون تصريح الشرطة، وكان الغجر الذين يزيد أعمارهم على السادسة عشرة ولا يعملون يُجبرون على العمل لمدة سنتين في مركز من مراكز التأهيل.. وابتداءً من عام 1933، وهو تاريخ وصول هتلر إلى الحكم، زادت تلك القيود شدة وصرامة، وطُرد الغجر الذين لا يحملون الجنسية الألمانية، وزُجّ بالباقين في المعتقلات بحجة أنهم (غير اجتماعيين)

ثم بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العِرقية للغجر، فأعلن الدكتور هانز جلوبكه ـ أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج ـ عام 1936 ـ أن الدم الذي يجري في عروق الغجر (دم أجنبي)، ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينثر في فئة مستقلة تمثل مزيجاً عرْقياً غير محدَّد (إذ لم يستطع نفي أصلهم الآري).. وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجة أهلتها لأن تصلح موضوعاً لرسالة دكتوراه، ومما قالته إيفا جوستين مساعدة الدكتور ريتّر في قسم الأبحاث العِرقية بوزارة الصحة (عند مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغاً على صفاء الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مذكرة إلى هتلر يقترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمهم بالجملة نظراً

1()ارتبطت عبارة (الإبادة النازية) بكلمة (اليهود) حتى يستقر في الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود. وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حتى أصبح دور الضحية حكراً على اليهود. بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبيِّن أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس. (انظر: الموسوعة اليهودية، للمسيري)

لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

وفي 14 ديسمبر عام 1936، صدر قرار أدى إلى تفاقم أوضاع الغجر إذ وصمهم بأنهم (مجرمون معتادون على الإجرام)، وفي نهاية عام 1937 وخلال عام 1938 شُنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّص لهم جناح في معتقل بوخنولد، وكانت قوائم الوفيات في كثير من المعسكرات تحوي أسماء غجرية يُذكَر منها: ماوتهاوسن وجوسن وداوتمرجن وناتلزفايلر وفلوسنبورج. وفي رافنسبروك، راحت كثيرات من نساء الغجر ضحايا لتجارب أطباء الشرطة العسكرية الهتلرية الإس. إس. (ss).

وفي عام 1938، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقر المركز الوطني لشئون الغجر إلى برلين، وفي السنة نفسها اعتُقل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم. وقد أمر هملر بتصنيف الغجر في الفئات التالية: غجري صرف (z)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (ZM+)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الآري (ZM-)، وخلاسي يتساوى فيه العرْقان الغجري والآري (ZM).

قلنا: فكيف تمت محاولات إبادة هذا الشعب؟

قال: هناك أساليب مختلفة لذلك.. منها إزالة القدرة على الإنجاب.. ومنها اختطاف الأطفال.. ومنها الإبادة عن طريق الزج في المعتقلات.. ومنها الإبادة عن طريق الإفناء.

لقد عُقِّمت في مستشفى برسلدورف - لبيرنفلد نساء غجريات متزوجات من غير الغجر، ومات بعضهن على أثر تعقيمهن وهنَّ حوامل، وفي رافنسبروك، قام أطباء الإس. إس. بتعقيم مائة وعشرين فتاة غجرية صغيرة.

وكان من أمثلة الإبادة الجماعية عن طريق الاعتقال ترحيل خمسة آلاف غجري من ألمانيا إلى جيتو لودز في بولندا، وكانت ظروف المعيشة في هذا الجيتو من الفظاعة بحيث لم ينج أحد من هؤلاء الغجر من الهلاك.

ومع ذلك فإن الطريقة التي كان يؤثرها النازيون هي طريقة الإفناء المباشر، وقد اتخذ قرار إبادة الغجر بالإفناء في ربيع عام 1941 عندما شُكِّل ما عُرف باسم (فرق الإعدام)، ولكي يتحقق ذلك كان يتعيَّن جمع الغجر في أماكن محددة، فمنذ صدور قرار هملر في 8 ديسمبر 1938، كانت أماكن سكنى الغجر قد أصبحت معروفة لدى الشرطة، ثم جاء قرار 17 نوفمبر 1939 ليحظر

عليهم ترك منازلهم أو ليضعهم تحت طائلة الحبس في معسكرات الاعتقال، ورُحل ثلاثون ألـف غجـري إلى بولنـدا فلاقـوا حتفهم في معتقلات الموت في بلـزك وتربلينكـا وسـوبيبور ومايـدانك، شـأنهم شأن آلاف آخرين رُحلـوا من بلجيكـا وهولنـدا وفرنسـا إلى معتقـل أوشفيتس.

ويـروي هـويس، قائـد المعتقـل، في مذكراتـه أنـه كـان بين المعتقلين شيوخ ينـاهزون المائـة سـنة من العمـر ونسـاء حوامـل وأعداد كبيرة من الأطفال، كذلك يروي بعض السجناء الـذين نجـوا من الهلاك، كما يسرد كولكا وكرواس في كتابهمـا المعنـون مصـنع الموت، قصة مذبحة الغجر الرهيبة التي وقعت في ليلـة 31 يوليـه عام 1944.

وفي بولنـدا، كـان الغجـر يُقتلـون في معسـكرات المـوت أو يُعدمون في البراري.. وامتـد نطـاق القتـل إلى الاتحـاد السـوفيتي عندما اندلعت نيران الحرب بين الألمان والسوفييت، فكـانت فـرق الإعدام التابعـة للإس. إس. تسـير مـع الجيـوش الألمانيـة، وكـانت القبور الجماعية تملأ مناطق البلطيق وأوكرانيا والقـرم.. وفي ليلـة 24 ديسمبر 1941 أعدم رمياً بالرصاص في سيمفيروبول ثمانمائة غجـري من الرجـال والنسـاء والأطفـال.. وحينمـا زحفت الجيـوش النازيــة، كــان الغجــر يُعتقلــون أو يُرحلــون إلى المعســكرات أو يُقتلـون.. وفي يوغسـلافيا، كـان الغجـر واليهـود يُعـدمون في غابـة باجنيس.

قلنا: فقد أبيد كم كبير من هذا الشعب على حسب ما تذكر؟

قال: لا يمكن تصور عدد من أبيـدوا.. لأنـه من الصـعب تقـدير عدد الغجر الـذين كـانوا يعيشـون في أوربـا قبـل الحـرب العالميـة الثانيـة وعـدد ضـحايا هـذه الحـرب.. لكن يتـبيَّن من تقـارير فـرق الإعدام أن عدد الضحايا في روسيا وأوكرانيـا والقـرم بلـغ ثلاثمائـة ألف غجـري، بينمـا تُقـدر السـلطات اليوغسـلافية عـدد القتلى من الغجر بثمانية وعشرين ألفاً في الصرب وحـدها. أمـا عـدد الضـحايا في بولندا، فمن الصعب تقديره وإن كان المؤرخ تيننبـاوم يؤكـد أن الشعب الغجري فقد على الأقل خمسمائة ألف من أبنائه. هذا، مع العلم بأن الشعب الغجري شعب عريق وكثير النسل.

وعلى كل حال، ومهما اختلفت النسب، فإن نسبة من أُبيـد من الغجر إلى عددهم الكلي يفوق نسبة من أبيد من اليهود.

قلنا: فحدثنا عن إبادة اليهود.. أم أنك تنكرها؟

قال: لا يمكنني أن أنكر الجريمة.. لأن من أنكـر الجريمـة كـان مصرا عليها.. ولكني أنكر أن تتخذ الجريمة ذريعة لجريمة.

قلنا: ما تقصد؟

قال: أنتم تعلمون ما يفعله قومنا بذلك الشعب المسالم الـذي طرد من أرضه من أجل أن يسـكنها اليهـود.. وليس لهم من مـبرر لـذلك إلا أن هـذا الشـعب تعـرض لجريمـة.. ومـا دام قـد تعـرض لجريمة، فلا بد أن يدفع شعب آخر لا علاقة له بالجريمة الثمن.

سكت قليلا، ثم قال: إن هؤلاء الذي زجوا بهذا الشعب في تلك الأرض الطيبة المقدسة لينجسوها لم يفعلوا إلا مـا كـان يـود هتلـر فعله.. ولكن الأمر قصر به.. فراح يسرع إلى حل الإبادة.

لقد كان جوهر الفكـر النـازي، متمثلاً في كتابـات أدولـف هتلـر وغيره من المفكرين النازيين، لا يختلف كثـيراً عن فكـر سـير آرثـر بلفـور صـاحب الوعـد المشـهور وغـيره من الساسـة والمفكـرين الاستعماريين.. فكلٌ من هتلر وبلفور يدور داخل الإطـار الإمبريـالي العِـرقي المبـني على الإيمـان بالتفـاوت بين الأعـراق، وعلى حـل مشـاكل أوربا عن طريق تصـديرها.. وكلاهما يؤمن بفكرة الشـعب العضوي، وكلاهما يرى في اليهود عنصراً غير مرغـوب فيـه ويؤكـد، من ثم، ضـرورة وضـع حـل نهـائي للمسـألة اليهوديـة في أوربـا، وكلاهمـا لا يلـتزم بأيـة منظومـة أخلاقيـة سـوى منظومـة المنفعـة المادية ومنظومة الصراع الداروينية، وقد تم الحل النهائي في حالة بلفور بنقل اليهود خارج إنجلترا وأوربا إلى فلسطين.

وقد حـاول هتلـر، في بدايـة الأمـر، أن يحـل مسـألته اليهوديـة بشـكل نهـائي أيضـاً، بـالطرق الاسـتعمارية السـلمية البلفوريـة التقليديـة، أي التخلص من الفـائض البشـري اليهـودي عن طريـق تصديره إلى رقعة أخرى خارج ألمانيا. وكان هتلـر يـدرك أن النقـل هو جزء من المنظومة الغربية وطريقة حلها للمشاكل. فقـد أشـار (في أغسـطس 1940) إلى أنـه تم إفـراغ بروسـيا الشـرقية من سـكانها الألمـان بعـد الحـرب العالميـة الأولى، وتسـاءل عن وجـه الضرر في نقل 600 ألف يهودي من أراضي الـرايخ (وكـان هنـاك مشروع نازي ترانسـفيري أكبر وهـو نقل 31 مليــون غـير ألمـاني من شرق أوربا، وهي عبارة بلفورية لا تختلف عن تلك العبارة التي وردت في وعد بلفور حيث تمت الإشارة لسكان فلسطين العـرب على أنهم (الجماعات غير اليهودية)

وداخل هذا التصور البلفوري الغربي تحرَّك هتلر لتنفيـذ خطتـه،

حيث قام بشحن عشـرة آلاف يهـودي وأرسـلهم عـبر الحـدود إلى بولندا في 28 أكتوبر 1938، ولكن الحدود البولندية كانت موصـدة دونهـم، فبولندا هي الأخرى كانت تود الدفاع عن مصالحها المادية.

واسـتمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهـود حتى نهاية الحكم النـازي، فبُـذلت المحاولـة تلـو الأخـرى لتـوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسـطين.. وكـان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى (مشروع مدغشقر) يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية، ولكن معظم هـذه المشـروعات فشـلت، ولم تُطـرح بـدائل أخـرى، فالمجـال الاسـتعماري الحيـوي لألمانيـا بعـد هزيمتهـا في الحـرب العالميـة الأولى، كان محدوداً.

في ذلك الحين لم تكن الدول الغربية ـ الـتي تتبـاكى حـتى الآن على ضحايا الإبادة ـ ترحب بالمهاجرين اليهود أو غيرهم.

وكان هتلر يسمي خطة النقـل هـذه (الحـل الشـامل) و(الحـل النهائي)، ولكن هذا الحـل النهـائي البلفـوري لم يكن متاحـاً لهتلـر، ولذا لم يكن أمـامه سـوى اسـتبعاد اليهـود بطريقـة غـير بلفوريـة، وتتميَّز بكونها أكثر حدة ومنهجية وتبلوراً وسـوقية، ومـع هـذا يميـل كثير من العلمـاء إلى القـول بـأن (الحـل النهـائي النـازي للمسـألة اليهودية) ظل ذا طابع بلفوري حتى النهاية، أي حل نهائي من خلال التهجير القسري إمـا إلى المسـتعمرات في آسـيا وأفريقيـا أو إلى معسكرات العمل والسخرة في ألمانيا، التي لم تكن الأوضاع فيهـا تختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة في المستعمرات.

قلنا: فحدثنا عن تلك الأعـداد الضـخمة من اليهـود الـتي أبادهـا النازيون.

قال: أنا لم أحضـر تلـك العمليـات بالدقـة الـتي وصـفت بهـا.. ولكن لي أصدقاء كثيرين حضروا.. وقد أخـبروني أخبـارا مختلفـة.. وأنـا لا أسـتطيع أن أصـدقهم جميعـا، ولا أن أكـذبهم جميعـا.. فقـد تعلمت من النــور والســلام والصــفاء عنــدما التقيت بــه أنــه من الجريمة أن نتهم المجرم بما لم يرتكبه من الجرائم.

كل ما أعلمه من ذلك أنـه عنـدما أقيمت معسـكرات الاعتقـال في ألمانيـا عـام 1933 بعـد اسـتيلاء النـازيين على الحكم، كـان البوليس السـري الألمـاني (جسـتابو) يقـوم بـالقبض على خصـوم الحكومـة النازيـة واحتجـازهم في هـذه المعسـكرات، وحين عظم نفـوذ الجسـتابو وأعطي الحريـة المطلقـة في التصـرف، أصـبحت

عمليــات القبض تتم على نطــاق واســع، فقُبض على جماعــات بأكملها ثم أُرسلت إلى معسكرات الاعتقال.

ولم تكن هذه العمليات موجهة ضد اليهـود بالـذات، وإنمـا كـان يُعتقل كل من يشكل خطراً على الدولة الجديـدة بغض النظـر عن دينـه أو جنسـيته.. وقـد وقعت أول حادثـة موجهـة ضـد اليهـود في نوفمــبر 1938 عنــدما وُضــع عشــرون ألــف يهــودي في هــذه المعســكرات في داخــاو وبوخنوالــد.. ومن معســكرات الاعتقــال الشهيرة الأخرى، معسكر برجن بلسن.

ومما أعلمه بدقة في هذا أنه أُقيمت ستة معسكرات للاعتقــال والإبـادة في بولنـدا، وقـد أُرسـل إلى هـذه المعسـكرات كثـير من الضحايا اليهود والغجر والسلاف وغيرهم، من كل أنحاء أوربا.. وقد ذكر لي أن كل معسكر كان مزوداً بأدوات متنوعة للإبادة مثل فرق إطلاق النيران، وأدشاش المياه التي تطلق الغاز، والمحارق(1).

ومما أعلمـه بدقـة أن معسـكرات الاعتقـال لم تكن مخصصـة لليهود وحدهم، وإنما كانت أداة من أدوات النظام النـازي تُسـتخدَم لتحقيق أهدافه القومية، بل إن عدد ضحاياها من غير اليهـود يفـوق عدد ضحاياها من اليهود.

سكت قليلا، ثم قال: لماذا يلام النازيون وحــدهم على معتقلات الإبادة.. الكل مارس الاعتقال.. والكل مارس الإبادة..

لا شك أنكم تعلمون أنه منذ بداية التشـكيل الحضـاري الغـربي الحديث أصبحت معسكرات الاعتقال والإبـادة نمطـاً متكـرراً، حيث

1()يذكر المسيري أن الكثير من الباحثين يثير الشكوك حول وجود أفـران الغـاز أصـلاً وقد صدرت عدة دراسات موثقة في هذا الشأن.

كما تُثار الشكوك حول استخدام غاز زايكلون بي Zyclon B. في أفران الغـاز. إذ تشـير معظم الدراسات إلى أن استخدام مثل هذا الغـاز يتطلب احتياطـات فنيـة عاليـة، مكلفـة للغاية (يجب أن تكون الغرفة محكمة تماماً ــ لابـد من تهويتهـا لمـدة عشـر سـاعات بعـد استخدامها ـ يجب أن تكون المفاصل مصنوعة من الإسبستوس أو التيفلون). ومثـل هـذه الاحتياطـات لم تكن متـوفرة للألمـان تحت ظـروف الحـرب، وهـو مـا يعـني اسـتحالة استخدامه على نطاق واسع. وقد ورد كل هذا في تقرير ليوشتر Leuchter Report، الـذي كان يعمل مستشاراً لولاية ميسوري وكان متخصصاً في مثل هذه الأمور (ومما لـه دلالتـه أن كثيراً من حكومات الولايات المتحدة، التي كانت تستخدم هذا الغاز في عمليات إعدام المجرمين، قررت الاستغناء عنه، بسبب تكلفته العالية).

وثمة نظرية تذهب إلى أن غُرف الغاز الموجودة إنما كانت غُرف غاز لتعقيم الخارجين والداخلين إلى المعسكر. أما المقابر الجماعية فهي مقابر الآلاف الـذين لقـوا حتفهم بعـد انتشار الأوبئة كالملاريا والتيفود، وهو أمر مُتوقَّع في ظل ظـروف الحـرب وفقـر الرعايـة الصحية. ويرى أنصار هذه النظرية أن الإبادة لم تكن عملية منظمة مقصـودة تمت دفعـة واحدة، وإنما تمت نتيجةً لعناصر مختلفة فرضت نفسها بسبب ظروف الحرب مثـل سـوء التغذية والأوبئة وغيرها، وأن من أبيدوا بطريقة منهجية منظمة أعـداد صـغيرة جـداً، وهي قضية خلافية. (انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري)

تم نقل سكان أمريكا الأصليين الهنود الحمر إلى معسكرات اعتقال منعزلة تمهيداً لإبادتهم بشكل مباشر أو غير مباشر.. وكانت عملية النقل ذات طابع إبادي. وكان السود، الذين يجري اصطيادهم في أفريقيا ونقلهم إلى أمريكا، يتم وضعهم في معسكرات أيضاً، ويسكنون في مساكن هي أقرب ما تكون إلى معسكرات السخرة.. وفي الحرب العالمية الثانية، وضعت الولايات المتحدة الغالبية الساحقة من المواطنين الأمريكيين من أصل ياباني في معسكرات مماثلة.. وفي جنوب أفريقيا قامت حكومة التفرقة اللونية (الأبارتهايد) البيضاء بوضع المواطنين الأصليين في معازل جماعية..

قلنا: والنازية.. ماذا فعلت؟

قال: في النازية التي تمثل قمة الإنسانية بمفهومنا الغربي.. تبدَّى الموقف الحيادي الداروينى في موقف النازيين من العلم، وزعمهم انفصاله عن القيمة وعن الغائية الإنسانية، في واحد من أهم المفاهيم الطبية (العلمية المحايدة) في القرن التاسع عشر، وهو مفهوم (الصحة العرْقية)، الذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب العضوي وعلى بقائه (فهما سر تفوقه ورقيه) عن طريق التخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة (التي تُعدُّ تعبيراً عن انهيار العرْق وانحطاطه)؛ وثمة كتابات عديدة بجميع اللغات الأوربية في هذا الموضوع. ومن أهم المفاهيم المرتبطة بالصحة العرْقية مفهوم اليوثينيجيا euthenesia أو ما يُسمَّى (القتل الرحيم)، أي التخلص من المعوقين وغيرهم (مثل المرضى بأمراض مزمنة)

سكت قليلا، ثم قال: أذكر جيدا أنه في تلك الأيام التي صارت الدماء فيها كالأمطار.. بل كالسيول والأنهار.. أصدرت النخبة النازية عدة قوانين لضمان الصحة العرْقية، فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة.. يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أما القسم الأول، فهم المستهلكون الذين لا نفع اقتصادي لهم.. مثل المعتوهين والمتخلفين عقلياً والمصابين بانفصام الشخصية والأطفال المعوقين والأفراد المتقدمين في السن والمصابين بالسل، والمرضى الميئوس من شفائهم.. وكان يُضَم لهؤلاء الجنود الألمان الذين أصيبوا أثناء العمليات العسكرية، فعلاجهم كان يُشكِّل عبئاً على ميزانية الدولة.

وأما الثاني، فهم المنحلون، وهم الشيوعيون والشواذ جنسياً

وعـدد كبـير من أعـداء المجتمـع الـذين يتسـمون بالسـلوك غـير الاجتماعي، مثل مدمني الكحول والعـاهرات والمجـرمين ومـدمني المخدرات ومن لا مأوى لهم.

وأما الثالث، فهم أعضاء الأجناس الـدنيا مثـل السـلاف والغجـر واليهود والأقزام، فهم غرباء داخل الفولك الألماني ولا يوجـد مـبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى، خاصةً أن بعضهم،مثل البولنديين، يشغلون المجال الحيوي لألمانيا.

وفي 14 يوليه 1933.. أي في اليـوم التـالي لتوقيـع المعاهـدة مع الفاتيكان، أصدر النازيون قانونـاً يُسـمَّى (قـانون التعقيم) لمنـع بعض القطاعـات البشـرية مثـل المعـوقين والمرضـى النفسـيين والمرضـى بالصـرع والعمى الـوراثي والصـمم الـوراثي والتشـوه الخلقي والإدمان المتطرف للكحول من التكاثر، وبالفعل، تم تعقيم أربعمائة ألف مواطن ألماني..

وفي عـام 1935، صـدر قـانون بمنـع العلاقـات الجنسـية بين اليهود وأعضـاء الأعـراق غـير الراقيـة من جهـة والألمـان من جهـة أخرى، وذلك للحفاظ على النقاء العرْقي.

بعدها أُعلن عام 1939 عاماً يراعي فيه المواطن واجب التمتع بصحة جيدة، وطُلب من كل طبيب أو دايـة أن تُبلـغ عن أي مولـود جديـد معـوق، وبـدأت عمليـة القتـل الموضـوعي (أو العلمي أو المحايد) لهـؤلاء الـذين لا يمكن شـفاؤهم مثـل المعـوقين وغـيرهم تحت عنوان مشروع عنه (تي فور T4)، وظهرت وثائق تبين أنه قُتل سـبعون ألـف معـوق وعـاجز يـأكلون ولا ينتجـون. كـانوا حينهـا يسمونهم (آكلون غير نـافعين).. والـذين كـانوا يُشـكِّلون عبئـاً على الاقتصاد الوطني ويعوقون التقدم حسب رؤيتنـا الاسـتعلائية.. وقـد تمت إبــادتهم بمقتضــى برنــامج (تجنب العــدوى والقضــاء على الجراثيم).. أي برنامج إبادة المجرمين والمتخلفين وربما المسنين.

وقد أدَّى ذلك ـ كما جاء في إحدى الدراسات العلميـة الألمانيـة الرصينة ـ إلى توفير 239.067.020 كيلـو جرامـاً من المـربى في العام.

أذكر أن لجنة ـ في ذلك الحين ـ كانت قد أُنشئت للعلاج العلمي للأمراض الوراثية الخطيرة أوصت بقتل الأطفال المشوهين، وكـان هؤلاء وغيرهم يُرسلون إلى مستشفيات، فكانوا يوضعون في عنابر خاصة ثم يتم الإجهاز عليهم عن طريق أفران غاز مخبأة على هيئة

أدشاش، ومحارق لحرق الجثث، وقد طُبِّق المعيار نفسه، بعض الوقت، على الجنود الألمان الجرحى في الحرب، إذ أن عملية علاجهم كانت ستُكلف الدولة الكثير، ثم طُبِّقت عمليات الإبادة هذه بصورة أوسع على أسرى الحرب.

وقد صُنِّف اليهود ـ حينها ـ باعتبارهم مرضى، وذلك نظراً لعدم نقائهم العرْقي، ومن ثم أصبح من الضروري إبادتهم، شأنهم شأن العناصر الألمانية غير النافعة. ومن جهة أخرى، تم توسيع نطاق برنامج القتل المحايد أو العلمي ليضم المجرمين كافة، يهوداً وغير يهود.. وكان اليهود يُعتبرون أيضاً ذوي استعداد إجرامي طبيعي بسبب اختلاط خصائصهم الوراثية. ولذا، طُبق البرنامج على اليهود الموجودين في المستشفيات جميعاً.

ومن أهم تجليات الحياد العلمي الذي اتسمت به عمليات الإبادة، تلك التجارب العلمية التي كان النازيون يجرونها على خنازير التجارب البشرية وهي تجارب منفصلة تماماً عن أية منظومات قيمية:

لقد كان النازيون يختارون بعض العناصر التي لها أهمية تجريبية خاصة لإجراء التجارب عليها، وكان هذا يتم بسهولة ويسر وسلاسة؛ لأن البشر تحولوا إلى مادة محايدة في عقول القائمين على هذه التجارب.

ومما أذكر من ذلك أن الطبيب هانس إيسيل كان يقوم بعمليات استئصال دون تخدير ليدرس أثرها، وأُجريت تجارب أخرى على نزلاء معسكرات الاعتقال لا تقل رهبة عن تجارب إيسيل.. وكان بعضهم يُطلَق عليه الرصاص لاختبار فعاليته في الحرب، وعُرّض آخرون لغازات سامة في عمليات اختبارية.. وكان البعض يوضعون في غرفة مفرغة من الهواء لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان خلالها أن يظل حياً وهو على ارتفاعات عالية أو بدون أوكسجين.. وكان الأوكسجين يُقلل تدريجياً ويخفض الضغط، فتزداد آلام خنازير التجارب البشرية شيئاً فشيئاً حتى تصبح آلاماً لا يمكن احتمالها حتى تنفجر رئاتهم.. كما كان الضغط الداخلي على أغشية طبلات الآذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون.

وكان الدكتور راشر، وهو عالم نازي آخر، شمولياً في أبحاثه إلى درجة عالية، فقام بتزويد غرف الضغط في النهاية بمبردات تجبر عيناته على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية.

وكان هذا الدكتور مسئولاً عن الكثير من تجـارب التجميـد الـتي يتعرض فيها الأشخاص إلى البرد الشـديد المسـتمر حـتى المـوت، وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم، وبقائهم أحياء، وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الـذين يسـقطون في ميـاه متجمـدة.. وكـان بعض نـزلاء داخـاو ضـمن ضـحايا راشـر أو ضـمن خنـازير تجارية.. فكان يتم غمر الضحايا في وعاء ضـخم، أو كـانوا يُـتركون عُراة في الخارج طوال الليالي الثلجية.

وفي أواخر شتاء عام 1943، حدثت موجة برد شـديدة، فتُـرك بعض السجناء عراة في الخلاء أربع عشرة سـاعة، تجمـدت خلالهـا أطرافهم وسطوح أجسامهم الخارجية وانخفضـت درجـة حـرارتهم الداخلية، وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك.

وكانت هناك تجارب أخرى من بينهـا تدفئـة أشـخاص مثلجين.. وبنـاءً على تقريـر راشـر، أجـريت أكـثر من أربعمائـة تجربـة على ثلاثمائة ضحية، وقـد مـات من هـؤلاء زهـاء تسـعين شخصـاً نتيجـةً لمعـالجتهم، وجُنَّ عـددٌ ممن بقى، أمـا الآخـرون، فقـد قُتلـوا لكيلا يتحولـوا إلى شـهود مـزعجين فيمـا بعـد.. وقـد توصـل راشـر إلى حقائق علمية جديدة تتحدى كثـيراً من المقـولات العلميـة السـائدة في عصره، وأجريت بالطبع تجـارب لا حصـر لهـا على نـزلاء أحيـاء في معسـكرات الاعتقـال، من بينهـا الحقن بالسـم أو بـالهواء أو البكتريـا، معظمهـا مـؤلم وكلهـا قاتلـة، كمـا أجـريت تجـارب زرع الغرغرينا في الجروح وترقيع العظام وتجارب التعقيم.

وفي الإطار التجريبي نفسه كان يتم اختيـار التـوائم وإرسـالهم إلى الطبيب النازي الشهير الـدكتور منجـل لإجـراء تجـارب علميـة فريدة عليهم، لا يمكن للعلماء الآخرين القيام بها نظراً لعـدم تـوفر العينـات اللازمـة. فكـان يفصـل التـوأمين ويضـعهما في غرفـتين منفصلتين، ثم يعذب أحدهما أحياناً ليدرس أثر عملية التعذيب على الآخر، بل كان يقتل أحدهما لدراسة أثر هـذه العمليـة على الآخـر.. لقد قـال بريمـو ليفي يـذكر ذلـك: (إن ألمانيـا النازيـة هي المكـان الوحيد الذي كان بوسع العلماء أن يدرسـوا فيـه جثـتى تـوأمين قُتلا في نفس اللحظة)

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على أمخاخ الضحايا، وقد اختار د. برجر، التابع لإدارة الإس. إس. عـدداً من العينـات البشـرية (79 يهودياً ـ بولنديان ـ 4 آسيويين ـ 30 يهودية) تم إرسـالهم لمعسـكر

أوشفيتس ثم قتلهم بناء على طلب عالم التشريح الأستاذ الـدكتور هيرت الذي أبدى رغبة علمية حقيقيـة في تكـوين مجموعـة كاملـة وممثلة من الهياكل العظمية اليهودية.. كما كان مهتماً بدراسـة أثـر الغازات الخانقـة على الإنسـان.. أمـا الـدكتور برجـر نفسـه فكـان مهتمـاً بالآسـيويين وجمـاجمهم، وكـان يحـاول أن يكـوِّن مجموعتـه الخاصة.

أذكر أنه ورد إلى علم البروفسور هاليروفوردن أنبـاء عن إبـادة بعض العناصر البشرية (التي لا تسـتحق الحيـاة)، فقـال للموظـف المسئول بشـكل تلقـائي: إن كنتم سـتقتلون كـل هـؤلاء، فلمـاذا لا تعطوننـا أمخـاخهم حـتى يمكن اسـتخدامها؟، فسـأله: كم تريـد؟ فأجـاب: عـدد لا يحصـى، كلمـا زاد العـدد كـان أفضـل. ويقـول البروفسـور المـذكور إنـه أعطـاهم بعـد ذلـك الأحمـاض اللازمـة والقوارير الخاصـة بحفـظ الأمخـاخ. وكم كـانت فرحـة البروفسـور حينما وجد أمخـاخ معـوقين عقلـيين (في غايـة الجمـال) و(أمخـاخ أطفال مصابة بأمراض الطفولـة أو تشـوهات خلقيـة)، وقـد لاحـظ أحد العاملين في مركز من مراكز البحوث أن عدد أمخاخ الأطفـال المتوفرة لإجراء التجارب أخذت تتزايد بشكل ملحوظ، ونتيجةً لهـذا تم الحصول على مواد مهمة تلقي الضوء على أمراض المخ.

وإلى جوار المادة البشرية الاستعمالية النافعة التي تُجرى عليها التجارب وتُدرس بعناية وموضوعية وحياد، كانت هناك المـادة الـتي لا يُرجى منها نفع أو ضر، وكان أمثال هؤلاء يُبادون ببساطة شديدة من خلال عمليـات التصـفية الجسـدية السـريعة، الـتي تقـوم بهـا جماعـات خاصـة أو فـرق متنقلـة تقـف وراء خطـوط الجيـوش الألمانية.. وكانت طريقة الإبادة هذه سريعة وغـير مكلفـة إذ كـانت تُقام مقابر جماعية يُلقى فيها بالضحايا بعد أن يحفروها بأنفسـهم.. كما كانت الإبادة تتم أحياناً بواسطة سـيارات مجهـزة بحجـرة غـاز يتم التخلص فيها من الضحايا دون حاجة إلى نقلهم إلى معسكرات الإبادة، وقد تم التخلص بهذه الطريقة من جـرحى الحـرب الألمـان ممن لا يُرجى لهم شفاء أو ستتكلف عملية تمريضـهم الكثـير، كمـا تمت إبـادة أعـداد كبـيرة من أعضـاء النخبـة الثقافيـة البولنديـة، والفائض السكاني الروسي.

حتى بعد قرار الإبادة على طريقة التصفية الجسدية، كان ديدن النازيين دائماً هـو الحـرص الكامـل على ممتلكـات الدولـة وخدمـة مصالحها، ولذا كان يتم تجريد الضحايا من أية مواد نافعة حـتى من

الحشوات الذهبية التي في أسنانهم، وقد ساهم هذا في تحسين ميزان المدفوعات الألماني.

وقد كانت عملية التوظيف عميقة إلى الحد الذي لا يتصور و فقد كانت البقايا البشرية (مثل الشعر) تُستخدَم في حشو المراتب، ويُقال إنها كانت مريحة للغاية وزهيدة الأسعار، ولم يكن الرماد البشري يُستخدَم كشكل من أشكال السماد وحسب، وإنما كمادة عازلة أيضاً، وكانت العظام البشرية تُطحن وتُستخدَم في أغراض صناعية مفيدة مختلفة. بل يُقال إن بعض الأنواع الفاخرة من الصابون صُنعت من الشحومات البشرية.

قلنا: فما مدى صحة ما يشاع من أن الإبادة المنظمة قضت على ستة ملايين يهودي؟

قال: قد يكون ذلك صحيحا.. وقد لا يكون صحيحا.. فأنا لم أحص العدد بالضبط، لأني كنت مهتما بشرب دماء القتلى من غير اهتمام بأعراقهم ولا دياناتهم.. كانت الدماء متشابهة بالنسبة لي.. فلم أكن أميز بين يهودي وغير يهودي.

لكن الذي أعلمه أن عدد ضحايا الحرب كان ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليون، وأن الاتحاد السوفيتي خسر في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشر وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود، وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني.

والذي أعمله كذلك.. وهو مما يخص المنهج الذي ذكر به ذلك العدد الضخم.. هو أن أهم معسكرات الاعتقال.. هو معتقل أوشفيتس.. والذي اشتهر بأن عدد ضحاياه هو أربعة ملايين، منهم مليون ونصف مليون يهودي، والباقون غير يهود.. لم يكن له سند يمكن الوثوق به.

فالسند الأساسي لإبادة هذه الملايين في أوشفيتس هي اعترافات رودولف هس أثناء محاكمات نورمبرج، وقد ثبت أن كثيراً من أدلة الاتهامات في محاكمات نورمبرج هي في معظمها اعترافات يدين خلالها المتهمون أنفسهم، بعد أن ظلوا في الأسر عامين أو يزيد تعرضوا فيها للتعذيب والامتهان.. وقد استُبعد عدد كبير من الوثائق والشهادات التي كان من شأنها تحطيم الأساطير التي حاول الحلفاء نسجها.. وهناك من البحوث ما يشير إلى أن العدد الإجمالي لا يمكن أن يزيد على 1.6 مليون، وأنهم قضوا

حتفهم لا من خلال أفـران الغـاز وإنمـا بسـبب الجـوع والمـرض، والموت أثناء التعذيب، والانتحار.. وفي عام 1994 تم تغيير اللافتـة الموضوعة على المعسكر، فبعد أن كانت اللافتـة القديمـة تتحـدث عن مقتـل أربعـة ملايين رجـل وامـرأة وطفـل أصـبحت اللافتـة الجديدة تتحدث عن مليون ونصف فقط.

قال ذلك، ثم فجأة صـار يضـحك ضـحكات هسـتيرية، ثم قـال: أتعلمون ما تختزنه خزائن المجرمين من أسلحة الإبادة؟

ثم أجاب نفسه قائلا: إنها أكثر.. أكثر... أكـثر بكثـير من مخـازن الخبز.. والماء.. والهواء..

إن البشـــر العاشـــق للـــدماء اليـــوم من القنابـــل الذريـــة والهيدروجينية ما يكفي لتدمير الأرض كلها (12) مرة ونصف!

وكـان في حـوزة الاتحـاد السـوفييتي عـام 1974م (1520) صاروخاً عابر القارات، و (270) صاروخاً نووياً خاصاً بالغواصـات، و (700) صـاروخاً متوسـطة المـدى، و (200) صـاروخاً قصـيرة المدى!!

أما أميركا فقد كان لديها (1054) صـاروخاً عـابر القـارات، و (544) صـــاروخاً خاصـــاً بالغواصـــات، و (1000) من الصـــواريخ المتوسطة المدى، و(1000) من الصواريخ القصيرة المدى.

وقـد ذكـر معهـد الدراسـات الاسـتراتيجية بلنـدن، في دراسـة نشرها عام 1972م: أن المخزون النووي لكـل شـخص على وجـه الأرض يبلغ خمسة عشـر طنـاً من مـادة (ت. ن. ت.) في حين أن مخزون المواد الغذائية لا يزيد عن نصف طن للشخص الواحد.

ويضـيف التقريـر: إن حجم الإنفاقـات العسـكرية في العـالم يساوي الدخل القومي لدول العـالم الثـالث، وأن الـدول المتخلفـة تنفق ما بين 30 و 60 بالمائة من مزانيتها على السلاح.

والأغرب من كل ذلك هو هذا الاختراع الجديد: (قنبلة النيـترون) والتي لا تصيب العمارات والمصانع والآلات بأي سوء يـذكر، ولكنهـا تفني الإنسان والأحياء وتسلبهم الحياة في لحظات قصيرة.

وهنـاك سـلاح سـام رهيب كيمـاوي بيولـوجي، يسـتخرج من جرثومة اسمها: Ghlostridium Botulinus، وهي تسبب عادة تسمماً غذائياً مميتاً، ويكفي ما مقـداره 8 أونس أي حـوالي (225) غرامـاً لقتـل كل سكان العالم.

أما مادة (ال - اس - دي L. S. D.) فيكفي أن نضع منها كيلوغراماً واحداً في خزان مياه لتعطيـل سـكان مدينـة بأسـرها بالتـأثير على

الأجسام والعقول معاً.. يقول الدكتور (جـرودن تيلـور) البريطـاني: (لقد أوصى الجنرالات الأميركان باستعمال (ال - اس - دي L. S. D.) في الحرب، لأنها تـؤثر على عزيمـة وإرادة المقاومـة عنـد الأعـداء مدعين -أي الجنرالات الأميركان- أن هذا السلاح هو سلاح إنســاني لا يسبب إراقة الدماء)

وتقول بعض المصادر: (إن الولايـات المتحـدة الأميركيـة تملـك كميـة مخـزون من غـازات الأعصـاب القاتلـة تكفي لإبـادة سـكان العالم جميعاً.. حتى ولو كان عددهم أكثر مما هو الآن بثلاثين مـرة، وأن روسيا تملك قدرة تفوق قـدرة العـالم الغـربي بسـبع أو ثمـان مرات في مجال الأسلحة الكيماوية والجرثومية)

الإرهاب:

قلنا: فما السادس؟

قال: الإرهاب(1)..

قلنا: ذلـك الـذي رمي بـه المسـلمون.. وذلـك الـذي نحن تحت أسره.

قال: أجل.. ولو أني أشـك في مـدى مصـداقية الإرهـاب على الإسلام أو على المسلمين..

قلنا: فهل كنت أرهابيا؟

قـال: أكـثر ممـا يمكن أن تتصـوروا.. ولم تكن تلـك النصـوص المقدسة وحدها هي السبب في تحويلي إلى إرهابي.. وإنمـا أخبـار تلك البطولات الكثيرة التي أخبرني بها الكاهن..

وأولهـا خـبر شمشـون(2) العظيم.. والـذي خصـص لـه الكتـاب المقدس أربع سور كاملة في سفر القضاة تبدأ من التباشـير الـتي سبقت مولده، وتنتهي بوفاته.. لقد كانت قصته بالنسبة لي نموذجـا للبطولة التي يريدها الرب..

بعدها أخبرني الكاهن عن تلك البطولات العظيمة التي قام بهـا

1() نقصد بالإرهاب ـ هنا ـ وهو ما صـار يفهم بـه في الكثـير من المجـامع: هـو العنـف المستعمل تحت مظلة دين، أو القصد منه تبليغ فكرة أو نظام له علاقة بالدين.

2()شمشون Samson اسم عبري، وهـو تصـغير لكلمـة (شـمس)، وهـو اسـم لشـخص يُشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة، فقد كان قاضياً من قبيلة دان مدة عشـرين سـنة، (لكن من الكتب ما يشير إلى صموئيل أيضاً باعتباره آخر القضاة)

وتشير قصته منذ البداية إلى اجتبائه، فأمه كانت عاقراً مثل سارة ثم جاء ملاك الـرب (كما في قصة إبراهيم أيضاً)، فعـرف أبـواه قبـل ولادتـه أنـه سيصـبح من المنـذورين أي شخصاً يُكرس حياته للعبادة وينذرها للـرب، فيمتنـع عن شـرب الخمـر أو حلـق رأسـه أو لمس جلد ميت. وقد اشتهر شمشون بقوته الجسدية الخارقة.

وقد ذكرنا قصته بالتفصيل وما تحويه من الدلالات في رسالة (الكلمات المقدسـة) من هذه السلسلة.

حملـة الصـليب الـذين ذهبـوا إلى بلاد المسـلمين ليطهروهـا من الرجس، ويملأوها ببركات المسيح.. لقد حدثني عما ذكـره سـتيفن رنسيمان في كتابـه (تـاريخ الحـروب الصـليبية) عن أحـداث اليـوم الأول من دخول الصليبيين القـدس، فقـال : (وفي الصـباح البـاكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلـة من الصـليبيين، فـأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجه قائد القوة ريموند اجيـل في الضـحى لزيـارة سـاحة المعبـد أخـذ يتلمس طريقـه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه وتركت مذبحة بيت المقدس أثـرا عميقـا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها غير أنها أدت إلى خلو المدينـة من سـكانها المسـلمين واليهـود بـل إن كثـير من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث)

ووصف لي بانفعال مـا ذكـره كثـير من المـؤرخين من أحـداث المذبحة البطولية التي حـدثت في القـدس يـوم دخـول الصـليبيين إليها، وكيف أنهم كـانوا يزهـون بانفسـهم لأن ركب خيـولهم كـانت تخوض في دماء المسلمين التي سالت في الشوارع.. بل قد كـان من وسائل الترفيه لدى الصليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ووصف لي ما فعل ريتشارد قلب الأسـد في الحملـة الصـليبية الثالثة عند احتلاله لعكا بأسـرى المسـلمين فقـد ذبح 2700 أسـير من أسـرى المسـلمين الـذين كـانوا في حاميـة عكـا، وقـد لقيت زوجات وأطفال الأسرى مصرعهم الى جوارهم.

وحدثني بما رواه ابن الاثير.. ذلك المؤرخ الإسلامي الثقـة.. في تاريخه عن دخول الصليبين للقـدس في الحـروب الصـليبية فقـال: (ملك الفرنج القـدس نهـار يـوم الجمعـة لسـبع بقين من شـعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلـون فيـه المســلمين، واحتمى جماعــة من المســلمين بمحــراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام وقتل الفرنج بالمسجد الأقصـى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعـة كبـيرة من أئمـة المسـلمين وعلمـائهم وعبـادهم وزهـادهم ممن فـارق الأوطـان وجـاور بـذلك الموضع الشريف)

وحدثني بما ذكره غوستاف لوبون في كتابه (الحضارة العربيـة) نقلا عن روايـات رهبـان ومـؤرخين رافقـوا الحملـة الصـليبية على القـدس مـا حـدث حين دخـول الصـليبيين للمدينـة المقدسـة من مجازر دموية:

ومن ذلك قول الراهب (روبرت)، وهو شاهد عيان لما حدث في بيت المقدس واصفا سلوك قومه (كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ! كانوا يذبحون الأولاد والشباب ويقطعونهم إربا إربا، وكانوا يشنقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، وكان قومنا يقبضون كل شيء يجدونه، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية فيا للشره وحب الذهب وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث)(1)

وحكى لي عن كاهن أبوس (ريموند داجميل) قوله شامتا: (حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسرار القدس وبروجها، فقد قطعت رؤوس بعضهم فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم وبقرت بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم في النار، فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا)(2).

وقال واصفا مذبحة مسجد عمر:(لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها.. ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء (!) بذلك، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود و خوارج النصارى الذين كان عددهم ستين ألفا فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة و لا ولدا و لا شيخا)

يقول : (وعمل الصليبيون مثل ذلك في مدن المسلمين التي اجتاحوها ففي المعرة قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع و المختبئين في السراديب فأهلكوا صبرا ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات، وكانت المعرة من أعظم مدن الشام بعدد السكان بعد أن فر إليها الناس بعد سقوط أنطاكية وغيرها بيد الصليبيين)(3)

1()الحضارة العربية، ص325.
2()الحضارة العربية، ص326.
3()الحضارة العربية، ص396.

بعدها قدر الله لي أن ألتقي رجلا حـدثني بتفصـيل عن محـاكم التفتيش.. وما رآه فيها من المشاهد مما تقشعر له الأبدان.

قلنا: ما محاكم التفتيش؟

قال: هي هيئات أنشأتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكيــة للقبض على من تسميهم المهـرطقين(3) المـارقين، ومحـاكمتهم(4).. وقـد أقيمت هـذه المحـاكم في كثـير من أجـزاء أوروبـا، لكن محكمـة التفتيش الأسبانية كانت هي الأكثر شهرة.

لقـد بـدأت هـذه المحـاكم الإسـبانية فى القـرن الثـالث عشـر

3() الهرطقة مصطلح كنسي يشير إلى رأي، أو فكرة مبتدعة، تتعـارض مـع معتقـدات الكنيسـة، أو النظـام المرتبـط بهـا. وقـد كـانت الكنيسـة في وقت من الأوقـات تعـاقب المهـرطقين بـالنفي والتعـذيب أو حـتى بـالموت.. وتقـوم الكنـائس الآن أحيانًـا بطـرد المهرطقين. (الموسوعة العربية العالمية)

4()ومبرر هذه المحاكم هو أن تعاليم الكنيسة كانت تعد أساسًا للقانون والنظام ابتداءً من عهد حكم الإمبراطور الروماني قسطنطين، من عام 306م إلى عام 337م.. ولـذلك كان الخروج على تعاليم الكنيسة جريمة ضد الدولة، وحاول الحكام المـدنيون لمئـات من السنين استئصال الهرطقة.

وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ثارت جماعات معينة من الرومان الكاثوليـك ضـد كنيسـتهم. وبعـد أن رفض بعض الحكـام المـدنيين أو عجـزوا عن معاقبـة المهرطقين، تولت الكنيسة هذه المهمة.

في عام 1231م، أنشأ البابا جريجوري التاسع محكمـة خاصـة للتحقيـق مـع المتهمين، وإجبار المارقين على تغيير معتقداتهم. وفي عـام 1542م، تـولت لجنـة الكرادلـة التابعـة للمكتب البابوي عملية التحقيق. وعمل رهبان من الدومينيكان والفرنسيسكان قضـاة في تلك الهيئات.

وقـد كـثرت محـاكم التفـتيش في فرنسـا، وألمانيـا، وإيطاليـا، وأسـبانيا. ونظـرًا لأن المحققين كانوا يقومون بأعمالهم سرًا فكثيرًا ما أساءوا استخدام سلطاتهم وعُـذّب بعض المتهمين، وحُكم على المارقين الذين رفضوا تغيير معتقداتهم بالموت حرقًا. وفي القـرن السادس عشر الميلادي حوّل قـادة الكاثوليـك نشـاط محـاكم التفـتيش لأنصـار المـذهب البروتستانتي.

يدين أتباع الكاثوليكية حاليًا محاكم التفتيش لأنها انتهكت قواعد العدالة الحديثـة. ولكن لم ينتقد إلا عدد قليل من الناس أساليب محاكم التفتيش أثنـاء فـترة القـرون الوسـطى. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

وقد ذكر الأسـتاذ الإمـام محمـد عبـده في كتـاب (الإسـلام والنصـرانية): أن الكنيسـة الأسبانية غضبت لانتشار فلسفة ابن رشـد وأفكـاره، وخصوصًـا بين اليهـود، فصـبت جـام غضبها على اليهود والمسلمين معًا، فحكمت بطرد كل يهودي لا يقبل المعمودية، وأباحت له أن يبيع من العقار والمنقول ما يشاء بشرط ألا يأخذ معـه ذهبًـا ولا فضـة، وإنمـا يأخـذ الأثمان عروضًا وحوالات. وهكذا خرج اليهود من أسبانيا تاركين أملاكهم لينجوا بـأرواحهم، وربما اغتالهم الجوع ومشقة السفر، مع العدم والفقر.

وحكمت الكنيسـة كـذلك سـنة 1052م على المسـلمين (أعـداء اللـه !) بطـردهم من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا المعموديـة، بشـرط ألا يـذهبوا في طريـق يـؤدي إلى بلاد إسلامية ومن خالف ذلك فجزاؤه القتل. (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيـة ص36 - 37 -الطبعة الثامنة).

ولم يكن اضطهادها موجهًا إلى الوثنيين والمخالفين في الدين فحسب بـل موجهًـا إلى المسيحيين الذين لهم رأي أو مذهب يخالف مذهب الحكام، أو مذهب الكنيسـة المعتمـدة لديهم.

لإرهـاب (الهراطقـة) الخـارجين عن الكنيسـة.. وقـد حصـل أشـنع فصولها بعد سـقوط غرناطـة ووقـوع المسـلمين فريسـة لمحتـال نقض كل العهود والمواثيق الـتى وقعت فى عـام 1491م بين أبى عبـد اللـه الصـغير وفرديناـنـد، والـتى اشـترط فيهـا المسـلمون أن يوافق عليها البابا، ويقسم على ذلك، ولكن هيهات.. فهؤلاء لا عهـد لهم ولا ذمة(5).

وكيـف يكـون لهم عهـد أو ذمـة، وهم تلاميـذ تلـك الحكايـات

والذين قرأوا تاريخ المسيحية يعرفون مـاذا جـرى للعـالم المصـري (آريـوس) وأتباعـه الذين عارضوا القول بألوهية المسيح، في مجمع نيقية المشهور (325م) وكيف قرر هـذا المجمع ـ بعد أن طرد من أعضائه كل المعارضين ـ وهم الأكثرية ـ إدانة (آريوس) وإحراق كتاباته، وتحريم اقتنائها، وعزل أنصاره من كـل الوظـائف، ونفيهم، والحكم بالإعـدام على كل من أخفى شيئًا من كتابات (آريوس) ومن أيَّد مذهبه.

وباستمرار الاضطهاد للداعين إلى التوحيد اختفوا تمامًا من المجتمعات المسيحية، ولم يبق لدعوتهم أثر.

ولما ظهر مذهب البروتستانت في أوروبا ـ على يد (لـوثر) وغـيره ــ قـاومت الكنيسـة الكاثوليكية أتباع هذا المـذهب بكـل مـا أوتيت من قـوة، وعـرف تـاريخ الاضـطهاد مـذابح بشرية رهيبة، من أهمها مذبحة باريس (في 24 أغسطس عـام 1572م) الـتي دعـا فيهـا الكاثوليك البروتسـتانت ضـيوفًا عليهم في بـاريس للبحث في تسـوية تقـرب بين وجهـات النظر، فمـا كـان من المضـيفين إلا أن سـطوا على ضـيوفهم تحت جنح الليـل، فقتلـوهم خيانـة وهم نيـام ! فلمـا طلـع الصـباح على بـاريس كـانت شـوارعها تجـري بـدماء هـؤلاء الضحايا ! وانهالت التهاني على (تشـارلس التاسـع) بغـير حسـاب من البابـا، ومن ملـوك الكاثوليك وعظمائهم.

والعجيب أن البروتستانت لما قويت شوكتهم، قاموا بدور القسوة نفسه مع الكاثوليك، ولم يكونوا أقل وحشية منهم. (انظر (المسيحية) للدكتور أحمد شلبي ص51 - 52).

لقد قال (لوثر) لأتباعه: (من استطاع منكم فليقتل، فليخنـق، فليـذبح، سـرًا أو علانيـة، اقتلوا واخنقوا، واذبحوا، ما طـاب لكم، هـؤلاء الفلاحين الثـائرين) (الأيديولوجيـة الانقلابيـة ص710).

ويذكر (فيدهام) أن هذه الحروب كانت مليئة بالفظائع: لأن رجـال اللاهـوت (الطيـبين) كـانوا مسـتعدين دائمًـا أن يضـعوا الـزيت على النـار، وأن يحيـوا وحشـية الجنـود عنـدما يساورهم أي تردد أو ضـعف، فقـد يكـون الجنـود قسـاة، ولكنهم كـانوا يميلـون في بعض الأحيان إلى الرحمة، أما رجـال اللاهـوت فـاعتبروا الاعتـدال والرحمـة نوعًـا من الخيانـة! (الأيديولوجية الانقلابية ص716)

5()مما جاء فى المعاهدة:(.. تأمين الصـغير والكبـير فى النفس والأهـل والمـال إبقـاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وإقامة شريعتهم على ما كـانت، ولا يحكم على أحـد منهم إلا بشـريعتهم، وأن تبقى المسـاجد كمـا كـانت والأوقـاف كمـا كـانت، وألا يـدخل نصرانى دار المسلم، ولا يغصبوا أحدا وألا يؤخـذ أحـد بـذنب غـيره، وألا يكـزه من أسـلم على الرجوع للنصارى ودينهم، ولا ينظر نصرانى على دور المسـلمين، ولا يـدخل مسـجدا من مساجدهم، ويسير فى بلاد النصارى أمنا فى نفسه وماله، ولا يمنع مـؤذن ولا مصـلى ولا صائم ولا غيره فى أمور دينه)، ومع قسم فرديناند وإيزابيلا على كل هذا إلا أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكى النصارى سوى سـتار للغـدر والخيانـة، وقـد نقضـت كـل هـذه الشروط ولم يتردد المؤرخ الغربى(بروسكوت) أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقـدير الغـدر الإسبانى، فنقض الإسبان هذه المعاهدة بندا بندا، فمنعـو المسـلمين من النطـق بالعربيـة فى الأنـدلس، وفرضـوا إجلاء المسلمسـن الموجـودين فيهـا وحـرق مـا بقى منهم، وزاد الكردينال (أكزيمينيس) على ذلك، فأمر بجمع كل ما يسـتطيع من كتب المسـلمين وفيهـا

الطويلة الممتلئة بالخيانات، والتي يعج بها وبأبطالها الكتاب المقدس؟

لقد هدفت تلك المحاكم المقدسة إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأبشع الوسائل، وبما أن المسلمين لم يقبلوا التنصير، فقد بدأ القتل والتنكيل فيهم، فثاروا فى غرناطة وريفها، فمزقهم الإسبان بلا رحمة، وفى عام 1501م أصدر الملكان الصليبيان مرسوما خلاصته:(إنه لما كان الرب قد اختارهما لتطير غرناطة من الكفرة (يعنيان المسلمين)، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال)، فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب لينجوا بدينهم، ومن بقى من المسلمين أخفى إسلامه، وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشى المروع، فحين التبليغ عن مسلم يخفى إسلانه يزج به فى السجون، وكانت السجون وحشية رهيبة مظلمة عميقة تغص بالحشرات والجرذان ويصفد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم.

قلنا: فحدثنا عما أخبرك الرجل من مشاهداته.

قال: لقد كان ذلك الرجل كولنيلا.. وسر معرفته لأسرار تلك المحاكم هو أنه عند احتلال نابليون إسبانيا بعد قيام الثروة الفرنسية حاول إلغاء محاكم التفتيش، لكن رهبان (الجزويت) أصحاب هذه المحاكم استمروا فى القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين المختطفيين.. فأرسل المريشال (سولت) الحاكم العسكري المدنى صاحبي هذا امدريد الكولونيل (ليمونكى) مع ألف جندى وأربعمائة مدفع، وهاجم دير الديوان، وبعد تفتيش الدير لم يعثروا على شىء، فقرر الكولونيل فحص الأرض، وحينئذ نظر الرهبان إلى بعضهم البعض نظرات قلقة، وأمر الكولونيل جنده برفع الأيسطة فرفعوها، ثم أمر بأن يصبوا الماء فى كل غرفة على حدة، فإذا بالماء يتسرب إلى أسفل إحدى الغرف، فعرف أن هناك بابا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت بجوار رجل مكتب الرئيس.. فتح الباب، واصفرت وجوه الرهبان، وظهر سلم يؤدى إلى باطن الأرض.

من العلوم ما لا يقدر بثمن بل هى خلاصة ما تبقى من الفكر الإنسانى وأحرقها، يقول غوستاف لوبون متحسرا على فعلة أكزيمينيس:(ظن رئيس الأساقفة أكزيمينيس أنه بحرقه مؤخرا ما قدر على جمعه من كتب أعدائه العرب (أى ثمانين ألف كتاب) محا ذكراهم من الأندلس إلى الأبد فما درى أن ما تركه العرب من الأثار التى تملأ بلاد اسيانية يكفى لتخليد اسمهم إلى الأبد)

لقد ذكر لي ذلك الكولونيـل مشـاهداته، فقـال:(فـإذا نحن فى غرفة كبـيرة مربعـة، وهى عنـدهم قاعـة المجكمـة، وفى وسـطها عمود من رخام بـه حلقـة حديديـة ضـخمة ربطت بسلاسـل كـانت الفـرائس تربـط بهـا رهن المحاكمـة وأمـام ذلـك العمـود عـرش (الدينونة) وهو عبارة عن دكة يجلس عليها رئيس محكمة التفتيش، وإلى جواره مقاعد أخرى أقل ارتفاعا لبقية القضاة، ثم توجهنا إلى آلات التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية، وقـد امتـدت تلـك الغـرف مسـافات كبـيرة تحت الأرض، وقـد رأيت بهـا مـا يسـتفز نفسـى ويـدعونى إلى التقـزز مـا حـييت، رأينـا غرفـا صـغيرة فى حجم الإنسان، بعضها عمـودى، وبعضـها رأسـى فيبقى سـجين العموديـة واقفا فيها على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه، ويبقى سـجين الأفقية ممددا بها حتى الموت، وتبقى الجثة بالسـجن الضـيق حـتى تبلى ويتسـاقط اللحم عن العظم، ولتصـريف الـروائح الكريهـة المنبثقة من الأجـداث الباليـة تفتح كـوة صـغيرة إلى الخـارج، وقـد عثرنا على عدة هياكل بشرية لا زالت فى أغلالها سجينة، والسجناء كـانوا رجـال ونسـاء وأطفـال وشـيوخا مـا بين الرابعـة عشـر إلى السبعين، وكان السجناء عراة زيـادة فى النكايـة بهم، وانتقلنـا إلى الغرف الأخرى، فرأينـا مـا تقشـعر لهولـه الأبـدان عثرنـا على آلات لتكسير العظـام وسـحق الجسـم، وعثرنـا على صـندوق فى حجم الرأس تماما يوضع فيه رأس المعذب بعد أن يربط بالسلاسـل قى يديه وقدميه فلا يقوى على الحركة، فيقطر الماء البارد على رأسه من أعلى الصندوق نقطة نقطة، وقد جن الكثيرون من هـذا اللـون من العذاب، وعثرنا على آلة تسمى السـيدة الجميلـة، وهى عبـارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الإستعداد لعناق من ينام معها وقـد بـرزت من جوانبهـا عـدة سـكاكين حـادة وكانوا يطرحون الشاب المعـذب فـوق هـذه الصـورة ثم يطبقـون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره فإذا أغلق الباب مزق الشاب إربـا، كمـا عثرنـا على آلـة لسـل اللسـان ولتمزيـق أثـداء النسـاء وسحبها من الصدور بواسـطة كلاليب فظيعـة ومجالـد من الحديـد الشائك لضرب المعذبين العراة حتى يتناثر اللجم من العظم)

ومن أنواع التعذيب التي حدثني عنها هـذا الكولنيـل: ملأ البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدى المتهم وراء ظهـره، وربطـه بحبـل حول راحتيه وبطنه ورفعه وخفضه معلقا سواء بمفرده أو مع أثقال تربط به، والأسياخ المحمية، وتمزيق الأرجل، وفسخ الفك، وكـانت

أغلب الأحكام بالإحراق، وهـو الحكم الـذى كـان غالبـا عنـد الأحبـار الــذين يشــهدون تنفيــذه مــع الملكين الكــاثوليكيين فى (حفلات الإحراق)

بعد قدر الله لي أن ألتقي ببعض الجنـود الـذين سـاروا إلى بلاد العالم الإسلامي.. وكان منهم جندي إيطالي، أخـبرني عن الأناشـيد العذبة التي كانوا يهزجون بها عند ذهابهم لاحتلال ليبيا.. وكان منها : (يا أماه صل صـلاتك ولا تبكى بـل اضـحكى وتـأملى ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبـذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الأمة الإسلامية، سـأقاتل لمحو القرآن، وإن لم أرجع فلا تبكى على ولـدك، وإن سـألك أحـد عن عدم حزنك على فأجيبيه إنه مات فى محاربة الإسلام)

بعدها حدثني هـذا الجنـدي الـذي شـهد هـذه الحـرب عن بعض مشـاهداته، فقـال:(شـنق الإيطـاليون في هـذه الحـرب أكـثر من عشرين ألفاً، وكان نحو من (1200) امرأة من نساء الأشراف قـد فررن إلى الصحراء قبل وصـول الجيش الإيطـالي، فأرسـلوا قـوة في أثـرهن وسـحبوهن إلى بلـدة (الكفـرة) حيث خلا بهن ضـباط الجيش الطليـاني، وأنزلـوا المعـرات بسـبعين أسـرة شـريفة من أشـراف (الكفـرة) اللـواتي كـانت الشـمس لا تـرى وجـوههن من الصـون والعفـاف، وقتـل قائـد الطليـان شـيوخ تلـك البلـدة الـذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات، وقـال ذلـك القائـد الـذي أشـرف على تنفيـذ أمـر الإعـدام: (ليـأت محمـد هـذا نـبيكم البدوي، الذي أمركم بالجهاد، وينقذكم من أيدينا)

وحـدثني المراسـل النمسـاوي (هرمـان دنـول)، قـال: (قَتَـلَ الطليان في غير ميـدان الحـرب كـل عـربي زاد عمـره على (14) سنة، وأحرقوا في (26 أكتوبر سنة 1911م) حيـاً كـاملاًخلف بنـك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سكانه، وكـان من بينهم النسـاء والشـيوخ والأطفال)

وقال لي آخر، وهو مدني كـان شـاهد عيـان: (رجـوت طبيـبين عســكريين من أطبــاء المستشــفى أن ينقلــوا بعض المرضــى المصــابين المطــروحين على الأرض تحت حــرارة الشــمس فلم يفعلا، فلجأت إلى راهب من كبار جمعية الصليب الأحمر، وهو الأب (يوسف فيلاكو)، وعرضت عليه الأمر، وأخبرت شاباً فرنسـياً أيضـاً بذلك، لكن الأب حول نظره عني ونصح الشاب بأن لا يزعج نفسـه بشأن عربي في سكرات الموت وقال: (دعه يموت)

بعـدها قـدر اللـه أن ألتقي بـ (برتولـومي دي لاس كـازاس)[1] صـاحب كتـاب (وثـائق إبـادة هنـود القـارة الأمريكيـة على أيـدي المسيحيين الأسبان)[2].. لعلكم تعرفونه.. إنه ذلـك الكتـاب المليء بالــدماء.. وفيــه روايــة شــاهد عيــان لإبــادة ملايين البشــر في الأمريكتين.

لقد ذكر لي هذا الكاتب الناقم كيف كان المسـيحيون الإسـبان يسمون المجازر عقابا وتأديبا لبسط الهيبة وترويع الناس، وذكر لي أن أول ما كانوا يفعلونه عندما يدخلون قرية أو مدينـة هـو ارتكـاب مجـزرة مخيفـة فيهـا.. مجـزرة ترتجـف منهـا أوصـال هـذه النعـاج المرهفة.

وذكر لي أنـه كثـيرا مـا كـان يقـف القاتـل والمبشـر في محـل واحد.. أما القاتل، فهو يذبح ضحيته أو يحرقهـا أو يطعمهـا للكلاب.. أما المبشر الواقف أمامـه فهـو حـريص على أن لا تلفـظ الضـحية أنفاسها قبل أن يتكرم عليهـا بالعمـاد، فـيركض إليهـا لاهثـا يجرجـر أذيال جبته وغلاظته وثقل دمه لينصرها بعد أن نضج جسـدها بالنـار أو اغتسلت بدمها، أو التهمت الكلاب نصف أحشائها.

وذكر لي كيـف كـان المسـيحيون الإسـبان يتفننـون ويبتـدعون ويتسلون بعذاب البشر وقتلهم.. ذكر لي كانوا يجـرون الرضـيع من بين يدي أمه ويلوحون به في الهواء، ثم يخبطون رأسه بالصـخر أو بجذوع الشجر، أو يقذفون به إلى أبعد ما يستطيعون.. وإذا جـاعت

1()ولد (برتولومي دي لاس كازاس) عـام 1474 م في قشـتالة الأسـبانية، من أسـرة اشتهرت بالتجارة البحرية. وكان والده قد رافق كولومبوس في رحلته الثانيـة إلى العـالم الجديد عام 1493 م أي في السنة التالية لسـقوط غرناطـة وسـقوط الأقنعـة عن وجـوه الملوك الأسبان والكنيسة الغربية. ثم عاد أبوه مع كولومبوس بصحبة عبد هنـدي فتعـرف برتولومي على هذا العبد القادم من بلاد الهند الجديدة. بذلك بـدأت قصـته مـع بلاد الهنـد وأهلها وهو ما يزال صبيا في قشتاله يشاهد ما يرتكبه الأسبان من فضائع بالمسلمين وما يريقونه من دمهم وإنسانيتهم في العالم الجديد. لقد جرى كل الدمين بالخبر اليقين أمـام عيـني هـذا الـراهب الثـائر على أخلاق أمتـه ورجـال كنيسـتها، وبعثـات تبشـيرها : دم المسلمين ودم الهنود، سكان القارة الأمريكية.

2() هذا الكتاب من تأليف المطران برتولومي دي لاس كازاس. ترجمة سميرة عزمي الزين. من منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.

ومما يدل على أهمية الكتاب ما قاله المؤرخ الفرنسي الشهير (مارسيل بـاتيبون) عن مؤلف الكتاب (برتولومي دي لاس كازاس): إنه أهم شخصية في تاريخ القـارة الأمريكيـة بعد مكتشفها (كر يستوف كولومبوس) وأنه ربما كان الشخصية التاريخيـة الـتي تسـتأهل الاهتمام في عصر اجتياح المسيحيين الأسـبان لهـذه البلاد.. ولـولا هـذا المطـران الكـاهن الثائر على مسيحية عصره وما ارتكبه من فظائع ومذابح في القارة الأمريكية لضاع جـزء كبير من تاريخ البشرية.. فإذا كان كولومبوس قد اكتشف لنا القـارة، فـان برتولـومي هـو الشاهد الوحيد الباقي على أنه كانت في هذه القارة عشـرات الملايين من البشـر الـذين أفناهم الغزاة بوحشية لا يستطيع أن يقف أمامها لا مستنكرا لها، شاكا في إنسانية البشر الذين ارتكبوها)

كلابهم قطعوا لها أطراف أول طفل هندي يلقونه، ورموه إلى أشداقها ثم أتبعوها بباقي الجسد.. وكانوا يقتلون الطفل ويشوونه من أجل أن يأكلوا لحم كفيه وقدميه قائلين: (إنها أشهى لحم الإنسان)

وذكر لي أن أحدا لا يعلم كم عدد الهنود الذين أبادهم الأسبان المسيحيين، ثمة من يقول انه مائتا مليون، ومنهم من يقول انهم أكثر.. أما لاس كازاس فيعتقد أنهم مليار من البشر، ومهما كان الرقم فقد كانت تنبض بحياتهم قارة أكبر من أوروبا بسبعة عشر مرة، وها قد صاروا الآن أثرا بعد عين.

وذكر لي كيف كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلا أو حاملا أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أوصالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة، وكانوا يراهنون على من يشق رجلا بطعنة سكين، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف.

وذكر لي كيف كانوا ينتزعون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين. وحين يسقط في الماء يقولون: (عجبا إنه يختلج).. وكيف كانوا يسفدون الطفل وأمه بالسيف وينصبون مشانق طويلة، ينظمونها مجموعة مجموعة، كل مجموعة ثلاث عشر مشنوقا، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء.. وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار.

وذكر لي أنه كان لديهم فنون كثيرة للتعذيب.. فبعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعا ناقصا لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم، ثم يقول لهم: (هيا احملوا الرسائل) أي : هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات.. أما أسياد الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها، وتوقد تحتهم نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأنين.

وذكر لي من مشاهداته أنه شاهد مرة أربعة من هؤلاء الأسياد فوق المشواة، وبما أنهم كانوا يصرخون صراخا شديدا أزعج مفوض الشرطة الأسبانية الذي كان نائما، فقد وضعوا في حلوقهم قطعا من الخشب أخرستهم، ثم أضرموا النار الهادئة تحتهم.

قال لي يصف تلك المشاهد التي رآها بنفسه، والتي أودع بعضها في كتابه الذي أشرت إليه :(رأيت ذلك بنفسي، ورأيت فظائع ارتكبها المسيحيون أبشع منها.. أما الذين هربوا إلى الغابات

وذرى الجبـال بعيـدا عن هـذه الوحـوش الضـارية فقـد روض لهم المسـيحيون كلابـا سـلوقية شرسـة لحقت بهم، وكـانت كلمـا رأت واحدا منهم انقضت عليه ومزقته وافترسته كمـا تفـترس الخـنزير. وحين كـان الهنـود يقتلـون مسـيحيا دفاعـا عن أنفسـهم كـان المسيحيون يبيدون مائـة منهم لأنهم يعتقـدون أن حيـاة المسـيحي بحياة مائة هندي أحمر)

هذا بعض ما ذكره لي (برتولومي دي لاس كازاس).. وقد ذكـر لي غيره ــ وقـد أراني بعض الصـورة لمـا رافـق إكتشـاف جزيـرة هـايتى على يـد الإسـبان ــ وكـانت المـادة العلميـة تحتهـا مـا يلى: (وانشـغل ضـباط إسـبان (خلفـاء المستكشـف صـاحب الحملـة) باكتشاف جزيرة هاييتى وإحتلالها وكـانت مـا تـزال أرض مجهولـة، وقد تولى هذه المهمة كـل من دينغـو فلاسـكيز وبـانفليو دونـارفيز فأبديا من ضـروب الوحشـية مـا لم يسـبق لـه مثيـل متفنـيين فى تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم وفقء عيـونهم وصـب الـزيت المغلى والرصـاص المـذاب فى جـراحهم أو بـإحراقهم أحيـاء على مرأى ومسمع من الأسرى ليعترفوا بمخـابىء الـذهب وليهتـدو إلى دين المحبة!!)

و قد حاول أحد الرهبان إقناع الزعيم (هايتهاى) باعتنـاق الـدين وكان مربوطا إلى المحرقة، فقال له إنه إذا تعمد يذهب إلى الجنة، فسأله الزعيم الهندى قائلا: وهـل فى الجنـة إسـبان؟ فأجابـه: نعم ماداموا يعبدون إله الحق!، فما كان من الزعيم الهندى إلا قال: أنـا لا أريـد أن أذهب إلى مكـان أصـادف فيـه أبنـاء هـذه الأمـة المتوحشة!!

ومن أمثلة ما فعله هؤلاء فى أطفال الإنكا والمايـا والأزتيـك أن قابـل مسـيحيون هنديـة وكـانت تحمـل بين ذراعيهـا طفلا تقـوم بإرضاعه وبما أن الكلب الذى كان يرافقهم كان جائعا فقد انـتزعوا الطفل من بين ذراعى أمه ورمـوه للكلب الـذى أخـذ ينهشـه على مرأى من أمه.

وعندما كان بين السجناء بضع نساء وضعن حديثا، فإنهم مـا إن كان الاطفال الذين ولدوا حديثا يأخذون فى الصراخ يمسكونهم من سيقانهم ويصرعونهم فى الصخور.

وذكر لي أنه عند وصول الجنـود إلى القريـة بعـد الإفطـار على العشب راودت الإسبان فكرة جديدة، وهى التحقـق ممـا إذا كـانت سيوفهم قاطعة بالدرجة التى تبدو بها.. فجأة يستل الإسبانى سيفه

وسرعان ما يحـذو المائـة الآخـرون حـذوه ويشـرعون فى تمزيـق أحشاء وذبح هذه الشياة من الرجال والنسـاء والأطفـال والشـيوخ الـذين كـانو جالسـين مطمئـنين يتفرجـون فى عجب على الجيـاد والإسـبان.. وفى ثـوان معـدودة لم يبـق أحـد من هـؤلاء على قيـد الحياة حتى سال الدم فى كل مكان كما لو أنه قد جرى ذبح قطيع كامل من الأبقار.

وقـد وصـل الحـد فى أمريكـا فى عهـد هجـرة الأيرلانـديين البرتستانت أن صدر قانون يجيز إبادة الهنود الحمر فى كـل مكـان يتواجـدوا فيـه، لأن أمريكـا كـانت هى أرض الميعـاد وفـق تفسـير البروتستانت للكتاب المقدس وقتها.

لم يكن هذا السلوك الإرهابي قاصرا على أمريكا.. لقـد مـارس الإنجليز إبادة شاملة كاملة فى حق السكان الأصليين لأستراليا..

لقد قـال لي القس فرانزغـريس: (إن االأمم النصـرانية وأكـثر من ذلك تاريخ الكنيسة بالذات مضرج بالدماء ة ملطخ، ولربما أكثر تضرخا ووحشة من أى شعب وثنى أخر فى العالم القديم، إن أمما ذوات حضارات زاهيـة بـاهرة قـد أزيلت وأبيـدت ومحيت ببسـاطة وسهولة من الوجود، وكل ذلك بإسم النصرانية)

قلنا: الحمد للـه.. لقـد انتهى كـل ذلـك بظهـور هـذه الحضـارة الممتلئة بالسلام.

ضحك ضحكة عالية، وقال: هل تسمعون بالمدرسة العسـكرية في نورث بينينج بجيورجيا؟

قلنا: لا.. ما بها؟

قال: لقد كنت أحد ضباط هذه المدرسة وأحد أساتذتها.. ونحن نقـوم فيهـا بتـدريب الضـباط ورجـال الشـرطة في بلـدان أمريكـا اللاتينية المتحالفة مع الولايات المتحدة..

إن هدف هذه المدرسة الأوحد هـو تـدريب الضـباط والشـرطة على استخدام وسائل القمع.. وقد اعترفت وزارة الدفاع الأمريكية بأن الكتب الدراسية المقررة في هذه المدرسة، مازالت حـتى بين عـامي 1982 ـ 1991، توصـي باسـتخدام التعـذيب، والإعـدامات بدون محاكمة، والشـانتاج، وبشـكل أكـثر عموميـة، اسـتخدام كـل أسـاليب العنـف بغيـة الحصـول على المعلومـات من المعارضـين وأعضاء الميليشيا السياسية، أو العاملين في صفوف حرب الغوار.

ووفقـا للسـلطات العسـكرية، فقـد أجـرى تعـديل على منـاهج المدرسة منذ عام 1992 وبشكل سري، وكـان على الـرأي العـام

الأمـريكي أن ينتظـر حـتى عـام 1996، ليعـرف حقيقـة المنـاهج وحقيقة هذه المدرسة، وذلك بعد تحقيق أجراه الكونغرس عن دور المخابرات المركزية الأمريكية في غواتيمالا.

ولقد قامت هذه المدرسة منذ تأسيسـها عـام 1946، بتـدريب 60 ألـف طـالب من اثـني عشـر بلـدا، وكـان مقـر المدرسـة في البداية في باناما ثم نقلت عام 1984 إلى نورث بينينج.. وقد بلغت المدرسة ذروة مجدها في أعـوام السـتينات، حيث كـانت الولايـات المتحدة منغمسة بعمق في دعم الانظمـة المعاديـة للشـيوعية في أمريكا اللاتينية، حيث واجهت مقاومة أحزاب سياسية أو ميليشيات مسلحة فجرت حروب الغوار، وقد أصـبح عـدد من هـؤلاء الضـباط بعد أن أصبحوا جلادين مشـهورين، رؤسـاء دول، من بينهم نورييغـا الجنرال البانـامي، وقـد شـكلوا طبقتهم الخاصـة، باعتبـارهم تلقـوا تعليمهم في منـع العصـيان والقـدرة على انـتزاع المعلومـات من المتهمين.

وتتألف الكتب التعليمية المجرمة هذه، والتي أصـبحت معروفـة بفضل البنتاغون والصحافة الأمريكية من سبعة كتب، مكتوبة باللغة الاسبانية.

بعض فصـول هـذه الكتب تحمـل العنـاوين التاليـة :(معالجـة مصادر المعلومات، التجسس المضاد، الارهـاب وحـرب العصـابات في المدن)، في هذه الفصول يجري تنبيـه الطلبـة المتـدربين على أن التعاون مع مخبر محتمـل سـوف يصـبح أسـهل بكثـير فيمـا لـو جرى احتجاز والديه أو أقربائه، واعتقالـه، وتعذيبـه، واقتلاع الخـوف من قلبه، واغداق المكافـآت عليـه في سـبيل القضـاء على عـدو، وتهديده بالسجن والاعدام، والتظـاهر بتنفيـذ ذلـك أو اسـتخدام مـا يسمى سيروم الحقيقة.. كل هـذه الاجـراءات قـد تـؤدي إلى نفس النتيجة، ويجب أن لا يتردد الضابط الذي يعالج هذا الامر في تقـديم الهدايا، مقابل المعلومات التي يقدمها المتعامـل، والـتي تقـود إلى اعتقال أو أسر أو موت أعضاء حـرب الغـوار. الـذين تطلـق عليهم الحكومات دائما اسم المجرمين.

العولمة:

قلنا: فما السابع(1)؟

1()اسـتفدنا الكثـير من المعلومـات الـواردة في هـذا المطلب من كتـاب (العولمـة) للدكتور: صالح الرقب- الجامعة الإسلامية، الطبعـة الأولى:1423هـ-2003، بالإضـافة إلى مصادر الأخرى..

قال: العولمة(2)..

قلنا: أليست العولمة شيئا طيبا؟.. فكيف تجعله خبيثا؟

قال: هي طيبة عندما تصدر من الطيبين.. ولكنها تمتلئ بالخبث إن صدرت من الخبثاء.

قلنا: ما تعني؟

قال: العولمة هي توجيه العالم وجهة معينة تلغي كل الخصوصيات..

قلنا: وما الضرر في ذلك؟.. ما الضرر على من ملك زمام الحضارة أن يعممها على غيره؟

قال: عندما يتفق أهل العالم على البحث على السلام والجمال والنور والصفاء تمتلئ العولمة بكل هذه المعاني السامية.. ولكنه عندما يصبح زمام العالم بيد الحمير والأسود والخنافس، فإن البشر المسكين سيتحول في ظل هذا المسخ إلى حمير وأسود وخنافس.. بل يفرض عليه أن يصير حميرا وأسودا

2()العولمة: الكلمة بهذه الصيغة الصرفية لم ترد في كلام العرب، وهي تدل على تحويل الشيء إلى وضعية أخرى، ومعناها: وضع الشيء على مستوى العالم، وقد قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة إجازة استعمال العولمة بمعنى جعل الشيء عالمياً.

وهي في أصلها ترجمة لكلمةMondialisation الفرنسية، بمعنى جعل الشيء على مستوى عالمي، والكلمة الفرنسية المذكورة إنّما هي ترجمة) Globalisation الإنجليزية التي ظهرت أولاً في الولايات المتحدة الأمريكية، بمعنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. فهي إذا مصطلح يعني جعل العالم عالمًا واحدًا، موجهًا توجيهًا واحدًا في إطار حضارة واحدة، ولذلك قد تسمى الكونية أو الكوكبة.

ومن خلال المعنى اللغوي نعرف أن العولمة إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني: تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة، وجعله يشمل الجميع أي العالم كله.

وقد جاء في المعجم العالم الجديد ويبستر أنّ العولمة Globalisation هي: إكسابُ الشيء طابعَ العالمية،وبخاصة جعل نطاق الشيء، أو تطبيقه عالمياً.

وقد أطلق على العولمة بعض الكتاب والمفكرين النظام العالمي الجديد New World Order- وهذا المصطلح استخدمه الرئيس الأمريكي جورج بوش- الأب- في خطاب وجهه للأمة الأمريكية بمناسبة إرساله القوات الأمريكية إلى الخليج (بعد أسبوع واحد من نشوب الأزمة في أغسطس 1990م) وفي معرض حديثه عن هذا القرار، تحدّث عن فكرة :عصر جديد، وحقبة للحرية، وزمن للسلام لكل الشعوب. وبعد ذلك بأقل من شهر أشار إلى إقامة (نظام عالمي جديد) يكون متحرراً من الإرهاب، وأكثر أمنا في طلب السلام، عصر تستطيع فيه كل أمم العالم أن تنعم بالرخاء وتعيش في تناغم.

وربّما يوحي هذا الإطلاق- النظام العالمي الجديد- بأن اللفظة ذات مضامين سياسية بحتة، ولكن في الحقيقة تشمل مضامين سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية وتربوية، بمعنى آخر تشمل مضامين تتعلق بكل جوانب الحياة الإنسانية.

ومن أحسان تعاريف العولمة هو أنها (منظومة من المبادئ السياسية والاقتصادية، ومن المفاهيم الاجتماعية والثقافية، ومن الأنظمة الإعلامية والمعلوماتية، ومن أنماط السلوك ومناهج الحياة، يُراد بها إكراه العالم كلّه على الاندماج فيها، وتبنّيها، والعمل بها، والعيش في إطارها)

وخنافس.

قلنا: فحدثنا عنها..

قال: هي قديمة قدم الإنسان.. لقد كانت كثير من الشعوب المتمردة الممتلئة بالصراع تحلم بأن تفرض نفسها على غيرها.. وتنعت غيرها بالبربرية والبدائية والتخلف.. ولكن الوسائل لم تكن تتيح لها هذا النوع من السيطرة.. فلذلك استبدلتها بالاستعمار والاسترقاق والإبادة..

لكن الظروف تهيأت في هذا العصر.. وخاصة بعد انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية عام 1961م، ثم سقوط الاتحاد السوفيتي سياسياً واقتصادياً عام 1991م، وما أعقبه من انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالتربع على عرش الصدارة في العالم المعاصر وانفرادها بقيادته السياسية والاقتصادية والعسكرية(3).

قلنا: فقد صارت أمريكا إذن هي أستاذ العالم الذي يفرض عليه ما يريد؟

قال: ليتها قبلت بهذا الدور.. إذن لكانت من أهل السلام.

قلنا: فما الذي عملت؟

قال: لقد راحت مع إخوانها وأخواتها ممن امتلأوا بالصراع يستعملون كل أنواع السياط ليفرضوا على العالم نمطا معينا من الحياة.. يجعل العالم كله عبيدا لسيد واحد هو عين ذلك السيد

3() يذكر الباحثون أن هناك أربعة عناصر أساسية أدت إلى بروز العولمة.. أولها تحرير التجارة الدولية.. حيث حصل في هذا العصر.. وفي هذه الفترة بالذات تكامل الاقتصاديات المتقدمة والنامية في سوق عالمية واحدة، مفتوحة لكافة القوى الاقتصادية في العالم وخاضعة لمبدأ التنافس الحر.

وثانيها تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة.. حيث حدثت تطورات هامة خلال السنوات الأخيرة تمثلت في ظهور أدوات ومنتجات مالية مستحدثة ومتعددة، إضافة إلى أنظمة الحاسب الآلي ووسائل الاتصال والتي كفلت سرعة انتشار هذه المنتجات،وتحوّلت أنشطة البنوك التقليدية إلى بنوك شاملة، تعتمد إلى حد كبير على إيراداتها من العمولات المكتسبة من الصفقات الاستثمارية من خارج موازنتها.

وثالثها الثورة المعرفية، وتتمثّل في التقدم العلمي والتكنولوجي،وهو ميزة بارزة للعصر الراهن،وهذا التقدم العلمي جعل العالم أكثر اندماجاً، كما سهّل حركة الأموال والسلع والخدمات،وإلى حد ما حركة الأفراد، ومن ثمّ برزت ظاهرة العولمة، والجدير بالذكر أنّ صناعة تقنية المعلومات تتركّز في عدد محدود، ومن الدول المتقدمة أو الصناعية دون غيرها.

ورابعها تعاظم دور الشركات متعددة الجنسيات: هذا العصر بأنّه عصر العولمة فمن الأصح وصفه بأنه عصر الشركات متعددة الجنسيات باعتبارها العامل الأهم لهذه العولمة.ويرجع تأثير هذه الشركات كقوة كبرى مؤثرة وراء التحولات في النشاط الاقتصادي العالمي.

.

الذي لا تزال دماء عبيده تسيل على أرضه.

قلنا: دعنا من هـذا التشـاؤم.. لقـد سـمعنا بـأن العولمـة تبشـر بالازدهار الاقتصادي والتنمية والرفاهية لكـل الأمم والعيش الرغيـد للناس كلهم، والانتعاش،ونشر التقنيـة الحديثـة، وتسـهيل الحصـول على المعلومـات والأفكـار عـبر الاسـتفادة من الثـورة المعلوماتيـة الحديثــة، وإيجــاد فــرص للانطلاق للأســواق الخارجيــة، وتــدفق الاسـتثمارات الأجنبيـة الـتي تتمتـع بكفـاءة عاليـة، وبالتـالي ينتعش الاقتصاد الوطني والقومي.

ضحك ضحكة عالية، وقال: ألا تعرفون قومنا؟.. ألم تدركوا بعـد ما جبلوا عليه من التلاعب على الحقائق؟

لقد ذكرتم الازدهار الاقتصادي والتنمية.. وسأذكر لكم ما قامت به الشركات الجشعة لتحقق هذا الازدهار والتنمية..

لاشك أنكم تعرفون النمور الآسيوية.. كأندونيسيا وماليزيــا.. إن هـذه الـدول لم تسـتطع تحقيـق المصـالح الاقتصـادية المطلوبـة لشـعوبها بسـبب بسـيط هـو أن الشـركات المتعـددة الجنسـيات أرسـلت أحـد المسـتثمرين الأجـانب.. وهـو أحـد رمـوز العولمـة.. الملياردير (جورج سورش) ليتلاعب بالبورصة ممـا أدى إلى ضـرب التجارة التنموية وإحباطها.

لقد أدلى جورج سوروش نفسه بشهادة لاذعة أمام الكونغرس الأمـيركي قـال فيهـا:(بـدلا من أن تتصـرف أسـواق المـال مثـل البندول، فإنها تصرفت مثل كرة التهديم المعدنيـة، وراحت تقـوض دولة تلو الأخرى، وعليه فإنّ استخلاصنا الأخـير بـأن أسـواق المـال سوف تواصل تقريب العالم بعضـه إلى بعض هـو اسـتخلاص مثـير للجدل والخلاف)

إنّ هذه الشركات تعد الأرض كلها سوقًا كبيراً لها، بما فيها ومن فيها، بحيث تتنافس في اقتسام هذه الأراضي دون أي اعتبـار لقيم أو أخلاق، وهي نادراً ما تدخل في شكل استثمارات مباشرة طويلة الأمد، وإنما تـدخل بمـا يعـرف بـالأموال الطـائرة، في اسـتثمارات قصيرة الأجل وسريعة الفوائد والتي تحقـق لهـا عوائـد هائلـة، دون أن يكون لذلك مـردود على التنميـة المحليـة.. وإن حـدث وقـدمت استثمارات مباشرة، فإنّها قبل ذلك تأخذ ما يكفيهـا من التسـهيلات والضــمانات السياســية والاقتصــادية الــتي لا تحظى بهــا رؤوس الأموال المحلية، وهو ما يعرقل الاقتصاد المحلي، زيادة على ذلـك، فـإن معظم أنشـطتها تقتصـر على السـلع الاسـتهلاكية ذات العائـد

الأسرع نتيجة للنمط الاستهلاكي السائد.

لقد أدى تطور هـذه الشـركات وتضـخمها إلى تعميـق العولمـة اقتصـادياً، وتعـدد أنشـطتها في كـل المجـالات: الاسـتثمار والإنتـاج والنقل والتوزيع والمضاربة، ووصل الأمر إلى أنّها قـد صـارت تـؤثر في القرار السياسي والبعد الثقافي والمعرفي، وفي ظل العولمـة استطاعت هذه الشركات الاستفادة من فروق الأسعار، من نسـبة الضرائب، من مستوى الأجـور لتركـيز الإنتـاج في المكـان الأرخص وبعد ذلك ينقل الإنتاج إلى المكان الذي يكون فيه مستوى الأسـعار أعلى ويتم تسويقه هناك.

أضيفوا إلى هذا أن هذه العولمة المجنونة ركزت الثروة المالية في يـد قلـة من النـاس أو قلـة من الـدول، فـ 358 مليـاردير في العالم يمتلكـون ثـروة تضـاهي مـا يملكـه أكـثر من نصـف سـكان العالم، و 20 بالمائة من دول العالم تسـتحوذ على 85 بالمائـة من الناتج العالمي الإجمـالي، وعلى 84 بالمائـة من التجـارة العالميـة، ويمتلك سكانها 85 بالمائة من المدخرات العالمية.. ونكتشــف من هــذا أنّ 5،19 بالمائــة من الاســتثمار المباشــر و08 بالمائــة من التجـارة الدوليـة تنحصـر في منطقـة من العـالم يعيش فيهـا 82 بالمائة فقط من سكان العالم.

أضــيفوا إلى هــذا ســيطرة الشــركات العملاقــة عمليــاً على الاقتصاد العـالمي.. إنّ خمس دول ــ الولايـات المتحـدة الأمريكيـة واليابان وفرنسا وألمانيا وبريطانيا ـ تتـوزع فيمـا بينهـا 172 شـركة من أصل مائتي شـركة من الشـركات العالميـة العملاقـة.. وهنـاك 350 شركة كبرى لتلك الدول تسـتأثر بمـا نسـبته 40 بالمائـة من التجارة الدولية.. وقد بلغت الحصة المئوية لأكبر عشر شركات في قطـاع الاتصــالات الســلكية واللاســلكية 86 بالمائــة من الســوق العالمي، وبلغت هذه النسبة 85 بالمائة من قطـاع المبيـدات، ومـا يقرب من 70 بالمائة من قطاع الحاسبات و60 بالمائة في قطـاع الأدوية البيطرية، و35 بالمائـة من قطـاع الأدويـة الصـيدلانية، و34 بالمائة في قطاع البذور التجارية.

أضيفوا إلى هذا تعميق التفاوت في توزيـع الـدخل والـثروة بين الناس، بل بين المواطـنين في الدولـة الواحـدة، واخـتزال طاقـات شعوب العالم إلى طاقة دفع لماكينة الحياة البراجماتية الاستهلاكية للقوى الرأسمالية والسياسة الغربية المسيطرة.. لقـد كـان أولئـك المـدافعونالأغبياء عن العولمـة يراهنـون على أن العولمـة سـتؤدي

إلى ارتفاع مستوى دخل الفـرد على المسـتوى العـالمي، وبالتـالي تخف ظـاهرة الفقـر الـتي تعـاني منهـا كثـير من دول العـالم، لكن الحقائق والأرقام، تكشفت عن واقـع مـؤلم مختلـف، ففي الـوقت الذي ازداد معدل دخل الفرد، فإنّه صاحب هذه الزيـادة اتسـاع في الهـوة الشاسـعة بين مسـتوى الـدخل في الـدول الغنيـة والـدول الفقيرة، فمازال دخـل أكـثر من مليـارين إنسـان لا يزيـد على 60 دولاراً في الشهر، مـا يعـني أن خطـر الفقـر مـازال يطـل برأسـه القبيح على دول كثيرة في العالم.

أضيفوا إلى هذا استئثار قلة من سكان الدولة الواحدة بالقسـم الأكبر من الدخل الوطني والثروة المحلية، في الوقت الـذي يعيش أغلبية السكان حياة القلة والشقاء ويوضح ذلك أن عشرين بالمائـة من الفرنسيين يتصرفون فيما يقرب من سبعين بالمائة من الثروة الوطنيـة، وعشـرين بالمائـة من الفرنسـيين لا ينـالون من الـدخل الوطني سوى نسبة ستة بالمائة.

أضيفوا إلى هذا النمو المطرد للبطالـة، وانخفـاض الأجـور ومـا يرتبــط بهــا من تقليص في قــدرة المســتهلكين واتســاع دائــرة المحــرومين، وقــد دلت الإحصــائيات على حقــائق خطــيرة، ففي العالم (800) مليون شخص يعـانون من البطالـة وهـذا الـرقم في ازدياد، وفي السنوات العشرة الأخيرة عملت 500 شركة من أكبر الشــركات العالميــة على تســريح أربعمائــة ألــف عامــل - في المتوسط- كل سنة، على الرغم من ارتفاع أربـاح هـذه الشـركات بصورة هائلة، فإحدى هذه الشركات منحت للمساهمين فيهـا مبلـغ خمسة مليون دولار لكـل منهم(60) والشـركات الأمريكيـة تسـرِّح مليونين من العمال.

ونتيجة لذلك ظهرت عدائية كثير من منظمات المجتمع المدني الغربية، وخاصة في الولايات المتحدة للعولمة، وخاصة المنظمــات العمالية، واتحادات الشغل التي تـراقب أثـر عولمـة الاقتصـاد على معدلات أجور العمال، وعلى نسبة البطالة في الغرب.

إنّ الفقــر النــاتج عن البطالــة حتمــا يقــود إلى اتســاع دائــرة الجريمة فالعولمة تسمح وبيسر للعصابات بأنّ تشكل شبكة دوليــة عــبر (الإنــترنت) وتمكن المتهــربين من دفــع الضــرائب من نقــل أموالهم إلكترونيا إلى أمكنة أخرى، فمن روسـيا وحـدها وصـل إلى العالم الغربي منذ عام 1990م خمسون مليار دولار بطريقــة غــير شرعية، ويقدر خبراء الأمن أن ثروة منظمـات المافيـا في النمسـا

وحدها تتجاوز تسعة عشر مليار دولار، كل هذا يجري على حساب الدولة التي بدأت تئن تحت ضائقة الفقر لتقلص الضرائب وهروبها، وهذا يعني ضعف الخدمات الاجتماعية والتعليمية والصحية التي تقدمها الدولة، وتتضاعف حدة مشكلة الفقر،وتصبح أشدّ خطورة،وبالنتيجة فإنّ شرعية هذه الدولة واستقرارها يصبحان مهددان.

أضيفوا إلى هذا فرض السياسات الاقتصادية والزراعية على دول العالم - وخاصة النامية - بهدف تعطيل التنمية الاقتصادية، وإبقائها سوقاً استهلاكية رائجة للمنتجات الغربية، وتسليم إرادتها السياسية للقوى الحاكمة في أمريكا.. ففي بعض الدول انخفضت معدلات النمو عام 98م بأكثر من 100 بالمائة وارتفعت معدلات البطالة بنسبة خطيرة أدت إلى حدوث مشكلات اجتماعية عديدة من أهمها زيادة نسبة الفقر والأمية.

أضيفوا إلى هذا إضعاف قوة موارد الثروة المالية العربية المتمثلة في النفط، حيث تم إضعاف أهميته كسلعة حينما تم استثناؤه من السلع التي تخضع لحرية التجارة الدولية - أسوة بتجارة المعلومات- من تخفيض الضرائب والقيود الجمركية المفروضة عليه من الدول المستهلكة، فما زالت هذه الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ترفض اعتبار النفط والمشتقات البتروكيماوية من السلع التي يجب تحريرها من القيود الجمركية والضرائب الباهضة التي تفرضها الدول المستهلكة، وبذلك تجني هذه الدول الأرباح الهائلة من وراء ذلك، وهي تعادل ثلاثة أمثال العائدات إلى الدول المنتجة في الوقت الحاضر، بل أصدر الكونجرس الأمريكي تشريعاً يقضي بفرض العقوبات على دول في منظمة أوبيك إذا شاركت في رفع أسعار النفط أو تثبيتها.

أضيفوا إلى هذا ظهور عملية الإغراق التي ترتبط بالسعر، وذلك بأن تطرح في الأسواق سلع مستوردة بأسعار تقل كثيراً عن سعر المثيل في السوق المحلي، أو عن سعر المثيل في سوق الدولة المنتجة لهذه السلعة وتصدرها، أو انخفاض سعر البيع عن سعر تكلفة الإنتاج، ويتم تداولها لفترة زمنية، بهدف استرداد نفقاتها وتحقيق الربح، تلك هي الحالات الثلاث التي تعتبر فيها السلع المستوردة بمثابة سلع أو واردات إغراق.

وهذه المشكلة ظهرت مع دخول العولمة وإلغاء التعرفة الجمركية، أو الحد منها على بعض السلع، حيث كان قديماً لا يمكن

حدوث ذلك لأن الدول كانت تتحكم في سعر السلعة بزيادة سعر الجمارك، مما يؤدي إلى زيادة سعر المنتج المستورد عن المنتج المحلي أو على الأقل يساويه في الثمن، ولكن مع فتح الأسواق أمام التجارة العالمية، فإننا سنشهد حالات إغراق كثيرة، وكذلك تجاوزات لا نضمن إلى أي مدى ستصل عواقبها.

سكت قليلا، ثم راح يخاطب نفسه، ويقول: لم نكتف بكل هذا.. أنت ـ يا نفسي ـ تعلمين جشعي وحرصي.. فلذلك لم أكتف بأكل كل تلك الأموال.. أنا لا تكفيني الأموال.. مثلما لا تكتفيني الدماء..

قلنا: فما فعلت.. أو ما فعل قومنا بعد كل هذا؟

قال: لقد رحنا نفرض سيطرتنا السياسية على الأنظمة الحاكمة والشعوب التابعة لها، والتحكم في مركز القرار السياسي وصناعته في دول العالم لخدمة مصالحنا على حساب مصالح الشعوب وثرواتها الوطنية والقومية وثقافتها ومعتقداتها الدينية.. لقد قال أحد زملائي في الإجرام (جون بوتنغ)، وقد كان رئيس المدراء التنفيذيين في بنك بنسلفانيا :(في العولمة نحن نقرر من الذي سيعيش ونحن نقرر من الذي سيموت)

لم نكتف بكل هذا، بل رحنا نخطط للتدخل العسكري وإعلان الحرب في أية بقعة من العالم تفكر بالخروج على سيطرتنا.. يقول صموئيل هنتنغتون في دراسته المسماة (المصالح الأمريكية ومتغيرات الأمن) :(إنّ الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتي بحاجة ماسّة إلى عدو جديد يوحد دوله وشعوبه، وإن الحرب لن تتوقف، حتى لو سكت السلاح وأبرمت المعاهدات، ذلك أن حرباً حضاريةً قادمةً ستستمر بين المعسكر الغربي الذي تتزعمه أمريكا وطرف آخر، قد يكون عالم الإسلام أو الصين)

ولم نكتف بكل هذا.. بل رحنا نفرض ثقافتنا بكل تشوهاتها وصراعاتها على العالم أجمع.. إنّ ثقافتنا تريد من العالم أجمع أن يعتمد المعايير المادية النفعية الغربية،كأساس لتطوره، وكقيمة اجتماعية وأخلاقية، وبهذا فإنّ ما تبقى يجب أن يسقط، وما تبقى هنا هو ليست خصوصية قومية، بل مفهوم الخصوصية نفسه، وليس تاريخا بعينه بل فكرة التاريخ، وليس هوية بعينها وإنما كل الهويات،وليس منظومة قيمية بل فكرة القيمة وليس نوعا بشريا، وإنّما فكرة الإنسان المطلق نفسه.

لقد دعا دافايد روشكويف (أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا والمسئول السابق في حكومة الرئيس الأمريكي كلينتون)

الولايات المتحدة إلى استغلال الثورة المعلوماتية الكونية للترويج للثقافة والقيم الأمريكية على حساب الثقافات الأخرى، لأنّ الأمريكان أكثر الأمم عدلاً وتسامحاً وهم النموذج الأفضل للمستقبل، والأقدر على قيادة العالم.

ويقول شتراوس هوب في كتابه(توازن الغد):(إنّ المهمة الأساسية لأمريكا توحيد الكرة الأرضية تحت قيادتها، واستمرار هيمنة الثقافة الغربية، وهذه المهمة التي لا بد من إنجازها بسرعة في مواجهة نمور آسيا وأيّ قوى أخرى لا تنتمي للحضارة الغربية)

يقول ناعوم تشومسكي: (إنّ العولمة الثقافية ليست سوى نقلة نوعية في تاريخ الإعلام، تعزز سيطرة المركز الأمريكي على الأطراف، أي على العالم كله)

ويقول بلقيزر: (العولمة ـ كما يدعي روادها ــ هي انتقال من مرحلة الثقافة الوطنية إلى ثقافة عليا جديدة عالمية، وهي في حقيقتها اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات الأخرى، وهي اختراق تقني يستخدم وسائل النقل والاتصال لهدر سيادة الثقافات الأخرى للشعوب، وفرض الثقافة الغربية)

قلنا: ولكن.. لا نرى لقومنا أي أسلحة ثقافية يوجهونها نحو شعوب العالم.

ضحك، وقال: لقد تطورت الأسلحة.. فلم تعد تجدي الأسلحة القديمة.. لقد صار الإعلام هو وسيلة هذا العصر.. الوسيلة التي تفرض بها ما تريد على من تريد.

وقد هيمنت شركاتنا على الإعلام في العالم أجمع.. فمعظم مواد وتجهيزات الصناعة التقليدية من الورق، والحبر، وآلات الطباعة، وآلات التصوير بيد الدول المصنعة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

وجميع مواد وتجهيزات الاتصال الحديثة بيد المجموعة نفسها ويتحكم فيها كلياً مركز واحد للهيمنة، وجميع وسائل تجهيزات المعلومات والحاسوب، وغزو الفضاء.

وفوق ذلك كلهما تشاهدونه من التفوق الأمريكي في صناعة الأفلام والموسيقى، وتمتعها بسوق خارجية ضخمة في ظل انتشار التلفزيون، والأقمار الصناعة،وقنوات الفضاء التي أدخلت البث التلفزيوني إلى كل بيت في العالم.

تشير إحصاءات منظمة اليونسكو عن الوطن العربي إلي أنّ شبكات التليفزيون العربية تستورد ما بين ثلث إجمالي البث كما

في سوريا ونصف هذا الإجمالي كما في تـونس والجزائـر، أمـا في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد علي نصف إجمالي المواد المبثوثـة إذ تبلغ 58,5 بالمائة وتبلـغ الـبرامج الأجنبيـة في لبنـان 69 بالمائـة من مجمـوع الـبرامج الثقافيـة، ولا تكتفي بـذلك، بـل وغـالب هـذه البرامج يبث من غير ترجمة، وثلثا برامج الأطفال تبث بلغـة أجنبيـة من غير ترجمة في معظمها.

قلنا: إن ما تذكره جميل.. فهو لا يـدل إلا على النشـاط العظيم التي تبديه شعوبنا في هذه المجالات.

قال: ولكنه نشاط مخرب.. إن عملاءنا الذين يروجون العولمة يحاولون جادين تعميم الفلسفة الماديـة والفكـر الغـربي العلمـاني ليصبح العالم جـزءاً من المنظومـة العلمانيـة العالميـة الـتي تتميّـز بخصائص معينة وتظهر بثقافة واحدة، تتجـاوز السـلام بكـل أبعـاده الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية.

إنّ العولمة تمجِّد ثقافة الاستهلاك التي اسـتخدمت كـأداة قويـة فاعلـة في إطلاق شـهوات الاسـتهلاك إلى أقصـى عنـان، ومن ثمَّ تشويه التقاليد والأعراف السائدة في العالم الإسلامي.

وهي تشيع ما يسمى بـأدب الجنس وثقافـة العنـف الـتي من شأنها تنشئة أجيال كاملة تؤمن بالعنف كأسلوب للحيـاة وكظـاهرة عادية وطبيعية، وما يترتّب على ذلك من انتشار الرذيلـة والجريمـة والعنف.

في دراسة أعدها مركز دراسات المرأة والطفل بالقاهرة على 1472 فتاه، وسـيدة مصـرية..تـبين أنّ الأفلام الـتي يشـاهدنها:85 بالمائة أفلاماً جنس، 75 بالمائـة بهـا مشـاهد جنسـية، 85 بالمائـة أفلام عنـف وحـروب،23 بالمائـة أفلام فضـاء، 68 بالمائـة أفلامـاً عاطفية قديمة وحديثة، 21 بالمائة أفلاما أخرى،6 بالمائة فقط من عينة البحث يشاهدن نشرات الأخبار وبـرامج ثقافيـة وترفيهيـة،ولم يذكرنّ الأفلام العلمية، لأنها لم تنل منهن أي اهتمام يذكر.

كمـا أثبتت الدراسـات الحديثـة أن شـبكة المعلومـات الدوليـة (الإنترنت) أكبر قوة دافعة للعولمة المدوية لصـناعة الجنس.ويـرى معهـد فوريسـتر للأبحـاث (كيمـبردج ماساشوسـيتس) أنّ صـناعة البورنو على شبكة المعلومات الدولية تبلغ نحـو مليـار دولار سـنويا من حيث القيمـة، وأنّهـا مرشـحة للتعـاظم.. فشـبكة المعلومـات الدولية تزيـل بضـربة واحـدة، أكـبر عقبـتين تعترضـان بيـع الصـور والخدمات الجنسية: الخجل والجهل..فـالأمر لا يحتـاج أكـثر من أن

يلقي نظرة على (دليل الجنس في العالم)، وهو موقع على شبكة معلومات الدولية ليجد عروضاً مفصّلة عن المواخير ووكالات تأجير المرافقات والنوادي الليلية في مئات المدن الكبرى حول العالم، وتتيح شبكة معلومات الدولية أيضا للناس تجاوز الرقابة المحلية والحصول على صور يرغبونها من أي مكان في أرجاء المعمورة.

ليس ذلك فقط.. فمن آثار عولمة الثقافة انتشار نوعية مميزة من الثقافة المادية والمعنوية الأمريكية حيث سيطرت الثقافة الأمريكية الشعبية على أذواق البشر، فأصبحت موسيقى وغناء مايكل جاكسون، وتليفزيون رامبو، وسينما دالاس هي الآليات والنماذج السائدة في مختلف أنحاء العالم، وأصبحت اللغة الإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية هي اللغة السائدة.

ليس ذلك فقط.. فمن آثار العولمة الثقافية انتشار الأزياء والمنتجات الأمريكية، لأنّ هذه السلع تحمل في طياتها ثقافة مغايرة تسحق ثقافات الأمم المستوردة لها.

السلام

بعد أن حدثنا صاحبنا الثامن بما حدثنا به من المآسي مما ذكرت لك الكثير منه سألناه عن التقائه بمن وصفه بالنور والسلام والصفاء، فابتسم ابتسامة هادئة امتلأت لها أسارير وجهه إشراقا، ثم قال: لا أزال أذكر ذلك اليوم جيدا.. إنه يوم مميز في حياتي وقفت فيه على حافة بين الموت والحياة.. لم يكن بيني وبين الموت حينها إلا كلمة واحدة، أو إشارة واحدة، ولكن الله قدر أن يمد في عمري لأسمع من الكلمات، وأرى من الأنوار، ما جعل لحياتي معنى جديدا لم أكن أراه، ولم أكن أشعر به، بل لم أكن أتصور أن له وجودا في هذه الحياة.

قلنا: فلم لم تتبع هذا النور والسلام والصفاء؟

قال: ذلك لشقائي.. لقد كان أمامي وبين يدي.. ولكن جبال الكبرياء التي سيطرت على كل لطائفي منعتني من اتباعه، بل حرضتني على خلافه.

قلنا: ما اسم هذا الرجل الذي رضيت الموت من أجل لقائه؟

قال: لقد ذكر لي أنه أسماء كثيرة بدأت بمحمد، وانتهت بمرتضى مطهّري (1).

1() مرتضى مطهّري (1920 - 1979) عالم وفيلسوف إسلامي، العضو المؤسس في شورى الثورة الإسلامية في إيران إبان الأيام الأخيرة من سقوط نظام الشاه، ومن المنظرين جمهورية الإسلامية الإيرانية.. صاحب المؤلفات التأصيلية والعقائدية والفلسفية

قلنا: فحدثنا عن حديثك معه.

قلنا: فأين هو الآن؟

قال: لقد قدم إلى هذه البلاد لدرء الفتنة التي تريد أن تستأصلها.. وقد جئت على أثره أبحث عنه.. ولكن الله قدر أن لا ألقاه.. بل ألقى بدله الموت الذي أذقته للملايين.

قلنا: فحدثنا عن حديثك معه.

أشرق وجهه بابتسامة عذبه، ثم قال: في ذلك اليوم قدر الله أن أسير إلى بعض بلاد المسلمين في مهمة من مهمات الدماء التي لم أكن أسير إلا من أجلها.

ولكني.. وأنا أمر في زقاق من أزقة المسلمين.. رأيت جمعا من الناس ملتفا حول رجل منهم.. كان ذلك الرجل هو النور والسلام والصفاء..

لقد كان أول ما شدني إليه آية من القرآن تقول :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:13)

سألته عنها، فذكر لي أن هذه الآية تذكر ركنا أساسيا من أركان العلاقات التي أمر الله أن تحكم العالم.

قلت له: لكن العلاقات التي أراها تحكم العالم هي علاقات الكراهية والحروب والاستعمار والاستغلال والاستعباد والإبادة..

قال: تلك علاقات الشياطين التي نفختها في أجواء بني آدم.. أما العلاقات التي أمر الله أن تقوم على الأرض، فيستحيل أن تفوح منها روائح الدماء..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال مخبرا عن خوف الملائكة من أن تسيل دماء بني آدم في غير حق :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِي أَعلَمُ مَا لاَ تَعلَمُونَ ﴾ (البقرة: 30)

وذكر قصة أول دم سال على الأرض، فقال :﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ

الإسلامية، وأحد أبرز تلامذة المفسر والفيلسوف الإسلامي محمد حسين الطباطبائي وروح الله الخميني.

النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) (المائدة)

وقد عقب الله على هذه القصة بالتشديد في أمر الدماء.. ووضع الشرائع التي تحفظ الدماء أي دماء من كل من يتعرض لها.. قال تعالى : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34) (المائدة)

قلت: أعرف تلك القصة..

قاطعني، وقال: هي ليست مجرد قصة.. إنها مبادئ عظيمة سار بها أهل الله في كل الأزمنة.. وفي كل البلاد.. كلهم يصيحون بما صاح به ابن آدم الأول..

لقد ذكر رسول الله ﷺ هذا المذهب، وحث على اتباعه، فقال: (إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، والجالس خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي) قال الراوي: يا رسول الله ما تأمرني؟ قال: (من كانت له إبلٌ فليحلق بإبله، ومن كانت له غنمُ فليحلق بغنمه، ومن كانت له أرضٌ فليحلق بأرضه)، قيل : فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال : (فليعمد إلى سيفه فليضرب بحدِّه على حرَّة، ثم لينجو ما استطاع النجاء)

قال سعد: قلت: يا رسول الله أرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده ليقتلني! قال : فقال رسول الله ﷺ: (كن كابن آدم) وتلا : لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ.. (المائدة:28)(1)

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ :(إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ؛ القاعد فيها خير من القائم، والماشي

1() رواه البخاري ومسلم بألفاظ مختلفة.

فيهـا خـير من السـاعي، فاكسـروا قسـيَّكم، واقطعـوا أوتـاركم، واضربوا سيوفكم بالحجـارة، فـإن دُخِـل ــ يعـني على أحـد منكم ـ فليكن كخير ابنيْ آدم)

وفي حديث آخر عن أبي ذر قال : قال رسول اللـه ﷺ:(يـا أبـا ذر!) قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ــ وذكـر الحـديث ــ وقـال فيــه : (كيــف أنت إذا أصــاب النــاس مــوت يكــون الــبيت فيــه بالوصـيف؟) قلت : اللـه ورسـوله أعلم، أو قـال مـا خـار اللـه لي ورسوله، قال: (عليك بالصبر) ـ أو قال تصبر ـ ثم قال : (يا أبا ذر !) قلت : لبيك وسعديك، قال : (كيف أنت إذا رأيت أحجار الـزيت قد غرقت بالدم؟) قلت : ما خـار اللـه لي ورسـوله، قـال:(عليـك بمن أنت منه): قلت: يا رسول الله، أفلا آخـذ سـيفي فأضـعه على عاتقي ؟ قال : (شاركت القوم إذن)، قلت: فمـا تـأمرني ؟ قـال: (إن خشيت أ يبهرك شعاع السيف، فـألق ثوبـك على وجهـك يبـوء بإثمك وإثمه)(1)

قلت: أرى كل هذه الأحاديث تـدل على مـذهب ابن آدم الأول.. فما مذهبه؟.. وما سر الاهتمام به؟

قال: أما مذهبه فهو السلام.. وأمـا سـر الاهتمـام بـه، فهـو أنـه يمثل الفطرة السليمة الأصلية التي فطـر اللـه خلقـه عليهـا.. لكن الشياطين ونفوسهم المدنس بدنس الأهواء أبت إلا أن تغرقهم في مستنقعات الدماء.

قلت: ولكـــني أرى من المســـلمين من يحمـــل أســـلحة ومتفجرات.. ويرميها على من يستحق ومن لا يستحق.

قال: هو كابن آدم الثاني.. لا كابن آدم الأول.

قلت: هو يزعم أنه أخذ هذه التعاليم من القرآن.

قال: من أي موضع؟.. لقد ذكر الله النماذج الكاملة التي انتصر فيها الإنسان، وانتصرت فيها الحقائق، فلم يذكر قطرة دم واحـدة. لقد قال الله تعالى يذكر هـؤلاء الرجـال الأفاضـل :﴿ أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَـرَدُّوا أَيْـدِيَهُمْ فِي أَفْـوَاهِهِمْ وَقَـالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْـهِ مُـرِيبٍ(9)قَـالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَـدْعُوكُمْ لِيَغْفِـرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى قَـالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُنَـا تُرِيـدُونَ أَنْ تَصُـدُّونَا عَمَّا كَـانَ يَعْبُـدُ آبَاؤُنَـا فَأْتُونَـا بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ(10

1() رواه ابن ماجة.

)قَـالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَـا أَنْ نَـأْتِيَكُمْ بِسُـلْطَانٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُـونَ(11)وَمَـا لَنَـا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَـدْ هَـدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَـا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُـونَ(12) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُـودُنَّ فِي مِلَّتِنَـا فَـأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ(13)وَلَنُسْـكِنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ(14) (إبراهيم)

انظر.. إن ما جاء به الرُّسل هو البينات.. وموقـف الأقـوام أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا : إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

وكان جواب الرُّسل : وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُـلطَانٍ إِلاَّ بِـإِذنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكَّلِ المُؤمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللـهِ وَقَـد هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيتُمُونَا

فإلى ردُّ الذين كفروا لرسلهم : لَنُخرِجَنَّكُم مِن أَرضِنَا أَو لَتَعُـدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوحَى إِلَيهِم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمِينَ

انظر.. هل أسأل هؤلاء الأفاضل قطرة دم واحدة، وهم يبلغـون دين الله للبشرية.

لقد ذكر الله النماذج التفصيلية لهذا..

فذكر عن نوح عليه السلام أنه كـان صـريحاً جـداً في دعوتـه حين أعلن لقومه طريقته، قال تعالى: وَاتلُ عَلَيهِم نَبَأَ نُـوحٍ إِذ قَـالَ لِقَومِـهِ يَـا قَـومِ إِن كَـانَ كَبُـرَ عَلَيكُم مَّقَـامِي وَتَـذكِيرِي بِآيَـاتِ اللـهِ فَعَلَى اللـهِ تَوَكَّلتُ فَأَجمِعُوا أَمرَكُم وَ شُرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمـرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (يونس: 71)

واضح هنا أن الذي كبر على قوم **نوح** لم يكن قيام نـوح بعمـل انقلابي أو عدواني، وإنما كان ذنبه هو مقامه وتـذكيره بآيـات اللـه. ولهذا قال : إن كان هذا العمـل جريمـة في نظـركم فـإني أتحمـل تبعة عملي : فَأَجمِعُوا أَمـرَكُم وَشُـرَكَاءَكُم ثُمَّ لاَ يَكُن أَمـرُكُم عَلَيكُم غَمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ (يونس:71)

ومعنى هذا أن نوحاً عليه السلام استمر في دعوتـه الطويلـة اسـتمراراً سلمياً بحيث أنه رفض قومه هذه الدعوة وحاولوا أن ينالوا منـه لم يعزم على قتالهم إنما عزم على الصبر إلى أن يقتل هو.

ونفس هذا الأسلوب انتهجه **هود** عليه السلام من بعـده، قـال تعـالى : وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْـرُهُ أَفَلَا تَتَّقُـونَ (65) قَـالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَوْمِـهِ إِنَّا لَنَـرَاكَ فِي

سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (66) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68) (الأعراف)

انظر.. هناك عرَّض نوح نفسه للموت، أما هنا فإن هوداً ينصح ويبيِّن.. وهذا يعني أنه مازال يأمل بإيمان قومه.

ومن هذه المقارنة البسيطة، نعلم نجاح الدعوات لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التبليغ الكامل لآيات الله، سواء أقبلها الناس أم لم يقبلوها، مادامت في مرحلة التكوين.. لأن الذي لا يقبل الرأي عن طريق الإقناع، قد تتمكن أن ترغمه على رأيك بالقوة، إلا أنه سينقض عليك حتماً متى سنحت له الفرصة ليثبت لك أنه لم يؤمن بفكرتك.

وهذا نفسه ما حصل مع **موسى** عليه السلام قال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (23) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (25) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27) (غافر)

بعد هذه المحاورة يتدخل مؤمن من آل فرعون ليوضح أهداف موسى عليه السلام ويجعل منها التهمة الموجهة إليه، ويثبت أن تلك التهمة لا يجوز أن تؤدي به إلى القتل : وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا.. (29) (غافر)

لقد وضَّح الرجل المؤمن أهداف موسى عليه السلام ودافع عنها، واستطاع أن يؤكد للملأ المجتمعين أمام فرعون أن التهمة الموجهة لموسى عليه السلام لا يجوز أن تكون تهمة ! لأنها دعوة واضحة وأهداف سامية يدعو الناس إليها، ثم وضَّح هذه الأهداف بأنها انتقال من عبادة فرعون إلى عبادة الله.

فلو أن لموسى ذنباً غير قوله (ربي الله)، لما دخل الرجل المؤمن الميدان ليدافع عن موسى أمام أعظم طاغية على وجه

الأرض.

ولو نظرت في قوله تعالى على لسان فرعون :﴿.. ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)﴾ (غافر) لوجدت فيها معانٍ كثيرة ترشدنا إلى أهمية دعوة موسى السِّلميَّة، وترينا تأثيرها في نفوس الناس عامة، وفي نفس فرعون بصورة خاصة.. فلو أن فرعون استطاع أن يوجه تهمة القتل لموسى أو أنه استطاع أن يثبت أن لموسى ذنباً يدينه لما احتاج إلى أن يقول: (ذروني أقتل موسى)، أي أنه لما احتاج أن يلتمس رضا بطانته وموافقتها على تنفيذ حكم القتل على موسى.

ولكن موقف موسى عليه السلام البعيد عن كل التهم، دفع فرعون، مع غطرسته، أن يستشير بطانته في هذا الموضوع الذي أصبح خطيراً، لأنه واجه الضمير الإنساني ودخل إلى أعماقه على مشهد من فرعون وبطانته.

ففرعون، هذا الذي جُرِّد من كل مسوِّغ للقيام ضدِّ موسى لم يجد شيئاً يتَّهمه به، لذلك اضطر أن يواجه الحق بالباطل صراحة، فقد فُهِمَ من كلام فرعون على موسى أن آراء موسى وأفكاره خطيرة لأن مثل هذه الآراء قادرة على تغيير نظامه.

ومادام يبغي تغيير الأوضاع، فإن فرعون لا ينظر إليه بأنه يريد تغيير هذه الأوضاع بالقوة، وإنما ينظر لموسى بأنه قادر على تغيير هذه الأوضاع لأنه لا يجد في نظامه قوة تستطيع أن تواجه الأفكار التي يبيِّنها، وكذلك لا تستطيع مواجهة ضمائر الناس وعقولهم، التي كادت أن تقنع بأفكار موسى الربانية تاركة نظام فرعون الفاسد وراءها ظهرياً. لذا وجد فرعون أن استمرار هذه الأفكار يعني انهياراً لنظامه ودينه وبالتالي سقوطاً لحكمه، لذا طلب فرعون قتل موسى قبل أن يبلغ ذروة أهدافه.

إن الإحساس بقوة الحجة في نفوس الناس هو الذي حمل فرعون ويحمل كل الذين يخافون على نظمهم في كل مكان وزمان من قوة الحجة أكثر من خوفهم من قوة السلاح، بل إنهم يتمنون أن يحاربهم الدعاة ليبطشوا بهم دون تردد.

وإننا نرى أن كل الطواغيت عندما يريدون أن يحكموا على أي داعية يلجؤون إلى اتهامه بالإرهاب أو الاغتيال، فهم يفتشون دائماً في سجله التاريخي لعلهم يجدون فيه ما يدنيه.

وفرعون نفسه لم ينسَ أن يرجع إلى سجل موسى التاريخي

علَّه يتمكن من العثور على شيء يدينه به، فلم ينس أن يلوح أمـام الناس بفعلة موسى حيث قال :﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَـافِرِينَ (19) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)﴾ (الشعراء)

يريد بهذا أن القتل حدث من موسـى من الـوكز، أي أن القتـل حدث خطأ، وأن هـذا الأمـر ليس لـه علاقـة بالحـادث الجديـد وهـو الدَّعوة الجديدة التي هي موضع النزاع.

وهذا نفسه ما حصل مع **شعيب** عليه السلام.. قال تعالى يحكي قصـته مع من أرسل إليهم :﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَـالَ أَوَلَـوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَـا إِلَّا أَنْ يَشَـاءَ اللَّهُ رَبُّنَـا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ قَوْمِنَـا بِـالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (89)﴾ (الأعراف)

انظر.. إن هذا التهديـد من الملأ المسـتكبرين من قـوم شـعيب لشعيب بالإخراج من قريتهم أو الرجـوع إلى ملَّة قومـه، لم يكن إلا بسبب مفارقته لهذه الملـة أو إعلانـه لهـذه المفارقـة، ولهـذا كـان جواب شعيب حاسماً إذ قال بكـلِّ قـوة وجـرأة :﴿ قَـدِ افْتَرَيْنَـا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾

وهكذا كان **المسيح** عليه السلام.. قال تعـالى عنـه :﴿ وَيُعَلِّمُـهُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) وَرَسُـولًا إِلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ أَنِّي قَـدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (49) وَمُصَـدِّقًا لِمَـا بَيْنَ يَـدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِـلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُـدُوهُ هَـذَا صِـرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ (51) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَـالَ مَنْ أَنْصَـارِي إِلَى اللَّهِ قَـالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَـارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْـهَدْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ (52) رَبَّنَـا آمَنَّا بِمَـا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53)﴾ (آل عمران)

هكذا كانت دعوة المسيح عليه السلام.. جـاء بالآيـة من ربـه وشـهد هـو والحواريـون بـأنهم مسـلمون ومؤمنـون بمـا أنـزل اللـه، فمكـر الكافرون، ومكر الله، والله خير الماكرين.

قلت: أنا لا يعنيني كل من ذكرت من الأنبيـاء.. أنـا لا يعنيـني إلا

محمد.. ألا ترى أنه كان مختلفا عنهم؟

قال: لا.. ذلك يستحيل.. إن مجرد حكاية القرآن لتلك الأخبار كاف في تقرير الحقائق التي تحملها قصصهم.. لقد قال الله تعالى بعد ذكره للأنبياء ـ عليهم السلام ـ يخاطب رسوله ﷺ.. ويخاطب جميع هذه الأمة بخطابه :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)﴾ (الأنعام)

بالإضافة إلى هذا.. فقد تجلى السلام في حياة رسول الله ﷺ، وفي علاقاته في منتهى كماله..

لقد عبر الله تعالى عن هذا.. فقال :﴿ فَإِن تَوَلَّيتُم فَاعلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ (المائدة:92)

وقبل أن يتكون المجتمع الإسلامي المتميز لم يأمر رسول الله ﷺ أصحابه بشيء من أعمال العنف بالقتال أو القتل.. وإنما كان ذلك حين تكوَّن المجتمع المستقبل المتميز الذي خضع لحكام الإسلام وسيطر على المجتمع فنفَّذ أمر الله بهم وعليهم رعاية لما يقتضيه الحق والعدل.

سكت قليلا، فقلت: لقد ذكرت لي أن الآية تتحدث عن أساس من أسس العلاقات الدولية في الإسلام.. فهل وضع الإسلام لهذه العلاقات أسسا غير ما وضعه قومنا.

قال: قومك وضعوا للعالم علاقات أهلكته وتريد أن تبيده..

قلت: والإسلام؟

قال: الإسلام هو الوحيد الذي وضع العلاقات التي تحفظ السلام في العالم.

قلت: على ما تتأسس هذه العلاقات؟

قال: على أربعة أسس: التعارف، والتدافع، والتعايش، والشهادة.

التعارف:

قلت: فحدثني عن الأساس الأول.

قال: لقد عبر القرآن الكريم عن هذا الأساس، فقال ـ وهو يقرر الأساس الذي تقوم عليه العلاقات الاجتماعية ـ :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:13)

فهذه الآية الكريمة تقرر أن العلاقة التي ينبغي أن تربط البشر

فيما بينهم هي علاقة التآلف المؤسسة على التعارف(1).. وانطلاقا من هذا، فإن الإسلام لم يعتبر المخالفة في العرق واللون بين البشر في أيّ شيء، فكلّ الناس عند الله عزّ وجلّ، وفي نظر نظام الإسلام وقانونه، سواسية، لا فرق بين عربي وأعجمي، وبين تركي وأوروبي، أو بين أسود وأبيض، وبين أصفر وأحمر، إلاّ بالتقوى التي هي العمل بطاعة الله سبحانه وتعالى، رجاء رحمته ورضوانه، ومخافة عصيانه وعقابه..

ولذلك، فإنّ التمييز العنصري القائم على العرق واللون مما حرّمه الإسلام، واعتبره عصبية جاهلية منتنة.. ففي الحديث قال رسول الله ﷺ :(ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)(2).. وقال ﷺ : (من قاتل تحت راية عمّيّة، يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فَقِتْلَةٌ جاهلية)(3)

بالإضافة إلى هذا، فإن الإسلام أمر بحفظ ما أودع الله في البشر من تنوع.. فلذلك لم يقم المسلمون بأي نوع من أنواع الإبادة.. بل لم يخطر لهم ذلك على بال.

التدافع:

قلنا: عرفنا الأساس الأول.. فما الأساس الثاني؟

قال: لقد ذكر لي صاحبي أنه (التدافع)(4)..

قلنا: ما التدافع؟.. وما علاقته بالعلاقات العالمية؟

قال: لقد سألته عنه فقال: لقد عبر الله عنه، فقال :﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)﴾ (البقرة).. وعبر عنه في موضع آخر، فقال، وهو يبرر سر الإذن بالقتال :﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

1() استفدنا الكثير من المادة العلمية في هذا المطلب من مقال مهم للسيد أحمد إدريس المشهداني بعنوان (مفهوم التسامح بين الإسلام والغرب)

2() رواه أبو داود.

3()رواه مسلم.

4() استفدنا هنا من مقال مهم بعنوان: العولمة والعالمية في ضوء سنن الله الكونية، إبراهيم شوقار، مجلة التجديد / الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، السنة السابعة / جمادى الآخرة 1424هـ العدد الرابع عشر.

الْأُمُورِ (41)﴾ (الحج)

قلت له: أليس التدافع هو نفسه (صراع الحضارات) الـذي جـاء به (صامويل فلبس هنتنجتون)(2)؟

قال: الإسلام لا يأتي بالصراع ولا يدعو إلى الصراع..

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: أخبرني أولا عن مرادهم بصراع الحضارات.

قلت: لقـد عـبر عنـه (صـامويل فلبس هنتنجتـون)، فقـال:(إن شعور الانتماء إلى حضارة معينة سوف يكون له شـأن متزايـد في المسـتقبل، وسـوف يصـوغ العـالم إلى حـد كبـير التفاعـل بين حضارات ست أو سـبع هي الحضـارات التاليـة: الحضـارة الغربيـة، والحضـــارة الكونفوشيوســـية، والحضـــارة اليابانيـــة، والحضـــارة الإسلامية، والحضارة الأرثوذكسية، والحضارة اللاتينية ــ الأمريكيـة، وربما الحضارة الأفريقية.. والصراعات المهمة القادمة سوف تقوم على طول الخطوط الثقافية التي تفصل بين هذه الحضارات)

وهو يرى انطلاقا من هذا أنَّ الفروق بين الحضارات هي فـروق أساسـية تتلخص في التـاريخ واللغـة والثقافـة، وأهم الفـروق هـو الدين.. فالدين مركزي في العالم الحـديث، وربمـا كـان هـو القـوة

2()هو صامويل فلبس هنتنجتون (Samuel Phillips Huntington) (ولد 18 أبريل 1927) أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومـة المدنيـة، وبحوثـه في انقلابـات الـدول، ثم أطروحتـه بـأن اللاعـبين السياسـيين المركـزيين في القـرن الحـادي والعشرين سيكونوا الحضارات وليس الدول القومية. مؤخراً استحوذ على الانتباه لتحليله للمخاطر على الولايـات المتحـدة الـتي تشـكلها الهجـرة المعاصـرة. وهـو أسـتاذ بجامعـة هارفـارد. بـرز اسـم هنتنجتـون أول مـرة في السـتينات بنشـره بحث بعنـوان (النظـام السياسي في مجتمعات متغـيرة)، وهـو العمـل الـذي تحـدى النظـرة التقليديـة لمنظـري التحـديث والـتي كـانت تقـول بـأن التقـدم الإقتصـادي و الإجتمـاعي سـيؤدوا إلى قيـام ديمقراطيات مستقرة في المستعمرات حديثة الإستقلال.

في 1993، هنتنجتون أشعل نقاشاً مستعراً حول العـالم في العلاقـات الدوليـة بنشـره في مجلة فورين أفيرز (العلاقات الخارجية) مقالاً شديد الأهميـة والتـأثير بعنـوان (صـراع الحضارات) وهذه المقالة تناقضت مع نظرية سياسية أخرى متعلقة بديناميكيـة السياسـة الجغرافية بعد الحرب الباردة لصاحبها فرانسيس فوكوياما في كتابة (نهاية التاريخ) لاحقاً قام هنتنگتـون بتوسـيع مقالتـه إلى كتـاب، صـدر في 1996، بعنـوان (صـراع الحضـارات وإعادة صياغة النظام العالمي)، المقالة والكتاب عرضا وجهة نظـره أن صـراعات مـا بعـد الحرب الباردة ستحدث أكـثر وأعنـف مـايكون على أسـس ثقافيـة (غالبـاً حضـارية، مثـل الحضارات الغربية، الإسلامية، الصينية، الهندوكية..) بدلاً من الأسـس العقائديـة كمـا كـان الحال خلال الحرب الباردة ومعظم القرن العشرين. هذا التصنيف الثقافي سيصف العالم بطريقة أفضل من النظرة التقليدية للدول المختلفة ذات السيادة.

وخلص إلى القول بأنه لكي نفهم النزاع في عصرنا وفي المستقبل، الخلافات الثقافية يجب أن تُفهم، والثقافـة (بـدلاً من الدولـة) يجب أن يتم القبـول بهـا كطـرف وموقـع للحروب.. لذلك فقد حذر أن الأمم الغربية قد تفقد زعامتها إذا فشـلت في فهم الضـبيعة غير القابلة للتوفيق للإحتقانات المتنامية حالياً (انظر: الموسوعة الحرة)

المركزية التي تحـرك النـاس وتحشـدهم، وهـذه الفـروق الثقافيـة ليسـت قابلـة للتبـديل أو الحلـول الوسـط، ومـع تحديـد العلاقـات المختلطـة بمقيـاس ديـني أو إثـني فستنشـأ تحالفـات في صـورة متزايدة تستغل الدين المشترك والهوية الحضارية المشتركة، وبناءً على ذلك سيحدث صدام بين الحضارات.

ولما كان هناك صدام عسكري يمتـد عمـره قروناً بين الغـرب والإسلام فإنه ليس من المـرجح أن ينحسـر، وإذا أضـفنا إلى ذلـك التفاعل العنيف بين الحضـارة الغربيـة والحضـارة الكونفوشيوسـية فإنــه من الممكن أن ينشــأ تحــالف بين الحضــارتين الإســلامية والكونفوشيوسـية يهـدد الحضـارة الغربيـة، ويبشـر بظهـور صـدام حضارات بين الغرب والبقية THE WEST AND THE REST على حد تعبيره، وبنـاءً على ذلـك فإنـه يخـاطب الساسـة الغربـيين محـذراً: (على الغــرب أن يحــد من توسـيع القــوة العسـكرية لحضــارات معادية محتملة، خصوصاً الكونفوشيوسية والإسلام)

التفت إلي، وقال: هذا هو صراع الحضارات.. فما التدافع؟

قال: اللص لا يتصـور النـاس إلا لصوصـا.. ولا يتعامـل معهم إلا بمنطق اللصوصية.

قلت: لم أفهم.. ما مرادك من هذا؟

قال: التدافع سنة إلهية كونية قامت عليها حكمة الوجود الثنائي في الخلائق.. فالموجودات كلها متقابلة مزدوجة، كما قال تعــالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: 49)

وبما أن الأمر هكذا.. فإن منطق أهل السلام يستدعي التعامـل السلمي مع هذه الزوجية.

والتعامــل الســلمي يقتضــي التعــرف على أســباب التــدافع ومصادره.. وعلى صوره ومستوياته.. وعلى غاياته وأهدافه.

قلت: فحدثني عن **أسباب التدافع ومصادره**.

قال: يقوم التدافع أساساً على حكمـة اللـه في اختلاف النـاس كما يشير إلى ذلك قوله تعـالى :﴿ وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هـود: 118)، حيث يـبيّن القـرآن أن الاختلاف بين البشر، وهو أهم عنصر به يتحقـق الغـرض من وجـود الإنسان، ليس مناقضاً لطبيعته الإنسانية ولكنه معارض لوجوده في المجتمع مع ضرورته، لأنـه يفضـي إلى التنـازع والتـدافع، فيقتضـي تهذيبه بالضوابط.

ويقرر القرآن أن مصدر التدافع هو الإنسان نفسه الـتي ألهمهـا

الله فجورها وتقواها.. أي أنه مصدر داخلي، وليس خارجياً، لذلك يربط القرآن تدافع المجتمع بتدافع النفس ويجعل من ذلك سنة مطردة، فمتى تغيّر ما في النفس غيّر الله تعالى ما في المجتمع من حال قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: 11)

وهذا يدل على أن الإنسان نفسه هو المحرك لهذه السنة، ويكون فعل الله تعالى مطرداً مع فعله، الأمر الذي يقطع الحجة على الأمم في انحطاطها، ويدفعها إلى المشاركة الفاعلة في صياغة العولمة وتشكيلها وتفسيرها، لا أن تتخلف بحجة أن ذلك هو قضاء الله وقدره.

قلت: فحدثني عن **صور التدافع ومستوياته**.

قال: صور التدافع كثيرة.. ولكنها تتجلى في ثلاثة مستوياته رئيسة..

أما **أولها**، فهو التدافع في إطار النفس الإنسانية، وهذا هو الأساس والمصدر، وينشأ بسببه صراع داخلي في النفس بين نوازع الخير التي يباركها الله تعالى ونوازع الشر التي يولّدها الشيطان.. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الصراع بأساليب مختلفة وعرضه بصورة متعددة.. قال تعالى عن النفس الإنسانية: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: 8-10)

وينظم القرآن هذا المستوى من التدافع بمحاربة ما يسميه بـ (هوى النفس)، قال تعالى: ﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص:26)، وقال :﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (النازعات: 40-41)

وأما **الثاني**، فهو التدافع في ظل المجتمع الواحد، وهو مستوى تابع للأول، وبه ينشأ صراع بين الناس ولو كانوا تحت مظلة الإيمان، ولذلك ينظمه الشرع ببيان الحقوق ووضع الحدود.. وقد وضع القرآن الكريم مبادئ مختلفة حلاً لهذا المستوى من التدافع، بوصفه مبدأ للشورى، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأجمع هذه المبادئ هو مبدأ تحقيق العدل.. كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 90)

ومن أهم صوره: العدالة الاجتماعيّة في توزيع الـثروة والتـوازن بين الحقوق والواجبات، ودفع المظالم والطغيان.. أو كما عــبر عن ذلك ابن مسكويه بقولـه: (إن العدالـة موجـودة في ثلاثـة مواضـع: أحـدها قسـمة الأمـوال والكرامـات، والثـاني قسـمة المعـاملات الإرادية، كالبيع والشراء والمعاوضات، والثالث قسمة الأشياء الـتي وقع فيها ظلم وتعد)(1)

والعدل مطلوب في الإسلام، ولو مع الأعداء، كما يقـرره قولـه تعالى :﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْـدِلُواْ اعْـدِلُواْ هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة: 8)

وأمـا **الثـالث**، فهـو التـدافع الحضـاري بين الأمم أو الشـعوب المختلفة، والذي يشار إليه بـ (الصراع) أو (صدام الحضارات)، وهو في الواقـع ليس صـداماً في جميـع الأحـوال، وإنمـا ينقلب صـراعاً وصداماً عنـدما يخـرج عن ضـوابط القـانون الشـرعي أو الفطـري الذي تتحاكم إليه الأمم لتنظيم العلاقات بينهم.

ويتخذ هذا المستوى من التـدافع صـوراً مختلفـة.. ولـه تجليـات متعددة مثل: الكفر والإيمـان، الحـق والباطـل، القـوي والضـعيف، العدل والظلم، الاستكبار والاستضعاف.. وهو تابع بصـورة أساسـية للمبدأ الأول من التدافع، أي اختلاف الناس الذي يشـير إليـه قولـه تعالى :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ (يـونس: 99)

وهذا المستوى هـو الأهم في هـذه المسـتويات كلهـا في نظـر القرآن، لأن به تتميز المواقع وتتحـدد الـدرجات في الـدارين، وهي الغاية من قوله تعالى :﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَـا تُرْجَعُـونَ ﴾ (الأنبياء: 35)

والأصل في هـذا النـوع من التـدافع كمـا يقـرر الإسـلام هـو أن يكون بالحسنى، كما يشير إليه قوله تعـالى :﴿ وَلا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (فصـلت: 34)، وقولـه: ﴿ ادْفَـعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: 96)

وقد يكون التدافع بالمواجهة المسلحة لـدفع الظلم والطغيـان، ليحق الله الحق ويبطل الباطل، ويحصل النصر والتمكين، وهـو مـا يشير إليه قوله تعالى :﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَـا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنصُـرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: 40)

1()تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق،ص125.

ويرسم القرآن الكريم لتنظيم هذا المستوى من التدافع قواعد عامة، يمكن اعتبارها (أسس السلام في النظام الدولي)

منها تكريم الإنسان مطلقاً بصرف النظر عمّا يدين به من اعتقاد..

ومنها جعل التعارف الغاية من تفريق الناس إلى شعوب وقبائل..

ومنها تحريم البدء بالعدوان كما يقرره قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: 190)

ومنها الوفاء بالعهد، كما قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: 91)

وغيرها من المبادئ التي تحفظ السلام العالمي.

قلت: فحدثني عن **الغاية من التدافع**.

قال: إن غاية التدافع في القرآن الكريم هو الاتّجاه نحو التوازن بإحداث التغيير، لذلك فهو تابع لسنة الحركة الشاملة للوجود كله.. فالكون كله خاضع لسنة التغيير بطريقة أو أخرى، قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ ﴾ (القصص: 88)، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: 26-27)

فصور التدافع متعددة ولكن غايتها واحدة هي إيجاد توازن بشكل ما، مثل إظهار الحق الذي هو غاية التدافع بين الحق والباطل، ومثله التدافع بين القوة والضعف، والغنى والفقر، والسالب والموجب.

وأهم ملحظ في مسألة التغيير الاجتماعي من الوجهة القرآنية هو أنه مهمة جماعية ترتبط بها أسباب رقي الأمم أو انحطاطها، وجعل الله كل ذلك موقوفاً على فعل الإنسان وحركته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: 11).. فالإنسان هو الذي يبدأ في التغيير، وفعل الله يطرد وينعكس مع فعله.

التعايش:

قلنا: عرفنا الأساس الثاني.. فما الأساس الثالث؟

قال: لقد ذكر لي صاحبي أنه (التعايش)..

قلنا: ما التعايش؟.. وما علاقته بالعلاقات العالمية؟

قال: التعايش هو أن يعيش البشر جميعا ـ مهما كـانت ألـوانهم وأديانهم ـ في تآلف وأخوة ومودة..

لقد ذكـر اللـه ذلـك، فقـال :﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَـلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَـدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَـاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ وَظَـاهَرُوا عَلَى إِخْـــرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَـــوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)﴾ (الممتحنة)

الشهادة:

قلنا: عرفنا الأساس الثالث.. فما الأساس الرابع؟

قال: لقد ذكر لي صاحبي أنه (الشهادة)(1)..

قلنا: ما الشهادة؟.. وما علاقته بالعلاقات العالمية؟

قال: لقد سألته عنه فقال: لقد عبر الله عنه، فقال :﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الـدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْـلُ وَفِي هَـذَا لِيَكُـونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَـأَقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَـوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَـوْلَى وَنِعْمَ النَّصِـيرُ﴾ (الحج:78)، فهـذه الآيـة تـبين سـر الشـهادة وشـروطها وكيفيـة تحقيقها.

قلت: فما **سر الشهادة**؟

قال: لقد كان الصالحون يذكرون أربع مراحل لسير السـالكين:

أولها السير من النفس إلى الله، وهي رحلة البحث عن الله.

وثانيها: سير الإنسان من الله في الله، بحثا عن معرفة الله.

وثالثها: سير الإنسان مع الله إلى خلق الله.

ورابعها: سير الإنسان مع الله بين خلق الله، لإنقاذ خلق الله.

قلت: فأي سير منهـا يحقـق الشـهادة الـتي هي وظيفـة الأمـة ووظيفة ساستها.

قال: هي المرحلة الأخـيرة من سـير السـالكين.. وهي رحلتهم لإنقاذ خلق الله من عبودية الشيطان.

قلت: أهي الرحلة التي تسير فيهـا الجيـوش الـتي تفتح أقطـار الأرض، وتجعلها بأيدي المسلمين؟

1() تحدثنا عنها في محال مختلفة من رسائل السلام، وما نـذكره هنـا مختصـر ملخص من رسالة (مفاتيح المدائن)

قال: لا.. ليست هذه هي الشهادة.. الشـهادة أخطـر من هـذا.. والأمة التي يحكمها الإسـلام لا تبحث عن الاسـتيلاء على الأراضـي، وإنما تبحث عن الاستيلاء على العقول والقلوب.

وقد نصت النصوص القطعية على حرية الاعتقاد والتعبد، فلكـل ذي دين دينه ومذهبه، لا يُجبر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليـه ليتحول منه إلى الإسلام.

ولم تذكر النصـوص المقدسـة هـذه الأحكـام من بـاب التوجيـه فقط، بل ورد في النصوص ما يحيلها أمرا عمليا سـواء من الناحيـة النفسية أو من الناحيـة التشـريعية.. فـالإكراه لا يجـوز مطلقـا بـأي صفة كانت، فقـد ورد قولـه تعـالى:﴿ لَيْسَ عَلَيْـكَ هُـدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(البقرة:272) في سـياق ذكـر الصـدقات ونحوهـا من أنواع النفقات والصلات، وقد روى سـعيد بن جبـير مرسـلا في سبب نزول هذه الآيـة أن المسـلمين كـانوا يتصـدقون على فقـراء أهل الذمـة فلمـا كـثر فقـراء المسـلمين قـال رسـول اللـه ﷺ:) لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم(فنزلت هذه الآية مبيحة للصـدقة على من ليس من دين الإسلام.

وروى ابن عباس أنه قال: كـان نـاس من الأنصـار لهم قرابـات من بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبــة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب أولئك.

وبما أن مثل هذا الأمر لا تكفي فيه التشريعات الدينية، بقدر ما تؤسســه القناعــة الإيمانيــة والتوجيــه الــتربوي، وردت النصــوص القرآنية الكثيرة تخبر أن الإيمان نعمة من اللـه يهبـه لمن شـاء من عباده، وأن الإكراه لا ينتج المؤمنين، بل قد ينتج المنافقين.

فلهذا تعمق النصـوص في نفـوس المؤمـنين أن إكـراه النـاس على الإيمان تدخل في المشيئة الإلهية التي شـاءت هـذا الاختلاف، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًـا أَفَـأَنْتَ تُكْــرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُــوا مُــؤْمِنِينَ ﴾ (يــونس:99)، قــال ابن عباس:كان النبي ﷺ حريصا على إيمان جميع الناس، فـأخبره اللـه تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت لـه السـعادة في الـذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول(1).

وهي تخبرنا أن تبين الحق والضلال والرشد والغي كـاف وحـده للدلالة على الإيمان، فلا حاجة لوسيلة أخرى، قال تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين، قـد تـبين الرشـد من الغي﴾(البقـرة: 256) وكـأن هـذه

1(1) القرطبي:3/337.

الآية تحث المؤمن على أن يكون نموذجا للرشد، فذلك وحده كاف للهداية إلى الحق.

وهي تخبر أن الهداية نعمة إلهية يهبها الله تعالى لمن يشاء من عباده، فهو الذي يشرح لها الصدور، قال تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾(النساء:272)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(الكهف:56)، وقال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾(يونس:100)

وهي تخبر أن الهداية مصلحة شخصية، والضلال مضرة شخصية، ودور المؤمن هو الدعوة للمصلحة والتنفير من المضرة، لا الإلزام بذلك، قال تعالى:﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾(يونس:108)وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(الزمر:41)

وهي تخبر أن دور المؤمن هو الدعوة لا السيطرة على من يدعوه أو إكراهه، قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (عبس:21)

وهي تخبر أن الإيمان والكفر حرية شخصية تتبع مشيئة صاحبها لا الإلزام الخارجي، قال تعالى: ﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(الكهف:29)

قلت: عرفت هذا ووعيته.. ولكني لا أزال أتساءل عن سر الشهادة التي هي وظيفة هذه الأمة نحو سائر الأمم.

قال: الشهادة تتحقق بأن تكون الأمة نموذجا صالحا تهتدي بهديها الأمم، بل تحن لسلوك سبيلها.

قلت: فكيف تتحقق هذه الشهادة في منتهى كمالها؟

قال: بأربع وظائف كبرى تشترك الأمة مع أولي أمرها في تحقيقها.

قلت: فما أولها؟

قال: **القوة**.

قلت: تقصد امتلاك الأمة لأنواع أسلحة الدمار الشامل.

قال: أقصد امتلاك الأمة لأنواع ما يتطلبه السلام الشامل.

قلت: فما يتطلب السلام الشامل؟

قال: يتطلب تحقق الإنسان والمجتمع والأمة بأرفع مراتب الكمال الممكن.

قلت: في أي مجال؟

قال: في كل المجالات: المعرفية، والخلقية، والمرافقية.

قلت: فما الوظيفة الثانية التي تتطلبها الشهادة؟

قال: **العدل**.

قلت: العدل مع الرعية؟

قال: لا.. العدل مع العالم.. فالعدل الحقيقي لا يعرف تنوع المكاييل، ولا يفرق بين الأمم.. قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:8)، أي لا يحملنكم بُغْض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوًا.

قلت: ولكن كيف تؤمرون بهذا، وأنتم تؤمرون في نفس الوقت ببغض الكافر؟

قال: لقد أمرنا ببغض كفره، لا ببغض لحمه ودمه وروحه.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: الفرق بينهما عظيم.. هو كالفرق بين بغض الطبيب لمريضه، وبغضه لمرضه.. فهل ترى من فرق بينهما؟

قلت: لا شك في ذلك.. فالطبيب إن أبغض المريض منعه نصحه، بل لعله يحب استمرار المرض به.. أما إن أبغض مرضه، فإنه يتوسل بكل ما لديه من صنوف العلاج ليريحه من علته.

قال: فكذلك أمرنا أن نفعل.. وبذلك يكون العدل.. فالعدل ينطلق من منابع النفس الطاهرة، وليس مجرد طلاء يتلاعب به القضاة والمحامون في محاكمكم.

لقد قال ﷺ يقرر هذا:(دعوة المظلوم ـ وإن كان كافرًا ــ ليس دونها حجاب)(1)

قلت: فما الوظيفة الثالثة التي تجعل من هذه الأمة شهودا عدولا على الأمم من حولنا؟

قال: **الرخاء**.

قلت: هل الإسلام يأمر بالترف؟

قال: الترف رخاء الطغاة المتجبرين.. والرخاء ترف العبيد

1() رواه أحمد.

المتواضعين.

قلت: فكيف يكون وظيفة من وظائف الشهادة؟

قال: كيف يستطيع مدرب النمور والأسود أن يتسلط على قوى السبعية في النمر والأسد ليوجهها إلى اللعب واللهو.. فيجعل من ذلك الذي يخافه الناس على نفوسهم وسيلة رزقه التي يحافظ بها على حياته؟

قلت: ما أسهل ذلك لقد عرف شهوات النمر والأسد، فراح يتلاعب به من خلالها.

قال: فكذلك من يحيط بكم من الأقوام، استعبدتهم الدنيا.. فلا يقادون بمثل نظرهم إليهم.. أو نظرهم لمن يملكها.

قلت: فما الوظيفة الرابعة من وظائف الشهادة؟

قال: **السماحة**.

قال: ما السماحة؟

قال: هي التطبيق الإيماني لقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ(البقرة:256)

إن هذه الآية صريحة بأنه لا إكراه ولا قهر في اعتناق الدين، وإنما ذلك متروك لعقل الإنسان وتفكيره غير المأسور لتعصب أو هوى أو تقليد أو حظ نفس.. فمن شرح الله صدره للإسلام دخله، ومن ختم على سمعه وبصره، ترك وشأنه دون قسر على الدين.

ولهذا اعتبر الإكراه على الإسلام من الذنوب.. واعتبر المكره على الإسلام غير مسلم.. لأن الإسلام لا يكون إلا عن قناعة.

وقد روي في سبب نزول الآية السابقة أن المرأة التي كانت لا يعيش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا (أي لا ندعهم يعتنقون اليهودية)، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك(1).

انظر..

رغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم في دينهم وقوميتهم، ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كان يسود العالم كله حينذاك من موجات الاضطهاد للمخالفين في المذهب، فضلاً عن الدين، كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيَّرت رعاياها حينًا بين

1() رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن حيان في صحيحه، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم أنها نزلت في ذلك، انظر: ابن كثير: 1/310.

التنصر والقتل، فلما تبنت المذهب الملكاني أقـامت المـذابح لكـل مَن لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم.

رغم كل هذا، رفض القرآن الإكراه (1)..

لقد قال القـرآن في آيـة أخـرى: وَلَـوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُـؤْمِنِينَ (99) (يونس)

ويذكر القرآن عن نوح، وهو نبي من الأنبياء العظام.. وقـد أمـر القرآن بالاقتداء بالأنبياء: قَالَ يَا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَـانِي رَحْمَـةً مِنْ عِنْـدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَـا وَأَنْتُمْ لَهَـا كَارِهُونَ (هود:28)

وقال: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِـهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الزمر:41)

وقال: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الشورى:6)

وقال: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (قّ:45)

وقال: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (الغاشية:22)

وقال: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَـاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـاً وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الأنعام:107)

وقد قصرت الآيات دعوة الرسول والذين معه على البلاغ: مَـا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَـا تَكْتُمُـونَ (المائـدة: 99).. فَـإِنْ أَعْرَضُـوا فَمَـا أَرْسَـلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظـاً إِنْ عَلَيْـكَ إِلَّا الْبَلَاغُ (الشورى: من الآية48)

ففي هذه الآيات تصريح بـأن دور محمـد والـذين معـه مقصـور على التبليغ لا أزيد من ذلك، وأنه أرسل مبلغـاً، ولم يُرسـل حفيظـاً عليهم، مسؤولاً عن إيمانهم وطاعتهم، حتى يمنعهم عن الإعـراض، ويتعب نفسه لإقبالهم عليه.

وهذا الوعي يجعـل المسـلم يعامـل الآخـر بمـا تتطلبـه الأخلاق والقيم من غير أن يؤثر فيه مـا يـرى عليـه الآخـر من انحـراف عن منهجه.

***

بعد أن حدثنا صاحبنا عن أحاديث صاحبه.. سـألناه: فكيـف بـدا لك أن تفارقه؟

1() غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، يوسف القرضاوي، بتصرف.

قال: لقد ذكرت لكم أنه سمع نبأ الفتنة التي تريد أن تستأصــل المسلمين.. فجاء لينقذ إخوانه منها.. ولم أجد بعد أن فارقني إلا أن أبحث عنه.. ولكن قدر الله أبى إلا أن يضعني في هذه الحفرة التي كنت حفرت مثلها كثيرا لكل من توهمتهم أعداء لي.

تاسعا ـ الكون

في اليوم التاسع، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليـوم أنـا عن حديثي.. أنا رجل ولد حيث توجد أضـخم غابـة مداريـة مطـيرة في العـالم.. غابـات الأمـازون(1).. وحيث يوجـد نهـر من أكـبر أنهـار العالم(2).. نهر الأمازون..

في تلـك الميـاه.. وبين تلـك النباتـات المتنوعـة.. والحيوانـات الكثيرة(3).. ولدت ونشأت وتربيت..

وقد امتلأ قلبي بحب كـل مـا حـولي حـتى صـرت لا أفـرق بين الإنسان والمياه والأشجار والأزهار وأي حيوان أليف أو متوحش..

لقد ملأت طبيعة الأمازون الجميلة أركـان قلـبي.. فكنت أسـبح فيها ربي من غير أن أشعر.. ربما كمـا تسـبحه الطيـور بتغاريـدها.. والأزهار برحيقها.. والمياه بخريرها.. وذلك النسيم العليم بهبوبه كل حين حاملا روح الحياة إلى أنفاسنا وحياتنا.

كنت أحيانا أصعد قمم الأشجار العالية(4) الـتي كـانت تملأ أرض الأمازون.. وأتأمل الطبيعـة الجميلـة الـتي اختلـط فيهـا كـل جميـل وتناسق.. فأشعر بأن تلـك الأرض بغاباتهـا ومياهها هي رئـة الأرض التي منها تتنفس، وبها تحيا..

لم أكن أتصور في يوم من الأيـام أن من البشـر من يفكـر في أن يغـير على رئــة الأرض ليطعنهــا برماحــه.. ويقتــل الأرض من خلالها.. لكني رأيته.. وعشت معه معارك عنيفـة.. سـأحدثكم عنهـا

1() تعتبر غابة الأمازون المطيرة أكبر غابـة اسـتوائية مطـيرة في العـالم، تغطي نحـو 5,2 مليون كم^2 من حوض نهر الأمـازون في أمريكـا الجنوبيـة. يقـع ثلثـا الغابـة المطـيرة تقريبًا في البرازيل. كما تحتل الغابة المطيرة أيضًا أجـزاء من بوليفيـا، وبـيرو، وإكـوادور، وكولومبيا، وفنزويلا، وغايانا، وسورينام وغيانا الفرنسية. يتراوح معـدل المطـر سـنويًا بين 130 و445سم، ويبلغ معدل الحرارة حوالي 27°م..

2() يعتبر نهر الأمازون ثاني أطول أنهار العـالم بعـد نهـر النيـل، وأهم نهـر في أمريكـا الجنوبية. يبلغ طول نهر الأمازون 6,437كم ويحتوي على كمية من الماء أكثر من أي نهر آخر ـ أكثر من أنهار المسيسيبي والنيل وياتجتسي مجتمعة.

3() تضم غابة الأمازون المطيرة تشكيلة واسعة من النباتات والحيوانـات أكـثر من أي مكان في العالم، حيث تعيش فيهـا عشـرات الآلاف من أنـواع النباتـات المختلفـة هنـاك. يحتـوي الهكتـار الواحـد من أرض الغابـة المطـيرة على 280 نوعًـا أو أكـثر من الأشـجار المختلفة. ويوجد العديد من النباتـات الاقتصـادية المهمـة في الغابـة المطـيرة. وهي تنتج الجوز البرازيلي والكاكاو، والكورار (عقّار مهم) والأناناس والمطـاط. يسـتوطن أكـثر من 1,500 نوع من الطيور الغابة المطيرة. كما تحتـوي أنهـار المنطقـة على حـوالي 3,000 نوع معروف من الأسماك، وبالإضافة إلى ذلك، يعتقد العلماء أن في الغابة مـا يقـرب من 30 مليونًا من الحشرات المختلفة..

4() ترتفـع بعض الأشـجار في الأمـازون، وتُـدعى الشـواهق فـوق بقيـة أشـجار الغابـة ويصل ارتفاعها إلى 50 مترًا، كما يرتفع الغطاء العلـوي للأشـجار إلى ارتفـاع يـتراوح بين 20 و50 مترًا.

اليوم.. وسأحدثكم كذلك عن ذلك الرجل الذي جئت من أجلـه إلى هذه البلاد.. والذي كان سبب إنقاذي من مـوت محتم كـان يـتربص بي.. وكان سبب ذلك في ملأ قلبي بالأمل في انتصار السـلام على الصراع.. وانتصار الخير على الشر.. وانتصار الحياة على الموت.

الصراع

في ذلـك اليـوم وصـلتنا أول جريـدة.. لسـت أدري تاريخهـا بالضبط.. فقد كنا نعيش الطبيعة المحضة.. والطبيعة كانت تفـرض علينا أن نعيش من دون أن نعرف كم عشنا، وكم بقي لنا..

لم نكن حينها نعرف الجرائد مع أننا كنا نتقن القراءة والكتابـة.. فلذلك حملت تلك الجريدة إلى قمـة من قمم الأشـجار الـتي كنت أعشقها.. ورحت أقلب صفحاتها بلهفة وشوق..

لكـني مـا إن قلبت بعض صـفحاتها حـتى هـالتني أرقـام كثـيرة كادت تسقط بي من قمة تلك الشجرة العالية(1):

لقـد قـرأت أن إنتـاج الحبـوب انخفض في إفريقيـا لكـل فـرد بمعـدل 28 بالمائـة في السـنوات الخمس والعشـرين الماضـية.. وأن إثيوبيا فقدت 90 بالمائة من غاباتها منذ عـام 1900م، الأمـر الـذي مكن مليـار طن مـتري من التربـة الفوقيـة من الانجـراف سنويا.. وأن حيوانات استراليا الأصلية تواجـه الانقـراض، وكـان قـد انقرض 28 بالمائة من حيواناتها الأصيلة.. وأن الحيـاة البحريـة في الخليج العـربي تحتـاج 180 عامـا كي تتخلص من عشـرة ملايين برميل من النفط التي انسكبت أثناء حرب الخليج.. وأن 10 بالمائة من الأنهـار المنتشـرة في أنحـاء العـالم تعـد ملوثـة، كمـا تلتقـط المحيطات 6.5 مليون طن من النفايات سنويا.

وفوق ذلك قرأت أن الدراسات تتوقع أنه بحلول عـام 2025 م ستنفث البلدان النامية في الهواء أربعة أضعاف كمية ثـاني أكسـيد الكربون التي تنفثهـا الـدول المتقدمـة اليـوم، كمـا يتوقـع أن تفقـد الأرض أكثر من 25 بالمائة من الأجناس الموجودة حاليا.

وقرأت بأن الإنسان في دول الشمال يستهلك من المياه ويولد من الملوثات بما يزيـد عن عشـرين ضـعفا عن المـواطن في دول الجنوب.. وأن التلوث الذي يسببه مواطن أمريكي واحد يزيـد على ذاك الذي يسببه مواطن عادي من دول العالم الثالث بعشرين إلى

1()هذه الإحصـاءات ذكـرت في المـؤتمر العـالمي الثـاني للأمم المتحـدة حـول البيئـة والتنمية عام 1992م، والذي عقد في ريودي جانيرو في البرازيل، وقد اجتمع فيه ثلاثـون ألف مشارك بما فيهم مئة زعيم.

مائة مرة، ويماثل استهلاك الأمريكي الواحـد للطاقـة مـا يسـتهلكه ثلاثة يابانيين، أو ستة مكسيكيين، أو 13 صينيا أو 35 هنديا أو 153 بنغلادش أو 499 إثيوبيا.

وقرأت أن الإحصاءات تشير إلى أن العالم قـد خسـر في عـام واحد فقط، حوالي 36 نوعـا من الحيوانـات الثديية، 94 نوعـا من الطيور بالإضافة إلى تعرض 311 نوعـا آخـر للخطـر، أمـا الغابـات فهي في تناقص مستمر بمعدل 2 بالمائة سنويا نتيجـة الاسـتنزاف وتلوث الهواء المنتج للأمطار الحامضية، وكذلك التربة فإنها تتناقص باستمرار بمعدل 7 بالمائة من الطبقة العليا كل عقد، وذلك بسبب الانجراف والتآكل بشكل مستمر نتيجة الإنهاك المسـتمر بالزراعـة الكثيفة أو الري الكثيف، مما يؤدي إلى ملوحة التربة وتصحرها.

وقرأت أن استخدامات الميـاه السـيئة تـؤدي إلى نـدرة الميـاه ونضوبها، عدا عن الانخفاض الطبيعي الحاصل في منسـوب الميـاه في باطن الأرض، الأمر الذي يهدد البشرية بخطر حقيقي.

وقـرأت(1) أنـه في عـام 1990 م عـثر على 30000 طن من النفايـات السـامة مكدسـة بـالقرب من مينـاء سـيهانو كفيـل في كمبوديا، ويلقي مجمع ماريتسا للطاقة في بلغاريا سنوياً 350 ألف طن من غازات ثاني أكسيد الكبريت الحمضية في نهر ماريتسا.

وقرأت أن النفايات الزئبقية في بحـر اليابـان تسـببت مـا بين (1953 – 1967 م) في وفاة العديد من الأشخاص، وإصـابة 20 ألف شخص بأضرار صحية.

وقرأت أنـه في عـام 1986 م تـدفق 30 طن من الكيماويـات في نهر الراين بسويسرا، مما تسـبب في قتـل 500 ألـف سـمكة تقريبـاً، ومعـدل الصـيد في البحـر المتوسِّـط انخفض بنسـبة 70 بالمائة، بسبب أن 85 بالمائـة من ميـاه المجـاري لمـا يقـرب من 120 مدينة ساحلية تصـب فيـه، دون معالجـة، إضـافة إلى نفايـات نحو 100 مليون سائح.

وقرأت أنـه في عـام 1984 م مـات أكـثر من 6300 شـخص بتأثير سحابة سامة من مصنع كارباید للمبيدات الحشرية في بوبال بالهنـد. في عـام 1990 م تسـبب حريـق في مصـنع كيمـاوي في كازاخستان في إطلاق سحابة سـامة امتـدت إلى الصـين أكـثر من 300 كم.

وقرأت أن الجوّ يتلوث سـنوياً بــ (350) طن من أول أكسـيد

1()من كتاب جينيس للأرقام القياسية / طبعة 2000 م.

الكربون المنبعث من عوادم السيارات، وهـو أخطـر الغـازات على الصحة، فإذا استنشق وتغلغل في الدم، عطل الأوعية الدموية مما يسبب الوفاة.

بعـد أن قـرأت تلـك الإحصـائيات.. امتلأت حزنـا.. ورحت أبحث عن كيفية مواجهة هؤلاء المجرمين الذي يريدون أن يخنقوا الأرض، ويقتلوا البراءة التي لم يجرؤ أحد على مدار التـاريخ على أن يفكـر في أن يفعلها..

***

ذهبت في أعمـاق تلـك الغابـات البريئـة.. حيث كـان لي فيهـا صديق عاش كعيشتي، وأحب الطبيعة كحبي لهـا.. وكـان مـع ذلـك حريصا عليها حرصا لا يقل عن حرصي عليهـا.. والفـرق بيننـا أنـني آثـرت أن أعيش الطبيعـة.. أمـا هـو فـآثر أن يقـوم بالـدفاع عنهـا.. ولذلك لم يكن يهدأ له بال.. ولا يستقر به جسم.. لقـد كـان يرحـل كل حين.. ولكل محل.. مبشرا ونذيرا.

في ذلـك اليـوم التقيتـه في أوج نشـاطه.. فقـد دعـا نفـرا من أصحابه من بلاد مختلفة كان لهم من الحرص على الطبيعة ما لـه.. وكلهم كان يرتـدي الأخضـر.. يرمـز بـه لحبـه للطبيعـة ونضـاله من أجلها.

عندما رآني صاحبي استقبلني، والتزمني، ثم عرفني بأصدقائه، وعرفهم بي..

وعلى ثرى تلك الغابة جلسنا مجلسـا ربمـا لم أجلس مثلـه في حياتي.. لكأنه كان مأتما.. لقد بلغـني في ذلـك المجلس من أخبـار الصراع التي يواجه بها الكون ما لم أسمع بمثله في حياتي.

بدأ أحدهم الحديث، وقـال: تعرفـون اهتمـامي بـالهواء، ولـذلك سـأحدثكم عنـه.. سـأحدثكم عن ذلـك الـركن الـركين من أركـان الأرض(1)..

أنتم تعلمون أن الهواء الذي فوق الأرض مكون من الأوكسجين والنتروجين والأرجون والنيون والكنسـيون والكريبتـون، وهويحتـوي بخار الماء، وثاني أو كسيد الكربـون بنسـبة 100/3 من 1 بالمائـة، أو نحوثلاثة أجزاء من 10000.

بالإضـافة إلى الغـازات النـادرة الـتي تظهـر نفسـها في شـكل الألـوان الحمـراء والزرقـاء والخضـراء بلافتـات الإعلان.. ويوجـد

1() اقتبسنا بعض الحوار الوارد هنا من رسالة (رقيـة الجسـد) من سلسـلة (ابتسـامة الأنين)

النتروجين بنسبة 78 بالمائة تقريباً في الهواء، في حين تحدد نسبة الأوكسجين عادة ب21 بالمائة.

وتعلمون أن الأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الحيوانات التي فوق الأرض.. ومن رحمة الله أن هذا العنصر ذا النشاط البالغ من الوجهة الكيماوية قد أفلت من الاتحاد مع غيره وترك في الجوبنفس النسبة تقريباً، اللازم لجميع الكائنات الحية.. فلوكان الأوكسجين بنسبة 50 بالمائة مثلاً أو أكثر من الهواء بدلاً من 21 بالمائة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر.

أنتم تعلمون كل هذا.. وأنا لم أرد أن أحدثكم عنه.. بل أردت أن أحدثكم عن المجرمين الذين يريدون أن يتلاعبوا بهذه الثروة الأرضية الضخمة.. إنهم يريدون بجشعهم وحرصهم أن يخنقوا الأرض، ويستلوا منها روح الحياة مقابل حضارة تافهة حقيرة مليئة بالشذوذ.

قلنا له: لقد أخفتنا.. ما الذي حصل؟

قال: حصلت المصيبة والطامة التي لو استمرت.. فإن الأرض لن يبقى لها هذا الوجود الحي الذي ترونه.

سأضرب لكم أمثلة ربما تقرب لكم الخطر الذي يهدد هواء الأرض.. هواء الأرض الذي صار لعبة بيد المجرمين:

أنتم تعرفون ثاني أكسيد الكربون.. ذلك الهواء الذي يدخل الجو من زفر الحيوانات والنباتات ومحاصيل الاحتراق؟

قلنا: نعرفه.. ماذا حصل له؟

قال: لقد عدلت هذه الحضارة المخربة من مقاديره تعديلا كبيرا، فزاد محتوى الجو من هذا الغاز بمعدل 25 بالمئة في القرن الأخير، وهو مستمر في الزيادة من جراء ما يقوم به الإنسان من حرق وقود المستحاثات، وقطع أشجار الغابات وأعشاب المروج، مما يزيد من إنتاجه، ويقلل من استهلاكه.

سكت قليلا، ثم قال: ليس هذا فقط.. الأوزون أيضا مسه التخريب.. لا شك أنكم تعرفون الأوزون..

قال أحدنا: أجل.. إنه ذلك الشكل من الأكسجين المؤلف من ثلاث ذرات (3 O)، وهو غاز عجيب، فهو في طبقات الجو الدنيا مادة مهيجة مخرشة للأغشية المخاطية، ولا سيما في جهاز التنفس، وهو في طبقات الجو العليا مادة حافظة واقية بسبب

قدرتـه الامتصاصـية القويـة للأشـعة فـوق البنفسـجية الآتيـة من الشمس ؛ فهو يستبعد معظم الإشعاع فوق البنفسجي الـذي تقـل أطول موجاته عن 310 نـانومترات، وهـو الإشـعاع الـذي يمكن أن يخرب المادة الحية.

قال: والأوزون يتولد في طبقات الجو العليا عندما يتم امتصاص الأشعة الشمسية القصيرة الموجـه من قبـل الأكسـجين الجزيـئي، ولكنه يتحول ثانية إلى هذا الأكسـجين الجزيـئي في تلـك الطبقـات الجويـة العليـا نفسـها بفعـل التفـاعلات الكيميائيـة الضـوئية الـتي يحفزهـا عـدد من الغـازات ولا سـيما النتريـك (NO) وثـاني أكسـد النــتروجين (NO2) والكلــور (Cl) وأكســيد الكلــور (ClO) وتــزداد مقـادير الحفـازات النتروجينـة بزيـادة انطلاق الغـازات من عـوادم محركات الطائرات التي تحلق في الجو العلوي، وبزيادة اسـتعمال الأسـمدة الآزوتيـة، كمـا تـزداد مقـادير الحفـازات الكلوريـة بزيـادة استعمال الغازات المحتوية على الكلور ولا سيما الفلوروكربونيـات CFCl3 وCF2 Cl3، وهي ثابتة في الطبقات الجوية السفلى، ولكنها سرعان ما تتفكك في الطبقات الجوية العليا بفعـل الإشـعاع فـوق البنفسيجي مطلقة كلورها الفعال.

وهذا كله وغيره يعـرض الأحيـاء جميعـاً بمـا فيهـا الإنسـان إلى الآثار المضرة للأشعة فوق البنفسجية.

قال السائل: ولكن الأوزون يوجد في الأصل في مستوى صعيد الأرض من جراء تسلله من الطبقات الجوية العليا.

قال: ولكن بتراكيز غير مؤذية (10 ــ 30 جزء بالبليون)، ولكن الحفازات النتروجينية الـتي تفككـه في الجـو العلـوي تسـاعد على توليــده في الجــو الســفلي، ولا ســيما تلــك الأكاســيد الآزوتيــة والهدروكربونيات التي تصدرها عوادم السيارت، فتبدأ آثاره الضاره بزيـادة هجمـات الربـو(عنـدما يبلـغ 150 جـزءاً بـالبليون) وتهـييج الحنجـرة (300 بـالمليون) بالإضـافة إلى تخريبـه وتـأخيره لنمـو النبات.

قال السائل: هذا صحيح.. والبشرية تشكو في هـذا العصـر من كثرة هذه العلل.

قـال: ليس هـذا فقـط.. لقـد ذكرنـا الأشـعة فـوق البنفسـجية، فلنـذكر نوعـاً آخـر من الإشـعاع الشمسـي ألا وهـو الأشـعة تحت الحمـراء، وهي أشـعة تسـقط من الشـمس على سـطح الأرض، فيمتصـها، ثم يعيـد إصـدارها إلى الأعلى، فيمتص معظمهـا ثـاني

أكسيد الكربون وبخار الماء اللذان في الجو، ثم لا يلبثـان أن يعيـدا إصدارها في اتجاه الأرض وفي اتجاه الفضاء الخارجي.

وهكـذا يقـوم بخـار المـاء وثـاني أكسـيد الكربـون بـدور ملاءة تحافظ على دفء سطح الأرض، وتعرف هذه الظاهرة إجمالاً بتأثير الدفيئة (البيت الزجاجي)

واحـتراق الفحم والنفـط والغـاز- ولاسـيما في المـدن- يزيـد محتوى الهواء من ثاني أكسيد الكربون، فيرفع درجة حرارة الهـواء الموضعية، ويزيد من درجة حرارة العالم على وجه الإجمال، مخلاً بالميزان الحراري الذي يضمنه سقوط الأشـعة تحت الحمـراء، من الشمس وانعكاساتها المتكررة بين الأرض والجو.

قال السائل: فنسب الهواء في الجو معرضة لخطر شديد؟!

قـال: لا.. ليسـت معرضـة فقـط.. بـل هي تعيش في خطـر شديد.. وإذا لم تنتبه البشرية، وظلت تجري لاهثـة وراء مـا تسـميه حضارة، ستقوم الأرض بأعظم إضراب في تاريخها.

قال السائل: إضراب؟!

قال: أجل ستخلع الأرض هذا الغلاف الغازي لتذيقنا بعده الفناء.

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلك فقط.. بل إن الكثير من المدن الكبرى معرضة الآن لجو خـانق فظيـع، سـيرمي أهلهـا في بطـون المستشفيات أو بطون المقابر..

إن تلوث المدن ما زال في ازدياد مستمر، فوسـائل النقـل من سيارات وشاحنات تنفث عوادمها أكثر من نصف (56 بالمائـة) مـا يـدنس الهـواء، ثم من طـائرات وقطـارات وبـواخر في أمـاكن وجودها..

ويلي وسائل النقل في الأهمية مصادر الاحتراق الأخرى الثابتـة مثـل محطـات توليـد الطاقـة الكهربائيـة وأجهـزة التسـخين (22 بالمائة)، تليها المصانع المختلفـة (15 بالمائـة) ثم حرائـق الغابـات ومحاصيل المزارع (5 بالمائة) ثم محاصيل ترميد الفضلات الصـلبة (2 بالمائة).

قال أحـد الحاضـرين: فمـا هـذه العناصـر الغريبـة الـتي تجتـاح مدننا ؟

قال: بكل أسـف.. هي كثـيرة.. ولكن أهمهـا سـتة: أول أكسـيد الكربـــون، والجســـيمات المعلقـــة، وأكاســـيد الكـــبريت، والهدروكربونيات الغازية، وأكاسيد النتروجين، والأوزون.

ويقدر ما ينطلق، في الهواء فوق الولايات المتحـدة وحـدها من

هذه الأصناف بمئة وأربعة وتسعين مليون طن متري.. وثمة صنف سابع من المدنسات يضم المواد السامة الخطرة التي تنفثها في الهواء بعض المصانع لخاصة.

قال السائل: فما أول أكسيد الكربون؟.. وما مصدره؟

قال: هو ذلك الغاز السام المشهور، ومصدره الرئيسي هو الاحتراق غير الكامل للوقود الكربوني، ولا سيما في السيارت.

قال السائل: فما الجسيمات المعلقة في الهواء؟.. وما مصدرها؟

قال: هي جسيمات صلبة أو سائلة، يتراوح حجمها بين ما يمكن من دخان وسناج أو هباب، وبين ما لا يرى إلا بالمجهر الإلكتروني.. وهذه الجسيمات الدقاق يمكن أن تبقى معلقة في الجو مدداً طويلة، وأن تحمل إلى مسافات بعيدة تذروها الرياح.

ومصادرها الرئيسية أجهزة احتراق الوقود الثابتة، كأجهزة التدفئة وتوليد الطاقة، التي تنتج جل الجسيمات المرئية، كما تنتج جزءاً كبيراً من الغازات غير المرئية التي لا تلبث أن تتحول إلى ضبائب، وتنضم إلى ذلك ذريرات الرمل والحصى والأسمنت، مما يبقى عالقاً، ويمكن أن يحمل إلى مسافات بعيدة، ويعيش أكثر من بليون نسمة في مناطق يتجاوز التلوث بالجسيمات فيها الحدود التي تسمح بها منظمة الصحة العالمية.

قال السائل: فما الأكاسيد الكبريتية.. وما مصدرها؟

قال: أهمها ثاني أكسيد الكبريت، وحمض السلفوريك (الكبريتيك)، وسائر مركبات السلفات، وهي تصدر من الوقود الكربوني وجله ملوث بالكبريت، كما تصدر من بعض أنواع المصانع.

وتدل بعض المعلومات التي جمعتها منظمة الصحة العالمية وبرنامج البيئة العالمي عام سبعة وثمانين، على أن أكثر من ستمئة مليون إنسان، يعيشون في مناطق حضرية، معدل التلوث فيها بثاني أكسيد الكبريت يفوق المقادير التي تسمح بها المنظمة.

قال السائل: فما الهدروكربونيات الغازية.. وما مصدرها؟

قال: هي غازات غير سامة في حد ذاتها، وبالمقادير التي توجد بها، ولكنها تعتبر من أهم مدنسات الهواء لدورها في تشكيل الأوزون وسائر المؤكسدات.

وجل هذه الغازات ينطلق في المناطق الحضرية، حيث توجد مصانع تلميع المعادن، ومعامل الدهانات، والمطابع، ومحطات

توزيع الغازولين والديزل، ومؤسسات التنظيف.

قال السائل: فما الأكاسيد النتروجيية.. وما مصدرها؟

قال: هي تتشكل من اتحاد النتروجين بالأكسجين في الحرارات العالية التي يحترق بها الوقود.. وخطرها يتمثل في دورها في توليد الأوزون.

قلت: فهل هناك غازات أخرى؟

قال: كثيرة جدا.. وكل يوم تظهر غازات جديدة.. ومعها أمراض جديدة.. واقتراب جديد للأرض من حافة الهاوية.

قام رجل من الحاضرين كان يلبس بذلة عصرية، وقال: ألا ترى أنك تبالغ في التخويف.. إن هذه الغازات التي تـذكرها ليس لهـا أي تـأثير على صـحة الإنسـان.. إن لجسـم الإنسـان من الطاقـة مـا يستطيع به أن يتعامل معها.. فلذلك كف عن هـذا التخويـف.. وعـد إلى الواقع.

غضب المحاضر غضبا شـديدا، وقـال: لا شـك أنـك لا تـذكر مـا حدث في لنـدن عـام 1952، يـوم أدى الـدخان القاتـل إلى مـوت أربعة آلاف نسمة.. ولا شك أنك لا تذكر ما حدث في دونـورا، تلـك المدينة الصناعية في غربي بنسـلفانيا، حيث مـرض نصـف سـكان المدينة، ومات عشرون منهم بعد دخان استمر خمسة أيـام، وبقي الأحياء منهم يعانون من اعتلال في الصحة.. ولا شـك أنـك لا تـذكر ما حدث في مدينة نيويـورك سـنة ثلاث وخمسـين حين مـات مئتـا نفس من جراء مستوى أكاسيد الكبريت والجسيمات المعلقة.

ولا يقل شأناً عن هذه الكوارث الصـارخة، تلـك الآثـار الطويلـة الأمد على سكان المدن من جراء تلوث الهـواء، من علـل تنفسـية مزمنة كالنفاخ الرئوي والتهاب القصبات (الشعب الهوائية) ...

ليس ذلـك فقـط.. فقـد نقصـت القـدرة على أداء التمـارين الجسمية في الأصحاء من الكبار والأطفال على السـواء.. وازدادت نسبة الوفيات من الأمراض الأخرى كالسـرطان وأمـراض القلب.. وازداد حدوث الربو وفرط التحسس وأمراض الجهاز التنفسـي في الأطفال.

وهم يقـدرون ضـريبة التلـوث الـتي يـدفعها سـكان الولايـات المتحدة كـل عـام بخمسـة عشـر ألـف وفـاة، وسـبعة ملايين يـوم مرض، وخمسة عشر مليون يوم ناقص الإنتاجية.

قال رجل من الجمع: فلم لم تنبهوا هـذه الـدول إلى المخـاطر التي يحملونها لشعوبهم وللأرض؟

ابتسـم، وقـال: من نخـاطب.. لقـد أعمى أهـل الأرض الجشـع والحـرص.. فصـاروا لا يعرفـون إلا الـثروات والأمـوال.. ولا يهمهم بعدها أي شيء.

أخرج ورقـة من محفظتـه، وقـال: سـأقرأ عليكم بعض جهودنـا في هذا المجال.. ثم كيف ووجهت.

نظـر في الورقـة وقـال: بعـد بحـوث دقيقـة علمنـا أن الـدول الصناعية المتقدمة، وبالأخص الولايات المتحدة الامريكيـة، تسـاهم بالنصيب الأكبر في تلوث البيئة الطبيعية، فهذه الدول التي يسـكنها أقل من ربع سكان العالم تنتج ثلاثة أرباع فضلاته (2,5 مليـار طن سنويا) بمعدل 1,6 طن للفرد في السـنة أي عشـرة أضـعاف مـا يعود إلى الدول النامية. وبلغ استهلاك الولايات المتحدة من مصادر الطاقـة 26 بالمائـة من الاسـتهلاك العـالمي في 2000 ووصـل انبعاث غاز ثاني اوكسـيد الكـاربون فيهـا (24 بالمائـة من انبعـاث العالم) إلى 5,7 مليار طن وأوروبا 4 مليار طن في 2001.

ومع ذلك فإن هذه الـدول تتهـرب في المـؤتمرات الدوليـة من الالتزام بإجراءات فعالة للحد من التلـوث بـدعوى تـأثير ذلـك على رفاهية شعوبها، كما حدث في مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئـة والتنمية الذي عُقـد في ريـو دي جـانيرو في البرازيـل في حزيـران (يونيو) 1992.

وعلى الرغم من اتفاق مؤتمر تغير المناخ في كيوتو في اليابان في 1997 على خفض انبعاث الغـازات الضـارة المسـببة لظـاهرة الاحتبـاس الحـراري إلا أن العديـد من الـدول الصـناعية شـهدت ارتفاعـا في انبعـاث غـاز ثـاني اوكسـيد الكـاربون في عـام 2001 مقارنة بـ1990 وبنسـب مختلفـة كمـا في الولايـات المتحـدة (18 بالمائـة) واليابـان (11 بالمائـة) وكنـدا(21 بالمائـة) و إيطاليـا (6 بالمائة) واستراليا(42 بالمائة) والبرتغال (49 بالمائة) وبلجيكا (12 بالمائة) وهولندا(113 بالمائة) وغيرها.

وعُقد مؤتمر الأمم المتحدة للمنـاخ في لاهـاي في 13 تشـرين الثاني (نوفمبر) 2000 وحضره مندوبون من 180 دولـة. ونـوقش البروتوكول الذي أقر في كيوتو والقاضي بتخفيض الغازات الضـارة بأكثر من 5 بالمائة في الفترة 2008-2012 مقارنة مع مستوياتها في 1990. وكانت الأنظار متوجهة إلى منـدوب الولايـات المتحـدة الأمريكية للتجاوب مع الاتفاق إلا أن ذلك لم يحـدث، ونتيجـة لـذلك فشل المؤتمر في التوصل إلى اتفاق.

وفي آذار (مارس) 2001 أعلنت الولايات المتحدة تراجعها عن بروتوكول كيوتو مدعية أنه باهض التكلفة وظالم لأنه يفرض خفض الغازات المسببة لارتفاع حرارة الأرض على الدول الغنية فقط! فيما أعلن الاتحاد الأوروبي انتقاده لهذا الموقف و تمسكه بالبروتوكول وتصميمه على المصادقة عليه بحلول عام 2002 وهو موعد انعقاد القمة الثانية للأرض في جوهانسبورغ في جنوب أفريقيا.

وعقدت قمة الأرض الثانية في الفترة 26 آب (أغسطس) إلى 4 أيلول (سبتمبر) 2002 في جوهانسبورغ في جنوب أفريقيا تحت شعار (التنمية المستديمة) ورغم الحضور الواسع للحكومات والمنظمات غير الحكومية إلا أن نتائج القمة جاءت مخيبة للآمال لأسباب عدة أبرزها الضغوط وسياسة الترهيب والترغيب التي مارستها الولايات المتحدة.حيث نجحت في تعطيل وضع جدول أعمال لمشروعات ووثائق تقود العالم إلى حلول عادلة لمشاكل المناخ والبيئة والتنمية في محاولة لإحباط موضوع سخونة الأرض من أن يحظى بالأولوية التي يستحقها. لأن الولايات المتحدة ستحاكم عندئذ على مسؤوليتها التي تتراوح 25-30 بالمائة من تلك السخونة، وعن انسحابها من بروتوكول كيوتو.

وقد أثارت النتائج الضعيفة للقمة غضب المنظمات العالمية لحماية البيئة وانسحبت منها المنظمات غير الحكومية ونظمت تظاهرة احتجاجا على نتائج المفاوضات التي اعتبرتها في خدمة الشركات المتعددة الجنسية. وقد وصفت منظمة أوكسفام الخيرية الدولية الاتفاق بأنه (انتصار للجشع والمصالح الذاتية، ومأساة تحل بالفقراء والبيئة)

وذكر تقرير لجنة البيئة التابعة للاتحاد الأوروبي الذي نشر في 2 –12-2003 أن انبعاث الغازات الدفيئة في الاتحاد الأوروبي سينخفض فقط نصف في المائة في عام 2010 مقارنة بعام 1990 وهذا يخالف بروتوكول كيوتو الذي بموجبة يجب أن تخفض دول الاتحاد انبعاث هذه الغازات بنسبة 8 بالمائة في العام المذكور.

وفي نفس يوم إعلان التقرير أعلنت روسيا أن بروتوكول كيوتو في صيغته الحالية لا يمكن المصادقة عليه، ولكن أعلن الرئيس الروسي بوتين في 22-5-2004 بأن روسيا تريد المصادقة بسرعة على بروتوكول كيوتو جاء هذا الموقف بعد أن قدم الاتحاد

الأوروبي تنازلات كبيرة لروسيا بالموافقة على انضـمامها لمنظمـة التجارة العالمية.

وعزى التقرير هذا الوضع إلى نمـو قطـاع النقـل الـذي اعتـبره سببا مهما في زيادة انبعاث الغازات الدفيئة. إضافة لـذلك سـيكون انبعاث غاز ثاني اوكسيد الكاربون من هذا القطاع أعلى بنسبة 34 بالمائة في عام 2010 مقارنـة بعـام 1990. وطبقـا للتقريـر فـان خطة الاتحاد الأوروبي بالنسبة لانبعاث هذه الغازات لم تنجز.

***

بعد أن أنهى الأول حديثه، قام رجل ثان، وقـال: الأمـر بالنسـبة للماء لا يختلف عنه بالنسبة للهواء.. فالماء الـذي جعلـه اللـه سـببا للحياة وركنا من أركانها.. والماء الذي ملأ الله بـه أرضـه.. يتعـرض اليـوم لمخـاطر كثـيرة تجعلنـا نـدقس نـواقيس الخطـر.. فـالخطر المحدق بالماء محدق بالحياة نفسها.

وسأحدثكم الآن عن بعض هذه المخاطر لتدركوا الأخطار الـتي تنتظر الأرض من طرف هذه العصابات المجرمة الـتي لا تعـرف إلا الصراع.

هناك ثلاثة مصادر كبرى لتلوث الماء..

أما أولهـا.. وهي أقلهـا خطـرا.. فميـاه الصـرف الصـحي، وهي تتكون من فضلات الإنسان، والقمامـة، والمـاء الـذي اسـتخدِم في غسل الملابس أو الاستحمام.. وقد رأينا أنه بحلـول عـام 2020م، من المحتمـل أن تنتج الـدول الصـناعية كميـة من ميـاه الصـرف الصحي، قـد تبلـغ ضـعفي الكميـة الـتي كـانت تنتجهـا في عـــــام 1990م.

ويمر معظم مياه الصرف الصحي من خلال محطات المعالجـة التي تزيل الأجسام الصلبة، وتلك المـواد الذائبـة مثـل النيـتروجين، والفوسفور. ويمر بعضها خلال أحواض للتطهير قبـل ترشـيحها من خلال حقول الترشيح إلى الأرض، وتذهب البقية من ميـاه الصـرف الصحي دون معالجة مباشرة إلى مجاري المياه أو المحيط.

وأما الثاني.. فهي المواد الكيميائيـة والنفايـات الزراعيـة.. حيث يسري ماء المطر أو الجليـد المنصـهر من الأراضـي الزراعيـة إلى مجاري المياه حاملاً معه المخصـبات الكيميائيـة، ومبيـدات الآفـات التي قد يستخدمها المزارعون على الأرض.

وأما الثالث.. وهو أخطرها جميعا.. فتلك النفايات الكثـيرة الـتي تفرزهـا أنـواع الصـناعات في البلاد المتقدمـة.. حيث تحتـوي هـذه

النفايات على الكثير من المواد الكيميائية والسامة، وتُفـرَّغ كميـات كبيرة من هذه النفايات الكيميائية في أنظمة المياه مباشرة.

بالإضافة إلى ما ينتج عن حـرق الفحم، والنفـط وأنـواع الوقـود الأخرى، وفي محطـات توليـد الطاقـة، والمصـانع، والسـيارات من أكسيد الكبريت والنيتروجين.

وربمـا تلـوث بعض الصـناعات المـاء بطريقـة أخـرى عنـدما تسـتخدم كميـات كبـيرة من الميـاه لتبريـد المعـدات، حيث تجعـل الحرارة الناتجة عن المعدات الماء ساخنا، وتستخدم محطات توليد الكهرباء غالبًا الماء لتكثيف البخار الذي يدير العنَفَات (التوربينـات)، وحينمـا يُفـرغ المـاء السـاخن في النهـر أو البحـيرة، ربمـا يسـبب التلوث الحراري الذي يمكن أن يضر بحياة النبات والحيوان.

قال رجل من الجمع: فما الأخطار التي قد تنجم عن هذا النـوع من التلوث؟

قال: كثيرة لا يمكن حصرها.. وسأقتصر لكم على واحد منهـا.. ربمـا سـمعتم بـه.. وربمـا لم تسـمعوا.. لأن هنـاك من يريـد أن لا تسمعوا به..

إن المطـر الآن.. وفي منـاطق كثـيرة ــ خاصـة فى البيئـات الصناعية ـ لم يعد ذلك المطر الطـاهر النظيـف الممتلئ بالصـحة.. لقد صارت السماء تمطرنا مطـراً حمضـياً يهلـك الحـرث والنسـل، فقـــد بلـــغ الأس الهيـــدروجيني للمطـــر فى بعض المنـــاطق الصناعية درجة عالية تجعل مياه الأمطـار عاليـة الحموضـة محدثـه أضرار كثيرة، فقد فقدت مئات من البحيرات فى أمريكا الشـمالية وشمال غرب أوربا ـ نتيجـة ارتفـاع درجـة حموضـة مياهها بسـبب المطر الحمضي ـ معظم ما بها من ثـروات سـمكية وأصـبحت 90 بحيرة فى منطقة جبال أدروندك فى ولاية نيويورك ـ مثلا ــ خاليـة تماماً من الأسماك تحت تأثير الحموضة المتزايدة لميـاه البحـيرات وهي حموضة قاتلة للأحياء.

ولا يقتصر تـأثير المطـر الحمضـي على الأضـرار بميـاه الأنهـار والبحيرات وإنما يمتد تأثيره إلي مخاطر كثيرة فقد أعلن فريق من الباحثين فى جامعـة نيوهـا مبشـير بالولايـات المتحـدة الامريكيـة (1985) أن المطـر الحمضـي يمنـع حاسـة الشـم عنـد سـمك السالمون، ولهذا يفقد قدرته على إيجاد طريقة نحو مجاري الأنهـار العليا من أجل وضع بيضة وإتمام عمليـة الفقس، كمـا بـدأت تضـر الأمطار الحمضية بالمحاصيل الزراعيـة تحت تـأثير ترسـب كميـات

كبـيرة من المـواد الحمضـية فى التربـة ممـا يغـير من تركيبهـا الكيمـاوي فى اتجـاه الحموضـية المتزايـدة الـتى تضـر بـل تقتـل النباتات إذ تعمـل الحموضـة الزائـدة فى التربـة على إفقـار التربـة نتيجة إزالة الكاثيونات " الأيونات الموجبة " منها التى تعتبر القاعدة الأساســية لتغذيــة النباتــات مثــل الكالســيوم والمغنيســيوم والبوتاسيوم.

كمـا يـؤدي المطـر الحمضـي إلى تـدمير الكثـير من الأشـجار والنباتـات حيث تصـاب بظـاهرة المـوت الـتراجعي Dieback حيث تمــوت الأشــجار واقفــه كمــا يقولــون إذ تتلــف الأوراق العلويــة المعرضة مباشرة للمطر الحمضي الذى يقتل المادة الخضراء فيها ثم ينتقل التأثير بعد ذلك الى الأوراق التحتية فقد أوضـح تقريـر من ألمانيا الاتحادية (1980) أن مساحة من الغابـات تقـدر بنحـو 560 ألف هكتار أي حـوالي 7ر7% من مجمـوع مسـاحات الغابـات في ألمانيا قد دمرت أو أتلفت بدرجات متفاوته نتيجة المطر الحمضــي والضباب الحمضي.

وعنـدما نتسـاءل عن سـبب هـذا الانحـراف في الحفـاظ على طهارة المياه، نجـده الجشـع والحـرص على الكسـب بغض النظـر عن المفاســد الحاصــلة، فعنــدما نســتخدم الأســمدة الكيماويــة والمبيدات الحشرية مثلاً بدرجـة كثافـة عاليـة، خوفـا من الجـوائح، وحرصا على الكسب، وسعيا إلى زيادة إنتاجية المحاصيل الزراعية نصل إلى إفساد البيئة والإنتاج معـاً، لأن الاسـتخدام المكثـف لهـذه الكيماويات تسرب كميات كبـيرة منهـا إلى الهـواء ومصـادر الميـاه وإفسادهما، فضلاً عن إنتاج محاصيل ملوثة كيمائيا.

وفي تقرير صادر عن دول مجموعة التعاون الاقتصادي الأوربي (1988) حذر من تفاقم التلوث المائي الناجم عن تكثيف استخدام الأسمدة الكيماوية، ودعا التقرير إلى الحد من الاسـتخدام المكثـف (الإسراف) لهذه الأسمدة الكيماوية لما لها من مخاطر كبـيرة على الأحياء المائية.

لم يكتف البشر بكل هذا.. بـل مـدوا أيـديهم الآثمـة إلى البحـار والمحيطات.. فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن ماء البحار قد تلوث بنسـبة(400 بالمائـة) من بعض العناصـر المعدنيـة السـامة مثـل عنصر الزئبق نتيجة ما تقذفه المصـانع من مخلفاتهـا الصـناعية في مياه البحار.

حتى الأسماك لم تسلم من التلوث،فقد سـجلت أرقامـا عاليـه

من العديد من الملوثات المعدنية مثل الزئبق والرصاص والزرنيخ.
بالإضافة إلى هذا كله.. فإن هناك خطرا عظيما نتج من الإسراف في استعمال الثروة المائية.. بسبب الجشع والحرص.. هذا الخطر هو ما يحصل الآن من استنزاف كمي ونوعي لكثير من الموارد الطبيعية من خلال الاستعمال المفرط لها وعدم كفاية إجراءات تجديدها.

فبالنسبة للمياه العذبة تحتوي الأرض على كميات منها، تبلغ نسبتها 2,5 بالمائة فقط من مجموع المياه وحوالي 0,5 بالمائة مياه جوفية متاحة أو مياه سطحية، وتتباين كميات الأمطار الساقطة تباينا كبيرا على مستوى العالم حيث تستلم المنطقة العربية في شمال أفريقيا وغرب آسيا كميات قليلة جدا منها.

وإذا استمر تلوث المياه عند المعدل الحالي مع زيادة المياه المستخدمة بمعدل أعلى من معدل نمو السكان في أجزاء عديدة من العالم(1).. فسيؤدي ذلك إلى استنزاف المياه العذبة في وقت قريب.

فعلى مستوى العالم تستهلك حاليا 54 بالمائة من المياه العذبة المتوفرة، وإذا بقي استهلاك الفرد ثابتا حتى عام 2025 فيمكن استهلاك 70 بالمائة منها نتيجة النمو السكاني وحده، وإذ وصل استهلاك الفرد إلى مستوى الدول الأكثر تقدما فيمكن استهلاك 90 بالمائة في السنة المذكورة.

في عام 2000 كان هناك 508 مليون إنسان يعيشون في 31 بلدا يعاني من الضغط على المياه أو من شحتها ويتوقع في عام 2025 أن يرتفع العدد إلى 3 مليار إنسان يعيشون في 48 بلدا يعاني من هذه الظروف، وسوف يتضاعف عدد الأشخاص الذين يعانون من شحة المياه ويزداد وأولئك الذين يعشون في ظروف الضغط على المياه ست مرات، وهناك 88 دولة نامية يقطن فيها 40 بالمائة من سكان العالم يعد النقص في المياه فيها معوقا جديا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية.

***

قام آخر، وقال: حتى ذلك الجو الهادئ البسيط الذي عاشه أسلافنا على هذه الأرض منذ عشرات الآلاف من السنين يريد أن يستل منا..

1() تضاعف سكان العالم ثلاث مرات خلال السبعين سنة الماضية بينما تزايد استهلاك المياه ست مرات نتيجة النمو الصناعي وزيادة استخدام المياه في الري وارتفاع المستوى المعاشي.

إن التلـوث الصـوتي يزاحمنـا في كـل محـل.. ففي كـل محـل تسمعون هدير محركات الطائرات، وصخب السيارات والقطـارات والسفن والمصانع والمستودعات.. فإذا دخلتم إلى الـبيوت وجـدتم أنفسكم محاصرين بأصوات البرادات والغسالات والرائي والمـذياع والموسيقى الصاخبة ببيوتكم أو بيوت الجيران من حولكم.

قام رجل من الجمع، وقال: لم نكن نحسب أن للصوت تلوثا.

قال: كل ما أخرج الأرض عن فطرتها التي فطرت عليها تلوث وصـراع.. لقـد حـذّرت منظمـة اليونسـكو، ومنـذ (1967) من أن الضجيج هو مصيبة العالم المعاصر.

وبعد مرور أكثر من 33 عامـاً من الـزمن أصـبح الصـخب أكـثر خطرا، وارتفعت قيمته في معظم المدن الكبرى في العالم بمعدل 12- 15د. ب، أمّا قيمة الضجيج الذاتية فارتفعت وبمعدل(3 - 4) مرات وانخفضت إنتاجية العمل بنسبة 15 -20 بالمائة.

قال آخر: ما المخاطر التي يسببها هذا التلوث الصوتي؟

قـال: لقـد وجـدنا من خلال البحث المسـتقرئ للواقـع أن للضجيج تأثيرا خطيرا على صحة الإنسان، فهو يلعب دوراً هامـاً في ارتفاع نسبة أمراض القرحـة المعديـة، والجملـة العصـبية النفسـية وأمراض القلب الأوعية الدموية.

ففي المجتمعات الأوربيـة يعـاني وسـطياً كـل(4) رابـع رجـل وكل(3) ثالث امـرأة من العصـبية الناتجـة عن الضـجيج والصـخب المرتفعيين.

ووفقـاً للإحصـائيات، فـإن كـل خـامس مراجـع لمستشـفيات الأمراض النفسية يقصدها من جراء تعرضـه للضـجيج.. أمّـا حاسـة السمع فهي الأكـثر تضـرراً من الضـجيج.. ويُعتقـد أنـه من بين كـل مائة قروي يعـاني من20-30 شخصـاً من سـوء السـمع، أمّـا هـذا المعدل في المدن فيصل إلى (5) خمسة أضعافه في الريف.

وهذا يؤدي إلى انخفـاض نسـبة الاسـتيعاب الدراسـي ومـردود الراحـة أثنـاء النـوم وإلى الضـجر والقلـق خصوصـاً عنـد الأطفـال فتزداد عصبيتهم.

وقـد اخـترع الأطبـاء مصـطلح (المـرض الضـجيجي) لوصـف ودراسة التأثير الإجمالي للضجيج على الإنسان وذكـروا أن من أهم أعراضه الصداع، والقيئ والعصـبية والقلـق.. و في حـالات ليسـت نادرة نقص مؤقت لدرجة السمع.

وقد ازداد بشكل ملفت للانتباه عددا لأمراض المهنيـة، وبشـكل

خاص خطر السكتات القلبية والدماغية المبكّرة عند كبار السن وتسارع شيخوخة الجسم وكل هذا أدى لتراجع نوعي في جودة الوسط الطبيعي المجاور ـ أي ظروف حياة الناس ـ ويعتقد الخبراء أن الصخب المرتفع في المدن العملاقة يقصّر عمر البشر نحو 8 - 12 سنة.

وفوق هذا، فقد أثبت العلماء أن الضجيج يؤثر على الطبيعة تأثيرا خطيرا، فهو يقلص من أعمار الأشجار في المدينة التي هي أقصر عمراً مما هي عليه في الريف، نظراً لإرتفاع كثافته، فلو عرضّنا النباتات إلى صخب كثافته تساوي -100 د.ب لما أستطاع البقاء حياً أكثر من عشرة أيام، حيث تبدأ الأزهار والأوراق بالذبول تحت وطأته و يلتجم نموها، أمّا الطيور فتجبر على هجرة أعشاشها وترك بيوضها، وتمتنع عن رعاية فراخها، بل قد يؤدي الصخب المرتفع الى تشقق البيوض وتخثرها.

أمّا عند فصيلة الثديات فيتسبب الضجة بتغييرات في ضغط الدم والضرر بالعضلات القلبية، وقد تؤدي إلى الموت في نهاية المطاف نتيجة للشلل القلبي.. وتكف بعض الفئران عن التكاثر، وقد يلتهم بعضها صغاره.. وتحت تأثير الضجيج تتعرض الحوامل من الثعالب في مرحلة ما قبل الولادة إلى الإجهاض أو الطريحة أو الولادة المبكّرة، وهذا ما قد يؤدي في حالة مزارع تربية الحيوانات وإكثارها لخسائر إقتصادية.

بالإضافة إلى ذلك، فالضجيج يقضي على يرقات بعض الحشرات و(أمبريونات) بعض الطيور ويشقّق قشور بيوضها، وتفقد بعض الحيوانات تحت تأثير الضجيج قدرتها على التوجة في الأفق والتقدير الصحيح لأماكن تواجدها.

***

قام آخر، وقال: أما أنا، فقد بحثت فيما تفعله هذه المدنية بإخواننا على هذه الأرض من النباتات.. فوجدت العجب العجاب.. لقد رأيت الغابات، وهي تتعرض للقطع بمعدلات متصاعدة.. حيث تم تدمير 2,5 بالمائة من غابات العالم خلال تسعينات القرن الماضي.. وفي الأربعين سنة الأخيرة انخفضت حصة الفرد من أراضي الغابات أكثر من 50 بالمائة من 1,2 هكتار إلى أقل من 0,6 هكتار، وهذا يعود إلى النقص في أراضي الغابات، وإلى الزيادة السكانية.

فمثلا فقدت الغابات المدارية الرطبة 75000 كم2 من

مسـاحتها في 1979 و 142000 كم2 في 1989 وبهـذا ارتفعت نسبة الفقد إلى 90 بالمائة.

إن هذه الغابـات الـتي يتلاعب بهـا تحتـوي على50 بالمائـة من التنوع البيولوجي الباقي في العالم.. وعند استمرار معدلات القطع الحاليــة يمكن أن تختفي الغابــات المداريــة الأوليــة الباقيــة في غضون 50 سنة.. وما لم يتوقف أو يتباطأ بشـكل أساسـي معـدل الفقدان الجيـني للنباتـات في العـالم فـإن 60,000 صـنفا نباتيـا ــ يمثل حوالي ربع مجموع الأصناف في العالم ــ يمكن أن يفقـد في حلول 2025.

أذكر أني كنت أعيش في غابة من الغابات قبل أن تأتي الأيادي الملوثة بالصـراع لتـدمر الحيـاة الـتي كنـا نعيشـها مـع إخواننـا من النباتـات والحيوانـات.. لقـد صـحت فيهم، وهم يقطعـون الأشـجار، ويحرقونها: لم تفعلون هذا؟

قالوا: لأجل الحياة.

قلت: لأجل الحياة !؟.. إن النبات هو الحياة.. ولـو غـاب النبـات غـابت الحيـاة كلهـا.. ألا تعلمـون أن النبـات هـو المثبت الرئيسـي للطاقــة الشمسـية.. فكــل نبــات من بلايين البلايين من النباتــات الأرضية عبارة عن مفاعل حيـوي لتثـبيت الطاقـة الشمسـية، وهـو لذلك مصدر الطاقة الرئيس على الأرض.

والنبات هو الصانع الرئيس للغذاء والدواء على الأرض، فالنبات يستغل الطاقة الضوئية، والماء، وثاني أكسـيد الكربـون ليكـون لنـا وللكائنات الحية غير ذاتية التغذية(1) الغذاء المتناسـب مـع حاجاتنـا المختلفة..

ابحثوا.. فستجدون أن جميع المواد الكربوهيدراتيــة على الأرض مصدرها الأصلي النبات، وجميع المـواد الدهنيـة والمـواد البروتينيـة والفيتامينــات مصــدرها الأصــلي النبــات.. وكــل البــترول والفحم والخشب والأوراق والمطاط مصدرها الأصلي النبات.

وفوق ذلك كله، فإن النبات يثبت نسبتا الأكسجين وثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي بمقداره الوحيـد الـذي لا تصـلح الأرض إلا به.

قال بعض الجمع: فبم أجابوك؟

قــال: لقــد تبــادلوا ضــحكات ســاخرة.. ثم راحــوا يقطعــون ويحرقون..

1() أي غير القادرة على تصنيع غذاءها من خاماته الأولية كما يفعل النبات.

قال الرجل: فماذا فعلت؟

قال: لقد خرجت من تلك الغابة.. ولم أعد إليها إلا بعد سنين.. وقد هالني ما وجدت.. لقد وجدت غابتنا تحولت إلى صحراء.. فقد غزتها الرمال، ولم تعد تصلح لشيء.

قال الرجل: هل يمكن هذا؟

قال: ألا تعلم.. ألا تعلمون جميعا أن التصحر يهلك ــ حسب بعض الإحصائيات ـ 20 ألف ميل مربع من الأراضي الخضراء سنوياً، فيحيلها إلى قفار رملية جدباء، كما – أنه في كل سنة- يحاول اختراق مساحات أخرى، تقدر بحوالي 70 ألف ميل مربع، يتربص بها، متحيّناً الفرصة، فإذا غفلت أعين أصحابها عن حمايتها، ضربها الجدب وأغرقتها الرمال.

ليس التصحر وحده هو ما يهدد الأرض نتيجة قطع أشجارها.. هناك آثار أخرى لا تقل خطرا.. لقد ورد في بعض الإحصائيات أنه يختفي من الوجود كليا بين 4000 إلى 6000 نوع حيواني كل يوم، مما يوفر جوا من عدم التوازن البيئي في تلك المناطق، وسيحرم خمس سكان العالم من الماء اللازم لرّي أراضيهم وزراعة محاصيلهم بسبب ذلك.

***

قام آخر، وقال: أما أنا، فقد بحثت فيما تفعله هذه المدنية بإخواننا على هذه الأرض من الحيوانات.. فوجدت العجب العجاب.. لقد رأيت أن معدل انقراض الحيوانات البرية وصل إلى مستوى قياسي، فبعد أن كان ينقرض منها صنف واحد كل عشر سنوات بين عامي 1600-1950، أصبح انقراض الأصناف البرية أسرع بـ 50-100 مرة من الانقراض الطبيعي، وهذا يهدد بحدوث فجوات كبيرة في شبكة الحياة.

فالكثير من الحيوانات الفقرية اليوم إما نادرة أو مهددا بالانقراض.. بالإضافة إلى أن الثروة السمكية في البحار والمحيطات تتعرض اليوم إلى الاستنزاف ؛ إذ تصاد سنويا كميات كبيرة منها، لذا بات ربع الاحتياطي مستنزف أو في خطر الاستنزاف و44 بالمائة يصاد على حساب حدوده البايولوجية.

سكت قليلا، ثم قال: ليت الأمر توقف عند حد الانقراض.. لقد وصل الأمر بهذه المدنية إلى أن تتلاعب بالفطرة السليمة للحيوانات.. فراحت تطعمها السموم لكي تكتنز لحما وشحما.. فكان عاقبة ذلك أن تمردت الحيوانات التي لم تتعود التمرد..

لعلكم سمعتم بجنون البقر.

قال أحدهم: سمعنا به.. ولكنا لا نعرف قصته بالضبط.

قال: قصة هذا الداء بدأت عندما ظهرت في وقت سابق أعراض غريبة على قطعان الخراف البريطانية، وعرف العلماء ما أسموه آنذاك المرض الأكّال.. لأن الخراف المصابة به تقضي الساعات الطوال، وهي تحك نفسها على أعمدة حظائرها، وجرى البحث عن أسباب المرض، فاكتشف المحققون أن عظام الخراف وسقطها، تطحن وتقدم كمكملات بروتينية في علف الأبقار، وهكذا اشتبه في أن الجراثيم المسببة لمرض الأكال كانت تنتقل بهذه الصورة إلى الأبقار.

وفي عام 1988م حظرت الحكومة البريطانية إضافة نفايات الخراف وسقطها وعظامها المسحوقة إلى علف الأبقار، ولكن هذا التدبير لم يتم احترامه، وهكذا تفاقمت الأمور واستشرى المرض بين الأبقار، وأصبح يهدد بالانتقال إلى الإنسان.

وفي مارس من عام 1996م اكتشف العلماء وجود علاقة بين مرض الجنون البقري ومرض كروتزفلت ــ جاكوب أو التهاب الدماغ الإسفنجي الذي يصيب الإنسان.

وفي يوليو 1996م صرح العلماء بوجود احتمال كبير بانتقال مرض جنون البقر إلى الأغنام، واحتمال انتقاله إلى الإنسان عن طريق أكل أنسجة الدماغ والحبل الشوكي والمصران التابعة للأغنام.. ومن القائلين بهذه النظرية البروفيسور ريتشارد لايسي أخصائي علم الجراثيم في جامعة أيدز.

قال رجل من الجمع: إن ما تتحدث به عجيب.

قال: هناك ما أخطر من هذا بكثير.. إن المواشي والدواجن الآن تسمن بالنفايات المختلفة دون مراعاة للأضرار التي قد تنجم عن ذلك.. فهي تسمن ـ مثلا ـ بفضلات الدجاج.. وهي ــ كما يذكر المختصون ـ غالباً ما تتضمن نوعين من أنواع البكتيريا يتسببان في إصابة الإنسان ببعض الأمراض، كما يتسببان في وجود طفيليات في معدة الإنسان، ويساعدان أيضا على تجمع الرواسب التي تخلفها الأدوية البيطرية، فضلاً عن وجود ترسبات معادن تحتوي على نسبة عالية من المواد السامة مثل الزرنيخ والرصاص والكادمسيوم والزئبق.

وتنتقل مثل هذه البكتيريا إلى المواشي بكل سهولة، كما أنه من الممكن أن تنتقل إلى جسم الإنسان عند تناوله لحوما ملوثة

بروث المواشي أثناء ذبحها في المسالخ.

ومن ناحية أخرى، فقد أفاد مركـز مكافحـة الأمـراض والوقايـة منها في ولايـة أتلانتـا بأنـه توجـد في الولايـات المتحـدة فقـط 80 مليون حالة مرضية ناجمة عن تناول المواد الغذائيـة، و9000حالـة وفاة ناجمة أيضا عن تنـاول بعض الأصـناف من الأغذيـة،و4 ملايين حالة مرضية ناجمة عن الإصابة ببكتيريـا سـالمونيلا حيث انتهت مـا بين 500 ـ 1000 حالة من هذه الحالات إلى وفـاة المـريض، كمـا تتسبب البكتيريا من النوع المنطوي في إصابة ما بين 4 ـ 6 ملايين شخص بالتهابات حادة في المعدة ويقتل 100 منهم سنويا.

أما البكتيريـا من نـوع إي كـولاي والـذي تم اكتشـافه في بعض اللحوم الملوثة، فإنها تودي بحياة 250 شخصاً سنويا فضلا عن أنها تتسبب في إصابة ما لا يقل عن 20 ألف شخص في أمريكا سـنويا بأمراض خطيرة، وهنـاك 17 مريضـاً على الأقـل ثبت أن مرضـهم ناجم عن تناولهم لحوما ملوثة من إنتاج شركة واحدة.

ليس ذلك فقـط، بـل قـد دأب مربـو المواشـي على اسـتخدام مخلفات المحاصيل الزراعية وقشارة الخضراوات وعلائق الحبـوب والمواد الداخلة في صناعة الخـبز والخمـر في تسـمين المواشـي، وذلك بالإضـافة إلى اسـتخدام حـوالي 40 مليـار رطـل سـنويا من مخلفـات المسـالخ مثـل الـدماء والعظـام والأمعـاء بالإضـافة إلى ملايين القطط والكلاب السقيمة الـتي يوصـي الأطبـاء الـبيطريون بأن يكون مآلها القتل الـرحيم أو الـتي يُسـلمها لهم القـائمون على ملاجئ الحيوانات، حيث تحوَّل لحوم هذه الحيوانات إلى علف ممـا يعتري سلوكيات المواشي والخنازير الـتي سـرعان مـا تتحـول من حيوانات آكلة للأعشاب إلى حيوانات آكلة للحوم.

وفوق ذلك كلـه.. فقـد وردتنـا الأخبـار بـأن المـزارعين، ومثلهم الشركات المنتجة للأعلاف بدأوا في استخدام أو محاولة اسـتخدام فضـلات الأطعمـة الجافـة المسـتخرجة من حاويـات القمامـة، ومخلفات المطاعم من الشحوم وزيت القلي والشحوم المتجمعـة في محـابس الشـحوم والغبـار المتصـاعد من مصـانع الإسـمنت.. وحتى أوراق الجرائد والورق المقوى المستخرج من النباتـات، كمـا أجـرى البـاحثون بعض التجـارب على سـماد المواشـي والخنـازير والرواسب الطينية.

ولا تتوافر في الوقت الراهن أي إحصـائيات دقيقـة حـول عـدد المزارعين الذين يطعمون مواشيهم بفضلات الدواجن، لكن يعتقـد

بأن هذه الظاهرة قـد عمت في نصـف الولايـات المتحـدة أو ثلاثـة أرباعها، وبالرغم من الرائحة الكريهة المنبعثة من فضـلات الـدجاج والديك الرومي، فإنه يمكن اسـتخدامها كعلـف بعـد تكديسـها على نحو سـليم وإخضـاعها لمـدة تـتراوح مـا بين 4 ـ 8 أسـابيع لدرجـة حرارة تتراوح مـا بين 160 ـ 170 درجـة فهرينهـايت، وهي درجـة عاليــة تكفي لقتــل البكتيريــا، وقــد ذكــر بعض المــزارعين بــأنهم يقدمون لدواجنهم سماد المواشي الخام دون إخضاعها لأي تصنيع.

وقــد ازداد الاهتمــام بمكونــات أعلاف الحيوانــات في الولايــات المتحدة مـؤخراً في أعقـاب الضـجة الـتي قـد أثارهـا في بريطانيـا موضوع جنون البقر والمخاوف التي انتابت الشـعب الأمـريكي من أن تنتقــل العــدوى إليهم، وقــد لقي مئـات من البريطـانيين حتفهم نتيجة تناولهم لحوم الأبقار الملوثة.

وتفيـد الإحصـائيات بـأن 75 بالمائـة من رؤوس المواشـي في أمريكــا والبــالغ عــددها 90 مليــون رأس ظلت تأكــل مخلفــات المسـالخ، وأن الحظـر المفـروض على تقـديم المنتجـات الثانويـة لمصـانع اللحـوم قـد يـدفع مـربي المواشـي ومصـانع الأعلاف إلى اللجوء إلى مضافات مثل السماد ومخلفات أخرى مشكوك فيها.

***

قام آخر، وقال: أما أنـا، فقـد بحثت فيمـا تفعلـه هـذه المدنيـة بالغـذاء الـذي جعلـه اللـه قـوام حياتنـا.. فوجـدت العجب العجــاب.. لقــد رأيتهم يتفننــون في التلاعب بــه وتلويثه بكل ما شاءت لهم نفوسهم من أنواع الملوثات..

سأضرب لكم أمثلة تؤكد لكم هذا.. لاشك أنكم تعرفون حلــوى الأطفـال كالشـوكولاته والبسـكويت ورقـائق البطـاطس الجـاهزة وغيرها من المقرمشات..

قــالوا: وكيــف لا نســمع بهــا.. وهي من أهم مــا أنتجتــه هــذه الحضارة.. واعتبرته من علامات تقدمها على سائر الحضارات.

قال: لقد أثبتت الدراسات الكثيرة ما تختزنه تلك الحلويـات من فنون السموم.. وآخر ما قرأت في هذا دراسة بريطانية قامت بهــا في مطلع هذا العام (جمعية الشراكة بين الأطباء والمرضى) على ثمانمائة طفل بريطاني، وكشفت هذه الدراسة أن 25 بالمائـة من هؤلاء الأطفال يعيشون على الحلويات ورقائق البطاطس الجاهزة، و75 بالمائـة منهم ليسـت لـديهم أيـة فكـرة حـول كميـة الفواكـه والخضر التي تحتاجها أجسامهم، كما اعترف مائتان منهم أنهم أثناء

ذهابهم إلى المدرسة لا يتناولون فطورا منزليا، بل يتناولون بدلا منه حلويات ورقائق بطاطس جاهزة.

كما أشارت دراسة بريطانية أخرى تمت على ألف وسبعمائة فتى وفتاة تتراوح أعمارهم بين الرابعة والثامنة عشرة كانت بعنوان (التغذية وأنظمة الطعام العامة) إلى أن حوالي 80 بالمائة منهم يتغذون على الأطعمة الجاهزة، مثل: رقائق البطاطس المقلية، والبسكويت، والشكولاته. كما أن مستوى الملح في أطعمتهم هو ضعف المستوى المقبول صحيا، بالإضافة إلى أن الأطفال يستهلكون كثيرا من الأملاح المعدنية المضافة.

وأوضحت الدراسة أن واحدا من بين كل خمسة من الذين شملهم البحث لم يتناولوا الفواكه على الإطلاق خلال فترة إجرائه التي استغرقت أسبوعا، وقد حذرت تلك الدراسة من أن تناول الصغار لمثل تلك الأطعمة قد يسبب لهم مشاكل صحية خطيرة في المستقبل؛ حيث إن الغذاء غير الصحي أحد أهم أسباب ارتفاع معدلات الإصابة بأمراض السرطان والقلب والشرايين.

وفي بحث أجرته هيئة المواد الغذائية ببريطانيا توصلت في نتائجه إلى أنه مقابل كل طعام صحي واحد يتناوله الأطفال من الأسواق، يوجد عشرة تصنف على أنها كوارث غذائية!!

ويعد هذا التقرير ضربة قوية لصناعة الأغذية؛ إذ يوجه اتهامات للشركات العاملة في هذا المجال بأنها تقوض النظام الغذائي للأطفال عن طريق قيامها بزيادة معدلات السكر والدهون والمواد المضافة ومكونات الملح في الأطعمة التي تنتجها.

وطبقا للتقرير، فإن هذه الشركات تقوم أيضا بمعالجة أو نزع المواد الغذائية والألياف من هذه الأغذية، وحذرت من أن المقرمشات والحلوى والمشروبات الغازية تحتوي على نسب عالية من السكر والدهون.

كما أو ضحت الدراسة أن 1 بالمائة فقط من العدد الإجمالي الذي شمله البحث للمنتجات الغذائية للأطفال قد زودت بمعلومات واضحة عن محتوياتها لتظهر أنها منخفضة الدهون والسكر والملح.

وإذا فحصنا مكونات أغذية الأطفال كالبسكويت والشوكولاته والحلويات وجدنا – في أكثر الأحيان – اسم ورقم المواد الحافظة أو النكهات أو المواد الملونة قد كتبت ضمن المكونات، وقد ثبت علميًّا أن معظمها تسبب أمراض الحساسية مهما كانت نسبتها ضئيلة!!، ومثال هذه الأرقام (ليسثين صويا E322).

وهذه المواد وبحسب تلك الأرقام إما أن تكون خطرة جدًّا على الصحة، أو تسبب آلاماً حادة في المعدة، أو ارتفاعاً في ضغط الدم أو أنها غير ضارة على الصحة.

قالوا: إن ما تقوله خطير..

قال: ليس ذلك فقط.. إن صراع هذه الحضارة امتد لأساسيات الحياة.. لاشك أنكم سمعتم بما حصل للملح؟

قالوا: ما الذي حصل له؟

قال: أنتم تعلمون أن الملح ضروري لتنظيم جسم الإنسان، وهو يدخل في اتصال الأعضاء وبناء العضلات.. كما يساعد في تنظيم نظام المناعة ويمنع نمو البكتيريا الضارة والفيروسات والفطريات والطفيليات ويعمل على زيادة ثبات النظام المعوي.. وهو بذلك أحد العناصر المهمة لحياة الإنسان والحيوان وحتى النبات، فهو يعمل على موازنة كمية الماء بالجسم والخلايا التي يتكون منها أعضاء الجسم، وهو مهم لعملية التمثيل الغذائي في الخلية.. لذا فإن تناول الملح وبكميات معتدلة ضروري جداً للبقاء على قيد الحياة.

ولكن هذه المنافع لا تتحقق إلا في النافع منه.

قالوا: أهناك ملح ضار؟

قال: أجل.. ففي الأسواق اليوم نوعان من الأملاح: أحدهما متواجد ومنتشر بكثرة، ومعلب بشكل أنيق وهوملح مكرر مضاف إليه الإيودين.. والثاني قد لايكون معبأ بعلب أنيقة، وهوملح البحر.

قالوا: فما الفرق بينهما؟

قال: للإجابة على هذا السؤال لابد من معرفة مكونات كل نوع من هذين النوعين:

أما النوع الأول، وهوالملح المكرر الأنيق، فإنه يتكون من 99،9 بالمائة من كلوريد الصوديوم و0.1 بالمائة إيودين البوتاسيوم أو الكالسيوم، وتضاف إليه مادة الإيودين لتعزيز نقص الإيودين في هذا النوع من الملح، وهي في الحقيقة مجرد سد نقص لهذه المادة في الملح المكرر.. كما يضاف إليه مادة سليكيت الأمونيوم للمحافظة على إنسيابية الملح وعدم تكتله، ومما هو معروف أن مادة سيليكيت الأمونيوم مادة مضرة بالصحة.

أما الملح البحري: فيتكون من95 بالمائة من كلوريد الصوديوم و5 بالمائة معادن أخرى منها المنغنيز والكالسيوم والفوسفور

والإيودين (من مصدره الطبيعي)، إضافة الى أكـثر من 70 عنصـرا معدنيا آخر.

فمن الفرق بين هذه المكونات يتضـح لنـا الفـرق الشاسـع بين هذين النوعين من الملح، فـالملح المكـرر هـو ملح لا يحتـوي على أكثر من مادة واحدة هي كلوريد الصوديوم، وهو فقير من المعـادن الأخرى الضرورية لحياة الخلية، لذا نرى شـركات إنتـاج هـذا النـوع من الملح تحاول سد العجـز الكبـير للمعـادن بإضـافة الإيـودين بـه والدعايـة لهـذه الإضـافة وكأنهـا مـيزة إضـافية، وهي في الحقيقـة ليست أكثر من محاولة سد العجز الكبير بشيء صغير جداً.

وفي مقابـل ذلـك، فـإن الملح البحـري يحتـوي ــ إضـافة إلى الإيودين ـ على معادن كثيرة جداً، وبصورة متوازنة كما خلقهـا اللـه لنا في الطبيعة ومتوافقة مع حياة الإنسان.

وفي المقابل، فإن ملح البحر يحـوي إضـافة إلى الإيـودين على مايقارب 80 معدنا يحتاجها الجسم للحفـاظ على حيويتـه، ولإتمـام عملية التمثيـل الغـذائي بأفضـل أداء، ولوعلمنـا أن 27بالمائـة من الملح الموجود بالجسم في العظام وذلك لنقصـها في الـدم النـاتج عن عدم كفاية مانتناوله من ملح متكامل.

كما أن الشخص الذي ينتاول الملح المكرر عادة ما يحدث لـه شراهة في تناول الملح لأن الجسم لا يشعر بالكفايـة من المعـادن المحلية الأخرى، وبذلك يتراكم كلوريـد الصـوديوم بالجسـم مسـبباً مشاكل للكليتين.

فـالفرد البـالغ يحتـاج مـا بين 2-3 غ في اليـوم الواحـد، لكن معـدلات اسـتهلاكه تصـل إلى 18 غ يوميـاً، وهـذه الزيـادة تسـبب إرهاقا وتعبا للكلى، ويسبب تمادي ذلك ضعف كفائتها.

وتظهر أعراض زيادة الملح على شكل توترات عصبية وعضلية ونفسية وصداع مستمر وشعور بالقلق والكآبة والضيق والضـجر، وفي نفس الوقت يتفاقم نقص المعـادن الأخـرى بالجسـم مسـبباً مشاكل صحية في مناطق أخرى بالجسم.. وخاصة منها العظام.

سكت قليلا، ثم قال: لا شك أنكم تعرفون الخميرة؟

قالوا: ومن لا يعرفها.. هي الوسيط الـذي نسـتعمله في أغذيـة كثيرة.

قال: لقد نشر الكاتب رونالد كوتسيش في جريدة (East West) عام1984مقالة تساءل فيها:(لماذا تؤدي الخميرة المتعارف عليها إلى بعض الأمـراض؟)، ثم أجـاب:(من المعـروف عنـدما تخمـر

الخميرة تتفجر جزيئات الخبز، فإن الجيزيئات التي تنتج تكون مماثلة للجزيئات المسببة للسرطان)

ورجوعا إلى الباحث الفرنسي Jean Glaude Vincent وجد أن الطاقة البيولوجية التي تصدر من العجينة المخمرة مماثلة للتي تسبب الخلايا السرطانية.

وهناك باحثان ألماني وفرنسي وجدا أن السرعة في تخمر العجينة ترسل إشارات إلكترونية إلى الجسم لينبه بحدوث رد على هذه الإنفجارات وهو من مسببات السرطان.

ومن المؤسف أن الكثير من أنواع الخبز يطلق عليه الخبز الصحي والأسمر الكامل والبيتا ورقائق الخبز المالح وجميعها تستخدم فيها الخميرة السريعة الصناعية.

سكت قليلا، ثم قال: ليس ذلك فقط.. لقد امتد جنون هذه الحضارة إلى المياه التي لا تستقيم الحياة إلا بها.. فقد ذكرت بعض الدارسات على أن حوالى مليون أمريكي يشربون المياه التي تحتوي على بعض المواد الكيميائية المؤدية إلى السرطان، مثل مادة الزرنيخ (arsenic) و(radon) والذي هو عنصر إشعاعي غازي، ومادة الكلور(chorine)، لذلك يقترح وضع إعادة تصفية الماء بطريقة الأسموزية (Osmosis)، أو الكربون (KDF) لتنظيف الماء.

وذلك لأن الاوساخ والصداء الموجود في الانابيب والسخانات تذوب في الماء الذي يمر فيها، وقد أثبتت البحوث والدراسات أن المواد الكيمائية الموجودة في البلاستيك تذوب في القوارير مع الماء الموجودة فيها.

***

قام آخر، وقال: أما أنا، فقد بحثت فيما تفعله هذه المدنية بالأرض نفسها.. فوجدت العجب العجاب.. إن هذه المدنية الآثمة تتلاعب بالأرض.. ويوشك لو استمر بها الأمر هكذا أن يحصل للأرض ما حصل للبقر من الجنون.. وحينها لن تميز بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها.. ولن تميز بين الشمس والمريخ.. وحينها لن تبقى الحياة على الأرض.

قالوا: أخفتنا.. ما الذي يحصل؟

قال: لقد أثبتت الدراسات أنه بالإضافة إلى التلوث البيئي، الذي يخص البيئة الطبيعية والمراكز السكنية والصناعية والمستويات العالية من التلوث البايولوجي (الفضلات العضوية) ثمة أيضا زيادة حادة في التلوث الكيميائي والفيزيائي، إذ يشمل

الإنتـاج الصـناعي على عشـرات الآلاف من المـواد الكيميائيـة، وتضاف إليها سنويا مئات أخرى جديدة من المـواد الكيميائيـة الـتي يؤدي إنتاجها واسـتعمالها إلى اطـراد زيـادة حـدة التلـوث. كمـا أن هناك تأكيدات متزايـدة على خطـر التلـوث الفيزيـائي مثـل ارتفـاع الحرارة (من ادفـأ سـنوات المائـة سـنة الأخـيرة :1980ـ 1981، 1983ـ 1987،1988ـ 1990 حـدثت هـذه في 11 سـنة فقـط) والضوضاء والإشعاع والتلوث الكهرومغناطيسي.

وأثبتت الدراسات أن تغير المناخ سوف تكون له تأثيرات مهمة على البيئة، فهنـاك سـيناريو يتوقـع ارتفـاع حـرارة جـو الأرض 5,8 درجة مئوية في القرن الحالي بسبب التلوث وهو معـدل لم تصـل إليه الأرض خلال 10,000 سنة الماضـية، ويتوقـع ارتفـاع مسـتوى ميـاه البحـار نصـف مـتر في سـنة 2100 نتيجـة لـذوبان الميـاه المتجمدة، وهو أكبر من الزيادة خلال القرن الماضي.

وقد حذر علماء سويسريون في دراسة نشرت في نهايـة عـام 2003 بأن التغير في المناخ يهدد مناطق التزحلق على الجليـد في أوروبا وشمال أمريكـا واسـتراليا وأن مسـتوى الثلـوج في منـاطق رياضة الشتاء في أوروبا سوف ينخفض بشـكل حـاد في الثلاثين أو الخمسين سنة القادمة. نتائج ارتفـاع مسـتوى ميـاه البحـار سـوف تتمثـل في زيـادة الفيضـانات وتعريـة السـواحل وارتفـاع ملوحـة الطبقـات الصـخرية المائيـة والأنهـار وفقـدان الأراضـي الزراعيـة الساحلية ونزوح السكان وغيرها.

بالإضافة إلى هذا، فإن التربة تتعرض للاسـتنزاف، فسـنويا، يتم فقدان 50000-70000 كم2 من الأراضـي الزراعيـة الجيـدة في العـالم نتيجـة النشـاطات الإنشـائية، والتعـدين والصـيانة والتصـحر والتملح، وسنويا يصاب 1,5 مليون هكتار في الغالب من الأراضـي الجيدة بالتملح ويخرج من نطاق الإنتاج في العالم.

السلام

بعد أن ملأ صاحبنا الأمازوني آذاننـا آلامـا بمـا ينتظـر الأرض من خـراب على يـد العصـابات المجرمـة الـتي لا تعـرف إلا الصـراع، سألناه: وماذا فعلت بعد انتهاء ذلك الملتقى.. وبعـد أن سـمعت مـا سمعت مما يمتلئ القلب له ألما.

قال: لا أسـتطيع أن أصـف لكم تلـك المشـاعر المؤلمـة الـتي أصابتني.. لقد شعرت أن الأرض تحتضر.. وأن المجرمين قد أنفذوا

فيها سهامهم.. وأن سهامهم يوشك أن تفعل مفعولها في الأرض، فتموت، ويموت كل ما عليها من حياة.

بتلك المشاعر المتشائمة عدت إلى غابتي.. ونهري.. وحيواناتي..وأجوائي.. وقد كانت المفاجأة عظيمة إذ رأيت شاحنات ضخمة مزودة بأحدث الأجهزة تقتحم تلك الغابات.. ثم تنزل بجنودها المرتزقة، وتعمل فيها قطعا وتمزيقا.. ورأيتهم يضعون بدل الأشجار آلاتهم التي تنشر الخراب والسموم والدمار..

أسرعت إليهم.. وصحت فيهم بكل قوة، لكنهم لم يأبهوا لي، ولم يصغوا لما أقول، بل إن أحد حرسهم أسرع إلي، ومن دون أن أدري ما يحصل هوى إلى رأسي بمطرقته.. وقد كان يمكن أن يكون في ذلك حتفي لولا أن الله أرسل إلي صاحبي مع إخوانه من أحباب الطبيعة، وأنقذوني من بين أيديهم.

بقيت مدة في بيت صاحبي لا أكاد أفيق حتى تعود الآلام إلي من جديد.. وقد كان يزيد في ألمي تلك الأصوات المزعجة التي نسمعها من تلك الشركات التي اجتمعت جميعا لتدمر الحياة في غابتنا ونهرنا.

بعد أن تماثلت للشفاء، وذات يوم من الأيام رأيته يصلي على طريقة المسلمين في صلاتهم.. لم أكن أعرف حينها المسلمين.. ولا الإسلام..

فلذلك أسرعت إليه أسأله عما يفعل، فأجابني بأنه كان يصلي، وأخبرني أنه صار مسلما منذ فترة طويلة.. ولكنه كان يكتم إيمانه.. فسألته عن سر تركه لدينه واختياره الإسلام، فقال لي: أنت تعلم أنني لا أختلف عنك في حبك لما ملأ الله به هذه الأرض من خيرات.. وتعلم مدى حرصي عليها.. ولذلك اخترت الإسلام دينا أدين به.. لأني علمت أنه دين الله الذي اختاره الله لعباده.

قلت: الأديان كثيرة.. هناك الأديان الهندية.. والصينية.. وهناك المسيحية.. وهناك اليهودية.. وهناك الأديان البدائية.. فلم اخترت الإسلام من بينها جميعا.

قال: لقد انطلقت من حبي للكون.. ولما يسميه الناس الطبيعة.. وقلت لنفسي: لا يمكن أن يكون الدين الذي يختاره الله لعباده إلا متوافقا مع هذه الطبيعة ومع هذا الكون.. فالدين الذي هو أمر الله لا يمكن أن يتناقض أو يتصارع مع خلق الله.

وما إن وضعت هذا المقياس حتى رحت أبحث في الأديان.. وفي كتبها المقدسة.. وبين رجال دينها.. فبدأت بالمسيحية.. ثم

بالبوذية.. ثم باليهودية.. ولم أجد عندها جميعا ما أبحث عنه..

قلت: والإسلام !؟

قال: أصدقك القول أني لم أكن أفكر أبدا في الإسلام.. فقد كنت أسمع عنه ما جعلني أنفر منه نفورا تاما، لكن الله قدر بأن يكون الدين الذي أنفر منه هو الدين الذي أختاره وأعيش من أجله وأجعله رسالتي الكبرى في الحياة.

قلت: كيف حصل ذلك؟

قال: بينما كنت ذات يوم أسير في غابة من الغابات العذراء إذا بي أرى رجلا وقورا يقرأ بخشوع قوله تعالى : ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (الروم:41).. ثم يرددها، ويبكي، فاقتربت منه، وقلت: ما تقرأ؟.. وما بالك تبكي؟

قال: أقرأ كلام ربي.. وأبكلي لأفعالنا.. لقد حذرنا ربنا من الفساد العظيم الذي يشمل البر والبحر إن استرسلنا مع نفوسنا الأمارة بالسوء.. وها نحن نرى ما حذر منه يحصل لنا.

قلت: أدينكم يهتم بالكون؟.. لم أر في الأديان هذا الاهتمام.

ابتسم، وقال: عجيب هذا.. إذا لم يهتم دين الله بأكوان الله، فبم يهتم؟

قلت: الدين يصف الطقوس التي يعبد بها الإله.

قال: إن أهم الطقوس عندنا هي أن نحافظ على فطرة الله التي فطر بها الأشياء.. نحافظ على فطرة الإنسان.. وفطرة الهواء.. وفطرة الماء.. وفطرة الأصوات.. وفطرة النبات.. وفطرة الحيوان.. وفطرة الغذاء.. وفطرة الأرض.. وفطرة كل شيء.

لأن تغيير الفطرة صراع.. والله لم يخلقنا لنصارع الأشياء.. وإنما خلقنا لنستفيد منها.. أو ليستفيد بعضنا من غير صراع..

لقد قال الله تعالى يذكر لنا هذا : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم:30)

وأخبرنا أن دور الشيطان الأكبر هو تغيير الفطرة وتحريفها لينشأ من تحريفها كل أنواع الصراع، قال تعالى مخبرا عن وعيد الشيطان ومحذرا منه : إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120) (النساء)

انظر.. كيف هدد الشيطان بتضليل العباد ودعوتهم لتغيير خلق الله.. وها هو ينفذ وعيده.. وها نحن ننساق وراءه لنحول من جنة الله التي استضافنا فيها مستنقعا من المستنقعات ومزبلة من المزابل.

كان يتكلم بتأثر عظيم، فقلت: ولكن.. أليس من قومك من نشر مثل هذا الخراب؟

قال: ولذلك أنا أبكي.. لو كان الأمر من غيرهم فقط لهان.. فأولئك ليس لهم من الدين ما ينهاهم عن هذه الجرائم.. ولكن قومي يعلمون التحذيرات الألهية الخطيرة.. بل يعلمون تفاصيلها.. ولكن مع ذلك انساقوا وراء الشياطين، وراحوا يخربون ويدمرون ما أمر الله بحفظه.

قلت: أرى أن لدينك شأنا.. فهل تأذن لي في صحبتك لأتعرف عليه من خلالك.

قال: أنا أضعف من أن أمثل لك ديني.. أنا بشر مخطئ مقصر.. لكني سأدلك على قوم حرصوا على أن يعيشوا الإسلام.. سر إليهم.. فسترى من خلالهم الإسلام.. وترى من خلالهم جميعا تلك الشمس العظيمة التي امتلأت سلاما.. وملأت الأرض سلاما.

***

سرت كما طلب مني.. فوجدت أرضا.. وكأنها غير الأرض.. ممتلئة جمالا ونظاما وصفاء وسلاما.. لقد خيل إلي أني في الجنة، ولست على هذه الأرض.

كان أول ما لقيت فيها رجلا سمعته يحدث صاحبه، ويقول: هل قمت هذا الصباح بقياسات الهواء؟

قال الثاني: أجل.. وقد وجدتها بحمد الله على حسب الفطرة الأصلية التي خلقها الله.. فليس هناك أي زيادة، ولا أي نقصان.. ولم يطغ فيها شيء على شيء..

قال الأول: الحمد لله.. هذا فضل من الله.. لقد أمرنا الله بإقامة الموازين.. فقال : وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) (الرحمن)

قال الثاني: ولكني سمعت أن الغلاف المحيط بالأرض بدأ يتسرب إليه الطغيان..

قال الأول: كيف.. لقد قال الله تعالى : وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) (الانبياء:32).. إن ذلك الغلاف يؤدي وظائف ضرورية لاستمرار الحياة، فهو يدمر الكثير من النيازك الكبيرة والصغيرة، ويمنعها من السقوط على سطح الأرض وإيذاء الكائنات الحية، ولولا وجوده لسقطت ملايين النيازك على الأرض جاعلة منها مكاناً غير قابل للعيش، ولكن خاصية الحماية التي يتمتع بها هذا الغلاف سمحت للكائنات بالبقاء آمنة على قيد الحياة.

وهو يحمي الأرض من برد الفضاء المجمد الذي يصل إلى 270 درجة مئوية تحت الصفر.

وهو يصفي شعاع الضوء الآتي من الفضاء المؤذي للكائنات الحية.

وفوق ذلك هو لا يسمح إلا للإشعاعات غير الضارة مثل الضوء المرئي والأشعة فوق البنفسجية، وموجات الراديوا بالمرور.. وكل هذه الإشعاعات أساسية للحياة.

فالأشعة فوق البنفسجية التي يسمح بمرورها بشكل جزئي فقط عبر الغلاف الجوي ضرورية جداً لعملية التمثيل في النباتات، ولبقاء الكائنات الحية على قيد الحياة.

أما غالبية الإشعاعات فوق البنفسجية المركزة، فيتم تصفيتها من خلال طبقة الأوزون في الغلاف الجوي، ولا تصل إلا كمية محدودة وضرورية من الطيف فوق البنفسجي إلى الأرض.

قال الثاني: لقد قام المجرمون أصحاب البطون الكبيرة بإرسال بعض الغازات التي أثرت في طبقة الأوزون.. ويوشك أن تقتل الحياة لو استمر الأمر هكذا.

قال الأول: فهيا بنا.. لابد أن نصرخ في العالم حتى يكف عن جرائمه..

سارا.. وسرت خلفهما إلى أن غابا عني ولست أدري أين غابا..

***

سرت في تلك الأرض النظيفة الجميلة.. فرأيت شيخا كبيرا كان يخاطب ابنه، ويقول: يا بني.. يوشك أن يأتيني أمر الله.. وأغادر هذه الدنيا كما غادرها من قبلنا.. وأنا لا أوصيك بشيء كما أوصيك بهذه المياه التي رزقنا الله.. حافظ عليها.. واعبد الله بحفظك لها..

فقد جعل الله الماء سر حياة الأرض، ولهذا يربط القرآن

الكـريم بين المطـر وحيـاة الأرض، فيقـول: ﴿ وَمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَـا مِنْ كُـلِّ دَابَّةٍ ﴾ (البقرة: من الآية164)، وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (النحـل: 65)، وقال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِـهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَـا لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ قُـلِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَـلْ أَكْثَـرُهُمْ لا يَعْقِلُـونَ ﴾ (العنكبـوت:63)، وقـال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنَّكَ تَـرَى الْأَرْضَ خَاشِـعَةً فَـإِذَا أَنْزَلْنَـا عَلَيْهَـا الْمَـاءَ اهْتَـزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَـا لَمُحْيِي الْمَـوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت:39)، وقال: ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ وَمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّـمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَـا بِـهِ الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الجاثـية:5)

نظر إلى صفحة الماء العذبة أمامه، وقال: يا بني.. لقد من الله علينـا بـأن حفـظ لنـا طهـارة الميـاه وصـلاحها، فإيـاك أن تسـمع للشياطين التي تسعى لتـدميرها وتلويثهـا.. لقـد قـال اللـه تعـالى: ﴿ أَفَـرَأَيْتُمُ الْمَـاءَ الَّذِي تَشْـرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُـوهُ مِنَ الْمُـزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ(69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَـوْلا تَشْـكُرُونَ (70)ـ ﴾ (سورة الواقعة)، وقـال: ﴿ وَهُـوَ الَّذِي أَرْسَـلَ الرِّيَـاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ وَأَنْزَلْنَـا مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً طَهُـوراً ﴾ (الفرقـان:48)، وقـال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴾ (الفرقان: من الآية48)، وقال: ﴿ إِذْ يُغَشِّـيكُمُ النُّعَـاسَ أَمَنَـةً مِنْـهُ وَيُنَـزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (لأنفال:11)

وكان ﷺ إِذَا شَرِبَ الْمَاء قَالَ:(الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي سَقَانَا عَذْبًا فُرَاتًـا بِرَحْمَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلهُ مِلْحًا أُجَاجًا بِذُنُوبِنَا)(1)

انظر كيف أرجع ﷺ تغـير المـاء إلى الـذنوب.. وانظـر إلى هـذا العالم الذي أعمـاه الطمـع.. فـراح يصـارع فطـرة اللـه في المـاء، فيجعل من سبب الحياة سببا للموت، ويجعل من ذلك الماء العذب الفرات سموما ومستنقعات.

اسمع للنبي ﷺ وهو ينهانا عن إيصال أي أذى للمياه.. لقــد نهى ﷺ عن البول في الماء الراكد(2)، وقال:(لا يبولن أحدكم في الماء

1() ابن أبي حاتم.

2() والفائدة الصحية لهذا أن الماء الراكد يعتبر جـوا ملائمـا لنمـو الكثـير من البكتريـا كالكوليرا والسالمونيلا والشيجلا والليبتوسبايرا وغيرها.

زيادة على أن كثـيرا من الديـدان كالزحـار الأميـبي والديـدان المسـتديرة والبلهارسـيا تحتاج لإكمال دورة حياتها خارج جسـم الإنسـان، ويسـاعد التبـول والتـبرز على نمـو هـذه الديدان وسرعة تكاثرها وانتشارها.

الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)(1) بل ورد الأمر مطلقا، فقال ﷺ:(لا يبولن أحدكم في الماء الراكد)(2)

ونهاها ﷺ عن النفخ في الشراب، فقال:(إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره بيمينه ولا يتمسح بيمينه)(3)، وقال:(إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، فإذا أراد أن يعود فلينح الإناء ثم ليعد إن كان يريده)(4)، وعندما قال له رجل معقبا على هذا النهي: القذاة أراها في الإناء قال له ﷺ:(أهرقها)(5)

سكت قليلا، ثم قال: وإياك يا بني أن تغتر بكثرة ما رزقنا الله من المياه، فتعبث بها.. فإنه لا يضر النعمة شيء كما يضرها الإسراف.. لقد قال تعالى يحذرنا من الإسراف :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:31)

***

تركته ينصح ابنه، وسرت في تلك البلدة الجميلة.. وقد امتلأت إعجابا بذلك الهدوء الذي يعمها مع أنها كانت ممتلئة بكل معاني الحياة.. وبينما أنا أسير إذا بي أرى جمعا ملتفا حول رجل يقرأ قوله تعالى :﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هوناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾(الفرقان:63)

ثم رأيت شيخا وقورا يفسر الآية، وبعد أن فسرها، سأله بعضهم، وقال: ما سر هذا الاقتران الوارد في الآية بين المشية الهينة وخطاب السلام؟

قال الشيخ: أنتم تعلمون ما ورد في الشريعة من الشرائع الناهية عن كل تلوث صوتي مزعج.. وهذا من هذا الباب.. فللتلوث الصوتي مصدران: الأصوات والحركات، فالأصوات يمثلها الكلام، والحركات يمثلها المشي.. فلذلك جمعت الآية بينهما.

قال رجل من الحاضرين: صدقت فهناك من يمشي، فتندك الأرض من تحت قدميه، وهناك من يمشي خفيفا لينا لا تشعر به الأرض، ولا يتأذى به من حوله.

قال الشيخ: ولهذا وصف الله تعالى مشية الصالحين

1() البخاري ومسلم.
2() ابن ماجه.
3() البخاري والترمذي.
4() ابن ماجه.
5() الترمذي، وقال:حديث حسن صحيح

بالهون(1)والقصد(2)، وقد سمع النبي ﷺ جلبة خارج المسجد فقال: (ما شأنكم؟)، قالوا:(استعجلنا إلى الصلاة)، فقال:(لا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما سبقكم فأتموا)(3)

قال السائل: عرفنا الأول.. فما الثاني، ولم ورد التعبير عنه بقوله تعالى :﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾(الفرقان:63)؟

قال الشيخ:: لقد ذكر تعالى ــ بالنسبة للصوت ــ أمرين: أما الأول، فهو تسليم عباد الرحمن على الجاهلين وإعراضهم عنهم، وأما الثاني، فهو الأمر بغض الصوت.

وهذان هما مصدرا الضجيج في الأصوات، فالأول يسد ذرائع الصخب والخصام، لأن أساس الضجيج هو الخصام.

وأما الثاني، فتشير إليه كل النصوص التي تنهى عن رفع الصوت فوق ما يحتاج إليه، كقوله تعالى يذكر فضل غض الصوت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات:3)

ويعيب على غيرهم من الغلاظ، فيقول:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(الحجرات:4)

ولهذا نهى الشرع عن كل ما يسبب الضجة والصخب ورفع الصوت في كل أنواع العبادات في مجتمع الإسلام(4).. وعندما أراد رسول الله ﷺ اختيار طريقة لتبليغ الناس دخول وقت الصلاة استشار أصحابه في ذلك، ورفض اقتراحات بعضهم باستعمال الناقوس أو الطبول أو الأجراس، واختار الأذان بصوت الإنسان، لأنه أدعى إلى الهدوء والسكينة والبعد عن الصخب، وطلب تلقينه بلالاً لأدائه لأنه أندى صوتاً!

وعند أداء المسلم لصلاته أمره الشارع ألا يرفع صوته بأكثر من

1() أي بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، كما قال رسول اللّه ﷺ:إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا »

2() وهو أن يمشي مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطاً بين بين.

3() البخاري.

4() ومن المراجع التي يمكن الاستفادة منها في هذا: د. محمد خالد سلطان: (الطب والشريعة) رسالة جامعية دمشق 1985، د. أحمد شوقي الفنجري: (الطب الوقائي في الإسلام) الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. محمد المصري وآخرون: مقالة (مخاطر التعرض للضجيج والأصوات العالية) المجلة الطبية العربية دمشق ع 137 كانون 1، 1997، الصيدلي عمر محمود عبد الله: (الطب الوقائي في الإسلام) الدوحة 1990. وبحث للدكتور محمد نزار الدقر.

المطلوب وفي حد متوسط مقبول، كما قال تعالى:﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾(الاسراء: من الآية110)

وهذا يسري في كل شيء، فقد ورد النهي عن رفع الصوت أكثر من حاجة المستمعين، قال ﷺ:(يا أيها الناس: أربعوا(1)على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم)(2)

وقد نهى النبي ﷺ عن رفع الصوت أثناء تلاوة القرآن في المساجد، لئلا يؤثر بعضهم على قراءة البعض الآخر، فقال ﷺ:(إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنه يناجي ربه فليعلم أحدكم ما يناجي ربه، ولا يجهر بعضكم على بعض في الصلاة)(3)، وقال ﷺ:(إذا كان أحدكم في صلاته فإنه يناجي ربه فلينظر أحدكم ما يقول في صلاته ولا ترفعوا أصواتكم فتؤذوا المؤمنين)(4)

***

تركت الشيخ، والجماعة الملتفة حوله، وسرت.. ولم أسر إلا قليلا حتى رأيت شيخا كبيرا قد أعيته الأيام، ومع ذلك رأيته يحمل فأسه، ثم يحفر حفرة، ثم يضع في محلها شجيرة بجهد وعناء، فاقتربت منه، وقلت: أفي هذا السن تحمل الفأس؟

قال: وما لي لا أحملها.. إني لا أريد أن ألقى الله إلا وفي يدي من آثار العمل ما يقربني إليه.

قلت: أليس لك من الولد من يقوم بدلك بهذا؟

قال: وهل يستطيع ولدي أن يصلي بدلي؟

قلت: تلك الصلاة.. وهذا العمل؟

قال: كلاهما بالنسبة إلي صلاة.. بل إن هذا الذي أفعله إذا حسنت فيه النية، سيكون له من الأجور ما لا يمكن تصوره.. اسمع لما يقول رسول الله ﷺ.. لقد قال: (ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)(5).. انظر ما يحمله هذا الحديث من ترغيب..

بل إنه ﷺ قال لنا: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها)(6)

1() اربعوا بهمزة الوصل في أوله وسكون الراء وفتح الباء ومعناه: ترك الشيء والمعنى هنا: ارفقوا بها.

2() البخاري ومسلم.

3() الطبراني وأحمد.

4() البغوي.

5() رواه البخاري.

6() رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد.

وقال :(من نصب شجرة، فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل)(1)

لقد كانت هذه النصوص وغيرها كثير هي الحادي الذي جعل المؤمنين يتقربون إلى الله باستنبات النبات وعمارة الأرض بفضل.. لقد روى أن رجلاً مر بأبي الدرداء وهو يغرس جوزة، فقال: أتغرس هذه وأنت شيخ كبير وهي لا تثمر إلا في كذا وكذا عاما، فقال أبو الدرداء: (ما علي أن يكون لي أجرها ويأكل منها غيري؟)

ومع هذا كله، فإن نبينا ﷺ نهانا أن نقطع الأشجار إلا للضرورة الشديدة.. ففي الحديث:(من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)(2)

قاطعته قائلا: أمن الضرورات الحروب.. ففي الحروب عندنا تحرق الغابات، وتقتل الحياة.

قال: لا.. حتى في الحروب.. لقد كان ﷺ يوصي أصحابه أن لا يحاربوا إلا من حاربهم.. وبما أن الأشجار لا تحارب، فلا يحق لأحد أن يحاربها.. لقد كان ﷺ يوصي أصحابه في الحرب، ويقول لهم: (ولا تعقرن شجراً قد أثمر، ولا تحرقن نخلاً، ولا تقطعنّ كرماً)(3)

بل إن القرآن الكريم اعتبر إتلاف الحرث من الإفساد في الأرض، قال تعالى:﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة:205)

***

تركت الشيخ مع فأسه وشجيراته وسرت، فوجدت رجلا يحمل على بهيمة بعض المتاع، ثم ينظر إليها كل حين، فاقتربت منه، وسألته عن سر تصرفه هذا، فقال: أنا أعرف دابتي.. وأعرف الطاقة التي تستطيع تحملها، فلذلك تعودت أن أنظر إلى وجهها لأرى مدى تحملها.

قلت: أنت رجل رقيق القلب.

قال: كل مسلم ينبغي كذلك.. وإلا فسينال من عذاب الله ما يعيد لقلبه رقته.

قلت: وما علاقة العذاب بهذا؟

قال: لقد حذرنا رسول الله ﷺ تحذيرا شديدا من تعذيب

1()رواه أحمد.

2() رواه أبو داود.

3()رواه محمد بن الحسن.

الحيوان أو إرهاقه.. بل إنه ﷺ علمنا كيفية وضع الحمل عليها، مما يكون عونًا لها على السير، وتخصيص كل دابة بما تطيقه، والمبادرة لحلِّ الرِّحال عن النزول عنها، وتقديم علفها على أكل صاحبها، وكذا المباردة إلى سقيها، كل ذلك شفقة عليها وإبقاء لها(1)، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ:(أخِّروا الأحمال، فإنَّ اليدَ مُعْلقةٌ، والرِّجْلَ مُوثَقَة)(2)

وقال ﷺ:(إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله عز وجل إنما سخَّرها لكم لتُبْلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم)(3)، وفي رواية قال رسو ل الله ﷺ:(اركبوا هذه الدواب سالمة، وابتدعوها(4) سالمة، ولا تتخذوها كراسي)(5)

وفي رواية أنه ﷺ مرَّ على دوابٍّ لهم ورواحل، وهم وقوف، فقال النبي ﷺ:(اركبوها سالمة، وانزلوا عنها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم ومجالسكم، فرُب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرًا لله عز وجل)(6)

ومما يدخل في هذا الباب ما ورد من النهي عن ركوب ثلاثة في آن واحد، ففي الحديث عن جابر قال:(نهى رسول الله ﷺ أن يركب ثلاثة على دابة)(7)، وفي رواية أبي سعيد:(لا يركب الدابة فوق اثنين)

وفي حديث آخر: أنه رأى ثلاثة على بغل، فقال: لينزل أحدكم فإن رسول الله ﷺ لعن الثالث(8).

بل ورد ما هو أخطر من ذلك، ففي الحديث: إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم)(9)

قلت: ولكني لم أر في هذه النصوص أي تهديد بعذاب الله.

1() انظر في هذا: تحرير الجواب عن ضرب الدَّواب، للشيخ العلامة محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (831-902)

2() رواه الطبراني والبزار وغيرهما.

3() رواه أبو داود.

4() أي: اتركوها ورفهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها. وهو (افتعل) من وَدُع – بالضم- وَدَاعة وَدَعة؛ أي: سكن وترفه، النهاية: 5/166.

5() رواه ابن خزيمة، والحاكم، وابن حبان، في «صحاحهم» وغيرهم.

6() رواه ابن خزيمة، وابن حبان وغيرهما، وهذا كله عند انتفاء الحاجة، أما عندها وللضرورة، فلا حرج، وقد ورد في حديث جابر في صفة النبي ﷺ:(ثم ركب ﷺ ناقته القصواء حتى أتى الموقف بعرفة، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حَبْلَ المشاة بين يديه، واستقبل البيت، فلم يزل يدعو حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلًا، ثم دفع رسول الله ص، وأردف أسامة خلفه)(رواه البخاري ومسلم)

7() رواه الطبراني في الأوسط.

8() رواه ابن أبي شيبة من مرسل زاذان.

قال: إن الله أرسل رسوله لنا لنطيعه ونلتزم أوامره.. وإلا فإن العذاب الشديد لمن عصاه.. وقد ورد في الحديث:(عذبت امرأة في هرة لم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض)(1)

وصور ﷺ ذلك تصويرا مخيفا، فقال:(دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة حسبت أنه قال: تخدشها هرة: قال ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا)(2)

ومثل ذلك من عذل الحيوان المثلة _ وهي قطع أطراف الحيوان _ ففي الحديث أن النبي ﷺ مرّ على حمار قد وسم في وجهه فقال:(لعن الله الذي وسمه)(3)، وفي رواية له:(نهى رسول الله ﷺ عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه)

وفي حديث آخر، قال ﷺ:(من قتل عصفورا عبثاً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة)(4)

وقد روي عن عبد الله بن عمر أنه مرّ بفتيان من قريش طيرا أو دجاجة يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضا(5).

قلت: أليس في دينكم إلا العذاب واللعن؟.. أليس هناك في المقابل جزاء لمن أحسن إلى الحيوانات؟

قال: اعذرني.. لقد اكتفيت بجوابك.. ولم أذكر لك ما ورد في فضل الرحمة بالكائنات.. لقد ورد في نصوصنا المقدسة ما يرغب في الجزاء الذي أعد للتعامل المسالم مع الكائنات، وما يرهب في نفس الوقت من التعامل معها كما يتعامل معها المصارعون:

فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال:(إني أنزع في حوضي

9() رواه الطبراني، وقد حمل الفقهاء هذه النصوص على ما إذا كانت الدابة غير مطيقة للثلاثة، فإن أطاقتهم جاز. قال ابن حجر في فتح الباري (12/520):(يحمل ما ورد في الزجر من ذلك على ما إذا كانت الدابة غير مطيقة كالحمار مثلا، وعكسه على عكسه كالناقة والبغلة)

وقال النووي في شرح مسلم (9/135):(مذهبنا ومذهب العلماء كافة جواز ركوب ثلاثة على دابة إذا كانت مطيقة)

وحكى القاضي عياض منعه عن بعضهم مطلقاً، وقال ابن حجر:(لم يصرح أحد بالجواز مع العجز)

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه البخاري.

3() رواه مسلم.

4() رواه النسائي وابن حبان في صحيحه.

5() رواه البخاري ومسلم.

حتى إذا ملأته لأهلي ورد علي البعير لغيري فسـقيته، فهـل لي في ذلك من أجر، فقال رسول الله ﷺ:(في كـل ذات كبـد حـرى أجـر)(1)

وعن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعثم قال: يـا رسـول إن الضالة ترد على حوضي فهل لي فيهـا من أجـر إن سـقيتها؟ قـال: (أسقها، فإن في كل ذات كبد حراء أجراً)(2)

وفي حـديث آخـر قـال رسـول اللـه ﷺ:(بينمـا رجـل يمشـي بطريق اشتد عليه الحر، فوجد بئراً فـنزل فيهـا فشـرب، ثم خـرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البـئر فملأ خفـه ماء، ثم أمسكه بفيـه حـتى رقي، فسـقى الكلب، فشـكر اللـه لـه، فغفرله، قالوا:يا رسول الله إن لنـا في البهـائم أجـراً؟ فقـال: في كل كبد رطبة أجر)(3)

وأخبر ﷺ أن الله تعالى غفر لامرأة مومسـة مـرت بكلب يلهث كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت لـه من الماء فغفر لها بذلك(4).

وفي حديث آخر، أن رسول الله ﷺ قال:(الخيل لثلاثـة: لرجـل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال في مـرج أو روضـة فمـا أصـابت في طلبهـا ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت أرواؤهـا وأثارهـا حسـنات لـه، ولـو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلـك حسـنات له..)(5)

تركتـــه، وســـرت، فســـمعت رجلا يتحـــدث عن الحيوانـــات المنقرضة، وكأنه يبكيها ويندبها، ومما سمعته منـه قولـه في تعليـل تحريم الإسلام لبعض أنواع الحيوانات(6) :.. ولذلك وردت النصوص بإباحـة الحيوانـات الـتي يكـثر وجودهـا أو يسـهل تنميتهـا، بخلاف الحيوانات التي يندر وجودها.

وكأنها ـ من خلال هذا التسيير ــ تـدعو إلى الاستعاضـة بهـا عن

1() رواه أحمد.
2() رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجة والبيهقي.
3() رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبـو داود، وابن حبـان في صـحيحه إلا أنـه قـال: فشكر الله له فأدخله الجنة.
4() رواه مسلم.
5() رواه البخاري ومسلم.
6() اقتبسنا هذا النص من رسالة (أكوان الله) من سلسلة (عيون الحقائق)

الحيوانات المحرمة حفاظا على البيئة، بل إن القرآن الكريم يصف من محاسن الحيوانات البحرية ما يرغب في أكلها، قال تعالى ممتنا على عباده:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل:14)

فالآية الكريم تصف لحم الحيوانات البحرية بكونه طريا، وكأنها بذلك تثير الشهية إلى طلبه والرغبة فيه.

وفي آية أخرى تخص صيد البحر بالإباحة، وفي ذلك إشارة أيضا إلى الترغيب في التمتع بنعم الله في البحر، ليحصل التوازن بين البر والبحر، ويحفظ التنوع في كليهما، قال تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة:96)

***

أحسست ببعض الجوع، فذهبت إلى مطعم قريب.. وطلبت طعاما من أطعمة هذه الحضارة، فرأيت صاحب المطعم لا يعرفه.. طلبت آخر.. فلم يعرفه.. فسألته متعجبا: فلم فتحت المطعم إذن.. ما دمت لا تعرف هذه الأنواع من الأغذية؟

قال: فتحته لإطعام الناس مقابل ما يرزقني الله بواسطتهم من رزق.

قلت: ما دمت قد نويت هذه النية.. فلم لم تحضر لهم من الطعام الطيب ما يجعلهم يرغبون في ملء خزائنك بالذهب والفضة؟

قال: الطعام الطيب عندنا هو الحلال الذي لم يخرج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

قلت: أللطعام فطرة؟

قال: أجل.. لقد جعل الله لكل شيء فطرته الخاصة به.. ونحن نصارعه إن أخرجناه عن فطرته.. لقد قال الله تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم:30)

وقد ذكر الله الطعام وطلب منا أن نحافظ على أصالته، فقال : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى

طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:259)

قلت: هذه قصة.. فكيف اكتشفت منها ما اكتشفت؟

قال: ما دام الله قد حفظ للرجل طيلة تلك السنين الطوال ـ بمعجزة ـ طعامه.. فإن ذلك يعني أن الطعام لا يصح أكله إلا طيبا لم يتسنه.

قلت: ولكني لم أطلب منك أطعمة قد تسنهت؟

قال: إن الأطعمة التي تخرج عن فطرة الله تولد متسنهة.. فلذلك نحن لا ندخل بطوننا إلا الطعام الذي بقي على فطرته.

قلت: ألا تسمعون بالهندسة الوراثية؟

قال: نحن نسمع بهندسة كل شيء إلا الهندسة التي تغير فطرة الله في الأشياء.. فهذه لا نسمع بها.

قلت: فأعطني من الطعام الطيب الذي لم يتسنه ما أملأ به بطني.

قال: سأعطيك ما يكفيك ويمتعك.

***

بعد أن سددت جوعي بأطيب طعام ذقته في حياتي سمعت نداء الصلاة.. فرأيت الناس جميعا يهرعون إليها، فأسرعت حيث يهرعون.. ودخلت أول مرة في حياتي المسجد.. وهناك رأيت خطيبا يقف على المنبر يحدث الناس عن الأرض وعن حفظ الأرض، وعن السلام مع الأرض، وكان مما سمعته قوله :(انظروا ـ أيها المؤمنون ــ كيف قدم الله تعالى الإفساد في الأرض على سفك الدماء في هذه الآية الكريمة.. قال تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (البقرة:30)

انظروا كيف عاتب صالح قومه عندما تركوا ما جعل الله لهم من المساكن السهلة، وراحوا ينحتون الجبال التي ما خلقها الله للسكن(1).. قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

1() روي في التفسير أنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها.

رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) (الشعراء)

وانظروا كيف عاتب شعيب قومه على إفسادهم في الأرض، قال تعالى : وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)

وانظروا هذا الوعيد الشديد الذي أخبر الله بأنه كتبه في كتب بني إسرائيل، قال تعالى : مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) (الأعراف)

وانظروا هذه العقوبة الشديدة التي شرعها الله لأمة محمد ﷺ لمن يفسد منهم في الأرض، قال تعالى : إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (34) (الأعراف)

تدبروا كل هذه الآيات وتمعنوا فيها لتعلموا أن الله تعالى ائتمننا على هذه الأرض.. ائتمننا عليها لنحفظها ونحافظ عليها.

هل يرضى أحدكم أن يدخل بعض الناس بيته، فيروح ذلك الضيف يفسد، ويخرب، ويحطم.. هل ترضون لبيوتكم أن تقلب رأسا على عقب..

قالوا جميعا: لا.. ولا كرامة لمن خرب وأفسد.

قال: فبيت الله هو هذه الأرض.. ونحن ضيوف فيها.. وليس على الضيف إلا أن يحفظ دار ضيفه.

ومن لم يحفظها، فلن يكون جزاؤه إلا ما أخبر الله عنه من نبأ الأمم السابقة..

لقد ذكر الله نبأ سبأ.. لاشك أنكم تعرفونها..

قال رجل من الجمع: أجل.. ومن لا تعرف حضارة سبأ.. فهي حضارة راقية، وقد كانت لها من الجنات ما تنبهر له الأبصار، كما قال تعالى يصفها :﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ:15)

قال الخطيب: ولكنهم بإعراضهم عن الله وانحرافهم عن سبيله أدركتهم سنة الله فيمن حاد عن الله، قال تعالى يبين الحال التي انتقلوا إليها، وسببها :﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:16)، فهذا الذي صار إليه أمر تينك الجنتين إليه بعد كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل، فبعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل.

قال رجل من الجمع: إن قومنا الآن يتيهون.. ويعتبرون حضارة السبأيين بدائية بالنسبة لما وصلت إليه حضارتهم.

قال الخطيب: القرآن الكريم يعمم نموذج سبأ على كل القرى والحضارات والأمم التي انحرفت عن سبيل الله، قال تعالى يبين سنته في ذلك :﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص:58)، وقال :﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ (طه:128)، وقال :﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (العنكبوت:38)، وقال:﴿ أو لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾ (السجدة:26)

جلس الخطيب جلسة خفيفة، ثم قام يقول: فاحذروا أيها المؤمنون من أن تضيعوا أمانة الأرض التي أمر الله بحفظها.. وإياكم أن تدب إليكم أدواء الأمم من حولكم.. أولئك الذي يخربون الأرض، ويقتلون الحياة، ويغيرون خلق الله، ويصارعون فطرة الله.

قال رجل من الجمع: ولكن الحضارة قد تستدعي بعض ما ذكرت.

قال الخطيب: كل حضارة خربت الحياة وبدلت الفطرة داء وتخلف..

قال الرجل: لقد عشت في تلك القرى.. ورأيت أن الضرورة تستدعي ما يتصرفون فيه.

قال الخطيب متوجها للسائل: أفي إمكان تلك العقول التي استطاعت أن توفر جميع المرافق وجميع أنواع الرفاه أن تخترع للأرض ما يحفظ لها سلامها؟

قال الرجل: أجل.

قال الخطيب: فلم لم تفعل؟

قال الرجل: إن ذلك يستدعي مصاريف ضخمة وأموالا كثيرة.

قال الخطيب: لقد ذكرت لك أن أولئك لا يفكرون إلا في جيوبهم وخزائنهم، ولذلك لا يهمهم في سبيل دينار زائد أن يخربوا كل شيء.. إن أولئك لا يختلفون عن عاد وعن ثمود وعن كل القرى التي ذكرها الله.

قال ذلك، ثم قام للصلاة، وقمت معهم، وكانت أول مرة أصلي فيها في حياتي.. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحمد الله على نعمة الإسلام دين السلام.

***

قلنا: لقد حدثتنا عن إسلام صاحبك، فهل أسلمت أنت؟

قال: لا.. وقد كنت قريبا من الإسلام.. لكن الله شاء أن يفارقني صاحبي إلى هذه البلاد قبل أن أقتنع اقتناعا كليا بالإسلام.. فالدين ـ كما أرى ـ ليس من السهولة البت فيه.

قلنا: إلى أين ذهب صاحبك هذا؟

قال: لقد جاء إلى هذه البلاد.. وقد ذكر لي قبل مجيئه أن فتنة تريد أن تقضي على الفئة التي يحفظ الله بها أرضه.. ولذلك ترك أشجاره وأنهاره وجاء إلى هذه البلاد.. وجئت على أثره أبحث عنه، وقد شاء الله أن أموت دون لقائه.

عاشرا ـ الله

في اليوم العاشر، قام رجل منا، وقال: سأحدثكم اليوم أنا عن حديثي.. ربما كان هو أهم الأحاديث وأشرفها وأولاها بإطالة الكلام فيه.. ولكني مع ذلك لن أطيل عليكم.. سأترك لكم الوقت الكافي.. وأترك لنفسي كذلك الوقت الكافي لنستقبل فيه الموت الذي ينتظرنا في أي لحظة من لحظات هذا اليوم(1).

في البداية أذكر لكم أني امرؤ عاش يحلم بالتعرف على المبدع العظيم الذي أبدع هذا الكون.. فلم يكن يرتاح لي بال، ولا يهدأ لي خاطر إلا بالأحاديث عنه وفيه.

ولكني مع تلك الهمة كنت لا أقع إلا في أيدي قطاع الطرق الذين يملأون عقلي بالأوهام والخرافات والصراع.

وكنت ضعيفا مستسلما أمامهم.. فلا أجد في قلبي ولا عقلي إلا ما ينقشونه بفؤوسهم ومعاولهم..

وكنت أتعذب لذلك كثيرا.. بل وصل بي الأمر إلى ما وصل بكم من الإقدام على الانتحار.. ولولا أن قيض الله لي من النور والسلام والصفاء من أنقذني لكنت الآن في عداد الموتى.. وقد شاء الله الذي لا راد لمشيئته أن يكون سبب حياتي هو نفسه سبب موتي.. وأنا راض بذلك مستلم له.. ولكني مع ذلك متألم لأن عقلي وقلبي لم يصل إلى مراده بعد.

الصراع

قلنا: حدثنا عن أول شأنك.

الخرافة:

قال: في البداية كنت امرؤا ضمتني قبائل كثيرة من **القبائل البدائية**.. كلها لم تكن تلقنني إلا الخرافة..

وكنت بحكم طبيعتي المستسلمة التي ذكرتها لكم أسمع وأطيع.. وفوق ذلك كله ومعه أتعذب.. فلم يكن للخرافة أن تنشئ في نفسك ولا في عقلك سلاما.

قلنا: حدثنا عن هذه الفترة من حياتك.

ابتسم، وقال: هي فترة أقرب إلى الجنون منها إلى العقل.. ماذا سأحدثكم عنها؟

1() اختصرنا الكلام في هذا الفصل، لأن هناك رسالة مطولة خاصة بهذا الموضوع هي رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

قال ذلك، ثم غرق في صمت عميق قطعه بقوله: في البداية كنت فردا من قبيلة متعددة الفروع كانت تستوطن أستراليا وأفريقية والأمريكتين وبعض أقطار القارة الآسيوية وجزائرها(2).

وكنا نتخذ لأنفسنا في تلك القبائل حيوانا نجعله طوطما، ونعتبره أبا لنا، أو نزعم أن أبانا الأعلي قد حل فيه، وقد يكون الطوطم في بعض الحالات نباتا أو حجرا نقدسه كتقديس الأنصاب.

وكان في عرفنا أن القبيلة إذا اتخذت طوطما لها حرمت قتله وأكله في أكثر الأحوال.. وحرمت الزواج بين الذكور والإناث الذين ينتمون إلي ذلك الطوطم ولو من بعيد.. وقد يكون للقبيلة الكبري بطون متفرقة تتعدد طواطمها، ويجوز الزواج بين المنتمين إليها، ولكنهم يحرمونه في الطوطم الكبير.

قلنا: فقد كانت لكم آلهة متعددة إذن؟

ابتسم، وقال: آلهة كثيرة جدا.. وكنا متشردين في وسطها لا نرضي أحدها إلا بسخط الآخر..

لقد كان من آلهتنا أرباب الطبيعة، أو الأرباب التي تتمثل فيها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع.

وكان منها أرباب إنسانية، وهي الأرباب التي تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين، ممن نحسبهم من القادرين علي الخوارق والمعجزات.

وكان منها أرباب الأسرة، وهم الأسلاف الغابرون، يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهودة.

وكان منها أرباب المعاني، كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ورب العدل ورب الإحسان ورب السلام.

وكان منها أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ورب الطعام.

وكان منها أرباب النسل والخصب وهي علي الأغلب الأعم في صورة الإناث، وكنا نسميها بالأمهات الخالدات، وقد ترقت مع الزمن إلي واهبات الخلود بعد هبة الحياة.

وكان منها آلهة الخلق التي ننسب إليها خلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان.

وكان منها الآلهة العليا، وهي آلهة الخلق التي تدين عبادتها بشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن

2() استفدنا الكثير من المعلومات التاريخية المرتبطة بهذا من كتاب (الله) لعباس محمود العقاد.

والأخلاق، وتضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء.
قلنا: فهل انتهت رحلتك عند هذا الحد؟
قال: لقد بدأت رحلتي بهذا.. ولم تنته به.
قلنا: فحدثنا.
قال: قال: لقد قدر الله لي أن أرحل إلى بلاد **اليونان** في فترة كانت فيها ممتلئة بالأفكار المطعمة بالخرافات.
قلنا: فما رأيت؟
قال: لقد وجدتها في تلك العهود السحيقة ممتلئة بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب (الأوليمب) الذين خلدوا في أشعار هومير وهزيود.. لقد عبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة.. واستمدوا من جزيرة (كريت) عبادة النيازك وحجارة الرواسب التي شاعت بيت أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية.. فرمزوا بها إلي أرباب البراكين والعوالم السلفية.. واتخذها بعضهم (طوطم) ينتسبون إليها انتساب الأبناء إلي الآباء.
لقد كان أرباب الأوليمب في مبدأ أمرهم يقترفون أقبح الآثام ويستلمون لأغلظ الشهوات.. وقد قتل زيوس أباه (كرونوس) وضاجع ابنته، وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار، ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وغار من ذرية الإنسان، فأضمر له الشر والهلاك، وضن عليه بسر (النار) فعاقب المارد برومثيوس لأنه قبس له النار من السماء.
ولم يتصوروه خالقا للدنيا أو خالقا للأرباب التي تساكنه في جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب، فهو علي الأكثر والد لبعضها، ومنافس لأنداده منها، وتعوزه أحيانا رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد.
ولم يزل (زيوس)إلي عصر (هومير) خاضعا للقدر مقيدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه.
لقد صوره لنا الشاعر المتدين علي مثال أقرب إلي خلائق الرحمة والإنصاف، ومثال الكمال، ولكنه نسب الخلق إلي أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية.. وهي (جيا) ربة الأرض و(كاوس) رب الفضاء و(أيروس) رب التناسل والمحبة الزوجية، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأوليمب، وعلي رأسهم (زيوس) الملقب بأبي الأرباب.

قلنا: فهل ظللت طول عمرك في بلاد اليونان، واكتفيت بما عندها من الآلهة؟

قال: لا.. لقد زرت **الهند**، وبحثت في معابدها ومخطوطاتها، والتقيت برجال دينها.. وقد وجدت أن الديانات الهندية القديمة تعود إلى أزمنة أقدم من العصر الذي دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية..

لقد رأيت من خلال البحث المستوعب المستقصي أن (الله) في الديانات الهندية القديمة لم يكن واحدا.. بل كان أنواعا شتي من الآلهة.. منها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها.. فيذكرون المطر، ويشتقون منه اسم (الممطر).. ويعتبرونه الإله الذي يتوجهون إليه في طلب الغيث.. ومن هنا كان (أندر) هو إله السحاب، لأنه مشتق من كلمة (أندر) بمعني المطر، أو بمعني السحاب.

ويذكرون إلى جانب (أندر) إله النار.. وإله النور.. وإله الريح.. وإله البحار.. ويجمعونها جميعا في ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتي من الديانات..

وأقدم الأسماء عندهم كان اسم (ديفا) Deva.. وهو يعني (المعطي).. لقد بقيت آثار من هذا الاسم في اللغات اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثة.. فكلمة (ديو) الفرنسية Dieu وكلمة ديتي Deity الإنجليزية، وكلمة (زيوس) اليونانية القديمة مأخوذة من أصلها الهندي المتقدم.

بالإضافة إلى هذا، فقد رأيت البرهمية القديمة تشتمل علي عبادة الأسلاف.. كما تشتمل علي عبادة المظاهر الطبيعية.. ولذلك فإن تقديس الملك عندهم تقليد موروث من تقديس جد القبيلة.. وقد تحول إلي تقديس الرئيس الأكبر في الدولة بعد أن تحولت القبيلة إلي الأمة.

وقد وجدت أن عبادة (الطوطم) تعززت في الهند بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول.. فلذلك عبدوا الحيوان علي اعتباره جدا حقيقيا أو رمزيا للأسرة ثم للقبيلة.. ثم تطوروا أكثر(1)، فآمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه.. وآمنوا مع ذلك كله بتناسخ

1() هذا ما عبر به العقاد.. ويعبر به علماء مقارنة الأديان عادة عند بحثهم في تاريخ الأديان.. ونحن نرى أن الأمر ليس خاضعا للتطور المتوهم.. وإنما هو خاضع لتأثير رسل الله والدعاة إليه، كما قال تعالى :﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:24)

الأرواح.
ورأيت الطوطمية عاشت عندهم في أرقي العصور كما عاشت في عصور الهمجية لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم.. لكنهم خلصوا في الأخير إلى الإيمان بالإله الواحد، وإن اختلفوا في المنهج الذي سلكوه في التعرف عليه.. فلم يكن إيمانهم به علي الأساس الذي قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد.
قلنا: فإلى أين رحلت بعد الهند؟
قال: بعد الهند قصدت **الصين**.. وقد كنت آمل من خلال ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها أن أجد فيها جميع أنواع التصورات عن الإله..
لكني لم أجدهم ـ عبر تاريخهم الطويل ــ يحبون الخوض في مباحث ما وراء الطبيعة.. ولهذا فإن التدين بينهم يكاد يكون ضربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.
أما العبادات.. فأشيعها بينهم عبادة الأسلاف والأبطال.. وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية علي جملة الأرواح التي يعبدونها، ويمثلون بها عنصر الطبيعة أو مطالب المعيشة.. ولهذا، فإنه لا يقدر الصيني قربانا هو أغلي قيمة، وأحب إلي نفسه من قربانه إلي روح سلفه المعبود.. وهو يحتوي الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلي كل شيء كانت تحتاج إليه، وهي في عالم الأجساد.
والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم.. فما أرضي السلف فهو خير وما أسخطهم فهو شر.. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد.
وتتمشي عبادة العناصر الطبيعية جنبا إلي جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال.. فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة أكبرها إله السماء (شانج تي).. ويليه إله الشمس.. فبقية الأجرام السماوية.. فالعناصر الأرضية.
وهم يتقربون إلي (شانج تي) بالذبائح، ويبلغون صلواتهم بإشعال النار علي قمم الجبال، فيعلم الإله – مما أودعه الكاهن دواخينها- فحوي الرسالة التي يرفعها إليه عباده، ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

وإله السماء عندهم هـو (الإلـه) الـذي يصـرف الأكـوان، ويـدبر الأمور، ويرسم لكل إنسان مجري حياته الذي لا محيد عنـه.. وإنمـا يـداول تـركيب الوجـود من عنصـرين همـا (ين) عنصـر السـكون و(يانج) عنصر الحركة.. وقد يفسر عنصر السكون بالراحـة والنعيم وعنصـر الحركـة بالشـقاء والعـذاب.. فهمـا بهـذه المثابـة يقـابلان عنصري الخير والشر وإلهي النور والظلام في الأديان الثنائية.

وقـد امـتزجت عبـادة الأسـلاف بعبـادة العناصـر الطبيعيـة في القـرن العاشـر حين تسـمي عاهـل الصـين باسـم (ابن السـماء).. ويقـال إنـه اسـتعار الفكـرة من كـاهن ياباني أراد أن يزدلـف إليـه فعلمـه مراسـم تأليـه الميكـاد في بلاده.. فنقلهـا العاهـل إلي بلاد الصين.

وقد أراد الفيلسـوف (شوهسـتي) في القـرن الثـاني عشـر أن ينشيئ بوذية صينية توفق مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمــور، فـدعا إلي دين لا إلـه فيـه ولا خلـود للـروح، ووضـع (لي) موضـع (كارما) الهندية أو القانون أو القضاء والقدر.

وسـمي دولاب الـزمن (تايشـي) لأنـه هـو المحـرك لجميـع الكائنات، وجعل القانون والدولاب والمادة أو (ووشي) قوام العـالم ظاهرة وخافية.. وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك في الإنسان من قدح القانون للمـادة كمـا ينقـدح الحجـر من الزنـاد، فيخـرج الشـرر ثم ينطفئ فيموت.. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد مـتي (نضـجت) كما تنضج الثمرة في أجلهـا المعلـوم.. وقـد يبطئ النضـج فيطـول بقاء الروح فهي إذن طيـف أو شـبح، كأنهـا الـثرة في حالـة العفن والإهمال.

ولما مات كنفشيوس (478 ق. م) أقاموا لـه الهياكـل وعبـدوه علي سـنتهم في عبـادة أرواح الأسـلاف الصـالحين، وأوشـكوا أن يتخذوا عبادته عبادة رسمية علي عهد أسرة هان في القرن الثـاني قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم، وكـانت هياكلـه في الواقـع بمثابـة مـدارس يؤمهـا الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة.. ولم تـزل عبادتـه قائمة إلي العصور المتأخرة بل إلي القرن العشرين.. فخصـوه في سنة 1906 بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكـبر (شـانج تي) إلـه السماء لأنه في عرفهم (ند السماء) ومن لم يؤمن اليـوم بربوبيتـه من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقير يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده – وهو السـابع والعشـرون من شـهر أغسـطس-

عيـدا قوميـا يحجـون فيـه إلي مسـقط رأسـه، وينـوب عن الدولـة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه.

قلنا: لاشك أنك رحلت بعد الصين إلى **اليابان**!؟

قال: أجل.. وقد وجدت أن موقف اليابـان من الرسـالة الدينيـة كموقف الصين علي الإجمال.. فقد تشابهت عقائـدهم في أصـولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية.. وإذا كان لأهل اليابان سمة خصوصـية في العبـادات فهي أنهم اختـاروا ربـة أنـثي لعبـادة السـلف الأعلي حين وحـدوا الأسـلاف في أكبرهـا وأعلاهـا.. وتلـك الربة هي (اميتراسوا-أموكامي) التي لا تزال معبودة إلي اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغــاروا فيما قبل التاريخ علي جزيـرة كيوشـو، وأخضـعوا أهلهـا وطـردوهم منهزمين إلي الجبال، وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إلــه الــريح والمطر (سوسا- نـو- وو) فهبـط هـذا الإلـه بهـزيمتهم إلي المرتبـة التالية لمرتبة الربة السلفية.. ثم انعقدت الوئام بين الفـريقين بعـد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والممغـزوة، فأصـبح الإلهان أخوين وأصبحت (أميتراسو) هي كبري الأخوين.

ولا يعتقــد اليابــانيون أن هــذه الربــة خلقت الكــون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدها قـد سـبقته عهـود مديـدة تنـازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب.. وهـذه أربـاب عنـدهم هي بمثابــة الأرواح والملائكــة والجنــة والشــياطين من عناصــر الخــير والشر عند الأمم الكتابيـة.. ويسـمون الواحـد منهـا (كـامي).. وهي كلمة تطلق علي كل رائع خارق للعادة بالغ في القـوة أو الجمـال.. ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمـر إلي الربـة الكبري برضوان من خالق السماوات والأرضين.

أمـا الخلـق فهـو منسـوب عنـدهم إلي إلـه السـماء (أزانـاجي-نوميكوتو) وزوجته وأخته إلهـة الأرض (أزانـامي-نوميكوتـو).. فولـدا جزر اليابان وألقحاها ببذور الآلهة، وجاء أبنـاء اليابـان الآدميـون من سلالة الآلهـة.. فكلهم في النسـب الأعلي – وليس الميكـاد وحـده-إلهيون.

وفي إحدي الروايات الأسطورية أن ربـة الأرض احـترقت وهي تضع إله النار فجرد رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعثت من وميض سيفه ومن ضـرباته رهـط من أربـاب الزوابـع والـبروق والرعود.. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربتها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلـق في روايـة أخـري إلي (أزانـاجي) وحـده وهـو يبحث عن رفيقة صباه.. فمن عينه اليسـري خلقت الشـمس ومن عينه اليمني خلق القمر، ومن عطسته خلق (سوسـا- نـو- وو) رب الريـاح والأمطـار.. ولكنـه أعجب من بين أبنائـه بالشـمس دون شقيقيها فخلع عليها عقـدا يتلألأ بـالجواهر وبوأهـا أرفـع عـرش في السماء.

فالديانة اليابانية الأصلية شمسية سلفية جمعت معـني التوحيـد أولا في إله السماء حيث تصـوره أبـا للخليقـة بمفـرده أو مشـاركة زوجه، ثم جمعتها في الربة الواحدة علي اعتبارها ربـة مختـارة بين أرباب.

التحريف:

قال رجل منـا: نـراك لم تقصـد إلا الـديانات الأرضـية الممتلئـة بالخرافـة.. فلم لم تقصـد مـا يسـمى بالـديانات السـماوية.. لم لم تقصد اليهودية مثلا، فهي أقدم الديانات السماوية كما يقال؟

تنفس الصعداء، ثم قـال: من الصـعب التحـدث عن الإلـه عنـد اليهود بصفة علمية..

قلنا: لم؟

قال: لقد كان لكل عصـر إلهـه.. ولكـل جماعـة يهوديـة إلههـا.. ومن الصعب أن يحصر هذا حاصر..

لكني مع ذلك سأذكر لكم بعض ما قال رجل خبير في اليهوديـة استفدت منه كثيرا.. إنه رجل من المسلمين التقيت به كان اسـمه (عبد الوهاب المسيري)(1)

وقد حدثني هذا الرجـل الخبـير(2) أن الأصـل في (الإلـه) الـذي يؤمن به اليهود هو أنـه إلـه واحـد لا جسـد لـه ولا شـبيه.. لا تدركـه الأبصار.. وتعتمـد عليـه المخلوقـات كافـة.. ولا يعتمـد هـو على أيٍّ

1() عبـد الوهـاب المسـيري (1938-2008) مؤلـف موسـوعة اليهـود و اليهوديـة والصهيونية، وهي أحد أهم الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.. استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشـكل خـاص، و تجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثنـاء حياتـه الأكاديميـة من تطـوير مفهوم النماذج التفسيرية.

ولد في مدينة دمنهور في مصر في أكتـوبر عـام 1938.. تخـرج من كليـة الآداب عـام 1959، وحصل على الماجستير في الأدب الإنجليزي المقارن من جامعة كولومبيا بمدينـة نيويورك بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة عـام 1964، وعلى الـدكتوراه من جامعـة رتجـرز بنيوجيرزي عام 1969.. صدرت له عشرات الدراسات والمقالات عن إسرائيل والحركـة الصـهيونية، ويعتـبر واحـداً من أبـرز المـؤرخين العـالميين المتخصصـين في الحركـة الصهيونة.

2() انظر مادة (إله) من موسوعة اليهودية، للمسيري.

منها، إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها.
وأن كل مظاهر الطبيعة والتاريخ ليست إلا تعبيراً عن قدرته.. فهو روح الكون غير المنظورة، السارية فيه، والتي تُمده بالحياة؛ وتسمو عليه وتلازمه في آن واحد.
وأخبرني أن التوحيد في اليهودية وصل إلى ذروته على يد بعض الأنبياء الذين خلَّصوا التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية التي علقت به، فصار أكثر إنسانية وشمولاً وسمواً، وأقل عزلة وقومية وتعالياً.
وأخبرني أن هذا التيار التوحيدي استمر في مختلف فترات تاريخ اليهودية.. وتدل على بعض آثاره من الصلوات اليهودية دعاء الشماع، أي شهادة التوحيد اليهودية وقصائد مثل (آني مأمِّين) (إني مؤمن) و(يجدال) (تنزَّه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد.
وأخبرني أن التصور اليهودي للإله قد تراكم عليه في فترات التاريخ الطويلة ما انحرف به انحرافات كثيرة خطيرة.. حتى غدا التوحيد مجرد طبقة واحدة ضمن طبقات مختلفة.. فالعهد القديم، كما هو من خلال مصادره المتعددة، يطرح رؤى متناقضة للإله تتضمن درجات مختلفة من الحلول بعضها أبعد ما يكون عن التوحيد.
وتتبدَّى الحلولية في الإشارات العديدة إلى الإله، التي تصفه ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي، غضوب متعطش للدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء، بل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج 32/10 ـ 14)، وينسى ويتذكر (خروج 2/23 ـ 24)، وهو ليس عالماً بكل شيء، ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة يسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ (خروج 12/13 ـ 14)..
وهو إله متجرِّد، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة، فهو يطلب إلى اليهود (جماعة يسرائيل) أن يصنعوا له مكاناً مقدَّساً ليسكن في وسطهم (خروج 25/8)، كما يسير أمام جماعة يسرائيل على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم (خروج 13/21/22).

وهـو إلـه الحـروب (خـروج 15/3 ـ 4) يعلِّم يـدي داود القتـال (صمويل ثاني 22/30 ـ 35)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد 31/1 ـ 12)، وهو إله قـوي الـذراع يـأمر شـعبه بـألا يرحم أحداً (تثنية 7/16 ـ 18)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولـذا، فهـو يـأمر شـعبه المختـار بقتـل جميـع الـذكور في المــدن البعيــدة عن أرض الميعــاد، (أمــا ســكان الأرض نفســها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً) (تثنية 20/10 ـ 18) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقــاييس الأخلاقيــة لهــذا الإلــه تختلــف بــاختلاف الزمــان والمكان، ولذا فهي تتغيَّر بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهــود (جماعــة يســرائيل) بالســرقة، ويطلب من كــل امــرأة يهوديــة في مصر أن تطلب من جارتها ومن نزيلــة بيتهــا (أمتعــة فضــة وأمتعــة ذهب وثيابــاً وتضــعونها على بــنيكم وبنــاتكم فتســلبون المصــريين) (خروج 3/22)

وهكذا، فإننا نجد منذ البداية، أن فكرة الإلـه الواحـد المتسـامي تتعايش مع أفكار أخرى متناقضة معها، مثـل تشـبيه الإلـه بالبشـر، ومثــل فكــرة الشــعب المختــار، فهي أفكــار تتنــاقض مــع فكــرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين.

وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط أعضاء جماعة يسرائيل في عبادة العجل الـذهبي (ويتزعمهـا هـارون أخـو موسى)(1)، وأن يقبـل العهـد القـديم عناصـر وثنيـة مثـل الـترافيم والإيفود (الأصنام)، وكلها تعبير عن رؤية حلولية مشــركة لا تختلــف كثيراً عما جاء في العهد القديم.. ولهـذا ليس من الغـريب أن نجـد شعائر تدل على الثنوية في العبادة اليسرائيلية.

ورغم أن الإله، حسب بعض نصوص العهـد القـديم، يفصـح عن نفسه في الطبيعـة والتـاريخ ويتجاوزهمـا، فهـو مصـدر النظـام في الطبيعة، وهو أيضاً الذي يجعل التاريخ في نظام الطبيعة وتناسـقها، إلا أننــا نجــده يتحــول من كونــه حقيقــة مطلقــة تعلــو على المــادة (الكونية الطبيعية أو التاريخية) يصبح امتداداً لما هو نسبي، وامتداداً للشـعب اليهـودي على وجـه الخصـوص.. فيصـبح الخـالق امتـداداً لوعي الأمة بنفسها، فيظل إلهاً قومياً خاصاً مقصـوراً على الشـعب

1() حسبما ينص الكتاب المقدس.. أما القرآن الكريم فهو يبرئ هـارون ﷺ، وينسـب العبادة للسامري.

اليهودي وحده، بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها (خروج 6/7) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب.

ولذا، نجد أن الشعب ككل، وليس الإنسان ذو الضمير الفردي، يشهد على وحدانية الإله في صلاة الشماع، ويظهر الاتجاه نفسه في أفكار دينية مثل الاختيار والوعد الإلهي وأرض الميعاد التي تصبح مقدَّسة ومختارة تماماً مثل الشعب (وتلاحُم الإله بالأرض والشعب هو الثالوث الحلولي).

ولهذا، ظلت اليهودية دين الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل) وحده، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشعب دون سواه، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه.. كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يدور بإرادة الإله حول حياة ومصير اليهود.. ويتضح هذا في مفهوم التاريخ اليهودي المقدَّس الذي لا يمكن فهم تاريخ الكون بدونه، كما يتبدَّى في رؤية آخر الأيام حيث ترتبط صورة الآخرة والنشور في كتب الرؤى (أبوكاليبس)، وفي بعض أجزاء العهد القديم، بسيادة اليهود على العالمين، ثم يتعمق الاتجاه الحلولي مع ظهور اليهودية التلمودية الحاخامية.. ويزداد الحلول الإلهي، فنجد أن القداسة تتعمق في الحاخامات من خلال مفهوم الشريعة الشفوية، حيث يتساوى الوحي الإلهي بالاجتهاد البشري، ويصبح الحاخامات ذوي إرادة مستقلة يقارعون الإله الحجة بالحجة، وتُجمَع آراؤهم في التلمود الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة (التي يفترض أنها معادلة للإله وتحوي سر الكون).

وقد بلغ الحلول الإلهي درجة أن المشناه (التي تضم تفسير الحاخامات) شُبِّهت باللوجوس في اللاهوت المسيحي، أي أنها كلمة الإله المقدَّسة، كانت موجودة في عقله منذ الأزل.. وتُستخدَم كلمة «ابن الله» للإشارة إلى الشعب اليهودي، أي أنه هو أيضاً اللوجوس.

ويخلع التلمود على الإله صفات بشرية بشكل عام، ويهودية بشكل خاص، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة.

وقد جاء في التلمود أنه بعد وصول الماشيَّح، سيجلس الإله على عرشه يقهقه فرحاً لعلو شأن شعبه، وهزيمة الشعوب الأخرى التي تحاول دون جدوى أن يكون لها نصيب في عملية الخلاص، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يزدادان قداسة ومركزية في الدراما الكونية.. ويقضي الإله وقته وهو يلعب مع

حوت، ويبكي من أجل هدم الهيكل، ويندم على فعلته، وهو يلبس العمائم، ويجلس على عرشه، ويدرس التوراة ثلاث مرات يومياً.. وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور.

ويصل الحلول إلى منتهاه، وإلى درجة وحدة الوجود في تراث القبَّالاه، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدَّس وجوهر بقية البشر، ويصبح الفرق بين اليهود والأغيار فرقاً ميتافيزيقياً، فاليهود قد خُلقوا من مادة مقدَّسة (حل فيها الإله بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلقت منها بقية البشر. ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إيحاءات جنسية، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبَّالي.

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبَّالي، فالإله لا يخلق العالم من العدم، وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفيروت) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون) أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان، وتستقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحدث مع الشخيناه (التجلي العاشر).. كما أن التجلي المذكر للإله يطارد التجلي المؤنث، وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبَّالي، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي.

وفي داخل التراث القبَّالي، يصبح التجلي العاشر (شخيناه) الذات الإلهية والتعبير الأنثوي عن الإله، وهو نفسه جماعة يسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين، ثم تصل الحلولية إلى ذروتها والشرك إلى قمته، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكاً للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتماداً على الإنسان.

وبعد عملية السقوط، وتَهشُّم الأوعية في القبَّالاه اللوريانية، تتفتت الذات الإلهية نفسها، وتتوزع الشرارات الإلهية، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال شعبه اليهودي..

فاليهود، بآثامهم، يؤخرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم، بأفعالهم الخيرة، يعجلون بها.. ولذا، فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

ويظهر هذا النزوع الحلولي المتطرف في أحد التعليقات القبَّالية في أحد كتب المدراش على إحدى فقرات سفر أشعياء (43/12)، حيث جاء فيها:(أنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله)، وهي فقرة تؤكد وحدانية الإله وتساميه. وهي وإن كانت تتحدث عن علاقة خاصة، فإنها مع هذا أبعد ما تكون عن الحلولية أو الشرك. ولكن كاتب المدراش الحاخامي يفرض الطبقة الحلولية على الطبقة التوحيدية فرضاً فيفسرها بقوله: (حينما تكونون شهودي أكون أنا الإله، وحينما لا تكونون شهودي فكأنني لست الإله)، وكأن كينونة الإله من كينونة الشعب وليس العكس.

بل إن كمال الإله يتوقف على الشعب، إذ قال أحد الحاخامات: (حينما ينفذ اليهود إرادة الإله، فإنهم يضيفون إلى الإله في الأعالي. وحينما يعصي اليهود إرادة الإله، فهم كما لو أنهم يضعفون قوة الإله العظمى في الأعالي)

ورغم أن كاتب المدراش يستخدم دائماً عبارة (كما لو أن) لتأكيد بعدها المجازي، فإن تكرارها وارتباطها بالمفاهيم الأخرى ينقلها من عالم المجاز إلى عالم العقائد الحرفية المباشرة التي لا تحتاج أي تفسير.

وعلى أية حال، فإن التيار التوحيدي ظل لمدة طويلة أساسياً في النسق الديني اليهودي، بل كان يكتسب أحياناً قوة كما حدث من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي، كما هو الحال مع كلٍّ من سعيد بن يوسف الفيومي وموسى بن ميمون.. وكثيراً ما حاول الحاخامات الوقوف ضد الاتجاه الحلولي الشعبي (الفلكلوري)، فحاولوا أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنها مجرد محاولة لتبسيط الأمور حتى يفهمها العامة. بل يُلاحَظ أن عبارة (كما لو أن) كانت تضاف حتى في التفسيرات القبَّالية الحلولية الأولى لتأكيد الطابع المجازي للخطاب، ولكن هذا التحفظ تآكل بالتدريج وتغلغلت القبَّالاه ذات الأصول الشعبية في صفوف العامة ثم في صفوف المؤسسة الحاخامية نفسها وسيطر فكر حلولي حرفي متطرف. ومع تغلغل القبَّالاه ذات الأصول الشعبية والغنوصية والتي اكتسبت أبعاداً مسيحية، حدثت عملية تنصير

لليهودية، حيث فقدت اليهودية هويتها واكتسبت هوية شبه مسيحية جديدة تستند إلى تشويه العقائد المسيحية.

ومع بدايات العصر الحديث، كانت الحسيدية أوسع المذاهب انتشاراً، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل ما تحمل من شرك وثنوية. ويتضح هذا في الدور الذي يلعبه التساديك فإرادته معادلة لإرادة الإله، فهو الوسيط بين اليهود والخالق، وهو محل القداسة، وهو الإنسان التقي صاحب القدرة الذي يمكنه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته.

وقد تبنَّى الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر رؤية حلولية للإله، فتحدث عن الحوار الدائر بين الشعب والإله باعتبار أنهما طرفان متساويان، وهذا تَصوُّر ممكن داخل إطار حلولي قومي. كما نجد فرقاً يهودية حديثة مثل اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشعب المقدَّس، مع إسقاط فكرة الإله تماماً (حلولية موت الإله)، أو وضعها في مرتبة ثانوية (حلولية شحوب الإله).

ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثل إيوجين بوروفيتز يتحدث عن حرب عام 1967 باعتبار أنها لم تكن تهدد دولة إسرائيل فحسب، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإله والشعب والأرض يُكوِّنان جوهراً واحداً، فمن أصاب جزءاً من هذا الجوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال)، فقد أصاب الذات الإلهية نفسها.

بل إن بعض المفكرين الدينيين اليهود يتحدثون عن (لاهوت موت الإله)، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خال تماماً من أي جوهر إلهي مفارق، فهي حلولية بدون إله. وقد تفرَّع من هذا (لاهوت الإبادة) أو (لاهوت ما بعد أوشفيتس) الذي يذهب دعاته إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي.. كما يذهبون إلى أن المطلق أو الركيزة النهائية هو الشعب اليهودي (دون الإله) وأن القيمة الأخلاقية المطلقة هي البقاء، وأن الآلية الأساسية لإنجاز ذلك هي الدولة الصهيونية، فكأن الدولة الصهيونية هي الإله أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله.

الضلال:

قال رجل منا: فهلا تركت اليهود إلى المسيحيين.

قال: لقد فعلت.. وقد كان أول ما قصدته الكتاب المقدس.. لكني وجدته بعهديه متضاربا في ذلك غاية التضارب..

فبينما قرأت هذا النص في (إشعياء: 46 /9): (اذكروا الأوليات منذ القديم لاني انا الله وليس آخر. الاله وليس مثلي)

وهذا النص في (هوشع 11 /9): (لا اجري حمو غضبي لا اعود اخـرب افـرايم لأني اللـه لا انسـان القـدوس في وسـطك فلا آتي بسخط)

وهذا النص في (إرميا 10 /6): (لا مثل لك يـا رب عظيم انت وعظيم اسمك في الجبروت)

وهذا النص في (إشعياء46 /5): (بمن تشـبهونني وتسـوونني وتمثلونني لنتشابه)

وهذا النص في (إشعياء 40 /25): (فبمن تشبهونني فأساويه يقول القدوس)

وهذا النص في (إشـعياء40 /18): (فبمن تشـبهون اللـه وأي شبه تعادلون به)

وهذا النص في (عدد 23 /19): (ليس الله انسانا فيكـذب.ولا ابن انسان فيندم.هل يقول ولا يفعل او يتكلم ولا يفي)

فهذه النصوص جميعا تدل على تقدس الله وتنزهه..

إلا أني قرأت معها الكثير من النصوص تصف اللـه بمـا لا يمكن أن يوصـف بـه إلـه.. ولـذلك لم يصـعب عليهم أن يرسـموه في الكنائس والمعابد بصورة رجل عجوز ذي لحية طويلة بيضاء يظهـر عليه الشيب والعجز والتعب..

لقد كان لهذه الصورة سندها من الكتاب المقدس..

ففي الكتاب المقدس النصوص التي تصف الله **بالعجز**.. ففي (تكوين32 /24-28) نبأ مصـارعة يعقـوب للـه : (فبقي يعقـوب وحده.وصارعه انسان حتى طلوع الفجر.. وقـال اطلقـني لأنـه قـد طلع الفجر.فقال لا اطلقك ان لم تباركني)

هكـذا ينص الكتـاب المقـدس على أن يعقـوب حـارب الـرب وهزمه.. بل أوثقه.. بل إن الرب طلب منه أن يطلقه لأن الفجر قد طلع.. ولا أعلم ما علاقة طلوع الفجر برغبـة الـرب في الانصـراف ومحايلة يعقوب حتى يطلقه ؟

وفي (إنجيـل مـرقس 6 /5) أن الـرب ـ والمقصـود هنـا هـو يسوع ـ عجز عن صنع معجزة : (ولم يقدر ان يصنع هنـاك ولا قـوة واحدة غير انه وضع يديه على مرضى قليلين فشفاهم)

وفي سفر القضاة لم يستطع الـرب أن يطـرد سـكان الـوادي، لأن مركباتهم حديدية.. ففي (القضاة 1 /19): (

وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادي لان لهم مركبات حديد)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسكر**.. ففي (المزمور 78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيط من الخمر)

وفي (مزمـور75 /8) : (لان في يـد الـرب كاسـا وخمرهـا مختمرة ملآنة شرابا ممزوجا وهو يسكب منهـا لكن عكرهـا يمصـه يشربه كل اشرار الارض)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينام**.. ففي (مزمور35 /22) : (قد رأيت يا رب لا تسكت يا سـيد لا تبتعـد عـني اسـتيقظ وانتبه الى حكمي يا الهي وسيدي الى دعواي)

وفي (مزمور78 /65): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معّيـط من الخمر)

وفي (مزمور44 /23): (استيقظ.لماذا تتغافى يا رب. انتبـه. لا ترفض الى الابد)

وفي (زكريا2 /13): (اسكتوا يا كل البشر قـدام الـرب لأنـه قد استيقظ من مسكن قدسه)

وفيه النصوص التي تـدل على أن الـرب الـرب **يمشي على عكاز**، ففي (قضـاة6 /20-23): (فقـال لـه ملاك اللـه خـذ اللحم والفطير وضعهما على تلك الصخرة واسكب المرق.ففعـل كـذلك. فمدّ ملاك الـرب طـرف العكـاز الـذي بيـده ومس اللحم والفطـير فصعدت نار من الصخرة واكلت اللحم والفطير.وذهب ملاك الرب عن عينيه. فرأى جدعون انه ملاك الرب فقال جدعون آه يا سيدي الرب لاني قد رأيت ملاك الرب وجها لوجه. فقال له الرب السـلام لك.لا تخف.لا تموت)

وفي (مزمور23 /4): (ايضا اذا سرت في وادي ظل الموت لا اخاف شرا لانك انت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الـرب **جاهل**.. ففي (رسـالة بولس إلى أهل كرونثوس الأولى 1 /25) : (لان جهالة الله احكم من الناس. وضعف الله اقوى من الناس)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عنده خزانة، وفيهـا آلات الرجز**.. ففي (إرميا50 /25(: (فتح الـرب خزانتـه واخـرج آلات رجزه لان للسيد رب الجنود عملا في ارض الكلدانيين)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يسيئ**.. ففي (1ملوك 17 /20) : (وصـرخ الى الـرب وقـال ايهـا الـرب الهي أيضـا الى

الارملة التي انا نازل عندها قد اسأت بإماتتك ابنها)

وفي (العدد 11 /ـ 11): (فقال موسى للرب لماذا اسأت الى عبدك ولماذا لم اجد نعمة في عينيك حتى انك وضعت ثقل جميع هذا الشعب عليّ)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينقض العهد**.. ففي (زكريا11 /10): (فاخذت عصاي نعمة وقصفتها لانقض عهدي الذي قطعته مع كل الاسباط فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم اذل الغنم المنتظرون لي انها كلمة الرب)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يصيح كالوالدة وينخر ويخرب.**. ففي (إشعياء 42 /13-16): (الرب كالجبار يخرج.كرجل حروب ينهض غيرته.يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت.كالوالدة اصيح.انفخ وانخر معا اخرب الجبال والآكام واجفف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الآجام واسير العمي في طريق لم يعرفوها.في مسالك لم يدروها امشيهم.اجعل الظلمة امامهم نورا والمعوجات مستقيمة هذه الامور افعلها ولا اتركهم)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **ينسى**.. ففي (مزمور 13 /1) : (الى متى يا رب تنساني كل النسيان.الى متى تحجب وجهك عني)

وفي (خروج2 / 24): (فسمع الله انينهم فتذّكر الله ميثاقه مع ابراهيم واسحق ويعقوب)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يأكل الخرفان**.. ففي (العدد 28 /1-9): (وكلم الرب موسى قائلا. (2) اوص بني اسرائيل وقل لهم.قرباني طعامي مع وقائدي رائحة سروري تحرصون ان تقربوه لي في وقته. (3) وقل لهم.هذا هو الوقود الذي تقرّبون للرب خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة. (4) الخروف الواحد تعمله صباحا والخروف الثاني تعمله بين العشاءين. (05) وعشر الايفة من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت الرض تقدمة. (6) محرقة دائمة.هي المعمولة في جبل سيناء.لرائحة سرور وقودا للرب. (7) وسكيبها ربع الهين للخروف الواحد.في القدس اسكب سكيب مسكر للرب. (8) والخروف الثاني تعمله بين العشاءين كتقدمة الصباح وكسكيبه تعمله وقود رائحة سرور للرب (9) وفي يوم السبت خروفان حوليّان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت تقدمة مع سكيبه)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **عمود سحاب نهارا وعمود نار ليلا**.. ففي (خروج:13 /21): (وكان الرب يسير امامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم.لكي يمشوا نهارا وليلا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يصفر للذباب ويعمل حلاقاً ويصفق**.. ففي (إشعياء 7 /18-20): (ويكون في ذلك اليوم ان الرب يصفر للذباب الذي في اقصى ترع مصر وللنحل الذي في ارض اشور (19)فتأتي وتحل جميعها في الاودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعي. (20)في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة في عبر النهر بملك اشور الراس وشعر الرجلين وتنزع اللحية ايضا)

وفي (إشعياء 5 /26): (فيرفع راية للامم من بعيد ويصفر لهم من اقصى الارض فاذا هم بالعجلة ياتون سريعا)

وفي (التكوين 6 /6): (فحزن الرب انه عمل الانسان في الارض.وتأسف في قلبه)

وفي (حزقيال 21 /17) : (وانا ايضا اصفّق كفّي على كفّي واسكن غضبي.انا الرب تكلمت)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يأمر الناس بسب الأنبياء**.. ففي (صموئيل الثاني 16 /10) : (فقال الملك ما لي ولكم يا بني صروية.دعوه يسب لان الرب قال له سبّ داود ومن يقول لماذا تفعل هكذا. (11) وقال داود لابيشاي ولجميع عبيده هوذا ابني الذي خرج من احشائي يطلب نفسي فكم بالحري الآن بنياميني.دعوه يسب لان الرب قال له)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يحتاج علامة ليتذكر بها**.. ففي (تكوين 9 /15-16): (اني اذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حيّة في كل جسد. فلا تكون ايضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد فمتى كانت القوس في السحاب ابصرها لأذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حيّة في كل جسد على الارض)

وفي (خروج 12 /13): (ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي انتم فيها فأرى الدم واعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين اضرب ارض مصر)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب **يولول ويبكي ويصرخ ويصوِت**.. ففي (ميخا1 /8): (من اجل ذلك انوح

وأولول. امشي حافيا وعريانا. اصنع نحيبا كبنات آوى ونوحا كرعـال النعام)

وفي (إرميا 48 /30-32): (انا عرفت سخطه يقول الرب انه باطل. اكاذيبه فعلت باطلا. من اجل ذلك اولول على مــوآب وعلى موآب كله اصرخ.يـؤنّ على رجـال قـير حـارس. ابكي عليـك بكـاء يعزير يا جفنة سـبمة قـد عـبرت قضـبانك البحـر وصـلت الى بحـر يعزير وقع المهلك على جناك وعلى قطافك)

وفي (إرميا 48 /35-36): (وابطل من موآب يقول الرب من يصعد في مرتفعة ومن يبخر لآلهتـه. من اجـل ذلـك يصـوّت قلـبي لموآب كناي ويصوت قلبي لرجال قير حارس كناي لان الثروة التي اكتسبوها قد بادت)

الإلحاد:

قلنا: لاشك أنك قصدت الإسلام بعد أن يئست من المسيحية؟

قال: ليتني فعلت ذلك.. لو فعلت ذلك لكـانت ــ ربمـا ــ حيـاتي مختلفة تماما عما ترونه الآن.

قلنا: فمن قصدت إذن؟.. نراك قد جلت على جميع الأديان.

قال: بعد أن امتلأت بالصراع هربت من الله الذي نذرت حيـاتي كلها للبحث عنه..

قلنا: كيف؟

قال: في غمـرة تلـك الآلام لاقـاني رجـل كـان يقـال لـه (آرثـر شوبنهاور).. قال لي بلهجة حادة: إن الإله ليس شيئا سـوى صـنيعة من صنائع البشر، ابتكروها لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعيـة أو نفسـية أو اجتماعيـة، وكـان الغـرض منـه تنظيم حيـاة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الـدين مناسـبا، وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الـذين عن جهـل قـرروا بـالالتزام بمجموعة من القيم البالية.

ثم أضاف يقول: من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد.. فالاله الشـديد البطش الـذي أنـزل 12 مصـيبة على المصريين القدماء، وقتل كـل مولـود أول ليخـرج اليهـود من أرض مصر هو ليس نفس الالـه الـذي ينصـحك بـأن تعطي خـدك الآخـر ليتعرض للصفع دون ان تعمل شيئا.

قلت له بنفس اللهجة التي خـاطبني بهـا: فمـا تقـول في هـذه الحياة ومعجزاتها؟

ابتسم بخبث، وقال: لا شك أنك لا تعرف تشارلز داروين.

قلت: ما به؟
قال: لقد حل المشكلة.. فالحياة من صناعة الصـدفة والتطـور والارتقاء.
قلت: والإله؟
قال: لقد أعلن (فريدريك نيتشه) موته.. وأعلن أن الدين فكـرة عبثيـة، وجريمـة ضـد الحيـاة إذ أنـه من غـير المعقـول ان يعطيـك الخالق مجموعة من الغرائز و التطلعات، وفي نفس الوقت يصـدر تعـاليم بحرمانـك منهـا في الحيـاة ليعطيـك إياهـا مـرة أخـرى بعـد الموت.
قلت: ولكن الحياة لا تستقيم من دون إله؟
قال: لاشك أنك لا تعرف كارل ماركس!؟
قلت: ما به؟
قـال: لقـد اكتشـف ذلـك الفيلسـوف العظيم أن الـدين أفيـون الشعوب.. إنه يجعل الشعب كسولا و غير مؤمنا بقدراته في تغيـير الواقــع.. واكتشــف أن الــدين تم اســتغلاله من قبــل الطبقــة البورجوازية لسحق طبقة البسطاء.
قلت: ولكن النفس الإنسـانية تطلب إلهـا.. الفطـرة لا تسـتقيم من دون؟
قال: لا شك أنك لا تعرف (سيغموند فرويد)؟
قلت: ما به؟
قال: لقد اكتشـف هـذا العبقـري العلامـة أن الـدين وهم كـانت البشرية بحاجة اليه في بداياتها.. واكتشف أن فكرة وجود الاله هـو محاولة من اللاوعي للوصـول إلى الكمـال في شـخص مثـل أعلى بديل لشخصـية الأب إذ أن الأنسـان في طفولتـه ينظـر إلى والـده كشخص متكامل وخارق، ولكن بعد فتره يدرك أنه لا وجود للكمال فيحاول اللاوعي ايجاد حل لهذه الأزمة بخلق صورة وهميـة لشـيء اسمه الكمال.

***

ظللت مع (آرثر شـوبنهاور) وأصـحابه مـدة من الـزمن إلى أن امتلأت باليأس من وجود اللـه.. وهنـاك شـعرت بفـراغ عظيم.. لم أجد للحياة أي معنى أو طعم.. فلذلك رحت ألتمس المـوت وأبحث عنه.
وقد لاقاني في طريقي وأنـا أبحث عن المـوت رجـل يقـال لـه (هونج ينج شين) كان زعيما لكنيسة خلاص الله، وكان يعـرف لـدى

أعضاء طائفته بالمعلم شين.
عندما رأيته، ورأيت الموت في عينيه قال لي: إن الله سيأتي إلى الأرض في طبق طائر في ضاحية دالاس.. فتعال لتنظر إلى ذلك الحدث العظيم.
في اليوم الموعود ذهبت فلم أجد غيره.. لم أجد غير (هونج ينج شين)، فسألته، فقال لي: إن الله سيظهر على شاشة القناة الثامنة عشرة وفي أجهزة التلفاز المنتشرة في العالم منتصف يوم 24 مارس، وفي يوم 31 مارس الساعة العاشرة صباحاً.
انتظرت ذلك الوقت بلهفة فلم أجد غيره.. لم أجد غير (هونج ينج شين)، فسألته، فقال لي: لا يمكنك أن تعرف الله إلا بعد أن تموت.
قلت: لم يحضر أجلي بعد.
قال: أجلك بيدك.. يمكنك أن تقربه، ويمكنك أن تبعده.
قلت: فكيف أقربه؟
أعطاني قارورة صغيرة، وقال: تناول من هذه القارورة، وسترى الموت الذي يقربك من الله.
أخذت القارورة من يده، وسرت بها إلى بعض الحدائق.. لكني ما إن مددت بفمها إلى فمي حتى سمعت صوتا يردد بصوت جميل هذه الكلمات :﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165)﴾ (البقرة)

السلام

كان للصوت من القوة والدفء والحنان ما جعلني أصيح من حيث لا أشعر: هذا هو الإله الذي ظللت طول عمري أبحث عنه.. فدلوني عليه.
أقبل إلي الرجل القارئ، وقال: ها أنذا بين يديك.. ما الذي تطلبه مني؟
قلت بلهفة وحزن: أنا أبحث عن ربي.. لقد ظللت طول عمري

أبحث عنه.. ولكني لم أجد في بحثي إلا السراب.

قال لي: وأنا محمـد.. جئت من بلاد بعيـدة.. وليس لي من دور إلا التبشير بالإلـه الحقيقي الـذي حـاول قطـاع الطـرق أن يحجبـوا الخلق عنه.

قلت: فهلم دلــني عليــه.. فلا يمكن لــروحي أن تســمو.. ولا لنفسـي أن تطمئن إلا بصـحبته.. وإيـاك وأحـاديث اللصـوص فقـد ملأوني أوهاما.

قال: جل جناب الحق أن يترك اللصوص وحدهم.. وجـل جنـاب الحق أن يترك الدنيا بلا هـاد يـدل عليـه.. إن كـرم الكـريم ورحمـة الرحيم ولطف اللطيف يأبى ذلك.

قلت: أراك تذكر أسماء كثيرة.. فلمن هي؟

قال: هي أسماء ربي.. لربي من الأسماء ما يـدل عليـه.. ونحن نتعرف عليه من خلالها، ونتعامل معه على أساسها.. فبمـا أن اللـه غـني، فنحن فقـراء إلى فضـله، قـال تعـالى :﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَـرَاءُ إِلَى اللـهِ وَاللـهُ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ ﴾ (فـاطر:15)، وقـال تعـالى :﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَـةِ إِنْ يَشَـأْ يُـذْهِبْكُمْ وَيَسْـتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (الأنعـام:123)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (فَاطِر:3)

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتعالي :(يَـا عِبَـادِي إِنَّكُمْ لِنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَـا عِبَـادِي لـوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِـرَكُمْ وَإِنْسَـكُمْ وَجِنَّكُمْ كَـانُوا على أَتْقَى قَلبِ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلـكَ فِي مُلكِي شَـيْئًا، يَـا عِبَـادِي لـوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِـرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا على أَفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِـدٍ مَـا نَقَصَ ذَلـكَ مِنْ مُلكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لوْ أَنَّ أَوَّلكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَ إِنْسَانٍ مَسْأَلتَهُ مَا نَقَصَ ذَلـكَ مِمَّا عِنْـدِي إِلا كَمَـا يَنْقُصُ المِخْيَـطُ إِذَا أُدْخِـلَ البَحْـرَ، يَـا عِبَـادِي إِنَّمَـا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَـا فَمَنْ وَجَـدَ خَيْـرًا فَلْيَحْمَـدِ اللـهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَه)[1]

قلت: إن لحديث ربك حلاوة.. فدلني عليـه.. وعرفـني بأسـمائه الحسنى.. لعلي أحيط بمعرفته علما.

قـال: ربي أعظم من أن يحـاط بـه علمـا.. قـال تعـالى:﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾(طه: 110)

1() رواه مسلم.

إن البشر الـذين عجـزوا عن معرفـة أبسـط أسـرار المكونـات كيف يطمعون في الإحاطة برب المكونات.

قلت: فسم لي أسماء ربك.. لعلي أعبر منها إلى ذاته.

قال: البشر جميعا بجميـع عقـولهم وطاقـاتهم أعظمـوا من أن يحصروا أسـماء ربهم.. لقـد قـال تعـالى : ﴿ لِلَّهِ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيـدُ (26) وَلَـوْ أَنَّمَـا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِـدَتْ كَلِمَـاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27)﴾ (لقمان)

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ:(مَا قَالَ عَبْـدٌ قَـطُّ، إِذَا أَصَـابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ : اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْـدِكَ ابْنُ أَمَتِـكَ، نَاصِـيَتِي بِيَـدِكَ، مَـاضٍ فِيَّ حُكْمُـكَ، عَـدْلٌ فِيَّ قَضَـاؤُكَ، أَسْـأَلُكَ بِكُـلِّ اسْـمٍ هُـوَ لَـكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَـهُ أَحَـداً مِنْ خَلْقِـكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُـورَ بَصَرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلا أَذْهَبَ اللـهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَـهُ مَكَـانَ حُزْنِهِ فَرَحاً)(1)

قلت: فسم لي من أسمائه ما أطيق(2).

الواحد:

قال: ربي **هو الواحد الأحد**.. وصف نفسه، فقـال:﴿ قُـلْ هُـوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: 1)، وقال :﴿ قُـلِ اللَّهُ خَـالِقُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَهُـوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الرعد: 16)

قلت: من هو الواحد الأحد؟

قال: هو الذي تفرّد بكل كمال، ومجـد وجلال، وجمـال، وحمـد، وحكمة، ورحمة، وغيرها من صفات الكمال، فليس لـه فيهـا مثيـل ولا نظـير، ولا مناسـب بوجـه من الوجـوه، فهـو الأحـد في حياتـه، وقيوميتـه، وعلمـه، وقدرتـه، وعظمتـه، وجلالـه، وجمالـه، وحمـده، وحكمته، ورحمته، وغيرها من صفاته.. وهو موصوف بغاية الكمال، ونهايته من كل صفة من هذه الصفات..

العلي:

قلت: إن ذلك حسن يدل عليه كل شيء.. فما غيره؟

قال: ربي هو **العلي الأعلى..** يقول في كتابه الكـريم واصـفا نفسـه:﴿ وَلا يَـؤُودُهُ حِفْظُهُمَـا وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقـرة: 255)، وقال:﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ (الأعلى: 1)

1() رواه ابن حبان.

2() سنذكر هنا ملخصـا مختصـرا لبعض الأسـماء الحسـنى وسـنرى التفاصـيل والأدلـة المرتبطة بها في رسالة (الباحثون عن الله) من هذه السلسلة.

قلت: من العلي الأعلى؟

قال: هو الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه.. وهو الذي لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى: ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾(طه:110).. وهو ليس كمثله شيء في كل نعوته.. وهو الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن.. فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه.

الأول، والآخر، والظاهر، والباطن:

قلت: إن ذلك حسن تدل عليه كل الحقائق.. فما غيره؟

قال: ربي هو **الأول، والآخر، والظاهر، والباطن**.. قال تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) ﴾ (الحديد)

قلت: إن هذا النص الذي تلوته يتناول القلوب، فيهزها هزاً، ويأخذها أخذاً..

قال: أجل.. إنه يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله، ولا ترى إلا الله، ولا تحس بغير الله، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه، ولا مرجعاً إلا إليه، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم.

قلت: فما معنى هذه الأسماء؟ :

قال: لقد فسرها النبي ﷺ فقال مخاطبا لربه: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)(1)

قلت: ففسر لي ما قال؟

قال: إنه يعني أن الله هو الأول فليس قبله شيء.. وهو الآخر فليس بعده شيء.. وهو الظاهر فليس فوقه شيء.. وهو الباطن فليس دونه شيء..

هو الأول والآخر مستغرقاً كل حقيقة الزمان..والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان.. وهما مطلقتان.

قلت: إن هذا يعني أن الله هو الموجود الوحيد في الكون.

قال: أجل.. إن الله هو صاحب الوجود الحقيقي في الكون.. وكل شيء يستمد وجوده منه..

1() رواه مسلم.

قال ذلك، ثم أخذ ينشد بصوت عذب:

الله قل وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون الله أن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال

والعارفون بربهم لم يشهدوا ... شيئاً سوى المتكبر المتعال

ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ... في الحال والماضي والاستقبال

قلت: إن لما تقوله تأثيرا عظيما في النفس لا يمكن وصفه.

قال: أجل.. إن هذه الحقائق إذا استقرت في قلب، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله ؟ وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود - حتى ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمده من تلك الحقيقة الكبرى؟ وكل شيء وهم ذاهب، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء(1)؟

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة.

الخالق، البارئ، المصور:

قلت: فزدني من أسماء ربك.

قال: ربي هو **الخالق، البارئ، المصور..** قال تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (الحشر:24)، وقال : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(الأنعام:102)، وقال :﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزمر:62)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر:3)، وقال :﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ) (النحل:17)، وقال :﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ

1() في ظلال القرآن، سيد قطب.. وقد رددنا على الشبهات المرتبطة بهذا وأمثاله في رسالة (أكوان الله) من سلسلة (عيون الحقائق) من (رسائل السلام)

اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (النور:45)، وقال :﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (القصص:68)، وقال :﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (الزخرف:16)، وقال :﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (الرعد:16)، وقال :﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (غافر:62)

قلت: فما تعني هذه الأسماء؟

قال: إنها تجعلك ترى كل شيء من تصميم الله وصناعته وخلقه.. فلا شيء من الله.. ولا شيء إلا بالله..

القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المانع، المعطي، الضار، النافع:

قلت: إن هذا جميل يملؤني بالسلام.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو **القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المانع، المعطي، الضار، النافع**.. قال تعالى:﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة:245)، وقال :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ (الفرقان: 45-46)، وقال :﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ (الشورى: 27)، وقال :﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ (الإسراء:30)، وقال :﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الشورى:12)

وكان النبي ﷺ يدعو، فيقول :(اللَّهُمَّ لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ وَلاَ هَادِىَ لِمَا أَضْلَلْتَ وَلاَ مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلاَ مُعْطِىَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ وأعوذ بك مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ منا)(1)

وروي أن النَّاس قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ غَلاَ السِّعْرُ فَسَعِّرْ لَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّازِقُ وإني لأَرْجُو أَنْ أَلْقَي اللَّهَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يُطَالِبُنِي بِمَظْلَمَةٍ فِي دَمٍ وَلاَ مَالٍ)(2)

وقال ﷺ :(إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ

1() رواه أحمد.

2() رواه الترمذي وقال حسن صحيح، ورواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

مَغْرِبِهَا)(1)
وقـال لأصـحابه حِينَ نَـامُوا عَنِ الصَّـلاَةِ:(إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ أَرْوَاحَكُمْ حِينَ شَاءَ، وَرَدَّهَا حِينَ شَاءَ)(2)
وقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَـا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ)(3)
قلت: ما يعني كل هذا؟
قال: يعني أن ربي ورب الخلق جميعا هـو المتفـرد بكـل تـدبير يحصـل في الكـون.. فهـو الـذي يقبض الأرواح عن الأشـباح عنـد الممات.. وهو الذي يبسط الأرواح في الأجساد عنـد الحيـاة.. وهـو الـذي يقبض الصـدقات من الأغنيـاء.. وهـو الـذي يبسـط الأرزاق للضعفاء.. وهو الذي يبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يبقي فاقة.. وهو الذي يقبضه عن الفقراء حتى لا يبقي طاقة.. وهو الذي يقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لهـا من قلـة مبالاتـه وتعاليـه وجلالـه.. وهو الذي يبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله.
وهو الذي يخفض الكفار بالإشقاء.. وهـو الـذي يرفـع المؤمـنين بالإسعاد.. وهو الـذي يرفـع أوليـاءه بـالتقريب.. وهـو الـذي يخفض أعداءه بالإبعاد.
وهو الذي يؤتي الملك من يشاء.. وهو الذي يسلبه ممن يشاء..

البر، الوهاب، الكريم:

قلت: إن تفرد ربك بكل هذا عظيم.. وهو يملؤني بالسلام.. فما غيره؟
قال: إن ربي هو **البر، الوهاب، الكـريم**.. قـال تعـالى : إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ(الطـور: 28)، وقـال: وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (النمل: 40)، وقال: وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَـةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (آل عمـران: 8)، وقال : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ (النحل:53)
قلت: ما يعني هذا؟
قال: إن ربي هـو الـبر الوهـاب الكـريم الـذي شـمل الكائنـات بأسرها ببره، وهباته، وكرمه، فهو مولى الجميـل، ودائم الإحسـان، وواسـع المـواهب.. وصـفه الـبر.. وآثـار هـذا الوصـف جميـع النعم الظاهرة، والباطنة، فلا يستغني مخلـوق عن إحسـانه وبـره طرفـة

1()رواه مسلم.
2()رواه البخاري.
3()رواه مسلم.

عين.

الرحمن الرحيم:

قلت: إن هذا حسن.. وهو يملؤني بالأمل.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الرحمن الرحيم الذي وسع كل شيء رحمة وعلما.. قال تعالى :﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ (غافر:7)، وقال :﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْء ﴾ (الأعراف:156)

وقد وردا مقترنين في مواضع من القرآن الكريم للدلالة على سعة الرحمة وشمولها، كما قال تعالى:﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: 1)، وقال تعالى:﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة:3)، وقال تعالى:﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ الـرَّحْمَنُ الـرَّحِيمُ﴾ (البقرة:163)، وقال تعالى:﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (فصلت: 2)

بل إن الله تعالى جعل اسم الرحمن علما على الذات الإلهية المقدسة، قال تعالى:﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الاسراء: من الآية110)، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (طه:90)

ومما يدل على دلالته أن الله تعالى نسب الملك للفظ الجلالة الدال عل الذات، كما قال تعالى:﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الحج: 56) ونسبه إلى الرحمن، كما قال تعالى:﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً﴾ (الفرقان: 26)، وقال تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه:109)، وقال تعالى:﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ (النبأ: 38)

ولهذا ترد نسبة العباد إلى الرحمن سواء من البشر، كما قال تعالى:﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ (الفرقان: 63)، أو من الملائكة، كما قال تعالى:﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ﴾ (الزخرف:19)

ودلالته على الذات تعني شموليته لكل شيء، فكل شيء قائم بالله، ولهذا يربط القرآن الكريم كل المظاهر برحمانية الله سواء ما كان منها من باب الرحمة الخالصة، كقوله تعالى:﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ (مريم: 61)

أو من باب الرحمة الممزوجة بالآلام على حسب ما تقتضيه الأسماء الحسنى والحكمة الإلهية، كما قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ (مريم: 45)

فقد ذكر إبراهيم عليه السلام الرحمن، ولم يقل الجبار ولا القهار، للدلالة على أن العذاب لا يتنافى مع الرحمة الإلهية، كما لا يتنافى الكي أو الحقنة أو الدواء المر إذا وضعت في مواضعها التي تقتضيها حكمة الجسم مع رحمة الطبيب.

ولذلك قال تعالى: ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ﴾ (يس:23)، فقد نسب إرادة الضر إلى الرحمن ليدل على أن هذا الضرر في حقيقته رحمة، اقتضاه التدبير الإلهي.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً﴾ (مريم: 69)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾ (مريم: 75)

وقد وردت النصوص الكثيرة التي تقرب لنا حقيقة هذه الصفات العظيمة.. ففي الحديث أن رسول الله ﷺ رأى امرأة تبحث عن ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليه وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ:(أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه؟)، قالوا:(لا يا رسول الله)، قال:(فوالله، لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها) (1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن هذه الرحمة التي وقفتها هذه الأم ليست سوى تجل من تجليات رحمة الله، قال ﷺ:(جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) (2)

وقد أخبر القرآن الكريم أن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:5)، وفي ذلك إشارة إلى أن مملكة هذا الكون الواسعة مبنية على أساس الرحمة الإلهية ومنتهية إليها.

1() رواه البخاري.

2() رواه البخاري ومسلم.

فالله تعالى في تلك الآية الكريمة لم يختر من أسمائه إلا هذا الاسم الجليل الذي يجمع بين الدلالة على منتهى الرحمة وكمالها والعلمية على الذات ليدل على هذا المعنى، فإنه إذا قيل:(حكم الملك الشجاع) دل ذلك على ان أكبر منجزات هذا الملك مؤسسة على شجاعته، وإن قيل:(حكم الملك العادل) دل ذلك على أن أبرز ما يظهر في مملكته هو عدله، وهكذا.

الودود:

قلت: إن هذا لجميل يدل عليه كل شيء.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو **الودود**.. قال تعالى :﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ (البروج:14-15)، وقال:﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (هود:90)، وقال :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)﴾ (مريم)، وقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54)﴾ (المائدة)

ويحكي رسول الله ﷺ عن ربه قوله لعباده:(إذا تقرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة) (1)، وقوله:(يا ابن آدم قم إلي أمش إليك وامش إلي أهرول إليك) (2)

وفي الأثر الإلهي يقول الله تعالى:(إني والجن والإنس في نبإ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي)(3)

وفي أثر آخر:(ابن آدم، ما أنصفتني، خيري إليك نازل، وشرك إلي صاعد، أتحبب إليك بالنعم وأنا عنك غني، وتتبغض إلي بالمعاصي، وأنت فقير إلي)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم ما من يوم جديد إلا يأتيك من عندي رزق جديد، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح، تأكل رزقي وتعصيني، وتدعوني فأستجيب لك، وتسألني فأعطيك، وأنا أدعوك إلى جنتي فتأبى ذلك)

وفي أثر آخر:(يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقرابة الأرض -

---

1() رواه البخاري.
2() رواه أحمد.
3() رواه الحكيم والبيهقي.

بضم القاف ويجوز كسـرها أي قـريب ملئهـا - خطايـا ثم لقيتـني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) (1)

قلت: إن هذا جميل.. ولكن ألا ترى فيـه تشـجيعا للعصـاة على معاصيهم؟

قـال: لا.. إن اللـه تعـالى هـو الـذي وصـف نفسـه بـذلك، ومن الخطر أن نصف الله تعالى بغير ما وصف به نفسه..

فالله تعالى يخاطب المسـرفين على أنفسـهم بـألوان الـذنوب قائلا: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)، فالله تعالى عرف نفسـه لهـؤلاء المسـرفين بكونـه غفـورا رحيمـا، ومن الخطأ أن نعرفهم لهم بغير ما عرفهم به.

بل إن هذا التعريف هو الذي يحـرك القلـوب للسـير نحـو اللـه، ويكبح الغرائـز عن معارضـة الـرحيم الـودود، وقـد روي أن عليـاً الأسدي حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامة فامتنع، ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبـاً، وسـبب توبتـه أنـه سـمع رجلاً يقـرأ هـذه الآيـة: ﴿ قُـلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:53)، فوقف عليه، فقال:(يا عبد اللـه أعـد قراءتها فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً.

ويـروى من هـذا أن مجوسـياً استضـاف إبـراهيم الخليـل ﷺ، فقال: إن أسلمت أضفتك؛ فمرّ المجوسي، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغيـير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمـه على كفره، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليـك؛ فمـر إبـراهيم يسـعى خلف المجوسي فرده وأضـافه؛ فقـال لـه المجوسـي: مـا السـبب فيما بدا لك؟ فذكر له؛ فقال له المجوسي: أهكذا يعاملني ثم قال: اعرض علي الإسلام فأسلم.

فهذه المعرفة بالله جعلت الأول يستهين بكل صعب في سـبيل الله، ولذلك قال الغزالي:(اعلم أن العمل على الرجـاء أعلى منـه على الخوف، لأن أقـرب العبـاد إلى اللـه تعـالى أحبهم لـه، والحب يغلب الرجاء، واعتبر ذلـك بملكين يخـدم أحـدهما خوفـاً من عقابـه والآخر رجاء لثوابه) (2)

ولما يتضمنه القنوط من رحمة الله من مساوئ في الاعتقاد أو

1() رواه الترمذي.
2() الإحياء.

السلوك ورد النصوص بتحريمه، كما قال تعالى في الآية السابقة: لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)(الزمر: من الآية53)، فحرم أصل اليأس.

بل اعتبر اليأس من روح الله من صفات الكافرين، كما قال تعالى: إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (يوسف: من الآية87)

وأخبر تعالى أن كفر الكافرين وضلالهم ناتج عن سوء ظنهم بربهم، كما قال تعالى: وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (فصلت:23)، وقال تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (الفتح:12)

وذلك لأن استشعار رحمة الله يحبب في لقاء الله، بخلاف اليأس من رحمته، فإن الإنسان يكره لقاء من لا يحبه، قال ﷺ: (إن شئتم أنبأتكم: ما أول ما يقول الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة وما أول ما يقولون له؟ قلنا: نعم يا رسول الله. قال: إن الله تعالى يقول للمؤمنين هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم يا ربنا. فيقول: لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك، فيقول: قد وجبت لكم مغفرتي) (1)

ولهذا ورد الأمر بحسن الظن بالله خاصة في موقف الاحتضار، وقد سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول:(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) (2)

ودخل ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال ﷺ:(لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف) (3)

وقد أخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن بالله ــ والذي يعتمد على معرفة رحمة الله الواسعة ـ سواء في السلوك أو في تنزل فضل الله عليه:

فقال عن تأثيره السلوكي:(حسن الظن من حسن العبادة) (4)، وقال ﷺ:(إن أفضل العبادات حسن الظن بالله تعالى، يقول الله لعباده أنا عند ظنك بي) (5)

1() رواه أحمد الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.
2() رواه أحمد ومسلم.
3() رواه الترمذي، وقال: غريب.
4() رواه أبو داود والحاكم.
5() رواه البغوي.

وقال عن تأثيره في تنزل فضل الله عليه:(قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني) (1)، وقال ﷺ:(قال الله جل وعلا: أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرا فله، وإن ظن شرا فله) (2)

وأخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن بالله في الآخرة بقوله:(أمر الله تعالى بعبد إلى النار فلما وقف على شفيرها التفت فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك لحسنا، فقال الله تعالى ردوه، أنا عند ظن عبدي بي) (3)

ويروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة، قال: فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه، فيقول: يا رب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته عليَّ في عليين، فيقول الله سبحانه: إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار، فأعطيت كل عبد سؤله.

وسر هذا أن القانط من رحمة الله يعتقد في الله ما لا يليق به مما ينزه عنه، بينما من أحسن ظنه بالله، وإن قصر في سلوكه، فإن ذلك التقصير لم يؤثر في حسن معرفته بربه، ولذلك قال علي لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه:(يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك)

ولهذا ورد الأمر بتحبيب الله إلى عباده، وذلك لا يكون إلا بذكرفضله ورحمته، وقد أوحي الله تعالى إلى داود عليه السلام:(أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي)، فقال:(يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟)، قال:(اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل)

ويروى أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم، فيقول الله تعالى يوم القيامة له:(اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها)

العفو، التواب، الغفور:

قلت: إن ما تذكره جميل.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو العفو التواب الغفور.. قال تعالى :﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الفرقان:71)، وقال :﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الحجر:49)، وقال :

1() رواه البخاري.
2() رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.
3() رواه البيهقي.

 وَإِنَّ رَبَّكَ لَـــذُو مَغْفِـــرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَـــدِيدُ العِقَابِ (الرعد:6)، وقال : وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ (الكهـف: 58)

وقال ﷺ :(قَالَ الله : يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَـا كَـانَ فِيـكَ وَلاَ أُبَـالِي، يَـا ابْنَ آدَمَ لَـوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُـكَ عَنَـانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَـا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَـوْ أَتَيْتَنِي بِقُـرَابِ الأَرْضِ خَطَايَـا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْـرِكُ بِي شَـيْئًا لأَتَيْتُـكَ بِقُرَابِهَـا مَغْفِرَةً)(1)

وقال:(لله أفرح بتوبة العبـد من رجـل نـزل مـنزلا وبـه مهلكـة ومعـه راحلتـه، عليهـا طعامـه وشـرابه، فوضـع رأسـه فنـام نومـة فاستيقظ، وقـد ذهبت راحلتـه، فطلبهـا حـتى إذا اشـتد عليـه الحـر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أمـوت فرجع فنـام نومـة، ثم رفـع رأسـه فـإذا راحلتـه عنـده، عليهـا زاده وطعامه وشرابه، فاللـه أشـد فرحـا بتوبـة العبـد المـؤمن من هـذا براحلته وزاده) (2)

الحَفيظُ:

قلت: إن ما تذكره جميل يملؤنا بالأمل والقوة.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الحفيظ الذي يحفظ كل شيء. قال تعالى : وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (سبأ:21)، وقال: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (الشـورى:6)، وقال على لسان هود: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِـلْتُ بِـهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ حَفِيظٌ هود:57)

الجليل، الجميل:

قلت: إن ما تذكره جميل يملؤنـا بالطمأنينـة والاسـتقرار.. فمـا غيره؟

قـال: إن ربي هـو الجليـل الجميـل، قـال ﷺ :(إِنَّ اللـهَ جَمِيـلٌ يُحِبُّ الجَمَال)(3) .. فلا شيء أكمل من اللـه، ولا شـيء أجمـل من اللـه.. فكـل كمـال وجمـال في المخلـوق من آثـار صـنعته وكمـال قدرته وبديع حكمته.. فلا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، له الفضل كلـه على خلقـه، ولـه النعمـة السـابغة والحجـة البالغـة، والسطوة الدامغة، ليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه، بل

1() رواه الترمذي.
2() رواه البخاري ومسلم.
3()رواه مسلم.

أفعالـه كلهـا لا تخـرج عن المصـلحة والحكمـة والفضـل والرحمـة، كلامه صدق، ووعده حق، وعدله ظاهر في سائر الخلق، إن أعطى فبفضـله ورحمتـه، وكرمـه ونعمتـه، وإن منـع أو عـاقب فبعدلـه وحكمته.

العليم، الخبير، اللطيف:

قلت: إن هذا جميل يملأ القلب محبة وتعظيما.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو العليم الخبير اللطيف الذي أحاط بكـل شـيء علما.. قال تعالى :﴿ وَعِنْدَهُ مَفَـاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَـا إِلا هُـوَ وَيَعْلَمُ مَـا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلا يَعْلَمُهَـا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَـاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَـابِسٍ إِلا فِي كِتَـابٍ مُبِينٍ وَهُـوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَـمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:59-60)، وقال :﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَـا تَحْمِـلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَـالُوا آذَنَّاكَ مَـا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (فصلت:47)، وقـال :﴿ لَكِن اللـه يَشْـهَدُ بِمَـا أَنْـزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَه شَـهِيداً﴾ (النسـاء: 166)، وقال :﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ (الأنعام:13)، وقال :﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَيْـلَ سَـكَناً وَالشَّـمْسَ وَالقَمَرَ حُسْـبَاناً ذَلِـكَ تَقْـدِيرُ العَزِيـزِ العَلِيمِ﴾ (الأنعـام:96)، وقـال :﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُـوَ العَلِيمُ القَـدِيرُ﴾ (الـروم:54)، وقـال :﴿ وَهُـوَ الــذِي فِي السَّــمَاءِ إِلَــهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَــهٌ وَهُــوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ﴾ (الزخـرف:84)، وقـال :﴿ أَوَلَيْسَ الـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَــادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُــقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُــوَ الخَلاقُ العَلِيمُ﴾ (يّس:81)، وقال :﴿ قُل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَـا بِـالحَقِّ وَهُـوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ﴾ (سبأ:26)

وقال في بيان سـعة علمـه:﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُـهُ قَـالَ أَتُحَـاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَـيْئاً وَسِـعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام:80)، وقال تعالى:﴿ قَـدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُـدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْـدَ إِذْ نَجَّانَـا اللَّهُ مِنْهَـا وَمَـا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَـيْءٍ عِلْمـاً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَـاتِحِينَ﴾ (لأعـراف:89)، وقـال تعـالى:﴿ إِنَّمَـا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (طـه: 98)

السميع البصير:

قلت: إن هذا جميل يملأ القلب محبة وتعظيما.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو السميع الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فيسمع السر والنجوى، بل ما هو أدق من ذلك وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. يسمع حمد الحامدين فيجازيهم.. ويسمع دعاء الداعين فيستجيب لهم.. يسمع بغير أصمخة وآذان كما يفعل بغير جارحة ويتكلم بغير لسان وسمعه منزه عن أن يتطرق إليه الحدثان.. قال تعالى :﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ (البقرة:127)، وقال :﴿ إِذْ قَالتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّل مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ (آل عمران:35)، وقال عن دعاء زكريا : ﴿ قَال رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (آل عمران:38)

وقال رسول الله ﷺ :(وَإِذَا قَالَ : سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ فَقُولُوا : اللهمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، يَسْمَعِ اللـه لَكُمْ ؛ فَإِنَّ اللـه تَعَالَى قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ : سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ)(1)

وهو البصير الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان، ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان، فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان.

قال تعالى عن موسى عليه السلام :﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ (طه:25-35)، وقال على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (غافر:41/44)، وقال :﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾ (التوبة)

1()رواه مسلم.

الحكيم:

قلت: إن هذا عظيم يملأ القلب مهابة.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الحكيم.. قال تعالى :﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:32)، وقال على لسان نبيه إبراهيم ﷺ :﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:129)، وقال:﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام:18)، وقال:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:83)، وقال:﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة:269)

الحكم، العدل:

قلت: إن هذا عظيم.. فما غيره؟

قال: إن ربي حكم عدل.. فهو الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه فلايظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه.. وهو العدل في تدبيره، وتقديره :﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(هود: 56)

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا

فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ) (1)

الرزاق:

قلت: إن هذا عظيم.. فما غيره؟

قال: إن ربي هو الرزاق الذي رزق كل شيء.. قال تعالى : ﴿ أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (النمل: 26)، وقال:﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (الذريات:22)، وقال:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (العنكبوت:60)، وقال:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) (هود:6)

فالرزاق هو الذي يتولى تنفيذ الأرزاق لحظة بلحظة.. رزق الخلائق عليه فليس لهم اعتماد في الرزق إلا عليه، ضمن رزقهم وسيؤديه كما وعد، ودورهم فقط أن يعبدوه ولا يشركوا به أحدا، قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذَّاريات:57)، وقال:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرا) (الطلاق:3)، وقال:﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الشورى:12)

***

ما إن وصل محمد من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا صوتا يصرخ في البرية بأن أمة محمد مهددة بحرب داخلية مدمرة.. فما إن سمع محمد ذلك حتى تغير وجهه.. ثم قام مسرعا، وهو يصيح: لبيك ربي.. لبيك ربي.

تعجبت من قوله هذا.. فسألت بعض من مر بنا عنه.. فأخبروني بأنه رحل إلى هذه البلاد..

مكثت مدة أحاول أن أتسلى عن صحبته لكني لم أطق.. لقد صارت ذكراه ذكرا لربه.. لقد أشعل في قلبي من نيران الأشواق ما كامنا.. وقد جاءت بي الأشواق إلى هذه البلاد.. وها أنتم ترون ما حصل لنا.

وأنا لا آسف على شيء في حياتي كما آسف على فراقه..

1() رواه مسلم.

الهداية

بعد أن انتهت الأيام العشرة، وانتهت أحاديث أصحابي العشرة، وفي الليلـة الـتي ينفـذ في صـباحها حكم إعـدامنا حصـلت أشـياء عجيبة.. سأقصها عليك باختصار:

لقد كان في حراستنا في ذلك الغار رجل صلب شـديد، لم نكن نعرف منه إلا الطعام البسيط الـذي كـان يحضـره لنـا في الصـباح والمساء.. وكان بينهما، وفي الوقت الذي نشتغل فيه بمـا قصصـته لك من الأحاديث يتصنت علينا باهتمام كبير، وكـان أحيانـا يهـتز لمـا يسمع، وكأننا نخاطبه به.

هذا الرجل الـذي لم نتشـرف بمعرفـة اسـمه، كـان هـو سـبب نجاتنا..

في تلك الليلة.. جاءنـا متخفيـا ملثمـا كعادتـه، ثم طلب منـا أن نسير خلفـه، وأن لا ننحـرف نحـو أي جهـة، كـل ذلـك وهـو مشـهر سلاحه نحونا.

ظننا في البـدء أن حكم الإعـدام سـينفذ علينـا في تلـك الليلـة، فسرنا، وقد ملأتنا مشاعر من وقف بين الموت والحياة..

في تلك اللحظات كدت أصيح من كل قلـبي، وبكـل مشـاعري (لا إله إلا الله محمد رسول الله).. ولكن جبـالا من الحديـد والزنـك والرصاص وقفت في حنجرتي، ومنعتني من أن أنطـق بمـا ظللت طول عمري أحلم بأن أنطق به.

سـرنا خلـف الحـارس.. وقـد تعجبنـا إذ أنـه سـلك بنـا مسـالك كثيرة.. كل ذلك، وهو يشهر سلاحه في وجوهنا، ويصـيح فينـا بكـل قوة بأن نسرع..

بعـد مسـيرة أكـثر من سـاعتين وجـدنا مغـارة لا تختلـف عن المغارة التي كنا فيه، فأشار إلينـا أن نـدخل إليهـا، فـدخلنا.. بعـدها نظر فيما حوله، ثم دخل خلفنا، وأمـاط اللثـام عن وجهـه، فـإذا بـه وجه لا يختلف عن وجوه قومنا لولا تلك اللحية الطويلـة الـتي تمـيز بها الكل في تلك الجبال.

ثم نطق بلغة إنجليزية فصيحة.. وكأنه من غير تلك البلاد، وقـال لنا: اسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي.

قال أحدنا ـ مقاطعا له ـ : لا شك أنك من المخابرات الـ (..؟).. ولا شك أن قومنا قد أرسلوك لإنقاذنا.

قال الرجل: أما الأول.. فقد أصـبت فيـه.. فأنـا من المخـابرات التي ذكـرت.. بـل أنـا ذو منصـب مهم في تلـك المخـابرات.. وأمـا

الثاني، فقد أخطأت فيه.
تعجبنا من جوابه هذا، وقلنا: فما الذي جعلك تخرج من ذلك المحل؟
قال: نعم أنا أردت أن أنقذكم.. لكن لا تنفيذا لما طلبت من المخابرات.. بل تنفيذ لما طلبه مني قلبي وعقلي وروحي، وربي بعد ذلك كله وقبله..
قلنا: فأنت مسيحي متدين إذن.. لهذا جئت لتنقذنا؟
قال: قبل ساعات كنت مسيحيا.. لكني الآن.. والآن فقط أصرح بأعظم شهادة كتب الله لي أن أشهدها.
قلنا: أي شهادة؟
قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله.
قلنا: أأسلمت؟
قال: إن أحاديثكم التي تحدثتم بها هي التي جعلتني أسلم.
قلنا: كيف تسلم، وأنت ترى من المسلمين ما ترى.. إن حكم الإعدام كان سينفذ فينا هذا الصباح لولا أن أرسلك الله لنا؟
نظر إلى خارج المغارة، وكأنه يتهيب مما سيذكره، ثم قال: أتدرون من كان سينفذ فيكم حكم الإعدام؟
قلنا بصوت واحد: أولئك المسلمون.
قال: نعم.. أولئك المسلمون.. ولكن بوحي ممن؟
قلنا: بوحي من نفوسهم التي امتلأت بالصراع.
قال: النفوس وحدها لا تكفي لصناعة الشر.. كل شر يحتاج إلى ركنين: النفس والشيطان..
قلنا: نعرف الشيطان.. ولكنا لا نستطيع أن ننسب الأمر إليه.. فالشيطان غيب لا شهادة.
قال: لا أقصد شيطان الغيب.. بل أقصد شيطان الشهادة.
قلنا: وهل في الشهادة شياطين؟
قال: أنتم أدرى مني بهم.
قلنا: فمن هؤلاء الشياطين الذين أوحوا للمسلمين ما أوحوا؟
سقطت دموع حارة من عينيه، وقال: لقد كنت قبل ساعة أحدهم.
قلنا: أنت؟
قال: أجل.. ألم أذكر لكم أني من مخابرات (...؟)؟
قلنا: لا نعرف المخابرات إلا أنها الجهة التي تتنصت للأحداث لتتعرف من خلالها على صانعي الأحداث.

قال: أخطر المخابرات هي الجهة التي تصنع الأحداث.
قلنا: لم نفهم.
قال: لاشك أنكم لن تفهموا.. فمثل هـذه الأسـرار لا يعرفهـا إلا من وصل إلى الدرجات العليا في سلم المراتب الشيطانية.
قلنا: فقد كان لك حظ من هذه المراتب إذن.
قال: أجل.. ولذلك انتدبت مع أفراد كثيرين لهذه الرسالة..
قلنا: أي رسالة؟
أخرج كاميرا متطورة من جيبه، وقال: إن كـل مـا مـر بكم من أحداث مسجل هنا.
قلت: أسجلت كلامنا؟
قـال: لا.. سـجلت كـل مـا حصـل معكم من خطـف وعنـف ومحاكمة.
قلنا: لم؟
قال: لنشوه الشمس الـتي لا يمكن لأحـد في الـدنيا أن يطمـع في تشويهها.. لقد أرسلني قومي.. لأسجل كـل مـا يحصـل.. حـتى ساعة الإعدام نفسها.. ليعرض ذلك كلـه على العـالم كلـه.. لتمتلئ قلوب العالم أحقادا على محمد ودين محمد.
قلنا: أهان على قومنا أن تراق دمائنا في سبيل هذا؟
قــال: إنهم يريــدون أن يحولــوكم إلى قديســين.. ثم يحولــوا بعدكم، وبسببكم، هذه الأرض إلى أطلال.
قلنا: لكن كيف استطعت أن تقنع أولئك الغلاظ بأنك أحدهم؟
قال: وهل يصعب على الراعي الخبير أن يقتاد قطيع ماشيته.
قلنا: ولكن الراعي منهم.. أفلم يكن له من العقل ما يمـيز بـه الماشية من الذئاب.
قال: بل الراعي منا.. إن القائد الأعلى لكل المجموعـات الـتي ترونها في هذه الجبال منا وبنا.. إنـه على وجـه التحديـد المسـؤول الأكبر الذي لست سوى ضابط من ضباط كتيبته.
قلنا: فهو الذي أرسلك إذن.
قال: أجل.. لقـد أرسـلني لـذلك القطيـع.. بعـد أن أمـرهم بـأن ينفذوا كل ما أطلبه.
قلنا: ولكنك خرجت بنا خائفـا.. كـان في إمكانـك أن تخـرج بنـا ونحن في غاية الأمن.
قـال: أنت لا تعـرف القائـد الكبـير.. إنـه لا يثـق في أحـد من الناس.. فلذلك ينصب على كل خبير من المخـبرين مـا يضـمن بـه

نجاح جميع مخططاته.. إنه لا يحب الفشل، ولا يرضى به.
قلنا: فسيعلم القائد الكبير بفرارنا إذن.
قال: أجل.. ولذلك جمعتكم هنا لأخبركم بهذا.
قلنا: فسيكافئونك على إنقاذك لنا إذن.
قال: سيكافئونني بالقتل.. سيقتلونني قبل أن يسمع بي أحد من الناس.. ثم يرتبوا سيناريو خاصا لينفذوا به خططهم.
قلنا: لم نفهم.
قال: في البدء كانت خطتهم.. والتي وكلت مع بعض الناس لتنفيذها.. أن تعدموا.. ثم تنشر صور إعدامكم إلى العالم أجمع.. ليصبح كل واحد منكم قديسا ومسيحا.. ثم يرمى على المسلمين الذين صلبوكم من اللعنات ما رمي على اليهود.
قلنا: لقد أفشلت هذه الخطة.. فما الخطة الأخرى؟
قال: سيقتلونني.. ثم يزعمون أنهم استطاعوا بقوتهم وحيلتهم إنقاذكم.. وهنا أيضا سيظفرون بكل أنواع الإكبار.. ولكن مع ذلك دون ما كانوا يطلبون.
قلنا: فما الذي دعاك إلى هذه التضحية؟
قال: ما سمعته منكم هو الذي دعاني إلى هذا.. أنا الإنسان الذي بلي بكل ما ابتليتم به.. ولم أجد منقذا، فهرعت إلى الصراع أبحث فيه عن المنقذ.. وقد دلني ما حدثتموني به عن المنقذ.
قلنا: ولكنك ستموت.
قال: لا يهمني أن أموت بعد أن عرفت المنقذ.. إنني سأموت مطمئنا بعد أن وضعت رجلي في الطريق الصحيح الذي تبدأ به ولادتي الثانية.
قلنا: ألا يمكن أن تفر بنفسك وتدعنا.. فلعل الله أن يقدر لك النجاة؟
قال: ليت ذلك كان ممكنا.. لا يمكن أن يخرج أحد من هذه الجبال إلا من كان له من الخبرة ما ظللنا طول عمرنا نتدرب عليه.
قلنا: فلم لا ترجع إلى أصحابك بعد أن تنقذنا، ثم تخبرهم بفرارنا.. وأنك ظللت تلاحقنا.
قال: أنتم لا تعلمون قانون هذه الوظيفة.. إن هذه الوظيفة لا تطلب من المخطئ أن يعتذر، وإنما تطلب منه أن يقدم رأسه.
قلنا: يعز علينا أن تموت بسببنا.
قال: ويعز علي أن أترك من كان سببا في حياتي يذوق الموت

قبل أن يضع رجله في بلاد السلام التي وضعت رجلي فيها.
قال لنا ذلـك.. ثم أعطانـا خطـة الفـرار.. فسـرنا خلفـه نقطـع المسالك والمهالك إلى أن وصلنا إلى أرض عراء كـانت قريبـة من قاعدة من قواعد البلاد التي تنشر الصراع، وتحشـر أنفهـا في كـل شيء.
هناك.. قال لنا: اذهبوا الآن.. فلن تتعرضوا هنا لأي سوء..
فجأة.. رأينا جنودا كثيرين.. لسنا ندري هـل كـانوا من الإنس أم من الجن.. أحاطوا بنا، ثم طلبوا منا أن نرفع أيدينا.. ففعلنا.
تقدم قائدهم منا، وسألنا عنا، فأخبرنـاه، فقـال: من المفـروض أن تكونوا هذه الساعة في تلـك المغـارة، وأن ينفـذ فيكم الإعـدام في الصباح، فكيف جئتم؟
قلنا: لقد أنقذنا هذا الضابط الباسل.
اقترب منه، ثم نظر إليه مليا والحقد يبدو على عينيه، وقـال لـه بصـوت أقـرب إلى الهمس منـه إلى الجهـر: مـا الـذي فعلتـه أيهـا المجنون؟.. لقد أحبطت كل شيء..
قال ذلك، ثم أشار إلى بعض الجنـود إشـارة خفيـة بـأن يطلـق عليه النار، ففعل، فصحنا: إن هذا هو الذي أنقذنا، فكيف تقتلونه؟
لم يلتفت إلينا.. بل أخذنا إلى داخل القاعدة، وهناك التقينا بمن عرفنا ماذا نفعل، وما ينبغي قوله، وأخبرنا في نفس الوقت بأن أي تجاوز منا لما طلب منا لن يعرضنا إلا للموت.
عندما صحنا: إن ما تفعلونه جريمة، قالوا لنا: إن الأمن القـومي يقتضي هذا.. وليس في الحرب أخلاق.. فإما أن تتعهدوا أمامنا بمـا طلبنا، وإما أن تقدموا رؤوسكم لمن يحصدها.
لم نجد إلا أن نخضع لهم..
في ذلـك المسـاء.. رأينـا على شاشـات التلفزيـون مشـاهد البطولة التي تم بها إنقاذنا من بين أسنان أكلة لحوم البشر.. ورأينا في نفس الوقت كيف يكرم ذلك القائد الذي أهاننا والذي قتـل من أنقذنا.
ورأينا بعد أيام جحافل الطائرات، وهي تدك تلك المغـارة، ومن كان يسكن تلك المغارة.

***

قلت: فما فعل أصحابك؟
قال: لقد قدر الله لي أن أزورهم جميعا.
قلت: فحدثني حديثهم.

قال: عمن تريد أن أحدثك؟
قلت: حدثني عن أولهم.. ذلك الذي راح يبحث عن (الأنا)
قال: لقد وجدته مع أستاذه وصديقه الذي جعله الله سببا لهدايته.. وجدتهما معا في مرعى من المراعي الطاهرة.. كانا يتناجيان، وتشرق بتناجيهما الشموس، وتتفتح الأزهار، وتقبل الأغنام على مرعاها الخصيب.
قلنا: فهل تحدثت إليهما؟
قال: لقد اقتربت منهما، لأتحدث إليهما، لكني سمعتهما يتحدثان عن معان راقية وحقائق عالية ومواجيد رفيعة، فلم أشأ أن أقطع حديثهما.. اكتفيت بالسماع.. ثم اكتفيت بالانصراف، وأنا أحمل في قلبي غبطة عظيمة لذلك الذي استطاع أن يقهر جميع ما لقنه أساتذته، ويقهر جميع ذلك الجاه الذي تمتلئ به قاعات المحاضرات.. ثم يرضى بتلك المراعي.. وبصحبة ذلك الراعي.
قلت: حدثني عن ثانيهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (القلب)
قال: وجدته مع صديقه سمنون المحب.. وجدتهما يتحدثان في عوالم من الجمال لم يطق عقلي أن يفهمها.
قلت: حدثني عن ثالثهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (العقل)
قال: وجدته مع صديقه المدرسي.. وجدتهما يتحدثان في مدارك العقول.. وعلى حقائق كان لها من قوة الدليل وعظمة الحجة ما كان عقلي معقولا عن إدراكه.
قلت: حدثني عن رابعهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (النفس) وأسرار تهذيبها وترقيتها.
قال: وجدته مع صديقه المحاسبي.. وجدتهما يتحدثان في عوالم التطهير والترقي التي كنت قد حدثتك عن بعضها.. وسأحدثك عن الباقي في باقي رحلتي.
قلت: حدثني عن خامسهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (الأسرة)
قال: لقد التقيت به.. وقد رأيته كون أسرة صالحة ممتلئة بعطر الإيمان.
قلت: حدثني عن سادسهم.. ذلك الذي راح يبحث عن سلام (المجتمع)
قال: لقد التقيت به.. وقد رأيته يسعى مع إخوانه لتكوين

المجتمع الصالح بالمواصفات التي وضعها الإسلام.
قلت: حـدثني عن سـابعهم.. ذلـك الـذي راح يبحث عن سـلام (العالم)
قال: لقد التقيت بـه.. وقـد شـهدت في الأخـير تلـك اللحظـات الأليمة التي قتل فيها.
قلت: من قتله؟ ولم قتله؟
قال: لقد أفشى بعض الأسـرار الـتي نهينـا أن ننشـرها.. فقـدم دمه قربانا لها.
قلت: أتلك التي ذكرتها لي من قصة إنقاذكم؟
قال: لا.. لقد رأى صاحبي ما هو أخطر من ذلك.. لقد ذكره لي عند زيارتي له.
قلت: وما رأى؟
قال: في تلك القاعـدة شـد انتباهنـا صـورة لجبـال ومغـارات لا تختلف عن الجبال والمغارات التي كنا فيها..
قلت: وما سرها؟
قال: لقد بحث صاحبي هذا عن سرها، وكانت معرفتـه لسـرها سبب قتله.
قلت: فقد ذكر لك هذا السر؟
قال: أجل.. لقد رأى صـاحبي رجلا ذا لحيـة طويلـة يـتردد على تلك القاعدة ليرسـل كـل الحين من البيانـات السـرية مـا تتنـافس جميع أجهزة الإعلام على نشره.
قلت: أتقصد..!؟
قال: أجل..
قلت: لقد كنا ضحايا مؤامرة محكمة إذن؟
قال: ولا زلتم.. ولا زلتم.
قلت: فحدثني عن تاسعهم (الأمازوني) ذلك الذي عشق أكوان الله.
قـال: لقـد شـاء اللـه أن أذهب إلى غابـة الأمـازون.. وهنـاك التقيت به مع صاحبه.. ومعهما نفـر كثـير من النـاس.. وقـد رأيتهم يزمعون على تأسـيس جمعيـة كبـيرة تضـم أهـل السـلام من أهـل الملل والنحل ليحفظوا للأرض سلامها وحياتهـا.. ويحفظـوا لأكـوان الله ما أودعها الله من أسرار إبداعه وقدرته.
قلت: فحدثني عن عاشرهم.. ذلك الذي راح يبحث عن الله.
قال: لقد وجدته في صـحبة اللـه.. ممتلئـا بـأنوار من الإيمـان..

ملأته سكينة وسلاما.
قلت: فما أخبار الفتنة التي أرادت أن تستأصل المسلمين؟
قال: لقد أطفأ الله ظلماتها بنور الحكمة.
قلت: كيف كان ذلك؟
قال: لـذلك حكايـة طويلـة.. ستسـمعها من أهلهـا.. فلم أكلـف بحكاية حكايتها لك.

هذا الكتاب

تتناول هذه الرواية أعقد مشكلة في الواقع بكل جوانبه النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.. وهي مشكلة الصراع الذي تنفخ فيه جميع شياطين الإنس والجن، ليعيش الإنسان محجوبا عن ربه، وعن عوالم الجمال التي خلقها له ربه.

وهي - كما تصف الواقع بمرارته وآلامه - تحاول أن تضع بين يدي القارئ أنوار السلام الجميل التي أنقذ الله بها عباده عبر رسله الكرام، وأولياءه العظام.

فهي تصف – بحيادية تامة- واقع الصراع بآلامه وهمومه وأحزانه.. كما تصف واقع السلام بكل آماله وأفراحه وسعادته.

والسلام الذي تصفه هذه الرواية هو المنطلق من الدين الإلهي الحقيقي.. لا الدين البشري المزيف الذي تفننت الشياطين في صناعته، وحاولت أن تخلطه بدين الله..